

مجموعة مقالات المؤتمر العالمي

لسبط النبي، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مجموعة
مقالات المؤتمر العالمي

لسبط النبي، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

مجموعة من الباحثين

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

سرشناسه	: المؤتمر العالمی لسبط النبی، الامام الحسن المجتبی(ع) (١٤٣٥ ق. = ١٣٩٣ : تهران)
عنوان و پدید آور	: مجموعه مقالات المؤتمر العالمی لسبط النبی، الامام الحسن المجتبی علیه السلام / مجموعه من الباحثین.
مشخصات نشر	: قم : مجمع جهانی اهل بیت علیهم السلام، ١٤٣٥ ق. = ١٣٩٣ ش.
مشخصات ظاهری	: ٦٦٨ ص.
شابک	: ٥ - ٨٠٦-٥٢٩-٩٦٤-٩٧٨
وضعیت فهرست نویسی: فیپا	
یادداشت	: کتابنامه.
موضوع	: حسن بن علی (ع)، امام دوم، ٣ – ٥٠ ق. – کنگره ها
موضوع	: حسن بن علی (ع)، امام دوم، ٣ – ٥٠ ق. – مقاله ها و خطابه ها
شناسه افزوده	: مجمع جهانی اهل بیت علیهم السلام.
رده بندی کنگره	: ١٣٩٣ - ٨ م ٤٠ / BP
رده بندی دیویی	: ٢٩٧/٩٥٢

مجموعة مقالات المؤتمر العالمي لسبط النبي، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

المؤلف: مجموعة من الباحثين

الموضوع: التاريخ والسيرة

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

تصحيح ومراجعة: محمد الساعدي

صف الحروف والإخراج الفني: قاسم البغدادي

المطبعة: نگارش

الطبعة: الأولى

الكمية: ١٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٣٥ هـ. ق

ردمك: ٥-٨٠٦-٥٢٩-٩٦٤-٩٧٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

العنوان: قم، شارع جمهوری اسلامی، رأس الفرع ٦، الهاتف: ١٠ - ٣٢١٣١٣٠٦ – ٠٢٥

طهران، شارع كشاورز، مقابل منتزه لاله، رقم ٢٤٨، تلفن: ٨٨٩٥٠٨٢٧ – ٠٢١

www.ahl-ul-bayt.org www.abwacd.ir

info@ahl-ul-bayt.org www.abna.com

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام

في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين

أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود

من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما

لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض

مسند أحمد ٣ : ١٤ و ١٨ (ما أسند عن أبي سعيد)

سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ / ح ٨٣٧٦

المستدرك للحاكم ٣ : ١٠٩ و ١٤٨.

فضائل الصحابة للنسائي: ١٥ (باب فضائل عليّ عليه السلام)

المعجم الأوسط للطبراني ٣ : ٣٧٤

الفهرس الإجمالي

الإمام الحسنعليه السلام/(من كتاب إنسان بعمر ٢٥٠ سنة لآية الله العظمى السيّد علي الخامنئي(دام ظلّه) **١١**

خلافة الإمام الحسنعليه السلام **وظروفها** (الشهيد السيّد محمدباقر الصدر) **٤١**

ومضات من عهد الإمام الحسن المجتبىعليه السلام / (محمّدهادي اليوسفي الغروي).......... **١٠٣**

حياة الإمام الحسن / (محمّد هارون الرشيد ملا) **١٢١**

خصائص شخصية الإمام الحسنعليه السلام / (علي هاشم السراج) **١٤١**

خصائص الإمام الحسنعليه السلام / (السيّد راضي الحسيني)... **١٦٥**

الأوضاع الدينية والثقافية و... في عصر الإمام الحسنعليه السلام/ (محمّد كاظم ياسين) ... **٢٠٣**

حياة الإمام الحسنعليه السلام **وما جرى فيها من وقائع واحداث** / (نزيهة علي صالح)....... **٢٨٩**

البعد الاستراتيجي لصلح الإمام الحسنعليه السلام / (محمد بوگريطة) **٣١٥**

الإمام الحسنعليه السلام **ظلمه أعداؤه، وظلمه التاريخ والمؤرّخون** / (حسين الديراني)..... **٣٥١**

المناظرة الكبرى في العصر الأموي/ (محمود محمد الموسوي) **٣٨٧**

صلح الإمام الحسنعليه السلام**: (قراءة جديدة)** / (السيد سامي البدري)......................... **٤٣١**

أضواءعلى سيرة الإمام المجتبىعليه السلام**في عهد الدولة العلوية**/ (السيد منذر الحكيم) ... **٤٨٩**

مسيرة الإمام الحسنعليه السلام **الجهادية في دينامياتها وتحوّلاتها**/ (زينب محمّد عيسى).......... **٥٢٥**

الإمام الحسنعليه السلام **وأجوبة السائلين** / (السيد عبدالله فضل الله) **٥٧٣**

درء الشبهة فيما نُسب إلى الإمام الحسنعليه السلام **من تُهمة** / (جويدة غانم) **٥٨٥**

مبادىءالمعرفة الوجودية لسيرة وفكر الإمام الحسنعليه السلام/ (طاهر كوليبالي)............ **٦٠٣**

مع الإمام الحسنعليه السلام **في يوم شهادته** / (سعيد كاظم العذاري) **٦٣١**

الحسن السبطعليه السلام **(شعر)** / (نبيل الحلباوي) **٦٤٩**

مقدمة المجمع

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تجسّد الإسلام المحمّدي الأصيل، وتستند إلى مصدر الوحي، ذات معارف كبرى تتصف بأعلى درجات الإتقان، والإستدلال، والمنطق الجزل، وتتطابق مع الفطرة الإنسانية السليمة. «فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا» . إنّ هذه المدرسة الثرّة والوضّاءة، قد اعتنت وتسامت وانتشرت بفضل الرعاية الربّانية وبإرشادات الأئمة الأطهار عليهم السلام، وبجهاد وجهود الآلاف من العلماء والفقهاء.

لقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني قدس سره إلى إقامة نظام الجمهورية الإسلامية وفقاً لمبدأ ولاية الفقيه، ما أدّى إلى استقطاب أنظار الكثير من أحرار العالم إلى هذه المدرسة وخاصة المسلمين منهم.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام وليد هذا التغيير المبارك في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وجاء انطلاقاً من فكرة ابتكرها المرشد الأعلى للثورة الإسلامية سماحة آية الله العظمى الخامنئي(مُدّ ظلّه الوارف) في عام ١٩٩٠م. واضطلع حتى الآن بتقديم خدمات جليلة في مجال الدعوة وترويج معارف القرآن وأهل البيت عليهم السلام والذود عن حياض القرآن الكريم وأتباع أهل البيت عليهم السلام.

إن المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام وفي سياق نهوضها برسالتها من أجل الإرتقاء بمستوى الوعي والمعرفة لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام وترصين دعائم البيت الشيعي، قامت بتأليف الكتب واصدار المجلات بعدة لغات حيّة، وبكافّة الوسائل الثقافية المعاصرة المتاحة، بمختلف المواضيع على مستوى المخاطبين وفي شتى المجالات والميادين، قامت بعقد المؤتمر الدولي لسبط النبي الإمام الحسن المجتبى عليه السلام .

ونظراً لإيكال مسؤولية اللجنة العلمية للمؤتمر إلى معاونية الشؤون الثقافية في المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، وبالتعاون مع بعض المؤسسات الثقافية بادرت هذه المعاونية إلى اعلان الدعوة العامّة داعيةً فيها النُخب الإسلامية إلى كتابة المقالات والبحوث حول شخصية السبط الأكبر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الفردية والعائلية وأُسلوب عيشه الاجتماعي، الثقافي،السياسي والاقتصادي، وفي ضوء ما سبق ذكره، بذلنا مجهودنا من أجل أن تصاغ وتنشر هذه المجموعة من المقالات على أكثر ما يمكن من الاتقان والعمق.

وهنا أرى لِزاماً عليَّ أن أقدّم شكري للجهود المتواصلة التي بذلها الأمين العام للمجمع

العالمي لأهل البيت عليهم السلام حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّدحسن اختري(دام عزّه)، ومعاون الشؤون الدولية حجّة الإسلام والمسلمين محمّد سالار المحترم، معاون الشؤون التنفيذية محمّدرضا نظام دوست، وأعضاء لجنة إقامة المؤتمر المحترمين، وأعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر الموقّرين حجج الإسلام والمسلمين: محمّدهادي اليوسفي الغروي، السيد منذر الحكيم، حميدرضا المطهّري، رمضان المحمّدي، محمّدرضا الجبّاري، نعمة الله صفري فروشاني، محسن الويري، سيد محمّدرضا آل أيوب، عباس الجعفري مدير لجنة الدراسات الإسلامية الأصيلة.

وكذا نشكر ونقدّر مساعدة المؤسسات المواكبة لنا: (وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، مركز إقامة صلاة الجمعة في طهران، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، مؤسسة القاسم بن الحسن عليه السلام الثقافية الدينية، مؤسسة الإذاعة والتلفزيون، منظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، بلدية طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية ـ قم، مركز متابعة شؤون المساجد، مؤسسة البحوث والتحقيقات الإسلامية، جمعية المؤرخين في الحوزة العلمية ـ قم)، التي عاضدت المجمع في هذه الحركة العظيمة وكذلك حجج الإسلام السادة: علم الهدى، شيرمردي ، حسيني عارف، والإخوة الكرام السادة: راشد، خاكرند، المهدوي منش، الكرماني، الخرسندي، عابديني، الصالحي، شمس الديني المطلق، البغدادي، الصمدي والقديري.

وكذلك نشكرُ الكتّاب والمترجمين والمقيّمين وخاصة الأخ محمّد الساعدي، وجميع الإخوة الذين عاضدونا بشكل أو بآخر على صياغة واعداد وطباعة هذه المقالات.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لخدمة الإسلام والمسلمين ولنشر فكر أهل البيت عليهم السلام.

نجف لك زايي

معاون الشؤون الثقافية والمسؤول العلمي للمؤتمر

(من كتاب إنسان بعمر ٢٥٠ سنة لآية الله العظمى السيّد علي الخامنئي(دام ظلّه)

إنّ عهد الإمام المجتبى عليه السلام وواقعة صلحه مع معاوية ـ ما سمّي بالصلح ـ حدثٌ مصيريّ وفريدٌ على مدى مسيرة النهضة الإسلامية في الصدر الأوّل، فنحن لم نشهد نظيراً لهذه الواقعة. وهنا أقدّم إيضاحاً مقتضباً لهذه العبارة ثمّ أدخل إلى أصل المطلب .

إنّ ثورة الإسلام بما تمثّله من الفكر الإسلاميّ، والأمانة التي تحمل عنوان الإسلام والّتي أرسلها الله سبحانه إلى العالمين، كانت في عهدها الأوّل عبارة عن نهضة واحدة، وتحرّك واحد، جاء في إطار حركة جهادية ونهضة ثورية عملاقة. وما إن أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذا الفكر في مكّة حتّى حشد أعداء الفكر التوحيديّ وأعداء الإسلام صفوفهم للوقوف بوجهه والحيلولة دون أن يشقّ هذا الفكر طريقه، فعمد النبيّ صلى الله عليه وآله إلى تنظيم هذه النهضة بتعبئة قواه من العناصر المؤمنة صانعاً ملحمة جهاديّة في غاية الفطنة والقوّة والتقدّم داخل مكّة استمرّت إحدى عشرة سنة، فكانت تلك المرحلة الأولى.

وبعد ثلاث عشرة سنة، ومن خلال تعاليم النبيّ صلى الله عليه وآله، والشعارات التي رفعها، والتنظيم الذي اعتمده، والتضحيات التي بُذلت، وعبر ما تجمّع من عناصر على اختلافها، تحوّل هذا الفكر إلى حكومة ونظام، وتبدّل إلى نظام سياسيّ وحياتيّ لأمّة بأكملها، وكان ذلك عندما قدم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة وجعل منها قاعدة له وبسط فيها الحكومة الإسلامية، فتحوّل الإسلام من نهضة إلى حكومة، وهذه هي المرحلة الثانية .

استمرّت هذه المسيرة على مدى عشر سنوات من حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، والفترة التي تلتها من عهد الخلفاء الأربعة، ومن ثمّ إلى زمان الإمام المجتبى عليه السلام وخلافته التي استمرّت ما يناهز ستّة أشهر، برز خلالها الإسلام على شكل حكومة، وكان كلّ شيء يتّخذ هيئة النظام الاجتماعيّ من الحكومة إلى الجيش إلى العمل السياسيّ والثقافيّ والقضائيّ وتنظيم العلاقات الاقتصادية للأمّة مع قابليّته للاتّساع. ولو قدّر له أن يمضي قُدُماً لكان قد عمّ المعمورة بأكملها، أي أنّ الإسلام أثبت قابليته تلك .

لقد تنامى التيّار المعارض في زمن الإمام الحسن عليه السلام بحيث استطاع البروز كأحد العراقيل. ولم يكن هذا التيّار ـ بطبيعة الحالة ـ قد برز في عهد الإمام المجتبى عليه السلام، بل كان تبلوره خلال سنوات سبقت ذلك.

ومن شاء التحدّث بعيداً شيئاً ما عن الجوانب العقائدية، وأن يستند إلى الشواهد التاريخية فقط، فلعلّه يستطيع الادّعاء أنّ هذا التيّار لم يظهر إلى الوجود حتّى في العهد الإسلاميّ أيضاً، بل كان استمراراً لما شهدته مرحلة نهضة النبيّ صلى الله عليه وآله، أي مرحلة مكّة. فبعد أن وقعت الخلافة في عهد عثمان ـ والذي كان من بني أميّة ـ في قبضة الأمويين، كان أبو سفيان ـ وكان أعمى يومها ـ جالساً بين قومه، فسأل: من هم الحاضرون؟ فجاءه الرّد: فلانٌ وفلانٌ وفلان، فلما اطمأنّ بأنّ

الحاضرين جميعاً من قومه وليس فيهم، غريب، خاطبهم قائلاً: «تلقّفوها تلقّف الصبية للكرة»[1]، أي تناولوا الحكومة كتناول الكرة ولا تدعوها تفلت منكم. وهذه الحادثة تناقلتها تواريخ السنّة والشيعة. وهذه ليست مسألة عقائدية، ونحن لا نتناولها وفق رؤية عقائدية، ولا أحبّذ أن أتناولها من خلال هذه الرؤية، بل إنّني أثيرها من بعدها التاريخيّ فقط.

حينها كان أبو سفيان مسلماً، غاية الأمر أنّ إسلامه كان بعد الفتح، عندما لم يكن الإسلام يعيش زمن الغربة والضعف، فكان إسلامه بعد بلوغ الإسلام أوج قدرته. فكان أن بلغ هذا التيّار ذروته في عهد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وبرز متجسّداً بمعاوية بن أبي سفيان وهو يقف بوجه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. فباشر هذا التيّار معارضته سادّاً الطريق بوجه الحكومة الإسلامية ـ أي الإسلام بطابعه الحكوميّ ـ مفتعلاً المشاكل، حتّى تحوّل إلى عائق أمام تقدّم تيّار الحكومة الإسلامية عملياً.

لقد ذكرنا مراراً فيما يتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام، وما نصّت عليه المصنّفات والكتب أيضاً، عدم قدرة من كان في نفس موقف الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وفي مثل ظروفه، حتّى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، إلّا القيام بمثل ما قام به الإمام الحسن عليه السلام. ولا قدرة لأحد أبداً على القول: إنّ الجانب الفلانيّ من عمل الإمام عليه السلام مثارٌ للتشكيك. كلا، ففعله عليه السلام كان مطابقاً للاستدلال المنطقيّ الذي لا يقبل التخلّف.

من هو الأكثر ثوريّة من بين آل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ومن الذي فاقهم في

---

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي ١: ٢٣٤.

اصطباغ حياته بصبغة الشهادة وفاقهم حميّة للمحافظة على الدين ومواجهة العدوّ؟ إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام، وهو عليه السلام شارك الإمام الحسن عليه السلام في هذا الصلح، فلم يعقد الإمام الحسن الصلح وحده بل عقداه معاً، غاية الأمر أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان المتقدّم يتبعه الإمام الحسين في ذلك. كان الإمام الحسين عليه السلام أحد الذائدين عن مبدأ صلح الإمام الحسن عليه السلام . وعندما بدر اعتراض من أحد الأنصار المقرّبين ـ ومن هؤلاء المتحمّسين الثائرين - على ما فعله الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام،«وغمز الحسين حُجراً»[1]، وليس هنالك من يقول: لو كان الإمام الحسين مكان الإمام الحسن لما وقّع الصلح، كلا، فلقد كان الإمام الحسين إلى جانب الإمام الحسن ووقّع الصلح، ولو لم يكن الإمام الحسن عليه السلام وكان الإمام الحسين عليه السلام وحيداً في تلك الظروف لحدث ما حدث ووقع الصلح.

ضرورة الهدنة والصلح:

لقد كانت للصلح عوامله، ولم يكن بالإمكان تفاديه، فلا مناص منه. يومها لم تكن فكرة شهادة الإمام أمراً ممكناً. ويثبت المرحوم الشيخ راضي آل ياسين (رضوان الله تعالى عليه)، في كتابه «صلح الحسن»، تعذّر الشهادة إذ ذاك ـ وقد ترجمت هذا الكتاب قبل عشرين عاماً (سنة ١٣٤٨ هـ.ش) وجرى طبعه ـ فليس كلّ قتلٍ شهادة، بل الشهادة قتل بشروط، ولم تكن تلك الشروط متوفّرة حينها. ولو قُدّر للإمام الحسن عليه السلام القتل يومذاك لما مات شهيداً، فقد كان متعذّراً على أيّ أحد القيام بتحرّك مضمون المصلحة في تلك الظروف فيُقتل شهيداً إلا أن

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٦: ١٥.

ينتحر.

تحدّثنا عن الصلح بأبعاده المختلفة. والقضية التي تبلورت الآن هي أنّ الأمر جرى تنظيمه بعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بذكاء وفطنة بحيث لا يلج الإسلام والنهضة الإسلامية نفق الخلافة بما تحمله من مواصفات الملكية، وهذا ما أبدعه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وقد قام هذا الإمام بعملٍ جعل تيّار الإسلام الأصيل ـ والذي انطلق من مكّة وتبلور بشكل حكومة إسلامية امتدّت حتّى عهد أمير المؤمنين عليه السلام ومن ثمّ عهده ـ يسير في مجرىً آخر. غاية الأمر أنّه لم يكن بصبغة حكومية لتعذّر ذلك، بل كان على هيئة نهضة ثوريّة جديدة، فكانت تلك المرحلة الثالثة في العصر الإسلاميّ. مرّةٌ أخرى، نهض الإسلام، الإسلام الأصيل، المقارع للظلم، الذي لا يداهن، المنزّه عن التحريف والرافض لأن يتحوّل إلى ألعوبة تتقاذفها الأهواء والنزوات، لكنّه ظلّ متّخذاً طابع النهضة. أي أنّ الفكر الثوريّ الإسلاميّ عاد ثانيةً في عهد الإمام الحسن عليه السلام ليتحوّل إلى فكرٍ ثوريٍّ إسلاميّ بعد أن قطع شوطاً بلغ فيه مبلغ السلطة والحكم.

ولقد أصبح وضع هذه المرحلة ـ مرحلة الثورة ـ أكثر تعقيداً من عهد النبيّ صلى الله عليه وآله نفسه؛ لأنّ الّذين رفعوا الشعارات كانوا ممّن تلبّسوا بزيّ الدين ولم يكونوا من أهله. وهنا تكمن المشكلة التي واجهها أئمّة الهدى عليهم السلام.

ومن خلال مجمل الآيات وعموم حياة الأئمّة عليهم السلام استنتجت أنّهم عليهم السلام ومنذ صلح الإمام المجتبى عليه السلام وحتى النهاية، كانوا بصدد تجديد هذه النهضة وإقامتها على هيئة حكومة علويّة إسلاميّة. وهناك روايات في هذا الصدد. ولعلّ بعض الناس لا يلاحظ هذه القضيّة بهذا المنظار وله منحىً آخر، لكن تشخيصي أنّ الأئمّة عليهم السلام قد سعوا من أجل تبديل النهضة إلى حكومة وتيّار إسلاميّ أصيل

منزّه عن التلوّث والامتزاج بلوث الأهواء النفسية، ليمسك بزمام الأمور. بيد أن ذلك العمل كان عملاً صعباً.

الغاية من الصلح:

إنّ أهم ما كانت الأمّة بحاجة إليه خلال المرحلة الثانية من النهضة ـ فترة خلافة بني أميّة وآل مروان وبني العبّاس ـ هو معرفتها وتشخيصها لمواطن الأصالة في الإسلام ومكامن الانبعاث التي ينطوي عليها الإسلام الأصيل والقرآنيّ، من بين طيّات التفسيرات المختلفة والمشتّتة، وأن لا يخلطوا بينها، فليس عبثاً هذا التأكيد في الأديان على التعقّل والتدبّر. وما ورد في القرآن الكريم من حثّ للناس على التفكّر والتعقّل والتدبّر فيما يتعلّق بأهمّ الموضوعات الدينية ـ وهو التوحيد ـ ليس لهواً. فالتوحيد لا ينحصر في قولنا: إنّ الله موجودٌ، وهو واحدٌ لا اثنين، بل هذه صورة من التوحيد. فحقيقة التوحيد بحرٌ مترامي الأطراف يغرق فيه أولياء الله، وهو وادٍ سحيق بالرغم من عمقه، فقد طُلب من المؤمنين والمسلمين الموحّدين السير فيه عن تفكّر وتدبّر وتعقّل. وفي الحقيقة، فإنّ العقل والتدبّر هو الذي له القدرة على المضيّ بالإنسان إلى الإمام. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العقل إنّما يتغذّى ويستمدّ من نور الوحي والمعرفة ويستلهم من تعاليم أولياء الله على مراحل متعدّدة، لكنّه في خاتمة المطاف هو الذي يتحرّك إلى الأمام، ودونه لا مجال للحركة أبداً.

ما كانت الأمّة الإسلامية بحاجة لاستيعابه، على مرّ القرون التي تمّ التسلّط فيها عليها باسم الخلافة ـ أي حتى القرن السابع، فترة الخلافة العبّاسيّة، وبالطبع بعد انهيار الخلافة العبّاسيّة، كانت تأتي حكومات من هنا وهناك تحكم باسم الخلافة، كزمن المماليك في مصر، وما تلاها كذلك في البلدان العثمانية وأماكن أخرى، فما كانت الأُمة الإسلامية بحاجة إلى استيعابه هو أن يحكّموا العقل

ليعرفوا ما إذا كانت رؤية الإسلام والقرآن والكتاب الإلهيّ والأحاديث المسلّمة بشأن أولياء الأمور تنسجم مع الواقع المعاش أم لا، فذلك أمر في غاية الأهمية.

لقد تميّزت فترة الخلافة المروانية والسفيانية والعبّاسية بإفراغ القيم الإسلامية من محتواها الحقيقيّ، إذ بقيت منها صورها، لكنّ المضامين تبدّلت إلى مضامين جاهلية وشيطانية.

لقد تحوّل ذلك الجهاز الذي كان يريد تربية وبناء أناس عقلاء متعبّدين مؤمنين أحرار طاهرين خشّعٍ لله أشدّاء أمام المستكبرين - وأفضل صورة ما كان سائداً من نظام إداريّ إسلاميّ في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله - إلى جهاز يربّي الناس ويعلّمهم أصناف المكر، ويجعلهم عبيداً للدنيا والأهواء والنزوات، متملّقين وخاوين من المعنويات، أناساً فارغين، ديدنهم الفسق والفساد!

وممّا يؤسف له أنّ الوضع كان هكذا على امتداد فترة الخلافة الأموية والعبّاسية .لقد سطّروا في كتب التاريخ أموراً، لو شئنا التطرّق إليها لطال بنا المقام، وكانت بدايتها في عهد معاوية، حيث امتدح المؤرّخون معاوية كثيراً بوصفه بالحلم وسعة الصدر وسماحه لمعارضيه بالتفوّه بما شاؤوا أمامه. ولعلّه كان كذلك لبرهة من الزمن وفي أوائل حكمه. ولكن هنالك أبعاد أخرى إلى جانب هذا البعد من شخصيّته، نادراً ما تطرّقوا إليه. فهناك الكثيرون ممّن لم يشيروا إلى طريقة استمالته للأفراد والأقطاب والأشراف من الرجال لكي يتنصّلوا ممّا يعتقدون ويؤمنون به، بل وتجنيدهم لمواجهة الحقّ. والكثيرون لم يكتبوا مثل هذه الأمور. وهذا ـ بطبيعة الحال ـ مدوّن في التاريخ، وثمّة أناس كتبوا ما نعرفه نحن الآن.

إنّ الناس الذين كانوا يخضعون لتربية تلك الأجهزة، كانوا يدرجون على

عدم التفوّه بما يخالف هوى الخليفة ورغبته، فيا له من مجتمع !ويا له من إنسان! وأين هي تلك الإرادة الإلهية والإسلامية الموجودة في الناس لإصلاح المفاسد وإزالتها وجعل المجتمع مجتمعاً إلهيّاً؟ فهل مثل هذا الشيء سيكون ممكناً؟ يروي (الجاحظ) أو (أبو الفرج الإصفهاني): أنّ معاوية توجّه إبان حكمه إلى مكّة راكباً فرساً، وكان إلى جانبه أحد الوجهاء يومها، ومعاوية منهمك في الحديث معه ويتبعهما آخرون. كان معاوية يحدّث هذا الرجل متفاخراً بأمجاده وأمجاد أبيه "أبي سفيان" في الجاهلية. وكانت مجموعة من الأطفال تلهو في الطريق، وعلى ما يبدو كانوا يلعبون بالأحجار. وفي تلك الأثناء أصاب حجرٌ جبهة ذلك الرجل المرافق لمعاوية فسالت الدماء منها، لكنّه لم ينبس ببنت شفة ولم يقطع على معاوية حديثه، فأخذ يتصبّر بينما كانت الدماء تسيل على وجهه ولحيته. وفيما كان معاوية يسهب في الحديث، وإذ به يلتفت إلى صاحبه فيرى الدماء قد غطّت وجهه، فقال له: إنّ الدماء تسيل من جبهتك، فأجاب الرجل معاوية: أدماء تسيل من جبهتي؟! أين ومتى؟ فلشدّة انبهاره بمعاوية، تظاهر بعدم إحساسه بإصابة الحجر وجرحه وسيلان الدم من جبهته. فقال له معاوية: عجبٌ لك، أصاب الحجر جبهتك ولم تشعر به !فأجاب: كلا، لم أشعر به، ثمّ ضرب يديه وقال: واه، إنّه دمٌ! ثم أخذ يُقسم بنفس معاوية وبمقدّساته: لو لم تخبرني، لما شعرتُ بجريان الدماء لِما في كلامك من لذّة! فسأله معاوية: كم هو عطاؤك من بيت المال؟ فأجابه: كذا ـ على سبيل المثال ـ قال معاوية: لقد ظلموك، فلا بدّ أن يُزاد أضعافاً ثلاثة! هذه هي الثقافة التي كانت سائدة في الجهاز الحكوميّ لمعاوية.

في تلك الفترة كان المتزلّفون للزعماء والخلفاء هم الممسكين بزمام الأمور،

فلم تُقسّم الأعمال وفقاً للصلاح والكفاءة، وعادة العربيّ هي أن يولي بالغ اهتمامه بالأصل والنسب، حيث يتساءل: من أيّة عشيرة ينحدر فلانٌ؟ ومن هم آباؤه؟ بيد أنّ هؤلاء لم يكونوا يلتزمون بالأصول والأنساب أيضاً... وفي زمن عبد الملك وبعض أولاده، تمّ تنصيب يوسف بن عمر الثقفيّ والياً على العراق لفترات طويلة، وبقي يحكم العراق سنوات متمادية، وكان معقّداً شقياً. ومن نافل ما يُنقل عن عقدته أنّه كان قصير القامة، فكان عندما يعطي قطعة القماش للخيّاط كي يخيطها له، يسأل الخيّاط: هل تكفي هذه القطعة لقامتي؟ فكان الخيّاط ينظر إلى هذه القطعة من القماش وإذا قال مثلاً: إنّها مناسبة لك أيها الأمير وربّما تزيد، كانوا يأخذون منه ذلك القماش فوراً ويأمرون بمعاقبته. فأدرك الخيّاطون القضيّة، من هنا عندما كان يعرض عليهم قطعة القماش ويسألهم ما إذا كانت تكفي لهيكله أم لا، كانوا يردّون: كلا، يبدو أنّها لا تكفي ويلزمنا كثير من الجهد لكي نجعلها تتّسق مع بدنك الضخم. فكان يسرّه ذلك، رُغم علمه بكذب الخيّاط !لقد كان أحمق إلى هذا الحدّ! إنه ذلك الرجل الذي قتل زيد بن علي عليه السلام في الكوفة .فمثل هذا، تسلّط على نفوس الناس وأموالهم وأعراضهم سنوات عديدة، لا لأصل أو نسب ولا علمٍ أو قابلية، ولكن لقربه من قطب السلطة عُيّن لهذا المنصب، وهذا وبال، ومن أعظم الآفات التي تفتك بأيّ نظام .

الثمار العظيمة للصلح:

استمرّ هذا التيّار على هذا المنوال، فيما كان يسير إلى جانبه تيّار إسلاميّ أصيل هو إسلام القيم والقرآن الذي لا يعرف المهادنة مع ذلك التيّار الحاكم المنافي للقيم، ومصداقه البارز أئمّة الهدى عليهم السلام والكثير من المسلمين الموالين لهم. وبفضل وجود الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، حافظ هذا التيّار القيميّ للنهضة

الإسلامية على الإسلام، فلولا صلح الإمام المجتبى لما كُتب لذلك الإسلام القيميّ الثوريّ البقاء، ولزال من الوجود؛ لأنّ الغلبة ستكون في خاتمة المطاف من نصيب معاوية.

لم يكن الوضع بحيث يمكن للإمام الحسن المجتبى عليه السلام تحقيق النصر، فقد كانت الأمور جميعها تسير بالاتّجاه المعاكس لغلبة الإمام المجتبى عليه السلام . وكانت الغلبة تسير لصالح معاوية؛ لاستحواذه على الجهاز الإعلاميّ، ولأنّ شخصيته في العالم الإسلاميّ لم تكن بتلك الشخصية التي يعجزون عن تبريرها وإبرازها.

ولولا لجوء الإمام الحسن عليه السلام للصلح لكانوا قد قضوا على وجود آل النبيّ صلى الله عليه وآله تماماً، ولم يبق من يحفظ الإسلام الأصيل بنظامه القيميّ لانتهى كلّ شيء بانهيار اسم الإسلام .وبالتالي لما وصل الدور إلى نهضة عاشوراء.

لو قُدّر للإمام المجتبى عليه السلام أن يواصل الحرب ضدّ معاوية وأن تنتهي تلك الحرب باستشهاد آل النبيّ صلى الله عليه وآله، لكان الإمام الحسين عليه السلام قد استشهد، وقُتل كبار الأصحاب، أمثال حجر بن عُديّ، وقُتل الجميع ولما بقي من يستفيد من الفرصة للمحافظة على الإسلام بإطاره القيميّ، وهذا دَينٌ عظيم أسداه الإمام المجتبى عليه السلام في محافظته على الإسلام.

في النهاية حدث صلحٌ .بالطبع كان الصلح مفروضاً. يجب القول: إنّ الإمام لم يكن راغباً به. وتلك الشروط التي جعلها الإمام، في الواقع، زلزلت أسس عمل معاوية. الصلح بذاته وشروط الإمام الحسن عليه السلام كلّها كانت مكراً إلهياً، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ﴾[1]، أي لو أنّ الإمام الحسن حارب وقُتل في الحرب ـ

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٥٤).

وكان هناك احتمال كبير أن يُقتل على يد أصحابه أو على يد الجواسيس الّذين اشتراهم معاوية ـ لقال معاوية: أنا لم أقتله بل قتله أصحابه. ولعلّه كان سيقيم العزاء عليه، ويبيد جميع أصحاب أمير المؤمنين من بعدها، أي أنّه ما كان ليبقى هناك أي شيء باسم التشيّع، فيظهر بعد ٢٠ سنة في الكوفة جماعة تدعو الإمام الحسين عليه السلام، فما كان ليبقى شيء من الأساس. لقد حفظ الإمام الحسن الشيعة، أي أنّه حفظ البناء حتّى ترجع الحكومة إلى أهل البيت بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة.

الاعتراض على الصلح:

بعد أن صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية، بدأ الجاهلون يذمّونه بمختلف العبارات، وبعضهم كان يسلّم عليه بـ «مذلّ المؤمنين»[1]، ويقولون له: إنّك بصلحك هذا قد أذللت المؤمنين المتحمّسين لقتال معاوية واستسلمت لمعاوية، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون عبارات أكثر احتراماً وأدباً، إلا أنّ المضمون كان واحداً.

وقد قام الإمام الحسن عليه السلام في مقابل هذه الاعتراضات والملامات بمخاطبتهم بجملة لعلّها هي الأبلغ في كلّ خطبته: ﴿**وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[2]، وهي جملةٌ قرآنية، فكأنّه يريد أن يقول: قد يكون ما جرى فتنة لكم وامتحاناً أو أنّه متاع محدود لمعاوية. وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام كان ينتظر المستقبل، وهذا المستقبل لا يمكن أن يكون سوى أنّ

(١) تحف العقول: ٣٠٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (١١١).

الحكومة التي لا يمكن أن تكون مقبولة بنظر الإمام الحسن عليه السلام والّتي هي على غير الحقّ يجب أن تتنحّى جانباً وتأتي حكومة وفق رأيه. لهذا، كان يقول لهم: إنّكم لستم مطّلعين على فلسفة هذا الأمر. فماذا تعلمون؟ لعلّ هناك مصلحة في هذا الأمر.

في بداية الصلح جاء اثنان من وجهاء الشيعة ـ وهما: مُسيّب بن نَجَبة وسليمان بن صُرد الخزاعي ـ ومجموعة من المسلمين إلى الإمام المجتبى عليه السلام، وقالوا: لدينا قوى كثيرة من خراسان ومن العراق وغيرهما ونحن نضعهم بتصرّفك، ونحن مستعدّون أن نلاحق معاوية. فطلبهم عليه السلام إلى خلوةٍ وتحدّث معهم بمقدار. وبعد أن خرجوا من عنده كانوا هادئين وتركوا قوّاتهم ولم يعطوا لمن كان معهم أيّ جوابٍ واضح. ويدّعي طه حسين أنّ هذا اللقاء قد وضع في الواقع الحجر الأساس لجهاد الشيعة. أي أنّه يريد أن يقول: إنّ الإمام الحسن عليه السلام قد جلس معهم وشاورهم وأوجد في هذا الاجتماع التشكيلات الشيعية العظيمة.

لهذا، يتّضح هذا الأمر في حياة الإمام الحسن عليه السلام وفي كلماته، وإن لم تكن أرضية مثل هذا القيام مهيّأة في ذلك العصر؛ لأنّ وعي الناس كان قليلاً، وكانت الإمكانات المالية للعدوّ وإعلامه كثيرة جداً. لقد استعمل العدوّ أساليب لم يكن للإمام الحسن عليه السلام أن يستعملها، كدفع الأموال دون طائل، وجمع الفاسدين والأشرار وأمثالهم. فلذلك كانت يد معاوية مبسوطة، بخلاف يد الإمام الحسن عليه السلام[1].

توجد رواية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «وُقّت هذا الأمر في

(١) مجلة پاسدار إسلام: ٦.

السبعين»[١]، فبالتقديرات الإلهية أنّ أمر الحكومة يعود إلى أهل البيت حتّى ولو بعد مرور ٣٠ سنة على شهادة أمير المؤمنين عليه السلام و ١٠ سنوات على شهادة الإمام الحسين عليه السلام. غاية الأمر كيف يمكن أن تحصل هذه النتيجة بمثل هذه العظمة؟ (الجواب): عندما يهيّئ الناس مقدّماتها بالإرادة والعزم، والله تعالى لا يحابي أحداً، وليس له من أقارب! فالأمر الذي كان على عاتق الناس لم ينجزوه. أمّا العمل الذي كان على عاتق الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام فقد أدّياه، ولكن العمل الذي كان على عاتق الخواص - عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عبّاس وغيرهما - فلم يتمّ. حتّى أولئك الّذين جاؤوا فيما بعد إلى كربلاء وحاربوا مع الإمام الحسين عليه السلام لم يفعلوا ما كان ينبغي أن يفعلوه في زمان مسلم. لقد قصّروا، وإلا لما حدث لمسلم ما حدث .كان عليهم أن ينهوا المسألة ولم يفعلوا. وهذا التقصير أدّى إلى أن تحدث واقعة كربلاء.

ثمّ يقول عليه السلام: «فلمّا أن قُتل الحسين (صلوات الله عليه) اشتدّ غضب الله تعالى على أهل الأرض، فأخّره إلى أربعين ومائة»[٢]. أي أنّه في الظاهر قد تأخّر. وبرأيي قد وصل إلى سنة ١٤٠، أي أنّه تأخّر سبعين سنة .وهي السنوات التي وصل فيها العبّاسيّون إلى السلطة.. أي من المعلوم أنّ صلح الإمام الحسن عليه السلام، قد هيّأ الأرضية لهذا العمل الكبير، وإلا فإنّ الأئمّة عليهم السلام لم يكونوا ليتركوا القضية. فهل أنّ قضية الولاية والحكومة هي قضية بسيطة؟! لقد كان هذا أساس الدين ومحوره، ولكن في النهاية هذا ما حدث.

---

(١) الكافي ١: ٣٦٨.

(٢) الكافي ١: ٢٦٨.

الصلح وتبديل مجرى الخلافة:

لقد قيل الكثير بشأن هذا الصلح. وأمّا ما أريد أن أقوله فهو: التعامل مع قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام من رؤية جديدة؛ لأنّ هذه الحادثة تمثّل مقطعاً تاريخيّاً شديد الحساسيّة يجعل أهميّة هذه الحادثة أكبر من أيّة حادثة سياسيّة طيلة تاريخ الإسلام. إنّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالأحداث المختلفة: أحداث عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وما بعده، وعصر أمير المؤمنين عليه السلام، والحوادث في عهد الأئمّة عليهم السلام والأمويين والعبّاسيين، فلذلك الإسلام تاريخٌ مليءٌ بالحوادث المهمّة .لكن لعلها قليلةٌ هي الأحداث التي تشبه هذه الحادثة، حادثة الإمام الحسن عليه السلام، من حيث البُعد المصيريّ للتاريخ الإسلاميّ كلّه .لا يوجد ما يماثل هذه الحادثة سوى حادثة أو اثنتين في تاريخ الإسلام، كان لهما الأثر المصيريّ على مستوى حركة الإسلام وتاريخ الإسلام كلّه وعلى مرّ القرون المتمادية .كانت حادثةً مهمّةً جداً من هذه الناحية.

خلاصة الأمر: أنّ هذه الحادثة هي عبارة عن تبديل مجرى الخلافة الإسلامية إلى المَلَكية. فهذه الجملة مليئة بالمعنى والمضمون لو تأمّلنا فيها. فالخلافة هي نوع من الحكومة والملكية هي نوعٌ آخر. ولا ينحصر التمايز بين هاتين بخصوصيّة واحدة أو خمس خصوصيّات، فمسار الملكيّة ومسار الخلافة، هما مساران منفصلان ويتمايزان بالكامل على مستوى إدارة المسلمين وحكمهم، وإدارة البلاد والمجتمع الإسلاميّ. وفي هذه الحادثة تبدّل مسار القطار العظيم للتاريخ الإسلاميّ والحياة الإسلامية، مثلما يحدث عندما تنظرون إلى القطارات عندما تغيّر مساراتها، ففي محلٍ ما يتمّ تبديل هذه السكّة ويؤدّي ذلك إلى أن

يتغيّر مسار القطار ١٨٠ درجة، وقد يكون القطار متّجهاً نحو الشمال، فيصبح بعد ذلك متّجهاً إلى الجنوب. وبالطبع، إنّ هذا التغيير إلى ١٨٠ درجة لا يحصل في لحظةٍ واحدة ملموسة، لكنّ في نهاية الأمر، عندما ينظر الإنسان يجد أنّه قد حصل ذلك، وإنّني أنظر إلى هذه الحادثة من هذه الحيثية.

صراع الحق والباطل:

هناك سبعة أسئلة أساسية تدور حول هذا النص:

الأوّل: بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام حلّ مسارٌ آخر مكان المسار السابق، فانتقلت السلطة من خطّ، بحسب تعبير اليوم، إلى خطٍّ آخر. فما هي مميّزات وخصائص هذين الخطّين؟ وما هي خصائص هذين المسارين الّذين تبادلا الأدوار معاً؟

الثاني: ما هي أساليب تيّار الباطل الذي أمسك بالسلطة من أجل كسب القدرة والهيمنة على المجتمع؟

الثالث: ما هي أساليب تيّار الحقّ الذي خسر القدرة ـ أي تيّار الإمام الحسن ـ من أجل مقاومة تيّار الباطل؟ وما هي الأساليب والطرق التي استخدمها الإمام؟

الرابع: تحليل ودراسة الهزيمة. ماذا حدث حتّى انهزم تيّار الحقّ في هذه الأحداث؟ ما هو تحليل هذه الأمور؟

الخامس: كيف كان سلوك المنتصرين تجاه المغلوبين؟ لأنّ من أهم الفصول المليئة بالدروس والعبر هو هذا الفصل .

السادس: كيف كان سلوك المغلوبين مقابل الغالبين؟ أيّة سياسة اختاروا؟ وأيّة استراتيجية؟ وماذا كانت عاقبة الأمر؟

السابع: ماذا كانت العاقبة والنتيجة النهائية؟

خصائص تيار الحق والباطل:

فيما يتعلّق بخصائص كلّ تيّار، هناك الكثير ممّا يمكن أن يُقال، بحيث لو أردنا أن نعدّدها لاحتجنا إلى لائحة طويلة، وقد قمت بتبويبها. فإنّ تيّار الحقّ ـ أي تيّار الإمام الحسن عليه السلام ـ يعطي الأصالة للدين، فبالنسبة إليهم الأصل كان الدين. فما هو الدين؟ هو أن يبقى الإيمان والاعتقاد بالدين عند الناس، وأن يبقى الناس متعبّدين بالدين ومتمسّكين بالإيمان والعمل، وأن يكون الدين حاكماً في إدارة المجتمع .كان الأصل بالنسبة إليهم هو أن يتحرّك المجتمع وفق إدارة الدين وقدرته وحاكميّته وأن يكون النظام هو النظام الإسلاميّ. الحصول على القدرة والحكومة والإمساك بزمام السلطة هما بالمرتبة الثانية والثالثة والرابعة وهكذا، وغيرها من القضايا الفرعية. لكنّ القضية الأساس كانت أنّ هذا النظام وهذا المجتمع ينبغي أن يُدار وفق حاكمية الدين، وأن يبقى أبناء هذا المجتمع على دينهم وإيمانهم، وأن يترسّخ ويتعمّق هذا الأمر في قلوبهم.

كانت هذه هي خصائص **التيّار الأوّل**.

أمّا **التيّار الثاني** فكان الإمساك بالسلطة هو الأصل عنده، بأيّ ثمنٍ كان. كانوا يريدون الحكومة.. وكانت هذه هي السياسة الحاكمة على التيّار الثاني. وكانت القضية بالنسبة إلى هذا التيّار الإمساك بالسلطة بأيّ ثمنٍ كان وبأيّة وسيلة ومهما كانت الوسائل .

مثلما هو معروفٌ الآن في العالم بين السياسيين، بالنسبة إليهم ليس الأساس الأوّل للقيم والأصول. فإن استطاعوا أن يحافظوا على الأصول الموجودة في

أذهانهم فَبِها، وإن لم يتمكّنوا فإنّ الأساس عندهم هو أن تبقى السلطة بأيديهم. هذا ما هو المهمٌّ بالنسبة إليهم. ومثل هذا يُعدّ حدّاً حسّاساً ومهمّاً. من الممكن أن يكون كلّ من التيّارين عاملاً بظواهر الدين، كما كان الأمر في الحرب بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية. ففي يومٍ من الأيّام، نجد أنّ جماعة من المقاتلين كانوا في صفوف أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حرب صفّين التي وقف معاوية فيها مقابل أمير المؤمنين عليه السلام ـ ثم تردّدوا، وكان من بينهم عدّة من أولئك الّذين يحملون الشبهات ولا يستطيعون أن يحلّوها بأنفسهم، ولا هم يرجعون إلى شخصٍ قادرٍ على ذلك، فلذلك كانوا يعزمون على إشاعتها، فيجمعون مجموعة من الأفراد من حولهم. ومثل هؤلاء كانوا يقعون في التردّد، فيقولون: لماذا نحن نتحارب؟ فهم يصلّون ونحن نصلّي، وهم يقرأون القرآن ونحن نقرأ القرآن، وهم يذكرون النبيّ صلى الله عليه وآله ونحن كذلك، فوقعوا في مثل هذا التردّد والحيرة. وكان هناك عمّار ابن ياسر ـ وقد وجدت نقطةً بارزةً بشأن عمّار بن ياسر في تاريخ صدر الإسلام ـ هذا الجليل المحلِّل والكاشف للمسائل المليئة بالشبهات والدقيقة، والّتي كانت في ذلك الزمان مورد غفلة وجهالة. فهذا هو شأن عمّار بن ياسر في تاريخ الإسلام. فإذا كنّا نعرف مالكاً الأشتر بسيفه وشجاعته، فعلينا أن نعرف عمّار بن ياسر بكلامه وفكره ورؤيته الصحيحة وكشفه للكثير من الأمور في تاريخ صدر الإسلام .قليلة هي الموارد التي كانت موارد شبهة في زمن أمير المؤمنين عليه السلام ولا يوجد لعمّار بن ياسر فيها حضور. لقد كان هذا الرجل الجليل رجلاً استثنائياً. لقد علم عمّار بن ياسر أنّ هناك جماعة وقعت في هذه الشبهة، فذهب إليهم وبيّن لهم الحقائق. واتّضح لهم أنّ القضيّة ليست قضيّة هذه الظواهر كالصلاة، وقال: أقسم بالله، إنّني رأيت في حربٍ أخرى هاتين الرايتين تتقابلان، هذه الراية

التي يحملها أمير المؤمنين عليه السلام اليوم، وهذه الراية التي تقف مقابله ويحملها معاوية، وذلك في معركة بدر. ففي معركة بدر تقابلت هاتان الرايتان ـ راية بني هاشم وراية بني أميّة ـ فكان تحت هذه الراية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وتحت تلك الراية معاوية هذا وأبوه، وتحت هذه الراية النبيّ وهذا أمير المؤمنين عليه السلام. فالخلاف بينهما خلافٌ أصوليّ. فلا تنظروا إلى هذه الظواهر، وأزيلوا هذه الشبهة من أذهانكم.

أحياناً، قد يراعي هذا التيّار، الذي تكون السلطة أساساً بالنسبة إليه، الظواهر الإسلامية، وهذا ليس دليلاً ومعياراً، بل ينبغي النظر إلى باطن القضيّة وتشخيصها بذكاء، وكيف أنّ كلّ تيّار ينطبق على أيّ شيء، هذا هو الأمر الأول.

فخصائص كلّ من التيارين :أنّ هناك تياراً لا همّ له سوى الوصول إلى السلطة، وتيّاراً يتّجه نحو القيم والمبادئ والأصول. فالبُنى الإسلامية والأفكار الإسلامية الأصيلة ـ أي القيم الإسلامية ـ هي التي يؤمن بها ويسعى من أجلها ويجاهد في سبيلها .فمن جانبٍ هناك الأصوليّة والتوجّه إلى الأصول وحفظ القيم الأصيلة، وفي الجانب الآخر، هناك السعي نحو السلطة والإمساك بالقدرة. وأحياناً، يكون الأمر هكذا وفي بعض الأحيان في طريقٍ آخر، لكن مهما حدث فإنّه يريد الإمساك بالسلطة. هذا هو الأمر الأوّل.

أساليب تيار الحق والباطل في العمل:

أمّا بالنسبة إلى تيّار الباطل فما هي الأساليب التي استخدمها؟ فمثل هذا لافت للأنظار جداً. إنّ أساليب الباطل في العموم هي مزيج من عدّة أشياء، أي أنّ خطّة معاوية كانت مبنيّة على عدّة أجزاء من أجل الحفاظ على السلطة وتعميق القدرة، ولكلٍ منها أسلوبه ومنهجه بحسب اختلاف المكان.

فأحد هذه الأساليب كان عبارة عن استعراض القدرة، وفي بعض الأماكن كانوا يصرّون كثيراً على هذا الاستعراض وينكّلون.

وثانيها هو المال، الذي يُعدّ أكثر الأشياء فعّالية بيد عوامل الشرّ.

الآخر هو الإعلام.

والرابع هو العمل السياسي، أي الأساليب السياسية، والمقايضات السياسية.

هذه بالمجموع أساليب معاوية.

في مكانٍ ما يبلغ العنف بمعاوية درجة أن يقتل حُجر بن عديّ، الذي هو من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله، حتّى ولو كان قتله يحمّله ثمناً باهظاً. ثمّ يلاحق رشيد الهجريّ حتّى يقتله. ونجده يولّي زياد بن أبيه، هذا الفرد الظالم والمعقّد والّذي لا قيمة عنده ولا همّ له سوى السلطة، والّذي كان سيّئ الأخلاق، يولّيه على الكوفة ـ والتي هي مركز سلطة الفكر الشيعيّ والفكر الولائيّ ـ ويعطيه الإجازة والصلاحية ليفعل ما يريد. وبشأن زياد بن أبيه كتب المؤرّخون: «أخذْك بالظنّة وقتلْك أولياءه بالتهمة»[1]، فكان يأخذ أيّ شخصٍ بالتهمة وسوء الظن، لأدنى مورد، فيعتقل ويحبس وينكّل بكلّ من اتُّهم بالانتماءٍ لأهل البيت أو التعاون معهم ومع ذلك التيّار المغلوب، ويقتله ويقضي عليه. لقد عمّت فتنة في الكوفة والعراق الذي كان مركز حاكمية التشيّع وأهل البيت عليهم السلام. هكذا كان يستعرض قوّته.

ومعاوية نفسه في موردٍ آخر، كان يلاطف امرأة عجوز تأتي من القبيلة الفلانية وهي تسبّه وتشتمه، وتوبّخه بأنّك فعلت كذا وكذا، فيضحك لها ويلاطفها، ولا يقول لها شيئاً. يأتي عديّ بن حاتم إلى معاوية وقد كان فاقد

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢١٤.

البصر، فيقول معاوية: يا عديّ! إنّ علياً لم ينصفك؛ لأنّه حفظ ولديه في حروبه وأخذ منك ولديك! يبكي عديّ ويقول: «يا معاوية، أنا لم أنصف أمير المؤمنين حينما استُشهد هو وأنا ما زلت حيّاً»[1]. وكان كلّ من يأتي من المرتبطين بأهل البيت عليهم السلام إلى مجلس معاوية، فيحصل فيه أقل إهانة لأمير المؤمنين، كان يحمل على معاوية وأتباعه بشجاعة وقوة وصراحة، وكان معاوية يضحك ويلاطف وأحياناً كان يبكي. كان يقول: أجل تقول حقّاً. لعلّ ذلك بالنسبة إليكم لا يُصدّق، ولكن هذا الواقع، هكذا كان الإعلام، فالإعلام أكثر الأساليب سمّاً وخطراً على مرّ التاريخ. وكان الباطل يستفيد منه كثيراً. ولا يمكن لتيّار الحقّ أن يستخدم الإعلام كما يستخدمه الباطل في أيّ زمن. فلأجل أن يتمكّن الإعلام من التغطية الكاملة على الأذهان يحتاج إلى التلاعب وإلى الكذب والخداع. وتيّار الحقّ ليس من جماعة الكذب والخداع. إنّه تيّار الباطل الذي لا يهمّه أيّ شيء، فالمهمّ عنده هو أن يقلب الحقيقة في أعين الناس، وهو يستفيد من جميع الوسائل، وقد فعل.

وما هو مشهور ومتناقل على ألسن متعدّدة، أنّه عندما قُتل أو ضُرب أمير المؤمنين عليه السلام في محرابه، تعجّب أهل الشام كيف أنّ علياً كان في المحراب؟! فالمحراب هو للصلاة، وبعض الناس لا يصدّق مثل هذا، ولكن هذا هو الواقع؛ فعلى مدى سنوات كانت حكومة معاوية، ومن قبله أخيه يزيد بن أبي سفيان، تبثّ مثل هذه الأنباء في الشام، وتُظلم الأجواء وتشوّش الأذهان، بحيث إنّه لم يكن من الممكن لأحد أن يفهم غير هذا، هذا ما حدث.

---

(١) الدرجات الرفيعة: ٣٦٠.

كان الإعلام لمصلحة بني أميّة ومعاوية وضدّ آل النبيّ. فهذا الواقع الذي قام في العالم الإسلامي وبقي إلى حوالي مائة سنة بعد الهجرة ـ أي لعلّه أربعون أو خمسون سنة بعد عهد أمير المؤمنين عليه السلام كان أمير المؤمنين يُلعن خلالها على المنابر ـ وهذا اللعن في عالم الإسلام، الذي يُتّهم به الشيعة ويلامون عليه أنّه لماذا تلعنون بعض الصحابة، كان من عمل معاوية وأخلاقه، فهم من قام بهذا العمل، إنّه عمل معاوية. فأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان «أفضل القوم[1] وأقدمهم إسلاماً»[2] وأقرب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، كان يُطعن به ويُلعن لعشرات السنوات على المنابر. وحتى زمن عمر بن عبد العزيز، الذي منع ذلك عندما صار خليفةً، وقال: لا يحقّ لأحد أن يفعل هذا. فبعد عبد الملك بن مروان، حكم ولداه، الوليد وسليمان، بحدود ١٢ أو ١٣ سنة، ثمّ جاء بعدهما عمر بن عبد العزيز، وبعد سنة أو سنتين من حكومته، حكم ولدا عبد الملك الآخران، أي يزيد وهشام. لم يسمح عمر بن عبد العزيز لهم أن يلعنوا أمير المؤمنين، وهو ما كانوا يفعلونه إلى ذلك الوقت. هذا هو أحد الأعمال التي كانوا يفعلونها. أجل، في البداية كان الناس يتعجّبون، لكنّهم اعتادوا على ذلك شيئاً فشيئاً.

نقرأ في التاريخ أنّه لم يبقَ من قارئٍ أو محدّثٍ أو راوٍ في الدين أو في العالم الإسلاميّ إلا وأجبره جهاز حكومة معاوية وأتباعه على اختلاق حديثٍ أو تفسير آية، وأمثال ذلك، في ذمّ أهل البيت عليهم السلام وفي مدح أعدائهم.

---

(١) الكافي ١٥: ٢٠١، كان عليّ أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) عوالم العلوم والمعارف ١١: ٣٨٣ «... قد زوّجتك أقدمهم إسلاماً، وأعظمهم حلماً، وأحسنهم خُلقاً، وأعلمهم بالله علماء» (من كلام الرسول صلى الله عليه وآله مع ابنته الصّديقة الكبرى عليها السلام).

هذا سُمرة بن جندب بن معروف الذي وردت بشأنه الرواية المعروفة: «لا ضرر ولا ضرار»[١]، وهو كان من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، غاية الأمر أنّه صحابيّ غضب النبيّ صلى الله عليه وآله عليه، وذلك بسبب تلك القصّة المعروفة من: أنّه كانت له شجرة في أرضٍ لعائلةٍ وكان يذهب ويزعجهم ويدخل عليهم في بيتهم من دون أي استئذان، ومع وجود العائلة والنساء والأطفال في ذلك البيت، وكانوا يرونه قد دخل عليهم فجأة لأنّ له هذه الشجرة، فشكوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: «بِع هذه الشجرة لأصحاب هذا البيت»، فقال: لا أبيعها، هذه شجرتي وأنا أريد أن أهتمّ بشجرتي! فقال الرسول صلى الله عليه وآله: «بِعها لي»، فلم يقبل، فقال له الرسول: «أعطيك المبلغ الفلانيّ»، فلم يقبل، فقال له الرسول: «أعطيك شجرة في الجنّة»، وهذا يعني وعداً بالجنّة، لكنّه لم يقبل وقال: أريد هذه الشجرة ولا بد! فلمّا وجد النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك الإصرار قال لصاحب المنزل: «اذهب واقتلع هذه الشجرة وارمِها خارجاً، فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام»، أي أنّه لا يوجد في الإسلام ما يقبل بأذيّة الناس وضررهم، فإذا كان الأمر بحجّة أنّ هذا ملكي فتؤذي الناس، فلا يوجد مثل هذا الأمر في الإسلام. فحديث «لا ضرر» المعروف الذي يُعدّ من الأصول والقواعد الفقهية عندنا هو بشأن هذا الرجل. إنّ سمرة بن جندب بقي حيّاً إلى زمن معاوية. انظروا أيّة عاقبةٍ حسنة وصل إليها؛ لأنّ معاوية كان يسعى وراء الصحابة. فقد كان لأصحاب النبيّ شهرة ومكانة، ولهذا كان يسعى لجمعهم حوله. فأحضره معاوية إليه وقال له: إنّني أرغب في أن تقول إنّ هذه الآية المعروفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ

(١) الفقيه ٤: ٣٣٤ «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[١] قد نزلت في عليٍّ عليه السلام. أراد معاوية أن يجعل هذه الآية مقابل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ الدنيا، في تلك الخطبة القاصعة في «نهج البلاغة» التي لها أثر كبير. أنتم تلاحظون أنّ تلك الكلمات والخطب كانت في منتهى الجمال والرواء.

تصوّروا اليوم مثلاً شخصاً يؤلّف كتاباً أو شعراً أو مقالةً في غاية الفصاحة والجمال والفنّ حول موضوع ما، من الطبيعيّ أنّ الموضوع سيأخذ مجده، وسيكون لصاحب هذا الأثر الفنّي حلاوة في أعين الناس. وهنا لا يمكن في الواقع مقارنة كلام أمير المؤمنين عليه السلام بأيّ أثر من الآثار الفنّية التي نعرفها، إنّه فوق ذلك بكثير، إنّه آية في الجمال. وهذه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة»، وكذلك هي في الواقع في بيان القيم الإسلامية والمعارف الإسلامية، كانت ممّا لا يمكن لمعاوية تحمّله وقبوله؛ لأنّها تجعل أمير المؤمنين عليه السلام مورد استحسان في أعين الناس. أراد (معاوية) أن يواجه هذه الكلمات الزاهدة في مذمّة الدنيا، والّتي نُقلت عن أمير المؤمنين عليه السلام، فلذلك قال معاوية لسمرة بن جندب: قل أنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ أي أنّ عليّاً عليه السلام (وفق ذلك) سيكون ممّن يتحدّث عن الدنيا بحديثٍ رائعٍ ويُعجب الناس ويقسم على ذلك، لكنّه في الواقع هو من ألدّ أعداء الله والإسلام.

والآية الأخرى: **﴿وَمِنَ الناس مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتغَاء مَرْضَاتِ اللّه﴾**[٢] قيل: إنّها نزلت في ابن ملجم. هذه من الأمور التي كان يحتاجها معاوية كثيراً في

---

(١) سورة البقرة: الآية(٢٠٤).

(٢) سورة البقرة: الآية(٢٠٧).

إعلامه وتبليغاته. فقال لأحد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله الذي شاهده في المعارك وكان إلى جنبه، فسمرة بن جندب كان منذ حداثته جنديّاً وكان يشارك في المعارك رغم أنّه كان تحت سنّ التكليف، كان من هذا النوع، وكان من أصحاب النبيّ أيضاً، قال له: قل: إنّ هذه الآية قد نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام. اقترح عليه ذلك، لكنّ سمرة بن جندب، رغم أنّه كان سيئاً وشقياً، لكنّ وجدانه لم يكن مستعدّاً، فقال: كلا. والّذين كانوا يتوسّطون لهذا الأمر في بلاط معاوية قالوا له: لا تقلق فإنّ حسابك سيصلك، فلا تقلق بشأن المال وسوف يعطيك خمسين ألفاً من الدراهم، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمان كثيراً جداً، فخمسون ألف مثقال من الفضّة يعني خمسة مثاقيل من الذهب، في حسابات ذلك الزمان، هذا يُعدّ ثروة كبيرة، قالوا له: نعطيك خمسين ألفاً، فقال: كلا، لا أقبل. هنا يقول بعض الناس: إنّ سمرة بن جندب كان في الواقع يتلاعب وأراد أن يرفع السعر، لا أنّه قد أنّبه ضميره، فهو كان يعلم بأنّ معاوية يحتاج إلى هذا الأمر، وفي الحقيقة كان يحاول أن يساوم. هنا، هل أنّ وجدانه كان يتقبّل الأمر أو لا؟ لا أعرف، ولا أضع ذلك على ذمّتي، ولكن عندما لم يقبل رفعوا السعر إلى مائة ألف درهم ولم يقبل أيضاً، حتّى وصل الأمر إلى نحو ٥٠٠ ألف درهم تقريباً، لكن مثل هذا المبلغ الكبير جداً، هو ثروة استثنائية، ولكن مع ذلك لم يقبل.

هنا، قال معاوية لذلك الذي كان يتوسّط: إنّ هذا الرجل بلا عقلٍ وهو مجنون لأنّه لا يعرف ما هي الـ٥٠٠ ألف، فقولوا له: ٥٠٠ ألف وأحضروه إلى هنا حتّى أرى هل أنه سيقبل أو لا .فأمر معاوية من كان مسؤولاً عن بيت المال أن يحضر هذا المبلغ إلى المجلس. وكما تعلمون في تلك الأزمة الأموال ستكون من الذهب، وعندما توضع في الأكياس ستكون ثقيلة وذات حجم كبير وتحتاج

إلى من يحملها، فأحضر الحمّالون الأكياس ووضعوها فوق بعضها بعضاً على البعض حتّى وصلت إلى أعلى السقف، وقالوا هذه هي الـ ٥٠٠ ألف، فهل أنت جاهزٌ أو لا؟ عندما نظر إلى هذه الأموال ورأى هذه الثروة العظيمة قبِل، وفسّر تلك الآية كما أراد معاوية وبقيت في الكتب.

وصحيحٌ أنّ مثل هذه الكلمات الممتزجة بالخطأ والرذالة قد تمّ اختلاقها في العالم الإسلاميّ، وبالأغلب جاء العلماء فيما بعد واستبعدوها، لكن هذه رشحاتٌ من هؤلاء، وقد بقيت في أذهان عدّة وأثّرت فيهم، وهذه من الأعمال التي كان يقوم بها معاوية في الإعلام .فمجموع هذه الأساليب هي التي شكّلت أساليب معاوية لكسب القدرة.

أمّا تيّار الحقّ فإنّه لم يجلس ساكناً مقابل هجمات الباطل، فقد كانت له أساليبه والّتي يمكن اختصارها:

بالمقاومة أوّلاً والحركة المقتدرة .فبعضٌ تصوّر أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يحارب خوفاً، كلا، إنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان عازماً بشدّة على الحرب وهو من شجعان العرب. لقد نظرت في الكتاب في شرح بطولات الإمام المجتبى عليه السلام في القضايا المختلفة، فبطولاته في الأحداث المختلفة كثيرة. غاية الأمر أنّه في حروب أمير المؤمنين عليه السلام، وحيث كان الميدان ميدان حرب كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه يمنع أن يحارب الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وكان يمنع أن يقعا في الخطر. فقال بعضهم: لماذا ترسل محمد بن الحنفية ـ وهو ابنك ـ وتمنع من إرسال الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: «إنّي أخاف أن ينقطع نسل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله». فهما بقيّة النبيّ وأريد أن أحفظ نسل النبيّ صلى الله عليه وآله . كان يشعر بالخطر في ميدان الحرب وأراد أن يحفظهما، لا بسبب حبّه، فهو يحبّ

أبناءه الآخرين، ونفس أمير المؤمنين عليه السلام هو رجل الحرب ورجل الميدان والمخاطر وليس من أولئك الّذين يتوهّمون الخطر، غاية الأمر أنّهما ابنا النبيّ صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يرغب أن يوقعهما في الخطر، ولأنّهما حضرا في حروب أمير المؤمنين عليه السلام فلم يكن لهما صولات كثيرة، لأجل هذا لهذا لم يُسجّل اسم هذين العظيمين -الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ـ ضمن الشجعان، ولكن في الحروب الإسلامية ضدّ فارس كانت للإمام الحسن عليه السلام مشاركة، وفي دفاعه عن بيت عثمان أمام المهاجمين والثوّار، كان للإمام الحسن عليه السلام حضور بأمر من أمير المؤمنين عليه السلام، وفي القضايا المهمّة الكثيرة كان للإمام الحسن عليه السلام أيضاً حضور. وفي واقعة الجمل وصفّين كان له دورٌ مهمٌّ واستثنائيّ. وقد لاحظت اسم الإمام الحسن عليه السلام في وقائع صفّين والجمل، خاصّةً في هاتين الحادثتين، كثيراً، في حين شاهدت اسم الإمام الحسين عليه السلام أقل أي أنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان له حضورٌ أكثر في الميادين والأحداث من الإمام الحسين عليه السلام.

لقد كان رجل الحرب والسياسة والتدبير والفصاحة والقوّة. عندما يطالع المرء محادثات ومناظرات الإمام الحسن عليه السلام يقشعرّ بدنه من قوّته وقدرته. وفي وقائع الصلح، وبعد الصلح، نُقل عن هذا العظيم من الكلمات القاطعة والقاصعة ما كان في بعض الموارد أشدّ قوّةً وأحدّ من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام . ولعلّه قليلاً ما شاهدت مثل هذه الشدّة والقدرة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في مقابل الأعداء، بسبب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يواجه مثل هؤلاء الأعداء وجهاً لوجه وعن قرب، والّذين كانوا بمثل تلك الوقاحة والخبث .لهذا، لا يوجد أيّ نقصٍ في عمل الإمام الحسن عليه السلام. إنّما كان النقص في الظروف الزمانية .

وباقتدار وقف للدفاع إلى الحدّ الممكن، وهذا كان أحد أساليبه. ففي بعض المواطنٍ يكون الوقوف المقتدر سبباً للضرر، فإنّ تغيير الأسلوب والمناورة في اختيار الأساليب يعدّان عملاً أساسيّاً وضرورياً .

والثاني: الإعلام، فإنّ العمل الإعلاميّ في جهاز الحقّ له أهميّة فائقة .وغاية الأمر أنّ تيّار الحقّ مكتوف في الإعلام. فإنّه لا يمكن أن يستخدم أيّ أسلوبٍ أو وسيلة، وهو لا يبيّن سوى الحقّ والواقع. هناك أشياءٌ تكون مرغوبة عند الناس، والتيّار الباطل لا يأبى أبداً أن يظهرها كما يحبّ الناس، لكنّ تيّار الحقّ لا يمكنه ذلك، بل يبيّن الحقّ ولو كان مرّاً. كيف كان يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه بطريقة مرّة بحيث يتعجّب الإنسان؟ نحن الّذين نحبّ أن تكون أساليبنا مثل أسلوب أمير المؤمنين عليه السلام أحياناً نتعجّب من هذا الأسلوب في بعض الموارد. أمّا معاوية، فلم يكن يستخدم هذا الأسلوب بتاتاً. كان معاوية يتملّق الناس، ويسعى للحصول على دعمهم بأيّ ثمنٍ. لم يفعل عليّ بن أبي طالب عليه السلام هذا الأمر أبداً، لا أنّه لم يكن يعرفه، بل لأنّه خلاف التقوى وخلاف الأصول، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «لولا التقى لكنت أدهى العرب»[1]، كان هذا الأمر الأصل والجذر في هذه الأعمال والسابقة المقرّبة لعليّ من النبيّ والمفاخر العظيمة التي كانت له وتلك الذهنية والروحيّة العظيمة. فمن الواضح أنّه يعرف أكثر من معاوية، وهو أشدّ ذكاءً منه، ويمكنه أن يقوم بالكثير من الأعمال، ولكنّ الحقّ لا يجيز له.

والأسلوب الآخر هو: الإصرار على حفظ القيم .فالشيء المهم جداً عند

---

(١) الكافي ٨: ٢٤.

جهاز الحق، والذي يتم الاعتناء به في أساليبهم هو إصرارهم على حفظ القيم بأيّ ثمنٍ كان.

وفي النهاية التراجع إلى حدّ حراسة بقاء الدين. فلو أنّ الحقّ رأى أنّ الصمود يؤدّي إلى أن يزول أصل الدين، فإنّه يتراجع. فالإمام الحسين عليه السلام يقول: «الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار»[1]، فلو أنّه تقرّر أن أقبل العار فأقبله ولكن لا أدخل جهنّم. يوجد بعض الأماكن بحيث نرى بعض الناس، ولأجل أن لا يتحمّل العار، يقوم بعملٍ لا يهمّه معه أن يناله العذاب والسخط الإلهيان. ما هو العار؟ الأصل هو أن يكسب الإنسان رضا الله، وأن يؤدّي تكليفه، ولو بالتراجع عن كلامٍ قاله أو خطّ مشى عليه، أو تراجع عن موقفٍ له، فكل ما يريده الله وكلّ ما يرضي الله يُعتبر أصلاً في حياة الأئمّة.

كان الأمر كذلك في حياة الإمام الحسن عليه السلام. فعندما وجد أنّه لا بدّ له أن يقبل بالصلح مع معاوية من أجل الضرورات وضغط الظرف الواقع، بالرغم من أنّه في ذلك الوقت كان يرسل الجند ويحرّض على الحرب ويجيّش الجيوش ويرسل الكتب ويقوم بكلّ ما هو لازم من أجل الحربٍ وبمختلف المعيارات، وعندما رأى أنّه لا يمكن (القيام بالحرب) قبِل بالصلح، فانفضّ عنه أقرب الناس إليه ... مع أنّ الكثيرين في ذلك الوقت، وبعد أن صالح الإمام الحسن، فرحوا ومن أعماق قلوبهم؛ لأنّهم كانوا متنفّرين من الحرب، ولكن حتّى نفس هؤلاء الّذين فرحوا، رجعوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأرادوا أن يلوموه على تراجعه عن موقفه، حتّى أنّ المقرّبين والوجهاء الّذين كانوا من الصحابة المشهورين، جاؤوا

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٢٨.

إليه وتحدّثوا معه بعبارات غير لائقة، لكنّ الإمام عليه السلام تراجع من أجل الحفاظ على الدين.

أسباب هزيمة تيار الحق:

القضية اللاحقة هي تحليل هزيمة تيّار الحق، إنّ السبب الأساس في هزيمة الإمام الحسن عليه السلام كان ضعف الرؤية العامّة وامتزاج الإيمان بالدوافع المادّية. ففي مجال ضعف الوعي العام، كان الناس بعيدين كلّ البعد عن الوعي، وكان إيمانهم الديني ممتزجاً بالدوافع المادّية. لقد أضحت المادّية عندهم أصلاً، وتزلزلت عندهم القيم لما يزيد على عشر أو عشرين سنة من بعد الصلح. وحدث ذلك في كلّ مجالات القيم .وكان هناك شيء من التمييز وغيرها من الأمور، كلّ هذه أدّت إلى أن لا يتمكّن الإمام الحسن عليه السلام من المقاومة. وأمّا سلوك الغالبين مع المغلوبين فبدلاً من أن يأتوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه، فيأسروهم، أو يقتلوهم، فإنّهم على العكس من ذلك، عندما تسلّطوا على الأمور، احترموهم بالظاهر وتعاملوا مع الإمام الحسن عليه السلام بكلّ احترام .لكنّ معاوية وجماعته قرّروا أن يمحوا الشخصية ويضعفوها. فيحفظ الشخص ويبيد الشخصية، هذا كان نهجهم. هذا كان أصلاً أساسياً في الإعلام عندهم.

وأمّا الجّماعة المغلوبة فماذا فعلت مع الغالبين؟ لقد كانت استراتيجيّتهم أن ينظّموا تيّار الحقّ وسط هذا الفضاء المليء بالفتن والغشاوة والمخاطر والسموم، وأن يعطوه شكلاً ليكون العمود الفقريّ لحفظ الإسلام. والآن حيث لا نقدر أن نجعل كلّ المجتمع في ظلّ الفكر الإسلاميّ الصحيح، فبدلاً من أن نهتم بتيّار هشّ قابل للزوال ـ وهو التيّار العام ـ فلنحفظ تيّاراً عميقاً وأصيلاً في أقلّية ونحفظه لكيٍ يبقى ويضمن حفظ الأصول الإسلامية.

هذا ما فعله الإمام الحسن عليه السلام، فقد شكّل تيّاراً محدوداً، أو لنقل بشكل

أفضل: نظّمه، وهو تيّار الأصحاب أو الأنصار وأصحاب أهل البيتعليهم السلام، أي تيّار التشيّع .وبقي هؤلاء طيلة تاريخ الإسلام، وفي كلّ عهود القمع والتنكيل. وقد أدّى ذلك إلى أن يضمنوا بقاء الإسلام، ولو لم يكن هؤلاء لتبدّل كلّ شيءٍ. فقد كان تيّار الإمامة، تيّار رؤية أهل البيتعليهم السلام، ضامناً للإسلام الواقعيّ.

وأمّا العاقبة فإنّ جماعة الغالبين والمتسلّطين والمنتصرين أضحوا مُدانين ومغلوبين، والمستضعفون أضحوا الحكّام والفاتحين في ذهنية العالم الإسلاميّ. إذا نظرتم اليوم إلى الذهنية الموجودة في العالم الإسلاميّ، وهي التي بنحو ما تلك الذهنية التي روّج لها الإمام الحسن عليه السلام وأمير المؤمنينعليه السلام، فإنّها ليست الذهنية التي أرادها معاوية ويزيد من بعده، وكذلك عبد الملك بن مروان وخلفاء بني أميّة. تلك الذهنية التي كانت لهم انهزمت بالكامل وزالت ولم تعد موجودة في التاريخ. لو أردنا أن نطلق عنواناً على ذهنيّتهم لقلنا: إنّها ذهنية النواصب. النواصب فرقة من الفرق التي لم يعد لها اليوم في العالم الإسلاميّ وجود خارجيّ بحسب الظاهر. النواصب هم أولئك الّذين كانوا يسبّون أهل بيت النبيّ والإسلام ولا يقبلون إسلامهم، حيث إنّ هذا هو تيّارهم الذهنيّ. لو كان من المقرّر أن يكون معاوية فاتحاً وحاكماً لكان اليوم من المفترض أن يكون تيّاره هو الحاكم في العالم الإسلاميّ. في حين أنّ الأمر ليس كذلك. إنّ التيار الفكريّ لأمير المؤمنين عليه السلام وللإمام الحسن عليه السلام هو الحاكم في العالم، وإن كان في بعض من الفروع وقسم من عقائد الدرجة الثانية والثالثة لم يُنقل، لكنّه في المجموع هذا هو التيّار، الإمام الحسن عليه السلام بناءً على هذا هو الفاتح وتيّاره هو الذي انتصر.

هذه هي خلاصة وقائع صلح الإمام الحسن عليه السلام من ناحية تأثيرها على كلّ التاريخ الإسلاميّ.

خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها

* الشهيد السيّد محمدباقر الصدر قدس سره

توطئة:

حاول المرجع الشهيد الصدر قدس سره أن يقدّم رؤية شمولية ناصعة قادرة على تفسير الظواهر المتنوّعة في سيرة أهل بيت الرسالة (محمّد المصطفى وآله الطاهرين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ) رؤية تنسجم مع ما تفرضه العقيدة المتبلورة في مبدأ الإمامة الراشدة الهادية للبشرية جمعاء رغم تنوع الظروف والملابسات التي كانت تفرض عليهم وعلى الساحة الإسلامية . وكان (رضوان الله عليه) يستثمر مناسبات وفياتهم في العطل الدراسية ليقدم حديثاً علمياً تاريخياً تحليلياً حول صاحب المناسبة، وكان يحاول الجمع بين ذكرى صاحب المناسبة من جهة وبين مراعاة التسلسل البحثي المطلوب عنده من جهة أخرى. وطبعت هذه المحاضرات لأوّل مرة في لبنان تحت عنوان «أهل البيت عليهم السلام تنوع أدوار ووحدة هدف»، ثم تصدت أمانة المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر لتكميل وتنظيم ما وصلها من محاضراته وعرضها في طبعتها الأُولى تحت عنوان «أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية» في عشرين محاضرة قيّمة. ثم عثر على خمسة محاضرات أخرى مع نسخ متعددة صوتية وخطية قام بتلفيقها وتحقيقها وتنظيمها والتعليق عليها فضيلة الأخ أحمد عبدالله أبو زيد

العاملي ـ حفظه الله ـ محاولاً ذكر تواريخها التي تبدأ من عصر ٢٨ صفر ١٣٨٥ هجرية قمرية، فنشرت في ٦٩٧ صفحة بعنوان الطبعة المحققّة الأُولى من (موسوعة الإمام الشهيد السيدمحمد باقر الصدرقدس سره) الجزء ٢٠، وهي أكمل طبعة لحد الآن.

وقد اخترنا من هذه النسخة ما يناسب موضوع المؤتمر العالمي لسبط النبي الأكبر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بمقدارما يلقي الضوء الكاشف على محاضرتيه القيمتين حول (خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها)، فألحقنا من البحوث الخاصة بالإمام علي عليه السلام ما يبيّن بعض ما جاء في هاتين المحاضرتين من إجمال؛ إذ التسلسل المنطقي الذي راعاه الشهيد الصدر في بحوثه ينبغي أن لا يفوت القارىء الكريم أيضاً. وقد علقنا بمقدار الضرورة على بعض النقاط في الهامش وحذفنا ما لا ضرورة للقارئ الاحاطة به في هذا البحث.

(السيّد منذر الحكيم ١٥/ رجب/ ١٤٣٥ هـ .ق).

وإليك البحث التمهيدي الذي اخترناه تحت عنوان:

لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟

في ظلال هذا الإمام الذي سوف نتحدّث عنه مفصّلاً ـ وذلك عن وضعه وحياته وعن تفاصيله[1] ـ نعود إلى تسلسل حديثنا السابق؛ حيث إنّا كنّا بدأنا

---

(١) وللأسف الشديد، لم يصلنا شيءٌ ممّا ألقاه قدس سره حول الإمام السجّاد عليه السلام.

نعم، في المقدّمة الموجزة البليغة التي كتبها للصحيفة السجادية الكاملة غنى وكفاية. (سيد منذر).

بعرض حياة الأئمّة عليهم السلام بتسلسل، وهذا التسلسل بدأناه من حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وانتهينا إلى حين وصول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الخلافة وتسلّمه زمام المسؤوليّة في المجتمع الإسلامي. فنعود إلى ما كنّا فيه؛ حفاظاً على تسلسل الحديث.

طبيعة الموقفين وصراع الأطروحتين:

أتذكّر أنّي قلت في ما سبق[١]: إنّ الإمام عليه السلام كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقفه وطبيعة موقف معاوية ـ والذي كان يمثّل خطّ الانحراف ـ ما يفرض ـ أو يحرّك ـ النتيجة التي انتهى إليها الصراعُ بين الإمام عليه السلام ومعاوية.

هناك عدّة نقاط لا بدّ من الالتفات إليها تفصيلاً، سأوجزها إجمالاً؛ لأنّي شرحتها في ما سبق[٢]:

النقطة الأولى: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع:

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كانت عمليّته على مستوى الغزو، وكانت عمليّة معاوية على مستوى الدفاع:

أ- كان أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن تسلّم زمام الحكم في الدولة الإسلاميّة

---

(١) في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية.

(٢) ظاهر كلامه قدس سره أنّه بصدد إعادة ما تقدّم في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليٍّ عليه السلام ووضع معاوية. وإذا كان ما بحثه قدس سره في هذه المحاضرة تحت عنوان: النقطة الأولى يُطابق ما بحثه في المحاضرة السابقة تحت عنوان: الفارق الثاني، فقد تعرّض قدس سره للنقاط الأخرى من زوايا تختلف جزئيّاً عن الزوايا التي انطلق منها في المحاضرة السابقة، فلاحظ.

يرى نفسه مسؤولاً عن تصفية الانحراف وهذا الانشقاق غير الشرعي الذي أوجده خطّ بني أميّة والموالين لبني أميّة في جسم الأُمّة الإسلاميّة، وكان يرى أنّ من همّه ومن واجب الامّة الإسلاميّة القضاءَ على هذا الانشقاق.

وهو حينما ركّز عاصمته وقاعدته الشعبيّة في العراق كان مطلبه السياسي الذي يريد أن يبني هذه القاعدة الشعبيّة لتحقيقه ولبذل الجهد والتضحية في سبيله هو تصفية هذه التجزئة السياسيّة غير المشروعة في جسم الامّة الإسلاميّة. وكان معنى هذه التصفية أن يبدأ أميرُ المؤمنين عليه السلام معاويةَ بالهجوم والغزو، يعني ذلك: أن ينقل قاعدته الشعبيّة، ويكلّفها بأن تقوم وتتحرّك، وتخرج من بلادها مهاجرةً في سبيل الله تعالى لكي تقضي على زمرة الانحراف التي قدّر لها أن تتمركز في ثغرٍ من ثغور المسلمين، وهو الشام.

كان يعلم بأنّ العراقيّين لم يكونوا موتورين من الشاميّين بما هم شاميّون، ولم تكن مصالحهم الخاصّة قد تعطّلت عن طريق انفصال الشام عن جسم الدولة الإسلاميّة، وإنّما كان هناك اعتبارُ الرسالة، اعتبار الإسلام الذي يستصرخهم ويناديهم ليقوموا بتصفية هذا الانشقاق والقضاء على هذه التجزئة.

فهم يجب أن يكونوا مدفوعين في هذه المعركة بدافعٍ رساليٍّ كبير، ويجب أن يصلوا إلى مستوىً عظيمٍ من فهم القضيّة وإدراك أبعادها وتبيّن مضمونها؛ حتّى يكونوا على مستوى العطاء لها، عطاء النفوس والأرواح والأموال والأولاد[1].

---

(١) ورد المقطعان الأخيران بعد قوله قدس سره قريباً: «اعتبار الرسالة فقط»، وقد قدّمناهما لكونهما كلاماً اعتراضيّاً استدراكاً على كلامه السابق.

ب ـ بينا معاوية لم يكن همّه على مستوى الغزو، ولم يكن موقفه يتطلّب منه أن يغزو، وإنّما كان موقفه يتطلّب منه أن يمسك الشام، كان يتطلّب منه أن يحاول فصل الشام عن باقي أجزاء الوطن الإسلامي الكبير(١).

وفرقٌ كبيرٌ بين قائدٍ يأمر جيشه بأن يتحرّك من بلاده ليخوض معركةً لا يوجد أيُّ اعتبارٍ لخوضها سوى اعتبار الرسالة فقط، بينما هذا المستوى من العطاء لم يكن هو اطروحة معاوية لجيشه.

معاوية لم يكن يقول لجيشه: تعالوا نحتلّ العراق، تعالوا لنغزو باقي أرجاء الوطن الإسلامي، وإنّما كان يمنّيهم بالسيادة والاستقلال، وفي النهاية وعلى الخطّ الطويل بزعامة الوطن الإسلامي والعالم الإسلامي(٢).

والأشخاص الّذين كانوا يدورون في فلك الإمام عليه السلام كان فيهم عددٌ كبيرٌ من الواعين وأنصاف الواعين، والحارّين وأنصاف الحارّين، على المصطلحات التي وضعناها في ما سبق(٣). وهذه الكتلة الكبيرة من الواعين وأنصاف الواعين، والحارّين وأنصاف الحارّين استجابت لمطالب الرسالة منذ اللحظة الأولى، استجابت للإمام عليه السلام، وشعرت بأنّ من واجبها الإسلامي أن تصفّي هذه التجزئة، وأعطت هذه الكتلةُ من التضحيات ما أعطت، وخاضت عدّة معارك ضارية.

هؤلاء أعطَوا للقضيّة التي طرحها أمير المؤمنين عليه السلام عطاءً لا يستهان به، ولكنّ هذا العطاء كان ولا بدّ أن يتناقص بالتدريج وفقاً لمستوى وعي هؤلاء،

---

(١) تقدّم توثيق ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الفوارق الموضوعيّة بين وضع الإمام عليّ عليه السلام ووضع معاوية، الفارق الثاني: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع، فراجع وقعة صفّين: ٤١٤، ٤٧٠، ٤٧١.

(٢) كذا في (غ) و (ج)، وفي (م): «وعلى الخطّ الطويل يجعل زعامة الوطن الإسلامي في الشام»..

(٣) يقصد قدس سره مصطلحي: «الوعي» و«الطاقة الحراريّة» اللذين أسّس لهما في المحاضرة الخامسة.

على ما سوف أشرح في نهاية الحديث[١].

إذاً، فهنا لم تكن الأطروحتان متكافئتين من حيث درجة الجهد، من حيث درجة الطلب، من حيث درجة الدفع والتحريك: أطروحة تريد منك أن تخرج من بيتك مهاجراً تغزو في سبيل الله، وأخرى تريد منك أن تبقى في بيتك، وأن تحافظ على استقلال بيتك في بيتك.

هذا الفرق الكبير بين الدرجتين لهاتين الأطروحتين ـ أي بين درجة الجهد التي تفرضها هذه الأطروحة ودرجة الجهد التي تفرضها الأطروحة الأخرى ـ كان له دورٌ كبيرٌ في طبيعة الموقف الذي سوف نتحدّث عنه في نهاية هذا الحديث[٢].

النقطة الثانية: عليٌّ عليه السلام يواجه إفرازات السقيفة ومعاوية يكرّس جاهليّة الشام:

أ- إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كما كان بصدد تصفية التجزئة السياسيّة المنحرفة التي وقعت في العالم الإسلامي وقتئذ، كان أيضاً يواجه انحرافاً في داخل المجتمع الإسلامي الذي حكمه نتيجةً للظروف السياسيّة التي صبغته. وكان لا بدّ له أن يخوض معركةً ضدّ هذا الانحراف الذي كان يعيشه المجتمع العراقي والحجازي والمجتمع الإسلامي بشكلٍ عام؛ فعليٌّ عليه السلام كان يواجه معركتين:

١- معركةً ضدّ التجزئة السياسيّة في جسم الأُمّة الإسلاميّة.

---

(١) راجع في هذه المحاضرة: النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحس. كما راجع تحت عنوان: سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام.

(٢) تحت عنوان: سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام.

٢- ومعركةً أخرى ضدّ الانحراف الداخلي في المجتمع الإسلامي، والذي كان يتمثّل في بقايا سياسة الخلفاء الّذين سبقوه، كان يتمثّل في التمييز غير الشرعي وغير الإسلامي، وفي أفكار وعواطف كثيرة غير إسلاميّة، وفي الاستئثار بالأموال وإقامة الثروات على أساس غير مشروع، ويتمثّل في إسناد الولايات ومراكز النفوذ إلى أُناسٍ لا ينسجمون مع خطّ الرسالة.

كان لا بدّ له عليه السلام أن يصفّي كلَّ هذا، كان لا بدّ له أن يقلّم أظافر المنحرفين، وأن يسترجع الأموال من الخائنين، وأن يحارب الأفكار والمفاهيم المنحرفة وغير المتّفقة مع خطّ الإسلام.

وهذه المعركة كبيرة في داخل مجتمعه، كان لا بدّ له أن يخوضها إلى جانب معركته الخارجيّة.

ب- وهذا على عكس معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يكن يعيش معركةً في داخل مجتمعه؛ لأنّ الشام بالرغم من أنّها داخلةٌ في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلاميّة بالفتح العسكري، فإنّه لم يدخل الإسلام إلى الشام دخولاً كبيراً، بل دخل الإسلام بشعاراته الأوّليّة فقط.

لم يدخل الإسلام بمضمونه الحقيقي إلى قلوب أهل الشام؛ فأهل الشام كانوا لا يزالون يعيشون الرواسب الجاهليّة بدرجةٍ كبيرة؛ حيث إنّهم كانوا يتأطّرون[1] بالأفكار التي آمنوا بها قبل الإسلام.

وكذلك لم تكن أوضاعهم الاجتماعية والفكريّة والسياسيّة تختلف بدرجةٍ كبيرةٍ عمّا كانت عليه قبل الإسلام، حتّى التشريعات الشكليّة للوضع السياسي

---

(١) كذا في (م)، وفي (غ) و (ج): «يتعاطون».

كانت هي التشريعات الشكليّة للوضع السياسي قبل الإسلام.

عمر بن الخطّاب ـ بالرغم من صرامته الشكليّة ضدّ هذه التشريعات في العالم الإسلامي ـ قد أمضى هذه التشريعات عند معاوية وأبقاه على وضعه حينما عرض عليه معاوية أن يعيش في الشام كخليفة للقياصرة، ويجب أن يواصل أبّهة القياصرة وجلالهم. لقد أمضى عمر بكلّ وقاحة مواصلة معاوية لخطّ القياصرة[1].

فالشام كانت تعيش إلى درجة كبيرة الجاهليّةَ التي كانت عليها قبل الإسلام، ومعاوية لم يكن يرى أيّ تناقض بين أهدافه وأطروحته وبين المجتمع الشامي بوضعه الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، هذا المجتمع الذي كان مؤهّلًا تماماً لتقبّل أطروحة معاوية، وهو أن يتزعّم الشام زعامةً ملكيّة قيصريّة لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى.

بينما أطروحة عليّ عليه السلام كانت هي الأطروحة التي تواجه انحرافاً عاش عشرين عاماً بعد النبي صلى الله عليه وآله[2]، وكان مسؤولاً عن تصفية ذلك الانحراف.

ومن هنا نجد الفارق بين وضع كلٍّ من الإمام عليه السلام ومعاوية في مجتمعه الذي يحكمه.

(١) تقدّم الحديث مفصّلًا عن مفهوم المسلمين عن معاوية بن أبي سفيان في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين عليّ عليه السلام ومعاوية، انطفاء جذوة الأمّة الإسلاميّة غير الواعية. وراجع حول إمضاء عمر كسرويّة معاوية: المحاضرة العاشرة، النقطة السادسة، اعتماداً على: أنساب الأشراف ٥: ١٤٧، تاريخ الأُمم والملوك للطبري) ٥: ٣٣١، البداية والنهاية ٨: ١٢٥.

(٢) يقصد قدس سره: عشرين عاماً ونيّفاً، وذلك منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله سنة ١١ هـ إلى حين تولّيه عليه السلام الخلافة سنة ٣٥ هـ.

النقطة الثالثة: ارتباط عليٍّ عليه السلام بمُعطى السقيفة، وإسلام الشام بمعاوية:

إنّ مركز أمير المؤمنين عليه السلام يختلف بدرجةٍ كبيرةٍ عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام علي عليه السلام[(١)]:

أ- فإنّ أمير المؤمنين قبل خوض المعركة، قبل تسلّم زمام المسؤوليّة، كان قد تكوّن له في نظر المسلمين المفهوم الرسمي الذي أعطته السقيفة للإمام علي عليه السلام، هذا المفهوم الرسمي للإمام علي عليه السلام هو عبارة عن أنّ الإمام عليه السلام ليس إلا صحابيّاً جليلاً له خدماتٌ في حياة النبي صلى الله عليه وآله، وحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاء ذوي الخدمات الجليلة في عصر النبوّة. هذا هو المفهوم الرسمي الذي أعطته السقيفة، ثمّ أكّدته الشورى على يد ابن الخطّاب.

المسلمون بدؤوا بالتدريج ـ وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء المنحرفين ـ يتعاملون مع عليٍّ بن أبي طالب على هذا الأساس، على أساس أنّه صحابيٌّ جليل ذو سوابق[(٢)]، لا أكثر من هذا المقدار، كان هذا شأن علي عليه السلام.

وبحكم هذا المفهوم، كان يوجد هناك رؤوسٌ كبيرةٌ من الصحابة ممّن كانوا يرَون أنّهم لا يقلّون عن عليٍّ عليه السلام، أو يقلّون عنه قليلاً بدرجات، يرون ـ على أحسن تقدير ـ أنّ الفارق بينه وبينهم فارقُ درجة، هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وهو كذلك، هم أخذوا العلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو كذلك. نعم، هو أفضل منهم وأورع، هو أكثر منهم جهاداً في أيّام الرسول صلى الله عليه وآله.

ب ـ وهذا على خلاف وضع معاوية بن أبي سفيان بالنسبة إلى المجتمع الشامي، هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية.

---

(١) كذا في (م)، وفي (غ) و (ج): «مع المسلمين».

(٢) كذا في (م) و (غ)، وفي (ج): «ذو رأي».

المجتمع الشامي هو عبارة عن أُناسٍ كفرة دخلوا الإسلام على يد أخي معاوية الذي ولاه أبو بكر على الشام، وهو يزيد بن أبي سفيان، ثمّ لمّا مات يزيد ولّى أبو بكر[1] معاويةَ أخاه.

ولذا، فإنّ أهل الشام الّذين دخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه ينظرون إلى إسلامهم [على] أنّه ناتجٌ من هذا الرجل، وأنّ هذا الرجل هو همزة الوصل. بينهم وبين الإسلام، وهو الذي عن طريقه وصلت الشريعة إليهم.

ولذا، كانت نظرة أهل الشام ورجالاته إلى معاوية تختلف عن نظرة رجال أمير المؤمنين عليه السلام ورجال المدينة والعراق إلى أمير المؤمنين عليه السلام. وهذا الاختلاف في النظرة أوجد في حياة الإمام عليه السلام تناقضاً ومَثاراً من الآراء والاجتهادات المتضاربة، وامتناعاً- في كثيرٍ من الأحيان- عن قبول رأي أمير المؤمنين عليه السلام، بينما كان أهل الشام يلقَون معاوية بالطاعة الكاملة والخضوع الأعمى[2].

النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ:

والنقطة التي لا بدّ من الالتفات إليها في المقام هي أنّ دعوى الإمام عليه السلام في معاوية لم تكن على مستوى الحسّ، بل كانت على مستوى الوعي، والواعون لم

---

(١) بل عمر بن الخطّاب؛ فإنّ يزيد بن أبي سفيان توفّي سنة ثمان عشرة، فراجع: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤: ١٥٧٦، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤: ٧١٦. وراجع حول تولية معاوية: الاستيعاب في معرفة الأصحاب٣: ١٤١٦، البداية والنهاية ٨: ١١٨.

(٢) حتّى قال معاوية لرجلٍ كوفي: «أبلغ عليّاً أنّي اقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل». وأضاف المسعودي: «وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء»، فراجع: مروج الذهب ٣: ٣٢.

يكونوا جميع المسلمين. وأمّا دعوى معاوية في عليٍّ عليه السلام فقد صوّرها وكأنّها على مستوى الحسّ، والناس كلّهم يعيشون الحسّ:

أ- عليّ عليه السلام كان يقول: بأنّ معاوية لا يمثّل خطّاً من خطوط الإسلام، بل يمثّل جاهليّةَ أبيه وجدّه. معاوية يريد أن يقضي على الكيان الإسلامي، ويريد أن يحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمعٍ آخر لا يؤمن بالإسلام وبالقرآن، بل يؤمن بالقيصريّة والكسرويّة.هذا هو مدّعى الإمام عليٍّ عليه السلام في معاوية.

ب- ومدّعى معاوية في الإمام عليه السلام: أنّ الإمام قد هيّج الناس على عثمان وعلى الشريعة الحاكمة وقتئذ؛ لأنّ أصحابه وأهله هم طليعة الثوّار على عثمان، وأنّ عليّاً ـ عن طريق هؤلاء الأصحاب والطلائع الواعية ـ قتل عثمان، ثمّ تربّع على كرسيّه بعده[1]. ما أقرب هذه الدعوى إلى التصديق على مستوى الحسّ!

هل هناك شخصٌ يعيش الأرقام التي كان يقدّمها معاوية عن هذه الطلائع العلويّة التي باشرت بنفسها قتل عثمان، أو التي ساعدت وحرّضت على عثمان، من قبيل: محمّد بن أبي بكر، وعمّار بن ياسر، وأبي ذر، وغيرهم من أصحاب عليٍّ عليه السلام من أبطال المسلمين (رضوان الله عليهم)، هؤلاء الّذين باشروا وحرّضوا على قتل عثمان، ثمّ يأتي علي عليه السلام بعده فيتسلّم زمام الحكم بعد عثمان .. هل هناك تفكيرٌ أقرب إلى الحسّ من أن يكون عليٌّ في المقام قد قتل عثمان بيد، ثمّ أخذ الحكم باليد الأخرى؟!

تفسير معاوية كان مقبولاً إلى حدٍّ ما؛ لأنّه كان قريباً من الحسّ، وأمّا تفسير

---

(١) تقدّم توثيق ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني: نظرة المسلمين إلى معاوية قبل تكشّف أوراقه.

الإمام لموقف معاوية [فقد] كان يحتاج إلى قدرٍ من الوعي.

نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن انتهى وبعد أن تكشّف، وبعد أن صعد على منبر الكوفة في عام الجماعة(١) ليقول: «ما حاربتكم لتصلّوا أو تصوموا، وإنّما حاربتكم لأتأمّر عليكم»(٢). ننظر إلى معاوية بعد أن قتل حجر بن عدي والأبطال الأبرار من إخوان حجر بن عدي(٣)، وبعد سمّ الحسن عليه السلام(٤)، وبعد أن أعطى ولاية العهد لابنه الفاسق يزيد(٥)، ننظر إلى معاوية بعد أن انتهى معاوية.

لكنّ أولئك المسلمين، الجماهير الكبيرة من أولئك المسلمين لم يكونوا ينظرون إلى معاوية بعد أن انتهى، ولم يكونوا ينظرون إلى معاوية من هذا المنظار؛ لأنّهم لم يعيشوا بعدُ هذه الأحداثَ. لا بدّ لنا أن نلاحظ معاوية بعد تكشّفه، وأن نلاحظه قبل تكشّفه.

انظروا ـ أيّها الإخوة ـ بمنظار تلك الجماهير غير الواعية، تلك الجماهير التي عاشت مع أبي بكر وعمر وفضّلتهما على عليٍّ عليه السلام، وتأمّلت في تفضيل عثمان على عليّ عليه السلام. انظروا بمنظار هذه الجماهير غير الواعية، وتساءلوا عن معاوية،

(١) وهو عام ٤١ للهجرة، عام توقيع الصلح، فراجع: تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥: ٣٢٤.

(٢) تقدّم نصُّ كلامه في المحاضرة الحادية عشرة، فراجع: مقاتل الطالبيّين: ٧٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٥، البداية والنهاية ٨: ١٣١.

(٣) وقد قتلوا بمرج عذراء، وهم سبعة نفر: حجر بن عدي، شريك بن شدّاد الحضرمي، صيفي بن فسيل الشيباني، قبيصة بن ضبيعة العبسي، محرز بن شهاب السعدي ثمّ المنقري، كدام بن حيّان العنزي وعبد الرحمان بن حسّان العنزي، فراجع: تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣١، تاريخ الامم والملوك للطبري ٥: ٢٧٧.

وفي أنساب الأشراف ٢: ٢٥٣: أنّ عبد الرحمان أخو كدام، وأنّه ابن حيّان لا ابن حسّان.

(٤) مروج الذهب ٢: ٤٢٧.

(٥) تاريخ الامم والملوك للطبري ٥: ٣٣٨.

من هو معاوية؟!

معاوية شخصٌ كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان معتمداً لأبي بكر وعمر، وكان من الواضح أنّ عمر كان يوليه درجةً كبيرةً من ثقته[١].

وعمر هو هذا الشخص الذي تقدّسه هذه الجماهير، ومعاوية ـ بحسب الظاهر ـ كان ملتزماً بالشكليّات التي هي مقياس الإسلام عند هذه الجماهير غير الواعية، ولم يكن قد صدر منه إلى ذلك الوقت وقبل تكشّفه انحرافٌ واضحٌ جليٌّ على مستوى الجماهير، ولم تكن قد صدرت منه معصيةٌ واضحةٌ محدّدة على المستوى المطلوب.

إذاً، فمعاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذي يُنظر إليه اليوم بعد تكشّفه.

بينما معاوية ماذا يقول؟!

معاوية يقول: إنّ عليّاً قتل عثمان، وإن لم يكن قد قتل عثمان فمن الذي قتله؟ على كلّ حال، فإن كان عليٌّ قادراً على أن يقيم الحدّ على قاتل عثمان فليسلّم للناس القاتلَ حتّى نقتله، وإن لم يكن قادراً على ذلك فهو إذاً عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتزل الخلافة، وليأتِ شخصٌ آخر قادرٌ على الخلافة.

هذا ما كان يدّعيه معاوية بن أبي سفيان[٢].

فخلاصة النقاط الأربع التي جعلت معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه هي

---

(١) راجع بعض الشواهد على ذلك في المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني: نظرة المسلمين إلى معاوية قبل تكشّف أوراقه.

(٢) وقعة صفّين: ١٨٩، أنساب الأشراف ٢: ٢٧٨، الأخبار الطوال: ١٦٢، تاريخ الأُمم والملوك للطبري ٥: ٧.

كما يلي:

النقطة الأُولى: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع.

النقطة الثانية: عليٌّ عليه السلام يواجه إفرازات السقيفة، ومعاوية يكرّس جاهليّة الشام.

النقطة الثالثة: ارتباط عليٍّ عليه السلام بمُعطى السقيفة، وإسلام الشام بمعاوية.

النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ.

مجموع هذه النقاط أوجد بالتدريج بذرة الشكّ في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام، هذا الإمام الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل وتصفية الانحراف من الخارج، وكان يريد أن يُوعّي الجماهير ويفهمها بأنّ المعركة ليست معركة زعامة شخصين، وليست معركة وجوده الخاصّ، وليست معركة قبيلته أو عشيرته أو أمجاده، وإنّما هي معركة رسالة السماء، معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد في سبيلها عشراتُ الآلاف من الأنبياء .. كان يريد أن يوعّي الجماهير على واقع هذه المعركة وطبيعة هذه المعركة، وأنّها معركة السماء لا معركة الأرض، وأنّها معركة الله لا معركة الهوى.

هذا الإمام العظيم بدأت الجماهير تشكّ فيه، وفي واقع المعركة، وفي طبيعة المعركة على أساس النقاط التي ذكرناها.

سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام:

١- هذه الجماهير بعد أن تعبت، بعد أن أرهقها خطّ الجهاد، بعد أن قدّمت للإمام عليّ عليه السلام وللإسلام كثيراً من التضحيات التي قد لا يمكن أن يقدّمها كثيرٌ من المجتمعات .. نَفَسُ هذه الجماهير احتبس، النفَسُ لم يكن طويلاً، بينما الانحرافُ كان ذا نَفَسٍ طويل، انقطع نَفَسُ هذه الجماهير قبل أن ينقطع نَفَسُ الانحراف.

هذه الجماهير حينما أرهقها خطُّ الجهاد، وحينما أخذت تشعر بأنّها في حالة غير طبيعيّة، وحينما أخذت تشعر بأنّها طلّقت الدنيا، طلّقت الأبناء والأموال والثروات في سبيل قضيّةٍ لا تمسّ مصالحهم الشخصيّة .. حينما أخذوا يحسّون هذا ويدركونه بدؤوا يوحون لأنفسهم بالشكّ؛ فإنّ التميّع يوحي بالشكّ، التميّع قد يخلق للإنسان الشكّ.

رغبة هؤلاء في أن يوقفوا هذه الجهود، في أن يحيّدوا أنفسهم، في أن يريحوا أنفسهم، هذه الرغبة النفسيّة تخلق شكّاً، تخلق مبرّراتٍ لا منطقيّة، هذه المبرّرات اللامنطقيّة هي نتيجة الرغبة النفسيّة في أن يتبدّل الحال، في أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل أعباء هذا الخطّ، قبل تحمّل مسؤوليّات هذا الخطّ.

وكانت هناك أشياء كثيرة أيضاً تساهم في هذا الشكّ وفي إشاعته.

٢- كان هناك أُناس من الصحابة على قدرٍ كبيرٍ من الورع والتقوى في نظر الناس. كان هؤلاء الناس المؤمنون ـ والذين لم يكونوا واعين رساليّين عقائديّين ـ يوحون للجماهير بأنّ المعركة ليست معركة صحيحة، أنّ القاعد في المعركة خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من السائر والضارب.

هذا الإيحاء من قِبل أبي موسى الأشعري[١] مثلاً كان له قوّة أكبر بكثيرٍ من الإيحاء المقابل من قِبل عمّار بن ياسر؛ لأنّ إيحاء عمّار بن ياسر يكلّف الموت، يكلّفك أن تتنازل عن حياتك. أمّا الإيحاء من أبي موسى الأشعري فهو يعطي الحياة، ويكفيك بذلَ هذه الحياة، يقول لك: «حافظ على حياتك، ابتعد عن الأخطار، اذهب واجلس في بيتك، ودَعِ الإسلام مع أخطاره ومع أعدائه».

(١) الذي نُصّب للتحكيم مع عمرو بن العاص «ليصلحا بين الناس ويتّفقا على أمر فيه رفقٌ بالمسلمين وحقنٌ لدمائهم» البداية والنهاية ٢: ٢١٦.

عمّار بن ياسر صحابيٌّ كبير، وأبو موسى الأشعري أيضاً صحابيٌّ كبير، هذا يكلّفك بالموت، وذلك يكلّفك بالحياة، ولكن أيّ حياة؟ هذه الحياة الرخيصة، حياة الذلّ والهوان، الحياة تحت ظلّ معاوية، تحت ظلّ الجاهليّة.

هذا الإنسانُ الاعتياديُّ البسيطُ الساذجُ الشاكُّ يفضّل إيحاء أبي موسى الأشعري وأمثاله على إيحاء عمّار بن ياسر وأمثاله؛ لأنّه يريد أن يحتفظ بحياته.

إذن يتعمّق الشكُّ على أساسٍ من إيحاء أمثال أبي موسى الأشعري وعبدالله ابن عمر[١].

٣- وممّا ساهم في تعميق الشكّ أيضاً: أنّه كان هناك نزاعٌ تقليديٌّ بين بني أميّة وبني هاشم، نزاعٌ عاشه بنو أميّة وبنو هاشم قبل الإسلام[٢].

والناس حينما أخذوا يفتّشون عن نقطة ضعفٍ في المعركة، بدأت الأذهان تثير الشكّ في أن تكون المعركة بين عليٍّ عليه السلام ومعاوية نتيجةً لاستمراريّة صراعٍ تقليديٍّ تاريخيٍّ توارثيٍّ بين القبيلتين، بين بني أميّة وبني هاشم.

كلّ هذه العوامل- وعوامل أخرى- ساعدت على أن يكون هذا الإمام العظيم مشكوكاً فيه من قبل هذه الجماهير، أن يكون الطابع الرسالي للمعركة غير واضحٍ عند هذه الجماهير، فكان هذا الإمام العظيم يصعد على المنبر ليدعو الناس إلى الجهاد فلا تتحرّك عواطفهم، كان يستثير هممهم وعزائمهم فلا يستجيبون[٣]؛ لأنّهم بدؤوا يشكّون، والشكُّ في القائد هو أقسى[١] ما يمنى به

(١) وهو الذي رشّحه أبو موسى الأشعري للخلافة بدل الإمام علي عليه السلام ومعاوية، فراجع البداية والنهاية ٧: ٢٨٢.

(٢) راجع كلام المقريزي في كتابه: النزاع والتخاصم في ما بين بني أميّة وبني هاشم: ٣٨، جذور العداء.

(٣) قال عليه السلام: «فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيّام الحرّ قلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يسبّخ عنّا الحرّ. ⇐

هذا القائد المخلص، والشكُّ في القائد هو أخطر[٢] ما تمنى به الأُمّة التي تزعّمها هذا القائد.

بالرغم من هذا الشكّ قلنا في ما سبق[٣] بأنّ الإمامعليه السلام لم يضعف، لم يقف، ولم يتراجع، ولم يتردّد، بقي في المعركة، بقي يواصل عمليّة التعبئة للجهاد لتصفية هذا الانشقاق إلى آخر ساعة من حياته. خرّ صريعاً في المسجد وكان هناك بداياتُ جيشٍ يتجهّز للخروج إلى الشام والقضاء على معاوية بن أبي سفيان[٤].

إطلالة على مرحلة الإمام الحسنعليه السلام:

عوامل تنامي الشكّ وترسّخ عدم رساليّة المعركة:

١- تولّى الإمام الحسنعليه السلام الخلافة في هذه الظروف من التعقيد، ذلك التعقيد الذي بدأ في أواخر حياة أمير المؤمنينعليه السلام. بدأ الإمام الحسنعليه السلام مع جماهير مَلَأها الشكّ، ولا تؤمن إيماناً كاملاً برساليّة هذه المعركة، وبوضوح

⇐

وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم. هذه صبارّة القرّ؛ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد» نهج البلاغة: ٧٠، الخطبة ٢٧. وقالعليه السلام: «مُنيت بمن لا يُطيع إذا أمرتُ، ولا يجيب إذا دعوتُ .. أقوم فيكم مستصرخاً وأُناديكم متغوّثاً، فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً، حتّى تكشّف الأُمور عن عواقب المساءة..» نهج البلاغة: ٨١- ٨٢، الخطبة ٣٩.

(١) كذا في (م)، وفي (غ) و (ج) و (ن): «أقصى»، ولعلّ الصادر منهقدس سره هو ما أثبتناه.

(٢) كذا في (م)، وفي (غ) و (ج): «أخشى»، والمقصود: أكثر ما يُخشى منه، وفي (ن): «أخسّ».

(٣) في ذيل المحاضرة الحادية عشرة، تحت عنوان: الأُمّة وقائدها شريكان في الامتحان العصيب.

(٤) «كان أمير المؤمنين عليٌّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لمّا ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام، فبينما هو يتجهّز للمسير قتلعليه السلام». الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٤.

أهداف هذه المعركة، ولا تتجاوب ذهنيّاً[١] وإسلاميّاً مع هذه المعركة.

٢- فإذا أضفنا إلى هذا الفارقَ بين شخصيّة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وشخصيّة الحسن عليه السلام، لا الفارق بينهما في حساب الله سبحانه وتعالى؛ فإنّ كلّ واحد منهما إمامٌ معصوم عند الله، وإنّما الفارق بينهما بحسب المفهوم التاريخي في أذهان الناس أنفسهم؛ فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يملك رصيداً تاريخيّاً في نفوس الناس لا يملك مثله الإمام الحسن عليه السلام.

٣- إذا أضفنا هذا إلى ذاك، وأضفنا كونَ تولّي الإمام الحسن عليه السلام للزمام[٢] بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام [قد] قوّى أن تكون الشبهة قَبَليّة، وأنّ المعركة هي معركة بيتٍ مع بيت، لا معركة شخصٍ يمثّل الرسالة مع شخص يمثّل الجاهليّة؛ لأنّ المسلمين[٣] في ذلك الوقت لم يكونوا مؤمنين بفكرة النصّ من قِبل الرسول صلى الله عليه وآله، فكرةِ الإمامة القائمة على النصّ، ولم يكن تولّي الإمام الحسن عليه السلام للزعامة بنظرهم كإمامٍ منصوصٍ عليه، بل كإمامٍ على أساسٍ من الخطّ العامّ للسقيفة، وحين رأوا أنّ الإمامة انتقلت من الأب إلى الابن أصبح الإيحاء لديهم أقوى بأنّ المعركة معركة بيتٍ مع بيت، لا رسالة مع رسالة[٤].

كلّ هذا عقّد الموقف، وجعل الشكّ يتفاعل[٥] في المقام، إلى درجة أنّ خوض معركةٍ منتصرةٍ مع هذا الشكّ أصبح مستحيلاً.

---

(١) كذا في (غ) و (ج) و (ن)، وفي (م): «دينيّاً» بدل «ذهنيّاً».

(٢) كذا في (غ) و (ج) و (ن)، وفي (م): «الزعامة الدينيّة»، والمراد واضح.

(٣) كذا في (غ) و (ج) و (ن)، وفي (م) جُعل التعليل عاملاً مستقلاً؛ إذ جاء: «إلى جانب أنّ المسلمين».

(٤) مراده (قدّس سرّه): «لا معركة رسالة الإسلام مع رسالة الجاهليّة».

(٥) كذا في (غ) و (ج) و (ن)، وفي (م): «يتصاعد».

الإمام الحسن عليه السلام أمام موقفين:

وعندما أصبح خوض معركة منتصرة [أمراً] مستحيلاً، بقي أمام الإمام الحسن عليه السلام أن يخوض المعركة اليائسة، يعني: المعركة التي يُستشهد فيها [من يُستشهد] ويُقتل فيها من يُقتل.

وهذه المعركة اليائسة لم تكن لتؤدّي مفعولاً على الإطلاق؛ لأنّها سوف تتمُّ في ظلّ شكّ الجماهير، فما هي أهدافها؟ وما هي طبيعتها؟ أهي مجرّد عناد؟! [مجرّد] استمرار على خطّ الزعامة القَبَليّة والعناد بين البيتين؟! أو هي رسالة وأمانة إلهيّة؟![1]

ولو خاض الإمام الحسن عليه السلام هذه المعركة اليائسة لكانت في نظر كثيرٍ من المسلمين على مستوى المعركة اليائسة التي خاضها عبدالله بن الزبير. [كانت] معركةً يائسة، حينما فرّ عنه أصحابه، فيما تقدّم هو بنفسه مع أصحابه الخواص، فقاتلوا حتّى قتلوا جميعاً، وقتل هو أيضاً.

عبد الله بن الزبير خاض معركةً يائسة[2]، هل ذكر أحدٌ من المسلمين عبدالله ابن الزبير؟ هل فكّر أحدٌ من المسلمين في أنّ عبد الله بن الزبير خاض معركته من أجل الإسلام؟ بذل دمه من أجل العمل الإسلامي؟

أبداً وعلى الإطلاق، لماذا؟ لأنّ الناس كانوا يعيشون مفهوماً واضحاً ـ أو نصف واضح ـ عن عبدالله بن الزبير بأنّه يخوض المعركة ضدّ عبد الملك بن مروان لزعامته الشخصيّة، لا لأجل حماية الإسلام، ولا لأجل إنقاذ الرسالة

(١) لم تتّفق (م) و (غ) و (ج) و (ن) على صيغة واحدة في تقرير التساؤلات الأخيرة، وقد أثبتناها تلفيقاً بينها. وقوله: «العناد بين البيتين» أثبتناه من (ن)، ويُحتمل كونه: «العداء بين البيتين».

(٢) الأخبار الطوال: ٣١٤؛ تاريخ الأُمم والملوك للطبري ٦: ١٨٧، الفتوح لابن أعثم ٦: ٣٣٧.

ولأجل تعديل الخطّ.

نفسُ هذا الشكّ ـ بدرجة أو بأخرى ـ كان قد وُجد في الجماهير أيّام الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنّه كان موجوداً في آخر أيّام أمير المؤمنين عليه السلام، وتعقّد ونما في عهد الإمام الحسن عليه السلام.

وعليه، فلو خاض الإمام الحسن عليه السلام المعركة اليائسة لكانت هذه المعركة يائسةً جدّاً إلى درجة كبيرة، كالمعركة التي خاضها عبد الله بن الزبير، ولم يكن لمثل هذه المعركة أيُّ عطاءٍ للإسلام وللعمل الإسلامي.

ضرورة الانحسار المؤقّت لخطّ الإمام علي عليه السلام:

كان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام ـ ولا بدّ للخطّ الصحيح ـ أن ينحسر مؤقّتاً ويهادن مؤقّتاً، ويستولي معاوية بن أبي سفيان على كلّ العالم الإسلامي؛ لكي ينكشف مضمون أطروحة معاوية، ولكي يعرف هؤلاء المسلمون البسطاء الّذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرونه بأعينهم[1] مَن كان عليّ عليه السلام، ومن كان معاوية، وماذا كانت اُطروحة علي عليه السلام، وما هي اُطروحة معاوية.

ولقد ساهم معاوية نفسه إلى درجة كبيرة في كشف هذا الواقع؛ حيث لم ينتظر إلى أن تكشف الوقائع والأحداث عن حقيقته، بل أعلن منذ اليوم الأوّل عن مضمون هذه الأطروحة[2]، وبدأ يواصل هذا الإعلان عمليّاً ولفظيّاً في

(١) راجع في هذه المحاضرة: طبيعة الموقفين وصراع الأطروحتين، النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ.

(٢) على ما تقدّم في المحاضرة الحادية عشرة من كتاب أئمة أهل البيت عليهم السلام للشهيد محمدباقر الصدر، تحت عنوان: أسباب الشكّ في رساليّة المعركة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، السبب الثاني. وفي هذه المحاضرة، تحت عنوان: طبيعة الموقفين وصراع الأطروحتين، النقطة الرابعة.

مختلف مجالات سياسته، حتّى أخذ المسلمون يشعرون شعوراً كاملاً واضحاً بأنّ أُطروحة معاوية هي أطروحة الجاهليّة التي تريد أن تهدّم الإسلام والكيان الإسلامي، وأنّ عليّ بن أبي طالب هو الذي كان يحمل المشعل، هو الذي كان يضيء الطريق، وأنّ تلك التجربة القصيرة التي زاولها في الحكم بقيت مثلاً أعلى، بقيت أملاً وحلماً في نظر الجماهير الإسلاميّة، وهم في خضمّ بؤسهم الذي كانوا يعيشون فيه، وفي خضمّ ما كانوا يعيشونه من البلاء.

وهكذا رأينا أنّ كثيراً من المسلمين كانوا يتّصلون بالإمام الحسن عليه السلام بين حين وحين ويطلبون منه أن ينقض الهدنة؛ لأنّ معاوية أخلّ بالشروط.

ولكنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يقول: بأنّ لكلّ شيء أجله، ولكلّ شيء حسابه. لم يكن يرفض بشكلٍ مطلقٍ فكرة نقض الهدنة، لكنّه كان يؤجّل هذا النقض بلُغَة أنّ لكلّ شيءٍ أجله وحسابه[1]؛ وذلك لأنّه يريد أن ينكشف معاوية بصورةٍ أوضح وبصورةٍ أكبر، وكان يريد أن تكون أهداف معاوية مكشوفةً لكلّ إنسان.

إلا أنّ معاوية بن أبي سفيان عرف أنّه سوف يتكشّف على هذا المستوى، وسوف يفتضح أمام المسلمين، ففكّر في أن يخفي هذه الفضيحة، أي أنّه فكّر في أن لا يكون مصيره مصير ابن عمّه عثمان بن عفّان.

عثمان تكشّف، لكن إلى درجةٍ ضئيلةٍ جدّاً، وهو يريد أن يتكشّف بدرجةٍ

(١) فإنّه بعد أن خطب معاوية قائلاً: «كلّ شرط شرطته لكم فهو مردود، وكلّ وعد وعدته أحداً منكم فهو تحت قدميّ»، قال المسيّب بن نجبة الفزاري للحسن عليه السلام: «أرى والله أن ترجع إلى ما كنت عليه وتنقض هذه البيعة؛ فقد نقض ما كان بينك وبينه»، فقال عليه السلام: «يا مسيّب! إنّ الغدر لا يليق بنا ولا خير فيه ... ولكنّي أردت بذلك صلاحكم وكفَّ بعضكم عن بعض، فارضوا بقضاء الله وسلّموا الأمر لله؛ حتّى يستريح برٌّ ويُستراح من فاجر». الفتوح لابن أعثم ٤: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

كبيرة جدّاً؛ لأنّه يريد أن يتمتّع بالدنيا إلى أقصى مدى يمكن أن يتمتّع به ملك. هو يريد أن ينكشف، ومن همّه وهدفه ذلك، لكنّه في نفس الوقت يريد أن لا تكون نتيجته نتيجة عثمان ونهاية عثمان.

كان يريد أن يتحصّن من هذه النتيجة؛ وذلك بأن يُميت للأمّة الإسلاميّة ضميرها وإرادتها وقابليّتها لمقابلة جور الظالمين، فوضع سياسته خلال عشرين عاماً[1] ليميت هذا الضمير، وليميت هذه الإرادة، ليميّع الأُمّة الإسلاميّة، ويجعل المسلمين ينصرفون عن همومهم الكبيرة إلى الهموم الصغيرة، عن الآلام الضخمة إلى آلام حياتهم البسيطة، ينصرفون عن الأهداف التي كانوا يحملونها لتحطيم جاهليّات العالم كلّها إلى الدوائر الضيّقة، جعلهم ينصرفون إلى عيشهم ومصالحهم الصغيرة إلى الدريهمات التي كانوا يتقاضونها من بيت المال في رأس كلّ شهر.

هذا المسلم الذي كان يفكّر في تحطيم ظلم الظالمين في بلاد كسرى وقيصر[2] أصبح لا يفكّر إلا في هذه الدريهمات الرخيصة، إلا في هذه الحياة الضئيلة المبتذلة التي يمنّ بها عليه عمّال بني أميّة.

هل تصدّقون أنّ شيوخ القبائل في الكوفة أصبحوا جواسيس لمعاوية بن أبي سفيان بالرغم من أنّهم من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام؟! أصبحوا عملاء وجواسيس

---

(١) وهي فترة ولاية معاوية على الشام إلى حين صلح الحسن عليه السلام عام ٤١ هـ؛ حيث كان معاوية قد تولّاها بعد هلاك أخيه يزيد سنة ثمان عشرة، كما أشرنا في هامش سابق من هذه المحاضرة.

(٢) تقدّم منه قدس سره هذا المعنى في المحاضرة الخامسة، تحت عنوان: الأمّة الإسلاميّة حملت طاقةً حراريّةً ولم تحمل وعياً مستنيراً، استيلاء المسلمين على كنوز كسرى وقيصر، فراجع: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ٤: ١٤ ـ ١٥، نهاية الأرب في فنون الأدب ١٩: ٢٩١، فتوح مصر وأخبارها ١: ١٤٦، تاريخ الأُمم والملوك للطبري ٣: ٥٢٠؛ المنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٤: ١٦٨، الكامل في التاريخ ٢: ٤٦٣، البداية والنهاية ٧: ٣٩.

لمعاوية، يعطونه الأخبار المفصّلة عن أيّ تحرّك وأيّ تحسّس من قِبل شباب قبائلهم، يعطون الأخبار والأرقام لشرطة معاويةَ بن أبي سفيان؛ ليضربوا هذا التحرّك ويسرقوا أنفاس هؤلاء الشباب(١).

هؤلاء الشيوخ كانوا شيعةً لعليّ عليه السلام ويؤمنون به، فكيف بغيرهم؟!

ماتت الضمائر، ومات الدين، ماتت إرادة المسلمين، واستسلم المسلمون السنوات العشرين التي حكمها معاوية، والتي هي من أخزى الفترات التي مرّت في تاريخ الأُمّة الإسلاميّة على الإطلاق.

كلّ إنسانٍ كان يحسّ إحساساً واضحاً بأنّه مظلوم، وأنّ الامّة الإسلاميّة ككلٍّ مهدّدة بالخطر، وأنّ الإسلام في مهبّ الريح، وأنّ أحكام الشريعة يُتلاعب بها، وأنّ الحاكم لا يفكّر إلا في نفسه، وإلا في وجوده وفي مصالحه الخاصّة.

هذا كان واضحاً عند كلّ إنسان، ولكن كلّ إنسانٍ كان لا يفكّر أن يبدأ هو، لا يفكّر في أن يتقدّم هو. كلّ إنسانٍ كان حينما يفكّرٍ في أن يتقدّم يفكّر قبل هذا بالدراهم التي يقبضها في آخرِ الشهر والتي سوف تنقطع عنه، فكان يحجم عن الإقدام. كانت كرامة كلّ إنسانٍ وكرامة أمّته ودينه أرخص عنده من هذا العيش الذليل، أرخص عنده من هذا العطاء الرخيص الذي يتقاضاه آخر الشهر من قبل معاوية.

فكان لا بدّ ـ والحالة هذه ـ من شخصٍ يقوم بدورٍ يحوّل هذه الضمائر ويحوّل هذه الإرادة، ينقذها من الموت إلى الحياة، ولم يكن يوجد وقتئذٍ شخصٌ يمكن أن يقوم بهذه المهمّة إلا الحسين عليه السلام.

---

(١) «وكتب جماعةٌ من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له في السرّ، واستحثّوه على السير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوّهم من عسكره أو الفتك به». الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢.

بذرة الشكّ:

❊ (القسم الأوّل)

قلنا: إنّه بعدما خرّ الإمام صريعاً في المسجد كانت بذرة التناقض للتجربة الإسلامية التي تزعّم قيادتها لإعادة كامل الصيغة الإسلامية إلى الحياة بدأت تستفحل وتشتدّ، هذه البذرة هي التي سمّيناها في ما سبق بالشكّ، ودرسنا الظروف الموضوعيّة والنفسية والتأريخية التي كوّنت هذا الشكّ، ونقصد من هذا الشكّ: الشكّ في القائد، في نظرية القائد وأطروحته التي يكافح من أجلها ويحارب على أساسها، وكان هذا الشكّ ـ على ما أوضحناه فيما سبق ـ شكّاً مصطنعاً ولم يكن شكّاً حقيقياً، أي بالرغم من أنّه كان يعيش وجداناً في أكثر القطاعات التي دخلت في حكم الإمام علي عليه السلام، بالرغم من هذا لم يكن شكّاً بحكم المنطق أو بحكم السيرة للإمام علي عليه السلام، وإنّما كان شكّاً مستوحىً من إرهاق هؤلاء وانخفاض أنفاسهم من خطّ الجهاد الطويل المتواصل.

اقتناع الأُمّة شرط النجاح:

وما من رسالة وقائد يحسن أُطروحة رسالية تكون فوق مصالح الأفراد وفوق حدود وجوداتهم، ما من رسالةٍ وقائدٍ يحمل رسالةً من هذا القبيل يمكن أن ينجح في خطّ عمله ما لم يحصل على اقتناع الأُمّة بالأطروحة والقضية.

القضية التي أكبر من مصالح هذا الفرد بالذات وذاك الفرد بالذات فلا يمكن أن يضمن نجاح مصلحة هذا الفرد بالذات. المصالح المحدودة المقيّدة قد تتعارض مع قضية كبيرة، وهذه القضية الكبيرة جدّاً، أيّ قضية كبيرة جدّاً تُطرح على المسرح السياسي أو الاجتماعي لا يمكن أن تنجح إلا إذا حصلت

على اقتناع من الأُمّة بصحّة هذه القضية ونُبلها وواقعيتها، وضرورة تطبيقها.

وهنا لا يلزم أن يحصل هذا الاقتناع من الأُمّة ككلّ، بل يكفي أن يحصل هذا الاقتناع لجزء الأُمّة، ثمّ يُحصِّل هذا الجزء باقي الأجزاء، فيجمّد باقي الأجزاء ويكسبها بالتدريج إلى الاقتناع كما وقع في أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله.

كان هناك اقتناع من قبل جزءٍ من الأُمّة، وكان هناك استسلام وتجميد من قبل أجزاء أخرى سمّاها القرآن بالمنافقين، وهو الجزء المناقض من الأُمّة. كان محمّد والجزء المقتنع من الأُمّة هو الطليعة التي تحمل بيدها الرسالة وتحارب من أجلها وتبذل دمها في سبيل تحقيق الأهداف. هذا المنطق كان يقضي على التجربة التي خلّفها الإمام علي بأن تعيش حالة مضطربة من التناقض؛ لأنّ هذا الاقتناع الذي هو شرط ضروري في إنجاح أيّ أطروحة رسالية تتعدّى حدود ومصلحة الأفراد، هذا الاقتناع لم يكن متوفّراً في أواخر عهد الإمام علي عليه السلام بحكم الظروف التي كان يعيشها الإمام علي عليه السلام.

تحوّل الشكّ بعد عهد الإمام عليّ عليه السلام:

وهذا الشكّ كان قد بدأ من عهد الإمام علي، واستمرّ بعد الإمام علي عليه السلام حينما تولّى الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم، غير أنّه تحوّل من شكّ سلبي على الأكثر إلى شكّ إيجابي على الأكثر، كان هذا الشكّ في أيام الإمام علي عليه السلام شكّاً سلبيّاً إذا استثنينا قضيّة الخوارج، هذا الشكّ في أُطروحة الإمام كان شكّاً سلبياً، يعني كان ينعكس على مستوى سلبي لا على مستوى إيجابي، ينعكس على مستوى التخاذل والتميّع والتثاقل عن الزحف، والتلكّؤ في تلبية الأوامر العسكرية التي كان يصدرها الإمام علي عليه السلام بالالتحاق بخطّ الجهاد. كان

ينعكس من واقع سلبية على الأكثر، بينما هذا الشكّ بعد الإمام أخذ ينعكس انعكاساً إيجابياً.

ومن ناحيةٍ أخرى اتّسع نطاقه فشمل قطاعاتٍ أكثر من المجتمع الذي كانت تحكمه التجربة، يعني طرأ على هذه التجربة تحوّل كيفي ينعكس إيجابياً على الأكثر، كما كان ينعكس سلبياً على الأكثر، والتحوّل الكيفي جعله يطغى ويشتدّ بالتدريج في الجماهير التي كان من المفروض أن تساهم في مراحل العمل والجهاد في إنجاح التجربة.

أمّا لماذا طغى هذا الشكّ كيفياً وكمّياً بعد الإمام علي عليه السلام؟ وهذا هو السؤال الذي يجب أن يجاب عليه، والجواب ينحصر في النقاط التي ذكرناها في أبحاثنا السابقة. هذا الشكّ بدأ من عهد الإمام علي عليه السلام، وكان فحوى هذا الشكّ ومضمونه هو تشكيك الإنسان العراقي المجاهد تحت لواء الإمام علي عليه السلام في أن تكون معركة الإمام علي عليه السلام مع معاوية معركة الإسلام مع الجاهلية في ثوبها الجديد، هذا المفهوم الذي كان يعطيه الإمام بقوله، بوجوده، بسلوكه، بكلّ جوارحه ومشاعره، هذا المفهوم المعطى من قبل الإمام علي عليه السلام وهو أنّ معركته مع معاوية كانت معركة بالصيغة الإسلامية الكاملة الشاملة للحياة مع الجاهلية، ولكن بالثوب الجديد وعلى مستوى جديد؛ لأنّ الجاهلية بالأمس لم تكن تقتنع إلا بأفكار الصيغة الإسلامية رأساً، بأفكار النبوّة رأساً، ولكن بعد ذلك وبعد أن سيطر الإسلام على مقاليد كسرى وقيصر وملك المعمورة، بعد هذا أصبحت الجاهلية بإزاء أمر واقع استشعرت في مقابل هذا الأمر فعدّلت من موقفها، فبينما تريد أن تنكر الإسلام ككلّ بدأت تحاول أن تنكر جزءاً من الإسلام، الجزء الذي يتعارض مع واقع مصالحها السياسية والاجتماعية، وفهمها

لأساليب الحياة وتقييمها للسلوك.

المعركة هي هذا، كان يعطيها الإمام لا بقوله فقط، بل بسلوكه ووجوده وتصديقه، بهذا المفهوم استطاع الإمام أن يعمل المعجزة في سبيل أن يجعل شعباً يواكب هذا المفهوم ويقتنع بهذا المفهوم، شعباً لم يعش أيام الرسالة الأولى، لم يعش قضية الإسلام على عهد النبوّة، شعب العراق دخل الإسلام منذ سنين عديدة، لم تكن القواعد الشعبية التي اعتمد عليها الإمام علي عليه السلام قد عاشت أكثر أيام الإسلام الأولى، أيام الوحي الأولى، مع هذا كسب الإمام هذا الاقتناع إلى درجةٍ ما وإلى وقتٍ ما، ثمّ بدأ الشكّ في ذلك، الشكّ في قضية عليّ عليه السلام مع معاوية هل هي قضية الإسلام مع الجاهلية بثوب جديد؟ أو هي قضية صراع بين الشخصيتين، بين أسرتين، بين اتجاهين كانا يتحاربان قبل الإسلام واستأنفا الحرب بعد الإسلام؟ كان هاشم مع أُميّة، كان عبد المطلب مع أُموي آخر، كان محمّد مع أبي سفيان، كان عليّ مع معاوية، هل هذه الحرب هي استمرارية في اتجاهين تأريخيين وعلاقة تأريخية متعاصرة بين هاتين القبيلتين؟

هذا الشكّ بدأ يوجد وينمو في عصر الإمام علي عليه السلام، والمنمّي له هل هو الإمام؟ أو سياسة الإمام علي عليه السلام؟ بل هو الإرهاق الشعبي، انقطاع النفس، رغبة الشعب، حبّ السلامة. هذا هو الذي نمّى هذا الشكّ، هذا الشكّ يشتدّ ويقوى بعد الإمام علي عليه السلام، فإنّ موت الإمام كان مثيراً لعوامل عديدة، هذه العوامل العديدة أدّت إلى تنمية هذا الشكّ كمّاً وكيفاً.

عوامل تنامي الشكّ:

العامل الأوّل:

أوّل هذه العوامل: لحظة الفراغ، بينما الإمام علي عليه السلام ملأ مركزه السياسي للتجربة، كان كلّ إنسان في التجربة مشدوداً بواقع حياته إلى الاعتراف بسلطة الإمام وشرعيّته وأحقيته كما كان هكذا، بينما فُقد الإمام في لحظة مفاجئة من دون سابق أيّ تمهيد أو إعداد لهذا الخطّ؛ لأنّ هذا الخطّ ـ نتيجة اغتيال ـ أودى بحياة هذا الإمام العظيم، وإنّ المسلمين الّذين عاشوا في كنف التجربة التي يتزعمّها الإمام عليّ عليه السلام هؤلاء عاشوا لحظة فراغ سياسيٍّ حينما انطفأت الشعلة، حينما خلت الساحة من الإمام أخذوا يحسّون بأنّهم يفقدون اختيارهم، بأنّهم أصبحوا في مركز لا بدّ لهم أن يفكّروا من جديدٍ في أنّ أيّ الطريقين لا بدّ أن يختاروا، استمرارية الحاكم كانت تمنع من أن يشعروا بأنّهم في موقفٍ يتيح لهم التفكير من جديد، أمّا انطفاء الشعلة وخلوّ الساحة من الإمام القائد أدّى إلى أنّ هؤلاء أصبحوا يشعرون بأنّهم في موقفٍ جديد، ويدرسوا قضيّتهم الجديدة، ويدرسوا على ضوء مصالحهم الاتجاه والسلوك الذي يجب أن يطبّق بالنسبة إلى مستقبلهم.

العامل الثاني:

إنّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلّم مقاليد الحكم كان هناك كيان سياسي قائم يحكم في العالم الإسلامي، وهذا الكيان يتمثّل في حكم الشام الذي كان يقوده معاوية، كان هناك كيانان سياسيان حاكمان في العالم الإسلامي: أحدهما يقوده الإمام الحسن عليه السلام، والآخر يقوده معاوية، وهذا الكيان الذي يقوده معاوية

أكسبه في نظر معاوية وأهل الشام شرعيّة ثوب الخلافة بعد التحكيم أعقاب معركة صفّين. لهذا أخذ يعيش معاوية مع قاعدته كما يعيش الخليفة مع رعيّته، والإمام عليّ عليه السلام كان استمرارية لوجود سياسيّ أسبق وخلافة مشروعة أسبق زمناً من هذا الكيان السياسي القائم بالشام، لكن بعد أن خلا الميدان من الإمام علي عليه السلام وجاء الحسن عليه السلام يتسلّم مقاليد الحكم كان في الذهنيّة العامّة والتصوّر العامّ من الإنسان العادي المسلم بأنّ هناك شيئاً يملأ الفراغ إلى حدّ ما، فلا بدّ من التفكير من جديد؛ لأنّه من اللازم بناء كيان سياسيّ جديد أو الالتحاق بهذا الكيان القائم، مثل هذا التفسير لم يكن موجوداً في أيام الإمام عليّ عليه السلام، بل إنّ هذا الكيان السياسي القائم في الشام طرح في أيام عليّ عليه السلام، بينما الآن كيان الحسن عليه السلام يعتبر هو الطارئ في أذهان الإنسان العادي على الكيان السياسي.

فقد استغلّ معاوية هذه النقطة في كتابه إلى الإمام الحسن عليه السلام حيث قال ما مضمونه: «قد تمّت الخلافة لي ولزمتك منذ يوم التحكيم، وأنت الآن لا بدّ لك أن تدخل فيما دخل الناس»[1]؛ معاوية يتكلّم بلغة الخليفة، بينما معاوية لم يكن يمكنه أن يتكلّم بلغة الخليفة في عهد عليّ عليه السلام؛ لأنّه هو الذي شقّ عصا الطاعة على عليّ عليه السلام، فلو تكلّم لم يكن مثل هذا الكلام قادراً على أن يزرع الشكّ، فهذا العامل الثاني يجعل مثاراً للشكّ في أذهان العاديين غير الواعين من أنّه هل من الضروري الحفاظ، أو هل من الضروري بناء هذا الكيان إلى جانب ذلك الكيان، أو بالإمكان الانسحاب من ذلك الكيان؟

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٥٥، باب كيفيّة مصالحة الحسن عليه السلام معاوية، الباب ١٩، الحديث ٦.

العامل الثالث:

هو الاعتبارات الشخصية القائمة في أمير المؤمنين، الإمام الحسن والإمام علي عليهما السلام في منطق العصمة سواء، وفي منطق النصّ الإلهي سواء، ولكن هما في منطق الجماهير وقتئذ لم يكونا سواء، ونحن نعلم بأنّ الحكم الذي كان يمارسه الإمام علي عليه السلام لم يكن قائماً على أساس نصٍّ إلهيٍّ أو العصمة، وإنّما كان استمراراً لخطّ السقيفة، غاية الأمر بأنّ هذه الجماهير التي أخطأت حظّها في المرّة الأولى، وفي المرّة الثانية، وفي المرّة الثالثة، أصابت حظّها في المرّة الرابعة.

فهذه التجربة كانت تقوم على أساس مفهومٍ جماهيري، لا على أساس نظرية العصمة والنصّ الإلهي، وهنا يدخل في تقييم الحاكم اعتبارات كثيرة كانت الجماهير تعيشها. فالجماهير كانت تعيش اعتباراتٍ عديدةً عن الإمام عليّ عليه السلام، ولا تعيش مثل هذه الاعتبارات عن الإمام الحسن عليه السلام، من ناحية أنّ الإمام علياً سوابقه من أيام الرسول، صحبته الطويلة، مواقفه العظيمة في الأيّام الأُولى من الإسلام، سلطته الروحية والعلمية في آفاق الصحابة، كلّ هذا يجعل من الإمام عليّ عليه السلام رجلاً عظيماً في أنظار المسلمين، رجلاً أهلاً لأن تسلّم إليه مقاليد الأمور حتّى في اللحظة الحرجة. أمّا الإمام الحسن عليه السلام لصغر سنّه، وعدم وجود تأريخ مماثلٍ له من هذا القبيل، لم يكن يملك القدرة على إخضاع النفوس، على إخضاع المسلمين نفسياً بالشكل الذي كان يتاح للإمام عليّ عليه السلام.

من ناحيةٍ أخرى البيعة التي حصل عليها الإمام عليّ عليه السلام كانت أوضح شرعيةً في نظر الجماهير التي تؤمن باتجاه السقيفة، كانت أوضح شرعيةً من بيعة

الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنّ بيعة الإمام عليّ عليه السلام تمّت في المدينة، وتمّت على يد الصحابيين، ولم يختلف في ذلك إلا أناس قليلون، الباقون كلّهم بايعوا، كانوا القاعدة الأُولى لبيعة الإمام عليّ عليه السلام وكان هناك عدد كبير من الصحابة لا يزال موجوداً على المسرح الاجتماعي والسياسي، كلّ هذا يعطي لحاكميّة الإمام عليّ عليه السلام من البهاء والشرعية والقدرة على التأثير والنفوذ والإخضاع لنفوس الآخرين، مثل هذا لم يكن متوفّراً للإمام الحسن عليه السلام.

العامل الرابع:

من عوامل تعميق الشكّ هو أنّ الحسن عليه السلام قد تسلّم مقاليد الحكم عقيب أبيه مباشرة، استوحى بهذا العمل الإنسان العادي الضعيف غير الواعي قرينة جديدة على ذلك التصوّر الخاطئ، الإنسان الذي يفترض أنّ معركة عليّ عليه السلام مع معاوية معركة أسرة مع أسرة، معركة عشيرة مع عشيرة، لا معركة رسالة مع رسالة. الإطار القَبَلي للمعركة، هذا الإطار عزّزه أنّ الحسن عليه السلام تولّى الإمامة والخلافة بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، طبعاً هذا التعزيز لم يكن موجوداً لو افترضنا أنّ الجماهير المسلمة كانت واعيةً وكانت تعيش نظريّة الإسلام عن الإمام حقيقة، ولكن حيث إنّ الجماهير لم تكن واعيةً، حيث إنّ الجماهير كانت هي الجماهير السقيفة التي قالت: من ينازعنا سلطان محمّد صلى الله عليه وآله [1]، هذه الجماهير كانت تحمل تلك الروح، ولهذا استوحت وتصوّرت أنّ تسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم عقيب استشهاد الإمام عليه السلام هذا يكون قرينة على أنّ القصّة بيتٌ في مقابل بيت، وليست قصّة رسالة في مقابل رسالة.

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٥٧.

وأقول: إنّ الذي منع الإمام علياً عليه السلام من الإعلان الرسمي والسياسي على مستوى الجماهير عن خليفته الإمام الحسن عليه السلام له في المركز السياسي هو تفادي مثل هذا التصوّر؛ ولهذا أوصى الحواريين الّذين يؤمنون بالنظرية الإسلامية الصحيحة للإمامة، أوصى إليهم بإمامة الحسن عليه السلام وعرّفهم بأنّ الحسن عليه السلام هو الإمام وهو الحجّة من قبل الله والوصيّ من بعده، إلا أنّه بوصفه حاكماً ورئيساً للدولة لم يعلن إعلاناً رسمياً سياسياً أنّ الحسن عليه السلام هو الذي يتسلّم الأمر من بعده.

العامل الخامس:

من عوامل تعمّق الشكّ في نفوس المسلمين هو: أنّ الإمام الحسن عليه السلام لظروفٍ ـ سوف نشرحها ـ لم يكن قد تسرّع للإعلان عن عزمه على الحرب مع معاوية والاشتباك المسلّح مع معاوية، عدم إعلان الإمام الحسن عليه السلام وعدم تسرّعه بالإعلان عن عزمه على الاشتباك المسلّح مع معاوية استغلّه معاوية، وأشاع على أساسه أنّ الحسن عليه السلام يفكّر في الصلح، كانت هذه الإشاعة القائمة على أساس هذه النقطة، وكانت لهذه الإشاعات مساهمة كبيرة جدّاً في توسيع نطاق الشكّ عند المسلمين وتردّدهم في أن تكون هذه القضية التي يحاربون من أجلها قضيةً يشكّ فيها القائد نفسه.

* * *

هذه العوامل الخمسة أدّت إلى توسيع نطاق هذا الشكّ المصطنع بعد وفاة الإمام لتسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم والزعامة، وهذا الشكّ المصطنع الذي اشتدّ على أساس هذه العوامل تحوّل ـ كما قلنا ـ كيفياً من طاقةٍ سلبيةٍ إلى

طاقة إيجابية، وتحوّل كمّياً من شكّ يعيشه بعض الأفراد والجماعات إلى شكٍّ تعيشه الجماهير في مختلف قطاعاتٍ هذا المجتمع الذي كان يحكمه الإمام الحسن عليه السلام.

هذا الشكّ يبدو بكلّ وضوحٍ منذ اللحظة الأُولى لتسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم، منذ اللحظة الأُولى التي فوجئ بها الإمام عليه السلام باستشهاد والده عليه السلام إلى اللحظة الأخيرة التي تمّ فيها تسليم الأمر لمعاوية، في كلّ هذه الفترة القصيرة منذ اللحظة الأُولى إلى اللحظة الأخيرة نحن نجد الشواهد تلو الشواهد والدلائل تلو الدلائل على هذا الشكّ المرير المتزايد المتنامي في نفوس الجماهير في القائد، وفي الأُطروحة، وفي الأهداف، وفي الرسالة.

ظروف بيعة الإمام الحسن عليه السلام:

الإمام علي عليه السلام يستشهد، ويعلن الإمام الحسن عليه السلام عن وفاة الإمام العظيم، ولم يعلن عن مسألة الخليفة ليعيّنوا ما يملأ به الفراغ السياسي الذي تركه الإمام علي عليه السلام، يذهب الإمام الحسن عليه السلام إلى المسجد يؤبّن الإمام عليّاً ويقرّر[١] أباه وينعاه، وفي هذا التقرير يحاول أن يدفع الشكّ بقدر ما يمكن بكلماتٍ تدفع الشكّ، أراد أن يستعرض صورةً ملخّصةً عن هذا الإمام العظيم الذي خرّ شهيداً في المسجد بين المسلمين، أراد أن يقدّم بين المسلمين صورةً موجزةً عن هذا الرجل النظيف الذي لم يعش لحظةً إلا لرسالته ولإسلامه بعد أن ألقى الخطبة التي أراد فيها أن يدفع الشكّ بقدر ما يمكن لخطبته أن تدفع الشكّ عن الإمام عليّ عليه السلام. بعد هذا وقف ساكتاً يتأمّل ليرى ماذا سيكون ردّ الفعل؟ ماذا يكون

(١) كذا في الأصل.

موقف المسلمين من هذه اللحظة، من ملء الفراغ، من القضية المطروحة الآن؟ وهي قضية ملء الفراغ الذي تركه الإمام علي عليه السلام، لمن يتوجّه المسلمون الآن؟

كلّ المسلمين سكتوا، لم يقم أحد، لم يجب أحد، لم يبرز أحد شيئاً، هؤلاء المسلمون المجتمعون في المسجد، هؤلاء هم الأمناء على التجربة، هم أصحاب عليّ، هم قادة هذا المجتمع، هم الطليعة التي كان بها يصول وبها يكافح وبها يجاهد هذا الإمام العظيم، كلّهم سكتوا، لم يجب واحد لم يقل شيئاً أبداً.

قال ابن عمّه عبد الله بن عبّاس: نقدّم أطروحة خلافة الإمام، قال بأنّ علياً عليه السلام إن كان قد ذهب فهناك ابنه الحسن عليه السلام[1]، سوف يواصل طريقه، سوف يسير في خطّه، سوف يحمل اللواء، سوف نسير في كنفه.

حينما قدّم هذا الشعار أو هذه الأطروحة بدأ شخص من زاوية المسجد، وشخص من زاوية أخرى، وهكذا فاستجابوا مع هذا الشعار وبويع الإمام عليه السلام.

لماذا قَبِل الإمام الحسن عليه السلام أن يبايع؟

وهنا قد يقول القائل: إنّ الإمام الحسن لماذا قبل أن يبايع وهو يشعر بهذا الشكّ المتزايد المتنامي، هذا الشكّ الذي يُعجز القيادة عن إنجاح أهدافها والوصول إلى أغراضها؟ لماذا وافق أن يبايع وأن يتسلّم زمام الحكم في لحظةٍ يائسة؟

الجواب: أنّه لو لم يقبل بذلك، لو أنّه رفض أن يبايع، لو أنّه لم يتسلّم مقاليد الحكم بعد الإمام عليّ عليه السلام لقيل بأنّ هذا الشكّ الذي يعيشه المسلمون يتسرّب إلى القادة أنفسهم، إلى الحسن عليه السلام نفسه. إنّ الحسن عليه السلام أصبح يعيش هذا

---

(١) إعلام الورى ١: ٤٠٧، كشف الغمّة ١: ٥٣٢، ٥٣٣.

الشكّ في صحّة هذه المعركة، في ضرورة هذه المعركة، في أهمية هذه المعركة، فكان لا بدّ لكي يثبت الإمام الحسن عليه السلام أنّ القادة لا يزالون يؤمنون بقضيتهم وأطروحتهم على المستوى الذي يؤمنون به من الساعة الأولى، فيبادر ويقبل البيعة التي عرضها المسلمون وقتئذٍ ويتحمّل المسؤولية، مسؤولية الحكم، وهكذا كان، تحمّل مسؤولية الحكم بالرغم من هذا الشكّ؛ لأن لا يتّهم القائد أيضاً بهذا الشكّ.

أنا أُقدّر وأظنّ أنّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلّم مسؤولية الحكم كان عازماً أن لا يتسرّع في خوض معركةٍ مسلّحةٍ مع معاوية، كان يودّ أن تؤجّل المعركة إلى أمدٍ طويل، وذلك لكي يصفّي أو لكي يحاول أن يصفّي هذا الشكّ جدّاً، لكي يتفرّغ إلى الظروف الداخلية وإلى المجتمع الذي يحكمه، ويحاول أن يخفّف من حدّة هذا الشكّ، ويقضي على منابعه، ويعالج بعض أسبابه، وينعش من جديد نفسيّة الفرد المسلم في داخل هذا المجتمع، حتّى إذا استطاع في نهاية الشوط أن يكسب درجةً معقولةً من الاقتناع بالأطروحة حينئذٍ يبدأ معركته المسلّحة مع معاوية، وهذا هو الذي جعله لا يعلن عزمه على الحرب من اللحظة الأولى.

جاءه بعض خواصّه، طلبوا منه الإعلان السريع عن الحرب والسفر السريع إلى ميدان القتال قبل أن يتقدّم معاوية وقبل أن يخرج معاوية من بلاده، إلا أنّه رفض ذلك[١]، وكان رفضه مرتبطاً ـ على ما أظنّ ـ ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسية

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩، تاريخ الإمام الزكي الحسن عليه السلام، الباب ١٨، باب العلّة التي من أجلها صالح الحسن عليه السلام معاوية.

التي يعيشها المجتمع الإسلامي وقتئذٍ. كانت هذه الظروف النفسية إلى علاجٍ أكبر ممّا هي بحاجة إلى الحرب، بحاجةٍ توعية أكثر ممّا هي بحاجةٍ إلى قتال، بحاجةٍ إلى نوع إعطاء فرصةٍ جديدةٍ لكي يدرسوا من جديدٍ الأطروحة ونبلها وأهدافها وخيراتها وبركاتها قبل أن يكلّفوا بقتالٍ جديد؛ ولهذا تمهَّل الإمام الحسن وتضيّق في موضوع القتال، إلا أنّ معاوية بن أبي سفيان لم يتمهّل ولم يتضيّق.

خروج معاوية لقتال الإمام عليه السلام:

معاوية بعد قتل الإمام عليٍّ بشهرٍ أو أقلّ أو شهرين أو ثلاثة ـ على اختلاف التقادير في الروايات ـ خرج مع جيشٍ ليغزو العراق. معاوية كان يقدّر فهمه للظروف وقتئذٍ، كان يقدّر أنّ الظروف مؤاتية باعتبار ما خلّفه الإمام عليّ عليه السلام من فراغاتٍ سياسيةٍ ونفسيةٍ وفكرية، الظروف مؤاتية بأن يوقع ضرراً كبيراً بالمجتمع الذي يحكمه عليّ، أن يحقّق مكسباً سياسياً جديداً له، قد يمكن ارتفاع هذا المكسب إلى درجة تصفية المعركة نهائياً، إلا أنّه مع هذا لم يكن عنده فكرة كاملة عن كلّ الظروف النفسية، والأبعاد التي يعيشها المجتمع الإسلامي الذي يحكمه الإمام علي عليه السلام، ولهذا في نفس الوقت الذي تهيّأ للمعركة المسلّحة كان يحاول إلى جانب المعركة المسلّحة أن يستخدم الوسائل الأخرى التي بإمكانه أن ينتصر بها على عدوّه.

الإمام عليه السلام يستنفر المسلمين للجهاد:

وفي الرسالتين الأخيرتين المتبادلتين بين معاوية والحسن عليه السلام انتهى النقاش

وقُرّر من قبل الإمام الحسن عليه السلام الحرب. خرج الإمام الحسن عليه السلام إلى مسجد الكوفة وأعلن أنّ معاوية قد اتّجه مع جيشه لمحاربتهم واستنفر المسلمين للجهاد.

إلا أنّ هذا الشكّ الذي قلناه ظهر من جديدٍ ظهوراً سلبياً في تلك اللحظة، حيث إنّه لم يجب الإمام الحسن أحدٌ بكلمةٍ سوى شخص واحد، هذا الشخص الواحد هو عديّ بن حاتم (رضوان الله عليه)، قال لهؤلاء المسلمين: بأنّ هذا الإمام يأمر وأنا أطيع، وليس على الجندي إلا أن يطيع، وهذه دابّتي بباب المسجد ثمّ أركبها وأخرج إلى النُخيلة ولا أرجع إلى منزلي وخرج. وكان أوّل من خرج للجهاد وتبعه ألف من عشيرته.

يقول في البحار: وجهّز الإمام الحسن جماعةً معه، وخرج إلى النُخيلة، وبقي عشرة أيامٍ في النُخيلة، واستخلف ابن عمّه[1] على الكوفة لكي يعبّئ باقي القوى المقاتلة، فلم يرد أحد، بقي الإمام الحسن عشرة أيامٍ في النُّخيلة ينتظر عسكراً وجيشاً، فلم يرد جيش، فاضطرّ الإمام عليه السلام إلى أن يرجع إلى الكوفة مرّةً أخرى، فرجع مرّةً أخرى ليعبّئ جيشاً.

عبّأ جيشاً ـ تقول بعض الروايات: إنّه بلغ اثني عشر ألفاً ـ واتّجه هذا الجيش إلى مسكن، واتّجه هو مع أربعة آلاف أو ستّة آلاف إلى المدائن، هذا الجيش الذي عبّأه وبلغ اثني عشر ألفاً واتّجه إلى مسكن وقعت فيه ثلاث خيانات متتالية:

الخيانات والتراجعات في جيش الإمام عليه السلام:

الخيانة الأُولى كانت على يد شخص من مُرّة، هذا الشخص كان في طليعة

---

(١) وهو المغيرة بن نوفل بن الحارث، لاحظ بحار الأنوار ٤٤: ٥١، تاريخ الإمام الزكي الحسن عليه السلام، الباب ١٩، باب كيفيّة مصالحة الحسن عليه السلام ومعاوية.

هذا الجيش قبل أن يتكامل، أرسله مع أربعة آلاف.

يقول صاحب البحار: فراسله معاوية قبل أن يصل إلى مسكن، وأعطاه كذا وكذا مقداراً من المال، وفرّ هو مع صفوةٍ من أصحابه وخونته إلى عسكر معاوية، ثمّ فرّ أربعة آلافٍ أخرى مع شخصٍ آخر قبل أن يصل إلى مسكن، فرّ مع بعض الخونة إلى جيوش معاوية، ثمّ أرسل ابن عمّه عبيد الله بن عبّاس مع اثني عشر ألف نسمة على أكثر الروايات، فدخل إلى مسكن، فترك العسكر وذهب إلى خطّ معاويةٍ[1].

كان لمثل هذه التراجعات، لمثل هذه الخيانات المتلاحقة المتتابعة، أثرها المشؤوم في تلك النفوس المليئة بالشكّ المليئة بالتردّد. تصوّروا نفوساً كانت بصورة سابقة مليئةً بالشكّ والتردّد والتغيّر، ثمّ تقع مثل هذه الخيانات الناتجة عن مثل ذلك الشكّ، فسوف يتعمّق الشكّ لا محالة، هذا الشكّ كلّما يتّخذ صورةً إيجابيةً يكون لهذه الصيغة الإيجابية ردّ فعلٍ نفسيٍّ من الشُكّاك بحيث يزيد درجة الشكّ عندهم أكثر، وهكذا كان.

فعاش جيش الإمام الحسن عليه السلام في مسكن وهو يفقد بالتدريج القوى المقاتلة، حتّى بلغ عدد المحاربين من جيش الإمام الحسن في مسكن ثمانية آلاف، والإمام الحسن كان وقتئذٍ في المدائن، وتصل إليه الأخبار، وتنعكس هذه الأخبار إلى جيشه.

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٥١ ـ ٥٢، تاريخ الإمام الحسن عليه السلام، الباب ١٩، باب كيفيّة مصالحة الحسن عليه السلام معاوية، الحديث ٥.

رُسُل معاوية إلى الإمام عليه السلام:

ثمّ معاوية أرسل في هذه اللحظات الحرجة العصيبة ثلاثةً من أصحابه، أحدهم المغيرة بن شعبة، أرسلهم إلى الإمام الحسن عليه السلام برسالة[1]، وكان في هذه الرسالة مجموع الكتب التي وصلت إلى معاوية من أصحاب الإمام في الكوفة، هذه الكتب تقول لمعاوية: أقدم، فلك السمع والطاعة، وسوف نسلّم لك الحسن يداً بيد! هذه الكتب أرسلها معاوية إلى الإمام الحسن ليقرأها بنفسه محاولاً بذلك أن يكسر من تصميم الإمام الحسن عليه السلام على مواصلة الخطّ والجهاد والمعركة.

دخل هؤلاء الثلاثة على الإمام عليه السلام بعد أن حاولوا أن يستقطبوا أنظار الجيش، وبطبيعة الحال هناك وفد مفاوض من قبل معاوية يأتي إلى الحسن، وسوف ينعكس هذا الوفد، وسوف تشخص الأبصار إلى نتائج مباحثات هذا الوفد مع الإمام الحسن عليه السلام، يدخلون إلى الإمام الحسن، ويعرضون له الكتب، كتب الخونة من أصحابه، هؤلاء الّذين أعماهم ذلك الشكّ الذي تكلّمنا عنه، فكتبوا إلى معاوية هذه الكتب، الإمام الحسن يقرأ هذه الكتب واحداً بعد الآخر، ثمّ بعد هذا توجد رسالة من معاوية للإمام الحسن عليه السلام يقول له: إن شئت أن تحقن الدماء وأن توقف القتال ولك الأمر من بعدي.

الإمام عليه السلام بعد أن ينهي قراءة الكتب لا يعطي أيّ كلمةٍ فاصلةٍ في الموضوع، وإنّما يتّجه إلى هؤلاء الثلاثة فيعظهم ويذكّرهم الله والنار وأيام الله، ويذكّرهم بأنّ هذه اللحظات هي جزء قصير جدّاً من عمرهم، يجب أن يقيموه

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥.

على أساس الشوط الطويل الذي يعيشونه، يقف منهم كواعظٍ فقط ثمّ يسكت، وإنّما يسكت لأنّه يحاول أن يقوم بآخر تجربةٍ مع قاعدته الشعبية، ليرى أنّه هل بقي في هذه القاعدة الشعبية قدرة على مواصلة هذه المعركة مهما كلّف الثمن؟

يخرج هؤلاء الثلاثة من عند الإمام فيحاولون أن يكذّبوا الإمام الحسن عليه السلام، فينشروا في الجيش وهم يستطرقون أنّ الله قد فرّج عن هذه الأُمّة، وقد حقنت الدماء بابن بنت رسول الله، إنّ ابن رسول الله صلى الله عليه وآله استجاب للصلح.

بطبيعة الحال هذا الإخبار الكاذب كان له مفعول كبير جدّاً في التخدير، وفي إيقاف العزائم والهمم، وفي توسيع نطاق الشكّ الذي تكلّمنا عنه.

بعد هذا يخرج الإمام الحسن عليه السلام يقف خطيباً يقول ما مضمونه: بأنّ معاوية دعانا إلى ما لا يكون فيه خيرنا ولا خيركم فماذا أنتم فاعلون؟ وكانوا كلّهم يعرفون أنّ هذا الشيء الذي ليس فيه خيره ولا خير الناس، فصاحوا بصوتٍ واحد: الصلح الصلح!

ضرورة انحسار الإمام عن المعركة:

كانت هذه اللحظة هي اللحظة التي أحسّ فيها الإمام الحسن عليه السلام بأنّ بقاء التجربة الإسلامية العلوية أصبح شيئاً متعذّراً غير ممكن، وأنّ انحساره عن الميدان أصبح شيئاً ضرورياً لأجل الإسلام نفسه، وذلك لأنّ هذه التجربة مع هذا الشكّ لا يمكن أن تعيش، فلا بدّ أن يقضى على هذا الشكّ ثمّ تستأنف التجربة.

ولم يكن بالإمكان أن يقضى على هذا الشكّ المرير المستعصي إلا بأن ينحسر الحسن وخطّ عليّ عليه السلام عن المعركة ثمّ تنكشف أطروحة معاوية وأهداف معاوية، بعد هذا يرى المسلمون بأُمّ أعينهم، هؤلاء الّذين يعيشون

الحسّ أكثر ممّا يعيشون العقل، يعيشون بعيونهم أكثر ممّا يعيشون بعقولهم، يرون بعيونهم أنّ المعركة التي كان يقودها الإمام عليّ عليه السلام مع معاوية هي معركة الإسلام مع الجاهلية، لا معركة شخصٍ مع شخص، ولا مصلحة مع مصلحة، ولا عشيرة مع عشيرة، كان لا بدّ في منطق التجربة من أن يحارب هذا الشكّ ثمّ يستأنف التجربة.

ولم يكن بالإمكان ولا بإمكان اليوم وليس بإمكان أيّ يومٍ أن تنجح تجربة رسالية يقودها قائد يحمل بيده رسالةً هي أكبر من وجودات الأشخاص، وأكبر من مصالحهم الخاصّة ما لم يكسب مسبقاً الاقتناع بصحّة هذه الرسالة وبأهدافها وبضرورتها، ولم يكن بإمكان التجربة السياسية وقتئذٍ من مواصلة وجودها في المعركة أن تكسب هذا الاقتناع، هذا الاقتناع الذي لم يستطع الإمام الحسن عليه السلام أن يكسبه أو أن يحول دون فقدانه بالتدريج؛ ولهذا كان من الضروري أن ينحسر ظلّ الإمام عليّ عليه السلام عن ميدان الحكم لكي تنكشف أُطروحة معاوية، وبعد ذلك يعرف المسلمون أنّ هذه الأُطروحة التي جاهد في سبيلها الإمام علي عليه السلام هي أُطروحة وجودهم وعقيدتهم ورسالتهم ومصالحهم الحقيقية غير المنظورة لهم، وعندئذٍ يكون بالإمكان استئناف العمل من جديدٍ على أساس اقتناع مسبق.

هذا خلاصة ما أردنا أن نقوله، وله تتمّة..

*** (القسم الثاني)**

طريقان بين يدي الإمام الحسن عليه السلام:

على أساس الظروف التي شرحناها بالأمس والتي عقّدت الطريق بين يدي الإمام الحسن عليه السلام والتي ضاعفت من قوّة الشكّ وحوّلته من طاقة سلبية إلى طاقة إيجابية ممتدّة واسعة النطاق، على أساس ذلك كان بين يدي الإمام الحسن عليه السلام طريقان: إمّا أن يواصل العمل في الساحة حتّى يخرّ صريعاً كما خرّ صريعاً بعد ذلك أخوه الحسين شهيداً في ساحة كربلاء، وإمّا أن يوقف خطّ العمل نزولاً على الأمر الواقع.

الاعتبارات المتمثّلة في الإمام الحسن عليه السلام:

وكان لا بدّ للإمام الحسن ـ وهو يدرس أفضل هذين الطريقين ـ من أن يدخل في حسابه كلّ اعتباراته وكلّ جوانب وجوده؛ لأنّ الإمام الحسن كانت تتمثّل فيه عدّة اعتبارات: كان من ناحيةٍ هو:

أوّلاً: الأمين على النظرية، هو الأمين على الصيغة الإسلامية الكاملة على الحياة بوصفها خطّاً فكرياً وروحياً يجب أن يعيش، ويجب أن يستقطب بالتدريج، ويجب أن يمتدّ إلى أكبر قدرٍ ممكنٍ من القلوب والنفوس والعقول.

وكان من ناحيةٍ أخرى: الأمين على التجربة، يعني الأمين على كيانٍ جسّد تلك الصيغة الإسلامية الكاملة، هذا الكيان الذي أنشأه الإمام علي عليه السلام واستأنف به حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وعصره، هذا الكيان خلّفه الإمام علي عليه السلام ليتزعّمه الإمام الحسن عليه السلام، فكان الإمام الحسن عليه السلام بالاعتبار الثاني أميناً على الواقع الحيّ الذي جسّد تلك الصيغة الإسلامية الكاملة، أي هو أمين على النظرية والتطبيق معاً،

أمين ووريث للمفهوم والخطّ ولتجسيد هذا الخطّ من واقع الحياة.

وكان هناك اعتبار ثالث من الاعتبارات التي يمثّلها الإمام الحسن: فهو أمين على كتلة، هذه الكتلة هي التي نسمّيها بالشيعة، هذه الكتلة هي الجانب أو الجزء الذي أخذ نظرية الإسلام من علي عليه السلام، ومن إمامة علي عليه السلام، ومن خطّ أهل البيت عليهم السلام، هذه الكتلة التي وضع الرسول صلى الله عليه وآله بذورها، ثمّ نمّاها علي عليه السلام خصوصاً على عهد خلافته، وأخذها الإمام الحسن عليه السلام ليتسلّم زعامتها وقيادتها، كتلة يجب أن تنمو على مرّ الزمن، وتشكّل الطليعة الواعية القادرة على قيادة المسلمين ككلٍّ في مستقبلٍ قريبٍ أو بعيد.

هذه اعتبارات ثلاثة كان يمثّلها جميعاً هذا الإمام الشابّ، فكان لا بدّ حينما يدرس أفضل الطريقين: طريق التضحية والموت أو طريق تجميد الحركة والخطّ إلى وقتٍ ما، دون أن يدخل إلى جانب هذه الاعتبارات الثلاثة اعتبار رابع يطلق عليه عادةً أيّ اسمٍ من الأسماء العاطفية أو الخلقية التي لا ترتبط بمصالح الرسالة، من قبيل أن يقال: إباء الضيم، عدم الاستعداد لمصافحة الأعداء، الشعور بالعزّة.

كلّ هذه المشاعر هي اعتبارات عاطفية يجب أن لا تأخذ طريقها إلى قلب الإنسان الحقّ الذي يريد دائماً أن يرسم طريقه على أساس الاعتبارات الرسالية، كإباء الضيم مثلاً الذي ينسب إلى الإمام الحسين عليه السلام.

هذا الإباء يجب أن يراد به حينما ينسب إلى إمامِ حقٍّ كالإمام الحسين عليه السلام أو الإمام الحسن عليه السلام إباء هذا الإمام عن أن تنتهك حرمة الرسالة، وعن أن تذلّ الرسالة، وعن أن تفقد الرسالة مكسباً كان بالإمكان أن يتحقّق بالنسبة إلى هذه الرسالة.

أمّا المفهوم العاطفي لإباء الضيم فهو مفهوم جاهلي لا يقرّه الإسلام، فإنّ إباء الضيم حيث تقتضي الرسالة من الرسالي أن يمتحن تحمّل هذه القيم مثل هذا الإباء يكوم موقفاً لا رسالياً ولا إنسانياً، كما أنّ العكس صحيح، فأيّ اعتبارٍ عاطفيّ أو خلقيّ غير نابعٍ من واقع الرسالة وقيمها وأهدافها يجب أن لا يدخل في حساب الإنسان الحقّ. وأيّ إنسانٍ أحقّ بهذا الوصف من هؤلاء القادة الّذين اؤتمنوا على أشرف الرسالات السماوية، وهذا ليس مجرّد مفهومٍ تأريخي، إنّما هو أيضاً يجب أن يكون قاعدةً لعمل كلّ واحد منّا، كلّ إنسانٍ يريد أن يسير على خطّ هؤلاء القادة يجب في البداية دراسة كلّ نقطةٍ من نقاط سلوكه على مفترق الطريق، يجب أن يدرس سلوكه واختياره على مفترق الطريق على أساس اعتبارات الرسالة، لا على أساس نوعٍ من العواطف التي يعيشها الإنسان الاعتيادي[١] بقلبه لا برسالته، وهكذا كان للإمام الحسن عليه السلام ثلاثة خطوة لا بدّ من أن يدرس موقفه على أساسها:

[الاعتبار] الأوّل: كونه أميناً على الرسالة، أي: على أُطروحة النظرية، أي: على الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة نظرياً وروحياً.

الاعتبار الثاني: كونه أميناً على التجربة السياسية التي جسّدت تلك الأُطروحة.

الاعتبار الثالث: كونه أميناً على الكتلة التي بذرها النبي صلى الله عليه وآله ونمّاها الإمام علي عليه السلام [والتي] كان من المفروض أن تمتدّ مع تأريخ الإسلام.

أمّا على الاعتبار الأوّل بوصفه أميناً على الأُطروحة النظرية، على الصيغة الإسلامية للحياة بوصفها خطّاً يجب أن يعيش في عقول وأرواح ونفوس

(١) كذا في الأصل، والصحيح: العادي.

المسلمين، فقد كان أقسى المفارقات هذه المفارقة التي بيّناها فيما سبق، حينما رأينا هذه الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة كان وصولها إلى درجة الحكم وممارستها للحكم، كان هذا بنفسه وبصورة غير مباشرةٍ السبب في زوال الاقتناع بها من قبل القواعد الشعبية بالتدريج، لا لأنّ وصولها إلى الحكم كشف عن وجهٍ منحرفٍ عن سلوكٍ غير منطبقٍ على النظرية، غير منسجمٍ مع قيمها وأهدافها، بل لأنّ القاعدة الشعبية التي وصل على أكتافها قائد هذه النظرية إلى الحكم لم تكن تستطيع أن تعيش حياة الكفاح والجهاد إلا إلى مرحلةٍ قصيرةٍ من الزمن.

ولهذا حينما مارس الإمام العظيم أبو الأئمّة عليهم السلام تطبيق نظريته على كلّ مستويات الحياة الإسلامية: اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وخلقياً، بدأت المتاعب والمصائب، بدأ الناس يشكّون، بدؤوا يرهقون، يرهقون بهذه النظرية، وبهذا زال الاقتناع بالتدريج من صحّة هذه النظرية، وكان لا بدّ للنظرية لكي تعيش في الأُمّة الإسلامية من أن تسترجع هذا الاقتناع بأيّ ثمن، وكان ثمن استرجاعها هذا الاقتناع هو أن ينحسر هذا الحكم الذي يمثّل هذه الأُطروحة، وأن يخلي الميدان لحكمٍ آخر مثّله معاوية، ومثّلته كلّ القوى المتبقّية من السقيفة، كان لا بدّ لذلك من أن يبرز على الميدان، من أن يظهر واقعه ومضمونه، وحقيقة أهدافه، وكلّ أبعاده، وحينئذٍ تسترجع الأُطروحة اقتناع المسلمين بها وبصحّتها وضرورتها.

هل قدّر على كلّ نظريّة صالحة أن تفقد قواعدها الشعبيّة بعد التطبيق؟

هنا قد يبدو سؤال: أنّه هل هناك قدر لازم على كلّ نظريةٍ صالحة أنّها حينما تأخذ مجراها في التطبيق تفقد اقتناع قواعدها الشعبية بها بالتدريج، وحينئذٍ تبدأ من جديدٍ مضطرّةً إلى أن تتخلّى عن الحكم ليفسح المجال للآخرين أن يمارسوا

الحكم على أساس نظريةٍ أخرى باطلةٍ كافرةٍ، حتّى يكون ذلك مثبتاً للمسلمين صحّة النظرية الأولى؟

هل هذا قدر مفروض على النظرية الإسلامية دائماً أنّها تدخل إلى الحياة فتقود وتحكم ثمّ سرعان ما تهدم وسرعان ما تضطرّ إلى الانسحاب، لكي تسترجع مرّةً أخرى الاقتناع الذي فقدته خلال التطبيق؟

هل هذا قدر لازم على النظرية الإسلامية في الظروف الموضوعية الخاصّة التي تفتّق عنها حكم الإمام علي عليه السلام، ذلك لأنّ الإمام علياً عليه السلام حينما حكم وحينما جاء ليمارس تصديق هذه النظرية كاملةً غير منقوصة جاء معتمداً على شعبٍ لم يتفاعل معه ساعة، لم يعش معه يوماً، لم يصرف معه في سبيل إعداد هذه النظرية جهداً؟

الشعب الذي قام بحماية هذا التطبيق، وشكّل الجيش المحارب للإمام كان شعب العراق، وبالرغم من أنّ الشعب العراقي وقتئذ كان يبدو من أكثر الشعوب ـ شعوب الأُمّة الإسلامية ـ استجابةً إخلاصاً للإمام علي عليه السلام، ولهذا نادى أهل العراق للإمام عليه عليه السلام بأنّه خليفة، إلا أنّ استجابة هذا الشعب واستجابة قطاعاتٍ أخرى مصريةٍ ومن الجزيرة العربية للإمام كان استجابةً على أساس الرصيد الذي كان يتمتّع به الإمام علي عليه السلام، على أساس هذا النوع من التأريخ الكبير الذي يعيشه الإمام في أذهان المسلمين.

المسلمون حينما عاشوا محنة انحراف عثمان، ثمّ بعد هذه المحنة مقتل عثمان، وحينها وجدوا أمامهم مشاكل كبيرة فوق الحلّ من الإنسان العادي اتّجهوا بأنظارهم بطبيعتهم إلى صحابي كبير، اتّجهوا ليفتّشوا عن صحابيّ كبيرٍ يستطيع بما يحمل من تراث محمّد صلى الله عليه وآله أن يتغلّب على هذه المشاكل الكبيرة،

ويملأ هذا الفراغ الكبير، ويعيد الأمور إلى أوضاعها الطبيعية، فكان أن وقع اختيار المسلمين بطبيعتهم على الإمام علي عليه السلام؛ لأنّه كان أبرز صحابيّ على المسرح السياسي يتمتّع بما لا يتمتّع به أيّ صحابيّ آخر من سوابق وفضلٍ وشهرة.

إذاً فالاستجابة منذ البدء كانت استجابةً عاطفيةً قائمةً على أساس الشهرة، لا على أساس التفاعل، لا على أساس التقديس الذاتي، لا على أساس القربة المباشرة لهذه القواعد الشعبية، ومن الطبيعي أن تكون هذه الاستجابة العاطفية القائمة على أساس الشهرة، وعلى أساس السوابق، وعلى أساس الفضل، ومن الطبيعي أن تكون هذه الاستجابة استجابةً ذات شوطٍ قصير، ذات موجةٍ قصيرةٍ ثمّ تبدأ بالذوبان، تبدأ بعد هذا بالتميّع حينما تصطدم بما تصطدم به أعباء الجهاد من المصالح الشخصية للأفراد.

أمّا حينما تجيء النظرية الإسلامية إلى الحياة على أعقاب تفاعلٍ واسع النطاق مع جزء كبيرٍ من الأُمّة، حينما تجيء ويكون هناك جزء كبير من الأُمّة مقتنعاً بهذه النظرية اقتناعاً واعياً مدبّراً صحيحاً، في مثل تلك الحالة سوف لن تحتاج هذه النظرية مرّةً أخرى إلى أن تتنازل عن الحكم لكي تكسب اقتناعه، الاقتناع العاطفي هو الذي يتزحزح خلال غبار الجهاد، أمّا الاقتناع الواعي فهو الذي يتعمّق ويترسّخ خلال غبار الجهاد.

على أيّ حالٍ كانت الظروف الموضوعية وقتئذٍ تفرض هذا التلاشي وهذا الانحسار في الاقتناع، حتّى فقد خطّ علي عليه السلام ـ وهي النظرية الإسلامية الكاملة الصحيحة ـ اقتناع المسمّين بها، وحينما فقدت هذا الاقتناع لا بدّ لها أن تسترجعه، وكان لا بدّ لكي تسترجعه من أن تفسح المجال لأعدائها لكي يعبّروا عن ذواتهم

وعن أنفسهم، ولكي يقول معاوية بالذات وبكلّ وضوح وبكلّ صراحة على المنبر الذي كان يجسّد آمال المسلمين يصعد على ذلك المنبر ويقول: «إنّي حاربتكم لا لكي تصلّوا أو تصوموا، وإنّما لكي أتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم لذلك كارهون»(١).

إلا أنّ انحسار حكم الإمام عليٍّ عليه السلام وإعطاء الفرصة لمعاوية أو للأعداء لكي يمارسوا وجودهم على المسرح كان يمكن أن يتمّ بطريقٍ أو بطريقين، وقف الإمام الحسن عليه السلام على مفترقها.

لماذا لم يختر الإمام الحسن عليه السلام طريق الجهاد؟

كان يمكن أن يواصل الإمام الحسن عليه السلام مهمّته العسكرية حتّى يخرّ صريعاً في ميدان الجهاد، وحينئذٍ يفسح المجال لمعاوية لكي يعيش وجوده كحاكم.

وكان يمكن أن يتحقّق ذلك بتجميد حركته وإيقاف العمل ضدّ معاوية.

كان يمكن أن يتحقّق بكلّ من هذين الأسلوبين، ومن هنا قد يقفز إلى الذهن هذا السؤال: أنّه لماذا لم يختر الإمام الحسن عليه السلام الطريق الأوّل من هذين الطريقين بعد أن كان كلّ من هذين الطريقين محقّقاً لحاجة الرسالة بالانسحاب المؤقّت لكي تكسب الاقتناع؟ ويزداد هذا السؤال جولاناً في الذهن حينما يقارن موقف الإمام الحسن عليه السلام بموقف الإمام الحسين عليه السلام حينما وقف بين الطريقين فاختار أن يخرّ صريعاً بدلاً من أن يوقف العمل ولو مؤقّتاً.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٥٣، تاريخ الإمام الحسن عليه السلام، الباب ١٩، باب كيفيّة مصالحة الحسن عليه السلام معاوية، الحديث ٥.

الفرق الأساسي بين موقفي الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام:

إلا أنّنا قلنا ونقول أيضاً: إنّ فرقاً أساسياً كبيراً بين موقف الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين عليه السلام، سوف يتبيّن هذا الفرق على مستوى الاعتبارات الثلاثة، سوف يبرز على أساسها موقف الحسين عليه السلام على كلّ واحد من هذه الاعتبارات الثلاثة، يبدو هناك فرق كبير بين موقف الإمام الحسن عليه السلام وموقف الحسين عليه السلام، بين الظروف الموضوعية لموقف الإمام الحسن عليه السلام والظروف الموضوعية لموقف الإمام الحسن عليه السلام.

على مستوى الاعتبار الأوّل:

أمّا على الاعتبار الذي سوف نعالجه على مستوى الرسالة فهناك فرق كبير حتّم على الإمام الحسين عليه السلام أن يختار الطريق الأوّل، ولم يكن هناك هذا التحتّم للإمام الحسن عليه السلام، الأمر الذي كان يتحتّم على الإمام الحسين عليه السلام أن يختار الطريق الأوّل، وهو أن يواصل حتّى يخرّ صريعاً، هو أنّ الأُمّة وقتئذٍ لم تكن تعيش حالة الشكّ، بل كانت تعيش موت الإرادة، وفرق بين الموضعين هناك.

هناك مرضان وجدا في الأُمّة: مرض الشكّ، وهو أنّ الأُمّة كانت قد فقدت إيمانها واعتقادها برسالية الأُطروحة، وموضوعية الأُطروحة، حينما اصطدم موقف الحسن عليه السلام مع معاوية، وفي مثل هذا الحال لو واصل الإمام الحسن عليه السلام الحرب حتّى يخرَّ صريعاً لم يحقّق شيئاً من المكاسب التي حقّقها الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّه حينما يخرّ صريعاً في الميدان والأُمّة تشكّ في دوافعه، تشكّ في نظافة رسالته، تشكّ في صحّة موقفه، تشكّ في إلهيّة أطروحته، حينما يخرّ صريعاً والأُمّة تشكّ في كلّ هذا سوف لن يفعل هذا الدم الطاهر الذي يسكب على الأرض ما فعله الدم الطاهر الذي سكب على أرض كربلاء، سوف لن

يحرّك ضميراً في الأُمّة، سوف لن يغيّر شيئاً من الأوضاع الحقيقية للأمّة.

عبد الله بن الزبير أيضاً كان له موقف في وجه جيش عبد الملك بن مروان، كان له موقف يعتبر بالمقاييس الشخصية وبقطع النظر عن الرسالة كان يعتبر موقفاً بطولياً، واصل الحرب إلى أن خرّ صريعاً في الميدان، إلى أن قُتل وقُتل معه كلّ أهله وكلّ ذويه القادرين على حمل السلاح تقريباً[(١)]، إلا أن عبد الله ماذا ترك في ضمير الأُمّة؟ ماذا حرّك في نفوس المسلمين؟ هل استطاع عبد الله بن الزبير أن يحقّق المكسب الذي حقّقه الإمام الحسين عليه السلام؟

عثمان بن عفّان واصل الحكم، واصل التجربة كلّما قال له أعداؤه: استقل تنحّ عن الحكم، قال: «لا أنزع ثوباً ألبسني الله إيّاه»[(٢)]، حتّى قتل وهو يعلم أنّه لو تنحّى عن الحكم لما قتل، بذل دمه ونفسه في سبيل الحكم، لكن هل كان هناك إنسان يتجاوب مع مثل هذه الشجاعة؟ هل استطاعت هذه الشجاعة أن تحرّك ضمير الأُمّة الإسلامية أو أن تحرّك شيئاً من أوضاع المسلمين؟ لا، لماذا؟ لأنّ عبد الله بن الزبير، أو لأنّ عثمان بن عفّان، أو لأنّ أيّ شخص آخر من هذا القبيل كان يحارب وكان يقاتل لنفسه لا للأُمّة، وكانت الأُمّة على أقلّ تقدير تشكّ في هذا، وتحتمل أنّ عبد الله بن الزبير كان يقاتل لنفسه، هل كان قد استسلم للموت لأنّه أبي الضيم، لأنّه أبى أن يطأطئ أمام عدوّه، أو أنّه واصل القتال لأجل الأُمّة، لأجل المظلومين والبائسين والمضلّلين الّذين كان يحكمهم عبد الملك بن مروان؟ الأُمّة لم تكن تعيش ذلك الاقتناع بالنسبة إلى عبد الله بن الزبير أو بالنسبة إلى أمثاله.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٠٤.

وهكذا ذهبت ميتة عبد الله بن الزبير دون أن تخلق أثراً حقيقياً في محتوى الأُمّة النفسي أو الفكري أو الروحي، وكان مصير مقتل الإمام الحسن عليه السلام نفس المصير تقريباً لو أنّه واصل القتال، لو اختار الطريق الأوّل من الطريقين والأُمّة على الحالة التي مرّ معنا، والشكّ الذي تحوّل إلى طاقة إيجابية ممتدّة في أوسع نطاق، كان هذا الشكّ يجعل المسلمين ينظرون إلى هذه الاستماتة من الإمام الحسن عليه السلام أنّها استماتة من لون استماتة أيّ شخص آخر يأبى الضيم، يأبى أن يطأطئ أمام عدوّه من الناحية العاطفية، ولهذا واصل المعركة حتّى قتل... لَما حرّك هذا الدم الطاهر شيئاً من نفوس المسلمين، ولَما غيّر شيئاً من أوضاعهم النفسية والروحية.

بينما الإمام الحسين حينما اختار الطريق الأوّل كانت الأُمّة، حين كانت القواعد الشعبية التي ترتبط بالإمام علي عليه السلام، كانت قد تخلّصت من المرض الأوّل، من مرض الشكّ؛ لأنّ الأسطورة ـ أسطورة معاوية ـ قد تجلّت بكلّ وضوح؛ لأنّ الجاهلية التي كان يمثّلها معاوية قد أسفرت عن وجهها على المسرح السياسي والاجتماعي وعلم الناس بأنّ علياً عليه السلام كان يحارب جاهلية الأصنام والأوثان، ولم يكن يحارب مع معاوية خصماً قبليّاً أو شخصاً معادياً له بالذات، هذا عرفه المسلمون وعرفته القواعد الشعبية المرتبطة بالإمام، تخلّصت هذه القواعد الشعبية من المرض، لكنّها منيت بالمرض الثاني، وهو موت الإرادة.

أصبحت الأُمّة الإسلامية لا تملك إرادتها. نعم، هي تفهم أنّ عليّاً عليه السلام هو الطريق الواضح، هو طريق الكفاح والجهاد، أنّ عليّاً عليه السلام هو أرض الأُطروحة الصالحة، أنّ حكم عليّ عليه السلام هو المثل الأعلى الذي يجب على المسلمين أن يكافحوا في سبيل تحقيقه، كلّ هذا أصبح واضحاً.

شعار: (لا نريد إلا حكم عليّ) كان يتردّد على ألسنة الناس الثائرين في

أكثر الثورات التي وقعت في خطّ أهل البيت عليهم السلام، ولكن مع هذا لم يكن هؤلاء يملكون إرادتهم، كانوا قد فقدوا ضميرهم وإرادتهم، كانوا قد استكانوا، كانوا قد ضاعت مُثُلهم وقيمهم واعتباراتهم، لم يكن الشكّ في الكبرى، بل كان العيب في الصغرى، كانت الإرادة قد انطفأت، كانت الشعلة قد ماتت، كانت الدريهمات الصغيرة هي أكبر همّ هذا الإنسان الصغير، هذا الإنسان القزم، فكان لا بدّ من أن يحرّك ضمير هذا الإنسان لكي يسترجع إرادته.

قلت فيما سبق: إنّ أكبر وأروع تمثيل لفقدان الإرادة قول ذلك الرجل للإمام الحسين عليه السلام: «سيوفهم مع عدوّك وقلوبهم معك»[1]، قمّة فقدان الإرادة أن يكون الإنسان حبيباً لك يحبّك ولكنّه يحمل السيف عليك، يعني قلبه لا يستطيع أن يمسك به، هذه قمّة فقدان الإرادة، حينما تبلغ الأُمّة إلى قمّة فقدان الإرادة فكان لا بدّ لشخص أن يُرجع للأمّة إرادتها، الإمام الحسن عليه السلام بانحساره عن ميدان الحكم وفسح المجال للأُطروحة الأخرى لكي تبرز بكلّ وضوح أبعادها أرجع للأمّة اقتناعها بموضوعيّة أُطروحة عليّ عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام بمواصلة الطريق الأوّل حتّى خرّ صريعاً أرجع إلى الأُمّة إرادتها، نَبَّه الإنسان المسلم العادي الذي كان أكبر همّه هو هذه الدريهمات، والذي حوّله بنو أميّة من إنسان يحمل هموم شرق الأرض وغرب الأرض، من إنسان يحمل هموم المظلومين والممتحنين في أقصى الأرض إلى إنسان لا يعيش إلا همّ راتبه الشهري وهمّ مصالحه الشخصية! هذا الإنسان الذي تحوّل إلى هذا المسخ، هذا بمقتل الحسين قال: أنا الذي لا أتحرّك، أنا الذي أرى الإسلام ينتهك، أرى الشريعة تمزّق، أرى المسلمين تهدر كرامتهم، أرى الآلاف بعد الآلاف يعذّبون

(١) وقعة الطف: ١٥٨.

ويهانون ويشرّدون ثمّ أسكت، وذلك طمعاً وحرصاً على حياة رخيصة؟!

إنّ مع هذا الرجل الذي توفّرت له كلّ مُتع الحياة، هذا الرجل الذي هو من أغنى الناس مالاً، من أكثر الناس جاهاً، هذا الرجل الذي إذا خرج إلى المسلمين يتسابق عشرات الآلاف من المسلمين إلى تقبيل يديه، هذا الرجل الذي لم يكن متعطشّاً، لا إلى شهرة، ولا إلى مجد، ولا إلى مال، كان شخصاً منعّماً، كان شخصاً لم يعش أي ظلامةٍ من الظلامات التي عاشها المسلمون؛ لأنّ معاوية لم يكن يحاول أن يمتدّ بظلمه إلى شخص الحسين مثلاً، كان معاوية يرضخ إلى شخص الحسين وأمثال الحسين من السادة الإسلاميين الكبار، كان الناس تحت السياط، أمّا الحسين عليه السلام لم يكن تحت السياط، لم ينله سوط واحد من تلك السياط التي نالت الناس، بالرغم من هذا خرج الحسين بنفسه، بذل دمه في سبيل أولئك الّذين كانوا تحت سياط، الّذين لم يفكّر واحد منهم في أن يبذل دمه في سبيل الآخرين الّذين يشاركونه؛ لأنّهم تحت السياط، من هنا تحرّك الضمير الإسلامي، من هنا تحرّكت الإرادة في نفوس المسلمين، من هنا فجّر الإمام الحسين عليه السلام الثورة في يوم عاشوراء، وبقيت الثورة متفجّرةً على التعاقب، إلى أن طاح عرش بني أُميّة.

إذن فكان هناك فرق كبير موضوعي بين الظرف الذي عاشه الإمام الحسن عليه السلام والظرف الذي سوف يعيشه بعد عشرين عاماً الإمام الحسين عليه السلام. كان هناك فرق في نوعية مرض الأُمّة. مرض الأُمّة في المرحلة الأُولى كان هو الشكّ، وأمّا مرض الأُمّة في المرحلة الثانية كان هو فقدان الإرادة، وكان لا بدّ في المرض الثاني أن يختار الطريق الأوّل، بينما المرض الأوّل كان هو الشكّ لم يكن اختيار الطريق الأوّل في ظلّ مرضٍ من هذا القبيل يحقّق ذلك المكسب

الذي حقّقه اختيار الطريق الأوّل من قبل الإمام الحسين عليه السلام. إذاً فعلى أساس الاعتبار الأوّل من الاعتبارات الثلاثة التي كان يمثّلها الإمام الحسن بوصفه أميناً على النظرية على التراث الفكري على الإسلام، بوصفه خطّاً يجب أن يمتدّ مع الأجيال روحياً وجسمياً، بهذا الاعتبار كان لا بدّ أن يكسب الاقتناع بهذا الخطّ.

قلنا: بأنّ هذا الاقتناع توقّف على أن ينحسر، فكان لا بدّ أن ينحسر، لا بدّ أن يخلي الميدان لعدوّه. وكان هذا الإخلاء يكون بطريقين: إمّا أن يواصل حتّى يخرّ صريعاً في ميدان المعركة، وإمّا أن يوقف، وكان الطريق الأوّل سلبياً تجاه المكاسب التي حقّقها الإمام الحسين عليه السلام حينما سلك نفس هذا الطريق. هذا كلّه على الاعتبار الأوّل.

على مستوى الاعتبار الثاني:

وأمّا على الاعتبار الثاني من اعتبارات الإمام الحسن عليه السلام اعتباره بوصفه أميناً على التجربة، أميناً على الواقع السياسي الحيّ الذي كان يجسّد تلك الصبغة الإسلاميّة الكاملة للحياة، بوصفه أميناً على هذه التجربة، كان لا بدّ أن يدرس موقفه ليختار أحد هذين الطريقين، أصبح واضحاً ممّا سبق أنّ التجربة كان من المستحيل أن تبقى، أن يواصل وجودها، كان من المستحيل افتراض النصر في هذه المعركة الذي هو معنى بقاء التجربة لمواصلة وجودها؛ لأنّ أيّ تجربة بأُطروحة رساليةٍ تعيش مستوىً أكبر من مستوى مصالح هذا الفرد بالذات، ولا يمكن أن تواصلَ وجودها ولن يمكن فيما يأتي من الزمان أن تواصل وجودها إلا إذا كانت قد حظيت باقتناعٍ كبيرٍ واسع النطاق من قواعد شعبيةٍ قادرةٍ أن تحمل هذه التجربة، وأن تسند هذه التجربة، وأن تضحّي بدمها في سبيل هذه التجربة، أمّا حينما تفتقد التجربة هذا الاقتناع، حينما تصبح حالة الاقتناع بالنسبة

إليها صفراً، تصبح هذه التجربة مشلولةً عن العمل، وغير قادرةٍ على الدفاع عن ذاتها، وعن نفسها؛ لأنّها بِمَ تستهوي الناس؟ هل تستهوي الناس بالمصالح إلى حدّ، وهذا خروج عن مضمونها الحقيقي؟!

نعم، كان بالإمكان أن يستهوي الإمام الحسن عليه السلام الناس عن طريق مصالحهم الخاصّة، كان للإمام أن يدخل المداخل التي دخلها معاوية، أن يشتري ضمائر الناس، أن يكتب إلى رؤساء الشام كما كتب معاوية إلى رؤساء العراق، أن يخدع، أن يماطل، أن يكون توزيع الأموال على غير الأساس الإسلامي الصحيح.

إلا أنّ هذا الخروج عن المضمون الحقيقي للنظرية، إذن فكان يتوقّف بقاء التجربة ويتوقّف بقاء كلّ تجربةٍ رساليةٍ طاهرةٍ نظيفةٍ على أن يوجد هناك ناس يؤمنون بنظافتها، يؤمنون بطهارتها، مستعدّون للدفاع عنها. وحيث إنّ هذا الاقتناع لم يكن موجوداً في ظروف الشكّ الذي شرحناه فكان محتّماً ومقضيّاً على هذه التجربة أن تنتهي.

هل تنتهي بأن يواصل الإمام الحسن عليه السلام الطريق الأوّل ليواصل الكفاح والجهاد حتّى يخرّ صريعاً في مسكَن أو المدائن، أو تنتهي بطريقٍ آخر؟

كان لا بدّ أن تبرز مصلحة هذه التجربة بتحديد أحد الطريقين.

الإمام الحسن عليه السلام في هذا أيضاً نجده يختلف اختلافاً كبيراً عن الإمام الحسين عليه السلام. الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قائداً لتجربةٍ سياسيةٍ قائمة بالفعل، لم يكن رئيساً لدولة قائمة بالفعل، لم يكن أميناً على حكمٍ قائمٍ بالفعل، وإنّما كان شخصاً مضطهداً في الأرض لم يكن معه إلا ثلّة من أصحابه.

أمّا الإمام الحسن عليه السلام فكان يمثّل جبهةً سياسيةً قائمةً بالفعل، إلا أنّ هذه

الجبهة بالرغم من ضخامتها المظهرية، بالرغم من تخوّف معاوية منها، بالرغم من أنّ معاوية بقي يفكّر مئة مرّة أن لا يدخل إلى ساحة المعركة، كان يشكّ، كان يحتمل أن تكون الجبهة ملتفّةً عليه إلى حدّ ما، هذه الجبهة بالرغم من ضخامتها الظاهرة كانت منكوبةً من الداخل، كانت فراغاً من الداخل، إلا أنّ هذه الضخامة الظاهرية لهذه التجربة كانت تعطي الحقّ للإمام الحسن عليه السلام أن يدخل مع معاوية في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكسب لهذه التجربة، ولأهداف هذه التجربة، ولرسالة هذه التجربة.

لم يكن هناك بالإمكان أن يدخل الحسين عليه السلام في تحقيق مكاسب عن طريق المفاوضة السياسية مع يزيد، والحسين عليه السلام شخص عادي من أفراد المسلمين، بينما كان بالإمكان للإمام الحسن عليه السلام وهو يتزعّم جبهةً مخفيةً لمعاوية من هذا القبيل لا تزال حتّى الآن تذكّر معاوية بسيوف ليلة الهرير، هذه الجبهة كانت تذكّر معاويةَ بسيوف ليلة الهرير، كان بإمكان زعيمها أن يفرض على معاوية بعض التنازلات في مقابل إيقاف العمل مؤقّتاً، وهكذا كان في الأقرب بالنسبة إلى مصلحة هذه التجربة أن توقف، وأن تنحسر مع ضمان رجوعها ولو رسمياً وقانونياً على أن تنتهي انتهاءً كاملاً باستمرار القتال واستشهاد الإمام الحسن عليه السلام.

كان هناك طريقان:

إمّا أن يواصل الإمام الحسن عليه السلام الجهاد فيقتل دون قيد أو شرط؛ لأنّه يعلم أنّ التجربة يقضى عليها بالتمام سواء علم بذلك معاوية أو لم يعلم، فالإمام الحسن عليه السلام الذي يعيش الأوضاع الداخليّة في مجتمعه هو أعلم بهذا وأدرى به،

ولهذا كان معنى المواصلة أن يقتل، ومعنى أن يقتل يعني: أن تنتهي التجربة دون أن يكون هناك أيّ أساسٍ بإمكانية رجوعها بعد هذا، يعني أيّ أساسٍ قانوني.

وبين أن يدخل الإمام الحسن عليه السلام عن طريق هذه الهيبة المظهريّة لهذه الجبهة، يدخل في حديثٍ مع معاوية لاستيفاء ما يمكن استيفاؤه من مكاسب هذه التجربة.

وحينها اختار الإمام الحسن عليه السلام الطريق الثاني، وكان لا بدّ لكلّ من يعيش ظروف الإمام الحسن عليه السلام أن يختار الطريق الثاني، إلا إذا حصل بتلك الاعتبارات العاطفية التي أدخلناها في بداية الحديث وقلنا: إنّه لا يدخل في حساب إنسان حقّ. وهذا الإمام الحسن عليه السلام اشترط لمعاوية على نفسه أن ينسحب عن ميدان الحكم، ولم ينصّ هذا الشرط على نوعٍ من البيعة والتبعيّة السياسية الصريحة في الروايات الصحيحة الواردة عنهم، فلا يوجد في الروايات الواردة عن الإمام الحسن عليه السلام أنّه اشترط لمعاوية على نفسه البيعة والتبعيّة السياسيّة بالمعنى الذي كان موجوداً لعليّ عليه السلام بالنسبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان، وإنّما كان هناك إيقاف للعمل، إيقاف للمعركة والقتال، وفي مقابل هذا الإيقاف كان هناك تعهّدات اشترطها معاوية، بعض هذه التعهدات ترجع إلى الكتلة ـ وهذا هو الاعتبار الثالث الذي نتكلّم عنه فيما بعد ـ وبعضها ترجع إلى التجربة، وترجع إلى التجربة، يعني ترجع إلى الحكم وإلى الكيان السياسي.

وأهمّ هذه التعهّدات: أنّه اشترط على معاوية أن لا يوصي لأحدٍ غير الإمام بالأمر من بعده. وفي روايةٍ أخرى: أن يوصي للإمام الحسن عليه السلام[1]، ولهذا كان الإمام الحسن عليه السلام يريد أن ينحسر عن الحكم؛ لكي يكسب اقتناع المسلمين

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٩١، الإمامة والسياسة لابن قتيبة : ١٨٤ ـ ١٨٥.

بصحّة الأُطروحة، ثمّ لكي يضع أساساً جديداً، على هذا الأساس الجديد يمكن للأُطروحة أن ترجع مرّةً أخرى للميدان السياسي، وتصارع على أساسها على هذا الحقّ المعتضد من ناحية هذا الشرط.

وأنتم تعلمون ـ كما ذكرنا بالأمس ـ أنّه كانت هناك شكوك البعض في شرعية خلافة الإمام الحسن عليه السلام بالنحو الذي شرحناه، وكان هذا الشرط يقضي على كلّ شكٍّ في نظر الجماهير في صحّة خلافة الإمام الحسن عليه السلام، لو كان معاوية قد أصيب بسكتة تامّة بعد هذا الشرط بشهر أو شهرين وانتهى الأمر لاسترجع الإمام الحسن عليه السلام في ذهنيّة الجماهير كلّ المبرّرات الشرعية لأن يحكم ولأن يُستخلف، فكان معنى هذا الاختيار تجميد التجربة مؤقّتاً، ووضع قاعدة شرعيةٍ وقانونيةٍ يمكن على أساسها مواصلة الكفاح والجهاد على هذا لإرجاعها إلى مستوى الحياة، إلى مسرح الحياة، بعد أن تكون قد استرجعت الاقتناع المطلوب بها من قواعدها الشعبية التي فقدت الاقتناع في ظلّ الظروف السابقة.

إذن فعلى أساس الاعتبار الثاني أيضاً كان هذا الاعتبار الثاني يحتّم على الإمام الحسن عليه السلام أن يفضّل الطريق الثاني على الطريق الأوّل، بينما الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يوجد لديه مثل هذا الاعتبار لكي يبرز طريقه على هذا الأساس.

على مستوى الاعتبار الثالث:

الاعتبار الثالث هو اعتباره زعيماً للكتلة التي بذر بذورها النبيّ صلى الله عليه وآله ونمّاها الإمام علي عليه السلام. هذه الكتلة التي تمثّل الجزء الواعي من الأُمّة الإسلامية التي

تسمّى اليوم بالشيعة، والتي كانت من المفروض أن تكون طليعة الأُمّة الإسلامية على مرّ التأريخ، تحمل للأجيال الإسلام بكامل صيغه ومضمونه، هذا الاعتبار الثالث أيضاً لا بدّ من إدخاله في الحساب حينما يبرز أفضل الطريقين، أفضلية الأوّل أو الثاني، وفي هذا المجال كان يبدو حينما تدرس المسألة على هذا الضوء الجديد أنّ هناك فرقاً كبيراً بين الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، الإمام الحسين عليه السلام كان مشاركاً للإمام الحسن عليه السلام في هذا الاعتبار؛ لأنّ الإمام الحسين كان هو الزعيم الثالث لهذه الكتلة، كان هو الزعيم الثالث لهذه الكتلة، كان هو الأمين على هذه الكتلة في مرحلته، كما كان الإمام الحسن عليه السلام هو الأمين على هذه الكتلة في مرحلته، إلا أنّ بينهما فرقاً، وحاصل هذا الفرق: أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يستقطب كلّ هذه الكتلة، بينما الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يستقطب كلّ هذه الكتلة، الإمام الحسن عليه السلام كان يحارب، وكانت هذه الكتلة داخلةً ضمن إطار دولته، ولم يكن من المعقول أن يحارب رئيس دولةٍ وأن يواصل الحرب إلا بأن تستنفد كلّ قواه وطاقاته وكلّ رصيده الشعبي الموجود في هذه الدولة حتّى يخرّ صريعاً.

الإمام الحسين عليه السلام لم يخرّ صريعاً إلا بعد أن استنفدت كلّ قواه الصغيرة المتمثّلة في تلك المجموعة الطاهرة حتّى خرّ الأبطال صرعى، ثمّ خرّ الإمام الحسين عليه السلام صريعاً.

وكيف برئيس دولة يريد أن يواصل الحرب إلى الموت؟ كان لا بدّ لكي يواصل الحرب إلى الموت من أن يستنفد كلّ طاقاته من قواعده الشعبية، وكلّ ما يملك من هذه القواعد الشعبية، وكان معنى هذا أنّه سوف لن يبقى هناك وجود إسلامي قادر على أن يسترجع ذلك الاقتناع الذي فقد، ذلك الاقتناع

بالأُطروحة عند حجر بن عدي وأمثاله، هؤلاء أوّل من يقنع بعد أن شكّ ـ لو قلنا بأنّ حجراً شكّ[١] ـ هؤلاء الأشخاص الّذين عاشوا ضدّ معاوية وقتلوا بسيف معاوية، هؤلاء هم أوّل جزءٍ من القواعد الشعبيّة التي رجع إليهم الاقتناع، وعن طريق دمهم وعن طريق إيمانهم وعن طريق اقتناعهم سرى هذا الاقتناع إلى الأكثرين، وسرى هذا الاقتناع عبر الأجيال، وسرى إلينا، فكلّنا يفضّل هذا الاقتناع، ويفضّل هذه الدماء، ويفضّل هذا الإصرار المستميت من هؤلاء الأمناء على أُطروحتهم وعقيدتهم، غير أنّ هذا الجزء الذي كان فيه استعداد لأن يرجع إلى الاقتناع بنحوٍ أفضل، غير أنّ هذا الجزء الأكثر ضماناً والذي كان لا يزال مقتنعاً بالفعل إلى حدٍّ ما، غير أنّ هذه الأجزاء الصغيرة التي كانت مقتنعةً بالفعل بدرجات ضئيلة، لو أنّ الإمام الحسن كان قد أهدر كلّ هذه الأجزاء، قد أعطى كلّ هذه الأجزاء، إذاً بهذا كان يعطي كلّ إمكانيات استرجاع هذا الاقتناع إلى الأُمّة الإسلامية. فكان لا بدّ [من الحفاظ] على قاعدة يمكن أن يرجع على أساسها اقتناع الأُمّة بالأُطروحة في يوم ما، ويمكن أن تسترجع اعتقادها الراسخ بأنّ خطّ عليٍّ عليه السلام هو خطّ الإسلام استرجاعاً يدفعها إلى بذل الدم واسترخاص الروح في هذا السبيل، كان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام من أن يفكّر في حفظ أجزاء وقطاعاتٍ من هذه القاعدة الشعبية، هذا هو الذي كان يعبّر عنه بحقن الدماء، وكان يعبّر عنه بحفظ الشيعة، ونحو ذلك من التعابير.

الإمام الحسين أُخذ في معزلٍ من صفوة من خيرة خلق الله. إنّ هذه الصفوة لم تكن تستوعب كلّ القواعد الشّعبية الواعيةً، ولهذا عقيب شهادته بدأت ثورة التوّابين، ثمّ بدأت الثورات الأخرى من قبل أناس كانوا يتزعّمون لعددٍ كبيرٍ من الشيعة الواعين والمؤمنين بأهداف الحسين عليه السلام.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٥٧، تاريخ الإمام الحسن عليه السلام، الباب ١٩، باب كيفيّة مصالحة الحسن عليه السلام معاوية، الحديث ٦.

ملخّص القول: إنّه كان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام أن يدرس تجربته على أساس هذه الاعتبارات الثلاثة، أو كان لا بدّ أن لا يدخل في حسابه أيّ اعتبارٍ غير هذه الاعتبارات، وقد رأينا أنّ هذه الاعتبارات الثلاثة بمجموعها ككلٍّ تشير إلى تعيين الطريق الثاني، ولا يشير شيء منها إلى تعيين الطريق الأوّل، فكان لا بدّ من اختيار الطريق الثاني بدلاً عن الأوّل مهما كان هذا الطريق قاسياً أو صعباً، ومهما كان فيه ألوان التحدّي للنفس البشرية الاعتيادية[1] التي لم تعتد سلوك الحقّ في كلّ سلوكها وتصوّراتها وأفكارها ومشاعرها، إلا أنّ هذا الشاب العظيم الذي كان يمثّل دور الحقّ في كلّ آناته وخلجاته لم يتردّد لحظةً ولم يتأمّل لحظةً في أن يتحمّل هذا الأذى وكلّ هذا الضيم في سبيل أن يحقّق أقصى درجة ممكنة من المكاسب للاعتبارات الثلاثة، أو أن يبعد عن أقصى درجةٍ ممكنةٍ من الضرر.

ولهذا وعلى هذا الأساس تمّ نوع من إيقاف العمل. جسّده ذلك الموقف المشئوم في مسجد الكوفة حينما دخل معاوية إلى مسجد الإمام عليّ عليه السلام وصعد على هذا المنبر الذي كان يجسّد آمال المسلمين وحكم الإسلام، إلى هذا المنبر الذي كان يصعده محمّد صلى الله عليه وآله بوجوده الثاني، وهو عليّ عليه السلام، صعد عليه معاوية ليستهين بمثل هذا المنبر، وشرف هذا المنبر، وليقل صريحاً ومكشوفاً من [بعد] الشخص الذي كان يعيش فوق هذا المنبر كلّ هموم المسلمين وكلّ آمال المسلمين، الذي كان يعيش من فوق هذا المنبر كلّ قضيّةٍ من قضايا الرسالة، وكلّ اعتبارٍ من اعتباراتها، هذا الشخص صعد إلى هذا المنبر ليقول لكلّ الناس بكلّ وقاحة وجرأة وصراحة:«إنّي حاربتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك

---

(١) كذا في الأصل، والصحيح : العادية.

وأنتم لذلك كارهون»، وكان من منطق هذه الجلسة أن يخطب كلّ الطرفين المتنازعين في هذا المسجد، لكن بِمَ يخطب الإمام الحسن عليه السلام في مقابل هذا النوع من الاستهتار؟ في مقابل ضيعة الآمال، في مقابل تهدّم كلّ ما كان يفترضه الإنسان المسلم من قيمٍ ومثلٍ واعتبارات.

ماذا يقول الإمام الحسن عليه السلام؟ وبِمَ يجيب هذا الاعتداء؟ حينما انتهى معاوية من خطابه قام فقال: «يا معاوية، أنت معاوية وأنا الحسن، وأنت ابن أبي سفيان وأنا ابن علي، وأنت حفيد حرب وأنا حفيد رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله، وأنت ابن هند وأنا ابن فاطمة، وأنت حفيد فلانة وأنا حفيد خديجة ! اللهمّ فالعن ألأمنا حسباً. فقال الناس: آمين»[1].

(١) الاحتجاج ٢: ٥٣ ـ ٥٤، كشف الغمّة ١: ٥٧٣

ومضات من عهد إمامة الحسن المجتبى عليه السلام

محمّدهادي اليوسفي الغروي(*)

نصُّ أمير المؤمنين على الحسن عليه السلام:

أسند الطوسي عن جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام: أن سليم بن قيس الهلالي كان قد قرأ نسخة كتابه على أبان بن فيروز العياش البصري ودفعها إليه، فحضر أبان لدى علي بن الحسين عليه السلام فقرأ منها عليه: قال سليم: «شهدت وصية أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين عليه السلام ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، فقال للحسن: يا بني، أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي[2] كما أوصى إليّ رسول الله ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين. ثم أقبل على ابنه الحسين وأخذ بيد ابنه علي بن الحسين وقال للحسين: أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثم قال لعلي بن الحسين: يا بني، وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمّد، واقرأه من رسول الله ومنّي السلام»[3].

(*) كاتب ومحقّق إسلامي في الحوزة العلمية بقم المقدّسة ـ إيران.

(١) الغيبة للطوسي: ١٩٤.

(٢) كتاب سليم ٢: ٩٢٤ وعنه في الكافي ١: ٢٩٨ وفي الفقيه ٤: ١٨٩. ولعلي بن الحسين ⇐

قال الباقر عليه السلام: «فلمّا قرأها أبان على علي بن الحسين قال: صدق سليم والله»[١].

وأسند الكليني عن أبي الجارود الهمداني الكوفي: أنّ الباقر عليه السلام اختصر له الخبر فقال: «إنّ أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) لما حضره الذي حضره قال لابنه الحسن: ادنُ منّي حتّى أسرّ إليك ما أسرّ رسول الله صلى الله عليه وآله إليّ، وائتمنك على ما ائتمني عليه، ففعل»[٢].

ثم لمّا قضى أمير المؤمنين نحبه قام الحسن وإخوته بتجهيزه، ثم خرجوا به ليلاً إلى مثواه في النجف الأشرف وعادوا إلى الكوفة، فصلّى الحسن عليه السلام بالناس ثم خطبهم فعرّفهم بقتل أبيه وبكى وبكى معه الناس، ثم عرّفهم بنفسه وأنّه من أهل آية التطهير وآية المودّة في القربى، ثم جلس على المنبر.

وكان من الحاضرين في وصية الإمام عليه السلام عبدالله وعبيد الله ابنا العباس، فقام عبدالله بين يدي الحسن عليه السلام ونادى: «معاشر الناس، هذا ابن بنت نبيّكم و(وصيّ) إمامكم فبايعوه»[٣] وقام عبيد الله وقال: «لقد توفّي أمير المؤمنين برّاً تقياً عدلاً مرضياً، أحيا سنّة نبيّه وابن عمّه وقضى بالحقّ ومضى، وقد ترك خلفاً رضاً مباركاً حليماً»[٤] فقام لبيعته قيس بن سعد الأنصاري وبايعه ثم تبادر الناس إلى بيعته

⇒

يومئذ أربع سنين، إذ ولد سنة ست وثلاثين. راجع موسوعة التاريخ الإسلامي ٤: ٦٥٢.

(١) الغَيبة للطوسي: ١٩٤.

(٢) الكافي ١: ٢٩٨.

(٣) الإرشاد ٢: ٨

(٤) أنساب الأشراف ٣: ٣١.

فخطبهم خبطة أخرى[١].

بيعة الحسن عليه السلام:

كان عبدالله بن العباس استخلف على البصرة أبا الأسود الدؤلي، فبلغه نعي علي ووصيّته وبيعة الحسن عليهما السلام، فصعد المنبر وخطب فقال:

«إن رجلاً من أعداء الله المارقين عن الدين اغتال أمير المؤمنين في مسجده، وهو خارج إليه لتهجّده، فقتله، في ليلة يُرجى فيها مصادفة ليلة القدر، فيا لله من قتيل! واكرم به وبروح منه عرج إلى الله بالبر والتقوى والإيمان والهدى والإحسان، ولقد انطفأ به نور لله في أرضه لا يضيء بعد! وهدم ركناً من أركان الإيمان لا يُشاد مثله، فإنا لله وإنا إليه راجعوان، وعند الله تحتسب مصبتاً بأمير المؤمنين، ورحمه الله يوم ولد ويوم قُتل ويوم يُبعث حياً»! ثم بكى حتى اختلجت أضلاعه. ثم قال:«وقد(أوصى) بالإمامة إلى ابن رسول الله وسليله وشبيهه في خلفه وهديه، وإني لأرجو أن يجبر الله به ما وهيَ ويستر به ما انثلم ويجمع به الشمل ويطفئ به نيران الفتن، فبايعوا ترشدوا».

فبايع له جميع شيعته بالبصرة، وتخلّف قوم ثم لحقوا بالشام[٢]، فلمّا عاد ابن عباس الى البصرة كانت قد بايعت للحسين عليه السلام، بناءً على «وصية» أبيه إليه ونصّه عليه.

وأما بيعة الحرمين: فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان قد أرسل جارية بن قُدامة السعدي التميمي بعسكر كاف لتعقيب بُسر بن أُرطأة العامري الشامي وجيشه،

---

(١) أمالي المفيد: ٤١، أمالي الطوسي ح: ١٨٨ و ١٤٦٩.

(٢) تيسير المطالب لأبي طالب الهاروني: ١٩٦.

وكان بُسر في مكة فأقبل جارية إلى مكة، فخرج منها بُسر بعسكره إلى اليمامة، وكان ذلك بعد شهر رمضان، فكان قد بلغهم مقتل علي عليه السلام دون بيعة الحسن عليه السلام، فدعاهم جارية إلى البيعة فقالوا: لا ندري ما صنع الناس بعده، فلمن نبايع؟ فقال: وما عسى أن يصنعوا إلا أن يبايعوا الحسن ابنه؟! فبايعوه للحسين عليه السلام.

ثم خرج جارية منها إلى المدينة فقال لهم: قوموا فبايعوا للحسن بن علي. وأقام يومه لذلك ثم خرج منها إلى الحسن عليه السلام بالكوفة فعزّاه بأبيه وبايعه[(١)]. ومن هنا يُعلم أنّ استخلاف علي الحسن عليهما السلام كان هو الغالب لدى الناس عرفاً.

وبعد بيعة العراقَين والحرمَين لم يبقَ من بلاد الإسلام يومئذ إلا مصر والشام مع معاوية، فكتب له يدعوه لذلك وبعث بالكتاب مع الحارث بن سُويد التيمي وجُندب بن عبدالله الأزدي، فقدما عليه وسلّماه الكتاب ودعواه إلى البيعة، فأبى.

وكان في كتاب الحسن عليه السلام إليه: «أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله صرنا أهل بيت محمّد وأولياؤه إلى طلب النصف من قريش فباعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت لنا، فالموعد الله وهو الولي النصير».

فكتب معاوية إليه: «وذكرت وفاة النبيّ وتنازع المسلمين بعده، فرأيتك صرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواريّ الرسول وصلحاء المهاجرين والأنصار! فكرهت ذلك لك، فإنك أمرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين ولا المسيئ ولا اللئيم! وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل»[(٢)].

---

(١) الغارات ٢: ٦٤٠.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٦٣، ٧٣.

وهذه أول بادرة في التاريخ لسرقة لقبي النبيّ للوصي بالصديق والفاروق للشيخَين السابقَين، وأوّل بناء لعدالة الصحابة من معاوية بوجه أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبهذا الاستنكاف من معاوية عن البيعة للحسن عليه السلام تعيّنت المواجهة بل المقابلة القتالية.

السابق واللاحق في مواجهة معاوية:

روى الرضي في «نهج البلاغة» عن نوف البكالي، قال: خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة على حجارة نصبها له ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومي، وكان عليه مدرعة من صوف (فلم يكن صيفاً) وحمائل سيفه من ليف وفي رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثفنة بعير، وكان قد أشار الى مصيره وعاقبته فقال: «الحمدلله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر..» وفي آخرها ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء على إخوته شهداء صفين، ثم رفع صوته «بالجهاد الجهاد عباد الله، وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح الى الله فليخرج». ثم عقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيّوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أُخر، يريد الرجعة إلى صفّين[1]، هذا ولم يعقد للحسن عليه السلام في إشارة إلى شهادته وخلافة الحسن عليه السلام، وكان كذلك.

ولأربعة أشهر بعد شهادة علي عليه السلام دعا الحسن عليه السلام بابن عمه عبيد الله بن العباس وأمّره على اثني عشر ألفاً من الفرسان، وضمّ إليه قيس بن سعد الأنصاري وسعيد بن قيس الهمْداني مشاورَين ومناوبَين بعده، وأرسلهم باتجاه معاوية بعد

(١) نهج البلاغة خ١٨٢.

الأنبار، فأغرى معاوية عبيد الله بن العباس بألف ألف (مليون) درهم، فانسلّ ليلاً إليه، وأشاع خبره في عسكره، فجعل وجوه عسكر العراق يتسللون إلى معاوية فيبايعونه: أوّلهم خالد بن معمّر السدوسي عن كل ربيعة؛ ثم عفان بن شرحيل التيمي عن تيم الرباب، وجعل قبائل أهل العراق يتوجهون إلى معاوية[١].

وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية في السرّ بالطاعة، فاستحثوه على السير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إلى معاوية عند دنوه إليهم أو الفتك به[٢].

وفي توجيه أو تحليل ذلك قال المفيد:«إنّ الّذين مع الحسن عليه السلام كانوا من أخلاط الناس؛ بعضهم من شيعته، وبعضهم من الخوارج الحكمة يريدون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم! وبعضهم شكّاك مترددون، وبعضهم أصحاب عصبيات عشائرية إنما اتبعوا رؤساء عشائرهم لا يرجعون إلى دين متين»[٣]، وقال المرتضى: «وكان قلوب أكثرهم دغلة نغلة غير صافية، وقد كانوا صبَوا إلى دنيا معاوية»[٤].

شروط المصالحة:

روى ابن عبد البَر: أن الحسن عليه السلام في مراجعات المصالحة كان يهتم أكثر شيء بترك تعقيب معاوية لأصحاب الحسن وأصحاب أبيه من قبل، فقال: «إنّي لا اتابعك أو لا أُبايعك أبداً وأنت تطلب أحداً منا بتبعة قلّت أو كثرت»، فحينئذٍ

---

(١) أنساب الأشراف٣: ٤١، الفتوح ٤: ١٥٧.

(٢) الإرشاد ٢: ١٢.

(٣) المصدر السابق ٢: ١٠.

(٤) تنزيه الأنبياء: ١٧٠، تلخيص الشافي:١٧٢و٤١٩.

بعث معاوية إلى الحسن عليه السلام برقٍّ أبيض وقال له: «اكتب فيه ما شئت فأنا ألتزمه»[١].

قال المفيد: «فاشترط عليه العدول عن القنوت على علي عليه السلام في صلواته، بل ترك سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وأن يؤمّن شيعته لا يتعرض لأحد منه بسوء، ويوصل إلى كلّ ذي حقّ حقّه. فأجابه معاوية إلى ذلك وعاهده عليه وحلف له بالوفاء»[٢].

وقبله ذكرها الأموي أبو الفرج قال: «أن لا يُذكر علي عليه السلام إلا بخير، ولا يُنال من شيعته بمكروه، ولا يتابعَ أحد بما مضى»[٣] أي العفو العام.

وكأنّ هذه الثلاثة هي أهم الشروط، وإلا فمجموعها عشرة: نصفها من الحسين عليه السلام ونصفها الآخر من معاوية[٤].

وكان من فلول خوراج النهروان من بني تيم فروة بن نوفل الأشجعي حتى صار معه ألف وخمس مائة، فأقبل بهم إلى النخيلة ومعاوية في الكوفة، وخرج إليه أيضاً ابن الحوساء الطائي.

وعزم الحسن عليه السلام على العودة إلى المدينة، فخرج إلى مسجد الكوفة وخطب فقال: «يا أهل الكوفة، اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم وفي «أهل بيت» نبيّكم الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» فبكى الناس، ثم شيعه معاوية إلى قنطرة الحيرة، ثم بعث إليه بكتاب يدعوه فيه إلى دفع الخوارج عليه! فأجابه: «كان قتالك لي حلالاً فتركته لصلاح الأُمّة وألفتهم! أفتراني أُقاتل

---

(١) الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١: ٣٧٠، وبهامش تاريخ ابن عساكر، الإمام الحسن: ١٨٥.

(٢) الإرشاد ٢: ١٤١.

(٣) مقاتل الطالبيين: ٤٣.

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي ٥: ٤٦٤ ـ ٤٦٦.

معك»؟![1].

الإمام المجتبى عليه السلام في مجلس معاوية:

انفرد سبط ابن الجوزي عن أهل السير بذكر خبر عن مجلس معاوية في الكوفة مع أصحابه عمرو بن العاص والوليد بن عقبة، وعقبة بن الوليد بن عتبة المخزومية وأنهم قالوا لمعاوية. نريد أن تحضر الحسن على سبيل الزيارة قبل مسيره إلى المدينة لنخجله، وألحّوا عليه، فأرسل معاوية إلى الحسن واستزاره. فلمّا حضر تحدثوا فنالوا علياً بمرأى ومسمع من الحسن عليه السلام، وسكت حتى فرغوا من كلامهم.

ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم ذكر أخباراً من فضائل علي عليه السلام ومناقبه، فذكر مبيته على فراش النبي عليهما السلام ونزول الآية فيه، وآية الولاية، وحديث المنزلة. ثم قال:

«وأنت ـ يا معاوية ـ قد علمت الفراش الذي ولدت عليه! وكنت يوم بدر تقاتل رسول الله، وكنت تنهى أباك عن الإسلام تقول شعراً:

يا صخر لا تُسلمن طوعاً فتفضحنا   بعـد الّذين ببدر أصبحوا مُزُقاً

وكنت في اُحد والخندق والمشاهد كلّها تقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله، ونظر النبي إليك يوم الأحزاب، فرأى أباك على جمل يحرّض الناس على قتاله وأخوك يقود الجمل وأنت تسوقه فقال:«لعن الله الراكب والقائد والسائق»، وما قابله أبوك في موطن إلا ولعنه وكنت معه: وقال رسول الله في حقّك: «اللهم لا تشبعه...».

---

(١) أنساب الأشراف ٣: ٤٨، ٥٩ ح ٥٤.

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال له: «وأما أنت يابن النابغة! فقد ادعاك خمسة من قريش حتّى غلب عليك ألأمهم العاص، ونزل فيك (أو فيه): ﴿**شانئك هو الأبتر**﴾ فأنت عدو الله ورسوله وعدو المسلمين، وكنت عليهم أضر من كل مشرك، وأنت القائل:

ولا أنثني عن بني هاشم بما اسطعت في الغيب والمحضر

فعن عائب اللات لا أنثني ولولا رضا اللات لم نُمطَر»!

ثم التفت إلى الوليد عقبة فذكّره بأنه الفاسق في كتاب الله في آية النبأ، ثم ذكّر عتبة بن الوليد المخزومي وذكّره بمخازيه، ثم قام الحسن عليه السلام ونفض ثوبه وانصرف[1].

من مواقف الشيعة في الكوفة والمدينة:

وولّى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي، وأخذ عليه إظهار عيب علي عليه السلام للناس والثناء على عثمان، وكان صعصعة بن صوحان العبدي زعيم عبد قيس وخطيبهم، فكان يجلس في المسجد فيكثر ذكر علي عليه السلام ويفضّله ويعيب على عثمان، فبلغ ذلك المغيرة فدعاه وقال له: «إنّك لا تذكر شيئاً من فضل علي أنا أجهله بل أنا أعلم منك بذلك. ولكن هذا السلطان قد ظهر وظفر، وقد أخذنا باظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيراً ممّا أُمرنا به ونذكر الذي لا نجد بدّاً منه، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا (تقية) فإن كنت ذاكراً فضله فاذكر ذلك بينك وبين أصحابك في منازلكم سراً! وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله لنا الخليفة ولا يعذرنا به! فإياك أن يبلغني عنك أنّك تظهر شيئاً من فضل علي

(١) تذكرة الخواص ٢: ٢٧ ـ ٣١، وبهامشه مصادر كثيرة، وقال: وقيل: كانت بالشام.

علانية! وإيّاك أن يبلغني عنك أنّك تعيب عثمان عند أحد من الناس!».

فكان صعصعة يقول للمغيرة: «نعم، أفعل»، ثم يبلغه أنه قد عاد على ما نهاه عنه!.

وكان يخطب قومه فيقول لهم: «يا معشر عباد الله، إن الله، لمّا قسّم الفضل بين المسلمين، خصّكم بأحسن القسم، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره لنفسه وارتضاه لملائكته ورسله! فاقمتم عليه حتى قبض الله رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم اختلف الناس بعد فثبتت طائفة وارتدت طائفة وادهنت طائفة وتربّصت طائفة، فلزمتم دين الله إيماناً به وبرسوله وقاتلتم المرتدين حتى قام الدين وأهلك الله الظالمين.. حتّى اختلفت الأُمّة بينها فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة، وقالت طائفة: نريد أهل الشام.. وأنتم قلتم: لا نريد إلا «أهل البيت» الّذين ابتدأنا الله بالكرامة من قبلهم تسديداً من الله لكم وتوفيقاً... فلم تزالوا على الحقّ آخذين به لازمين له حتّى أهلك الله بكم وبمن معكم الناكثين يوم الجمل».

ولما كان علي عليه السلام على علم بما بعده كان قد نهى شيعته من جهاد الخوارج بعده، ولكن صعصعة مع كل ما كان عليه من الحقّ والهدى لم يكن متوقّفاً عند هذا النهي من علي عليه السلام، فكان برغبة المغيرة يثير قومه على الخوارج على معاوية يقول لهم: «ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيّكم ولجماعة المسلمين من هؤلاء المارقين الّذين فارقوا (إمامنا) علياً»[1].

واكتفي بذكر هذا الموقف من صعصعة العبدي نموذجاً من مواقف الشيعة يومئذ بالكوفة بإزاء مواقف عمّال معاوية.

وفي سنة (٤٤ هـ) حجّ معاوية فقدم المدينة، فتأخّر الأنصار في زيارته،

(١) تاريخ الطبري ٥: ١٨١ ـ ٢٠٩.

وزاره أبوقتادة الأنصاري، وكان والياً عليها لعلي عليه السلام، فقال معاوية لهم: ما منعكم؟ قال أبو قتادة: لم يكن لنا دواب! وكان أهل المدينة يحملون الماء على نياقهم ويسمّونها النواضح، فقال لهم: فأين النواضح؟ يعيّرهم بها، فقال أبو قتادة: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر! فقال معاوية: نعم يا أبا قتادة، ثم ماذا؟ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لنا: «ستلقون بعدي أثرة»! فقال معاوية: فما أمركم عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر! فقال معاوية: فاصبروا حتّى تلقوه![1] كأنه يستهزئ بالحديث النبوي الشريف، فإن معاوية هو الذي استأثر بحقوق الأنصار انتقاماً منهم!

وكان سيّد الأنصار في المدينة يومئذٍ قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي فتكرر موقف معاوية مع أبي قتادة اليوم مع قيس بن سعد، فقال له قيس: يا معاوية (بدون لقب): تعيّرنا بنواضحنا ! والله لقد لقيناك عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على إطفاء نور الله ولأن تكون كلمة الشيطان هي العليا! ثم دخلت أنت وأبوك في الإسلام كرهاً حين ضربناكم عليه! أما إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لنا: إنّكم سترون بعدي أَثرة»؛ فقال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتّى نلقاه! فقال: فاصبروا حتّى تلقوه! ثم قال: كأنّك تمن علينا بنصرتك إيّانا؛ والله لقريش بذلك الحقّ إذ هداكم الله بنا وجعلكم أتباعنا وأنصارنا!

قال قيس: «إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً إلى الناس كافة إلى الإنس والجن والأسود والأبيض والأحمر رحمة للعالمين، فكان أوّل من صدّقه وآمن به ابن عمه علي بن أبي طالب، وكان أبو طالب عمّه يذبّ عنه ويمنع منه ويحول بينه وبينكم أن تروّعوه أو تؤذوه، فلم يزل ممنوعاً من الأذى والضيم حتّى مات عمّه

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦: ٣٢.

أبوطالب بعد أن أمر ابنه علياً بمؤازرته ونصرته، فوازره علي ونصره وجعل نفسه دونه في كلّ شدّة، وكلّ ضيق وكلّ خوف، واختصّ الله بذلك عليّاً بين قريش وأكرمه من بين جميع العرب والعجم..»، ثمّ لم يدع قيس آية نزلت في علي عليه السلام إلا ذكرها ولم يدع شيئاً من مناقبه إلا ذكره. ثم قال: «ومن أهل هذا البيت حمزة سيّد الشهداء، وجعفر بن أبي طالب الطيّار في الجنة بجناحين، اختصّه الله بذلك، ومنهم فاطمة سيّدة نساء العالمين... فإذا وضعت من قريش رسول الله و«أهل بيته وعترته الطيّبين» فنحن ـ والله ـ خير وأحبّ إلى الله ورسوله وإلى «أهل بيته» منكم يا معشر قريش»!.

فعند ذلك غضب معاوية وأمر كاتبه أن يكتب نسخة إلى عمّاله: أن قد برئت الذمة عمّن يروي حديثاً في مناقب علي بن أبي طالب أو فضائل أهل بيته! ثم أمر مناديه أن ينادي بها في المدينة. فقام الخطباء على كلّ المنابر وفي كل كورة بالوقيعة فيه وفي أهل بيته وبلعن علي عليه السلام والبراءة منه[1] على خلاف شروط الصلح مع الحسن عليه السلام وفي حياته قبل قتله. وهكذا تشكّل التشيّع وامتاز منه المجرمون يوماً بعد يوم.

معاوية وعائشة والحسن عليه السلام وابن وقّاص:

كان معاوية بعث عمرو بن العاص السهمي إلى مصر فقتل محمّد بن أبي بكر وادخله جوف حمار ميت وأحرقه، فكانت عائشة تقنت على معاوية، ولا تراه أهلاً للخلافة. فلما زار المدينة لم يزرها أو هي لم تأذن له عليها، ومع أنه نقض أهم شروط الصلح وأعلن لعن علي عليه السلام زاره الحسن عليه السلام، وكان معاوية في صدر مجلس ضيق ولم يوسّع للحسن عليه السلام فاضطر للجلوس عند رجلي

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي ٢: ٧٧٧ ـ ٧٨٠ ح٢٦، مروج الذهب ٣: ١٧.

معاوية، ثم شكا إليه معاوية مقالة عائشة! فقال له الحسن عليه السلام: «واعجب من ذلك جلوسك وأنا عند رجليك»، فجلس وضحك وقال: يابن أخي! بلغني أن عليك ديناً كم هو؟.. وكان يزيد مع أبيه فتعجّب من ذلك فقال أبوه: يابني، إنّ الحقّ حقّهم فمن جاءك منهم فاحثُ له[١]!

وتقدّم سعد بن أبي وقاص معاوية إلى مكة، فلحقه معاوية في الطريق بين الطلوعين، فوقف ومعه الشاميون فسلّم على سعد، وكان سعد رأى من كلام معاوية ثلمة في دينه فعزم على أن لا يكلّمه بل لا يرد سلامه! فلم يرد سعد جواب سلام معاوية! فالتفت معاوية إلى الشاميّين وقال لهم: أتدرون مَن هذا؟ هذا صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص الزهري لا يتكلّم بعد الفجر حتّى تطلع الشمس[٢]؛ وهذه من حِيَل معاوية.

من مضايقة معاوية على أهل الكوفة:

مرّ الخبر عن العامل في حمل معاوية على إعلان لعن علي عليه السلام، ولكن ذلك لم يكن لأوّل مرة، وإنما كان ذلك تأكيداً وتشديداً في الأمر، وإلا فإنّ معاوية حين ولّي المغيرة الكوفة أوصاهُ مؤكِداً مشدِداً بعدم الكفّ عن الكفر بسبّ إمام الإيمان أمير المؤمنين عليه السلام، فكان المغيرة بن شعبة الثقفي على ذلك حتى أواخر عهده، ويوماً دعا على قتلة عثمان، فقام إليه حُجرُ بن عَدي الكندي وناداه بأعلى صوته: أيّها الناس؛ إنّك لا تدري بمن تولع من هرمك! أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين! وكان المغيرة قد أخّر أرزاقهم فقال حجر: وقد

(١) عن أمالي محمّد بن حبيب البغدادي في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٢.
(٢) الوزراء والكتّاب للجهشياري: ٤٣.

حبست عنّا أرزاقنا وليس لك ذلك! ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، فأمر لنا بأرزاقنا وأُعطياتنا، فقام أكثر من ثلثي الناس في المسجد يتنادون: برّ ـ والله ـ حُجر وصدق، مُر لنا بأرزاقنا وأُعطياتنا، فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي لنا شيئاً ! فنزل المغيرة، ودخل[١].

وجهّز المغيرة قافلة محمّلة بالأموال إلى الشام، فجمع حُجر جمعاً من أصحابه وتبع القافلة فحبسها وقال: والله، لا تذهب حتّى يعطى كل ذي حقّ حقّ[٢].

وبلغ المغيرة أن معاوية استضعفه فأراد عزله فعزم على لقائه، وهنا ألقى إلى يزيد بن معاوية: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وكبراء قريش وإنّما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم[٣].

وهذا الاقتراح من المغيرة إلى يزيد ومنه إلى أبيه معاوية جرّأ معاوية على العزم على ذلك وأخذ يخطّط له ويقدّم المقدّمات، ومن ذلك:

مصاهرة يزيد لعبدالله بن جعفر:

كان مروان بن الحكم حاكم المدينة لمعاوية، وعلم معاوية أن عبدالله بن جعفر زوج زينب بنت الزهراء وعلي عليه السلام له منها ابنة بالغة تدعى أُمّ كلثوم، فكتب معاوية إلى مروان أن يخطبها منه ليزيد لصلح الحيّين هاشم وأُمية! وعلى قضاء ديون عبدالله بن جعفر، وما يحكم لصداق ابنته! فبعث مروان إلى ابن جعفر

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤: ٨٤، وفي تعاليق الغارات ٢: ٨١٥.

(٣) تاريخ الطبري ٥: ٣٠١ ـ ٣٠٢.

يخطبها منه، فقال له عبدالله: إنّ ذلك إلى زعيمنا وخالها الحسن بن علي عليهما السلام فاخطب إليه. فأتى مروان للحسن عليه السلام خاطباً فقال له الحسن: «اجمع من شئت». فأرسل مروان فجمع الحيّين هاشم وأُمية.

ثم خطب مروان فقال: أما بعد: فإن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أخطب أُمّ كلثوم بنت عبدالله بن جعفر ليزيد بن معاوية، على صلح الحيّين هاشم وأُمية، وعلى حكم أبيها في صداقها وعلى قضاء دينه بالغاً ما بلغ. ويزيد بن معاوية كفؤ مَن لا كفؤ له! ولعمري لَمن يغبطكم بيزيد أكثر ممّن يغبط يزيد بكم! فيزيد ممّن يُستسقى بوجهه الغمام ! ثم سكت.

فحمد اللهَ الحسنُ عليه السلام وأثنى عليه ثم قال: «أما ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق فإنا لم نكن لنرغب عن سنة رسول الله في أهله وبناته. وأما قضاء دين أبيها فمتى قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن؟! وأما صلح الحيّين فنحن عاديناكم في الله ولله، فلا نصالحكم للدنيا؛ وأمّا قولك: يزيد كفوء من لا كفؤ له! فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه؛ وأمّا قولكم: من يغبطنا بيزيد أكثر ممّن يغبطه بنا؛ فإن كانت الخلافة قادت النبوّة فنحن المغبوطون، وإن كانت النبوّة قادت الخلافة فهو المغبوط بنا. وأما قولك: إنّ الغمام يُستسقى بوجه يزيد؛ فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم قال: «فاشهدوا أنّي قد زوّجت أُمّ كلثوم بنت عبدالله بن جعفر من ابن عمّها القاسم بن محمّد بن جعفر على أربعمائة وثمانين درهماً، وقد أنحلتهما ضيعتي بأرض العقيق، وإن نحلتها في السنة ثمانية آلاف دينار، ففيها لهما غنىً إن شاء الله»!

فقال مروان: أغدراً يا بني هاشم؟! فقال الحسن عليه السلام: «واحدة بواحدة»[(١)].

وكتب بذلك مروان إلى معاوية، فعزم على قتل الحسن عليه السلام مسموماً.

أقدم المؤرّخين ذكراً لذلك البلاذري (٢٧٩ هـ): «إنّ معاوية دسّ إلى... امرأة الحسن عليه السلام شربة لتسقيها للحسن عليه السلام على مئة ألف دينار! ففعلت»[(٢)].

ثم اليعقوبي (٢٨٤ هـ) نقل وصية الحسن للحسين عليهما السلام وفيها: «يا أخي، إن هذه ثالث مرة سقيت السمّ، وهذه أشدها، فأنا ميت في يومي هذا»[(٣)].

ثم المسعودي (٣٤٥ هـ) قال:«إنّ معاوية دسّ إلى زوج الحسن عليه السلام جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي مَن قال لها عن معاوية: إنّك إن احتلب في قتل الحسن وجّهت إليك بمئة ألف، وزوّجتك من يزيد! فذلك بعثها على سم الحسن»[(٤)].

ثم أبو الفرج الإصفهاني البغدادي الأموي قال: «لمّا أراد معاوية البيعة لابنه يزيد، لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي عليه السلام وسعد بن أبي وقاص فدسّ إليهما سماً ماتا منه في أيام»[(٥)].

ثم ابن عساكر الدمشقي (ق ٧ هـ) قال: «إن جعدة بنت الأشعث سقت الحسن السمّ، فكان إلى أربعين يوماً يوضع عنده طست وترفع أخرى»[(٦)].

ثم ابن كثير الدمشقي أيضاً قال: «وكأنّ معاوية قد تلطّف لبعض خدمه

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ٤: ٤٤ ـ ٤٥، مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٢٤.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ٦٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٥.

(٤) مروج الذهب ٢: ٤٢٧.

(٥) مقاتل الطالبيين: ٤٧ ـ ٤٨.

(٦) تاريخ مدينة دمشق، الإمام الحسن عليه السلام: ٢١٠ ح ٣٤٠.

(الحسن عليه السلام) أن يسقي (الحسن عليه السلام) سمّاً.. واختلف إليه الطبيب وقال: هذا رجل قد قطّع السمّ أحشاءه»[1] وليس كبده.

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الحسن بن علي عليه السلام قبل أن يقتل بالسمّ قال لأهله: إنّي أموت بالسمّ كما مات رسول الله صلى الله عليه وآله! فقالوا: ومَن يسمّك؟ قال: جاريتي أو امرأتي! قالوا: فأخرجها من ملكك. قال: هذا قضاء مقضي وأمر ثابت من الله أن منيّتي تكون على يدها ما لي منها محيص، فهيهات من إخراجها»[2].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ الحسن عليه السلام لما سقي السمّ دخل عليه الحسين عليه السلام فقام الحسن عليه السلام لحاجة الإنسان ثم رجع فقال: لقد سقيت السمّ مراراً فما سقيتُه مثل هذه المرة، لقد لفظت طائفة من كبدي (كذا) حتّى أنّي قلّبتها بعود بيدي... لقد حاقت شربته وبلغ أُمنيته! والله لا وفى لها بما وعد ولا صدق فيما قال»[3].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ جعدة ابنة الأشعث سمّت الحسن عليه السلام»[4].

وفي أُصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: «إنّ جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سمّت الحسن بن علي عليه السلام وسمّت مولاة له، فأما مولاته فإنّما قاءت السمّ، وأما الحسن عليه السلام فانتقض به فمات»[5].

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم قتل شهيداً مسموماً ويوم يُبعث حياً

---

(1) البداية والنهاية ٨: ٤٣.

(2) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٤: ١١.

(3) مقاتل الطالبيين: ٤٧، مروج الذهب ٢: ٤٢٧، الإرشاد ٢: ١٦ ـ ١٧ يبدو عن مقاتل.

(4) الكافي ٨: ٤١٧ ح١٨٧.

(5) الكافي ١: ٤٦٣.

محمّد هارون الرشيد ملا (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله عز وجل الذي خلق كل شيء، وخلق الأرض وجعل فيها الخليفة والأنبياء والمرسلين، واصطفى سيّدهم وبعث بعده الأئمة المهديّين الراشدين وأعلن طهارتهم وتنزّههم عن الرجس حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...﴾[٢]، وأوجب محبّتهم على الناس وجعلها شرطاً للإيمان ومركزا للإسلام، كما قال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٣]، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسيّد الأواخر والأوائل والمختار من الصفوة والأطائب الذي عرّف أهل بيته مراراً وأخذ الكساء فغشّاهم به ثم قال:«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»، وشبّههم بسفينة نوح عليه السلام سفينة النجاة حيث قال: «أهل بيتى مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها زُجّ في النار»[٤] وعلى اله وأصحابه المنتجبين.

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ بنغلادش.

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٣).

(٣) مستدرك الصحيحين ٣: ١٥١.

الحسن بن علي بن أبي طالب هو اللؤلؤ، كما قال الله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[1] "ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" وهو السبط الأول وسيد شباب أهل الجنة وريحانة الرسولصلى الله عليه وآله والتقي والزكي والولي، وأذكر في الذيل بياناً شافياً في تعريفه ونسبه وكنيته ولقبه وصفاته الحسنة وما قال الرسول صلى الله عليه وآله فيه وفي علمه وعبادته وزهادته وجوده وكرمه ومدة خلافته وإمامته ومهادنته وصلحه بينه وبين معاوية ووفاته ومدة عمره وغير ذلك مما يتصل بهعليه السلام.

الحسن وتسميته:

هو الحسن، اسم أبيه علي بن أبي طالبعليهم السلام، وأمه الطهر البتول فاطمة ابنة محمّد صلى الله عليه وآله سيدة نساء أهل الجنة، إنه كان أول أولاد علي وفاطمةعليهما السلام الأربعة.

لما ولد الحسن وأُوتى به الى رسول الله صلى الله عليه وآله لثّا بريقه وقال: «اللهمّ إنّي أُعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم»[2]، وفى اليوم السابع من مولده عقّ عنه وذبح كبشاً وقال:«ما سمّيتموه»؟ قال: حرباً، قال رسول صلى الله عليه وآله: «بل سمّوه حسناً»[3]، وهو كان شبيهاً برسول الله صلى الله عليه وآله كما روي عن أنس بن مالك (رضي الله عنه):«لم يكن أحد أشبه برسول اللهصلى الله عليه وآله من الحسن بن عليعليه السلام»[4].

وعن علي بن أبي طالبعليه السلام قال: «كان الحسنعليه السلام أشبه برسول اللهصلى الله عليه وآله ما بين الرأس والصدر، والحسين اشبه فيما كان أسفل من ذلك»[5].

وكان الحسن أبيض اللون مخلوطاً بحمرة سهل الخدّين، دقيق المشربة

---

(١) سورة الرحمن: الآية (٢٢).

(٢) كشف الغمة للأربلي ١: ٥٢٥، ط إيران.

(٣) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاع المالكي: ٢١٩ ـ ٢٢٠، ط بيروت.

(٤) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٥٩،حديث ٢٧٧٦.

(٥) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٦٠، الحديث٢٧٧٩ .

أدعج العينين، ليس بالطويل ولا القصير[(١)]، وكانت كنيته أبا محمّد.

لقب الحسن وصفاته:

له ألقاب كثيرة، منها: التقي، الزكي، الطيب، السيّد، البسط، الولي.

وهذه الألقاب تطلق عليه عموماً، مع ذلك كان لقب التقي والسيد أكثر شهرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إبني هذا سيّد»، وقال: «الحسن و الحسين سيّدا شباب أهل الجنة»[(٢)].

ولادة الحسن عليه السلام:

وُلِد الحسن بن علي عليهما السلام في النصف من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة في المدينة المنورة[(٣)]، وذكر الكليني: أنّه ولد سنتين من الهجرة[(٤)].

الحسن مع النبي صلى الله عليه وآله:

قد مضت حياة الحفيد مع جده سبع سنوات ـ الجد الحبيب كان يحب حفيده الحسن المجتبى حبّاً عميقاً وأمر الناس أن يحبّونه حقّ حبّه، كما جاء في القرآن: ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[(٥)].

وعن البرّاء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله والحسن عليه السلام على عاتقه وهو يقول:

---

(١) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاع المالكي: ٢٢٢ ط بيروت.

(٢) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٦٠، الحديث ٣٧٨١ و ٣٧٦٨.

(٣) ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تاريخ دمشق لابن عساكر، ط بيروت مؤسّسة المحمودي: ١٠-١١.

(٤) حياة اثني عشر إماماً لعلي نيواز خان: ١٤.

(٥) سورة الشورى: الآية (٢٣).

«اللهم، إني أحبّه فأحبّه»(١).

عن ابن عبّاس (رضي الله عنه) أنّه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله حامل الحسن ابن علي عليهما السلام فقال رجل: نعم المركب ركبت يا غلام ! فقال النبي صلى الله عليه وآله:«ونعم الراكب هو!»(٢).

وعن عمّار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «هما ـ الحسن والحسين ـ ريحانتي من الدنيا ـ الجنّة ـ»(٣).

وقال النبي صلى الله عليه وآله في مرتبته وأعلى درجته على العالمين في الجنة: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»(٤).

كان النبي صلى الله عليه وآله يحبّه كثيراً حتى أطال سجدته في الصلاة؛ لأنّه جلس على ظهر النبي صلى الله عليه وآله ومرة على رقبته، فرفعه النبي صلى الله عليه وآله رفعاً رفيقاً، فلمّا فرغ من الصلاة قالوا: يا رسول الله، إنك تصنع بهذا الصبي شيئاً لا تصنعه بأحد؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إن هذا ريحانتي، وان ابني هذا سيّد، وعسى أن يصلح الله تعالى به بين فئتين من المسلمين»(٥).

إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله جاء بآية من القرآن تدل على عصمته وطهره وخلوصيته وعفّته وتنزّهه عن الخطأ والعصيان حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، الحديث ٤٤٤٨.

(٢) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٦١، الحديث ٣٧٨٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب في باب مناقب الحسن والحسين.

(٤) سنن ترمذي (الجامع الصحيح) ٥: ٦٦١ كتاب المناقب في باب مناقب الحسن والحسين، حديث ٣٧٨١ وص ٦٥٦ حديث ٣٧٦٨.

(٥) أحمد بن حنبل في مسنده ٥: ٤٤ و ٥١.

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...﴾[(١)].

وكان الحسن فاروقاً بين الحقّ والباطل والصدق والكذب، كما نرى في واقعة المباهلة فيما بين أهل الحقّ وأهل الكذب، أي أهل الإسلام ونصارى نجران.

وكان النبي صلى الله عليه وآله يعيّنه شاهداً في شتى العقود والصلح ولو كان صغيراً.

هكذا قضى حياته الطيبة مع جده سيّد الأنبياء محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله.

الحسن مع أبيه عليّ بن أبي طالب عليهما السلام:

بعدما أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله دعوة ربه، صاحب الحسن أباه عليّاً ثلاثين سنة وواجه كثيراً من الحوادث والوقائع وتحمّل كثيراً من المصائب والشدائد مع أبيه في عهد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان واعترض على أعمالهم وساعد المظلومين وأيّدهم، ولمّا نفى عثمان بن عفان أبا ذر (رضي الله عنه) ومنع توديعه اعترض الحسن مع أبيه وأخيه عليهم السلام وودّعه وسلاه ووصّاه بالصبر والحلم في المصيبة وبالتثبيت على الدين[(٢)].

ولكن لما انتفض المسلمون ضد حكومة عثمان وهمّوا أن يقتلوه دفعهم الحسن مع علي عليهما السلام.

ولما خرج طلحة والزبير وعائشة سنة ستة وثلاثين من الهجرة على خلافة علي بن أبي طالب عليهما السلام وأهاجوا الناس عليه وجاهدوه بأن قالوا: إنّ عليّاً قتل عثمان، بعثه عليّ عليه السلام مع عمّار بن ياسر الى الكوفة وأجاب عمّا قالوه من كذب،

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) أحمد بن حنبل في مسنده ٥: ٤٤ و٥١.

وحثّ الناس وحرّضهم لمساعدة أبيه علي عليه السلام.

هكذا ساعد الحسن أباه عليّاً في حرب صفّين على معاوية حين بعث عبد الله ابن عمر بن الخطاب لترك مساعدة الحسن لعلي عليهما السلام قال لمعاوية: إن قريشاً همّوا أن يُهينوا الإسلام ويطفئوا نور الله ولكن عليّاً عليه السلام أهلك أهواءهم بقتل صناديد قريش فعادوه[١].

وعين علي عليه السلام الحسن عليه السلام خليفة حسبما كان أمر النبي صلى الله عليه وآله.

خلوصيته في العبادة:

إنّه كان عابداً محبوباً عند الله وزاهداً مخلصاً له، يصوم النهار ويقوم الليل، خاصة بعد الصلح مع معاوية، أمضى حياته بالعبادة والصلاة والصوم والحج والبكاء والتضرع والسجود، يدل قوله عليه السلام على عبادته وعلو مكانته حيث قال عليه السلام: «إني لأستحيي من ربّي أن ألقاه ولم أمش الى بيته»[٢].

وقال في بعض مواعظه: «يا بن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً، وأرض بما قسمّ الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً»، وقال: «يا بن آدم، لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فجد (فخذ) بما في يدك لما بين يديك، وإنّ المؤمن يتزود والكافر يتمتع»، وتلا بعد هذه الموعظة ﴿**وتزوّدُوا فإنَّ خَيْر الزَّاد التَّقْوَى**﴾»[٣].

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٤٧٩.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني ٢: ٣٧، رقم ١٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

جوده وسخاؤه:

إنّ الحسن حسن، جميل، طهور، سخي،شريف، نبيل، جواد، كريم، نزيه من الرجس والبخل، الكرم والجود غريزة مغروسة فيه، فمن ذلك ما نقل عنه عليه السلام أنه سمع رجلاً يسأل ربه عز وجل ان يرزقه عشرة ألاف درهم، فانصرف الحسن عليه السلام الى منزله فبعث بها إليه[١].

ذات يوم أتحفت له إحدى إمائه عليه السلام بمجموعة من الزهرات فأعتقها الإمام جزاءً لها فقيل له: ما سبب ذلك؟ فقال: «إن الله تعالى علّمه كذلك»[٢].

أولاد أبي محمّد الحسن عليه السلام:

كان له أحد عشر ابناً وبنت واحدة، أسماء أبنائه: عبد الله، القاسم، الحسن، زيد، عمر، عبد الله، عبد الرحمن، أحمد، إسماعيل، الحسين، عقيل، والبنت أسمها أُمّ الحسن فاطمة، وهي أُمّ محمّد بن علي الباقر عليه السلام[٣].

وقال الشيخ المفيد صاحب«الإرشاد» في إرشاده: «أولاد الحسن خمسة عشر ذكراً وأنثى»[٤].

وقال الشيخ كمال الدين بن طلحة:«لم يكن لأحد من أولاد الحسن عقب غير ابنين منهم، وهما الحسن وزيد»[٥].

---

(١) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٠، ط بيروت.

(٢) حياة اثني عشر إماماً لعلي نيوازخان: ٤٥.

(٣) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٤٦، ط بيروت.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

من علم أبي محمّد الحسن عليه السلام وكلامه:

الحسن عليه السلام كان عميقاً في العلم والمعرفة والحكمة والفهم والتعبيرات التي تُعرَف من أجوبة سأله عنها علي عليه السلام وغيره في مناسبات مختلفة، فمن كلامه أنّه قال: «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل وبالعقل يدرك الدارين جميعاً، ومن حرم العقل حرّمها جميعاً»[(١)].

وقال: «هلاك المرء في ثلاث: الكبر والحرص والحسد. فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنّة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل»[(٢)].

وقال: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».

وقال: «حسن السؤال نصف العلم»[(٣)].

سئل أمير المؤمنين علي ابنه عليهما السلام: «يا بني ! ما السداد»؟ قال: «السداد دفع المنكر بالمعروف». قال: «فما الشرف»؟ قال: «اصطناع العشيرة وحملة الجريرة»، قال: «فما السماح»؟ قال: «البذل في العسر واليسر»، قال: «فما الجبن»؟ قال: «الجرأة على الصديق والنكول على العدو»، قال: «فما الغنى»؟ قال: «رضى النفس بما قسم الله تعالى لها وإن قلّ»، قال:«فما الحلم»؟ قال: «كظم الغيظ وملك النفس»، قال: «فما السؤدد»؟ قال: «إتيان الجميل وترك القبيح»، قال:«فما السفه»؟ قال: «اتباع الدناة وصحبة الغواة»، قال: «فما الغفلة»؟ قال: «ترك المسجد وطاعة

---

(١) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٥.

المفسد»[١].

وقيل له: ما المجد؟ قال: «أن تعطى في الغرم وان تعفو عن الجرم»، وقيل له: ما الزهد؟ قال: «الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا»، وقيل: فما المروة؟ قال: «حفظ الدين واعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنيعة وآداء الحقوق والتحبّب إلى الناس»، قيل: فما الكرم؟ قال: «الابتداء بالعطية قبل المسألة وإطعام الطعام في المحل»، قيل: فما الدنيئة؟ قال: «النظر في اليسير ومنع الحقير»، قيل: فيما الإخاء؟ قال: «الإخاء في الشدّة والرّخاء»، قيل: فما الفقر؟ قال: «شره النفس الى كلّ شيء»، قيل: فما الكلفة؟ قال: «كلامك فيما لا يعنيك»، قيل: فما الشجاعة؟ قال: «موافقة الأقران والصبر عند الطعان»[٢].

وسأل رجل من أهل الشام الحسن بن علي عليهما السلام: كم بين الحقّ والباطل، وكم بين السماء والأرض، وكم بين المشرق والمغرب؟ وعن هذا المحو الذي في القمر، وعن قوس قزح وعن هذه المجرة؟

فقال الحسن عليه السلام: «يا أخا أهل الشام، بين الحقّ والباطل أربع أصابع، ما رأيت بعينيك فهو الحقّ وتسمع بأذنيك باطلاً كثيراً، وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومد البصر، فمن قال غير هذا فكذبه، وبين المشرق والمغرب يوم مطرد للشمس تنظر الى الشمس حين تطلع وتنظر إليها حين تغرب، من قال غير هذا فكذبه، واما هذه المجرة فهي أشراج السماء مهبط الماء المنهمر على نوح عليه السلام، وأما قوس قزح فلا تقل: قزح؛ فان قزح شيطان، ولكنها قوس الله وأمان من الغرق، وأما المحو الذي في القمر فإن ضوء القمر كان مثل ضوء الشمس فمحاه

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني ٢: ٣٦، البداية النهاية ٨: ٣٩.

(٢) تحف العقول لابن شعبة بترجمة بدر شاهين: ٢٦١، ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ط ـ قم .

الله وقال في كتابه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[(١)].

فهذه الأجوبة الحاضرة دليل على بصيرته الحاذقة وقوة فكرته المستخرجة للغوامض قادرة، وكلامه يذكّر فصاحة كلام ابيه وجده وبلاغتهما في المجال، ومحله من البلاغة محل لا ينبغي لأحد من بعده.

تولّي مسؤولية الخلافة:

لمّا حضرت الوفاة علي بن أبي طالب عليهما السلام وحان فراقه من الدنيا الى الآخرة عين للحسن الخلافة والإمامة، وكان الحسين ومحمد بن الحنفية وأولاد علي عليهم السلام الآخرين وأشياعه وأفراد أهله شاهدين لذلك.

فقام الحسن عليه السلام على المنبر وخطب في صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال: «لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون ولم يدركه الآخرون، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه»[(٢)]، ثم ذكر من أوصاف علي عليه السلام وأعماله وعلاقته مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومواهبه في ميدان الحرب وذكر عبادته وزهادته ورغبته الى الآخرة عن الدنيا وقال: «ما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبع مائة درهم فضلت من عطائه، وأراد ان يبتاع بها خادماً لأهله»[(٣)]، ثم خنقه البكاء فبكى وبكى الناس معه[(٤)]، ثم قال: «أنا ابن البشير النذير، أنا ابن السراج المنير، أنا ابن الداعي الى الله بإذنه، أنا ابن الّذين أذهب الله عنهم الرجس

(١) تحف العقول لابن شعبة بترجمة بدر شاهين: ٢٦٦ و ٢٦٧، ط ـ قم.

(٢) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٦.

(٣) الفصول المهمة للشيخ ابن الصباغ المالكي: ٢٣٦.

(٤) المصدر السابق: ٢٣٦.

وطهّرهم تطهيراً، وأنا من أهل بيت افترض الله تعالى مودّتهم في كتابه[١]، فقال عز وجل من قائل: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾[٢].

ثم جلس فقام عبد الله بن العبّاس (رضي الله عنه) فقال: «معاشر الناس، إنّ هذا ابن بنت نبيّكم ووصي إمامكم فبايعوه» فاستجابوا له وقالوا: ما أحَبّه إلينا واحقه بالخلافة، فبادر الناس الى بيعته[٣].

أورد أحمد بن حنبل هذه الخطبة عن هبيرة فقال: وكان ذلك يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة[٤].

وقيل: يوم الأحد ليلة الثالث والعشرين منه، على ما جاء في اختلاف الروايات المتقدمة في مقتل علي عليه السلام[٥].

مؤامرة معاوية:

بعد استشهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام وتعيين الحسن عليه السلام للخلافة والإمامة ومبايعة الناس بيده عليه السلام جعل معاوية يتآمر ويمكر ويحتال ضد الحسن عليه السلام وبعث رجالاً متنكرين الى الكوفة والبصرة ليتجسسوا وينشروا الفساد بين الناس ويفرقوا بينهم، كما نرى في كتاب ابن الصباغ حيث قال: «ولما بلغ معاوية موت علي وبيعة الحسن (رضي الله عنهما) أنفذ رجلاً من حمير الى الكوفة وآخر من

---

(١) الفصول المهمة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٧.

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٣).

(٣) الفصول المهمة للشيخ ابن الصباغ المالكي: ٢٣٧.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٩٩.

(٥) الفصول المهمة: ٢٣٧.

بنى القين الى البصرة ليطالعاه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمر (أمره) ويغيّرا عليه قلوب الناس»[1].

فعرف بهما الحسن فأخذهما وقتلهما وكتب الى معاوية: «أما بعد فإنّك دسّست الرجال للاحتيال وارصدت (وذكيت) العيون كأنك تحب اللقاء (البقاء) ولو ترى وتؤثر العافية وما أوشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله تعالى»[2].

القتال بين الحسن ومعاوية:

كان الحسن طلب بيعة معاوية واطاعته ولكن معاوية ردّه، مع علمه بأنّ الحسن عليه السلام مستحق للخلافة من كل جانب، مثل العلم والمهارة واللياقة والإدارة والحسب والقرابة من الرسول صلى الله عليه وآله كما كان علي عليه السلام، ولكنه لجأ إلى المؤامرة والمكيدة وكانت أمامه فرص كثيرة، منها اختلاف الناس بعد موت علي عليه السلام وطموح رؤساء المجتمع الى ثروة الدنيا وطمع بعضهم بالغنائم وغيرها، ولذلك لما بلغ معاوية كتاب الحسن عليه السلام وقتله الرجلين سار بنفسه الى العراق للقتال مع الحسن عليه السلام، وخرج الحسن عليه السلام من مكانه لملاقته وبعث حجر بن عديّ ليدعو الناس الى الخروج معه للقتال وحينئذٍ كان معه أخلاط من الناس بعضهم من شيعته وشيعة أبيه عليهما السلام وبعضهم من الخوارج وبعضهم من أصحاب طمع في الغنائم وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤسائهم ورؤساء قبائلهم الّذين ليس لديهم هدف ديني من القتال، وبعث الإمام جماعة من جيوشه بقيادة الحكم الى (انبر) ولكنه لحق مع جنود معاوية، وسار الحسن عليه السلام حتى نزل ساباط القنطرة،

---

(١) الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٧.

وبعث من هناك اثنا عشر ألفاً من الجنود بقيادة عبيد الله بن عباس وعين قيس بن سعد بن عبادة قائداً في غيبة، عبيد الله فأعطى معاوية قيساً عشرة مائة ألف درهم لينضمّ بنفسه مع معاوية أو يترك نصرة الحسن عليه السلام فأجاب قيس: لا تستطيع ان تغصب ديني بالخداع. ولكن القائد الرئيس عبيد بن عباس هُزِمَ عند حرصه وخُدِعِ بمعاوية، فانضمّ إلى معاوية بأصحابه من الجنود، وصار الجنود بلا قائد بفرار عبيد الله بن عباس في ظلام الليل، فصلّى قيس بن سعد الفجر معهم في الصباح وتولى قيادة الجنود وأخبر الإمام بما وقع، و هجم على أعداء الإسلام بقوة، شجاعة كاملة وبسالة بالغة، فلما رأى معاوية انه لا يقدر على مقاومة جنود الحسن عليه السلام التجأ الى مكر جديد، حيث بعث في جيوش قيس جواسيس أذاعوا أموراً ليس لها واقع، حيث قالوا: إنّما انعقد صلح الهدنة بين قيس ومعاوية، وقال بعض الجواسيس: إنّما انعقد الصلح بين الحسن ومعاوية! فتفرّق جنود الحسن وحاروا ما يفعلون فظهر الفساد والضوضاء فيما بينهم، فبغوا وهجموا على خيام جنود الحسن، ونهبوا أموالهم وساروا الى الإمام وبادر إليه رجل من بني أسد، اسمه الجراح بن سنان في يده خنجر، فطعنه به في فخذه فشقه حتى بلغ العظم، فأكبّ عليه شخص من شيعة الحسن فقتله، وحملوا الحسن عليه السلام الى المدائن، فنزل بها على سعد بن مسعود الثقفي الذي كان عاملاً عليها من جهة أبيه علي عليه السلام[1].

خيانة بعض أشياع الحسن عليه السلام:

بعد الحرب ظهر الاختلاف في المسلمين وفقدوا معنويتهم وعزيمتهم

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٧، تاريخ اليعقوبي: ٢: ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

وضعفوا إيماناً وقوّة مادية وكثير من رؤساء القبائل والأغنياء في قلوبهم مرض وعداوة ضد الحسن، قد كتبوا إلى معاوية رسائل سرّاً ودعوه ليسير الى العراق بأقصى سرعة، فهم يضمنون له تسليم الحسن بيده كما قال ابن الصباغ في كتابه: «كتب جماعة من رؤساء القبائل الى معاوية بالطاعة سرّاً، واستحثوه على سرعة المسير نحوهم وضمنوا له بتسليم الحسن عليه السلام عند دنوه منهم والفتك به»(١).

تقتراح الصلح من معاوية إلى الحسن:

أرسل معاوية رسالة الى الحسن عليه السلام وتحقق فساد نيات أكثر أصحابه وخذلانهم له، ولم يبق معه ممن يأمن غائلته الا خاصة شيعته وشيعة أبيه(٢)، في هذه الحالة كان معاوية يخسر أشياع الحسن مالاً ونفساً وقتل عدداً كثيراً منهم سراً، فرأى الإمام أن المسلمين تفرّقوا بفرق شتى، كلّهم هتف بهتاف منفصل، وهو لا يستطيع التوفيق بين ارائهم وطرقهم، في هذه الحال استحال عليه عليه السلام الاستمرار في الحرب على أهل الشام؛ لأن معاوية لو غلب على الحسن لقلع أصل الدين واتباع الإسلام كاملاً، فرضي الحسن عليه السلام بالهدنة والصلح واشترط شروطاً كثيرة.

شروط الصلح:

من أهم الشروط التى اشترطها الحسن عليه السلام:

١ ـ يعمل معاوية في الناس بالكتاب وسنة رسوله صلى الله عليه وآله(٣).

---

(١) الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي: ٢٣٩.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٩.

(٣) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin, Translated by Jasim Al- ⇐

٢ ـ لا يتعرض عمّاله إلى سبِّ أمير المؤمنين على المنابر ولا يذكر بسوء[١].

٣ ـ إن أصحاب علي عليه السلام وشيعته يكونون آمنين بأنفسهم وأموالهم وبنسائهم وأولادهم حيث كانوا[٢].

٤ ـ إن الناس يكونون آمنين حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم[٣].

٥ ـ لن يقول الحسن لمعاوية: (أمير المؤمنين).

٦ـ على معاوية أن لا يبغي الحسن وأخاه الحسين قط سرّاً ولا جهراً[٤].

٧ ـ يسلم مسؤولية الخلافة بعده عند الحسن أو الحسين عليهما السلام[٥].

٨ ـ يعطى معاوية عشرة مائة ألف درهم لأيتام معركة صفّين والجمل[٦].

حقيقة الصلح:

أراد الإمام الحسن بهذه الصلح أن يكشف قناع معاوية ابن آكلة الأكباد وسوء أعماله وفساد نياته ضد الإسلام والمسلمين، أراد ان يكشف تناقضه في

⇐

Rasheed ص ٢٣٦ ط قم، ايران ـ شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

(١) الفصول المهمة للشيخ ابن الصباغ المالكي: ٢٣٩، ارشاد المفيد: ١٧٣.

(٢) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin, Translated by Jasim Al-Rasheed ص ٢٣٨ ط قم، إيران.

(٣) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin, Translated by Jasim Al-Rasheed ص ٢٣٨ ط قم، إيران.

(٤) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin, Translated by Jasim Al-Rasheed ص ٢٣٨ ط قم، ايران.

(٥) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin ص ٢٣٦، ٢٣٧ ط قم، إيران.

(٦) Sulh Al-Hasan by Shaykh Radi Al-Yasin ص ٢٣٧ ط قم، إيران.

امتثال القران وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يكشف جوره على أصحاب علي وأشياعه وعلى عامة الناس في الشام والعراق واليمن والحجاز وغيرها، وأن يوقف سبّ أبيه علي عليه السلام على منابر المساجد، وأن لا يذكر بسوء، وأن يكشف غير ذلك من أعماله القبيحة ضد الإسلام والمسلمين من القتل والفتك والفساد وتوسيع البدعة ومنع مناقشة الحديث النبوي.

نتيجة الصلح:

بعد الصلح نقص حقد معاوية وحسده ولو كان قليلاً، لأنه وجد ما شاء ولكن لم ينفد مكره كاملاً، والحسن عليه السلام انكبّ على تعليم الناس والتفت الى العبادة والزهادة ومسؤولية الإمامة، إنّه حج خمسة عشرة مرّة.

نقض معاوية الصلح:

معاوية كان لعيناً ابن لعين على لسان نبينا محمّد صلى الله عليه وآله، لم يمكن له أن يخرج من الظلمات وسوء الفكر والعمل والغي الى النور والرشد، فهو قد نقض جميع شروط الصلح.

ولمّا أحكم سيطرته على جميع اقاليم العرب انكشف وجهه الأصلي أمام الناس، قال معاوية في "نخيلة" في بعض خطبته، والله لم أحاربكم لأداء الصلاة وصوم رمضان والحج بل حاربتكم لأحكمكم، الآن بلغت مرامي، الآن أعلنكم واضحاً أنّي أدوس جميع شروط الصلح بيني وبين الحسن بن علي»[1].

فأعاد قضية سبّ علي عليه السلام في المنابر وفتك بالمؤمنين وأوجب سبّ

---

(١) بحار الأنوار ٤٩: ٤٤.

علي عليه السلام في خطبة الجمعة في جميع مساجد في حكومته، كان حجر بن عدي صحابياً جليلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد اعترض خطبة المغيرة في المسجد فقتله هو وأصحابه.

استشهاد الحسن عليه السلام:

معاوية الذي يحسب نفسه أهلاً للخلافة من الحسن من جهة العمر، أراد أن يعين يزيد ابنه خلفاً له، فمكر بالإمام الحسن عليه السلام.

ولمّا سكن الحسن في دمشق حاول مراراً قتله، ولكنه فشل، ولما جاء الحسن الى المدينة وأقام بها عشر سنين سقته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي السم، كما قال أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي في كتابه: «بعد أن تم الصلح بين الحسن ومعاوية وخرج الحسن الى المدينة واقام بها عشر سنين سقته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي السم وذلك ان بذل لها معاوية على سمه مائة الف درهم، فبقى مريضاً أربعين يوماً»[(١)].

وكان الأمر كله بتخطيط معاوية وعامله مروان بن الحكم، وهما اللّذان عيّنا زوجة الحسن جعدة للأمر هذا واقترحا مائة ألف درهم[(٢)] وأن ينكحاها يزيد بن معاوية، ولو خانا من بعد. كان السم سمّاً شديداً رومياً أتي به معاوية بأمر خاص، ألمه كان شديداً لا يبيّن، يخرج قطع من أمعائه وصفرائه أو مرّته مع قيحه ويخرج الدم المجتمع معه، كما قال الحسن لعمر بن إسحاق:«لقد ألقيت طائفة من كبدي، واني سقيت السم مراراً فلم أسقه مثل هذه المرة». وأراد اخوه

(١) إعلام الورى للطبرسي: ٢٠٦.

(٢) الفصول المهمّة للشيخ ابن الصبّاغ المالكي: ٢٤٣.

الحسين عليه السلام ان يقتل من سقاه السم فقال الحسن: «إن يكن الذي أظنّه فالله أشد بأساً واشدّ تنكيلاً، وإن لم يكنه فما أحبّ أن يقتل بى بريء»(١).

وصيته عند الوفاة:

قال الحسن لأخيه الحسين: «يا أخي، قد حضرت وفاتي، وحان فراقي، وإنّي لاحق بربّي وأجد كبدي يتقطّع وإنّي لعارف من أين دهيت، وأنا أُخاصمه إلى الله، فبحقي عليك ان تكلمت في ذلك لشيء، فإذا انا قضيت فتقمصني وغسلني ولفني واحملني على سريري الى قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله لأجدّد به عهداً ثم ردني الى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد فادفني هناك، وبالله اقسم عليك إن لا تهرق في أمري محجمة دم»(٢).

ثم وصّى إليه بأهله وولده وتركته وجميع ما كان وصّى به إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

فتنة عند الدفن:

أتمّ الحسين عليه السلام غسله وكفّنه وحمله الى المسجد النبوي، فحسب الأمويون وعامل معاوية سعيد بن العاص وزوجة النبي صلى الله عليه وآله عائشة بنت أبي بكر أنّه دفن بجنب قبر النبي، فدفعوه وركبت عائشة على بغلها وأمرت برمي السهام على نعش الحسن، فهاج الفريقان وكادت الفتنة أن تقع، فحمله الحسين الى قبر جدته فاطمة بنت أسد؛ لأنّه وصّاه أن لا يهرق في أمره محجمة دم.

وكان عمره إذ ذاك سبع وأربعين سنة، كان منها مع رسول الله صلى الله عليه وآله سبع

---

(١) الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي: ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٤.

سنين ومع أبيه ٣٠ سنة وبعد وفاة أبيه الى وفاته عشر سنين، وهذه يعني أنّ مدّة إمامته عليه السلام كانت عشر سنين.

الخاتمة:

يبقى الإمام الحسن عليه السلام معنا إلى يوم القيامة باتّباع حياته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، فعلينا أن نحبّه ونزوره دائماً: « السلام عليك يا بن رسول ربّ العالمين، السلام عليك يابن أمير المؤمنين، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء، السلام عليك يا حبيب الله، يا صفوة الله، يا أمين الله، يا حجّة الله، يا نور الله، يا صراط الله».

خصائص شخصية الإمام الحسن بن علي عليه السلام

علي هاشم السرّاج (*)

قال تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[٢]

مقدّمة:

الحمد لله الذي اسبغ علينا النعم واصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله على سائر العرب والعجم وفضله على جميع المخلوقات، وفضّل أهل بيته على جميع السادات ورفعهم بفضله وكرمه وعلمه أعلى الدرجات، فاتصفوا بالكمالات الظاهرة والباطنة والمحاسن الفاخرة، وهم نور حدقة العيون وشفاء فروح العيون... عرضت عليهم الكنوز فرفضوها وتزينت لهم الدنيا فتركوها، فمن أحبهم فقد أحب رسول الله ومن أحبّ رسول الله أحبّ الله.

هم الّذين بنى على أساس محبّتهم وطاعتهم الآجر وقبول الطاعات عند الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٣].

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ السودان.

(١) سورة هود: الآية (٧٣).

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٣).

هم الّذين طهّرهم الله وعصمهم من فعل الشرور الآثام لا يقع منهم قبيح ولا يصدر منهم إلا كلّ شيء مليح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...﴾[1].

عن أبي سعيد الخدري، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نزلت هذه الآية في خمس: فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين»، أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني. ورواه الثعلبي في تفسيره.

هم أهل العباة والملاءة وغفورة أهل البيت الصد الحسن بن على (كرم الله وجهه)، ونحن في هذا البحث نتناول جوانب من خصائص شخصية هذا الإمام عليه السلام:

يا حبذا دوحة في الخلد ثابتة	ما في الجنان لها شبه من الشجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة	ثم اللقاح على سيد البشر
والهاشميان سبطاها لها ثمرة	والمحبّون الورق الملتف بالثمر
هذا حديث رسول الله جاء به	أهل الرواية في العالي من الخبر
إني أحبّهم أرجو النجاة غداً	والفوز مع زمرة من أحسن الزمر

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

الأول: خصوصية الاسم.... والصفة.... والنشأة

المعلومات الأساسية عن الإمام الحسن عليه السلام

الاسم: الإمام أبو محمّد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله.

الأم: السيدة الطاهرة البتول التي لم يرا لها دماً في حيض ولا نفاس فاطمة ـ والتي فطمها الله ومحبّيها من النار ـ بنت النبي الأعظم.

تاريخ الولادة: منتصف شهر رمضان عام ٣ هـ بالمدينة المنورة.

زوجته وأولاده: له خمسة عشر ولداً ما بين ذكر وانثى، وزوجات عدة اشهرهن:

١ ـ خولة بنت منصور الفزارية، ولدت له ابناً سماه الحسن.

٢ ـ أم بشر بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجية.

أولاده منها زيد وأم الحسن وأم الحسين.

قال الشيخ كمال الدين ابن أبي طلحة: «لم يكن لأحد من أولاد الحسن عقب غير اثنين هما الحسن وزيدا»[١].

النساء اللائي حضرن الولادة:

لما حضرت ولادة السيدة فاطمة قال رسول الله لأسماء بنت عميس وأم سلمة زوجه (رضي الله عنها): أحضرا فاطمة، فإذا وقع ولدها واستهل صارخاً فأذنا في

---

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، سيد الشبلنجي، الناشر مكتبة الجهورية، شارع الصنادقية بجوار الأزهر، مصر العربية.

أذنه اليمنى واقيماً في أُذنه اليسرى»[١].

ختانه:

عن جابر (رضي الله عنه): أن النبي صلى الله عليه وآله عقّ عن الحسن والحسين وختنهما لسابع ولادتهما (رواه البيهقي في سننه).

رضاعه:

رضعته أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله بلبن ابنها قثم، قالت: قلت: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن عضواً من اعضائك سقط في بيتي، فقال صلى الله عليه وآله: «تلد فاطمة غلاماً إن شاء الله فتكلفينه»، فوضعت فاطمة الحسن فدفعه إليها النبي فارضعته بلبن قثم[٢].

صفة الإمام الحسن عليه السلام:

كان أبيض مشرباً بحمرة أدعج العينين سهل الخدين كث اللحية ذا وفرة كأنّ عنقه إبريق فضة عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير من أحسن الناس وجهاً، وكان يخضب بالسواد، وكان جعد الشعر حسن البدن.

قال أنس بن مالك (رضي الله عنه): لم يكن أحد أشبه برسول الله من الحسن ابن علي وفاطمة عليهما السلام»[٣].

---

(١) المصدر السابق .
(٢) نور الأبصار في مناقب بن النبي المختار، بحار الأنوار ٤٣: ٢٥٦، النقوي في معجمه.
(٣) انظر: تاريخ ابن عساكر٧: ١٢٣، أسد الغابة ٥: ٤٦٧.

وكانت السيّدة فاطمة ترقصه وتقول:

أشبه أباك ياحسن واخلع عن الحقّ الرسن
واعبد إلهاً ذا منن ولا توالي ذا الإحن[١]

خاصية الاسم:

روى جابر بن عبد الله (رضي الله عنه)، قال: «ولدت فاطمة الحسن عليهما السلام، قالت لعلي: سمّه، فقال: ماكنت لأسبق باسمه رسول الله، فقال رسول الله: ما كنت لاسبق باسمه ربّي عزّ وجلّ، فاوحى الله إلى جبريل عليه السلام أنه فقد ولد لمحمد ابن فاهبط إليه وهنئه وقل له: إنّ علياً منك بمنزلة هارون من موسى فسّمه باسم ابن هارون، فهبط جبريل عليه السلام فهنأه من الله عزّ وجلّ، ثم قال: إنّ الله تعالى يأمرك أن تسميه باسم ابن هارون، قال: وما كان اسم ابن هارون؟ قال: اسمه (شبر) قال: لساني عربي، قال: سّمه الحسن، فسمّاه الحسن»[٢].

الحسنة... الحسن... الحسين:

من رقائق المعاني ولطائف الاشارات: فإنّي أرى أن الحسنة صفة مشبهة غلبت في استعمال القرآن والسنة على فعل الطاعات والخيرات، قال تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...**﴾.

وقول النبي الكريم: «من هم بحسنة فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٩، الإحن: الأحقاد والضغائن.

(٢) كتاب شرف النبي لأبي سعيد الواعظ، ذخائر العقبى للمحب الطبري:١٢٠ ، أولاد هارون هم: شبر وشبير ومبشر، ومراده فهم بالعربية ابناء السيّدة فاطمة: حسن وحسين ومحسن.

والحسن هو جمال الصورة، والحسن ضد القبح، وهي صفة في الذات تقتضي قبول منظرها في نفوس الرائيين وميلهم إلى مداومة مشاهدتها، ولذا منظر الطاعات وعمل الخيرات يُرفع لله تعالى في صورة جميلة مشاكلة لصورة الذوات، فالحسنة هذه مرتبطة ـ لعمري ـ بمودة آل البيت في نشأتها؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

ولم يك تسمية الحسن والحسين إلا بوحي غير متلو من الله تعالى بواسطة جبريل كما اسلفنا الذكر، فكما أن الاجر والثواب مربوط بمودة آل البيت وآل البيت ثمرتهم (في الحسن والحسين) فصار اسمهما (من الحسن) صفة لعمل الطاعات (حسنة)، فرتّب الله جزاء أجر المودّة لا آل البيت بكلمة (حسنة) تأكيداً لعظمة الصفة والموصوف، ولذا قال تعالى بعد المودة في القربى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ تأكيد لما ذكرت، فالاقتراف هو الاكتساب، وهو مبالغة في الكسب، وليس خاصاً باكتساب السوء، وان كان قد غُلب فيه، واصله من قرف الشجر اذا قشر قِرفها بكسر القاف ـ أي قشر عودها ـ فكلمة القرف لها علاقة بآل البيت، وهي عنوان لاكتساب مودة آل البيت (القرف ـ الحسنة) فهي في أصلها من قرف الشجر واستعيرت هنا بمعنى الاكتساب، ولذا فاصل آل البيت شجرة، روى جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بعرفات وعلي تجاهه: «ادنُ مني يا علي، خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها، فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة»، وكلمة اقتراف ترجع الى أصل الحديث المتقدّم كاسم

(١) سورة الشورى : الآية (٢٣).

لاكتساب الحسنة التي هي وصف لأغصان لحاء هذه الشجرة. ولذا فمضاعفات الحسنة هي من الاقتراف بعينه؛ لأن الاقتراف هو المبالغة في الكسب، ولذا وردت مضاعفة الحسنة في آيات كثيرة، والمضاعفة هي ثمرة الاقتراف كتعبير لمضاعفة الحسنات. قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ﴿مَن ذَا الذي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[1].

ويؤكد ذلك ما جاء عن ابن عباس (موقوفاً) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾، قال: «الموالاة لآل محمد صلى الله عليه وآله». كما جاء عند الثعالبي في تفسيره والسيوطى في «الدر المنثور» وابن حجر في «الصواعق المحرقة».

قال الطبرسي في«مجمع البيان» وابن شهر آشوب في «المناقب» قد صح أن الحسن بن علي عليهما السلام خطب الناس فقال في خطبته: «أنا من اهل البيت الّذين افترض الله مودتهم على كل مسلم»، فتلا الآية: ﴿ قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾[2]، قال: فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت».

كنيته : أبو عمر.

ألقابه:

كثيرة أشهرها: السيّد، التقي، الزكي، والسبط، والولي، وأكثرها شهرة التقي وأعلاها رتبة ما لقبه به النبي صلى الله عليه وآله كما في الحديث الصحيح: «إنّ ابني هذا سيّد) رواه البخاري.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٥).

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٣).

وفاته:

توفّي لخمس خلون من شهر ربيع أول سنة ٥٠ هـ وقيل: سنة ٤٩هـ عن عمر ناهز ٤٧ عاماً، صلّى عليه سعيد بن العاص حينما كان والياً على المدينة من جهة معاوية بن أبي سفيان، دفن بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد، وكانت مدة خلافته ستة أشهر وخمسة أيام. واحسب أنّ مدة خلافته هذه كأنّها (وحي) من عند الله، حيث اتفقت مع فترة أوائل نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله، فأوّل ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة، وهي جزء من ست واربعين جزءاً من النبوّة، فمدة الوحي ثلاث وعشرون سنة، ونسبة الرؤيا المنامية من الوحي ستة اشهر التي تعادل جزءاً من ست واربعين جزءاً من النبوة»[1].

الثاني: القرآن وأهل البيت عليهم السلام

الإمام الحسن عليه السلام وخاصية فهم القرآن عنده:

قال فرات الكوفي: حدثني جعفر بن محمّد بن هشام، عن عبادة بن زياد، عن أبي معمر سعيد بن خيثم بسند متصل الى الإمام الحسن بن علي عليه السلام أنّه حمد الله واثنى عليه وقال: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[2]، كما أن للسابقين فضلهم على

---

(١) ابتداء الوحي كان مع رأس الأربعين من عمر النبي صلى الله عليه وآله كما جزم به ابن اسحاق وغيره في ربيع الأوّل، ونزول جبريل إليه وهو بغار حراء كان في رمضان وبينهما ستة أشهر (رؤيا منامية).

(٢) سورة التوبة: الآية (١٠٠)

من بعدهم كذلك لأبي علي بن أبي طالب فضيلته على السابقين بسبقه السابقين إلى الايمان. قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

فاستجاب الله تعالى لرسول الله ووساه بنفسه في عمه حمزة سيد الشهداء، وقد كان قتل معه كثير، فكان حمزة سيّدهم بقرابته من رسول الله، ثم جعل الله تعالى لجعفر جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة حيث يشاء، وذلك بمكانهما وقرابتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلتهما منه وقد صلّى رسول الله على حمزة سبعين صلاة من بين الشهداء الّذين استشهدوا معه.

وجعل لنساء النبي فضلاً على غيرهم لمكانتهن من رسول الله، وفضل الصلاة في مسجد النبي بألف صلاة على سائر المساجد إلا المسجد الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكّة، ولمكانة رسول الله وفضله علّم رسول الله الناس الصلوات فقال قولوا: «اللهم، صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد».

فحقّنا على كل مسلم أن يصلِّ علينا مع الصلاة الفريضة واجبة من الله، وأحلّ الله لرسوله الغنيمة وأحلّها لنا، وحرم الصدقات عليه وحرمها علينا، كرامة أكرمنا الله بها وفضيلة فضلنا الله بها» (٢).

قال الديلمي: قال الحسن عليه السلام : «ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتّخذه إماماً يدلكم على هداكم، وإن أحقّ الناس بالقرآن مَن عمل به وإن لم

---

(١) سوة التوبة: الآية (٢٩).

(٢) تفسير فرات الكوفي، تحقيق محمّد الكاظم، تفسير الآيات المروية عن الأئمة الأطهار.

يحفظه، وأبعدهم من لم يعمل به وإن كان يقرأه»، وقال: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ، وإنّ هذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور».

حوار الإمام الحسنعليه السلام مع يزيد بن معاوية:

يقول تعالى في شأن إبليس عدو الله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا﴾[1].

يروى: «أن الإمام الحسن بن عليعليه السلام ويزيد بن معاوية كانا يأكلان الرطب فقال يزيد: يا حسن، إني منذ كنت ابغضك، قال الحسن: أعلم يا يزيد أن ابليس شارك أباك في جماعه فاختلط الماءان فأورثك ذلك عدواتي؛ لأن الله تعالى قال في شأن إبليس عليه اللعنة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾. وشارك الشيطان حرباً (جد يزيد) عند جماعه فولد صخر، فلذلك كان يبغض جدي رسول اللهصلى الله عليه وآله».

آيات تخصّ الإمام الحسنعليه السلام:

وردت في الإمام المجتبى الحسن بن عليعليه السلام طائفة من الآيات القرآنية المباركة تشير إلى مكانته عند الله تعالى نجمل منها:

أولاً: قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

حيث ورد في التفسير عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، أنّ المراد باللؤلؤ والمرجان الحسن والحسينعليهما السلام.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٦٣).

ثانياً: آية التطهير: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾(١).

وقد نزلت في أهل العباءة آل بيت النبي الكريم وفاطمة وعلي والحسن والحسين.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿**يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾، فقد روي: أنّها نزلت حين صام أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجاريتهم فضة ثلاثة أيّام، فاعطوا افطارهم كل يوم من الأيّام الثلاثة لمسكين ويتيم وأسير ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء.

رابعاً: آية المباهلة: ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ..**﴾(٢).

حيث استصحب النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام) أمير المؤمنين علي عليه السلام وفاطمة والبتول والحسن والحسين معه إلى مباهلة نصارى نجران، فنزلت الآية.

فابنائنا المراد بهما الحسن والحسين، عليه اجماع المفسرين والعلماء.

خامساً: آية المودّة، قال تعالى: ﴿**قل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾(٣).

أوجب الله مودة أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (ابن المنذر وابن أبي حاتم في تفسيرهما.

سادساً: الآية ٣٦ من سورة النور، من قوله تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن**

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٦١).
(٣) سورة الشورى: الآية (٢٣).

تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

سُئل النبي صلى الله عليه وآله عن هذه البيوت فقال: «بيوت الأنبياء» فقام أبوبكر (رض) فقال: يا رسول الله هذا البيت، منها؟ يعني بيت علي وفاطمة، قال: «نعم، «بل من أفاضلها»[1].

وإنّي أرى أنّ النبي الكريم عوّذ الحسن والحسين بالمعوذتين عند نزلوهما أو بعد نزولهما سواء كان مكيتين أم مدنيتين على خلاف بين العلماء، فمجموع المعوذتين (١١) آية، مجموع حروف الحسن (٥) مقابل سورة الفلق، وحروف الحسين (٦) مقابل سورة الناس.

الثالث: شخصيته العلمية

خصائصه العلمية:

روى إبراهيم بن علي الرافعي عن أبيه عن جدته زينب بنت أبي رافع قالت: «أتت فاطمة عليها السلام بابنيها الحسن والحسين عليهما السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكواه التي توفى بها فقالت: يا رسول الله، هذان ابناك فورثهما شيئاً، فقال: أما الحسن فإنّ له هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فإن له جودي وشجاعتي»[2].

فالإمام الحسن عليه السلام شخصية متميزة، فهو واخوه سيدا شباب أهل الجنة[3].

وهو أحد الاثنين الّذين انحصرت فيهما سلالة الرسول صلى الله عليه وآله، وهو من أهل الطهر

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمآثور للسيوطى ٥: ٥٠.

(٢) مصنف عبد الرزاق ١١: ٤٥٢، صحيح البخاري ٥: ٣٢، مسند أحمد ٥: ٣٧.

(٣) مستدرك الحاكم ٣: ١٦٧، سنن الترمذي ٢: ٣٠٦.

الّذين أذهب الله عنهم الرجس، فهو واخوه إمامان أن قاما أو قعدا.

فالإمام الحسن عليه السلام يعتبر أحد الركائز الاساسية في الشخصية الإسلامية وأحد مصادر علوم الأئمة الأطهار.

فهو واخوه الإمام الحسين اعدهما الله إعداداً إلهياً لاستدامة أنوار النبوّة على المؤمنين.

ولنذكر شيئاً من الجانب العلمي للإمام الحسن عليه السلام:

كتب له الحسن البصري يسأله عن القضاء والقدر فأجابه:

«أما بعد فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر. إنّ الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك على ملكهم القادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخيراً ونهاهم تحذيراً، فإن ائتمرا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وان انتهوا الى معصية فشاء أن يمن عليهم بأنّ يحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً»...

لاحظ أنه عليه السلام يوضح بعبارة موجزة قضية تفسير من أكثر القضايا الفكرية تعقيداً وعمقاً حتى أنها لشدة عمقها قد ضل فيها الكثيرون من رجال الفكر.

روي أنه قيل له: ما الزهد؟ قال: «الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا».

ما الحكم؟ قال:«كظم الغيظ وملك النفس».

ما السداد؟ قال:«دفع المنكر بالمعروف».

ما الشرف؟ قال:«اصطناع العشيرة وحمل الجريرة».

ما المجد؟ قال:«أن تعطي في الغرم وأن تعفو في الجرم».

ما المروءة؟ قال:«حفظ الدين واعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنيعة

واداء الحقوق والتحبب إلى الناس».

ما الكرم؟ قال:«الابتداء بالعطية قبل المسألة وإطعام الطعام في المحل».

ما الشح؟ قال:«أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً».

ما الإخاء؟ قال:«الوفاء في الشدّة والرخاء».

ما الغني؟ قال:«رضاء النفس بما قسم لها وان قلّ».

ما الفقر؟ قال:«شره النفس الى كل شيء».

ما الحرمان؟ قال:«تركك حظك وقد عُرض عليك».

ما السياسة؟ قال:«أن ترعى حقوق الله وحقوق الاحياء وحقوق الأموات».

أما حقوق الله: فاداء طلب الإحسان عما نهى الله.

وحقوق الأحياء فهي: أن تقوم بواجبك نحو إخوانك ولا تتأخر في خدمة أمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأُمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه اذا ما حاد عن الطريق السوي.

أما حقوق الأموات فهي: أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم، فإن لهم ربهم يحاسبهم»[1].

كان الحسن عليه السلام بمسجد المدينة المنورة وتجمع الناس حوله، فجاء رجل فوجد شخصاً يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والناس حوله يجتمعون، فسأله عن قوله تعالى ﴿**وشاهد ومشهود**﴾ فقال: «أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم عرفة»، فتجاوزه الى آخر يحدث فسأله عن الشاهد والمشهود فقال: «الشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله، والمشهود يوم القيامة»، واستدل بقوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا**

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١: ١٤٢-١٤٣، مجلة الفرقان.

أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[١]. ذاك الشاهد والمشهود في قوله: «ذاك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود».

فسأل عن الأول فقالوا: ابن عباس، وسأل عن الثاني فقالوا له: الإمام الحسن ابن علي عليه السلام[٢].

وممّا يدل على غزارة علمه وحضوره الايماني وانه ثبت حجّة أنّه خرج من داره في بعض الأيّام وعليه حلة فاخرة ووفرة ظاهرة ومحاسن سافرة، فعرض له في طريقه شخص من محاويج اليهود وعليه مسح من جلود قد انهكته العلة وركبته القلة والذلة وشمس الظهر قد شوت شواه هو حامل جرة من ماء على قفاه، فاستوقف الإمام الحسن عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله، سؤال، قال: «ما هو؟ قال: يقول جدك محمد: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وأنت مؤمن وأنا كافر، فما أرى الدنيا الا جنة لك تتنعم بها وما أراها الا سجناً على قد اهلكني ضرها واجهدني فقرها! فلمّا سمع الإمام الحسن عليه السلام كلامه قال: «يا هذا، لو نظرت إلى ما أعد الله لي في الأخرة لعملت أني في هذه الحالة بالنسبة الى تلك في سجن، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك في الاخرة لعلمت من العذاب الأليم لرأيت أنك الآن في جنة واسعة»[٣].

من أقواله عليه السلام:

ويقول عليه السلام: «هلاك الناس في ثلاث: في الكبر والحرص والحسد، فالكبر هلاك للدين وبه لُعن إبليس، والحرص عدوّ النفس وبه أُخرج آدم من الجنّة،

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤٥).

(٢) تفسير الوسيط للإمام علي بن أحمد الواحدي.

(٣) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي.

والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل».

ويقول عليه السلام:«لا آدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل وبالعقل تدرك الداران جميعاً، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً»[١].

وحقاً قال النبي الكريم: « لو كان العقل رجلاً لكان الحسن»[٢].

ويقول عنه النبي صلى الله عليه وآله:«هو سيّد شباب أهل الجنّة ورحمة الله على الأُمّة، أمره أمري وقوله قولي، مَن تبعه فإنّه منّي، ومَن عصاه فإنّه ليس منّي»[٣].

الرابع: أخلاقه وجوده

حدّثنا الحسن عن الحسن عن الحسن عن الحسن عليه عن جد الحسن: «إنّ أحسن الحسن الخُلق الحسن».

قال أبو العبّاس:«أما الحسن الأوّل هو الحسن بن زيد، والحسن الثاني هو الحسن بن حسان، والحسن الثالث هو الحسن البصري، والحسن الرابع هو الحسن ابن علي عليهما السلام»[٤].

يقول الإمام الحسن عليه السلام:«إنّ من أخلاق المؤمنين قوة في دين وكرماً في لين وحزماً في علم وعلم في حلم وتوسعة في نفقة وقصداً في عباده وتحرجاً في طمع وبراً في استقامة، لا يحيف على من يبغض في ولا يأثم في من يحب ولا

(١) المصدر السابق.

(٢) فرائد السمطين لإبراهيم محمّد الحمويني ٢: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٣٥، ينابيع المودة لذوي القربى لسليمان القندوزي الحنفي: ٤٤١ و٤٤٣.

(٤) موسوعة الحديث الشريف، شرح الجرداني للأربعين النووية .

يدعي ما ليس له ولا يجحد حقاً هو عليه ولا يهمز ولا يلمز ولا يبغي، متخشعاً في الصلاة متوسع في الزكاة شكور في الرخاء صابر عند البلاء قانع بالذي له، لا يطمح به الغيظ ولا يجمح به الشح، يخالط الناس ليعلم ويسكت ليسلم يصبر إن بقى عليه ليكون إلهه الذي يجزيه ينتقم له».

ولذا تجسّد الخلق الحسن في اسمه وفي تعامله وقوله: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾.

وتجسّدت في الإمام الحسن عليه السلام آيات الخلق كلّها: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الّذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**﴾(١).

وتجسّدت فيه صفات عباد الرحمن كلّها في الآيات ٦٣ – ٧٤ من سورة الفرقان.

فهو عليه السلام كاظم الغيظ وصائم القيظ، عنصره كريم ومجده حادث وقديم وهو بكل ما يوصف به زعيم.

فالسحاب الماطر قطرة من كرمه والعباب الزاخرة نبعة من نبعه والأخلاق الفاضلة جزء من إيهابه يأتيه، المجد من كل أطرافه ويكاد الشرف يقطر من أعطافه:

أتاه المجد من هنا وهنا وكنا له كمجتمع السيول

أما جوده وسخاؤه وحلمه:

فالسخاء «شجرة في الجنّة» كما جاء الأثر بذلك، فترى الإمام الحسن عليه السلام معروف بكريم اهل البيت من جود وكرم. ومما روى أهل التاريخ والسير: أنّ

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (١ ـ ٤).

الإمام الحسن عليه السلام كان ماراً في حيطان المدينة، فرأى عبداً اسوداً بيده رغيف خبز يأكل ويطعم كلبه لقمه الى أن شاطره طعامه في الرغيف، فقال له الإمام الحسن عليه السلام: «ما حملك على ما عملت وشاطرته ولم تعافيه فيه شيء»! فقال الغلام: استحت عيناي من عينه، فقال له الإمام: «غلام مَن أنت؟» قال: غلام أبان ابن عثمان، فقال: «والحائط»؟ قال: لأبان بن عثمان، فقال له الإمام الحسن عليه السلام: «أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك»، فمرّ على صاحب الحائط فاشترى الحائط والغلام معاً وجاء الى الغلام فقال: «يا غلام قد اشتريتك»، فقام الغلام قائماً وقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي، قال: «وقد اشتريت الحائط وأنت حرّ لوجه الله، والحائط هبة منّي إليك»[1].

وقف رجل على الحسن بن علي عليه السلام فقال: يا ابن أمير المؤمنين، بالذي أنعم عليك بهذه النعمة التي ما تليها منه بشفيع منك إليه بل إنعاماً منه عليك، إلا ما انصفتني من خصمي، فإنّه غشوم ظلوم لا يوقر الشيخ الكبير ولا يرحم الطفل الصغير، وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال له: «مَن خصمك حتى انتصف لله منه»؟ فقال له: الفقر! فأطرق عليه السلام ساعة ثم رفع رأسه الى خادمه وقال له: «احضر ما عندك من موجود»، فاحضر خمسة ألف درهم فقال له: «إدفعها إليه»، ثم قال له: «هذه الأقسام التي أقسمت بها علي مني كل ما اتاك خصمك جائراً إلا ما أتيتني منه متظلّماً».

ومن كرمه أنه سمع رجلاً يسأل ربه أن يرزقه عشرة ألف درهم فانصرف الحسن الى منزله وبعث بها إليه.

وقيل مرّة للإمام الحسن عليه السلام: لأي شي نراك لا تردّ سائلاً وإن كنت على

---

(١) الخطيب البغدادي في تاريخه ٦: ٣٤.

فاقة؟ فقال عليه السلام: «إني لله سائل وفيه راغب، وانا استحي أن أكون سائلاً وأردّ سائلاً، وإن الله عوّدني عادة: عودني أن يفيض نعمه عليّ وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى أن قطعت العادة يمنعني العادة»، وأنشد يقول:

إذا ما أتاني سائل قلت مرحباً بمن فضله فرض على معجل

ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حي يسئل[(١)]

الخامس: إمامته وخلافته

تجسّدت في الإمام الحسن الإمام والإمامة التي ورثها من جدّه النبي الكريم الذي ورثها من جده الخليل ابراهيم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[(٢)].

فتوفّرت فيه الصفات الرفيعة والمثل الكريمة مما جعلته اماماً وأمة قانتاً لله.

فالإمامة هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص إنساني، فالإمام هو الزعيم العام والرئيس المتبع وله السلطة الشاملة على الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

الحاجة إلى الإمامة:

الإمامة ضرورة من ضروريات الحياة ولا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال، يتحقّق بها الأمن العام والسلام بين الناس، ويرفع عنهم الهرج والمرج، ويمنع القوي أن يتحكم في الضعيف.

ومن أهم الامور الداعية إلى وجود الإمام ايصال الناس إلى عبادة الله ونشر

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت المختار: ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

أحكامه وتعاليمه وتغذية المجتمع بروح الايمان والتقوى ليبتعد الإنسان بذلك من الشر، ولذا فالإمامة ضرورة في الدنيا وفي الآخرة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾[1].

لذا رأى المؤمنون في العراق بعد استشهاد الإمام عليعليه السلام في عام ٤٠ هـ ـ ٢١/ رمضان أن يبايعوا الإمام الحسنعليه السلام في احدى ليالي القدر المباركة ليكتمل القدر والعظمة في هذه البيعة المباركة.

ثم أشار إليه أصحابه ليأخذ الشام من معاوية، وسار معاوية لقصده، فلما تقارب الجيشان وتراءت الفئتان بموضع يقال له (مسكن) بناحية الأنبار علم الإمام الحسن انه لم تغلب إحدى الفئتين حتي يذهب أكثر الأخرى، فرأى المصلحة في جمع الكلم، فكتب الى معاوية بذلك (والقصة معروفة في التاريخ) ولكن..

لماذا الصلح مع معاوية؟

نقول: لعدة أسباب:

نظرة آل البيت الى الحكم كانت تنبع من أنه وسيلة لتحقيق قيم الرسالة، فإذا مال الناس عن الدين الحقّ وغلبت المجتمع الطبقات الفاسدة وارادت تحويل الدين الى مطية لمصالحهم اللامشروعة فليذهب الحكم الى الجحيم ولتبقى شعلة الرسالة متّقدة، كيف! وقد اشار الإمام عليعليه السلام لأسلوب الحكم قائلاً: «والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولو لا كراهية الغدر لكنت

(١) سورة الإسراء: الآية (٤١).

أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكلّ فجرة كفرة، ولكلّ غادر لؤاء يعرف به يوم القيامة».

أما عن نظرية الحكم ذاته فقد روى عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما) أنّه قال: «دخلت على أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ـ وهو يخصف نعله ـ فقال عليه السلام لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقال: لا قيمة لها فقال عليه السلام: والله لهي أحب اليّ من أمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

ولذلك تخلى الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية في ربيع الأوّل ٤١ هـ وذلك مصداق لقول النبي الكريم: «إنّ ابني هذا سيّد سيصلح الله على يديه بين فئتين عظيمتين»[(١)].

فإنّه نزل عنها ابتغاء وجه الله تعالى، فعوّضه الله وأهل بيته عنها بالخلافة الباطنية حتى ذهب قوم من الصوفية، ان قطب الأولياء في كل زمان ومكان لا يكون إلا من أهل البيت الكرام، ولمّا تنازل عن الخلافة كان بعض أصحابه يقولون: يا عار المؤمنين! فيقول: «العار خير من النار»[(٢)]، حسب زعمهم.

خاتمة: في اللطائف والرقائق:

إنّ آل البيت الكريم هم أهل الكساء وهم أصول أئمّة الدين والهدى بمودّتهم واتّباعهم.

ومن اللطائف ان أصحاب الكساء خمسة (النبي والإمام علي والسيّدة فاطمة والحسن والحسين).

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير ٣ : ١٣، تحقيق الشيخ علي محمّد معوض وعادل عبد الموجود.

(٢) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار .

فشاءت إرادة الله تعالى ان كلمة (كساء) ذكرت في القرآن بعددهم (خمس مرات):

* في سورة البقرة الآية ٢٣٣: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُود لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ...﴾.

* وفي سورة البقرة الآية ٢٥٩: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً...﴾.

* وفي سورة المائدة الآية ٨٩: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أو كِسْوَتُهُمْ﴾.

* وفي سورة المؤمنون الآية ١٤:﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً....﴾.

* وفي سورة النساء الآية:﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ....﴾.

ولادة الإمام الحسنعليه السلام في رمضان (٣ هـ)، ووفاة أبيه الإمام عليعليه السلام في رمضان (٤٠ هـ).

ورمضان شهر تسعة من الأشهر القمرية وعدد تسعة عدد (كمال): في المفرد والرقم، وكمال في الخلق، وكمال في الخلافة والقوة.

كمال في المفرد والرقم: يقول علماء الأرقام والحساب والأعداد الأوّلية: إنّ أي رقم تضرب في ٩ مجموعه يساوي ٩.

مثال: ٩× ٧ = ٦٣ – ٣ + ٦ = ٩... الخ.

وكذلك خذ أي عدد مكون من رقمين واعكسه ثم اعمل عملية طرح ستجدم الناتج دائماً من مضاعفات الرقم ٩.

مثال: الرقم ٩٢ اعكسه ٢٩ = ٩٢ – ٢٩ = ٦٣ من مضاعفات (٩)، وهذا يدلّ على أنّ العدد (٩) كمال في خلق الإنسان حينما يولد في تسعة أشهر، وأي عمر

شخص بالمعادلة الاخيرة يرجع للعدد تسعة.

وإنّ العدد تسعة عدد الخلافة والقوة والكمال وعدد السمو والمقام الرفيع.

وصاحب الرقم (٩) ما خُلق الا ليكون قائداً ولا يصلح أن يكون مرؤوساً قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً....﴾[(١)] كلمة خليفة كلمة رقم (٩) في الآية.

وقال تعالى حكاية عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[(٢)]، و٧٢ مجموع أرقامها ٩[(٣)].

لذا نجد أن الإمام الحسن شهر ولادته يدل على كماله العقلي والعلمي ويشير الى خلافته وقوته ومنعته وإلى خصائص شخصيته المتفردة، رضي الله عنه وأرضاه، وسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه يوم ولد يوم يموت ويوم يبعث حياً.

المراجع والمصادر:

١ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للسيّد الشبلنجي، مكتبة الجمهورية، شارع الصنادقية، جوار الأزهر الشريف بمصر.

٢ ـ فرائد السمطين، إبراهيم محمّد الحمويني، مصر.

٣ ـ ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان القندوزي الحنفي، بيروت.

٤ـ شرف النبي، لأبي سعيد الواعظ، بيروت.

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) سورة ص: الآية (٧٢).

(٣) علاقة خلق الإنسان بآل البيت لعلي هاشم السرّاج، المؤلف.

٥ ـ ذخائر العقبى للمحب الطبري، قم.

٦ ـ تفسير فرات الكوفي، تفسير الآيات المروية عن الأئمّة الأطهار، تحقيق محمّد الكاظم، قم.

٧ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، بيروت.

٨ ـ حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشى، بيروت.

٩ ـ تفسير الوسيط، على بن أحمد الواحدي، بيروت.

١٠ـ أسد الغابة في معركة الصحابة، عز الدين ابن الأثير الجزري، تحقيق وتعليق الشيخ محمّد علي محمّد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، بيروت.

١١ ـ تاريخ الخطيب البغدادي، بيروت.

١٢ ـ علاقة خلق الإنسان بآل البيت لعلي هاشم السرّاج.

خصائص الإمام الحسن عليه السلام

السيّد راضي الحسيني (*)

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على البشير النذير والهادي الأمين محمّد بن عبدالله وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

توطئة البحث:

أوّل مولود يولد لأهل البيت عليهم السلام في ظل فجر الدعوة الإسلامية من أبوين معصومين وجدّ ختمت به رسالات السماء، فانتشر النور في مدينة طيبة ابتهاجاً بالوليد الأغر الذي أبى علي عليه السلام أن يسبق رسول الله صلى الله عليه وآله في تسميته، كما أنّ خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله هو الآخر لم يسبق الأمين جبرئيل في تسميته حتى نزل يحمل معه الأمر الإلهي المبارك بتسميته حسناً؛ ليكون وساماً زاخراً يفتخر به (أبو محمّد عليه السلام) إذ خلع عليه رسول الله صلى الله عليه وآله كنيته وتسميته، ليعلن للملأ تبنّيه للوليد الجديد منذ أن رأى نور الوجود، فيحتضنه ليؤذّن في أُذنه اليمنى ويقيم في أُذنه اليسرى، فيكون الحسن أوّل كلام سمعه في عالم الدنيا صوت جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله داعياً للصلاة بأدائها وإقامتها، فأضحت هذه المراسم سنّة نبوية لكلّ

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ العراق.

مولود يولد للمسلمين، وهي بحد ذاتها دعوة مفتوحة للباحثين والعلماء والمفكّرين عن سرّ هذه السنّة النبوية الشريفة الرائعة، ومدى تأثير هذه الترنيمات في أُذن الوليد الرضيع على حاضره ومستقبل حياته، لاكتشاف سرّ التربية المبكّرة ومديات آثارها العملية والعلمية.

وهكذا نشأ الإمام الحسن عليه السلام في كَنَفِ جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وحجر أبيه المرتضى عليه السلام مرتضعاً لبن الطهر من ثدي الإيمان والتقوى بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة الطهر عليها السلام، فأغدق عليه من العلوم والمعارف ما لا حدّ له ولا فناء فيه، فأضحت معارف علومه بعيدة عن الإدراك والحصر، فاعتلى مدارج الكمال منذ نعومة أظفاره، وقد أشاد بعلمه وذكائه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فكسب قلوبهم وانبهارهم به.

وجاءت وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وأحاديثه بحقّه وحقّ أخيه لتضيف لشخصيّته معاني القداسة والسموّ، فأضحت له المكانة العالية في نفوس المسلمين وبالأخص حينما توّجَهُ المولى عزّ وجلّ بتيجان الآيات القرآنية النازلة بحقّ أهل البيت عليهم السلام حين اختصّ بها بصريح تصريحات النبي صلى الله عليه وآله ولسانه الفصيح: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**...﴾، ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ**...﴾، ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**...﴾ إلى آخرها من الآيات الشريفة، فتكاملت شخصيّته المباركة رفعة وأدباً وسلوكاً وحلماً وسؤدداً ليُشار له بالبنان بالسيادة والإمامة.

ونتيجة لتميّزه الروحي والفكري والأدبي تعرّض لسهام الأعداء، فظلمه التاريخ وتجنّى عليه، إذ لم يتعرّض أحد من أهل البيت عليهم السلام لظلامات كبيرة واتهامات قاسية كما تعرّض لها الحسن بن علي عليه السلام عبر أساليب بني أميّة

التسقيطية الافترائية، ولكنّه رغم كل ذلك، ورغم تجنّي المؤرخين المأجورين ووعّاظ السلاطين رشحت لنا نفحات أريج عطر كيانه العملاق، ففاح شذاها متحدّياً جبروت الطغاة، محطّماً قيودهم التي فرضوها على الرواة والمؤرّخين، فتجوهرت بسجاياه وخصاله خصائص انفرد بها وتميّز عن أهل ملّته. فمثّل ريحانة النبي صلى الله عليه وآله وسبط الأُمّة بأرقى وأبرز وأصدق تمثيل، واعتلى مدارج الإمامة والخلافة. فلذا اعتقد أنّ من أبسط حقوقه علينا وعلى الأُمّة الإسلامية الانتصار له، ولو بتبيان نتف من خصائصه العطرة، لنكون قد ساهمنا بالوفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله في قرباه وعترته من أهل بيته، وننتصف لهذا العَلَم المظلوم والإمام المضطهد انتصاراً للحقّ ودحضاً للباطل. وإليك بعض خصائصه المترشّحة من عقال رقابة الظلمة:

الخصيصة الأولى: نبوغه العلمي المبكّر:

إنّ النبوغ العلمي الذي تمتّع به الإمام الحسن عليه السلام منذ نعومة أظفاره يُعدّ أمراً بيّناً، وفي غاية الوضوح، والتعرّض له يكون من نافلة القول لا محالة، ولكنّي أردت أن أشير إلى وقائعٍ تختزل العنوان المذكور لتركيزه في الأذهان، فلا غرابة في تألّقه العلمي المبكر، فهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد غُذّي بالعلم من رحيق علومه صلى الله عليه وآله وتربّى في حجره، فانطلق إلى الفضاءات العلمية من وفرة هذا الكنز الثمين، فانبرى في الإجابة عمّا أشكل على الكثير من كبار الصحابة من مسائل علمية وغيرها، وإليك بيان ذلك:

١ ـ الحسن عليه السلام وأخبار الوحي:

روى أبو السعادات في «الفضائل»: «أملى الشيخ أبوالفتوح في درسة الناجية

أن الحسن بن علي عليه السلام كان يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن سبع سنين، فيسمع الوحي فيحفظه فيأتي أُمّه فيلقي إليها ما حفظه، كلّما دخل عليّ عليه السلام وجد عندها علماً فسألها عن ذلك فقالت: من ولدك الحسن، فتخفّى يوماً في الدار وقد دخل الحسن وقد سمع الوحي، فأراد أن يلقيه إليها فارْتجَ عليه، فعجبت أُمّه من ذلك، فقال: لا تعجبي يا أُمّاه، فإنّ كبيراً يسمعني واستماعه قد أوقفني، فخرج عليّ عليه السلام فقبّله، وفي رواية: يا أُمّاه قلّ بياني، وكلّ لساني، ولعلّ سيّداً يرعاني»[١].

٢ ـ الحسن عليه السلام يجيب عمّا أشكل على أبي بكر:

روى القاضي النعمان في «شرح الأخبار» بالإسناد عن عبادة بن الصامت، ورواه جماعة عن غيره: «سأل أعرابي أبا بكر فقال: إنّي أصبت بيض نعام فشويته وأكلته وأنا محرم فما يجب عليّ؟

فقال له: يا أعرابي، أشكلت عليّ في قضيتك، فدلّه على عمر، ودلّه عمر على عبدالرحمن، فلمّا عجزوا، قالوا: عليك بالأصلع.

فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: سل أي الغلامين شئت، يعني الحسن والحسين.

فقال الحسن عليه السلام: يا أعرابي، ألك إبل؟ قال: نعم.

قال: فاعمد إلى عدد ما أكلت من البيض نوقاً فاضربهن بالفحول، فما فضل منها فاهده إلى بيت الله العتيق الذي حججت إليه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ من النوق السلوب ومنها ما يزلق.

فقال الحسن عليه السلام: إن يكن من النوق السلوب وما يزلق، فإنّ من البيض ما يمرق.

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١١.

قال ـ الراوي ـ فسمع صوت: «معاشر الناس، إنّ الذي فهّم هذا الغلام هو الذي فهّم سليمان بن داود»[١] انتهى.

٣ ـ أنس بن مالك يشيد بعبقرية الحسن عليه السلام:

لقد أشاد الصحابي (أنس بن مالك) الذي خدم النبي صلى الله عليه وآله مدة طويلة، أشاد بحافظة الحسن عليه السلام الوقّادة عمّا سمعه من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله رغم أنه لم يتجاوز عمره الشريف في آخر عهد النبي صلى الله عليه وآله سبعة سنين ممّا يدلّ على نبوغ الإمام الحسن عليه السلام منذ نعومة أظفاره، فقد أورد الفخر الرازي الرواية عن أنس بن مالك حينما سأله سائل عن بعض الأحكام والمسائل العلمية والأحاديث التي سمعها، من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال أنس بن مالك : «سلوا مولانا الحسن، فإنّه سمع وسمعنا، وحفظ ونسينا»[٢].

أقول: هذه المفردات التي دوّنتُها مقدار ما فلت من هيمنة الرقابة الظالمة، وهي قليلة بحدّ ذاتها، لكنها عظيمة في مضامينها تكشف للقارئ الكريم بضرس قاطع نبوغ الإمام الحسن عليه السلام العلمي منذ نعومة أظفاره وأنّه من أهل بيتٍ زقّوا العلم زقّاً، فانعكس ذلك على حياته العلمية الشريفة في الفقه والتفسير والحكمة والعلوم المختلفة.

وقد أشاد الصحابة وأكابر العلماء بمرجعيّته العلمية وعمق أدلّته وبراهينه الساطعة، أشير إلى واقعة واحدة تدلّ على الهيمنة العلمية له (سلام الله عليه)، خصوصاً إذا قارنّا إجابته مع أجوبة مَن عاصره من أعلام الصحابة، وإليك هذه

---

(١) انظر مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٣ ـ ١٤. الناقة السلوب: التي مات ولدها، أو ألقته لغير تمام. أزلقت: أجهضت أي ألقت ولدها لغير تمام. مرقت البيضة: فسدت فصارت ماءً.

(٢) المحصول في علم الأصول للفخر الرازي ٤: ١٧٧.

الواقعة:

روى الحافظ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المسمّى بالوسيط، بسنده عن خباب قال: «إنّ رجلاً قال: دخلت مسجد المدينة، فإذا أنا برجل يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والناس حوله، فقلت: أخبرني عن ﴿**شاهد ومشهود**﴾[(١)]، فقال: نعم، أما الشاهد فيوم القيامة، وأما المشهود فيوم عرفة.

فجزته إلى آخر يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أخبرني عن ﴿**شاهد ومشهود**﴾ فقال نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر.

فجزتهما إلى غلام آخر كأنّ وجهه الدينار وهو يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقلت: أخبرني عن ﴿**شاهد ومشهود**﴾، فقال: نعم، أما الشاهد فمحمّد صلى الله عليه وآله، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿**ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاس وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾[(٣)].

فسألت عن الرجل الأوّل، فقالوا: ابن عبّاس، وسألت عن الثاني، فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث، فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان قول الحسن أحسن»[(٤)].

---

(١) سورة البروج: الآية(٣).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٥).

(٣) سورة هود: الآية (١٠٣).

(٤) تفسير الوسيط ٤: ٤٥٨، مطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي ٢: ١٧ ـ ١٨، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٢٧٦/ ١١٤٨١، كتاب التفسير، سورة البروج، وفتح القدير للشوكاني ٥: ٥٠٦، تفسير سورة البروج.

وهكذا كان الإمام الحسن عليه السلام يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ويجتمع الناس من حوله، فيتكلّم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج المجادلين، وقد أشار إلى ذلك الشافعي والشبلنجي(١).

وقد انتمى لمدرسة الإمام الحسن عليه السلام العلمية في يثرب العديد من كبار الصحابة والصحابيات، والتابعين، والمحدّثين، والرواة، وقد ذكر أعلام التراجم من كبار علماء أهل السنّة العديد من تلامذته ورواة أحاديثه(٢).

وبهذا يتبيّن للقارئ الكريم التحقيق في نبوغ الإمام الحسن العلمي بما منحه الله تعالى من كرامة العلم والمعرفة، وبما علّمه به رسول الله صلى الله عليه وآله وأبوه علي بن أبي طالب عليه السلام، فلذا فاق علماء عصره، فضلاً عن كونه من أصحاب الكساء الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

الخصيصة الثانية: النبي صلى الله عليه وآله يصدح بسيادة الحسن عليه السلام:

قال النبي عليه السلام: «مَن سرّه أن ينظرَ إلى سيّد شباب أهل الجنّة فلينظر إلى الحسن»(٣).

وقال النبي صلى الله عليه وآله أيضاً: «الحسن ريحانتي من الدنيا»(٤).

وأما ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله في حقّ الحسن وأخيه الحسين عليهما السلام فكوكبة من

---

(١) مطالب السؤول ٢: ١٧، نور الأبصار: ١٨٢.

(٢) قال الحافظ المزي: روى عن الإمام الحسن عليه السلام خلق كثير، منهم: «ابنه الحسن بن الحسن بن علي، إسحاق بن يسار المدني، والأصبغ بن نباتة، وعبدالله بن علي بن الحسين بن علي، وأبوجعفر محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب...»، وقد عدّهم المزي إلى أكثر من ثلاثين راوياً ومحدّثاً. انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٦: ٢٢١.

(٣) الاستيعاب لابن عبدالبر ٢: ٢٦٩، البداية والنهاية لابن الأثير ٨: ٣٩.

(٤) موسوعة سيرة أهل البيت للقرشي ١٠: ٧٩.

الروايات الصحاح التي دوّنها الثقات والحفّاظ، وهي صريحة الدلالة في بيان السيادة والإمامة، فمنها:

قال النبيصلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»(١).

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل بإسناده عن حُذيفة، قال: «أتيت النبيصلى الله عليه وآله فصلّيت معه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم تبعته وهو يريد أن يدخل بعض حُجَرِه، فقام وأنا خلفه، كأنّه يكلّم أحداً، قال:، ثم قال: «مَن هذا؟» قلتُ: حذيفة، قال: «أتدري من كان معي؟» قلت: لا، قال: «فإنّ جبريل جاء يُبشّرني أن الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»، قال: فقال حذيفة: فاستغفر لي ولأُمّي. قال: غفر الله لك يا حُذيفة ولأُمّك»(٢).

وأخرج الحاكم النيسابوري بإسناده عن ابن عمر، قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما خير منهما»(٣).

وأخرج الخزّاز الرازي بإسناده عن أبي ذر الغفاري، قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله في حديث طويل:«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة وأنّهما إمامان إن قاما أو قعدا»(٤).

وأخرج يعقوب بن سفيان الفسوي، بإسناده عن يعلى بن مُرّة، قال: قال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١٧: ٣١/ ١٠٩٩٩ و ١٨: ١١١٥٩٤/١٣٨، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: (٨٥٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير: (٢٦١١)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١: ٩١/ ٥٧٧٨، والفسوي في المعرفةوالتاريخ ٢: ٦٤٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣: ٢٠٩ ـ ٢١١، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٩: ١٢/ ٦٤٢١.

(٢) مسند أحمد: ٣٨: ٢٣٣٣٠/٣٥٥، وأخرجه الخطيب البغدادي أيضاً في تاريخ بغداد ٦: ٣٣٩٧/٣٦٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣١: ٤٧٨٠/١٨٢، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١: ١٥٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣: ٢١١.

(٤) كفاية الأثر: ٣٨، والإربلي في كشف الغمة ٢: ٣٢٦.

رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل: «... الحسن والحسين سبطان من الأسباط»[(١)].

وأخرجه البخاري من طريق آخر من حديث يعلى بن مرّة بألفاظ مقاربة في «الأدب المفرد»[(٢)].

هذه الكوكبة من الروايات الشريفة هي غيض من فيض بحق الحسن والحسين، ومنها ما اختص بالحسن عليه السلام، وهو ما يلفت النظر ويستوجب التحقيق والشرح ليُفهم مغزى هذه الأحاديث الشريفة، ويستدعي مزيداً من البيان.

معنى السيادة في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله:

حينما نتأمّل أحاديث النبي صلى الله عليه وآله المتقدمة نفهم أنه ليس المقصود بالسيادة الواردة فيها بمعنى السيادة النسبية فحسب، وهي بلا شك متحقّقة دون أن يرد فيها نص نبوي. وهي بحد ذاتها تشمل شرفاً عظيماً ومنزلة كريمة، ولكن ما أراد النبي صلى الله عليه وآله إبرازه ليس المعنى النسبي، فيردّ عليه أننا نعلم ذلك، وهو جلّي، وإنّما أراد صلى الله عليه وآله السيادة العلمية، والمقامية، فهي سيادة في علم ودين، بل في المرجعية الشاملة، ومن هنا أبرز النبي صلى الله عليه وآله دور الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في الإمامة فقال:

«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وإنّهما إمامان إن قاما أو قعدا»[(٣)].

---

(١) المعرفة والتاريخ ١: ٣٠٨ـ ٣٠٩، والجامع الصغير للسيوطي ١: ٤٢١/ ٣٧٤٢، وكنز العمّال، للمتقي الهندي ١٢: ١١٥/ ٣٤٢٦٤.

(٢) الأدب المفرد: ١١٢، باب ١٧٠، وفي شرح صحيح الأدب المفرد، تخريج الألباني ١: ٤٨١/ ١٤٩، والترمذي في الجامع الكبير ٦: ٣٧٧٥/١١٨، وابن ماجة في السنن ١: ١٤٤/٩٦.

(٣) كفاية الاثر للخزّاز الرازي: ٣٨، والإربلي في كشف الغمة ٢: ٣٢٦، وتوفيق أبو علم في أهل البيت: ١٩٥، ط: السعادة في القاهرة. واعتبره ابن شهرآشوب خبراً مشهوراً فقال ما نصّه: «ويستدل على إمامتهما بالخبر المشهور أنه قال صلى الله عليه وآله: «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»، أوجب لهما الإمامة بموجب القول، سواء نهضا بالجهاد، أو قعدا عنه، دعيا إلى أنفسهما أو تركا ذلك». انتهى، مناقب آل

⇐

ولكي يتعمّق معنى السيادة المقصودة بحديث المصطفى صلى الله عليه وآله ينبغي مقارنة ذلك مع قوله صلى الله عليه وآله: «أنا سيّد ولد آدم»[(١)]، فسياق النبي صلى الله عليه وآله شاملة وعامّة لكل البشرية، وهي ليست سيادة قرابة أو نسب، وإنّما سيادة نبوية وعلمية وقيادية، فهي مرجعية شاملة.

وقد أشار إلى هذا المعنى القاضي عياض، فقال ما نصّه: «السيّد» الذي يفوق قومه، وهي السيادة والسؤدد، وهي الرئاسة والزعامة ورفعة القدر؛ لأنّه (عليه الصلاة والسلام) سيّد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «قوموا إلى سيّدكم»، أي: زعيمكم وأفضلكم، ومنه قوله: «إنّ ابني هذا سيّد...»[(٢)]» انتهى.

(فالسيّد) هو الذي يفوق قومه في الخير، ومن أفضل مصاديق الخير هو العلم، وبالتالي هذا التفوق في جميع المجالات يستدعي بذاته الزعامة والرئاسة، والإمامة. ويقول النوربشتي: «كفى به شرفاً وفضلاً فلا أسود ممّن سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله سيّداً»[(٣)] انتهى.

وقال ابن الأثير: «وأيّ شرف أعظم من شرف من سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله سيّداً»[(٤)] انتهى.

⇐

أبي طالب ٣: ٤١٨، وأخرجه ابن بابويه في علل الشرائع ١: ٢٤٩، باب ١٥٩.

(١) أخرجه أبو داود في السنّة باب ١٣، وابن ماجة في الزهد باب ٣٧، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥: ١٦٣.

(٢) مشارق الأنوار للقاضي عياض ٢: ٣٩٠.

(٣) انظر مرقاة المفاتيح، لملاّ علي القاري ١٠: ٥٢١، والتعليق الصبيح على مشكاة المصابيح للكاندهلوي ٧: ٣٥١.

(٤) أُسد الغابة ٢: ١٨.

فقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة» يتضمن معنىً آخر في غاية الدّقة، وهو أنهما مرجعان للأخيار في الآخرة فضلاً عن الدنيا؛ لأن الذي استحقّ السيادة الأخروية ـ وهي أعلى شأناً قطعاً ـ يستحقها دنيوياً بالاقتضاء، وبلحاظ أنّ سكان أهل الجنّة كلّهم من الشباب ـ كما هو ثابت ـ فالحسن والحسين عليهما السلام سادة البشر في الدنيا والآخرة، ذهب إلى هذا المعنى «الطيّبي»، ولكن صعب عليه قبوله على إطلاقه، فأثبت الاستثناء تبرّعاً من دون دليلٍ نصيّ، فقال ما نصّه: «... إنّهما سيّدا شباب أهل الجنة سوى الأنبياء والخلفاء الراشدين، وذلك لأنّ أهل الجنّة كلّهم في سنّ واحد وهو الشباب، وليس فيهم شيخ ولا كهل، ويمكن أن يراد: هما الآن سيّدا شبابٍ هم من أهل الجنة من شباب هذا الزمان»[١] انتهى.

ولكنّنا نجد النص النبوي مطلقاً من دون تقييد، وهو يعني تحقّق السيادة لهما مطلقاً، وقد أشار إلى ما قلنا الإمام النسائي ما نصّه: «عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله قال:«إنّ حسناً وحسيناً سيّدا شباب أهل الجنّة» ما استثنى من ذلك»[٢].

نعم، ورد في بعض الروايات ذكرٌ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، بقوله: «وأبوهما خير منهما». وهذا أمر لا يناقش فيه أحد، وهو بحدّ ذاته يؤيّد المعنى المتقدّم؛ إذ لو أراد استثناء أحد لاستثناه من كلامه الشريف ببيان قاطع وصريح، ولعلّه ورد استثناء في بعض كتب أهل السنّة ـ على فرض صحّته ـ: «إلا ابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا»، وهذا المعنى العميق للسيادة دعى أبا هريرة أن يعدو خلف الإمام الحسن ليردّ عليه السلام، مبيّناً قول النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ١٢: ٣٩١٢ ـ ٣٩١٣.

(٢) سنن النسائي ٥: ١٤٩ / ١٥٢٧.

«إنّه سيّد»[(١)].

كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله عبّر عنهما بتعبير يكرّس المعنى المتقدّم، فقال صلى الله عليه وآله عنهما: «سبطان من الأسباط»، والسبط هو الرجل الأمّة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[(٢)]، بل السبط هو الرجل الأُمّة المتمحّص في الخير، فالخيرية متجسّدة فيهما، فهما يفيضيان بالخير المطلق على المجتمع من علمٍ وخُلُقٍ، وأدبٍ، وكرمٍ، وسماحةٍ، وقد أشار إلى المعنى المتقدم ابن منظور، فقال ما نصّه:

«وفي الحديث أيضاً: الحسن سبط من الأسباط أي أُمّة من الأُمم في الخير، فهو واقع على الأُمة، والأُمّة واقعة عليه»[(٣)].

أضف إلى ذلك كلّه، ما أبرزه رسول الله صلى الله عليه وآله في بيان شأنهما لهي من أبرز الصفات الماثلة فيهما، وذلك لما تستدعيه من النصوصية، والأعلمية، والعصمة، بل مطلق الصفات الحسنة التي لا تكاد تتوفّر إلا عند من اصطفاه الله تعالى، واختاره من بين عباده، فلذا قال صلى الله عليه وآله في الحديث المشهور: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا» بمعنى أنّ الإمامة والمرجعية الشاملة متجسّدة فيهما سواء قاما بالأمر وبايعتهما الأمّة أم لا، وسواء قعدا عنه أم لا، وهذا يكشف عن عمق

(١) أخرج الحاكم النيسابوري بإسناده عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، قال: «كنّا مع أبي هريرة فجاء الحسن بن علي بن أبي طالب فسلّم علينا فرددنا عليه السلام ولم يعلم به أبو هريرة فقلنا له: يا أبا هريرة، هذا الحسن بن علي قد سلّم علينا فلحقه، قال: وعليك السلام يا سيّدي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّه سيّد». المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٧٩٢/١٨٥، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٨: ٢٠، وعزاه إلى أبي يعلى، وأخرجه ابن عساكر مفصّلاً مع بيان الواقعة، في تاريخ دمشق ١٣: ٢٣٦، كما أورده ابن حجر في الصواعق المحرقة ٢: ٤٠٥.

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٠).

(٣) لسان العرب ٦: ١٥٤.

منزلتهما عند الله تعالى، وعند رسوله الكريم، فعلى الأُمّة الإسلامية أن تعي مرجعيّتهما الحقيقية لتنهل منها المنهل العذب، وتجد فيها المنابع الصافية لدين الله تعالى.

فلذا نجد أنّ الكثير من كبار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يجلّون الإمام الحسن ويقدّسونه، فهذا ابن عبّاس يعلن بتشرّفه أخذ الركاب للحسن إذا ركب، حسبما أخرجه ابن كثير فقال ما نصّه: «وقد كان ابن عبّاس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه»[١] انتهى.

وكانت الأُمّة آنذاك تبرز مشاعرها الجيّاشة اتّجاهما نتيجة حبّهما، ولِما لهما من الشأن والقداسة، وقد أبرز هذا المعنى ابن كثير أيضاً، فقال ما نصّه:

«فكانا ـ الحسن والحسين ـ إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما ممّا يزدحمون عليهما، للسلام عليهما، رضي الله عنهما وأرضاهما»[٢].

فتلخّص من كلّ ما تقدّم: أن السيادة في حديث المصطفى بمعنى المرجعية الشاملة للإمام الحسن عليه السلام وأخيه الحسين عليه السلام، فضلاً عن المرجعية العلمية. كما أنّ الإمامة والزعامة الدينية والدنيوية متجسّدة فيهما، بنصّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

الخصيصة الثالثة: احتجاجاته البلاغية المؤثّرة:

كان الإمام الحسن عليه السلام خطيباً مفوّهاً من أبرع الخطباء، وأقدرهم على الإبداع والتأثير وإفحام الخصوم، فضلاً عن اجتذاب الموالي، فلذا كان لخطبه (سلام الله عليه) الأثر الكبير في بيان الحجج والبراهين والأحقّية لأهل

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٤١.

(٢) المصدر السابق ٨: ٤١.

البيت عليهم السلام، ولذا سعى الخصوم إلى إعمال الحصار الإعلامي الممنهج، والتوعّد والتهديد لمن ينشر الخطابات الحسنية ويتداولها، لذا نجد المؤرخين يعنونون الخطابات الحسنية، بأنها خطابات طويلة مؤثرة، ولكنهم لا يوردون منها إلا جزءاً يسيراً، لينبؤك بضراوة الرقابة القاسية، لما للخطب الحسنية من إقناع وتأثير، واحتجاجات بليغة، أشير إلى بعض مقتطفاتها، رعاية للاختصار، كما يلي:

أولاً: إيفاد الإمام الحسن عليه السلام:

حينما اشتعل أوار الفتنة في مكّة للطلب بدعم عثمان بتحريض طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم من الأمويين، وحينما علم الإمام أمير المؤمنين بتوجههم إلى البصرة، أقام بالربذة أيّاماً يُحكم أمره، وأرسل إلى جماهير أهل الكوفة مستنجداً بهم لإخماد نار الفتنة الجديدة. فأوفد للقياهم محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر بن أبي طالب، وزوّدهما برسالة، وحينما عرضا الرسالة على أبي موسى الأشعري لم يجدا منه إلا مزيداً من تثبيط العزائم، ومنع الناس من الاستجابة لنداء الإمام، فبعث الإمام علي عليه السلام هاشم المرقال وزوّده برسالة أخرى، وحينما عرض الرسالة على أبي موسى الأشعري لم يسترشد وبقي مصمّماً على عصيانه وعناده، وحينما علم الإمام بذلك، أوفد ولده الحسن عليه السلام ومعه عمّار بن ياسر وأرسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى الأشعري عن منصبه، وتعيين قرضة بن كعب في وظيفته، وعندما وصل الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة التأم الناس من حوله زمراً، وهم يعربون له عن الانقياد والطاعة، فأعلن الإمام الحسن عليه السلام عزل الوالي المتمرّد عن منصبه، وعيّن قرضة في محلّه، وأخذ سبط النبي صلى الله عليه وآله يوقض الهمم، ويبعث النشاط في النفوس ويحفّزهم للجهاد، ويحثّهم على الخروج لنصرة أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قام فيهم خطيباً، فقال:

«أيّها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنّه سيُوجَدُ لهذا الأمر مَن ينفرُ إليه، والله لئن يليه أولوا النُهى أمثلُ في العاجلة، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم.

أيّها الناس، إنّ أمير المؤمنين يقول: إنّي خرجتُ مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وإني أُذكّر الله عزّ وجلّ رجُلاً رعى حقّاً إلا نفرَ، فإن كنتُ مظلوماً أعانني، وإن كنتُ ظالماً أخذ منّي.

والله إنّ طلحة والزبير لأوّل مَن بايعني، وأوّل مَن غَدَرَ، فهل استأثرتُ بمالٍ، أوبدلّتُ حُكماً؟ فانفروا فمُرُوا بمعروفٍ وانهوا عَن مُنكر»[1].

فأجابه الناس بالسمع والطاعة والامتثال والانقياد لأمره، والإجابة لدعوته. وفي هذا الواقعة نلحظ قوة شخصية الإمام الحسن عليه السلام وحزمه في اتّخاذ القرار رغم عناد وتمرّد الأشعري، كما نلحظ بلاغة بيانه المؤثّر في النفوس إذ ألهب المشاعر والعواطف، وأوجد مساحة واسعة في نفوسهم للاقناع وبالتالي التحرّك الفاعل للمشاركة في القتال ومواجهة عدوّهم رغم كرههم له.

ثانياً: خطاب الإمام الحسن عليه السلام في فتنة التحكيم:

لمّا انتشر الخبر المؤلم بين العراقيين بخلع أبي موسى الأشعري للإمام علي عليه السلام زادت الفتنة، وكثر الاختلاف والانشقاق بينهم، وجعل بعضهم يتبرّأ من بعض ويشتم بعضهم بعضاً، ورأى الإمام أنّ خطورة الموقف تقتضي بأن يقوم نفر من أهل بيته فيخطب بين الناس؛ ليوقفهم على حقيقة الحال، ويبيّن لهم فساد التحكيم.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣: ٤٩٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٢٠.

فقال للحسن عليه السلام: «قُم يا بُنيّ، فقُل في هذين الرجلين عبدالله بن قيس (أبو موسى الأشعري)، وعمرو بن العاص».

فقام الحسن عليه السلام فاعتلى أعواد المنبر، فقال:

«أيّها الناس، إنّكم قد أكثرتم في أمر عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، فإنّما بُعثاً ليَحكُما بكتاب الله، فحكما بالهوى على الكتاب، ومَن كان هكذا لم يُسمّ حَكَماً ولكنّه محكومٌ عليه. وقد أخطأ عبدُالله بن قيس في أن أوصى بها إلى عبدالله بن عمر، فأخطأ في ذلك في ثلاث خصال: في أنّ أباه لم يَرْضَهُ لها، وفي أنّه لم يَسْتأمِرْهُ، وفي أنّه لم يجتمع إليه المهاجرون والأنصار الّذين نفّذُوها لمن بعده، وإنّما الحكومةُ فرضٌ من الله.

وقد حكّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله سَعداً في بني قُريظة، فحكمَ فيهم بحُكم الله لا شكّ فيه، فنفّذ رسول الله صلى الله عليه وآله حُكمه[1]، ولو خالفَ ذلك لم يَجرِه».

ثم نزل الإمام الحسن من منبر الخطابة.

أقول: لقد أشار الحسن عليه السلام في خطابه الرائع، وبيانه الساطع إلى نكات في غاية الأهمية والحساسية التي تركت أثرها الكبير في نفوس الكوفيين وغيرهم من جيش الإمام علي عليه السلام، وكانت تمثّل محور النزاع ومصدر الفتنة، فلذا نجده ركّز على بيانها والإجابة عنها بأدلّة استنبطها من سيرة النبي صلى الله عليه وآله، لتكون مقنعة في مثل أجواء الفتنة والتهاب ساحة الصراع. وهذا ما يستدعي أن نسلّط الأضواء

---

(١) لمّا أذعن بنو قريظة على النزول على حكم سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي، جاء وهو جريح، فقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «قوموا إلى سيّدكم أو خيّركم». فلمّا حلّ بالمجلس قال رسول الله صلى الله عليه وآله له: «يا سعد اُحكم فيهم»، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبي ذراريهم. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «حَكَمتَ فيهم بحكم الله». انظر: اُسد الغابة ٢: ٢٩٦.

على خطاب الإمام الحسن عليه السلام الرائع بالتحليل والتوضيح، كما يلي:

١ ـ أشار الإمام الحسن عليه السلام إلى الأجواء السائدة آنذاك لدى الناس وكثرة تداولهم عن هذين الشخصين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وأنّهما سيحكمان له.

٢ ـ جعل الإمام الحسن عليه السلام المدار على ما سيحكمان به، فهل يحكمان بكتاب الله تعالى أم يحكمان وفقاً للهوى؟ فإنّ حكمهما الذي يجب أن يتّبع إذا كان الحكم وفقاً لكتاب الله تعالى، لا حكماً وفقاً للأهواء والميول والرغبات الخاصة، وقد حكّم النبي صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بكتاب الله تعالى، وفقاً للكتاب، فأجرى النبي صلى الله عليه وآله حكمه، ولو لم يكن كذلك لم يجرِ النبي صلى الله عليه وآله حكمه.

٣ ـ إذا كان حكمهما وفقاً للهوى لا وفقاً للكتاب العزيز فعندئذٍ لا يسمى هذا الشخص حَكَماً ولا يصلح أن كون أهلاً لما رُشّح له، فلذا يرد عليه الأمر فيضحى محكوماً عليه، لماذا؟ لأنّه خالف العهد، وخالف طاعة المولى عزّ وجلّ، فبدل أن يحكّم الكتاب فعاد وحكّم الأهواء والرغبات والنوازع الشيطانية، فلا مجال عندئذٍ لقبول حكمه، والذي يقبل بهذا الحكم فقد قبل حكم الشيطان.

٤ ـ أشار الإمام الحسن عليه السلام إلى الخطأ الفادح الذي وقع فيه أبو موسى الأشعري وذلك حينما رشّح للخلافة عبدالله بن عمر. وذلك للأدلة التالية:

أ ـ إنّ أباه لم يره أهلاً، وذلك عندما جعلها شورى بين الستة، فلم يكن أحدهم، ولو كان هو أهلاً لها لكان قد رشّحه أبوه لها، ومن المعلوم أنّ الأب هو أعرف بقدرة ولياقة وأهليّة ولده من عدمها.

ب ـ إنّ أباه لم يستأمره في قيادة سريّة أو لواء للمسلمين، ممّا يدلل على ضعف شخصيّته،فلو كان يتمتّع بلياقة قيادية لوجب على الخليفة استثماره.

ج ــ إنّ الشرط الأساس في الانتخاب هو أن يجتمع على المنتخب المهاجرون والأنصار، ولم يحصل ذلك له، فكيف يتم خلع مَن اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وترشيح شخص غير مؤهّل للخلافة، ولم يُستأمر، ولم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار؟ وبهذه الأدلّة الثلاثة فنّد الإمام الحسن فعلة أبي موسى الأشعري.

٥ ـ أعرب الإمام الحسن عليه السلام في خطابه عن مشروعية التحكيم، مستنبطاً ذلك في ضوء سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسيرته العطرة كما حكّم سعد بن معاذ في بني قريظة، فلو كان التحكيم غير مشروع لما أقرّه النبي صلى الله عليه وآله شريطة أن يحكم الحَكَمُ بحكم الله تعالى وفقاً كتابه العزيز، وبهذا أراد الإمام عليه السلام أن يردّ دعوى الخوارج في رفضهم لقضية التحكيم بقولهم: (كيف تحكّم الرجال في دين الله)، فأبطل دعواهم تلك بأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد حكّم سعداً، وفعل النبي صلى الله عليه وآله حجّة وأحقّ أن يتّبع.

وهكذا نجد أنّ الإمام الحسن عليه السلام بخطابه البليغ الموجز والمترجل استطاع أن يخطف الأضواء ويوئد الفتنة، وينتصر لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ويقوّي وعي الناس باتّجاه الحقّ، وإفهامهم حقيقة المؤامرة، وخدعة التحكيم، بأدلّة واقعية موجزة ومستنبطة من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وممّا هم يؤمنون به ويعتقدونه.

ثالثاً: خطبة الحسن عليه السلام عند تولّيه الخلافة:

روى الشيخ المفيد بإسناده عن هشام بن حسّان، قال: سمعت أبا محمّد

الحسن بن علي عليه السلام يخطب الناس بعد البيعة له بالأمر، فقال:

«نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيّبون الطاهرون، وأحد الثقلين الّذين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أُمّته، والتالي كتاب الله فيه تفصيل كلّ شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعوّل علينا في تفسيره، لا نتظنّى تأويله بل نتيقّن حقائقه، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفوضة، إذْ كانت بطاعة الله عزّ وجلّ مقرونة، قال الله عز وجل: ﴿ **يَاأَيُّهَا الّذين آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ...** ﴾[1]، ﴿... **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الّذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...** ﴾[2].

وأحذّركم الإصغاء لهتاف الشيطان فإنّه لكم عدوّ مبين، فتكونوا أولياءه الّذين قال لهم: ﴿... **لاَغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ...** ﴾[3].

فتلقون إلى الرماح وزراً، وإلى السيوف جزراً، وللعمد حطماً، وللسهام غرضاً، ثم ﴿... **لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا...** ﴾[4] انتهى.

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٣).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٤٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية (١٥٨).

تنبيهان:

التنبيه الأوّل: الخطبة الحسنية الدليل الأتمّ:

الخطبة الحسنية دليل أبلج في البين، وفصل الخطاب والحكمة، لقد امتطى صهوات البيان، فجاء بأطيب ثمار اللسان، ببلاغة وروعة في البيان، وأسلوب سهل ممتنع على كثير من الأنام، وعبارات مشرقة احتضنت الأفكار والمعاني والمعتقدات، فانكشفت بها الحقيقة على ما يرام، وانبلج الصبح وتبدّد الظلام، فهنيئاً لمن عقل ذلك والتزم منهج الإمام.

فقد أشار إلى عمق علمهم بالقرآن، وإدراكهم حقائق معانيه، واطّلاعهم على غاية مقاصده، فلذا قال عليه السلام: «فالمعوّل علينا في تفسيره لا نتظنّى تأويله بل نتيقّن حقائقه»، فلا مجال لإعمال الظن في معاني آياته وتأويلها، بل عليهم تعوّل الأُمّة في تفسيره وبيان حقائقه، وهذا أوّل دليل على مرجعيتهم العلمية، وضرورة الرجوع إليهم لفهم الركن الأساس من مصدر التشريع، فما بالك عن درايتهم بالركن الآخر، وهو السنّة الشريفة، فقد ورد عن أنس بن مالك قوله: «سلوا مولانا الحسن، فإنّه سمع وسمعنا، وحفظ ونسينا»[(١)].

فهم أولوا الأمر الّذين فرض الله طاعتهم، وأمر بالرجوع إليهم، في فهم الآيات والأحكام والمعتقدات، وحلّ المنازعات، وفضّ الخصومات، وبقيّة المقامات.

فالخطبة الحسنية وضعت النقاط على الحروف، وأوضحت أهمّ الأمور،

---

(١) المحصول في علم أصول الفقه للرازي ٤: ١٧٧.

فعلى الأُمّة إدراك ذلك والإيمان به، والعمل في ضوئه، إذ أنّ البيت عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله خير الرجال، وخير الشباب، وخير النساء، هكذا أخرج ابن عساكر الرواية بإسناده عن علقمة، عن عبدالله، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله:

«خير رجالكم عليّ بن أبي طالب، وخير شبابكم الحسن والحسين، وخير نسائكم فاطمة بنت محمّد»(١).

التنبيه الثاني: الخطبة الحسنية في خناق الرقابة

حينما بحثت عن الخطبة الحسنية، كدتُ لم أجد لها أثراً في كتب السيرة والتاريخ وتراجم الرجال، إلا الاكتفاء بالإشارة إليها دون روايتها، أو روايتها باقتضاب. وهذا ممّا يثير التساؤل عند كل المنصفين:

لماذا غيّبت خطبة الإمام الحسن عليه السلام؟

ولماذا قُطّعت أوصالها تقطيعاً؟

ولماذا «لم يرو التاريخ إلا شطراً منها»(٢)؟

ولكي يتّضح لنا الجواب الشافي، أشير إلى رواية عمرو بن ثابت التالية:

سَنة من الزمان يبحث عن الخطبة الحسنية:

روى أبو الفرج الإصفهاني بإسناده عن عمرو بن ثابت، قال:

«كنت اختلفت إلى أبي إسحاق سنة أسأله عن خطبة الحسن بن علي، فلا يحدّثني بها، فدخلت إليه في يوم شاتٍ وهو في الشمس وعليه برنس كأنّه غول،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٦٧.

(٢) أشار إلى ذلك أيضاً القرشي في سيرة أهل البيت عليهم السلام ١١: ٣٤.

فقال لي: مَن أنت؟ فأخبرته، فبكى.

وقال: كيف أبوك؟ كيف أهلك؟

قلت: صالحون.

قال: في أي شيء تردّد منذ سنة؟

قلت: في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه.

قال: [حدّثني هبيرة بن بريم]، وحدّثني محمّد بن محمّد الباغندي، ومحمّد ابن حمدان الصيدلاني، قالا: حدّثني إسماعيل بن محمّد العلوي، قال: حدّثني عمّي علي بن جعفر بن محمّد، عن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن زيد ابن الحسن، عن أبيه، دخل حديث بعضهم في حديث بعض، والمعنى قريب.

قالوا: خطب الحسن بن علي بعد وفاة أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال:

لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل[1]، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، ولقد كان يوجّهه برايته فيكتنفه جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتّى يفتح الله عليه، ولقد توفّي في هذه الليلة التي عُرج فيها بعيسى بن مريم، ولقد توفّي فيها يوشع بن نون وصيّ موسى، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلا سبع مائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

ثم خنقته العبرة، فبكى وبكى الناس معه.

ثم قال: مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عزّوجل بإذنه، وأنا ابن السراج

---

(١) وفي رواية أبي نعيم: (... ولا يدركه الآخرون بعلم...)، حلية الأولياء ١: ٦٥.

المنير، وأنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه إذ يقول: ﴿... وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً...﴾[(١)] فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت»[(٢)] انتهى.

أقول: من خلال ما تقدّم، يتبيّن لنا شدّة حسّاسية الرواة من ضغط الأجهزة الأموية الحاكمة آنذاك، والتخوّف المفرط من ذكر مناقب أهل البيت عليهم السلام بما توعّده عليهم معاوية: (أنْ برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته) وأتباعه الأمويون، ومن ضمن هذه المناقب مفردات الخطبة الحسنية، التي تركت أثرها على وعي الأُمّة ماضيها ومستقبلها، وإلا فلماذا تكتّمَ الرواة والمؤرّخون عن ذكر تفاصيلها والاكتفاء بالتنويه لها وتقطيع أوصالها، كما فعل كثيرون، منهم ابن قتيبة الدينوري؟

فقد روى ابن قتيبة الدينوري عن هبيرة بن شريم، قال:

«سمعت الحسن (رض) يخطب، فذكر أباه وفضله وسابقته، ثم قال: والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبع مائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يشتري بها خادماً»[(٣)] انتهى.

مع العلم أنّ خطبة الإمام الحسن عليه السلام خطبة طويلة، كما أشار إلى ذلك اليعقوبي[(٤)]، ولكنّ الرواة ومَن تقدّم ذكرهم لم ينقلوا منها إلا قليلاً، وحرّفوا

---

(١) سورة الشورى: الآية (٢٣).

(٢) مقاتل الطالبيين: ٦١ ـ ٦٢.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨٣.

(٤) قال اليعقوبي: «واجتمع الناس، فبايعوا الحسن بن علي عليه السلام، وخرج الحسن بن علي إلى المسجد الجامع، فخطب خطبة له طويلة». تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤.

بعض نصوصها كما عرفت؛ لأنّها صريحة في بيان مقام ومناقب أهل البيت عليهم السلام وظلامتهم، وذلك بسبب قلق البيت الأموي والجهاز الحاكم من انتشار الوعي لدى الأُمّة في فهم وإدراك منزلة أهل البيت عليهم السلام وأحقّيتهم في ولاية هذه الأُمّة، فلذا جاهروا في منع تداول مناقب أهل البيت عليهم السلام وحاسبوا عليها أشدّ الحساب[١].

ولعلّ استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام في محراب مسجد الكوفة، وخطبة الإمام الحسن عليه السلام تركا أثرهما الكبير على الناس، لذا كانت البيعة للإمام الحسن عليه السلام جامعة صحيحة أنّه قد تولّى زمان الإمامة بعد أبيه عليه السلام، وقد كشف عن ذلك في كتابه لمعاوية:

«أما بعد... فإنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لمّا نزل به الموت ولّاني هذا الأمر من بعده، فاتّق الله يا معاوية وانظر لأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله ما تحقن به دمائهم وتصلح به أمورهم، والسلام»[٢].

وهذه هي عقيدتنا بضرورة النّص على الإمام. ولكن مع ذلك فإنّ الأُمّة قد بايعته مجمعة على طاعته، وجهاد عدوّه.

---

(١) روى أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدايني في كتاب (الأحداث)، قال: «كتب معاوية ابن أبي سفيان نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته! فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كل منبر، يلعنون عليّاً، ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته. وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل معاوية عليهم زياد بن سمية، وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيّام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم...». شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ١١: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٤: ٢٨٧.

فهذا قيس بن عبادة خاطب الإمام الحسن عليه السلام بعد أن نزل من منصة الخطابة قائلاً: ابسط يدك أُبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه وقتال المُحلّين.

فقال له الحسن عليه السلام: «على كتاب الله وسُنّة نبيّه، فإنّ ذلك يأتي من وراء كل شرط»، فبايعه وسَكَتَ، وبايعه الناس، كما جاء ذلك في تاريخ الطبري، والكامل[١].

وهكذا فقد تبيّنت لك سياسة البيت الأموي في معاداة أهل البيت عليهم السلام ومنع تداول فضائلهم، إلا ما فلت من عقال الرقابة.

نعم، وردت شذرات من خطبة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في عددٍ من المصادر الروائية والتاريخية، لكنّها مقطّعة الأوصال، فلاحظ[٢].

الخصيصة الرابعة: المنظومة الأخلاقية:

لا شكّ أنّ السجايا الأخلاقية تمثل أعلى مفردات الكمال الإنساني، والرقي السلوكي، وهي من أهم الأسباب التي تبتني عليها الحياة الاجتماعية والفردية، وأهم عناصر بقاء الأُمم بحضارتها وأصالتها، فالأخلاق غاية ما يصل إليه الإنسان في كماله وسموّه وتهذيب نفسه.

ولقد تجسّدت في الشخصية الحسنية منظومة أخلاقية متكاملة رائعة، تعدّت

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ١٥٨، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢: ٤٤٣.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٥: ١٥٧، الكامل في التاريخ ٢: ٤٤٢، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٨٠ ـ ٨١، المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣: ١٨٨ ـ ١٨٩، مسند أحمد بن حنبل ١: ١٩٩، السنن الكبرى للنسائي ٥: ١١٢، مسند أبي يعلى الموصلي ٦: ١٦٩٦، إمتاع الأسماع للمقريزي ١١: ١٧٨، وغيرها من مصادر أهل السنّة. وأما مصادر الشيعة نذكر منها: بحار الأنوار للمجلسي ٤٤: ٢١، إحقاق الحقّ للقاضي التستري ٤: ٤١٦، بشارة المصطفى لأبي جعفر الطبري: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

وتشعّبت في عناصرها المتنوعة، وبلغ الذروة في جميع مدياتها الواسعة، متمثّلاً بسيرة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، فأولى هذا الجانب من حياته الشخصية اهتماماً بالغاً، وبرع فيه وبلغ قمة الهرم، فأضحى مَعلماً بارزاً من معالم الأخلاق وإليه يُشار بالبنان في كل عنصر من عناصر المنظومة الأخلاقية دون منازع في حياته ومن بعده، ولم يستطع التاريخ رغم تجنّيه على الإمام الحسن عليه السلام، وكذا المناوؤن له على كثرتهم لم يستطيعوا أن يخفوا هذه المعالم الشاخصة، والسجايا الأخلاقية السامية في الذات الحسنية؛ لأنّ هذه المنظومة الأخلاقية الحسنية إنّما تجسّدت لا في رضا الآخرين، وإنّما هو منهج انتهجه الحسن عليه السلام تأسّياً بتعاليم جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وإيمانه الراسخ بها، دون تكلّف أو افتعال، وهو القدوة في دعوة الأُمّة لممارستها عملياً، لذا كان الحسن عليه السلام لا يلتزم بها فحسب، بل راح يكرم، ويثني، ويشجّع، ويوصي بها؛ لأنّها جزء لا يتجزّأ من رسالته وشخصيّته، ولايضاح هذا المعنى أُشير إلى الواقعة التالية التي رواها المؤرّخون:

«اجتاز الحسن عليه السلام ذات يوم، على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى.

فقال له الإمام: ما حمَلك على ذلك؟

قال الغلام: إنّي لأستحي أن آكل ولا أطعمه.

رأى الإمام فيه خصلة من أحبّ الخصال عنده، فأحبّ أن يجازيه على صنعه، ويقابل إحسانه بإحسان آخر.

فقال له: لا تبرح مكانك.

ثم انطلق فاشتراه من مولاه، واشترى الحائط[1] الذي هو فيه، فاعتقه وملّكه

(١) الحائط: البستان.

إياه»[١].

ومن خلال هذه الواقعة وغيرها نستنتج منهج الحسن عليه السلام في منظومته الأخلاقية العالية، وهي تتفرّع إلى جميع مكارم الأخلاق لا يستثنى منها أي مكرمة، لذا انغمست بشخصه الكريم جميع تلك المكارم، وفاح شذاها عطراً رائعاً، انتعش بنهجه جميع أبناء أُمّته في زمانه، وأضحت منهجاً سامياً لمن أراد الاقتداء به من بعده، فهي متشعّبة ومتنوّعة، إذ كان كريماً في عطائه، وكريماً في حلمه، وكريماً في عفوه، وكريماً في تسامحه، وكريماً في معاشرته، وكريماً في زهده، وكريماً في تعاطيه، وكريماً في تواضعه، وكريماً في عناء جسده طاعة لله تعالى.

كلّ هذه الخصال الأخلاقية العالية اعتقد أنّها ترجع إلى خصلة أساسية تجذّرت في ذاته المقدّسة واشتهر بها وعُرف بها، وهي خصلة الكرم، والجود، فهذه الروح المفعمة بالسخاء وحب الآخرين، وهذه الحالات المنفتحة عليهم، لم تسعه إلا جوداً وكرماً، وعطاءً وتسامحاً، ونُبلاً. وهذه الخصلة الحميدة أيضاً انعكست طردياً في ضوء علاقته بالله تعالى، وما وصل إليه من الذروة في ذوبانه في الذات الإلهية، والحياء منه تعالى، حتى بلغ به الحال أن حجّ إلى بيت الله الحرام ماشياً خمس وعشرين مرّة، فقيل له: لِمَ لا تركب، فقال: «إنّي استحي من ربّي أن أذهب إلى بيته الحرام راكباً»!!

هذه المعالم الشاخصة في الذات الحسنية بحاجة إلى مزيد بيان، ولكنّي سأستعرض بعضاً منها لتأكيدها مراعياً بذلك الاختصار، كما يلي:

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ٨ : ٣٨.

١ ـ كرم العطاء:

لقد تجلّت هذه الخصلة النديّة في سيرة الإمام أبي محمّد الحسن عليه السلام بشكل واضح، منطلقاً بسخائه الندي هذا بداعي الخير والإحسان والحبّ للإنسان في ضوء منتهى الإخلاص المنقطع لله تعالى، لذا تجلّت فيه هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها، وأسمى معانيها، وأبهى صورها، حتّى لُقّب بكريم أهل البيت عليهم السلام، وطار صيته في البلدان فقصده القاصي والداني؛ لما لمسوه من صدق وإخلاص في عطائه وسعة جوده وكرمه، فلم يخب مَن قصده ولا يرجع منه دون أن ينال حاجته، فلم يرد سائلاً قط، ولذا قيل له: لأي شيء لا ترد سائلاً؟ فأجاب: «إنّي لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً وأردُّ سائلاً، وإن الله عوّدني عادة أن يُفيض نعمه عليَّ، وعوّدته أن أُفيض نعمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعني العادة...»[(١)].

وهكذا بسط يديه بالعطاء، متفانياً في ذات الله، حتّى خرج عن جميع ما يملك مرّتين فوهب جيع ما كان يملكه لله تعالى، وشاطر الله أمواله ثلاث مرّات حتّى أعطى نعلاً وأمسك أخرى[(٢)].

وله في هذا الباب الواسع مفردات ووقائع كثيرة لا مجال لسردها، ولكنّي سأكتفي بذكر مفردة واحدة رعاية للاختصار:

جاءه شخص يظهر الإعواز والحاجة، فقال له عليه السلام:

«هذا حقّ سؤالكَ، يعظمُ لديَّ معرفتي بما يجب لكَ، ويكبُرُ عليَّ ويداي تعجز عن نيلكَ بما أنت أهله، والكثيرُ في ذات الله تعالى قليل، وما في مُلكي وفاء

---

(١) نور الأبصار، للشبلنجي: ١١١.

(٢) أُسد الغابة، لابن الأثير ٢: ١٣.

لشكرك، فإن قَبلتَ منّا الميسور، ورفعت عنّا مؤونة الاحتفال والاهتمام فَعَلْت».

فأجابه الرجل: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، أقبلَ القليل، وأشكر العطيّة، واعذر على المنع.

فأحضر عليه السلام وكيله وحاسبه، وقال له: «هاتِ الفاضل من المال»، وكان الفاضل خمسين ألف درهم، فدفعها إليه.

ولم يكتفِ عليه السلام بذلك. بل قال لوكيله: «ما فعلتَ بالخَمسمائة دينار التي عندك»؟

فقال: هي عندي، فأمره بإحضارها، ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر منه، وقال عليه السلام للرجل: «هات مَن يحمل هذه الأموال»، فأتاه بحمّالين، فدفع عليه السلام رداءه لكراء الحمّالين.

فقال له مواليه: يا بن رسول الله، والله ما عندنا درهم.

فقال عليه السلام لهم: «أرجو أن يكون لي عند الله أجرٌ عظيم»(١).

وهكذا اتّضح بشكل قاطع سعة جوده وكرمه، وتفانيه في رفع عوز المعوزين، وقضاء حوائجهم، ليدخل في عمق التاريخ من أوسع أبوابه، بما جادت يداه عطاءً وكرماً، دون النظر إلى ما يعود عليه هذا العطاء بعائد ما، أو أي أثر دنيوي، وإنّما كل ما حصل له من مفردات عطائية كان منطلقها الله تعالى، دون سواه كائناً من كان، فلذا خلّده التاريخ رغم حقد الحاقدين وتجنّي العابثين، فطار صيته مخلّداً تحت عنوان كريم أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) انظر إحياء العلوم للغزالي ٣: ١٧١.

٢ ـ كرم الحلم:

الحلم الذي كان يتحلّى به الإمام أبو محمّد الحسن عليه السلام ضاهى الجبال الرواسي بثباته وتأصيله، فلذا نجده يحلم عن أكبر التحدّيات الشخصية والاستفزازات المتعمّدة، بل راح يواجهها برحابة الصدر وسعته فيفاجئ الآخر بحلم منقطع النظير.

وقد انصهر الحلم بذاته المقدّسة فأضحى سجيّته البارزة، دون أن تكون حالة طارئة، أو نتيجة ظرف خاص، وإنّما جسّد هذا الأصل من مكارم الأخلاق متأسيّاً بجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، فكان منهجه الذي انتهجه في حياته وسار عليه طوال عمره، لذلك عندما نستعرض حياة الحسن عليه السلام لم نجد حالة واحدة كانت بعيدة عن هذه المعاني الأخلاقية العالية، بل نجد أنفسنا نغوص بعمق شخصية لها من الحلم القوي يضاهي زبر الحديد، ويتجاوز حدود التوقع والخيال.

وهكذا نجد هذه الروح المفعمة بالحلم أنها تركت أثرها حتى على وصيّته لأخيه الحسين عليه السلام عند اقتراب أجله فقال ما نصّه:

«أوصيك يا حسين... أن لا يُهراق من أمري محجمةٌ من دم...»[1].

هذه الروح التي قابلت جميع مَن أساء إليها بالصفح والإحسان وإن كان المعتدي عليه غلاماً من غلمانه! وهنا ينبغي أن أشير إلى الواقعة التالية:

«كان عند الإمام شاة، فوجدها يوماً قد كسرت رجلها، فقال عليه السلام لغلامه: مَن فَعلَ هذا بها؟

قال الغلام: أنا.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ١٥٢.

فقال الإمام: لِمَ ذلك؟

فقال الغلام: لأجلب لك الهم والغم!

فتبسّم الإمام عليه السلام وقال له: لأسُرّنّك، فأعتقه وأجزل له العطاء»[١].

وهكذا كان مثالاً للإنسانية الكريمة، ورمزاً للخلق العظيم، ومعلماً من معالم الحلم والتصبّر، لا يثيره الغضب، ولا يزعجه المكروه، منطلقاً في حلمه ذلك من النصّ الشريف لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

وقد واجه الخصوم بهذه الروح المفعمة بالحب للآخر، والحلم الرفيع ممّا نجد ذهول الخصم وتحوّله إلى حميم، رغم ما كان محمّلاً به من حنق وشحناء وحقد. وإليك هذه الواقعة:

«اجتاز على الإمام شخص من أهل الشام ممّن غذّاهم معاوية بالكراهة والحقد على آل البيت، فجعل يكيل للإمام السبّ والشتم. والإمام ساكت لم يردّ عليه شيئاً من مقالته، وبعد فراغه التفت الإمام فخاطبه بناعم القول، وقابله ببسمات فيّاضة بالبشر قائلاً:

أيّها الشيخ، أظنُّك غريباً، لو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أطعمناك، وإن كنت مُحتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك.

ومازال عليه السلام يلاطف الشامي بهذا ومثله ليقلع روح العداء، والشرّ من نفسه، حتّى ذهل ولم يطق ردّ الكلام، ويقي حائراً خجلاً كيف يعتذر للإمام، وكيف

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٤٧.

(٢) سورة فصّلت: الآية (٣٤).

يمحو الذنب عنه؟ وطفق يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء»[١].

هكذا كان ديدن الإمام في تعاطيه مع المغرّر بهم، أو الخصوم؛ لينزع من صدورهم الحقد بحلمه الرفيع وأُسلوبه المرن، فيزرع بقلب خصومه المحبّة بدل البغضاء والشحناء، وهذا غيض من فيض.

٣ ـ خُلق الزهد:

الزهد الذي انتهجه الإمام الحسن عليه السلام نبع من نظرته الثاقبة عن الدنيا وشأنية الآخرة، وخاض غمار الدنيا بيقين فنائها، فتعاطى بصدق مع يقين. فلذا رفض جميع مباهج الحياة، وزهد في ملاذها ونعيمها متّجهاً إلى الآخرة وبقائها دون أن يعتزل حياة الناس ودوره في إعمار مجال الخيرات في الدنيا، لكن لا للدنيا، وإنّما الآخرة هي مراده، وقد نسب إليه الكثير من الأبيات الشعرية، أشير إلى بعضها:

قُل للمقيم بغير دارِ إقامةٍ حان الرحيلُ فودِّع الأحبابا

إنّ الّذين لقيتَهُم وصَحِبتهُم صاروا جميعاً في القبور تُراباً

ولكي تتجلّى حقيقة زهد الإمام وتعاطيه مع جميع مفردات الدنيا بنظرة الزاهد فيها المستخف ضعنه منها، أشير إلى الواقعة التالية:

قال مدرك بن زياد ـ أحد الصحابة ـ «كنّا في حيطان ابن عبّاس، فجاء الحسن والحسين، وابنا العباس، فطافوا في تلك البساتين، ثم جلسوا على ضفاف بعض السواقي، فقال الحسن عليه السلام: يا مدرك، هل عندك غذاء؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب ٢: ١٤٩.

فقال: نعم، ثم انطلقت فجئته بخبز وشيء من الملح مع طاقتين من بقل، فأكل منه، وقال: يا مُدرك، ما أطيب هذا!

وجيء بعد ذلك بالطعام، وكان في منتهى الجودة والحُسن، فالتفت عليه السلام إلى مدرك وأمره بأن يجمع الغلمان ويقدّم لهم الطعام، فدعاهم مدرك، فأكلوا منه ولم يأكل الإمام منه شيئاً. فقال له مدرك: لماذا لا تأكل منه؟

فقال عليه السلام: إنّ ذلك الطعام أحبُّ عندي»[(١)].

وهذا ممّا يدلّ على عظيم زهده، ونظرته لكلّ ملاذ الدنيا نظرة الزاهد فيها، وفي جميع ملذّاتها، فمن يترك لذيذ طعامه يترك لذائذ أخرى. هكذا كانت حياة الحسن عليه السلام وخصائصها، وهي كثيرة جداً، أشرت إلى بعضها حسب ما سمح به مجال البحث، والله ولي التوفيق.

والحمد لله ربّ العالمين، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

مصادر البحث:

القرآن الكريم.

١- إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، للقاضي التستري، نور الله الحسيني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ. ق.

٢- إحياء علوم الدين، للغزالي، أبو حامد محمّد بن محمد، دار الحديث، القاهرة، الطبعة ١٤١٩ هـ. ق.

٣- الأدب المفرد، للبخاري، محمّد بن إسماعيل، دار المعرفة، بيروت، ط١: ١٤١٦/ ١٩٩٦م.

---

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٣٨.

٤- الاستيعاب، لابن عبدالبر القرطبي، يوسف بن عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.
٥- أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م.
٦- الإمامة والسياسة، لابن قتيبة الدينوري، منشورات الشريف الرضي ـ قم.
٧- الأمالي، للشيخ الطوسي، محمّد بن الحسن، دار الثقافة ـ قم، ط١: ١٤١٤ هـ. ق.
٨- الأمالي، للشيخ المفيد، محمّد بن محمّد العكبري البغدادي، دار المفيد ـ بيروت، ط٢: ١٤١٤ هـ. ق.
٩- إمتاع الأسماع، للمقريزي، أحمد بن علي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
١٠-البداية والنهاية، لابن الأثير الدمشقي، دار الحديث ـ القاهرة، ط٥: ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.
١١-بحار الأنوار، للعلامة المجلسي، المكتبة الإسلامية ـ طهران.
١٢-بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، للطبري، أبي جعفر، محمّد بن أبي القاسم، مؤسسة النشر الإسلامي ـ إيران، ط١: ١٤٢٠ هـ. ق.
١٣-تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م.
١٤-تاريخ دمشق، لابن عساكر الشافعي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.
١٥-تاريخ الطبري، للطبري، أبو جعفر، محمّد بن جرير، طبعة أوربا، ١٨٩٨م.
١٦-تاريخ اليعقوبي، لليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، منشورات الشريف

الرضي ـ قم، ط ١/ ١٤١٤ هـ. ق.
١٧-تفسير الوسيط، للواحدي النيسابوري، الحسن بن علي بن أحمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م.
١٨-التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح، لمحمد بن إدريس الكاندهلوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١: ١٤٢٥ هـ. ق.
١٩-تهذيب الكمال، للحافظ المزي، جمال الدين أبي الحجاج يوسف، دار الفكر، بيروت، ط ١: ١٤١٤ هـ. ق.
٢٠-الجامع الصغير، للسيوطي، جلال الدين، عبدالرحمن، دمشق، ط ١: ١٤١٧هـ.. ق
٢١-الجامع الكبير، للترمذي، محمّد بن عيسى، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط ٢: ١٩٩٨م.
٢٢-حلية الأولياء، للحافظ أبي نعيم الإصفهاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٣-سيرة أهل البيت عليهم السلام، للشيخ باقر شريف القرشي، دار إحياء التراث ـ بيروت، ط ١: ٢٠١٠م.
٢٤-السنن الكبرى، للنسائي، أحمد بن شعيب، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١١ هـ. ق.
٢٥-سنن ابن ماجة، لابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني، دار المعرفة ـ بيروت، ط ٢: ١٤١٨ هـ.
٢٦-شرح صحيح الأدب المفرد، للألباني، محمّد بن ناصر الدين، دار ابن حزم، الأردن، ط ١: ١٤٢٣ هـ.
٢٧-شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، دار الجيل ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٧ هـ. ق.

٢٨-شرح مشكل الآثار، للطحاوي، أحمد بن محمّد بن سلامة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ٢: ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م.

٢٩-الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمّد بن علي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ١: ١٤١٧ هـ. ق.

٣٠-فتح القدير، للشوكاني، محمّد بن علي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٠ هـ. ق.

٣١- الفتوح، لابن أعثم الكوفي، أحمد بن محمّد بن علي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٧ هـ.

٣٢-الكامل في التاريخ، لابن الأثير، علي بن أبي الكرم، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٨ هـ. ق.

٣٣-الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي، شرف الدين الحسيني بن عبدالله بن محمد، مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة، ط ١: ١٤١٧ هـ. ق.

٣٤- كفاية الأثر، للخزاز الرازي القمّي، علي بن محمّد، مطبعة الخيام، قم، ط ١: ١٤٠١ هـ. ق.

٣٥- كشف الغمة، للإربلي، علي بن عيسى، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، ط ١: ١٤٢٦ هـ. ق.

٣٦- كنز العمّال، للمتقي الهندي، علي بن حسام، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٣٧-لسان العرب، لابن منظور، محمّد بن مكرم، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٨-المحصول في علم الأصول، للفخر الرازي، محمّد بن عمر بن الحسين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ٢: ١٤١٨ هـ.

٣٩-مرقاة المفاتيح، لملا علي القاري، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى لسنة ١٤١٤هـ. ق.

٤٠- مجمع الزوائد، للهيثمي، علي بن أبي بكر، دار الفكر ـ بيروت، ط١: ١٤١٤ هـ. ق.

٤١-المعرفة والتاريخ، للفسوي، يعقوب بن سفيان، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٩ هـ.ق.

٤٢-المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، محمّد بن عبدالله، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١١ هـ. ق.

٤٣-مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل، دار الفكر ـ بيروت، ط١: ١٤١٦ هـ. ق.

٤٤-مسند أبي يعلى الموصلي، لأبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي، دار الثقافة العربية ـ دمشق، ط٢: ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

٤٥-مشارق الأنوار، للقاضي عياض المالكي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٣ هـ. / ٢٠٠٢م.

٤٦-مطالب السؤول، لابن طلحة الشافعي، محمّد بن طلحة، مؤسسة أمّ القرى ـ بيروت، ط١: ١٤٢٠ هـ. ق.

٤٧-مقتل الحسين عليه السلام، للخوارزمي، الموفّق بن أحمد، دار أنوار الهدى ـ قم، ط١: ١٤١٨ هـ. ق.

٤٨-مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب المازندراني، محمّد بن علي، دار الأضواء ـ بيروت، ط٢: ١٩٩١م.

٤٩-نور الأبصار، للشبلنجي، مؤمن بن حسن، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.

الأوضاع الدينية والثقافية و...

في عصر الإمام الحسن عليه السلام

محمّد كاظم ياسين (*)

عصر الإمام الحسن عليه السلام هو الفترة الممتدّة من شهادة النبيّ الأعظم حتى شهادته في الخمسين من الهجرة، وهي تمتد على مدى أربعين عاماً، وهي تتميّز بما يلي:

أوّلاً: هي قريبة العهد بالرسول صلى الله عليه وآله والناس الّذين عاشوا فيها كانوا ممن يعرف الرسول أو رأوه أو سمعوه وأحبّوه وكان لعليّ والحسن والحسين طابعاً خاصّاً؛ لأنّ الناس كانوا يعرفون أنّهم مقرّبون من الرسول.

ثانياً: كان منصب الخليفة أخطر مناصب الأُمّة على الاطلاق، فهو يمثّل رسول الله ولتصرفاته من القوّة بمستوى سُنّة رسول الله، وأكثريّة هذه الأُمّة لم تكن قد رأت النبيّ وتعلّمت منه الإسلام، ولكنّهم حين أسلموا كانوا بأمسّ الحاجة إلى من يعرّفهم على الدين الجديد، وعلى القرآن والسُنّة، فكان للخلفاء الأوائل أخطر التأثير على الشخصيّة الدينيّة والإسلاميّة للناس.

ثالثاً: كان ممكناً أن تعود الخلافة لأهل البيت عليهم السلام، ولم تكن شريعة ولاية العهد أو التوريث لأبناء الخلفاء قد سُنّت بعد، وكان الانحراف بين العامّة ما زال سطحيّاً ولم يأخذ طريقه باتجاه الأعماق والجذور على صعيد المجتمع والدولة

(*) كاتب ومحقّق إسلامي ـ لبنان.

والشريعة. فكان الدور المشترك لأهل البيتعليهم السلام في هذه المرحلة هو محاولة استرداد الدولة واستعادة قيادة مجتمع المسلمين من قبل الإمام عليّ والإمام الحسن والإمام الحسينعليهم السلام بأسلوب المواجهة المباشرة والحضور على مستوى الصراع السياسي مع السلطة الجائرة، فكانت المسيرة خلال خمسين عاماً تسير بنهج متكسّر بين صعود وهبوط، إلا أنّه كان بخط بياني صاعد.

رابعاً: لقد اقتنعت الأُمّة بالمشروع النبوي الذي عرضه عليها رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهو أن تحصل مقابل التوحيد والإسلام في الآخرة على جنّات عرضها السماوات والأرض وفي الدنيا على دولة العدالة والانصاف والمساواة، وإن المال مال الله والمسلمين سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين قرشيهم وعربيهم وأعجميهم ولا بين مسلم ومسلم. وإن أراضي بلاد الإسلام ملك الأُمّة، وإنّ الأُمّة هي صاحبة الرأي، فهي القائدة وهي سيّدة الموقف.

وصدّقت الأُمّة رسول الله وتخلت عن وتنيثتها وجاهليّتها وفلتانها، وخرجت من صحرائها وسفاهتها وفوضويّتها وأطاعت النبيّ وأسلست له قيادها، فصلّت وصامت وحجّت وزكّت أموالها وجاهدت وآثرت على نفسها.

وفي يوم وفاة رسول اللهصلى الله عليه وآله وفي بداية هذه المرحلة كانت الأُمّة ما تزال تعيش الروحيّة والأصالة التي أعطاها إيّاها رسول اللهصلى الله عليه وآله، وكانت ما تزال قويّة في شخصيّتها ووجودها وأنّها هي التي يجب أن تتحمّل مسؤوليات هذه الرسالة وأنّ لها على الإسلام حقّ الوفاء لها بالوعد النبويّ في الآخرة بالجنّة وفي الدنيا بالعدالة والمساواة، ولكن الأُمّة ابتدأت ترى منذ شهادة رسول اللهصلى الله عليه وآله حلمها النبويّ يذوي إمامها، فقد بدأت في السقيفة أوّل خطوة في طريق القضاء على وجودها وتحويله إلى سلطان العشيرة، حينما قال عمر: «مَن ينازعنا سلطان محمّد

ونحن أولياؤه وعشيرته»[١]. وحتّى وإن حصل في السقيفة اعتراف ظاهري شكلي بوجود الأُمّة بسبب ما حصل فيها من تشاور في أمر تعيين الحاكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن هذا اعتراف كان بحد ذاته يتحدّى الأُمّة؛ لأنّه استبدلها بسلطان قريش، بحيث أصبحت النبوّة سلطان قبيلة قريش وأصبحت هي التي لها أن تحكم وأن تسود.

ثمّ أصبح المال مال عشيرة قريش عندما فضّل عمر بن الخطاب قريشاً على غيرها، ثمّ تعمّقت على يده فكرة أنّ السلطان سلطان قريش وليس سلطان الأُمّة، عندما ابتدأ عموم المسلمين بالتداول في قضيّة الخلافة. فقد سمع يوماً أنّ المسلمين يتكلّمون فيمن يحكم المسلمين بعده إذا أُصيب، ما يعني أنّ المسلمين يتدخلون في شأن قيادة الأُمّة، في إشارة إلى أنّ الأُمّة تحمل هم مَن هو الشخص الذي يتولّى منصب قيادتها، ما يعني أيضاً أنّ الأُمّة موجودة بعقلها وإرادتها ووعيها الديني في الميدان سوف يستتبع وجود عليّ فيه، وكلّما نما وعي الأُمّة وتأصّل وجودها أكثر واكتسبت ارادتها ووعيها بدرجة أعمق كلّما أدركت أنّ عليّاً هو الأقدر والأكفأ لقيادتها، لهذا لمّا رجع عمر من الحجّ إلى المدينة جلس على المنبر وقال: «بلغني أنّ قائلاً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة، ولكن الله وقى شرّها[٢]، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»، أو «فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه»[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٣٨، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٨، الإمامة والسياسة ١: ١٥، تحقيق الزيني وص٢٥ تحقيق الشيري.

(٢) بحار الأنوار ٢٨: ٣٣٨، تاريخ الأُمم والملوك ٢: ٢٣٥، صحيح ابن حبان ٢: ١٤٨.

(٣) الإيضاح للفضل بن شاذان الإزدي: ١٣٨، الاحتجاج للشيخ الطبرسي ٢: ١٥٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٦.

فهو يحذّر من العودة حتّى إلى البيعة التي حصلت في السقيفة والتي أعطت الأُمّة دوراً شكليّاً في تحديد شخص الحاكم، وبالتالي يحذّر من عودة المسلمين مرّة أخرى إلى التفكير في إنتخاب شخص القائد للأُمّة، فليس هذا من شأنّهم وإنّما يجب أن يعين القائد لهم من هو فوق منه شخصيّاً، فعلى الأُمّة أن تستمع منه هو يعين من أعلى هذا الحاكم، لا أنّ الأُمّة نفسها تفكّر في تعيينه كما فكرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله، فإنّ ذلك كان فلتة وقى الله المسلمين شرّها والأُمّة يجب أن لا تعود إلى مثلها مرّة أخرى.

لكن عمر لم يستطع ولم يجرؤ أن يصرّح بأنّه هو الذي يجب أن يعيّن الحاكم بعده، وقد عبّر عن ذلك بكلّ صراحة وهو على فراش الموت حينما طلب منه المتملّقون أن يوصي وألا يمهل أمّة محمّد، فأسند الأمر إلى ستّة من قريش! وقد توهم الكثيرون ـ ولعلّ هذا ما أراده ـ أنّه يريد أن يعطي درجة من المشاركة للأُمّة عن طريق إسناد الأمر إلى ستّة هم يعيّنون فيما بينهم واحداً منهم، ولكن تركيبة الشورى ونظامها الانتخابي الذي كشف سرّه عليّ بن أبي طالب فور التصريح به أظهر أنّ عمر عيّن عثمان بن عفّان القرشي الأموي بستار من الشورى.

ولم يستطع عبد الرحمان بن عوف، الذي كان قطب الرحى في هؤلاء الستّة، أن يطفئ دور الأُمّة، ولم يحل المشكلة ولو عن طريق التفاوض في اجتماع مغلق وإنّما ذهب يستشير الأُمّة ويسأل المسلمين من الذي ترشّحونه من هؤلاء الستّة؟

يقول عبد الرحمان بن عوف: «ما سألت عربيّاً إلا وقال: عليّ بن أبي طالب، وما سألت قرشيّاً إلا وقال: عثمان»، يعني أنّ جماهير المسلمين كانت تريد عليّاً، وعشيرة واحدة معيّنة هي قريش كانت تريد عثمان؛ لأنّها كانت تريد أن تنهب

الحكم من الأُمّة، وكان عثمان تكريساً لعمليّة النهب، في حين كان عليّ تعبيراً وتأكيداً لوجود الأُمّة، ولهذا إرادته، بينما أرادت قريش عثمان هنا أثبتت الأُمّة أنّها لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها.

ثمّ بعد هذا جاء عثمان وفي دوره تكشّفت المؤامرة على الأُمّة وامتدّت أكثر فأكثر، فقد أصبحت عشيرة خاصّة من قبيلة قريش هي التي تحكم، وأصبح الوالي الأموي ينطق بما لا يعبّر عن شريعة الإسلام التي كانت حتّى في عهد عثمان لا تزال هي المتجذّرة في نفوس أبناء الأُمّة، ولا يعبّر عن المشروع النبوي الموعود.

فكان هذا الوالي المتعجرف ينظر الى الأُمّة على أنّها قطيع يتحكّم فيه كيف يشاء، وإلى أرض الإسلام على أنّها مزرعة ينتفع بخيراتها من يشاء ويحرم من خيراتها من يشاء. ويقول بكل صراحة: بأنّ المال مال قريش، والخراج خراج قريش، والأرض أرض قريش، إن شئنا أعطينا الآخرين وإن شئنا حرمناهم!

وكانت الأُمّة في هذه المرحلة ما زالت تمارس إرادتها على الخليفة، فتقول لعثمان: اعزل هذا الوالي؛ لأنّه منحرف لا يطبّق كتاب الله وسُنّة نبيّه، وحدّ هذا الوالي؛ لأنّه صلّى الصبح ـ وهو سكران ـ أربع ركعات! ولكن عثمان كان يعتذر ويناور ويلتف على مطالب الأُمّة؛ لأنّه لم يكن قادراً على أن يجيبها بصراحة ويقول لها: ليس لك ارادة،ولا شأن لك بالدولة والقيادة، وهذا الوالي يمثّلني أنا، الحاكم المطلق!

فبدأت الأُمّة تحسّ بالخطر على وجودها وذهبت الأُمور بينها وبين الخليفة نحو صدام الإرادات، فعبرت تعبيراً ثوريّاً عن وجودها وعن كرامتها فقتلته، ثم اتجهت طبيعيّاً إلى الإمام عليّ؛ لكي يعبّر من جديد عن وجودها ويبعث الأمل

في المشروع النبوي ويحبط المشروع القرشي بنهب ومصادرة مكاسب الإسلام ويعيد إلى الأُمّة كلّ حقوقها وكرامتها في التشريع وفي التطبيق والإجراء، ولكي يقضي على كلّ انحراف خرج به الحكّام عن الشريعة المحمديّة وعن الصيغة الإسلاميّة للحياة.

صحيح أنّ الأُمّة استيقظت على المصيبة بعد خمسة وعشرين عاماً قضتها في تجربة ثلاثة خلفاء كانت قريش خلالها قد تحوّلت إلى قوّة ماليّة واقتصاديّة وسياسيّة شرسة وضارية تمثّلت أكثر ما تمثّلت في الدولة ضمن الدولة التي أسّسها معاوية الأموي في الشام وأصبحت عقبة كأداء في طريق إعادة إحياء المشروع النبوي العتيد. وصحيح أنّ الأُمّة فقدت تركيزها البشري والديموغرافي عندما بعثرتها سياسة الفتوحات المرتجلة في أرجاء آسيا وأفريقيا، ففقد الإمام الاتصال بها، لكن الإمام لم يفقد الأمل بها وإن أدركها في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل، فأراد أن يمدّد هذا الوجود وأن يُشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى وليست شيئاً يساوم عليه، وأنّ معاوية هو الذي كان يمثّل عمليّة التنازل هذه، والتي عبّر عنها وقتئذٍ بأنّ الإسلام أصبح هرقليّة وكسرويّة كناية عن تنازل الأُمّة عن وجودها، يعني تحوّل المشروع الإسلامي إلى ملك وسلطان يتصرّف في هذا المشروع حسب ما يحمل من قيم جاهليّة.

فالقضيّة كانت إذن لا تزال في بدايتها؛ لأنّ الأُمّة استيقظت وثارت وتجرّأت وتحدّت السلطة العشائريّة القرشيّة الحاكمة وأثبتت وجودها فقتلت الحاكم الأموي في سبيل استعادة الحلم النبوي الذي هو ضمانة الحفاظ على وجودها.

خامساً: ظهور التشيّع السياسي أو أوائل إرهاصات الكتلة الشيعيّة.

التشيّع السياسي هو الدائرة الأوسع من التشيّع الحقيقي، ومعنى التشيّع السياسي هو: الولاء والحب والتبعيّة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام أو المحسوبيّة عليهم على الأقل بدون أن يعني ذلك الايمان بالإمامة من حيث هي نصّ إلهي على عليّ وبنيه عليهم السلام الذي هو ملاك التشيّع الحقيقي.

والحديث عن نشوء وتطوّر التشيّع السياسي والكتلة الشيعيّة خلال هذه الخمسين سنة ـ وهي المرحلة الأُولى من مراحل عمل وجهاد أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ هو أوسع وأشمل من الحديث عن التشيّع الديني الحقيقي الذي كان موجوداً منذ زمان رسول الله صلى الله عليه وآله ونشأ على يديه من خلال ما نزل في القرآن الكريم في حقّ أهل البيت عليهم السلام وأنّهم أولو الأمر الّذين قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسول الله وبطاعتهم في قوله: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول...**﴾[1]، ومن خلال نصّ رسول الله على الإمام عليّ عليه السلام في يوم الدار وفي يوم الغدير.

وهذا التشيّع الحقيقي الديني ليس هو في الحقيقة إلا نفس دين الإسلام، لأنّ الإمامة جزء من الدين منذ الساعة الأُولى التي نزل فيها القرآن على رسول الله في غار حراء، فالتشيّع الحقيقي الديني أخو الإسلام، بل هو والإسلام عنوانان لحقيقة الديني هو عنصر الكمال في دين الإسلام؛ لقوله تعالى بعد تعيين عليّ عليه السلام إماماً يوم الغدير: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾.

ولكن الذي جرى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله هو حصول قصور وتقصير في التكامل مع الدين الإسلامي وفي تنفيذ الإرادة الإلهيّة في أن يكون مَن يتسلّم

---

(١) سورة النساء: الآية (٦٩).

ويقود مسيرة الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله هو نفس من اختاره الله تعالى إماماً، فتولاها آخرون بضغط وتوجيه من قبيلة قريش التي استفادة من هيمنتها وسطوتها وقوّتها فسيطرت على الخلافة، ممّا أدّى إلى تحوّل الّذين آمنوا بالإسلام الكامل وهم عليّ عليه السلام وأصحابه من شيعته وخواصه إلى أُسلوب الرفض لما جرى في السقيفة وما بعدها، ومعارضته والعمل على الدعوة إلى الإسلام الكامل المتضمن للإمامة الإلهيّة والنصّ على عليّ وبنيه عليهم السلام. وهذه الكتلة أخدت تتطوّر فتكبر وتنتشر في عديدها وأماكن وجودها وتنمو وتتأصّل في عقيدتها ومعرفتها ودينها وسلوكها. وهذه الحركة هي ما سوف يسمّى بالكتلة الشيعيّة، وهي التي أوهمت كثيراً من الباحثين أنّها أوّل نشوء التشيّع، في حين أنّها ليست سوى انتقال التشيّع من السلطة إلى المعارضة.

انتقال التشيّع من السلطة إلى المعارضة:

فقد كان التشيّع في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله قبل وفاته هو حزب الدولة؛ لأنّ زعيمه الأساس كان هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان عنوانه كما تقدّم هو الانصياع والطاعة والتعبّد مطلقاً بما يأتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وبما أنّ أهم ما امتحن به الله قلوب الناس في ذلك الزمان هو الطاعة والقبول والتسليم بولاية أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقد نجح هؤلاء في هذا الاختيار فشكّلوا الحزب القريب من النبيّ صلى الله عليه وآله، وبعبارة أخرى حزب السلطة، ومثّلوا تحت إشرافه وقيادته الإسلام المحمدي الأصيل، ولكن بمجرّد شهادة النبيّ صلى الله عليه وآله انقلب الوضع السياسي واستولت قبيلة قريش وحلفاؤها على قيادة الدولة وصدّوا الخليفة والإمام المعيّن من الله تعالى من تسنّم منصبه، فانتقل شيعته وحزبه إلى المعارضة وبدلاً من استمرار تمثيلهم للإسلام المحمدي الأصيل خسروا ذلك التمثيل بسبب خسارتهم للسلطة، وأصبح من في السلطة هو الذي يمثّل الإسلام

وتلبّدت سماء الإسلام ونشأ الوهم الكبير بأنّ الّذين في السلطة هم (الإسلام) والذين خارجها روافض، وكان ما كان من اجتماعهم في بيت عليّ بن أبي طالب وهجوم حزب السلطة على هذا البيت وإحراق بابه وضرب السيّدة الزهراء عليها السلام والتسبّب في إجهاضها جنينها وتوثيق عليّ عليه السلام وإجباره على البيعة.

إتجاه الإسلام القبلي يتوسّع وينتشر ويتحوّل إلى الإسلام الرسمي للدولة ويكتسب عناصر القوّة بعد عصر الرسالة وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله:

العنصر الأوّل من عناصر القوّة: السلطة

كان الإمساك بالسلطة مفتاح هذا التوسّع والانتشار، فقد بدأ ظهور الاتجاهين في حياة النبيّ وبعد أن جاهد النبيّ وأسّس أُمّة إسلاميّة وفاضت روحه وعينه على مرحلة الانتقال إلى ما بعد التأسيس انعكس هذان الاتجاهان على موقف المسلمين من قيادة الإمام عليّ بن أبي طالب للأُمّة عقيب وفاة الرسول مباشرة.

فقد وجد الشيعة في النصّ النبوي سبباً لقبول هذه القيادة دون توقّف أو تعديل. وأمّا اتجاه الإسلام القبلي فلم يقبل الصيغة المطروحة على تقديم مصالح قريش وظهر فوراً بعد ساعة من انتقال النبيّ إلى الملكوت الأعلى مفهوم سلطان محمّد هو للعشيرة وأغمض كبار الصحابة بدعم من عشيرة قريش عن أنّ القيادة شأن إلهي قرآني وأنّ النبيّ سمّى وعيّن القائد، وقاموا عند وفاة رسول الله بتسليم القيادة أو إمامة الأُمّة التي تمارس السلطة إلى رجل من قريش؛ لأن قبيلة قريش تريده، ورفضوا تسليمها لعليّ بن أبي طالب؛ لأنّ قريش لا تريده.. فنشأت بيد هؤلاء الصحابة قوّة السلطة التي خضع بقيّة المسلمين لها؛ لأنّ هؤلاء الصحابة كانوا أقوياء بعصبيّة قريش وحلفائها من قبائل العرب، ولأنّهم كانوا من كبار

الصحابة ومن المهاجرين الأوائل، وأمّا جمهور المسلمين من أفراد وقبائل ومن أتى بعد ذ لك والتحق فقد جاؤوا وبيد هؤلاء الصحابة سلطة أمنيّة قويّة تخوض حروب الردّة وتقود حروب الفتوحات ولم يعرفوا ما جرى، والذين عرفوا ما جرى لم تتّضح لهم خطورته خصوصاً وأنّ كلّ ما هو غير مسألة الإمامة من قضايا الإسلام بقي على حاله، فقد بقيت الصلاة كلّ يوم خمس مرّات وبقيت الزكاة وبقي الفقراء يعطون منها وبقي كتاب الله يقرأ في المساجد وبقيت الجماعات تقام في أوقاتها وبقي بيت الله يحج إليه عشرات الآلاف من الناس.

وهكذا قدر للاتجاه الثاني أن يمسك بزمام السلطة السياسيّة عندما تسلّمها أبوبكر بعد وفاة النبيّ مباشرة على أساس ما تم من تشاور محدود في مجلس السقيفة[١]، ثمّ تولى الخلافة عمر بتعيين وبنصّ محدّد من أبي بكر[٢]، وخلفهما عثمان بنصّ غير محدّد من عمر[٣].

وقد تولّى الاتجاه الثاني الذي تقوده قريش قيادة الدولة الإسلاميّة الحديثة العهد في مرحلة حسّاسة من حياتها، إذ انضمّ مئات الآلاف من الوافدين الجدد الّذين أعلنوا إسلامهم كلّ بدافعه الخاص ولمّا يتعلّموا الإسلام[٤] أو يتعرّفوا على حقيقة ﴿**قالت الأعراب آمنّا قل لم تُؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**﴾[٥].

---

(١) راجع نصوص السقيفة في تاريخ الأُمم والملوك ٢: ٢٣٤.

(٢) راجع قصّة استخلاف عمر في المصدر السابق ٢: ٢٣٤.

(٣) راجع نصوص السقيفة في المصدر السابق ٢: ٢٣٤.

(٤) راجع قصّة شورى الستّة في استخلاف عثمان في المصدر السابق ٢: ٥٨٠، وراجع الخطبة الشقشقيّة للإمام عليّ عليه السلام رقم ٣ في نهج البلاغة، ضبط الدكتور صبحي الصالح: ٤٨، وراجع شرحها لابن أبي الحديد ١: ١٥١ وما بعدها.

(٥) سورة الحجرات: الآية(١٤).

وبسبب قوّة موقع هذا الاتجاه في العائلة الإسلاميّة ـ وذلك لأنّ رموزه من المهاجرين الأوائل ولأنّه تبنّى مسلّمات المجتمع الإسلامي الجديد من صلاة وزكاة وحجّ وصوم وفي ظرف وجود الخليفة القبليّة الجاهزة في أذهان الناس ـ تسبّب هذا الاتجاه في إعادة سيطرة الروح القبليّة تدريجيّاً على النظام السياسي الحاكم، فتحوّلت مرحلة الخلفاء الثلاثة الأُوّل إلى تمهيد وجسر، جر المجتمع الإسلامي نحو التخلّي عن النظام الذي أراد رسول الله بتوجيه إلهي أن تعتمده الأُمّة بعد وفاته، فقطعت الطريق أمام استكمال المجتمع العربي للمسيرة الثوريّة التطوريّة التي أطلقها الرسول في حياته وانفتح الباب على مصراعيه أمام القوى القبليّة وعلى رأسهم الأمويّون لكي يسيطروا على مقاليد النظام الإسلامي ويلغوا نظام الخلافة من أساسه، بحيث أنّه بعد ثلاثين سنة فقط من شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله سوف تنشأ في الدولة الإسلاميّة الملكيّة الوراثيّة الكسرويّة والقيصريّة المحصورة في القبيلة والعائلة وسوف يتسلّل أبناء الطلقاء[1] من بني أميّة الّذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة نتيجة للتدرّج الذي لم يكن بمقدور الأُمّة أن تقف منه موقفاً حادّاً يصنع نهايته إذ تسلّل دون أن يشعر أحد بخطره سوى أئمّة أهل البيت ومن حولهم. وسوف يحكم هؤلاء الأُمّة ويفرضوا عليها بالتدريج منطقهم وفهمهم للإسلام بكل جوانبه النظريّة والتطبيقيّة.

وقد وقعت أحداث كبرى أنشأت موضوعاً جعل من رموز الاتجاه الثاني التي تولّت السلطة السياسية قيادات تاريخيّة للأُمّة في أصعب وأدق مرحلة

---

(١) الطلقاء: وصف يطلق على مَن أسلم زمن الفتح في مكّة، ومنهم أبو سفيان وابنه معاوية،تاريخ الأمم والملوك٢: ١٦١. علماً بأنهما كانا من المؤلّفة قلوبهم، تاريخ الأمم والملوك ٢: ١٧٥.

منحياتها السياسيّة والدينيّة والاجتماعية، وهي السنون التي توحّدت وانتصرت فيها أُمّة العرب في حروب الردّة ثمّ شنّت حرب الفتوحات وهزمت الروم والفرس وانتقلت من الفقر والجوع والحرمان وحياة البداوة إلى الرفاه والرخاء والحضارة ومن الذلّة إلى العزّة والسؤدد، وكان ذلك بقيادة الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطّاب اللذين كانا ممثّلي الاتجاه الثاني واكتسبا بذلك قداسة ومركزاً في قلوب المسلمين، فتأثّرت الأُمّة بهم وتبعتهم وقلّدتهم وأعجبت بهم وأحبّتهم واعتبرتهم بناة مجدها وتفوقها وسؤددها بينما كانوا يشرّعون لها ويسوسونها ويديرون أُمورها كما يجتهدون ويرتأون ويستحسنون، فغيّروا وبدّلوا في الصلاة والصوم والحج والأذان وأحكام المعاملات وفي السياسة والإدارة والمال وحقوق الناس بعيداً عن وصيّة النبيّ بالالتزام بالقرآن وعترة أهل البيت معاً، في حين غابت قيادة عليّ بعد أن عزلت وحوصرت وأبعدت عن ممارسة مهامها التي أوكلها الله اليها.

فتحوّل الاتجاه الثاني إلى دين رسمي للأُمّة، وبني خلال هذه المرحلة الحسّاسة من حياة الأُمّة نظاماً تشريعيّاً وإداريّاً وسياسيّاً مستفيداً من هذه الأحداث الكبرى، فتديّنت الأُمّة بدين الإسلام كما يراه هؤلاء وهي تعتقد في غياب الإمام المعصوم عليّ بن أبي طالب أنّهم على حق، وأنّ ما يقولونه ويشرّعونه هو دين الإسلام.

وبما أنّهم كانوا هم قادة الدولة الإسلاميّة فقد انطبعت الأُمّة بطابعهم وسارت على طبق ما يقولون، فنشأ في أحضان هذه الظروف دين الدولة الرسمي وهو دين عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أو الدين الذي يدين به عمر ابن الخطّاب ومنهجه وسياساته ونظرته للأُمور.

حروب الردّة!

كانت بعض فصول الردّة قد ظهرت في أواخر أيام النبيّ صلى الله عليه وآله، ولكن بعد وفاته وبعد تسلّم أبي بكر الخلافة بأيام قلائل اضطرب الوضع في شبه الجزيرة العربيّة في ما سمّي بشكل عام بالردّة عن دين الإسلام.

وقد سلك المؤرّخون مسلكاً واحداً في العرض لهذه الحروب فذهبوا إلى أنّ الجزيرة بأسرها أذعنت للإسلام ودانت للرسول في أيام حياته، حتّى إذا ما أدركته الوفاة قامت قيامة الأعراب وارتدّوا عن دين الإسلام، فيما خلا الحجاز! وتبعوا نفراً من الأنبياء الكذبة الّذين ظهروا عندئذ.

ويبدو أنّ الناس خارج المدينة سواء كانوا قبائلٍ بكاملها أو أفراداً معدودين قد انعكست عليهم وفاة النبيّ وبيعة أبي بكر إمّا ارتداداً عن دين الإسلام أو ادّعاءً للنبوّة أو رفضاً لنتائج السقيفة أو رفضاً لدفع الزكاة، إمّا بسبب عدم قبول التبعيّة لقريش أو بسبب إرادة الاحتفاظ بالزكاة لفقرائهم، ولم يكن لكلّ هذه الظواهر عنوان موحّد هو الردّة عن الإسلام، بل هو ما اختلقته السلطة الحاكمة التي لم يجد عليّ بن أبي طالب بدّاً من الانسجام مع دعواها؛ لأنّه كان هناك في الحقيقة وفي ضمن هذه الفوضى وهذا الاضطراب ردّة وظهور متنبئين.

ولذلك اختلفت كلمات الباحثين في تحليل دوافع الردّة، ولكنّها كلّها تعود إلى أصل أساس، وهو أن وسائل الاتصال بين أنحاء الجزيرة وبين مختلف عناصرها الإنسانيّة كانت يومئذ صعبة وقليلة والموجود منها كان بطيئاً محدود الأثر، فكانت وسائل نشء الدين وبث دعوته ضعيفة، ولم يكن الزمن لاكتساب الاتباع قد اتّسع بحيث لم يكن من المستطاع بالفعل أن يدخل الإسلام أبان حياة

الرسول صلى الله عليه وآله أكثر من عدد قليل من سكّان الجزيرة ربّما لا يتجاوز الثلث، مع أنّ الحجاز وهو القطر الذي ولد الإسلام فيه لم يعمّه الدين الحنيف إلا قبل موت الرسول بسنة أو سنتين.

أمّا الوفود التي قيل: إنّها قصدت النبيّ لتقديم الطاعة والإقرار بولايته، فلا يسوغ البتّ في أنّها كانت تنوب عن كلّ أنحاء الجزيرة، وإذا أسلمت القبيلة يومئذ فلم يكن في الأمر سوى أن زعماءها دخلوا في الدين. وكان جلّ ما في الأمر أن قبائل الأعراب كانت ترتبط مع دولة المدينة واليمامة بحلف مؤقت عبر تديّن سطحي متأثّر بشخصيّة النبيّ، بل كانت بعض هذه القبائل المسلمة في اليمن واليمامة وعمّان تتهاون في مسألة الزكاة وتستنكر بعثها إلى المدينة في حياة النبيّ.

فكان هناك إذن أزمة موقوتة تختفي وراء هذا الوضع الشفّاف والمضطرب، وجاء موت الرسول صلى الله عليه وآله قبل تطوّر هذه العلاقة من سطحيّة الولاء القبلي للدولة إلى الاحتواء المبني على التديّن والمعرفة حافزاً لهذه القبائل على الخروج على الدولة.

لقد كان بين عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة ـ وهو عام إقبال العرب عموماً على الإسلام ـ وبين عام الردّة في السنة الحادية عشر للهجرة مسافة زمنيّة قصيرة لم تكف لكي ترسّخ العقيدة في نفوس العرب ولكي يختمر لديها الإيمان، وإذا كان أصحاب النبيّ وهم الّذين يعيشون معه في المدينة يرون نبوّته سلطاناً لقريش فكيف بالبعيدين والذين لم يروه أصلاً؟!

كذلك لم تتقبّل قبائل العرب بسهولة الإسلام كمضمون مدني جماعي وحضري متناقض في المبدأ مع فرديّة القبائل وبداوتها المتغلّبة، فكانت الردّة تعبيراً عن صراع تاريخي بين نظامي حياة، نظام الاستقرار والتحضّر وسيادة

الدولة والقانون ونظام الارتحال والغزو والقتل والتفلّت والتغلّب. وخصوصاً بعد أن قطع الإسلام مورد العيش التقليدي للقبائل القائم على الغزو بالنسبة إلى الفئات الظاعنة أو على ضرائب المرور بالنسبة إلى الفئات النازلة على طرق القوافل والتي أُلغيت مع إلغاء «الإيلاف» وقيام الدولة الإسلاميّة في المدينة.

وفي المرحلة النبويّة من الدعوة الإسلاميّة ركدت المعارضة الأعرابيّة للنبيّ واعترفت شكليّاً بدولته واقتصرت في تعاطيها معها على الجانب السياسي من الإسلام دون الجانب الديني الذي كان يحتاج إلى تربية وثقافة وتعلّم، فبقيت العلاقة مع الدولة الإسلاميّة مرتهنة للعلاقة مع شخص النبيّ مؤسّس الدولة ومحورها وكأنّه بالنسبة إليها ليس أكثر من زعيم عشيرة.

كذلك أدّى نشوء الدولة المركزيّة والزعامة النبويّة إلى انتقال سريع في ولاء الجزء الأكبر من زعماء ورؤوس القبائل من الفرديّة والاستقلال التامّ إلى نحو من الولاء والطاعة للنبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن هؤلاء قد وصلوا بعد إلى مستوى من الوعي يخوّلهم استيعاب هذا الانتقال وهذا الانقياد للقيادة الجديدة، فبقيت هذه القبائل على حافّة المرحلتين، ممّا أحدث لديها شيئاً من ازدواجيّة الانتماء وشعر رؤوساؤها باضطراب سيادتهم على قبائلهم وأنّهم أصبحوا جباة للصدقات أو موظّفين لدى الدولة تستدعيهم عند الحاجة. وهذا ما أصاب الزعامة القبليّة بضربة شديدة، فلم تتعدّ العلاقة مع الدولة الإسلاميّة الولاء لشخصيّة النبيّ، انطلاقاً من مفهوم الارتباط المعنوي بشيخ القبيلة أو سيّدها المطاع، وعندما توفّي النبي صلى الله عليه وآله لم تقبل هذه القبائل أن يكون لأبي بكر ما للنبيّ من الطاعة والرضوخ.

وكان من دوافع حركة الردّة الثورة على الزكاة أو على مكليّة قريش إذ لم تألف القبائل هذا النمط من الالتزام المركزي بالسلطة، واعتقد الكثيرون من

هؤلاء أن قريشاً لا تلزمهم بالولاء بعد موت النبيّ، فتكون حركتهم في الحقيقة رفضاً للتعبيّة لقريش وسلطانها، كما في حركة قبيلة حنيفة.

وقد عبّر الحطيئة الشاعر عن هذا الرفض للتبعيّة فقال:

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده   فتلك لعمرو الله قاصمة الظهر
أبوا غير ضرب يجثم الهام وسطه   وطعن كأفواه المزقفة الحمر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقاده   وقوموا وإن كان القيام على الجمر[1]

فكان لسيطرة قريش على الدولة الجديدة عشيّة وفاة النبيّ، وانتقال الإرث العظيم إلى خليفته أبي بكر أحد حوافز رفض الأعراب للدولة الذي يبدو أنّه استهدف الانتماء القرشي في الخليفة قبل انتمائه الإسلامي، فقبائل الاعراب كانت قد تآلفت مع قريش في الجاهليّة بناء على مصالح متبادلة، فهي تحمي قوافل قريش والأخيرة تدفع ثمن هذه الحماية، وأمّا أن تتحوّل العلاقة مع قريش إلى هيمنة وتبعيّة الزاميّة مصحوبة بالزكاة، فهذا ما لم تقبل به تلك القبائل واعتبرت أنّ الزكاة ليست أكثر من اتاوة تفرضها قريش عليهم، وكان مبكّراً جدّاً على هذه القبائل ادراك المعاني الشرعيّة والدينيّة والأخلاقيّة للزكاة. ولا تنحصر هذه المواقف للأعراب بعصر الخلافة بل كانت قد ظهرت بوادر التململ من الزكاة في أواخر أيام النبيّ، فإنّ وفوداً من العرب كانوا يقرّون بالصلاة ويمنعون الزكاة جاؤوا إليه فلم يقبل ذلك منهم[2].

(١) ديوان الحطيئة: ٧١ ـ ٧٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ٣: ٢٢١.

كذلك كان من الأعراب من لم يرفض أصل شريعة الزكاة ووجوب دفعها بل رفض إرسالها إلى المدينة وقالوا: إنّهم سوف يعطونها لفقرائهم[(١)]، ولكن أبا بكر أصرّ على حربهم وقتلهم رغم معارضة الصحابة له، بما فيهم عمر بن الخطّاب[(٢)].

وأخيراً نجد أنّ حركة الردّة لم تكن بعيدة عن تطوّرات الأحداث داخل المدينة بعد غياب النبيّ، والتي جاءت بأبي بكر إلى الخلافة، وإن الاعتراض من قبائل أخرى إنّما كان احتجاجاً على قرار السقيفة الذي لم تشارك فيه، ولكن فرض عليها، أو على نتائج السقيفة ورفضاً لخلافة أبي بكر، كما في موقف زعيم بني حنظلة مالك بن نويرة الحنظلي التميمي[(٣)] الذي اعتبر أن دفع الزكاة لأبي بكر إقرار بخلافته، فعوقب على موقفه بالقتل مع أنّه رفض في نفس الوقت أيّة علاقة بأية حركة ارتداديّة، ولم يقبل بعض التحالف مع سجام المتنبئة ضدّ دولة أبي بكر، فهو إذن لم يكن مرتدّاً عن دين الإسلام بقدر ما كان موقفه مضطرباً بسبب اضطراب الموقف في المدينة في مسألة الخلافة[(٤)].

وعلى كلّ حال، لقد كانت الحروب التي نتجت عن هذه الردّة وسمّيت بحروب الردّة وقادها أبوبكر والزعامة القرشيّة التي دعمته في قضيّة الخلافة، من العناصر الكبرى التي ساهمت في دفع أزمة قيادة الدولة التي نشأت داخل المدينة إلى مرتبة ثانويّة، ودفعت الاتجاهات السياسيّة في المجتمع الإسلامي

---

(١) المصنّف، للصنعاني ٤: ٤٣، كنز العمّال ٦: ٥٣٨.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٥، والمصنّف للصنعاني ٤: ٤٣، و ٦: ٦٧، و ج ١٠، تاريخ مدينة دمشق ١٦: ٧٩، تاريخ الأُمم والملوك ٢: ٥٨٦، أعيان الشيعة ٦: ٢٩٢.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٣: ٢٤٣.

(٤) تاريخ خليفة بن خيّاط: ١: ٨٤ تاريخ الأُمم والملوك ١: ٢٤٣.

إلى استشعار الخطر على الدعوة، فتراجعت خطورة قضيّة الخلافة، واضطرّ الإمام عليّ إلى تجميد تناقضه مع الدولة القائمة، فاظهره إعلامها وكأنّه قد بايعها وأصبح جنديّاً في معسكرها. فلم يستطع الخطّ الشيعي في هذه الظروف الصعبة التي يمرّ بها الإسلام خوض معركة استرداد الخلافة أو حتّى الحديث فيها.

وفي ذلك يقول الإمام عليّ: «إنّ الله لمّا قبض نبيّه استأثرت علينا قريش بالأمر ودفعتنا عن حقّ نحن أحقّ به من الناس كافّة، فرأيت أنّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثوا عهد بالإسلام والدين يمخص مخص الوطب، يفسده وهن ويعكسه أقل خلف»[1].

وكان خطر المرتدّين يهدّد المدينة المنوّرة عاصمة الدولة وبيضة الإسلام ولهذا رأى الإمام عليّ عدم القيام بأيّة خطوة تفضي إلى زعزعة الوضع السياسي في المدينة، فاختار الصمت وهو يقول في ذلك في الكتاب الذي أرسله مع مالك الأشتر إلى أهل مصر:

«أمّا بعد: فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسلين، فلمّا مضى عليه السلام تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته ولا إنّهم منحوه عنّي من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان، يبايعونه فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار الجيل ١: ٣٠٨.

يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأنّ الدين وتنهئه»[١].

وقد وردت هذه المخاوف حول مصير الإسلام في رسالة للإمام الحسن يقول فيها[٢]: «فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً يثلمونه به...».

في المقابل كسب السلطة كثيراً بحروب الردّة، فقد ظهرت:

أوّلاً: للمسلمين وكأنّها رمز توحّدت الأُمّة حوله دفاعاً عن الإسلام واستطاعت.

ثانياً: صرف الأنظار عن ما ارتكبته في السقيفة، ممّا أدّى إلى تسهيل أزمة الحكم في المدينة، وتراجع التحرّك المفترض للمعارضة الشيعيّة الناشة والمرتبكة. وأنتجت حروب الردّة.

ثالثاً: تجربة عسكريّة جديدة بعد أن وحّدت العرب والمسلمين في حرب واسعة النطاق ومتجدّدة الأساليب، ممّا خلق ظروفاً عسكريّة أغرت الخلافة في المدينة بالاندفاع نحو الإمام وافتتاح حروب جديدة سوف تهزّ العالم.

الفتوحات:

ثمّ حقّقت الأُمّة تحت قيادتهم فتحاً كبيراً على الروم والفرس، فاسقطت الأمبراطوريّة الفارسيّة بالضربة القاضية وانتزعت من الأمبراطوريّة البيزنطينيّة كلّ املاكها في أفريقيا وبلاد الشام، فظهر للأُمّة وكان هذة القيادة هي التي بنت لها

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٦٢، ٣: ١٣١.

(٢) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الإصفهاني، منشورات الشريف الرضي، قم(٤١٦ هـ): ٦٥.

مجدها وسؤددها على أعدائها، واستطاع بذلك الاتجاه الثاني أن يمتدّ ويستوعب أكثريّة المسلمين، وسمّي بعدذلك بتسميات توهم أنّه هو الخط النبوي الأصيل، مثل مذهب الجمهور والعامّة وأهل السُنّة والجماعة.

في حين أقصى الاتجاه الأوّل شيعة عليّ عن الحكم وقُدّر له أن يمارس وجوده كأقليّة معارضة ضمن الاطار الإسلامي العام، ثمّ سمّيت هذه الأقليّة بتسميات أخذت توهم المسلمين على مرّ الزمان البعد والغربة عن الخط المحمدي الأصيل مثل الرافضة والعلويين!

قال عليّ بن أبي طالب: «ثمّ فتح الله عليها الفتوح، فآثرت بعد الفاقة وتموّلت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً وقالت: لولا أنّه حقّ لما كان كذا. ثمّ نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها وحسن تدبير الأُمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهة قوم وخمول آخرين، فكنّا نحن ممن خمل ذكره وخبت ناره وانقطع صوته وصيته حتّى أكل الدهر علينا وشرب...»[(١)].

- «فلمّا رقّ أمرنا طمعت رعيان البهم من قريش فينا»[(٢)].

- «يا بني عبد المطلب، إنّ قومكم عادوكم بعد وفاة النبيّ كعداتهم النبي في حياتهم وان يطع قومكم لا تؤمرّوا أبداً»[(٣)].

إنّ حركة الفتوحات التي قامت بها أُمّة العرب هي النتيجة الطبيعيّة للواقع الموضوع العالمي آنذاك، فقد كانت الحضارتان الغنيّتان البيزنطينيّة والفارسيّة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠: ٢٩٨، الدرجات الرفيعة: ٣٧.
(٢) الأمالي، المفيد: ٣٢٤، بحار الأنوار ٢٩: ٥٨٢، شرح الأخبار ٢: ٢٦١، أمالي الشيخ الطوسي:٩.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٥٤، مروج الذهب ٣: ١٢، السقيفة وفدك: ٨٨.

تجاوران أمّة العرب الفقيرة والمدقعة، وكما كانت القبيلة العربيّة إذا جاعت تبادر إلى الإغارة على جارتها وتعتبر ذلك حقّ الحياة، فقد استشعرت أمّة العرب في نفسها عوامل القوّة والبأس فها هي قد أصبحت أُمّة واحدة تحت راية الإسلام وها هي الحملات الداخليّة في حروب الردّة من بلاد العرب في الأشهر اللاحقة لوفاة النبيّ قد جعلتها أُمّة مسلّحة وهي ما هي عليه من الفقر والجوع وحياة البؤس والشقاء وأُمم الروم والفرس ما هم عليه من الغنى والرفاه، وهنا تجري الأُمور والأحداث كما يفرضها منطق التاريخ، فتتقدّم الأمم القويّة الشابة والفتيّة والتي توفّرت لها فرص الوحدة والقوّة وتنقض على الأُمم الغنيّة التي عمّرت وهرمت ونخرها السوس، وهكذا تسقط الحضارات وتنهض مكانها حضارات أخرى.

فما كادت تطفئ نار الحرب الدخليّة حتّى حاولت أُمّة العرب الاتجاه الى الخارج والتطلّع إلى حياة مرفّهة جديدة ليس فيها تنقّل وترحال وجوع وحرمان فتستفيد من وحدتها القوميّة والدينيّة بعد أن وضع الإسلام حدّاً لتطاحن القبائل ضمن دائرته وشمل العرب بنوع من الأخوّة والسلام، وتستفيد أيضاً من الروح الحربيّة العربيّة وممّا خبرته من شؤون القتال في ميدان جديد..

ولكن هذا وإن كان متناسباً مع الرغبات الطبيعيّة في النفوس البشريّة وهو ما تفعله الشعوب مع بعضها البعض من التغلّب والسيطرة والإلغاء، لكنّه لم يكن المشروع الإلهي الذي جاء به رسول الله! بل كان هذا سبباً في فتح باب خطير من أبواب انحراف المجتمع الإسلامي وانقياده بعيداً عن مشروع النبيّ، فبدلاً من أن تقوم هذه الأُمّة بالانصراف إلى التعلّم والتركيز على معرفة دينها وعقيدتها وقرآنها وسُنّة نبيّها وشريعتها وهي الجديدة في انتمائها إلى الإسلام بل أثبتت الردّة أن معظمها لم يكن قد انتمى إلى الإسلام أصلاً، قام الاتجاه الثاني الذي

تزعمته قريش ومثله الخلفاء الثلاثة الأوّل بتحفيز واستنفار أُمّة العرب التي ما زالت طريّة العود في دينها إلى الفتوحات تحت شعار كسب المغانم ورفع العوز وترك الصحراء والتشعث والترحل إلى جانب شعار الجهاد.

هذه هي نتيجة عدم عصمة القيادة وبقاء رواسب الماضي في نفسها إلى درجة أنّها ترد على رسول الله وجهاً لوجه وتبدو منها نزعة الاستقلال بالرأي في مقابل الله ورسوله والتمرّد على التعبّد بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله. وليس هذا سوى أثر للتناقض بين الإسلام وبين مفاهيم هذه القيادة وعواطفها الجاهليّة التي لم تكن تشكل خطراً على الدولة والأُمّة قبل موت رسول الله حينما كان أفراد هذه القيادة أشخاصاً عاديين في المجتمع الإسلامي؛ لأنّ رسول الله كان هو قائد المجتمع، ولكن عندما تولّى هؤلاء زمان قيادة الدولة شكّلت هذه النزعة خطراً على الدولة والمجتمع والأُمّة؛ إذ أنّ هذه القيادة سوف تحلّ قضايا الدولة وتعبّر عن مفاهيم الإسلام على وفق الموروثات والرواسب العاطفيّة والنفسيّة التي خلّفها له آباؤه وأجداده لا التي خلّفها له رسول الله.

وبدأ هذا واضحاً منذ اللحظة الأُولى في الحجّة التي أوردها أحد أركان هذه القيادة ضدّ الأنصار في السقيفة في يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن ينازعنا سلطان محمّد ونحن قومه وعشيرته»! فلم تكن نظرته إلى الخلافة نظرة إسلاميّة، بل هو يعتبر أنّ الخلافة حقّ للعشيرة! وهذه النظرة سوف تعمل عملها في سلوكه وفي تخطيطه المالي والسياسي والعسكري والإداري للدولة..

ففي التخطيط السياسي والعسكري للدولة بدأ هذا واضحاً في مشروع الفتوحات التي فتح أبو بكر وعمر بن الخطّاب الباب على مصراعيه لها بدون أخذ أهداف وغايات الإسلام بعين الاعتبار وبدون التبصّر في ما سوف يؤدي إليه فتح هذا الباب من مخاطر ونتائج خطيرة وهائلة تخرج من إمكانيّة السيطرة

عليها وضبط نتائجها واستيعاب آثارها، فقد فتحت هذه الفتوحات على الدولة الإسلاميّة الفتيّة في عمرها والضعيفة في كادرها المثقّف أبواب تحوّل كمي هائل، كما فتحت على الأُمّة الإسلاميّة بعد النبيّ أبواب تحوّل اجتماعي وسياسي كبير وضخم جدّاً.

فقد كانت الخطّة النبويّة تحقيق فكرة المجتمع العالمي، بأن يضم العرب والفرس والترك والهنود وجميع شعوب الأرض، ولكن إلى أن توفّي النبيّ صلى الله عليه وآله لم يمتد نفوذه إلى أكثر من جزء ولو كان كبيراً من الجزيرة العربيّة، فلم يتحقّق من الخطّة النبويّة سوى مجتمع عربي كان لا يحمل من العالميّة حتّى ذلك الوقت سوى الفكرة، فكان من المفروض أن يستمر العلم على تطبيق الخطّة النبويّة بعد وفاة رسول الله وأن يبنى هذا المجتمع الإسلامي العالمي، ولكن هذه المهمة كانت صعبة وعظيمة جدّاً تختلف كلّ الاختلاف عن الظروف الموضوعيّة للمرحلة الأُولى التي عاشها النبي، فإنّها تحتاج عند الذي سوف يقود الأُمّة بعد النبيّ إلى عقليّة رساليّة وإلى نزاهة عن كلّ شائبة وعن كلّ انحطاط فكري وعاطفي يمثّله الإنسان القبلي أو القومي أو العشائري الذي لا يمكن أن يقود بهذه العقليّة عمليّة بناء المجتمع العالمي النبويّ.

ولكنّ أبا بكر وعمر بن الخطّاب وضعا الدولة الإسلاميّة والأُمّة الإسلاميّة أمام إشكاليّة تاريخيّة.

فالأمّة التي خلّفها النبيّ والتي تحمّل عاطفة وحماساً فقط ولا تحمل وعياً ولا علماً ولا معرفة بدينها وبقرآنها وسُنّة نبيّها قد حزمت حقائبها وغادرت بلادها بدون أن تستدرك شيئاً من ذلك وحتّى وإن كان بعضها قد رأى رسول الله بأمّ عينه في لحظة قصيرة من تاريخ الإنسانيّة وعرف نظريّة الإسلام في المجال

السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي وسمعه يقول: «الناس سواسيّة كأسنان المشط» شعاراً للحياة وللمجتمع، ولكن هذه الدولة فتحت على نفسها بالفتوحات باب توسيع دائرة الأُمّة إذ ضمّت إليها شعوباً أخرى فارسيّة وتركيّة وكرديّة وهنديّة وأفغانيّة وأوروبيّة وغيرها، ولم تكن هذه الشعوب قد رأت رسول الله أو سمعت منه كلمة من القرآن، فإنّ هذه الشعوب التي لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعية، ولم تكن قد سمعت شيئاً من هذا، عرفت من الإسلام الواقع الذي يتجسّد خارجاً والذي عاشته كواقع وهو أنّ فاتحاً عربيّاً سلاّباً نهّاباً مسلماً سيطر على بلادها واستولى على أموالها وسبى نساءها وأطفالها وباعهم في أسواق النخاسة!

وهكذا تحوّلت النظريّة الإسلاميّة للحياة الاجتماعية إلى نظريّة أخرى وفق خط القيادة الجديدة للدولة، أبي بكر وعمر وعثمان، وتجسّدت في سلوكهم وتصرفاتهم حقيقة أخرى بعيدة كلّ البعد عن تلك التي عمل رسول الله على تجسيدها في حياته، بل طمست نظريّة هؤلاء للحكم كما طبّقوها سياسيّاً واقتصاديّاً تلك النظريّة النبويّة الصالحة فكريّاً وروحيّاً، ليس فقط لإدارة الجزيرة العربيّة بل لإدارة العالم، بينما لم يكن لنظريّتهم أصل مأخوذ من النظريّة النبويّة حتى تصلح لإدارة حالة الاتساع الذي حصل، ممّا أدّى إلى حصول سقطات فكريّة وعاطفيّة جعلتهم دون مستوى تحقيق فكرة المجتمع العالمي، كموقف عمر بن الخطّاب من نصارى العراق الّذين كانوا يعطون الجزية فقد عاتبوه وقالوا له: بأنّ في الجزية ذلاً فيجب أن لا ندفعها، لأنّنا عرب وإن كنّا نصارى. فأعفاهم عمر من دفع الجزية وأذن بأخذ المال منهم بعنوان الزكاة!! ولم تكن الزكاة بأقلّ

من الجزية لأنّ المشرك يدفع الجزية؛ والمسلم يدفع الزكاة غاية الأمر كأنّ الجزية بحسب نفسها علاقة فيها مهانة، وعمر بدّل الجزية بالزكاة.

هذا الموقف لم ينطبق إلا على عشيرة واحدة لا أكثر من عشائر النصارى في العراق وهم العرب، ولعلّها هي السبب وراء الشرور التي عاشها المسلمون نتيجة للكيانات القوميّة العربيّة والفارسيّة والتركيّة وغيرها من الكيانات القوميّة التي أُنشئت في العالم الإسلامي وزعزعت الإسلام.

فقد أوقعت هذه القيادة بالفتوحات الدولة تحت مسؤوليات تاريخيّة كانت فوق طاقتها وقدرتها على الاستيعاب، فقد تراكمت فوق الأُمّة العربيّة الخارجيّة للتو من ظلمات الجاهليّة أُمم جديدة غارقة في ظلمات الجاهلية والكفر والشرك، فمن أين يبنون لهذه الأُمم الجديدة وعياً دينيّاً إسلاميّاً وأُمّتهم العربيّة التي غزت تلك الأُمم لم تكن تملك وعياً أصلاً، وفاقد الشيء لا يعطيه؟

ومن أين يجعلون لهذه الأُمم الجديدة حتّى عاطفة وحماسة دينيّة؟! وتلك العاطفة والحماس التي كانت عند أُمّتهم إنّما كانت جهادها تحت قيادة رسول الله، أعظم قائد في تاريخ الإنسانيّة، وأمّا هذه الشعوب التي دخلت حظيرة الإسلام فلم تكن قد عاشت هذا الجهاد المستمر مع هذا القائد بل وجدت نفسها تحت قيادة رجل آخر، هو عمر بن الخطّاب، له نظرة عشائريّة وقبليّة وقوميّة إلى الناس وإلى أُمم الأرض.

ولكن الذي حصل بالفتوحات أيضاً من جهة أخرى هو اندماج أُمّة عربيّة مولودة من الجاهليّة باسم عاشت حضارات عريقة في التاريخ في ميادين التمدّن والسياسة والفلسفة والاجتماع! ما سوف يجعل الفتوحات عامل ضعف في مناعة هذه الأُمّة، وبالتالي سوف تضعف قدرتها على الحماية، وسوف تفتح بالتالي مجالات القصور والتقصير أمام عمر بن الخطّاب الذي لم يكن مهيّئاً نفسيّاً لأن

يحكم ويقود الأُمّة المحدودة في مجتمع المدينة، فكيف يكون مهيّئاً نفسيّاً وفكريّاً وثقافيّاً لأن يحكم بلاد كسرى وقيصر ويجتث أُصول الجاهليّة الفارسيّة والهنديّة والكرديّة والتركيّة اضافة إلى اجتثاث الجاهليّة العربيّة؟! وكانت كلّ واحدة من هذه الجاهليّات تحتوي على قدر كبير من الأفكار والمفاهيم العديدة والمتضاربة فيما بينها عاطفيّاً وفكريّاً، وكلّها سوف تنضم إلى بعضها في مجتمع واحد وفي حالة من عدم وجود ضمان لتجاوز هذه الجاهليّات لا على مستوى الحاكم ولا على مستوى الأُمّة!

إنّ مهمّة إنشاء مجتمع عالمي تحتاج إلى قيادة تختلف عن طبيعة هؤلاء الخلفاء. ولذا كان أمراً طبيعيّاً أن يعمل قادة أهل البيت على الدخول في صراع سياسي مع هؤلاء الخلفاء، ومع الزعامات المنحرفة التي جاءت بعدهم وهم يحملون في أيديهم مشعل تلك النظريّة الحقيقيّة للإسلام، عن الحياة وعن المجتمع والدولة والاقتصاد والسياسة وعن الآخرة.

ولكن هؤلاء الخلفاء الّذين تعدّوا على حقّ الإمام عليّ عليه السلام المنصوص عليه من قبل النبيّ، لم يكونوا يشعرون بأنّهم بعملهم هذا قد أساؤوا إلى الإسلام وأنّ عملهم سوف يؤدّي إلى هدم الكيان الإسلامي، ولعلّهم لم يكن لهم دقّة نظر وفهم لمنطق الأحداث ومنطق التاريخ ولم يكونوا يقدرون أنّه بعد خمسين سنة من وفاة رسول الله سوف يشرب خليفة المسلمين الخمر في بيته وفي قصره بسبب عملهم هذا.

لكنّهم على أيّ حال كانوا يشعرون بأنّهم غصبوا عليّاً حقّه، ولهذا أرادوا أن يبرّروا ذلك بينهم وبين أنفسهم، وظهر هذا على كلماتهم فقال عمر: بأنّ رسول الله حاول أن يولّي عليّاً لكنّي أنا منعته احتياطاً للإسلام وحرصاً على مصلحة الإسلام، لكن هذه التبريرات انتجت انحرافاً خطيراً في الثقافة الإسلاميّة، وهو أنّه

لا يلزم التقيّد بما يقوله رسول الله، ولقد تبلور هذا المبدأ في نفوسهم بالتدريج كتبرير للدفاع عن العمليّة التي قاموا بها وانفتحت بقيامه كلّ البدع والأخطاء، فلم ير عمر بن الخطّاب مانعاً من أن يقول: «متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أحرّمهما وأُعاقب عليهما» وانفتح بعد هذا باب البدع على مصراعيه.

ولم تكن الأُمّة معصومة حتّى تمارس التوجيه والمراقبة للحاكم، بل كانت غير واعية وعياً مستنيراً يجتث أُصول الجاهليّة فيها، وإنّما كانت تحمل عواطفاً وأحاسيس ووعياً عاديّاً بحيث أنّها لم تكن قادرة على حماية التجربة الإسلاميّة وعلى وضع حدّ للحاكم والوقوف في وجهه.

نعم، كان من الممكن أن تبلغ الأُمّة درجة العصمة خلال تربية طويلة لو أنّ أئمّة أهل البيت قد توالوا عليها بعد رسول الله ومارسوا عمليّة قيادة التجربة، فكان من الجائز حينئذٍ أن تبلغ الأُمّة مستوى العصمة بحيث لا تحتاج بعد هذا إلى قائد معصوم بل هي تحكم نفسها بنفسها، وهذا أمر جائز عقلاً لا عرفاً وعادة.

ومع عودة قوافل الغنائم أخذت الفئات الغنيّة تتنامى وتخلق أجواءً ملائمة لها في المجتمع مثيرة بتوسّع أملاكها وأموالها الحقد الطبقي، في حين أنّ الإسلام يدعو لتخفيف الاهتمام بالدنيا لصالح الاهتمام بالآخرة، فكان من الطبيعي أن تصبح تعاليم الإسلام مهملة وغير ذات أولويّة بالنسبة إلى عامّة المسلمين، وبالتالي فقد الإسلام كعقيدة ثوريّة اعتباره بشكل متزايد ومتسارع لصالح الرواسب الجاهليّة العربيّة وأخطرها الانقسام الطبقي وتسلّط الأغنياء وتجيير العقائد لصالح هذه السيطرة على الأقل من ناحية عمليّة حيث ظلّت مظاهر الخطاب سيصبح لها شأن أكبر كثيراً، وذلك لعدّة أسباب:

أوّلاً: لأنّ المجتهدين في هذه المرّة هم مجموع القبائل العربيّة بما في ذلك تلك القبائل التي كانت قد ارتدّت والتي عادت فأسلمت بقوّة السلاح ولم يكن قد مضى ما يكفي من الوقت لـ «يدخل الإيمان في قلوب أهلها».

ثانياً: لأنّ غنائم الفتوحات الكبرى ابتداءً من فتح العراق والشام كانت تختلف تماماً كميّاً وكيفيّاً عن تلك التي اعتادت القبائل العربيّة إبل وشياه، بل يتعلّق الأمر بخزائن دول كبرى عريقة في الحضارة، ومدخّرات مدن وغلاّت حقوق وبساتين وأموال منقولة من ذهب وفضّة فضلاً عن الماشية.

ثالثاً: لأنّ القبائل المجنّدة للفتح كانت تهاجر ومعها أبناؤها ونساؤها وصبيانها وعبيدها من مواطنها في الجزيرة العربيّة إلى جبهات القتال لتسكن بعد ذلك في البلاد المفتوحة، إمّا في مدن انشئت لهذا الغرض كالكوفة والبصرة والقيروان، وإمّا في معسكرات على ضواحي مدن كانت قائمة مثلما هو الحال بالنسبة إلى مصر والشام، ثمّ تختلط بعد ذلك بالسكّان الأصليّين منتقلة هكذا، جملة وفي مدّة قصيرة من الزمن من خشونة البداوة إلى رقّة الحضارة.

لقد كان لهذه المتغيّرات الكبرى التي يمرّ بها المجتمع العربي تأثير سلبي على الوعي الجماعي بشكل عام رسخ هذه الأوليات التنافس الشديد بعد المفاضلة في العطاء بين الناس التي بدأها عمر واستسهلها جميع الخلفاء من بعده، عدا الإمام عليّ عليه السلام الذي يمثّل نموذج المشروع السياسي الشيعي.

وكذلك فقد التشيّع فرصته الذهبيّة التي تمثّلت في بقاء أُمّة الإسلام في الجزيرة العربيّة حيث سوف تعرف ببقائها دينها وقرآنها وشريعتها وسُنّة نبيّها، وإذا عرفت ذلك عرفت إمامها وقائدها، ولكنّها انتشرت في أصقاع العالم بدون أن تعرف شيئاً عن القرآن والسُنّة وعن إمامها المفروض الطاعة بطريق أولى، وفقد الإمام عليّ القدرة على الاتصال بها وقد انتشرت من أفريقيا إلى آسيا، بل

نشأت هناك وهو بعيد عنها في المدن الجديدة أجيال جديدة لا تعرف شيئاً من أخطر قضيّة في دين الإسلام، ألا وهي ضرورة الإمامة وأنّ الإمام منصوص عليه من الله تعالى وأنّه مفروض الطاعة، وها هو يعيش بين ظهرانينا وينتظر البيعة وتسلّم قيادة الأُمّة، ولكن الأُمّة من جهلها وغربتها وهجرتها التي تمّت بإغراء الغنى والثروة بايعت أعداءه وحاربته وقتلت أبناءه الّذين هم أئمّتها!

وكان من نتائج هذه الفتوحات أنّها قضت خلال عشر سنوات على الأمبراطوريّة الفارسيّة وانتزعت من الأمبراطوريّة البيزنطينيّة أغنى ممتلكاتها في آسية وأفريقيا وعدّ ذلك من الانتصارات الكبرى لأُمّة العرب على الأُمم المجاورة، كما نتج عن تلك الانتصارات والأمجاد شعور عند العرب بالتفوّق على القوميّات الأخرى، وكان عمر بن الخطّاب هو الخليفة الذي أنجزت أمّة العرب في أيامه أخطر خطوة نوعية في شخصيّتها القوميّة، فانعكس في وجدانها ترابط وتلازم بين انتصارها على اعدائها وبين قيادته لها، فتعلّقت به واحبّته وتأثّرت بشخصيّته، وذهب هو في ذلك بعيداً فأبرز شخصيّته واعتقاده أنّه زميل محمّد في المنع من تدوين السُنّة النبويّة والتصرّف بالشريعة الإسلاميّة وإدارة الدولة بحيث تترسّخ دولة معاوية في دمشق، وابتدع سياسة مالية قائمة على التمايز القبلي والفئوي والعنصري، وتبنّى فكرة التمييز العنصري ضدّ كلّ ما هو غير عربي، ثمّ ختم حياته بسنّ قانون للشورى هدفه تمرير عبور عثمان الأموي إلى الخلافة كجزء من الثمن الذي عليه أن يدفعه لأبي سفيان مقابل عدم بيعته لعليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

تحريم رواية السُنّة:

تحوّل ما أحدثه عمر بن الخطاب إلى دين عند أُمّة العرب وتكوّن بُعدٌ مذهبي عند حزب السلطة وهو ما عرف بسُنّة الشيخين، تمثّل في طرح حلول

وآراء بعيدة عن القرآن والسُّنّة النبويّة، في مختلف مجالات الحياة في العبادات والمعاملات، فتمّ تغيير صيغة الأذان وحذف منه فصل (حي على خير العمل) وأدخل فيه فصل (الصلاة خير من النوم) وأُدخلت (آمين) إلى الصلاة والتكتّف في الصلاة وغسل القدمين في الوضوء، وحرّمت متعة الحج ومتعة النساء، وشرّع الطلاق ثلاث مرّات دفعة واحدة، وحرّمت البنت من النصف الآخر في إرث أبيها، وأعطي للعصبة، وشرّعت صلاة التراويح، وأصبحت سُنّة عمر أقوى من سُنّة رسول الله!

كلّ ذلك بسبب الانفراد بالقرآن بعيداً عن السُنّة التي منعوا تدوينها والتحديث بها، فانفتح باب الرأي والاستحسان والقياس، ممّا يتحكّم فيه المزاج الشخصي أكثر من القاعدة القرآنيّة والنبويّة.

نشوء العثمانيّة وتبنّيها لمذهب السلطة وسياساتها:

كان من آثار خروج الناكثين على الإمام عليّ وحربه والبغي عليه، وما جرى في معركة الجمل من قتال أن اصطبغ بالدم حزب السلطة المنشق واستدعى أطراف هذا الحزب ووارثوه متروكات الجاهليّة من عصبيّة وروح ثار ونودي بشعار يالثارات عثمان، ولم يكن عليّ قاتل عثمان ولم يكن مع الناكثين أحد من أولاده عثمان، وليست عائشة وليّة دمّه ولا طلحة ولا الزبير ولا حتّى مروان أو معاوية، إلا حسب مفاهيم وتقاليد الجاهليّة، فكلّ القبيلة في الجاهليّة وليّة الدم وكلّ القبيلة المعادية تعتبر قاتلة وكلّ فرد فيها مهدور الدم.

ونشأ في المجتمع الإسلامي تيّار (العثمانيّة) الذي كان مزيجاً من الّذين أرادوا الخلافة حقّاً لقبيلة قريش ومن الّذين شكلّوا الحزب المنشق على الإسلام المحمدي الأصيل وانتزعها من عليّ ومن الّذين اتّبعوهم في سيرتهم وسُننهم

التي سنّوها ثمّ من هؤلاء الّذين خرجوا بالسيف يشقّون عصا الإسلام ويخرجون على الجماعة وعلى الإمام العادل يطلبون دماً ليسوا أولياءه وسلطاناً خشوا أن يضيع عليهم، فكانت الفرقة التي سمّيت بالعثمانيّة ديناً سقته معركة الجملة وأنشأت له امتداداً عصبويّاً قوامه بغض عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

الدور الأموي في توليد مذهب أهل السُنّة من العثمانيّة:

سوف يغذّي معاوية (العثمانيّة) ويدعمها بالسوط والمال والإرهاب والترغيب ويصبح اسمها مع معاوية «جمهور العامّة» و «أهل الجماعة»، وسوف يستثمرها ويجبرها لمصلحة سلطانه ويبني على جثثها في حرب الجمل الحزب السلطوي الأعم والأوسع، والذي سوف يكتمل بنيانه السياسي على يد بني أُميّة.

ورغم أنّ معاوية كان من الطلقاء ورغم وجود شكوك وشبهات في طهارة مولده فقد تصدّى لأمر الخلافة بعد استشهاد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو لا يستحقّها حتّى بنظر من لا يرون أنّ الإمامة إنّما تجب بالنصّ والتعيين من الله ورسوله، ونودي به خليفة سنة ٤٠ هجريّة/ ٦٦١ ميلاديّة[١]، فابتدأ طور جديد من الخلافة والحكم والدولة والادارة في تاريخ أُمّة الإسلام.

فقد استولى معاوية على الحكم ولم يتمّ ذلك عبر «الانتخاب» أو «الجماعة» ولم تستند حكومته إلى رضى الأُمّة أو مشورتها، وإنّما فرضت عليها بقوّة السلاح وفي أعقاب حرب دامية، وقد اعترف معاوية نفسه بذلك: «والله ما ولّيتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»[٢].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٤، مروج الذهب ٥: ١٤.

(٢) تاريخ الخلفاء: ٧١.

وألقى في النخيلة بعد الصلح بمجرّد وصوله إلى العراق خطاباً أعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأُمّة واستهانته بحقوقها، وأنّه إنّما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتآمر عليهم، وأن جميع ما أعطاه للإمام الحسن عليه السلام من شروط فهي تحت قدميه لا يفي بشيء منها، فقال: «والله، إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك»، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»[١].

واصبحت المدينة عاصمة النبيّ الأُولى وعاصمة الخلفاء من بعده من الماضي وأخذت تنطفئ وتصبح مثل مكّة، مدينة دينيّة، حيث قبر النبيّ والصحابة، وأمّا أولادهم ممّن لم يعد له حظ في قيادة الدولة الإسلاميّة فقد عاشوا حصاراً وعزلة سياسيّة؛ إمّا لأنّ معاوية اشترى سكوت بعضهم بالمال وإمّا لأنّ سياسة معاوية ونظامه الأمني فرضا طوقاً أمنيّاً إرهابيّاً على البعض الآخر كالإمامين الحسن والحسين وعبدالله بن الزبير فاحتوى معارضتهم بالقوّة والتخويف.

لقد نجح معاوية في تأسيس الدولة الأمويّة معتمداً على مجموعة سياسات كاستقطاب الأنصار والحلفاء وإضعاف الخصوم والإيقاع فيما بينهم، وكان يستخدم من أجل ذلك مختلف الوسائل غير المشروعة ممّا أسهم في ولادة أُسلوب جديد لم يكن الإنسان العربي يألفه في العهود السابقة.

ففقدت الدولة مع معاوية الكثير من ملامحها الدينيّة السابقة، إذ قام بانقلاب تنظيمي سياسي على دولة الخلافة وحوّلها إلى مُلك[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ١٦.

(٢) تاريخ الخلفاء: ١٩٩.

ولم يقف هذا الانقلاب عند المضمون العائلي الوراثي الشخصاني للدولة بتحويل مظاهر الخلافة إلى مظاهر كسرويّة وقيصريّة، فقد كان ميّالاً بطبعه إلى انتحال الملك وهو بعدما يزال والياً على الشام حين وصفه الخليفة عمر بن الخطّاب بأنّه «كسرى العرب»(١).

ثمّ جعل الخلافة ملكاً(٢)، فكان أوّل ملك في الإسلام، فقد كرّس الانفصال ولأوّل مرّة في حياة الدولة الإسلاميّة بين المسجد والحاكم، ولم يعد للمسجد هذا الدور الفعّال في الحياة السياسية العامّة، فقد أقام حاجزاً في المسجد بينه وبين عامّة الناس وأحدث المقصورة(٣) في الجامع وجعلها مقاماً للصلاة خاصّاً به تفصله عن بقيّة المصلّين، وهو أوّل من خطب قاعداً(٤)، وأوّل من اتّخذ سرير الملك(٥).

ثمّ قامت دولة معاوية على القهر والغلبة وسفك الدماء والدولة التي تقوم على القهر والغلبة وسفك الدماء تحتاج إلى ذلك من أجل أن تستمر، وإلا فسوف تكون عرضة للانهيار السريع. ولذلك كان الحاكم الأُموي يعتقد أنّه لو تراخى في ذلك فسوف يسقط ويقوم أعداؤه بتصفية حسابهم معه بنفس الطريقة، فإذا بالدولة الأمويّة دولة عسكريّة أمنيّة منذ ولادتها التي تمّت بالقوّة مروراً بنهجها القمعي الدموي في التعامل مع خصومها وانتماء بسقوطها الذي تمّ على أيدي العباسيين وبالقوة أيضاً وبأسلوب أكثر قسوة ودمويّة من الأساليب الأمويّة نفسها.

---

(١) أنساب الأشراف: ١: ١٤٧.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدّمة: ١٦٩، وما يلي تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٥، الأخبار الطوال: ٢٢٩، تاريخ الأمم والملوك ٢: ٧٠.

(٤) تاريخ مختصر الدول: ١٨٨.

(٥) العبر وديوان المتبدأ والخبر، المقدّمة: ٢١٧، صبح الأعشى ٤: ٦.

وقد تحمّلت قبائل الشام وسوادها الأعظم يومئذٍ نصارى من العرب السوريّين وزر هذا الدور الدموي والإرهابي، وأصبحت هي المادّة الحربيّة والقوات الضاربة التي سمّيت الجيش الأموي الذي أصبح عصب الحياة السياسيّة والعسكريّة في الدولة الأمويّة وأقوى جيش منظّم عرفه العرب، وكان الأداة الفاعلة التي اعتمد عليها معاوية وكبار الخلفاء الأمويّين في السيطرة وضبط الأمن وتثبيت نظامهم وتوطيد عروشهم وتوسيع حركة الفتوحات وضرب الحركات المعارضة المعادية بمنتهى القسوة والدمويّة، كما فعل عبيد الله بن زياد في العراق ومسلم بن عقبة في المدينة والحجّاج بن يوسف في مكّة.

وكان لابدّ للحاكم الأموي أن (يلفّت) هذا الجيش المفترس الذي كان أداة طيّعة في قبضة الدولة ولعب دوراً كبيراً في الدفاع عن الحكم الأموي ويعطيه امتيازات خاصّة[١]، فتحوّلت عملياته وحروبه إلى وسيلة للنهب والسلب وإرواء رغبات القادة والجنود المتعطّشين للمال وللسيطرة. وقد ساعد ذلك من جهة أخرى على امتصاص نقمة القبائل والقادة والجنود الّذين يشتم منهم رائحة معارضة للنظام، فيتم إرسالهم في البعوث والغزوات ومن ثمّ إبعادهم عن التدخل في شؤون الحكم[٢].

ولكن كلّ ذلك ما كان يكفي معاوية في تحقيق هدفه! فقد كان يعاني من نقص حاد في ملاك سلطانه على الناس، فهو المعادي لرسول الله والمحارب له، وهو الطليق ابن الطلقاء، ولم يكن عموم المجتمع الإسلامي يقبل بهؤلاء في منصب الخلافة، كما لم يكن معاوية يملك أطروحة في الحكم والادارة والقيم الدينيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة التي ينبغي أن يتمتّع بها الحاكم المسلم كتلك التي

(١) مروج الذهب: ج٣، ص٨٦

(٢) الكامل في التاريخ٣: ١٤٩.

كانت عند عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بل كانت أطروحته الجاهليّة واضحة لعقلاء المسلمين، فأراد معاوية تأسيس خلطة سياسيّة دينيّة تعينة على تجاوز هذه العقبة الخطيرة وتجعله مقبولاً من أهل الدين والمسلمين ومنافساً لعليّ بن أبي طالب عليه السلام فلجأ إلى تبنّي مواقف شخصيّة عدّت منافسة لعليّ عليه السلام إبّان مرحلة النبوّة وبعدها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كأبي بكر وعمر بن الخطّاب وعائشة أُمّ المؤمنين وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوّام وكلّ من أيّد هؤلاء وانضمّ إليهم وحارب معهم وتحشّد لهم وتعاطف معهم خلال المرحلة النبويّة وبعدها في السقيفة وخلال سني الفتنة بين المسلمين.

ثمّ حشر معاوية نفسه مع هؤلاء واعتبرهم الأسماء والرموز المرضي عنها من قبله، فأيّد سياستهم ومواقفهم وقرّب كلّ من يتبناهم مثله، فأكرمه وأعطاه وروّج لمصلحتهم من الأحاديث الموضوعة على لسان النبيّ ما يصحّ وما قيل وما لا يصحّ ولم يقال! واعتبر كلّ من يحبّهم ويتولاهم ويسبّ عليّاً فهو من أهل الجماعة وممّن يستحق أن يرضى عنه معاوية، ويستحق على ذلك الثناء والإكرام والأمن والأمان، وكلّ من لا يقبلهم أو يحب (منافسهم) أو (عدوّهم) عليّ بن أبي طالب كما أراد معاوية فهو عدوّ لهم وعدوّ للسلطان ولأمير المسلمين وخارج عن الجماعة ومتمرّد ويستحق كلّ عقوبة وحرمان وتنكيل بل هو غير مسلم أصلاً!

فخلط معاوية بين اسمه وسلطانه وسيفه وماله وسطوته وإرهابه وبين أسماء ورموز من أصحاب رسول الله، وقدّم هذه الخلطة للناس مشفوعة بالترغيب بالمال والسلطة والترهيب بالقتل والتنكيل والابعاد، فهو مع أبي بكر في السقيفة ضدّ عليّ، وهو مع عمر بن الخطّاب في الشورى ضدّ عليّ، وهو مع عثمان في أزمته ضدّ عليّ الذي أشاع أنّه هو الذي قتل عثمان، وهو مع عائشة ضدّ عليّ،

فكلّ من يحب هؤلاء الصحابة يحبّه معاوية؛ لأنّ هؤلاء الصحابة يحبّهم معاوية ويؤيّدهم واستعمل معاوية من أجل تنفيذ هذه الخلطة الأمويّة وتمريرها على عقول المسلمين كلّ ما لديه من مال وسلطة، فمنع من ذكر أحاديث النبيّ في عليّ وأهل بيته عليهم السلام في المدارس والمحافل العامّة والمساجد، وحثّ على وضع روايات على لسان النبيّ تمدح الصحابة المنافسين لعليّ عليه السلام ومعاوية وعثمان وبني أميّة وغيرهم، ووضع أحاديث كاذبة في عليّ وأهل بيته عليهم السلام تسوّغ سبّهم والبراءة منهم، وحطّ من مقام كلّ من لا يقبل ذلك ويعارضه سواءً كان من شيعة عليّ أم من الصحابة والتابعين ممّن لم تمرّ عليه هذه الخلطة الأُمويّة، فأسقط هؤلاء اجتماعيّاً، فلا تقبل شهادة لهم ويحرمون من العطاء ليكونوا فقراء ويخمل ذكرهم، وفي المقابل تقبل شهادة المحب لعثمان وللصحابة ولعائشة ويزاد في عطائه ليشرف في المجتمع ويعلو ذكره.

كلّ ذلك وهؤلاء الصحابة كانوا قد أصبحوا في ذمّة الله فلا من يسألهم ويتحقّق منهم حقيقة انتساب الحزب الأُموي اليهم أو انتسابهم اليه! ولو بعثوا وسئلوا لأجابوا قطعاً بخلاف ما ادّعاه معاوية، ولكن حزب الجمهور التابع والمطيع لما يريد معاوية وسلاطين بني أميّة والذي يسبّ عليّاً عليه السلام ويبرأ منه بعد كلّ صلاة جمعة بصفته ملحداً في الدين! نشأ وتضخم وملأ المساجد والبلاد والأوطان، وأصبح على مرّ السنين مذهب الجمهور والجماعة والعامّة، وأصبح من يحبّ عليّاً معارضاً وغريباً وخائفاً ومطارداً.

ثمّ رتّب معاوية على خلط نفسه بأصحاب رسول الله، خلطة أمويّة نتيجة حتميّة لهذه الخلطة، وهي عرض الحاكم الأموي على الناس بصفة خليفة الله، وأنّ طاعته لأنّ حزبه هو حزب أولئك الصحابة رأس الدين ومفتاحه، وأنّ المطيع له وليّ الله والعاصي له عدوّ الله، وأنّ ولايته رأس الدين، وأنّ معصيته والخروج

عليه مهما كانت سيرته سيّئة محطبة للأعمال يموت صاحبها ميتة جاهليّة، ووضع الأحاديث النبويّة الكاذبة في ذلك، ثمّ استأجر من يفسّر القرآن بما يوافق ذلك، وتثقيف الأُمّة صغاراً وكباراً عليه. وأنّ أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم هم أزواج النبيّ وليس عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، وأنّ قرابة النبي الّذين أوجب الله تعالى مودّتهم أجراً للرسالة هم بنو أميّة وليس أهل البيت عليهم السلام، وأنّ حجج الله تعالى الّذين نصّ عليهم رسول الله كعليّ وبنيه عليهم السلام بأمر الله تعالى هم أعداء الله ولرسول وأنّهم أئمّة ضلال وذلك من خلال سبّ أوّل هؤلاء الحجج وهو عليّ عليه السلام في خطب الجمعة على منابر المسلمين والنهي عن ذكر فضائله ورواية أحاديث وضعت على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله تطعن فيه.

وقام النظام الأموي على مبدأ سياسي كان مادّة السياسة الداخليّة للدولة هو حكم العائلة، فأصبحت الأُسرة الأمويّة صاحبة النفوذ الأكبر مطلقاً ماليّاً وسياسيّاً وإداريّاً واجتماعيّاً بل ودينيّاً، فكان أحد أُمراء بني أميّة على رغم من فسقه وفجوره يتولّى كلّ عام إمارة الحجّ!

كذلك كان لقبائل الشام امتيازات أخرى، وإن كانت أقلّ مرتبة، لكن معاوية كان حريصاً على المحافظة على قاعدة التوازن معها واستيعاب تناقضاتها المتوارثة، فنجده يتحالف مع القبائل اليمنيّة ويصاهر أقوى قبائلهم، كلب، ويعيّن في نفس الوقت الضحّاك بن قيس الفهري، وهو من قريش الظواهر، وهي من القبائل القيسيّة، في منصب مهم وخطير وهو ولاية دمشق[١]، كذلك نجده يتجنّب إلى حدّ بعيد الاستعانة بأهل الحجاز في مشروعه العسكري، فكانت قبائل الشام تعمل كلّها في خدمة العائلة الأُمويّة، بل وتتسابق في السعي إلى احتلال الوظائف في خدمة الأمويّين.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣: ٣٥.

ومشى معاوية على خطى سلفه عثمان، فلم يكن لسياسته فيما يختصّ بالمال أية علاقة بالسُنّة النبويّة ولا حتّى بسُنّة عمر، وإنّما كان تصرّفه في جباية الأموال وإنفاقها خاضعاً لرغباته وأهوائه، فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيّدة له ويحرم العطاء للمعارضين ويستولي على الأموال ويفرض الضرائب بغير وجه حقّ من كتاب أو سُنّة أو عرف.

وفوق ذلك قام معاوية بإشاعة الحرمان في الأقطار التي كانت تضمّ القوى المعارضة له. فقد أجبر أهل يثرب على بيع أملاكهم واشتراها بأبخس الأثمان، وعندما أرسل القيّم على أملاكه لتحصيل وارداتها منعوه عنها وقابلها حاكمهم عثمان بن محمّد وقالوا له: «إنّ هذه الأموال كلّها لنا، وإنّ معاوية آثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا درهماً فما فوقه حتّى مضّنا الزمان ونالتنا المجاعة»، فاشتراها بجزء من مائة من ثمنها.

فردّ عليهم حاكم المدينة بأقسى القول وأمرّه.

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له تحقيراً وتوهيناً به فانصرف عنه، فوجّه له معاوية بست مائة درهم فردّها جابر وقال لرسول معاوية: «قل له، والله يابن آكلة الأكباد لا تجد في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً».

وانتشر الفقر في بيوت الأنصار وخيّم عليهم البؤس حتّى لم يتمكّن الرجل منهم من شراء راحلة يستعين بها على شؤونه، ولمّا حجّ معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس ومنهم الأنصار، وكان أكثرهم مشاة فقال لهم: «ما منعكم من تلقيّ كما يتلقاني الناس»؟!

فقال له سعيد بن عبادة: «منعنا من ذلك قلّة الظهر وخفّة ذات اليد وإلحاح الزمان علينا وإيثارك بمعروفك غيرنا»!

فقال معاوية: «أين أنتم عن نواضح المدينة»؟.

فأجابه سعيد قائلاً: «نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان».

وأمّا في العراق ـ وهو المركز الرئيس للشيعة ـ فكان ولاته كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب يحبسون العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة وعن كلّ من له هوى في أهل البيت، وقد سنّ معاوية بذلك سُنّة سار عليها الحكّام الأمويّون من بعده في اضطهاد العراق وحرمان أهله[(١)]، وحتّى عمر بن عبد العزيز، الذي يعتبرونه أعدلهم، فإنّه لم يساو بين العراقيين والشاميين في العطاء، بل زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير ولم يزد في عطاء أهل العراق[(٢)].

وبينما كانت البلاد الإسلاميّة تعاني الجهد والحرمان كانت الشام في رخاء شامل، بل حمل معاوية أهلها على رقاب الناس، فكان الشامي هو الأُولى دائماً وهو المخدوم وهو السيّد وله الامتيازات الماليّة السياسيّة والاجتماعية، وقد ألمح إلى ذلك مالك بن هبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير السكوني إذ قال له: «هلمّ فلنبايع لهذا الغلام (أي خالد بن يزيد) الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن اختنا، فقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنّه كان يحملنا على رقاب العرب»[(٣)].

واستخدم معاوية الخزينة المركزيّة لتدعيم ملكه وسلطانه، وشراء ذمم الناس ودينهم[(٤)]، ومنح الأموال الهائلة لأُسرته ووهبهم الثراء العريض وإغداق الأموال على المؤيّدين له والمنحرفين عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فوهب خراج مصر

(١) العقد الفريد ٤: ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق ٤: ٢٥٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٤: ٤١٣.

(٤) وقعة صفّين: ٤٩٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٩٣.

لابن العاص، وجعله طعمة له ما دام حيّاً. ومن ذلك أنّه قدم عليه يزيد بن منبه من البصرة يشكو له ديناً قد لزمه، فقال معاوية لخازن بيت المال: «أعطه ثلاثين ألفاً»، ولمّا ولى قال: «وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى»(١).

ووفد عليه جماعة من أشراف العرب، فأعطى كلّ واحد منهم مائة ألف، وأعطى الحتّات عمّ الفرزدق سبعين ألفاً، فلمّا علم الحتّات بذلك رجع مغضباً إلى معاوية فقال له: «فضحتني في بني تميم، أمّا حسبي فصحيح أو لست ذا سنّ؟ ألست مطاعاً في عشيرتي»؟

فقال: «فما بالك خست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممّن كان لك»!

فقال معاوية بلا حياء ولا خجل: «إنّي اشتريت من القوم دينهم ووكّلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان».

فقال الحتّات: «وأنا اشترى منّي ديني»!.

فأمر له بإتمام الجائزة(٢).

واضطر معاوية بعد اسرافه وتبذيره إلى مصادرة الأموال ليسدّ العجز المالي الذي منيت به خزينة الدولة، ففرض على المسلمين ضريبة النيروز ليسدّ بها نفقاته وأصبحت الولاية في عهده مصدراً من مصادر النهب والسرقة وللثراء وجمع الأموال. أمّا جبايّة الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة وأهوائهم، وقد سأل صاحب «إخنا» عمر بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية! فنهره ابن

---

(١) العقد الفريد ١: ١٤١.

(٢) تاريخ الامم والملوك ٥: ٢٤٢.

العاص وقال له: «لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنّما أنتم خزانة لنا! إن كثّر علينا كثّرنا عليكم، وإن خفّف عنّا خففنا عنكم»(١).

وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه أن يصطفي له الذهب والفضّة، فقام زياد مع عماله بإجبار الناس على مصادرة ما عندهم من ذلك وإرساله إلى دمشق.

وعمل معاوية على تمزيق أواصر الأُمّة الإسلاميّة بإثارة الرح القوميّة والقبليّة والإقليميّة إمعاناً في إلهاء الأُمّة في تناقضات جانبيّة على حساب تناقضها الأساسي مع الحكم الأُموي الجائر، وذلك في ممارسة إثارة الضغائن بين القبائل العربيّة وإشغالها بالصراعات الجانبيّة فيما بينها، كالصراع الذي نشب بين قيس ومضر، وأهل اليمن والمدينة، وبين قبائل العراق فيما بينها وإثارة العنصريّة عند العرب ضدّ المسلمين من غير العرب الّذين يعرفون تاريخيّاً باسم الموالي، الّذين أراد أن يقتل شطراً منهم لو لم ينهه الأحنف بن قيس(٢).

كما عمد معاوية إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج محاولاً بذلك التقليل من أهمّيتهم وإسقاط مكانتهم. وبمقدور المرء أن يجد آثار تلك السياسة الجاهليّة جليّاً في أشعار مسكين الدارمي والفرزدق وجرير والأخطل وسواهم.

وكانت الكوفة عاصمة الشيعة الرئيسة في العراق، فقد انطلقت منها الشرارة الأُولى في الاعتراض على سياسة ولاة عثمان ثمّ وقفت إلى جانب عليّ عليه السلام في معركة الجمل حيث حسمت المعركة لصالحه وتحوّلت في حياته إلى مركز لأنصاره وشيعته وجمهور محبّيه ومواليه، فتحقّق فيها ما بذل معاوية من أجل منع

---

(١) معجم البلدان: الحموي ١: ١٢٤.

(٢) المشهور بالحلم التميمي، سيّد تميم، العقد الفريد ٢: ٢٦٠.

تحقّقه في الشام الغالي والرخيص، ألا وهو انتشار أحاديث السُنّة النبويّة الصحيحة، في حقّ عليّ عليه السلام وفي كلّ مجالات الحياة، وانتشار سيرة عليّ عليه السلام المشرقة في الإدارة والقيادة والسيرة الشخصيّة.. وقد أخبر الإمام عليّ عليه السلام خواص أصحابه في الكوفة بأخبار سنين سوداء مظلمة سوف تمرّ عليهم(١).

وعندما سيطر معاوية على الكوفة بذل جهده لتغيير وجهة الولاء الفكري والسياسي في الكوفة الذي كان لصالح عليّ وبنيه عليهم السلام وتحويلها إلى مدينة مواليه لبني أُميّة، وكان في الكوفة قوّتان تؤثران في الحياة السياسة لأهلها، إذا أخضعهما فسوف يكون لهما الدور الكبير في تحقيق خطّته والمؤسّسة الأُولى هي الجهاز الأمني والجيش والشرطة، ومجموع أفرادها لا يقل عن ستّين ألف وكان المقاتلة الفعليّون كلّ سنة عشرة آلاف، والفئة الثانية هي خواص الكوفة وهم الوجوه البارزة في المجتمع، وكان كثير من هاتين القوّتين ممّن تأثّر بعليّ عليه السلام بنحو من الأنحاء وشارك معه في حروبه، وكان بعض الخاصّة من رموز العلم والتقوى أمثال: حجر بن عدي الكندي وعمر بن الحمق الخزاعي، وغيرهما من الصحابة والتابعين.

وحتّى يحوّل معاوية ولاء خواص أهل الكوفة والجهاز الأمني والجيش والشرطة في الكوفة وينظّفهما من كلّ موال لعليّ عليه السلام ويستبدله بمطيع للسلطة الأمويّة، فقد لجأ إلى أُسلوب توريطهم في الحرب وسفك الدماء من جهة وأُسلوب كشف عواطفهم الحقيقيّة للأفراد الأمنيين من جهة أخرى.

أمّا الأُسلوب الأوّل فقد اعتمد معاوية استراتيجيّة شنّ الحرب على الخوارج وملاحقتهم فإنّ هذه الحروب سوف تكشف موالي عليّ عليه السلام إذ سوف يمتنعون من مقاتلة الخوارج لوصيّته المشهورة: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فإنّه ليس من

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.

طلب الحقّ فاخطأه كمن عرف الباطل وأصابه»، و«إن خرجوا على إمام عادل فقاتلوهم، وإن خرجوا على إمام جائر فلا تقاتلوهم فإنّ لهم بذلك مقالاً»[(١)].

ومن يرضى مقاتلة الخوارج فسوف يكون قد تورّط في طاعة بني أميّة وقاتل أعداءهم، وهذا يكفي في تكرّسه فيما بعد جنديّاً عندهم.

وأمّا أُسلوب كشف العواطف والمشاعر الحقيقيّة للأفراد، فقد عمد إلى تطبيق صارم لسياسة الدولة الأُمويّة في سبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه، ثمّ اعتمد سياسة اسقاط اسم كلّ متّهم بحب عليّ عليه السلام من ديون العطاء، فكلّ مخلص لعليّ عليه السلام يرفض سبّه يسقط اسمه من ديوان العطاء ويتمّ طرده من الشرطة وجهاز الأمن، فلم تمض سنوات قليلة إلا وكان هذا الأُسلوب قد أدّى إلى تصفية الجيش والأمن والشرطة من الشيعة بل من كلّ متّهم بحبّ عليّ.

وكان زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية، أقوى رجل أمني إرهابي حكم الكوفة، فقد كان لاعتباره ابناً لأبي سفيان، شيخ قريش من قبل معاوية مع أنّه ابن سميّة الزانية، ثمناً غالياً جدّاً وهو تصفية الوجود الشيعي في الكوفة، وهو الخبير بهم وبأسمائهم ورموزهم، وهو أقوى من تصدّى لبناء الجسم الأمني في الكوفة وقد توسّل إلى ذلك بمجموعة إجراءات، هي:

الأوّل: التجنيد الإجباري، فأعلن بمجرّد وصله إلى الكوفة لمّا استعمله معاوية والياً عليها خلفاً للمغيرة بن شعبة[(٢)]، فقال: «وأيّ رجل مكتبة بعيد فأجله سنتان ثمّ هو أمير نفسه، وأيّ رجل مكتبة قريب فأجله سنة ثمّ هو أمير نفسه»[(٣)].

---

(١) المصنّف لابن أبي شيبة: ٨: ٧٣٨.

(٢) هلك سنة ٥٠ هجريّة وقيل: سنة ٥١ هجريّة.

(٣) أنساب الأشراف ١: ١٩٨، القسم الرابع.

وكان نظام التجنيد الإسلامي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله اختياريّاً وكذلك في عهد أبي بكر وشطراً من عهد عمر ثمّ صيّره عمر الزاميّاً عندما أصدر أمره بذلك وقال: «ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه، فإنّ جاء طائعاً، وإلا حشرتموه»[(١)].

الثاني: محاولة تطويق القبائل المعروفة بتشيّعها وعزلها عن بعضها البعض وتوسّل إلى ذلك بتغيير النظام الإداري في الكوفة، فضمّ إلى كلّ قبيلة فيها تشيّع لعليّ عليه السلام قبيلة معاوية له، فجعل تعبئة قبيلة همدان مع قبيلة تميم، وعليهم خالد ابن عرفطة، وربيعة وكندة وعليهم قيس بن خالد، ومذحج وأسد وعليهم أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، وأهل المدينة وعليهم عمرو بن حريث المخزومي.

الثالث: تهجير خمسين ألف شيعي عراقي مع عوائلهم إلى خراسان، منهم خمس وعشرين ألف نسمة من أهل الكوفة، والباقون من البصرة[(٢)]. وكان فيهم صاحب رسول الله بريدة بن الحصيب الأسلمي، الذي توفّي في مرو أيام يزيد بن معاوية، وكان فيهم أيضاً أبو برزة الأسلمي، وأسكنهم دون النهر[(٣)].

الرابع: تجنيد غير العرب من الموالي في أجهزة الأمن والشرطة وكانوا في الكوفة عدّة آلاف، وقد فعلوا الأفاعيل بالشيعة قبل سنة ٥١ وبعدها، وبلغ عديد الجهاز الأمني والشرطة في عهد زياد في البصرة وحدها أربعة آلاف[(٤)] حكم بهم البصرة والكوفة حكماً دمويّاً ارهابيّاً فنكّل بهم بالشيعة[(٥)]، وكانوا قوّة حمايته

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣: ٤٧٨.

(٢) ادارة العراق في صدر الإسلام: ١٤٣ و٢٣٩، تاريخ الأمم والملوك ٤: ١٧٠.

(٣) فتوح البلدان: ٥٠٧.

(٤) تاريخ الامم والملوك ٥: ٢٢٢.

(٥) الطبقات الكبرى ٦: ٢١٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٤٦٤، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٢٨١.

وحرسه الشخصي، وأكّد بهم الملك لمعاوية وألزم الناس بهم الطاعة وتقدّم بهم في العقوبة وجرّد بهم السيف وأخذ بالظنّة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً.

وكان حجر بن عدي قد وفد على النبيّ صلى الله عليه وآله هو وأخوه هاني[1] وشهد معركة القادسيّة ومع مالك الأشتر موت أبي ذر بالربذة وحرب الجمل وصفّين والنهروان إلى جانب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وكان إذا سبّ المغيرة بن شعبة عليّاً عليه السلام على المنبر قام حجر وقال: «بل إيّاكم فذمم الله ولعن»، ثمّ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّه**﴾، وأنا أشهد أنّ من تذمّون وتعيّرون لأحقّ بالفضل وأنّ من تزكّون وتطرون أولى بالذم»[2].

وكان المغيرة يتجنّب استخدام العنف ضدّه، فلم يتورّط بأيّ ردّ فعل قاس إزاء حجر وأصحابه.

وبعد أن مات المغيرة وضمّ معاوية الكوفة إلى زياد بعدما أثبت كفاءة خاصّة في ادارة البصرة كان أوّل أهدافه مواجهة حجر وأصحابه.

ولم يعطه حجر ولا أصحابه طوال هذه المدّة ذريعة لتحقيق أهدافه، من قبيل خلع الحاكم وحمل السيف ضدّه، واكتفوا بالتعبير عن رأيهم، فقد كانت أوامر الإمام الحسين عليه السلام واضحة في الصبر وتحمّل الأذى ومواصلة نشر فضائل عليّ عليه السلام ولو كانوا على أعواد المشانق وأن يفوّتوا على معاوية خطّته في استدراج الشيعة ليكونوا خوارج على السلطة، ومن ثمّ يسفك دماءهم متذرّعاً بالخروج على الجماعة.

---

(١) وشهد حجر حجّة الوداع كما يظهر من رواية الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٧٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٤ : ٨٨.

فلم يبق أمام زياد إلا أن يلفّق لحجر وأصحابه تهمة نكث بيعة معاوية والخروج عليه بشهادات الزور!

فكتب إليه معاوية: أن شدّه في الحديد ثمّ أحمله إليّ، فلمّا جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه فرفض وقال: لا! ولكن سمعاً وطاعة!

فشُدّ في الحديد ثمّ حُمل إلى معاوية[١]، حتّى قُتل صبراً بمرج عذراء[٢] بأمر معاوية. وكان له ابنان، هما عبدالله وعبدالرحمن، انضمّا إلى جيش المختار فقتلهما مصعب بن الزبير صبراً[٣]، وكانا يتشيّعان[٤].

وبعد قتل حجر وأصحابه بقي زياد ما يقرب من ثلاث سنوات جدّ فيها بوحشيّة منقطعة النظير في تصفية الوجوه البارزة من شيعة عليّ عليه السلام التي كانت تنكر السبّ وتنشر فضائل عليّ عليه السلام.

وكان أشدّ الناس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة، فقتلهم على التهم والظنّ والشبهة تحت كلّ كوكب، وتحت كلّ حجر ومدر وأجلاهم وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل منهم وصلبهم على جذوع النخل وسمل أعينهم وطردهم وشرّدهم[٥]. فبدأ بالذين حصبوه في صلاة الجمعة يوم كان حجر على رأسهم، وقطع أيدي ثلاثين منهم، وقيل: ثمانين[٦].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٥: ٢٥٧، أحداث سنة ٥١.

(٢) مرج راهط بمقربة من دمشق بينهما اثنا عشر ميلاً..

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ٥٣٤.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٣: ٥٣٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٥: ٤٣.

(٦) الكامل في التاريخ ٣: ٤٣٢، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٢٣٥.

ثمّ نفى صعصعة بن صوحان إلى الجزيرة أو إلى البحرين أو الى جزيرة بني كاوان، فمات فيها. ثمّ صلب رشيد الهجري على باب دار عمرو بن حريث وقطع لسانه[(١)]، وقطع يد جويريّة بن مسهر ورجله وصلبه[(٢)].

وكان آخر ما فعله زياد في الكوفة سنة ثلاث وخمسين هو أنّه جمع الناس فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ليعرضهم على البراءة من عليّ عليه السلام فمن أبى ذلك عرضه على السيف[(٣)]. وسيّر آمنة بنت الشريد زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي إلى معاوية فسجنها ولمّا ألقى القبض على عمرو بن الحمق في الموصل بعد اختفاء طويل. وقُتل أرسل زياد رأسه إلى معاوية وهو أوّل رأس يحمل في الإسلام فبعث به معاوية إلى آمنة، فقالت: لقد غيّبتموه طويلاً وأهديتموه قتيلاً فمرحباً به من هديّة غير مقليّة! ونفاها معاوية إلى حمص فماتت هناك[(٤)].

وهكذا! عادت الكوفة بعد أن كُبت الحقّ وأهله فيها، وبعد تهجير الآلاف وتصفية البارزين من شيعة عليّ عليه السلام أمثال حجر وأصحابه، بقوّة السيف كما كانت على عهد عمر، منطقة سامعة مطيعة للخليفة تعمل بأمره وترى رؤيته وعادت بستاناً لقريش، كما كانت على عهد عثمان.

وعمد معاوية فأوعز إلى بعض الوضّاعين من الصحابة أن يفتعلوا الأحاديث على لسان الرسول في إلزام الأُمّة بالخضوع للظلم والخنوع للجور والتسليم لما يقترفه سلطانها من الجور والاستبداد. وهذه بعض الأحاديث:

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٢٧٨، القسم الرابع.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢: ٢٩٠.

(٣) مروج الذهب: ج٣، ص٢٦.

(٤) أنساب الأشراف: ١: ٢٧٣ (القسم الرابع).

١ ـ روى البخاري بسنده عن رسول الله أنّه قال لأصحابه: «إنّكم سترون بعدي إثرة، وأموراً تنكرونها».

قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟

قال: «أدّوا اليهم حقّهم، واسألوا الله حقّكم..».

٢ ـ روى البخاري بسنده عن رسول الله أنّه قال: «مَن رأى من أميره شيئاً يكره فليصبر عليه، فإنّه من فارق الجماعة فمات مات ميتة جاهليّة».

٣ ـ روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله: «يكون بعدي أئمّة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسُنّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس».

قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟

قال: «تسمع وتطيع للأمير، وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع»[(١)].

٤ ـ في رواية الطيالسي وأحمد بن حنبل أنه قال: «فإن رأيت يومئذٍ لله عزّ وجلّ في الأرض خليفة فالزمه وان ضرب ظهرك وأخذ مالك»[(٢)].

وقد استخدم الكتاتيب لتغذية الأطفال ببغضهم، ثمّ استخدم لذلك الوعاظ الّذين سخّرهم واستأجرهم لكي يحوّلوا القلوب عن أهل البيت عليهم السلام ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم تدعيماً للحكم الأموي، فقام هؤلاء بافتعال الأخبار ووضع الأحاديث على لسان النبيّ للحط من قيمة أهل البيت عليهم السلام. وأبرز هؤلاء: أبو هريرة الدوسي وسمرة بن جندب وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقد افتعلوا آلاف الأحاديث على لسان النبيّ، وكانت عدّة طوائف مختلفة حسب التخطيط السياسي للدولة، وهي:

(١) مختصر صحيح البخاري ٣: ١٣١٩، صحيح مسلم ٣: ١٤٧٦.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي: ٥٩، مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤٠٣.

الطائفة الأُولى: وضع الأخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت، وقد عدّ الإمام الباقر عليه السلام أكثر من مائة حديث، منها: أنّ عمر كان محدّثاً أي تحدّثه الملائكة[(١)]، وأن السكينة تنطق على لسان عمر[(٢)]، وأن عمر يلقّنه الملك، أنّ الملائكة لتستحيي من عثمان! ولو لم أبعث لبعث عمر[(٣)]، وأنّ سيّدي كهول أهل الجنّة أبوبكر وعمر! وقد عارضوا بذلك الحديث المتواتر: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة».

الطائفة الثانية: وضع الأخبار في ذمّ العترة الطاهرة والحطّ من شأنها، فقد أعطى معاوية سمرة بن جندب أربع مائة ألف على أن يخطب في أهل الشام ويروي لهم أنّ هذه الآية الكريمة: ﴿**وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[(٤)] قد نزلت في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فروى لهم سمرة ذلك وأخذ العوض الضخم من بيت مال المسلمين[(٥)].

وروى الأعمش أنّه لمّا قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة في سنة ٤١ هجريّة، جاء إلى مسجد الكوفة فلمّا رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثمّ ضرب صلعته مراراً وقال: «يا أهل العراق أتزعمون أنّي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣: ٥٣، تفسير القرطبي ٩: ١٩٣.

(٢) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ١: ١٠٦، وراجع مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ٦٧، تجد عجباً.

(٣) فضائل الصحابة لابن حنبل ٦: ٣٥٦ وص٤٢٨ و١: ٢٦٣.

(٤) سورة البقرة: الآيتان (٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

أكذب على رسول الله وأحرق نفسي بالنار؟ لقد سمعت رسول الله يقول: «إنّ لكلّ نبي حرماً وإنّ حرمي ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيهما حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة أجمعين»، وأشهد بالله أنّ عليّاً أحدث فيها! فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة»[(١)].

الطائفة الثالثة: افتعال الأخبار في فضل معاوية، فقد روى هؤلاء أنّ رسول الله قال: «معاوية بن أبي سفيان أحلم أمّتي وأجودها»[(٢)].

ـ و«صاحب سري معاوية بن أبي سفيان»[(٣)].

ـ و«اللّهم علّمه ـ يعني معاوية ـ الكتاب وقه العذاب وأدخله الجنّة»[(٤)].

وتمادى معاوية في التطاول على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأعلن سبّه في نواديّه العامّة والخاصّة وأوعز إلى جميع عمّاله وولاته أن يذيعوا سبّه بين الناس، وسرى سبّ الإمام في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم: «أيّها الناس إنّ رسول الله قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدّسة، يعني الشام، فإنّ فيها الأبدال وقد اخترتكم، فالعنوا أبا تراب»[(٥)]، فعجّ أهل الشام بسبّ الإمام.

وخطب معاوية فيهم فقال لهم: «ما ظنّكم برجل (يعني عليّاً) لا يصلح لأخيه (يعني عقيلاً). يا أهل الشام! إنّ أبا لهب المذموم في القرآن هو عمّ عليّ بن أبي طالب، فارتاع أهل الشام لذلك وشتموا عليّاً ولعنوه»[(٦)].

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٤: ٢٥٩.

(٢) تطهير الجنان: ١٢.

(٣) المصدر السابق: ١٣.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٢٧، الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦: ٢٤٠٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ٣٦١.

(٦) المصدر السابق ٢: ١٧٧.

ويقول المؤرّخون: إنّه كان إذا خطب ختم خطابه بقوله: «اللّهم، إنّ أبا تراب الحد في دينك وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً وعذّبه عذاباً أليماً»[١].

عن الزهري قال: «قال ابن عباس لمعاوية: ألا تكفّ عن شتمّ هذا الرجل؟

قال: ما كنت لأفعل حتّى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً»[٢].

فلمّا ولّي عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه فقال الناس: ترك السُنّة[٣]!

وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر. ولمّا وليّ معاوية المغيرة بن شعبة إمارة الكوفة، كان أهم ما عهد إليه أن لا يتسامح في شتمّ الإمام عليه السلام والترحم على عثمان، والعيب لأصحاب عليّ عليه السلام واقصائهم، وأقام المغيرة والياً على الكوفة سبع سنين وهو لا يدع ذمّ عليّ عليه السلام والوقوع فيه.

واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسميّاً في جميع أنحاء البلاد، وقوبلوا بمزيد من العنف والشدّة، فقد انتقم منهم معاوية كأشدّ ما يكون الانتقام قسوة وعذاباً.

فوجئ العرب والمسلمون بالسياسة الجديدة للدولة الإسلاميّة، وهي سياسة البطش والإرهاب والقتل على الظنّة والشكّ، فقد كان عدم وجود سلطة مركزيّة أحد عدم موانع انتشار الرسالة الإسلاميّة. ولكن بعد ان انتشرت هذه الرسالة وتأسّست دولتها المركزيّة وأصبح لديها جيش قويّ في الشام استعمل معاوية هذه الدولة المركزيّة وهذا الجيش القوي في التنكيل والقتل وزرع الرعب في

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٥٦.

(٢) المصدر السابق ٤: ٥٧.

(٣) شرح أُصول الكافي ١١: ٢٩٣، بحار الأنوار ٣٣: ٢١٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٢٢٢، العثمانيّة الجاحظ: ٢٨٥.

قلوب الناس، فكانت هذه المرحلة مرحلة انقلاب أساسي في حياة الناس وحرّيتهم، فقد كانوا في زمن الخلفاء أحراراً يستطيعون المعارضة وإسقاط الخليفة بل قتله، أمّا الآن فلم يكن أمام الناس إلا الخضوع مذهولين للدولة الإرهابيّة الجديدة.

فممّا أوصى به معاوية أحد قادة جيوشه: «... فاقتل من لقيته ممّن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأخرب الأموال، فإنّ خراب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب»(١).

وقد قتل بسر بن أبي أرطاة ثلاثين ألفاً عدا مَن أحرقهم بالنار، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة.

وأسرف معاوية إلى حد كبير في سفك دماء الشيعة فقد عهد إلى الجلاّدين من قادة جيشه بتتبّع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا، وكتب إلى ولاته في جميع الأمصار: «انظروا مَن قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه»(٢).

وكتب كتاباً آخر جاء فيه: «مَن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به وأهدموا داره»(٣).

فارتكب زياد بن أبيه أفظع المجازر، فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وأنزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لمرارته وقسوته.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٨٦.

(٢) المصدر السابق ١١: ٤٥.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١، ص٤٥.

وقد صوّر الإمام محمّد الباقر عليه السلام تلك المأساة الدامية بأقصر عبارة وأدقّها، حين قال: «فقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام»[1].

وعمد معاوية نفسه إلى إبادة رموز الشيعة، كحجر بن عدي ورشيد الهجري وعمرو بن الحمق الخزاعي وأوفى بن حصن وعبد الله الحضرمي وجويريّة العبدي وصيفي بن فسيل.

كذلك أوعز معاوية إلى جميع عمّاله بهدم دور الشيعة فقاموا بنقضها وتركوا شيعة آل البيت عليهم السلام بلا مأوى يأوون إليه وبادر عمّاله في الفحص في سجلاّتهم، فمن وجدوه محبّاً لآل البيت عليهم السلام محوا اسمه وأسقطوا عطاءه.

وعمد معاوية إلى اسقاط الشيعة اجتماعيّاً، فعهد إلى جميع عمّاله بعدم قبول شهاتهم في القضاء وغيره.

وأراد زياد بن أبيه تصفية الشيعة من الكوفة وكسر شوكتهم فأجلى خمسين ألفاً منهم إلى خراسان، وهي المقاطعة الشرقيّة في فارس.

الأحداث والأطوار التي تركت أثرها في عصر الإمام الحسن عليه السلام:

الطور الأوّل: ابتداءً من رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ومؤامرة اغتصاب الخلافة في السقيفة مباشرة بدأ الصدام بين الإمام الأوّل وبين الخط القبلي الجاهلي، فكانت النتيجة إقصاءه عن الخلافة وجلوسه في البيت.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١، ص٤٣.

واتّسم هذا الطور بعدم قدرة الإمام عليّ عليه السلام على استعادتها بالسيف ولا بالنصوص، وتحرّك السيّدة الزهراء عليها السلام مع الإمام عليّ عليه السلام، ولم ينجحا.

وكان التركيز في هذا الطور من المرحلة الأُولى على كشف الانحراف وبيان مصاديقه، وكان يكفي فيه إعلان الحقيقة الضائعة، وهي أحقيّة أهل البيت عليهم السلام بالخلافة وكشف زيف المتربّعين على منبر الخلافة وعدم شرعيّة خلافتهم بنحو لا يزعزع أركان النظام الإسلامي ولا يؤدي إلى ارتداد المسلمين وهم في بداية الطريق الشائك الذي سلكه الأنبياء والصلحاء.

الطور الثاني: بقي الإمام عليّ عليه السلام على محاور المواجهة مع الخلفاء الثلاثة طيلة خمسة وعشرين عاماً بمعنى المعارضة، والضغط والتوجيه والحضور الدائم، ولكن مع التربّص والانتظار استعداداً للتقدّم واسترداد الدولة فيما لو انهار الانحراف.

وقد أبدى الإمام عليه السلام في هذا الطور مرونة شكليّة وتعاوناً مع الخلفاء في إطار حفظ مصالح الإسلام(١) في الأبعاد السياسيّة والعسكريّة، إذ تقلّد بعض كبار

(١) اقترح الإمام عليّ عليه السلام على أبي بكر في مسألة إرسال الجيش إلى الشام. انظر ابن واضح، أحمد ابن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، منشورات الشريف الرضي، قم (١٤١٤ هجري): ١٣٣.

وكذا ما أشار به الإمام عليّ عليه السلام على عمر لدى استشارة الأخير حول الذهاب بنفسه إلى جبهات القتال وقيادة الجيوش هناك: «... إنّك متّى تسرّ إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفة دون قصد بلادهم، وليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً وأحفز معه أهل اللاء والنصيحة فإن أظهره الله فذاك ما تحبّ، وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين»، الخطبة ١٣٤ من نهج البلاغة.

قال عليه السلام: «وإن سرت بنفسك مع أهل مكّة والمدينة إلى أهل البصرة والكوفة ثمّ اقصدت بهم قصد عدوك انتقضت عليك الأرض من أقطارها ولا كهف يلجؤون إليه وليس بعدك مرجع ولا موئل إذ كنت أنت الغاية والمفزع والملجأ، فأقم بالمدينة ولا تبرحها فإنّه أهيب لك في عدوّك وأرعب لقلوبهم، فإنّك متى غزوت الأعاجم بنفسك يقول بعضهم لبعض: إنّ ملك العرب قد غزانا بنفسه لقلّة

⇐

الصحابة من الشيعة وبموافقة الإمام عليّ عليه السلام مناصب عسكريّة ومواقع سياسيّة مثل الفضل بن العباس الذي تولّى منصباً عسكريّاً في جيش الشام وتوفّي في فلسطين سنة (١٨ هجري)[١]، وحذيفة وسلمان اللذين تولّيا على التوالي الحكم في المدائن[٢]، وعمّار بن ياسر الذي تولّى الحكم على الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص[٣]، وهاشم المرقال الذي كان في طليعة المخلصين من شيعة الإمام عليّ عليه السلام واستشهد في صفّين[٤]، فقد تسنّم منصباً عسكريّاً رفيعاً على عهد الخلفاء الثلاثة، وهو الذي فتح إقليم آذربيجان في سنة (٢٢ هجري)[٥]، وعثمان

⇐

اتباعه وأنصاره، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك وعلى المسلمين، فأقم بمكانك الذي أنت فيه وأبعث من يكفي هذا الأمر والسلام».

فقال عمر: يا أبا الحسن! فما الحيلة في ذلك وقد اجتمعت الأعاجم عن بكرة أبيها بنهاوند في خمسين ومائة ألف يريدون استئصال المسلمين؟

فقال له الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «الحيلة أن تبعث إليهم رجلاً مجربّاً قد عرفته بالبأس والشدّة فإنّك أبصر بجندك وأعرف برجالك، واستعن بالله وتوكّل عليه واستنصره للمسلمين، فإنّ استنصاره لهم خير من فئة عظيمة تمدّهم بها، فإنّ أظفر الله المسلمين فذلك الذي تحب وتريد، وإن يكن الأخرى، وأعوذ بالله من ذلك أن تكون ردءاً للمسلمين وكهفاً يلجأون إليه وفئة ينحازون إليها».

وفي رواية أخرى: استشار عمر الإمام عليّ عليه السلام عندما أراد الشخوص لقتال الفرس بنفسه قال الإمام عليه السلام له: «... فكن قطباً، واستدر الرّحا بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتّى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك ما بين يديك، إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك، وطمعهم فيك».

انظر: تاريخ اليعقوبي: ١٣٣، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٢: ٢٩٤، نهج البلاغة ٢: ٢٩ ـ ٣٠، خطب الإمام عليّ عليه السلام، الخطبة ١٣٤، والخطبة ١٤٦.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٦.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٣٢٤، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت (١٤١٤ هـ).

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١٥٥، منشورات الشريف الرضي، قم (١٤١٤ هجري).

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٤٠١.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ١٥٦.

ابن حنيف بن اليمان اللذان بعثهما عمر بن الخطاب في مهمّة وضع قياسات للأراضي العراقيّة[١].

وكان عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ـ وهو من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وقد استشهد ابنه في معركة الجمل[٢] ـ من طليعة القادة العسكريّين وعلى يديه تمّ فتح اصفهان وهمدان[٣].

وكان جرير بن عبدالله البجلي[٤] وقرظة بن كعب الأنصاري[٥] من رجال أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته، وكان لهم في عهود الخلفاء الثلاثة مناصب إداريّة وعسكريّة، فجرير فتح منطقة الكوفة[٦]، وكان على عهد عثمان حاكماً على همدان[٧]، أمّا قرظة بن كعب فقد فتح الريّ في عهد عمر بن الخطاب[٨].

وبالرغم من الموقف المتعاون من قبل الإمام عليّ عليه السلام وظهور هذا التعاون في أدوار لعبها حواريوه وشيعته، لكن موضوع الولاء له والاعتقاد بإمامته كجزء لا ينفصل عن عقيدة الإسلام، ظلّ يحوم في نطاق هؤلاء الحواريّين دون غيرهم.

وفي عصر عثمان الذي كان مرحلة متطوّرة من عودة الروح القبليّة إلى المجتمع الإسلامي أدّت إلى نشوء نزاع حول الغنائم والأموال الحكوميّة، وقف

---

(١) المصدر السابق:١٥٢.

(٢) الجمل، الشيخ المفيد، مكتب الإعلام الإسلامي، مركز النشر، قم (١٤١٦هجري): ٣٤٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١٥٧.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات بيروت (١٣٩٤هجري) ٢: ٢٧٥.

(٥) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٠٢.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ١٤٣.

(٧) المعارف، ابن قتيبة، أحمد بن عبدالله بن مسلم، منشورات الشريف الرضي (١٤١٥هجري): ٥٨٦.

(٨) تاريخ اليعقوبي: ١٥٧.

أمير المؤمنين عليه السلام موقفاً صعباً حين انطلقت الثورة ضدّ الخليفة، حيث وقف ضد محاولة قتل الخليفة وضدّ الظلم الذي مارسه عثمان في الوقت ذاته.

الطور الثالث: انهار الانحراف وعادت الدولة إلى أمير المؤمنين عليه السلام في بيعة شعبيّة عامّة، فقد أيقظت الظروف السياسيّة الناس، فشعروا أنّ الإمام عليّاً عليه السلام وحده هو الخليق بقيادة المجتمع، فانثالوا عليه وبايعوه، وكانت بيعتهم بيعة الخلافة لا بيعة الإمامة بالمفهوم الشيعي. لكن ثلّة منهم بايعوه بيعة خاصّة في ضوء وعيهم للنصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة وما ورد فيها بشأن إمامته على الناس بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، مضافاً إلى البيعة العامّة التي سايروا فيها جماهير الناس واعتبروا أنفسهم أولياء من والى وأعداء مَن عادى[1].

وبعد أن عادت الخلافة إلى أهل البيت عليهم السلام لمدّة أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قام بإجراءات استعادة الدولة والقضاء على آثار الانحراف، فلم يساوم ولم يتّبع أنصاف الحلول في ذلك.

وعندما قدم إلى الكوفة، كان أحد أسباب قدومه إعداد الناس الّذين قلّما تلوّثوا بالأفكار الباطلة وإرساء بذرة التشيّع الحقيقي، فالإمام كان يرى أنّ شخصيّته قد غمرت طوال خمسة وعشرين سنة من الإقصاء عن قيادة الأُمّة، وعليه أن يعرّف نفسه ويفهم الناس أبعاد شخصيّته المجهولة، وجدّ في ذلك وبذل جهده من أجله.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣: ٤٦.

وأوّل خطوة قام بها هو أنّه أشهد عدداً من البدريّين على حديث الغدير في «رحبة المسجد» بالكوفة وشهد على ذلك اثنا عشر رجلاً كانوا حاضرين[١].

كما أراد الإمام أن يُفهم الناس أنّ شخصيّته تختلف عن شخصيّة الخلفاء السابقين، وأنّ لها أبعاداً أخرى غير البعد السياسي، وأنّ له كياناً عقائدياً خاصاً ومستقلاً منذ عصر الخلفاء، وإن حاول الآخرون ضربه ومواجهته.

فعندما طُرحت مسألة حول الصيد في الحج أفتى الإمام خلاف فتوى عثمان، فقال له الأخير: «إنّك لكثير الخلاف علينا»[٢]، وكان حجم هذا الكيان الفكري والعقائدي يكبر في عصر الخلفاء بسبب ما كان يتمتّع به الإمام من تفوّق علمي ممّا يدلّ على الاستقلال الفكري والسياسي للتشيّع، وأنّه كان متميّزاً منذ البداية عبر عقائد أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن من مخترعات المتأخّرين ومصطنعاتهم. فإنّ مسائل من قبل «الجبر» و«الاختيار» لم تطرح في أواخر القرن الأوّل الهجري، بل كانت مطروحة منذ البداية. وكان للإمام عليّ عليه السلام موقف صريح منها، فخطبه الواردة في «نهج البلاغة» حول «التوحيد» وصفات الله ونفي «التشبيه» و«الجسيم»، تحمل أسمى المفاهيم الفلسفيّة، وتدلّ على عقيدة الشيعة في مقابل «التشبيه» و «التجسيم» كما تشير إلى أنّه لهم خطاً عقيديّاً لا غبار عليه، ممّا يدلّ على أنّ دين التشيّع العقائدي والسياسي كان منذ أوائل القرن الأوّل الهجري.

---

(١) الغدير ١: ٦٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣٦٢، أسد الغابة ٥: ٢٠٥ الإصابة٢: ٤٠٥ و٤: ٨٠، مسند أحمد ١: ٨٤، و٨٨، و١٨٨، مجمع الزوائد ٩: ١٠٧، صفة الصفوة ١: ١٢١.

(٢) الغدير ٨: ١٨٦، عن مسند أحمد، كتاب الأُم، سنن أبي داود، سنن البيهقي، تفسير الطبري، المحلّى، كنز العمّال.

وجاهد الإمامعليه السلام لتعزيز التيّار الشيعي والتفافه حول أهل البيتعليهم السلام، كما يظهر من كلماته المفصّلة في «نهج البلاغة» حول أهل البيتعليهم السلام وفضائلهم وعلومهم، وتعابيره التي تعطينا مفهوماً شيعيّاً عن الإمام والولاية بشكل صريح، ومن خلال إخباره الصريح بالغيب المأثور عن الطرق المختلفة للفريقين. وهذا هو ما يتمسّك به الشيعة.

وآتت جهود الإمام عليّعليه السلام أُكلها، فقد تربّت ثُلّة من أصحابه كانوا مستعدّين لكلّ الضغوط حتّى إلى مستوى التمثيل بهم بسمل عيونهم وقطع السنتهم، دون أن يتنازلوا عن خطّه ونهجه، ونلحظ ذلك في الشعر الذي ارتجز به المقاتلون في صفّين، إذ انتهجوا «دين عليّعليه السلام» في مقابل دين عثمان[1].

وجاء في شعر أُنشد في معركة صفّين:

وصيّ رسول الله من دون أهله ووارثه بعد العُموم الأكابر[2]

ونستنتج من الشعر الذي أنشد عمّار بن ياسر في معركة صفّين أنّ صراع التيّارين المتحاربين إنّما كان صراعاً فكريّاً يحوم حول تأويل القرآن، وأحد هذين التيّارين هو الإسلام الأموي، والآخر هو إسلام عليّعليه السلام الذي يمثّل التشيّع، فقد وقف عمّار بن ياسر يخاطب جيش الشام قائلاً:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله[3]

وفي كربلاء ارتجز نافع بن هلال، وهو أحد أصحاب الإمام الحسينعليه السلام:

(١) تاريخ الأُمم والملوك ٣: ٣٣١.

(٢) وقعة صفّين: ١٣٧.

(٣) المصدر السابق: ٣٤١.

أنا ابن هلال الجملي أنا على دين عليّ[١]

ممّا يعني أنّ ديني عليّ عليه السلام كنا خطّاً فكريّاً متميّزاً في وقعة كربلاء، بل كان «دين يزيد بن معاوية» متداولاً أيضاً[٢].

وفي عصر ابن الزبير فشا اصطلاح «الترابيّة»، معبراً عن الشيعة ليجسّد مواصلة خطّ أبي تراب، وهو الإمام عليّ عليه السلام. وجاء قولهم في الّذين بايعوا المختار: «فإنّما بايعه شرذمة من هؤلاء الترابيّة»[٣].

وكان ابن الزبير يقول في أنصار المختار: «العصبية السيّئة الرديئة الترابيّة»[٤]!

وكان رفاعة بن شدّاد ـ وهو أحد المقاتلين مع المختار ـ يقول مرتجزاً:

أنا ابن شدّاد على دين عليّ لست لعثمان بن أروى بوليّ[٥]

فهذا هو التشيّع العقيدي الذي كان مطروحاً في مقابل التيّارات المناهضة له.

وفي عاصمته الجديدة بدأ أمير المؤمنين عليه السلام العمل لإعادة بناء النظام السياسي بمفهومه الإسلامي المرتكز إلى العدالة الاجتماعية، فدخل في صدام مع مستزلمي الخليفة السابق، والوجهاء المستفيدين من حكمه، بسبب التشدّد في إجراء العدالة والصراحة والصدق في السياسة، ثمّ خاض حرب الجمل وحرب صفّين على خلفيّة الصراع مع الوجهاء القلبيّين والفكر القبلي ككل، ثمّ نشأت

---

(١) المصدر السابق ٣: ٣٣١، ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ٣: ٤١.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٦: ٩٩.

(٤) المصدر السابق ٦: ١٣٣.

(٥) أنساب الأشراف ٥: ٢٣٣.

فرقة الخوارج كنتيجة لعدم انتشار الفكر الإسلامي الأصيل في المجتمع وخاض حرب النهروان، وكانت نهاية الصراعات التي عاشها الإمام عليّ عليه السلام أن استشهد في محراب الصلاة، بعد أن استطاع تقديم نموذج للحاكم الإسلامي العادل وللنظام الإسلامي، ويصنع نخبة من الحواريين الّذين حملوا فكره وإرشاداته ونشروها.

ومع كلّ ما اكتنف هذا الطور الأخير من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كلّ حكومة ثائرة، فقد سجّل الإمام عليّ عليه السلام أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلاميّة، بما قدّمه من طريقة إنسانيّة في التعامل ومن عدل والتزام بأحكام الإسلام بأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلامي، هذا إلى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتّخاذ المواقف.

هذا الطور من تاريخ الإمامة كان النموذج الذي دعا أهل البيت عليهم السلام خلال القرنين التاليين إلى تطبيقه في السياسة والاجتماع.

وأتباع مدرسة أهل البيت منشدّون باستمرار إلى تلك الفترة التاريخيّة ينشدون استعادتها في حياتهم ويتّخذونها أساساً في تقويم أنظمة زمانهم، وبهذا المعيار يديّنون الأنظمة المنحرفة عن النهج الإسلامي، كما كانت هذه الفترة تجربة ودرساً لحكومة إسلاميّة ثوريّة تماماً في مجتمع عصفت به الأهواء والانحرافات، وألقت عبئاً ثقيلاً ومسؤوليّة كبيرة على الأئمّة التالين.

الطور الرابع: استكمل الإمام الحسن عليه السلام مسيرة والده، غير أنّ المجتمع الذي لم يستطع التخلّص من رواسب الجاهليّة خذله ولم يستطع المحافظة على النظام الذي أسّسه الإمام عليّ عليه السلام، وبالكاد استطاع حقن دماء القلّة الباقيّة من التيار الشيعي عبر صلح عقده مع معاوية، ذاك السياسي المراوغ والفاهم للمجتمع

الإسلامي الناشئ ونقاط ضعفه، ما خوّله اكتساب مشروعيّة ما لحكمه بعد أن أسّس ولاية خاصة به في الشام التي كانت مهيّأة لتتوحّد تحت قيادته، ودسّ السم للإمام الحسن عليه السلام الذي مضى شهيداً.

فحصل في هذا الطور التصدّع في مشروع الإحتفاظ بقيادة الدولة بسبب شهادة أمير المؤمنين وحيلولة الظروف الموضوعيّة والسياسيّة دون الإمام عليّ عليه السلام والاستمرار في الموقع الرسمي لقيادة الأُمّة، ممّا ألجأه إلى الصلح مع معاوية.

الطور الخامس: ظهور إرهاب الدولة، ابتدأت مع معاوية ملامح أعنف تطوّر تشهده الدولة الإسلاميّة بعد انتصارها وترسّخ أقدامها مع النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فقد تحوّل الحكم إلى ملك وراثي بانتقال الحكم إلى يزيد بن معاوية، وكانت تلك ذروة تمادي سيطرة الروح القبليّة وتغلغلها في المجتمع، وظهرت نزعة الاستبداد بالسلطة واغتصابها ودعم ذلك الاغتصاب، بإرهاب الدولة الرسمي عبر ممارسة القمع والقتل والسجن والتعذيب والجسّس والاعتقال لمجرّد الاشتباه ونشر الإشاعات الكاذبة لأغراض سياسيّة وشراء الذمم بالمال وتدبير المكائد والمؤامرات وقطع الأرجل والأيدي وسمل العيون والصلب ودفن الناس أحياء وقطع الأرزاق وحرق البيوت وهدم الدور والمساكن ونهب الأموال من قبل عملاء النظام واستخدام المال لشراء رؤوس القبائل، وكانت القبائل وحدات اجتماعيّة لا تتحرّك إلا عن طريق رئيسها ممّا حصر إمكانيّة الاستفادة من النظام الاجتماعي القائم بمعاوية؛ لأنّه يمتلك المال والسلطة.

ومع هذا التطوّر الحاد في تعامل النظام الأموي مع أعدائه السياسيّين أخذت أساليب أهل البيت تشهد تبدّلاً في العمل لمواجهة شدّة العنف والإرهاب، وابتدأ ما نسمّيه اليوم بالنزول تحت الأرض، أي بناء التشكيلات والتنظيمات السريّة.

فانتظر الإمام الحسين عليه السلام نضوج الظرف الموضوعي وظهور عناصر جديدة قبل الشروع في مواجهة النظام وبقي على اتصال مع تشكيلاته السريّة استعداداً للنقلة النوعيّة، ثمّ أعلن الثورة ليطرح فكرة مشروعيّة الحكم والحاكم ويزرع بذرة التحرّك السياسي الشيعي ضدّ الأنظمة الاستبداديّة، فكانت ثورة كربلاء خطوتين إلى الإمام نحو استعادة الدولة بالقوّة العسكريّة، ونحو الإعداد لإعادة صياغة الأُمّة وتنظيمها على أيدي الأئمّة التالين إذا ما لم تنجح الخطوة الأُولى.

ووقعت الشهادة المنتظرة، ووقع ما توقعه الإمام الحسين عليه السلام، فسوف تنهض الأُمّة وتتحرّك (المختار، التوابين، أبناء الإمام الحسن عليه السلام وأبناء الإمام زين العابدين عليه السلام)، وسوف يلجم تجاهر الحاكم الإسلامي بالكفر، وسوف يصمد المشروع الإسلامي للخط الشيعي، وسوف ينتصر منطق الاستشهاد في سبيل الأهداف الإلهيّة كوسيلة فعّالة في مواجهة القوى الكبرى، وسوف يصبح ذلك استراتيجيّة شيعيّة.

فتكون ثورة الحسين تتويجاً للجهاد والصبر خلال الخمسين سنة الأُولى ودخولاً في المرحلة الثانية، أي برزخ بين المرحلة الأُولى ومرحلة بناء الإسلام العميق والعقائدي الذي جسّده الحزب الشيعي.

وهكذا، كان نشوء الدولة الإرهابيّة البوليسيّة القمعية الأُولى في تاريخ الإسلام هو الدافع الأساس لكي يتوّج أهل البيت مرحلة استعادة قيادة الدولة بالاستفادة القصوى من التأييد لعدم لهم واعتبارهم الورثة الحقيقيّين الشرعيّين للخلافة، فكانت وقعة الطف التي أظهرت أنّ الجسم الأموي كان قد نما وتضخّم بسرعة هائلة، وأنّه سبق المنطق الديني الذي يستند إليه أهل البيت عليهم السلام في استعادة إدارة الدولة وإقامة نظام العدالة والمساواة الإسلامي، فبقي منطقهم يحتاج إلى أرض، إلى أُمّة، وإلى جماهير ثوريّة.

موازين القوى بين الشام والعراق:

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه حينما نتعرّض للمقارنة بين وضعي الشام والعراق هو أنّ المعلومات التي تقدّمها لنا المصادر حول الوضع السياسي في الشام أقلّ بكثير ممّا تقدّمه لنا عن العراق إلى آخر حياة يزيد بن معاوية. ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ الحالة في الشام كانت هادئة ولم تقع فيها أحداث خطيرة كتلك التي وقعت في العراق، ممّا يثير انتباه المؤرّخين ويجعلهم يفردون الصفحات الطوال للتحدّث عن العراق، وهذا ما يدفعنا إلى نحو من التفصيل حين الحديث عن وضع العراق ووضع الشام.

القبائل العربيّة في الشام.. قوّة الجيش الأموي:

في القرن الثالث للميلاد قدمت قبائل عربيّة من العراق إلى الشام، وفي القرن الرابع قدمت قبائل أخرى وحتّى فتحت بلاد الشام سيطرت تلك القبائل على البادية السوريّة.

وهي: عاملة، وجُذام، ولخم، وبلقين، وبهراء، وبلى، وكلب، وتنوخ[١] وكندة، وطي[٢]، وتغلب وشيبان، وعبد القيس، وقضاعة، وغسان، وسليح، والعباد[٣].

وخلال القرن الخامس الميلادي استفادة القبائل من السلام الطويل مع الفرس، وكانت بيزنطة مشغولة في حروبها ضد البربر الجرمان، بعد احتلال

---

(١) انظر: الفتوح للبلاذري، فتوح: ١١٨ ـ ١٢٥، تاريخ الطبري ٢: ٣٣١ ـ ٣٨٠.

(٢) جند الخليفة: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، نقلاً عن Shahid, Byzantium and th Arabsin the Fourh Century,

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق ليفي بوفنسال (القاهرة ١٩٥٣): ٩.

الجرمان للقسم الغربي من المتوسط وقيام المخاطر أمام السفر التجارة، فتوجهت الإمبراطورية نحو البحر الأحمر والمحيط الهندي، كمنافذ[١]، وكانت بأمس الحاجة إلى العرب لأجل الوصول إلى طرق جديدة للتجارة ومناطق نفوذ أفضل، فاكتسبت فلسطين، كطريق تجارية جديدة، أهمية كبرى وأصبحت إدارياً وحدة مستقلة تماماً[٢]. فاشتدّ اهتمام الإمبراطورية في اكتساب خدمات القبائل العربية المسيطرة على بادية الشام الجنوبية، والتي عززت مواقعها التي اكتسبتها في القرن الرابع الميلادي بسبب حاجة البيزنطيين المتزايدة لها. وتحوّلت في القرن الخامس الميلادي إلى حماة للحدود العربية ومدافعين عن المصالح التجارية البيزنطية في البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية. ولم تتمكن قبائل بلاد الشام من بناء وتطوير حضارة مدنية مستقرة، ولكنهم اعتنقوا المسيحية، فحصلوا من الدولة البيزنطية على مساعدات ورواتب سنوية إذ كان أفراد هذه القبائل جنوداً عاديين في الجيش الروماني ذوي رواتب، فلم يتعاطوا التجارة أو الزراعة، بل لبثوا جنوداً محترمين في هذا الجيش، وحافظوا على مستوى عالٍ من الفعالية العسكرية، وكان للبيزنطيين تأثير قوي على جهوزيتهم العسكرية، فقد شكّلوا جزءاً من الجيش البيزنطي خلال الحرب، واعتمدوا طرقاً حربية وأسلحة رومانية وتبنّوا

(١) جند الخليفة: ٣٥٩ ـ ١١٣، نقلاً عن Shahid, Byzantium and th (Dumbarton Oaks,١٩٨٩ .

(٢) لتاريخ مفصّل عن بني سليح انظر (٢٤٢ ـ ٢٧١)، Shahid Byzantium (Dumbarton Oaks, ١٩٨٩) (Arabs in the Fifth Cenrury) إن حكم ليوفي في القرن الخامس الميلادي يعطي مثالاً عن الحاجة إلى قبائل بلاد الشام بسبب النقص في عدد الجنود الرومان في الشرق. (Shahid (Kawar, "The Last Days of Slih " Arabica ٥, ١٩٥٨). إن هزيمة بني سليح واستبدالهم بالغسّانيين ذكرها اليعقوبي في تاريخه ١: ٢٠٤ ـ ٢٧١.

الانضباط والتنظيم الرومانيين، كما عملوا كفرق متحرّكة خيّالة في جيش الشرق الروماني، فأضافوا إلى هذا الجيش الأعداد والحركة والروح، ولذلك كان لهذه القبائل مكانتها الهامة في الجيش البيزنطي الشرقي، وتطوّر دورها تدريجياً خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين حتى وصل ذروته في القرن السادس، حينما كانت الجيوش البيزنطية عبارة عن جيوش صغيرة نسبياً، فشكّل الجنود العرب قسماً هاماً منها[١]، وفرض عليهم دورهم كحراس للحدود الصحراوية استخدام الإبل والخيل.

والمنطقة التي استقرت فيها هذه القبائل، كانت لا تزال ضمن التواجد البيزنطي أو في منطقة النفوذ غير الرسمي في الجزيرة العربية، وبالتالي كان على هذه القبائل أن تشارك في الدفاع عن حدود بيزنطية[٢].

وكان لهذه القبائل ثلاثة مهام أساسية على ثلاث خطوط: خط مواجهة غزوات وتسلل البدو العرب من شبه الجزيرة العربية إلى مدن الشام، وخط ضدّ العرب اللخميين المؤيّدين للفرس، وخط المشاركة في حملات الجيش البيزنطي ضد الفرس الساسانيين.

وعلى الرغم من تركيز الجنود الرمان النظاميين على طول هذه الخطوط بأعداد كبيرة، لم يمكن الاستغناء عن القبائل العربية، وخاصة فيما يتعلّق بعرب شبه الجزيرة، فلم تتمكن أعداد الجنود الرومان الهائلة الثابتة ولا الحصون من

---

(١) جند الخليفة: ١٠ ـ ٤٣٠ و١، نقلاً عن Shahid, Byzantium and the Arabs in the Sixth Century يقدّم شهيد شرحاً مفصلاً للقبائل العربية وتنظيمها العسكري.

(٢) جند الخليفة،: ٣٦٨ نقلاً عن Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, .

صدّ التهديد الآتي من الجزيرة العربية. وحدهم، المقاتلون المتحرّكون من هذه القبائل، كانوا قادرين على مواجهة هذا التهديد والقضاء عليه؛ بسبب معرفتهم العميقة بطبيعة حرب الصحراء وبطبيعة الصحراء العربية التي أتوا منها، وبسبب معرفتهم بقبائلها. ومع ذلك اعتمدت السياسة البيزنطية لحماية حدودها الصحراوية إلى درجة كبيرة على هذه القبائل، في مستهل القرن السادس الميلادي نجحت هذه القبائل في وضع حد للتهديد الآتي من الصحراء العربية[1]، فكان لها دور في مواجهة المسلمين في مؤتة، كذلك نجحت في مهمتها باحتواء حلفاء فارس اللخميين، ثم بإزالة هذا التهديد نهائياً عندما سَحَقَت غسّان وحلفاؤها أعداءهم اللخميين واحتلّوا عاصمتهم الحيرة وأحرقوها.

ومع حلول النصف الثاني من القرن السادس تقهقر وضع الجيش البيزنطي، خاصة تحت بوستينيانُس الأوّل بسبب مشاكل تتعلّق بالنقص في الموارد البشرية والمعاشات والتجنيد والانضباط والتمرّد[2]، وفي المقابل، ظهر جيش متحرّك صغير نسبياً، وهو الغساسنة والقبائل العربية الّذين كانوا في ذلك الزمن قد أضحوا جيشاً وليس مجموعة غُزاة، وكانوا يشكّلون كتيبة فرسان إذ كان ذلك موقعهم في تركيبة الجيش البيزنطي الشرقي[3].

(١) جند الخليفة: نقلاً عن Shahid, Byzantium and the Arabs in the Sixth Century, ١ Part١

(٢)جند الخليفة: ٦٧٨، نقلاً عن A.H. M. Jones, Late Roman Empire١

(٣)جند الخليفة: ٤٣٠، نقلاً عن Shahid, ١, Part١,

دور قبائل العرب في بلاد الشام في انتصار العرب الفاتحين وفي قوة الدولة الأموية:

لعبت قبائل بلاد الشام دوراً مهماً في نجاح الفتوحات، إذ شكلت هذه القبائل العربية لعدّة قرون قوة كبيرة في خدمة البيزنطيين وكان أفرادها مدرّبين جيّداً ويتمتعون بالانضباط، واعتادوا الصحراء الشامية وألفوها، وباتوا على قدر من الأهمية بالنسبة إلى البيزنطيين.

وقد شارك بعض هذه القبائل في القتال ضدّ الفرس، وبعد انتصارهم عليهم وتسريحهم لعدد كبير من جنودهم، اعتمد البيزنطيون أكثر على عرب بلاد الشام لحماية حدودهم الجنوبية. وازدادت بالتالي مساحة الأرض التي تغطّيها هذه القبائل، فكانت تمتدّ من غزة في الغرب والبحر الميت في الشرق إلى البحر الأحمر في الجنوب. فكانوا مسيطرين على الحدود الجنوبية لقرون عدّة، وهم الّذين صدّوا عرب الحجاز لفترات طويلة. وقد اعتمدت البيزنطيون لعدّة قرون على هذه القبائل التي كانت أساساً حماة حدود، وشكّلت فرقة هامة في الجيش البيزنطي، وأُعطيت لها مهمة حماية الحدود الجنوبية، كما كانوا يشكّلون الجزء الأكبر من جيش هرقل في الشرق، ولم يكن الجيش البيزنطي كبيراً من حيث الحجم وكانت قوّته الضاربة المتحرّكة والفعّالة متواضعة، ولم يكن بوسعه أن يرسل أكثر من ٢٠ ألفاً إلى القتال في كبرى معارك الشرق، خاصة أن مواقع بيزنطية في أفريقيا وإيطاليا كانت تتعرّض لهجمات مستمرة وليس بإمكانها تصدير الجنود، بل كانت هذه الأقاليم بحاجة للجنود والتعزيزات تماماً كالأقاليم

الشرقية[١]. لذلك فإن جيش هرقل في الشرق قد سُرّح، وكان يقدّر عشية الفتوحات الإسلامية بـ (١٠٠٠٠) في بلاد الشام[٢]، وفي مرحلة الفتوحات، استطاع المسلمون استدراج عدد من هذه القبائل العربية في فلسطين وجنوبي بلاد الشام للانضمام إليهم[٣]. فلعبت دوراً في جعل الميزان يميل إلى مصلحة المسلمين، فغيّرت تحالفاتها قبل معركة اليرموك وهجرت المعسكر البيزنطي، وانضمت إلى الجانب الإسلامي، وكان لخبرة عرب بلاد الشام العسكرية، بسبب علاقاتهم بالبيزنطيين وانضمامهم ومعرفتهم للطرق الصحراوية، دوراً أساسياً في انتصار المسلمين على البيزنطيين. ومع ذلك، لم يكن موقف هذه القبائل موحداً، فقد انقسمت على نفسها، فكان بعضها المسيحي يقدم المساعدة للبيزنطيين، والجيش البيزنطي الذي انهزم أخيراً في اليرموك ضم في صفوفه رجالاً من قبائل غسان وغيرها من قضاعة. كذلك انقسمت قبائل لخم وبلي وجذام وعاملة، وقيل: إنهم كانوا في صفوف الجانبين، ممّا يشير إلى أن الخلافات السياسية داخل هذه القبائل، أو تعدّد مواقف بطونها وأماكن نزولها، كان يترك أثراً على تحديد قرار القبيلة في التحالف والاتحاد مع المسلمين أو البيزنطيين، فقد ظهر بعد الانتصار أن عدداً لا بأس به من رجال قبائل الشام استمرّ في دعمه للبيزنطيين[٤].

---

(١) Kaegi, ٥٢ .

(٢) Kaegi, ٤٠ .

(٣) Donner, ١٤٧ .

(٤) Donner, ١٤٨.

قبائل بلاد الشام في عند معاوية بن أبي سفيان:

كان يزيد بن أبي سفيان علي رأس الجيش الإسلامي الذي دخل إلى الشام وقام بسلسلة من الفتوحات واشتبك مع الروم في سلسلة من المعارك، ثم تطوّر وتطوّرت إمكانياته المادية وأضافت إليه الخلافة أعداداً من المقاتلة، وبذلك اكتملت أركان دولة قوية في الشام، وقبل أن يموت يزيد بن أبي سفيان ولّى أخاه معاوية مكانه سنة ١٨ هجرية، فأمضى عمر هذه الولاية، وخلال فترة ثمانية عشر عاماً أسّس معاوية في الشام دولةً ونظاماً، وجيشاً جرّاراً مدرّباً، ومنضبطاً، ومطيعاً لمعاوية الذي أغدق عليه المال.

إنّ قيام حكم معاوية بن أبي سفيان وتثبيته في بلاد الشام، التي كان قد فتحها المسلمون حديثاً، يعودان أساساً إلى عوامل وأسباب قبلية وسياسية وإدارية، فقد ثبّت عمر بن الخطاب معاوية حاكماً على دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، راداً للجميل الذي أسداه أبوهما، أبو سفيان، يوم بيعة السقيفة لأبي بكر، حيث مال بنو أمية، بقيادته إلى الموافقة على بيعة أبي بكر، بعد أن قبض أبو سفيان ثمن ذلك، كل الزكاة التي جباها.

وفي الشام، التي كانت من قبل تحت حكم البيزنطيين وجد معاوية تقاليد عريقة في الحكم والإدارة، كما جد جهازاً إدارياً متمرّساً ساعده على أداء مهمته في فترة التأسيس التي تحتاج إلى الخبرة والمران اللذين وفّرهما له جهاز الموظفين الّذين كانوا يعملون في ظل الإدارة البيزنطية في الميدانين الإداري والمالي. كما أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التي هاجرت إليها واستقرت فيها قبائل الفتح كانت قد اعتادت

فكرة الحكم المركزي وفكرة الدولة عموماً تحت ظل الدولة البيزنطية على عكس عرب العراق الّذين لم يتقبّلوا هذه الفكرة بسهولة.

وكانت قبائل بلاد الشام العربية، هي العامل الثالث، فقد مكّنتها الخبرة العسكرية والانضباط اللذان اكتسبتهما هذه القبائل تحت قيادة البيزنطيين من السيطرة على أعدائها، من الروم أم من العرب، إذ شكّل رجال هذه القبائل العمود الفقري للجيوش الأموية التي صمدت في وجه الإمام علي بن أبي طالب في معركة صفّين، والتي أخضعت الثورات الداخلية في العراق وبلاد فارس وشمال أفريقيا والحجاز، ثم استطاعت مدّ السيرة الأموية على العالم الإسلامي لمدة قرن، ولم يكن هناك جيش واحد تحت قيادة معاوية، بل كان هناك جيش الفتح الذي كان يقوم بالدفاع عن الثغور، ويغزو الروم سنوياً في الصيف والشتاء، وبحركة الفتوحات، وكان هناك جيش أهل الشام، وهم بأكثريتهم القبائل التي انتقلت من خدمة بيزنطة إلى خدمة معاوية بن أبي سفيان ومن بعده ولده يزيد ثم باقي الأسرة الأموية، وقد شكّل هذا الجيش دعامة النظام الأموي.

إن الشراكة بين قبائل أهل الشام والأمويين تأسّست وتطورت على يد عائلة أبي سفيان التي أقامت علاقات تجارية مع قبائل بلاد الشام قبل ظهور الإسلام، وكان الأمويون يملكون مزرعة قرب دمشق تسمّى بَقْبش[1]، وكان معاوية يدرك قدرة وأهمية هذه القبائل، فلجأ إلى تأليف حلف سياسي بينه وبين هذه القبائل خلال حكمه في بلاد الشام، فتحالف مع قبيلة كلب القضاعية القوية، واقترن بميسون، ابنة القائد الكلبي بَحْدل، التي أصبحت أُمّ ابنه يزيد، وكان هذا الزواج

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري: ١٣٥، سجّل البلاذري العديد من القصص حول هذه التجارة التي قام بها أبو سفيان ومعاوية في بلاد الشام، انظر أنساب الأشراف ٤: ٤و١١، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٧٩.

زواجاً سياسياً أعطى موقع قبيلة كلب «كأخوال» ولي العهد يزيد، الذي تزوّج أيضاً كلبية، مكانة لا مثيل لها[١]، فقد أصبح الكلبيون يسيطرون على السياسات القبلية للأسرة الحاكمة الأموية، وشريكاً أساسياً في عملية صيانة وحفظ الدولة الأموية في سوريا، وكانوا الأكثر عدداً، فاستأثروا بأهم المراكز بسبب روابطهم العائلية مع صهرهم معاوية، وربما يكون ذلك من أهم دوافع اختيار معاوية ليزيد خليفة له، فهو ابن بنت قبيلة كلب، وقد لا تقبل بديلاً آخر.

وكان هذا التحالف بين بني أميّة وقبائل الشام لمصلحة الجانبين، فقد استخدمت الأسرة الأموية هذه القبائل لتحكم المسلمين بالحديد والنار، وشكّلت منها، في زمن معاوية، جيشاً محترفاً، يُنظّم ويُقاد بفاعلية، ما أدّى، بعد عقدين، في سنة ٣٧ للهجرة، إلى صعود معاوية كحاكم قوي يتمتّع بسلطة مستقلة كاملة، فاستطاع الصمود وعدم السقوط أمام القوة المعنوية والقانونية والشرعية التي كان يتمتّع بها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الخليفة الشرعي في الحجاز والعراق ومصر.

ومن جهتها، اكتسبت هذه القبائل الثروة والأرض والسلطة، واحتكرت السيطرة على بلاد الشام، وحالت دون حصول هجرة للقبائل العربية إليها، خوفاً من أن يفلت زمام إدارة بلاد الشام كما جرى في العراق[٢]، واستفادت كذلك هذه القبائل بأن تحوّلت من قبائل شبه بدوية إلى مجتمع مدني مستقر، فأصبحت

---

(١) حول قبيلة كلب وتأثيرها في الدولة الأموية انظر:

A.A. Dison, El (New "Kalb b. Wabra" H. Lammens, Edudes sur le re'gne du Clife Smayds Ma'awiya I, (Beirut, ١٩٠٨), ٥٠, ٢٦٨ – ٩٣, ٣٠٩ – ٣١٢, ٣٢٤ – ٦, ٤١٨ جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت وبغداد).

(٢) Shaban, I slamic History, ٧٤

من سكان المدن، بدون أن تتراجع قدراتها القتالية وروحها البدوية؛ لأن هذا التحول من البداوة إلى الاستقرار كان بطيئاً استغرق أكثر من قرن.

وبدلاً من أن يُضعف هذا الاستقرار في المدن الترابط القبلي داخل القبائل، ازداد الولاء للقبيلة. فقد احتاج معاوية، لأسباب عسكرية، إلى تسييس الهوية القبلية والحفاظ على الولاءات القبلية، من أجل المحافظة على الانضباط في الصفوف الدنيا للجيش(١)، وتم توزيع القبائل على أجناد لتكون جاهزة للانطلاق في حملات عسكرية.

استغلت هذه القبائل بلاد الشام بعد إخضاعها، وكان عددهم يفوق أعداد المسلمين الفاتحين الّذين تواجدوا، في المراحل الأُولى على الأقل، في الجابية، في الجولان، فكان الوضع في بلاد الشام غداة الفتوحات دقيقاً، فمنطقة بلاد الشام المأهولة تشمل منطقة كبيرة، وكانت عرضة للهجمات البيزنطية من الشمال وعلى طول الساحل. وهناك عنصر أساسي آخر، وهو أن العديد من السكان اليونان والمحليين في المدن والبلدان قد هجروها خوفاً، أو أُجبروا على تركها(٢)، فكان من الطبيعي استيطان الأراضي المهجورة مكانهم وتأسيس حاميات على طول الحدود، أكان المستوطنون من العرب، أم من غير العرب، إذا دعت الحاجة(٣)، وبالتالي بعد تقسيم بلاد الشام إلى خمسة أجناد: حمص، دمشق، الأردن، فلسطين، قنسرين، ثم توطين القبائل بحسب انتماءاتها القبلية، واستقرت

---

(١) Abd al – Amir Dixon. The Umayyad Caliphate ٦٥ – ٦٨ AH/ ٦٨٤- ٧٠٥ AD (London, ١٩٧١) ٨٥.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري: ١٣٣.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري: ١٢٤، ١٣٣. وقد ذكر الفرس واليهود كمجموعات استقرّت حديثاً.

معظم القبائل اليمنية في الأجناد الأربعة الأوائل بينما الجند الأخير، قنسرين، الّذين شمل منطقة الجزيرة، سكنته القبائل القيسية الآتية من الجزيرة العربية(١).

ووُزّعت الأراضي على عرب بلاد الشام، فاستقروا بخاصة في أجناد فلسطين والأردن ودمشق، أما حمص فسكنها الجنود المسلمين الغزاة المنحدرون من أصل يمني. وهكذا تم تقسيم سكان بلاد الشام إلى مجموعتين أساسيتين: مجموعة اقتصر وجودها على منطقة قنسرين والجزيرة، وهي أقلّية شملت القبائل الآتية من الجزيرة العرية المنحدرة من أصل قيسي، ومجموعة ثانية صاحبة الأغلبية، تضمنت عرب بلاد الشام والقبائل اليمنية الآتية من الجزيرة العربية(٢).

وكان معاوية وعدد ممّن جاؤوا بعده من ملوك بني أميّة يميلون بتعمّد إلى محاباة الأكثرية من بني كلب، إلا أن جماعة قيس وإن كانوا أقلية، لكنهم كانوا أقوياء الشكيمة، وكان يجب أخذ مطالبهم بعين الاعتبار، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن بالإمكان حصر الاتّكال على مساندة عرب بني كلب للأمويين، بل في كثير من المناسبات كان يلائم الأمويين أن يحرضوا بني قيس ضدّ بني كلب.

وهكذا، كانت سياسة معاوية تقوم على الحفاظ على الاستقرار الداخلي عبر الحفاظ على التوازن بين هذه القبائل، ولو كان هشاً. وهذا الاستقرار كان غاية في الأهمية لأجل الدفاع عن بلاد الشام ضدّ التهديدات البيزنطية ولأجل نجاح خطّة معاوية للبقاء في السلطة أطول فترة ممكنة.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري: ١٨٢. وقد ذكر الفرس واليهود كمجموعات استقرّت حديثاً.

(٢) لم يكن الانقسام اليمني القيسي بسيطاً كما يبدو، إذ كان بين صفوف اليمنيين بعض القيسيين والعكس. حول التفسيرات المختلفة للانقسام اليمني ـ القيسي انظر: M.A. Shaban, Islamic History .

وقد حاول بعض ملوك الأمويين، ممّن جاء بعد معاوية، الحفاظ على توازن في الامتيازات بين الجماعتين، القيسية واليمنية، وهي سياسة باهظة الثمن استنزفت موارد الدول.

وفي آواخر العهد الأموي، إذ ضعفت سلطة الخلفاء، توصّل العداء بين بني العائلة الحاكمة، فتحالف أُمراء أمويّون مع فريق أو آخر ليثوروا ضدّ الملك الأموي الحاكم ويثبّتوا مراكزهم هنا وهناك كأسياد محليين مستقلين فعلياً. وقد ذهب بعض الثوار إلى حد انتحال لقب «الخليفة» تحدّياً للحاكم الشرعي، وبلغت الفوضى الناشئة عن ذلك أوجها في أواخر الثلث الأول من القرن الأول الهجري، وكان فيها تفكّك السلالة الأموية وزوالها.

وسيطر معاوية على تدفّق المهاجرون العرب إلى بلاد الشام، واستخدم بدهاء سلطانه للحد من هجرة القبائل والاستفادة بصورة قصوى من قدراتهم القتالية.

بلاد الشام كانت أرضاً غنية، وكانت مدنها وبلداتها مراكز مزدهرة للتجارة والصناعة، وممتلكاتها الزراعية التي كانت تشرف عليها، في كثير من الحالات، مؤسسات كنيسية أو رهبانية، فكانت تغلّ أنواعاً مختلفة من الفاكهة والحبوب. كان الفتح العربي يهدّد بتعطيل ازدهار بلاد الشام، فاتخذ الخلفاء الأمويون التدابير للحؤول قدر الإمكان دون استيطان القبائل العربية الداخلة إليها في المناطق المزروعة ومراكز التجارة.

وهكذا أنشأ نظاماً من المحسوبية قائماً على الخدمات المتبادلة[1]، وتمكّن عرب بلاد الشام من رفع روايتهم ومضاعفة ثرواتهم مقابل ولائهم لمعاوية ومدّه

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق، إحسان عباس ١: ١٧، ١٣ ـ ١٣٦.

بقوتهم العسكرية، وكان المال على أهمية كبيرة عند أهل الشام الّذين لم يكونوا يملكون أي أراض؛ لأنهم كانوا لا يزالون شبه بدو ورعاة: «ليس لنا ضياع ولا قرى، إنّما نحن أصحاب إبل وغنم، فنريد منك الفروض والقطائع والعقارات»[١].

وكانت النتيجة واضحة: حافظة بلاد الشام على سيطرتها وأمنها تحت حكم قائد واحد هو معاوية، يتغاضى الخليفة عمر بن الخطاب عن كل ما يفعله، ويتساهل معه، فيترك بين يديه ما يجبيه من أموال، ويدعه يفرض على الناس الرؤية الإسلامية التي يرتأيها، يساعده صحابة ومحدثون مأجورون يقصّون ويحدّثون له كما يرغب، في حين أدى التدفّق المستمر والعشوائي للقبائل العربية المهاجرة، إلى انتفاضات سياسية واجتماعية وإلى عداوات وتفكّك وانقسامات، لقد كانت الشام ترث دولة عريقة، بينما كان العرب يرث الصحراء العربية بكل ما فيها من فوضى وتفلت وروح التمرّد والعصيان.

وينطبق هذا على مَن سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي، وكذلك كانت حال الّذين هاجروا بعد الفتح، فهم في غالبيتهم من الأعراب الّذين لا تروق لهم أصلاً فكرة الحكم المركزي، فالقبائل العربية التي كانت تنزل الكوفة والبصرة كانت قد جاءت من البادية وبقيت محافظة على تقاليدها البدوية ولم تتأثر بالقدر الكافي بمظاهر الاستقرار والخضوع للحكومة، لذلك صعب عليها أن تخضع وتنقاد لأمير ليس منها وليس له من رابطة تربطه بها، كما كان الحال في الشام التي كانت تنزلها قبائل عربية منذ القديم تمرّست بفكرة الخضوع للحكم

(١) كتاب الفتوح لابن الأعثم الكوفي ٣: ٢٢١.

البيزنطي، وعاشت منذ الجاهلية في ظل مجتمع مستقر يدين بالولاء للحاكم ويفهم معنى الدولة.

وأخيراً هناك ناحية لا بد من إيرادها في مجال المقارنة بين حال عرب العراق وعرب الشام، وهذه الناحية هي أن العرب الّذين نزحوا إلى العراق سكنوا في مدينتين أنشئتا حديثاً، وهما البصرة والكوفة، ولم يكن في هاتين المدينتين في الأصل عناصر سكانية غربية يساعد وجودها على تعريف هؤلاء الأعراب بأساليب حياة أقرب إلى الاستقرار والقبول بفكرة الحكم المركزي، فحافظوا على الأساليب التي حملوها معهم حين خرجوا مهاجرين وفاتحين من جزيرتهم.

وهذا الشرط كما هو معلوم كان متوفراً في الشام، فكان العربي المهاجر ينخرط في وسط مستقر متمدّن يشعر معه أنه جزء من مجموعة مطيعة، وأنه إذا ثار فسيكون النغم النشاز ضمن هذه المجموعة المطيعة، فأصبح سكان بلاد الشام وقد اعتادوا التعايش حتى مع الّذين يخالفونهم في الدين، فدمشق مثلاً كان يعيش فيها النصراني إلى جانب غيره من أتباع الديانات الأخرى زمن الحكم البيزنطي، واستمرّت الحال كذلك حتى إلى ما بعد الفتح الإسلامي لها، فقد كان بقاء المسيحية في بلاد الشام، تحت حكم الإسلام، يغاير بوضوح الزوال السريع للزرادشتية في العراق وبلاد فارس بعد الفتح العربي. ففي بلاد فارس والعراق أفضى تحطيم الإمبراطورية الساسانية، التي كانت تدعم المعتقدات الزرادشتية، إلى ترك الزرادشتية دون أيّ دولة تسندها، لذلك كان الاعتناق المكثّف للإسلام من قبل الزرادشتيين، مما حوّل الدول الساسانية برمّتها، بشكل واضح خلال مدة قصيرة إلى مصدر رئيس للقوى الإسلامية.

أمّا حيث كان الأمر يتعلّق بالمسيحية، فالوضع كان مختلفاً تماماً. فاستمرار بيزنطية كقوة مسيحية عظمى أدّى إلى المحافظة على اعتبار المسيحية كدين نضمن دار الإسلام. وهذا ما كان الوضع عليه على الأخص في بلاد الشام، الواقعة مباشرة على حدود الأناضول البيزنطية. ما جعل ملوك بني أمية، الّذين لم يكونوا، في معظمهم من المتدينين، حريصين على محاباة المسيحيين خصوصاً في أوائل العهد الأموي، فعيّنوا جهاء مسيحيين في مناصب سامية كمديرين في بيت المال، وأصبح مسيحيون ندماء للأُمراء الأمويين، ونشأ مجتمع مختلط بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام، فعاش الأعراب المهاجرون المسلمون جنباً إلى جنب مع السكان المحليين النصارى والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً والتي مازالت نصرانية، ممّا ساعد على كسر حدة التمرّد القبلي الذي كان طابع القبائل العراقية المميّز.

وهكذا جاءت خلافة أمير المؤمنينعليه السلام وفي الشام دولة مستقلة تماماً إلا بالاسم، فيها إدارة وجيش منظم، في حين نجد أمير علياًعليه السلام، في نفس هذا الوقت، يذهب إلى العراق لكي يؤسّس دولة ويبني جيشاً ويبتدئ من الصفر، وكل هذه الأمور أتاحت لمعاوية ظروف حكم أفضل من الظروف التي اُتيحت لعلي بن أبي طالبعليه السلام.

ثانياً: طبيعة المعسكرين في صفّين:

أـ فقد برز أولاً ذلك التأييد الكبير الذي قدمته الكوفة[١] وأشرافها ورجالاتها وقادتها، إلى الإمام عليه السلام في مواجهة معاوية، وذلك نتيجة شعورهم بأهمية مصرهم في احتضان السلطة الإسلامية، وتثبيت أركانها، خاصة بعد معركة الجمل[٢]، فظهرت الكوفة في معركة صفّين كإحدى القواعد الرئيسة في صراع الإمام عليه السلام مع معاوية.

ومع ذلك، فلم يكن موقف الكوفة إلى جانب أمير المؤمنين اجتماعياً، فقد رفض بعض قبائل الكوفة والبصرة الانضمام إليه مثل قبيلة باهلة، التي كرهت الخروج معها، فأرسلها إلى الديلم[٣]، بينما اعتزل القتال في صفّين قسم من قبيلة بجيلة الكوفة، وذهبوا إلى قرقيسيا، كما لم ينضم إلى قوات الإمام عليه السلام من قبيلة قسر سوى تسعة عشر رجلاً[٤]، وهرب إلى الرقة سبع مائة رجل من قبيل أسد الكوفة بقيادة سماك الأسدي[٥]، في حين اعتذر عن الخروج مع الإمام عليه السلام أربع مائة من قرّاء الكوفة، وفضّلوا انتظار سير الأحداث، واعتزلوا في ثغري قزوين والري[٦]، في الوقت الذي دعا غيرهم الإمام علياً عليه السلام لإعطاء التفاوض مع

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٢٧٧، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٥١٦، ٥٦٥، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٣، و٥: ٥، ٦، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٥، وقعة صفين: ١١٧ ـ ١١٨، ١٣٧، ١٣٨، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٠، ٣٢٩، الأخبار الطوال: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٢٩٤، وقعة صفين: ٢١.

(٣) وقعة صفّين: ١١٦.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢: ٢٧٧، وقعة صفّين: ٦٠ ـ ٦١.

(٥) أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٢٩٧ ـ ٢٩٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٨، وقعة صفّين: ١٢ ـ ١٣، ١٤٦، ١٤٧، الأخبار الطوال: ١٦٤.

(٦) وقعة صفّين: ١١٥، الأخبار الطوال: ١٦٥.

معاوية مداه الأوسع، مثل عبدالله بن المعتم العبسي، وحنظلة بن ربيع التميمي، ممّا دفع بعض قيادات معسكر الإمام عليه السلام لاتهامهما بالاتصال مع معاوية، فهربا إلى الشام مع أعداد صغيرة من قواتهما[١]. كذلك رفعت جماعات من العثمانية دعم الإمام عليه السلام أو الانضمام إليه[٢].

ب ـ كانت مشاركة قبائل البصرة[٣]، وقادتها ورجالاتها[٤]، في جيش الإمام عليه السلام محدودة الحجم، مع أن معظم قبائلها كانت قد تعاطفت وانضمت إلى معسكر عائشة وطلحة والزبير في معركة الجمل[٥].

ج ـ انضمّت أعداد كبيرة من المهاجرين والأنصار إلى قوات الإمام عليه السلام، من أهل بدر سبعون رجلاً، وممّن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل[٦].

ولا يضرّنا تجاهل الطبري الإشارة إلى هذا الدعم، انطلاقاً من مفهومه الخاص للفتنة، ومحاولته إبعاد الصحابة عن المشاركة في أحداثها وتداعياتها المختلفة، ما نهض في تلك الفتنة إلى ستة بدريين ما لهم سابع، أو سبعة ما لهم

---

(١) وقعة صفّين: ٩٦ ـ ١٠٠.

(٢) أنساب الأشراف البلاذري٢: ٢٩٨، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٦٢.

(٣) أنساب الأشراف البلاذري ٢: ٢٩٣، ٢٩٥ـ ٢٩٦، الإمامة والسياسة ١: ٩١، ٩٧، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٢٠، ٣٤، ٤١، وقعة صفّين: ١١٦ ـ ١١٧، ١٢٤، ١٢٧، ٢٠٦، الأخبار الطوال: ١٧١ ـ ١٧٢، الفتوح لابن أعثم ٢: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٤) أنساب الأشراف ٢: ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٢٩٧ ـ ٢٩٨، الإمامة والسياسة ١: ٩٠ ـ ٩١، ١٠٧، وقعة صفّين: ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١١٨، ٣١٣.

(٥) أنساب الأشراف ٢: ٢٩٣، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٥٦٣، وقعة صفّين: ١١٧، الأخبار الطوال: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٦) أنساب الأشراف للبلاذري٢: ٣٠٠، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٨، الإمامة والسياسة ١: ٨٦، ٨٨، ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤، ١٠٨، ١١٤، ١١٥، تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ١٥، وقعة صفّين: ٩٢ ـ ٩٤.

ثامن[١]، فقد وردت إشارات منفردة له إلى اشتراك أعداد من أهل المدينة في قوات الإمام عليه السلام دون أن يحدّد هويتهم[٢].

د ـ كان جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يضم عناصر متباينة في الولاء والمفاهيم والاتجاهات، فهناك الأنصار والمهاجرون، وإلى جانبهم أشراف القبائل وأهل القادسية والأيّام، وجماعات الروادف، ومجموعات القرّاء، وهي عناصر تختلف في درجة تقديرها لمصالحها، وفي نظرتها لقريش، ولسلطان المدينة، وفي فهمها لأبعاد الصراع الذي تخوضه[٣]، الأمر الذي يفسّر عدم تجانس الآراء في معسكر الإمام عليه السلام، وعدم انضباط قبائله، لدرجة أنها ظلّت مثار شكواه منذ انطلاقته لمواجهة معاوية حتى استشهاده عليه السلام[٤]. فتميّز معسكر الإمام عليه السلام بعدم تجانسه أو انضباطه وصعوبة انقياده. يقول علي عليه السلام لعدي بن حاتم: «أدن»، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: «ويحك، إن عامّة من معي اليوم يعصيني، وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه»[٥].

هـ ـ كان للسياسة المالية للإمام عليه السلام في توزيع العطاء دور كبير في ذلك، فمنذ مطلع خلافته في المدينة اتّبع سياسة المساواة، التي لم تفضّل أحداً على

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٤: ٤٧، المصنف لابن أبي شيبة ٨: ٧١٠، رسائل الجاحظ، رسالة في الحكمين: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، ٢٥٠، الفتوح لابن أعثم: ١: ٩٩، العقد الفريد ٤: ٣٢٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٥: ١٥.

(٣) أنساب الأشراف ٤: ٥٦٣، رسائل الحاحظ، رسالة في الحكمين: ٤٢٦ ـ ٤٢٧، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٥٩، الفتنة لطه حسين: ٢: ٨١.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢: ٤٣٨، ١٤٥، ١٤٦، الإمامة والسياسة ١: ٨٦ ـ ٨٧، ١١٠، ١١١، ١١٧، ٣٤ ـ ١٣٥، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٧، ٤٢، ٦٧، وقعة صفّين: ٧٨، ١٩١.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد ٨ : ٧٧.

أحد[١]، فقد كان يؤكّد دائماً على وجوب توزيع الأموال في الأمصار؛ لأنه ينبغي لبيت مال المسلمين أن لا يأتي عليه يوم أو جمعة إلا كان هكذا، ليس فيه شيء؛ قد أخذ كل ذي حقّ حقّه[٢].

وقد كتب ابن عبّاس للإمام الحسن عليه السلام: «وقد علمت أن أباك عليّاً إنّما رغب الناس عنه، وصاروا إلى معاوية؛ لأنه واسى بينهم في الفيء، وسوّى بينهم في العطاء، فثقل ذلك عليهم»[٣]. وقال رجل لأبي عبدالرحمن السلمي: أنشدك الله، متى أبغضت علياً عليه السلام؟ أليس حينما قسّم قسماً في الكوفة، فلم يعطك ولا أهل بيتك؟ قال: «أما إذا نشدتني، فنعم»[٤].

وـ أيّدت قبائل الشام[٥]، وقياداته ورجالاته[٦] معاوية في صراعه مع الإمام عليه السلام معلنة دعمها المطلق له في مطالبته بالثأر لدم عثمان[٧]، مع بروز ظاهرة خلو معسكر معاوية من المهاجرين والأنصار[٨]، فهم لم يتجاوزوا أصابع

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٣، مروج الذهب ٢: ٣٥٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٢٠٣.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢: ١٣٢ ـ ١٣٣، ١٤٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، وقعة صفّين: ١٠٦.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٤: ١٤٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦: ٢٣.

(٤) أبهج الصباغة ١٢: ١٩٧.

(٥) أنساب الأشراف ٢: ٢٩٨، تاريخ الأمم والملوك ٥: ١١٤، ٢٤، ٢٥ ـ ٢٦، ٣٤، ٣٦، وقعة صفّين: ٤٩، ٢٣٣، ٨١١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ٨٦.

(٦) أنساب الأشراف للبلاذري ٢ : ٢٩٨، ٣٠٣ ـ ٣٠٥، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٧، ١١٨، ج١، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٤، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٥٦٦، ٥٦٨، ٥٧٢، ٥٧٤، و٥: ٧ ـ ٨، ١١، ١٢، ٢٠ ـ ٢١، ٣٥، ٣٦، ٣٧، وقعة صفّين: ١٧٤، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٥٥، ٢٧٣، ٤٢٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٩٠، ٥٣٥، تاريخ خليفة بن خياط ١: ٢٢٢، الأخبار الطوال : ١٧٢ ـ ١٧٣، ١٧٦، ١٨١، ١٨٢. مروج الذهب: ٢: ٣٧٨، ١٨٣، ٣٨٨.

(٧) أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٢٧٥ ـ ٢٧٧، الإمامة والسياسة ١: ٨٤، ٨٨، تاريخ الأمم والملوك ٤: ٤٤٤، ٥٦١، ٥٦٢، رسائل الجاحظ، رسالة في الحكمين: ٣٧، ٣٤٩.

(٨) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٨٦ ـ ١١٤.

اليد[١]. وجرى تجميع الجيش الشامي وقيادته من قبل القادة القبليين، وحارب تحت الرايات العشائرية مستخدماً الصرخات العشائرية التي تعود إلى حروب الجاهلية[٢]. فقد كانت الحرب من جهتهم جاهلية بكل معنى الكلمة، فكان جيش معاوية في صفّين مثل أي قبيلة تتطلّب الثأر في الجاهلية، ولم يخطر على بالأحد في معسكر معاوية أن يعترض بأن معاوية ليس ولي دم عثمان، وأن هناك حاكماً شرعياً يجب العودة إليه، وهذا أدنى ما جاء به الدين الحنيف، فكان معسكر معاوية في صفّين يطلب دماً ليس هو وليّه، من جيش علي عليه السلام الذي ليس هو القاتل! بل يمكن أن يقال: إن هذا الوعي للمسألة لم يكن موجوداً حتى عند أهل العراق!

ز ـ برزت ظاهرة انسجام المعسكر الشامي وتجانسه وانضباطه وسهولة انقياده لقادته[٣]. فقد وقف أهل الشام مع معاوية وشكّلوا الجزء الأساسي من جيشه، وكانوا الأكثر انضباطاً، وتدريباً واحترافية، وحاولوا تطبيق خططهم العسكرية خلال المعركة. وقام المشاة منهم بمناورات عسكرية[٤]، وجرت المعركة بمعظمها بين جيوش المشاة، ودار القتال بواسطة النبال والرماح والسيوف. واستخدمت الخيول لجلب المقاتلين إلى أرض المعركة، وقام الخيّالة بدور الكشّافة أو بمواجهة خيّالة العدو، وقُسّم الجيش السامي إلى ثلاثة أفواج: ميسرة وقلب وميمنة[٥].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٨.

(٢) Hinds, "The Banners and Bttle Cries" , ١٨ .

(٣) أنساب الأشراف ٢: ٤٣٨ و٤: ١٧، ١٤٥، ١٤٦، الإمامة والسياسة ١: ٨٤، ٨٦ ـ ٨٧، ١١١، ١١٧، ١١٧، ١٥٩، ١٣٤، ١٧٥، تاريخ الأمم والملوك ٥: ٤٢، ٤٣٥، وقعة صفّين: ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك ٣: ٨٩

(٥) يستند هذا الوصف إلى نصّي المنقري والدينوري. والأول أكثر انسجاماً من الآخر الذي يبقى عرضةً لبعض الخلط والتشويش.

وكان كلّ فوج مؤلفاً من مشاة وخيالة. الميسرة كانت فوج اليمن، والميمنة تشكّلت من قيسيّي قنّسرين والجزيرة، والقلب كان فوج الدمشقيين (يمن وقيس).

أظهر الإنضباط وإطاعة الأوامر، ما مكّن أهل الشام من الصمود في وجه أهل العراق غير المنظّمين، إعجاب الإمام عليه السلام، فعرّض بذلك أمام العراقيين، وتمنّى أن يبادله معاوية بأهل الشام، واحد من الشام مقابل عشرة من أهل العراق!

ولكن حماسة القبائل اليمنية لدعم معاوية لم تتحرّك بمشاعر الوفاء والإخلاص، بل بتأثير العطاءات المالية والغنائم والسلطة، فقد مارست هذه القبائل تحرّكها العسكري، الذي قبضت ثمنه، بانضباط! تماماً كما كانت تستفيد من مشاركتها العسكرية في ظل حكم البيزنطيين.

لقد طلبت قبيلة عكّ، على سبيل المثال، من معاوية بن أبي سفيان أن يحصل ألفان منهم على ألفي درهم لقاء دعمهم كلّ سنة، وإذا ما قتل المستفيد، يحصل ابن عمه على حصته: «افرض لقومي في ألفين ألفين، ومن هلك منهم فابن عمّه مكانه»[١]، فكانت فكانت معركة صفّين فرصة ذهبية لأهل الشام للحصول على المكاسب المالية والسياسية.

س ـ قوة الدوافع الدينية عند أهل العراق وضعفها عند أهل الشام، فقد بدا واضحاً من خلال الروايات تقدير معكسر معاوية واحترامه للإمام عليه السلام ومعسكره، فهو في نظرهم معسكر الصدق، والدين، والتقوى، في حين نجد أن وجهة نظر الإمام عليه السلام ومعسكره في معاوية ومعسكره مختلفة تماماً، فهو معسكر البغاة، والقاسطين، والطلقاء، والمؤلفة قلوبهم، ومحبّي الدنيا والسلطة والحكم والمال، والمفسدين، والسفهاء، والظالمين، والمحلي، وأصحاب الباطل، ومفرّقي الجماعات، وأولياء الشياطين، والملحدين، والطغاة، وشرّاب الخمر، وعبدة أوثان

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٤٢ ـ ١٤٣، وقعة صفّين للمنقري: ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

الجاهلية، والفجرة، والمرتشين. وهي اتّهامات صريحة تشكّك في إسلامهم، وتحط من قدرهم، وتبرز سلبياتهم الكثيرة التي تتعارض في مجموعها مع مبادىء الإسلام وتعاليمه، أما الطبري فتجنّب المسّ بشخصية معاوية، وبدوره في الإسلام، ولم يرو ما يشكّك في إسلامه وفي أخلاقه.

أسباب التقاعس في جيش الكوفة:

١ ـ تربية الإكراه السلطوي السابقة في إجبار الناس على القتال:

إذ ربّى أبو بكر وعمر وعثمان الناس على القوة في أخذهم للحرب وسحبهم للجهاد، وكان من يتخامل منهم يتعرّض للعقوبة، حتى اعتاد أهل العراق على ذلك!

ولكنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام لم يرغب في إجبارهم على السيف والعصا لولوج هذا الباب من الجهاد، واكتفى بالنصيحة والوعظ، وأبى عن استخدام الإجبار والإكراه على الحرب والقاتل، وحصر دعوته إلى الجهاد بمحفزات مشروعه الإسلامي من خلال الدعوة لنيل الثواب الأخروي ومراعاة الشرع ونبذ النعرات الجاهلية البالية، وترك التطوّع للقتال لكي يكون ناتجاً عن الحرية الكاملة للفرد في اختيار طريقه الدنيوي والأخروي.

٢ ـ ثقافة السلب والنهب والحصول على الغنائم وسبي النساء:

تحوّل الطمع بالحصول على الغنائم إلى ثقافة اعتاد المسلمون عليها، فقد فتحوا العراق وغنموا الكثير فيه، وفتحوا مصر وغنموا الأموال الطائلة، وفتحوا إيران وغنموا كنوز الفرس، وهكذا.. في حين أنه لم يكن في حروب الجمل وصفّين والنهروان غنائم ولا سبايا؛ لأن الأعداء فيها كانوا من المسلمين، ولو ظاهراً، ولم يكن مسموحاً شرعاً التعرّض لأموالهم التي ليست في العسكر، أو لأعراضهم، ومع ذلك فقد ألحّ جيش الإمام عليه السلام في حرب الجمل على سبي نساء وأطفال وأموال أهالي البصرة المسلمين، ولمّا بيّن لهم الإمام عليه السلام بطلان رغبتهم شرعاً أثّر هذا في نفوسهم سلباً ونفوراً، وبقي هذا التأثير العميق إلى

الحروب اللاحقة، حيث لم يحصل أهالي الكوفة على غنائم أو سبايا في حربي صفّين والنهروان. ولو أن الإمام عليه السلام قسّم نساء البصرة ونساء الخوارج على عسكره لكانت نتائج الحشد قد أتت مخالفة تماماً لما جرى. ولكن عدم الحصول على غنائم وأسلاب وسبايا من حروب أمير المؤمنين جعلت أهل العراق يرغبون عن حروبه التي لا طائل تحتها حسب ثقافتهم الأعرابية والبدوية الموروثة من الحقبة الجاهلية، والتي عرف كيف يستثمرها الخلفاء السابقون ومعاوية على حد سواء، بينما نجد أن أمير المؤمنين يأبى عن ذلك، ممّا سمح بظهور أثر النفاق الداخلي وسط جيش الإمام عليه السلام، فضعفت عزيمتهم وخارت قواهم وتوجّهوا للراحة والتهاون.

أما جيش معاوية، الذي لا يفرّق بين مسلم وكافر في حروبه، فبقيت ثقافته كما هي: فقد حصلت حملة الضحّاك بن قيس إلى الثعلبية والواقصة وأطراف الكوفة، وغارات النعمان بن بشير على المدائن والأنبار وهيت، على غنائم وفيرة وسبايا مسلمات أباحها معاوية لهم، وفرح بها جند معاوية الغُزاة.

فجيش معاوية ينهض للحرب لهذه الأغراض الدنيوية ويتحمّس لها، والمتخلّف عن جيش الشام يتعرّض لعقوبات صارمة لا رحمة فيها ولا شفقة، لذلك لم يكن جيش الشام يحتاج إلى موعظة للسير للحروب.

ولا ينسى المرء بهذه المناسبة معركة كربلاء، وكيف كانت عقلية السلب والنهب المسيطرة على أهل الكوفة، بل تعرّض الحريم النبوي للسبي، ولو لم تقف السيّدة زينب عليها السلام موقفاً صارماً من يزيد لتورّط في موقف حرج جداً عندما طلب منه أن يهب لأحد طغام الشام إحدى ذخائر النبوة[(١)].

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٨: ١ ـ ٤، تحقيق، إحسان عباس، ١٧.

حياة الإمام الحسن عليه السلام

وما جرى فيها من وقائع وأحداث

نزيهة علي صالح (*)

لا شك أنّ من يتتبع الأحداث التاريخية، ويقيّم الشخصيات عبر التاريخ سوف يصل الى حقيقة مفادها أن الأنبياء والأئمة كانوا من خير البشر على ارض البسيطة منذ خلق الله آدم إلى يومنا هذا. ولا بد للتاريخ أن ينصف هؤلاء الّذين امتازوا بالعصمة ورجاحة العقل والسعي لمرضاة الله.

وقد تطرق بحثنا للكلام عن احدى هذه الشخصيات، وهو الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن فاطمة الزهراء وحفيد خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله. حاولنا من خلال هذه المقالة المتواضعة سرد حياته واظهار ما جرى فيها من أحداث ووقائع منذ ولادته حتى وفاته. وقد كان عليه السلام ممن تربوا على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وعايش الفترة التي تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وخبِر عصر الخلفاء الثلاثة، ووقف الى جانب أبيه الإمام علي عليه السلام واستلم الخلافة بعد استشهاد والده بكل جدارة وحكمة بشخصيته العابدة الكريمة، الى ان دها معاوية بانصار الإمام عليه السلام، فعقد الصلح معه حقناً للدماء وتمهيداً لثورة الإمام الحسين. وعلى الرغم من الصلح فقد سعى معاوية لقتله وقتله مسموماً. إلا أن شخصيته وتعاليمه بقيت الى يومنا يحتذي بها الأحرار الشرفاء.

(*) باحثة إسلامية ـ لبنان.

المقدّمة

اذا كان المشروع الإلهى فى وجود مدرسة الأنبياء والائمة هو بتنوع ادوار كل فرد من افراد هذه المدرسة ومواقفهم تبعاً لعصر كل منهم، فلا بد أن يكون الهدف الاساس لكل الأنبياء والأئمة هو واحد من خلال اقامة العدل الإلهى وتطبيق شرائع الله سبحانه وتعالى، وفى ذلك تحمّل كافة رواد هذه المدرسة على مر العصور والازمنة الكثير من التضحية بالروح وبالولد، أو على الاقل بالصبر وثبات الموقف والكلمة.

والأدوار التى قام بها أهل البيتعليهم السلام رغم اختلافها الظاهري للوَهلة الأُولى، إلا أنّها فى الحقيقة وحدة متكاملة ومنهجية متناسقة؛ حيث كلّ عنصر فيها قام بإكمال دَور العنصر الآخر، وبالتالى هى سلسلة محمدية واحدة تعمل على تحقيق الهدف المنشود، ألا وهو إقامة حكومة العدل الإلهى على يدَي صاحب العصر والزمان الإمام الحجّة المهديعجل الله تعالى فرجه الشريف فى آخر الزمان.

فاختلاف الأدوار فى السيرة الجهادية العطرة لأهل البيتعليه السلام اعطت لكل منهم ميزة خاصة فى عصره وزمانه، وعند استعراضنا للحياة الجهادية لكل منهم نراها مليئة بالمواقف والبطولات والتضحيات، واذا لزم الأمر للصلح والمسالمة لمصلحة الإسلام العليا فيُقدم هذا الأمر كما حصل فى زمن الإمام الحسنعليه السلام.

فمن هو الإمام الحسنعليه السلام؟ وكيف كانت الظروف الاجتماعية والسياسية فى عصره منذ ولادته حتى وفاته؟ وكيف تعامل من هذه الظروف؟ هذه المقالة سوف تتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل، علّنا نبين أهمية ما قام به الإمام

الحسن للأمة الإسلامية على الرغم من الظلم الذي تعرض له في حياته أو حتى بعد استشهاده.

مراحل حياة الإمام الحسنعليه السلام:

وُلد الإمام أبو محمّد الحسن بن علي بن أبي طالب ثاني أئمة أهل البيتعليهم السلام في المدينة المنورة ليلة النصف من شهر رمضان المبارك من السنة الثالثة للهجرة. وكان يكنى بأبي محمد، أما ألقابه فكثيرة أشهرها: التقي والطيب والزكي والسيّد والسبط والوليّ[(١)]، وكذلك الحجّة والمجتبى والزاهد[(٢)].

ونشأ في كنف جدّه النبيصلى الله عليه وآله وفي رعاية أبيه عليعليه السلام وأُمّه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراءعليها السلام بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهو أوّل ولَد يولد من سلالة الرسالة.

وفي أحد الأيّام كان رسول اللهصلى الله عليه وآله يصلّي فإذا سجد وثب الحسن على ظهره أو على عنقه، فيرفع رسول اللهصلى الله عليه وآله رأسه رفعاً رفيقاً لئلاّ يصرع، فعل ذلك غير مرّة، فلمّا قضى صلاته قال المسلمون له: يا رسول الله، رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته بأحد؟ فقال: «إنّه ريحانتي من الدنيا، وإنّ ابني هذا سيّد، وعسى الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين»[(٣)].

فعاش الإمام الحسنعليه السلام سبع سنوات مع رسول الله، عاصر مرحلة حكم الخليفة الأول أبي بكر، ثم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وبعد ذلك الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وخمس سنوات زمن ولاية ابيه الإمام عليعليه السلام، وكان يبلغ من العمر سبع وثلاثين سنة عند استشهاد والده، وتوفي عن عمر يناهز سبع

(١) بحار الأنواري للمجلسي: ٢٥٥.

(٢) مناب آل أبي طالب للمازندراني (بدون تاريخ): ٣٣.

(٣) صلح الحسنعليه السلام لآل ياسين : ١٧، بيروت، الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ١٩٨٠م.

وأربعين سنة.

وكان عليه السلام مرجع الأُمّة الإسلامية الأوحد بعد وفاة الإمام علي عليه السلام في ما كان يعترضهم من مشاكل الحياة وماكان يستصعبهم من أمور الدين. وكان قد بدأ حياته السياسية مبكراً عندما شارك في بيعة الرضوان في عهد جده الرسول صلى الله عليه وآله الذي رعاه بعينه وقلبه وومضه من روحه وأورثه هيبته وسؤدده وقال فيه الكثير، وكان يشبه النبيّ صلى الله عليه وآله خَلقاً وهيئةً، كما جاءت به الأخبار ونصّ عليه المؤرخون(١). فعن زينب بنت أبي رافع عن أُمّها قالت: قالت فاطمة عليها السلام: «يا رسول الله، هذان ابناك فانحلْهما»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمّا الحسن فنحلتُه هيبتي وسؤددي، وأمّا الحسين فنحلتُه سخائي وشجاعتي»(٢). وأيضاً في قوله صلى الله عليه وآله في حقّ الإمام الحسن عليه السلام: «لو كان العقل رجلاً لكان الحسن عليه السلام»(٣). وقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامة الحسن عليه السلام بقوله صلى الله عليه وآله: «يا علي، أنا وأنت وابناك الحسن والحسين، وتسعة من وُلد الحسين أركان الدين ودعائم الإسلام، مَن تبعنا نجا، ومَن تخلّف عنّا فإلى النار»(٤).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولَده الحسن عليه السلام ومقامه السامي، حيث كان يسأله عن المسائل المختلفة أمام مرأى ومسمع الملأ من أصحابه، وقد تركّزت أسئلته على الزهد والسداد والكرم والإخاء والمَنعة وغيرها، وكان الإمام عليه السلام يجيب عليها بأجوبة مختصرة شافية(٥). وكان عليه السلام يكلّف الإمام الحسن عليه السلام بالمهام الصعبة، ويبعثه لحلّ الأزَمات، ويُشركه في

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٧.

(٢) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٣٤، بيروت، الأعلمي للمطبوعات، ط١.

(٣) فرائد السمطين للخرساني: ٦٨، بيروت، المحمودي للطباع والنشر، ط١.

(٤) مرتضى، جعفر، الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام: ١٦، بيروت دار المسيرة، ط١.

(٥) الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ١٥٨، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١.

المواقف الحرجة.

التحق الإمام الحسن عليه السلام ـ وهو في العشرين من عمره ـ بجنود المسلمين المتجهة إلى أفريقيا بقيادة عبد الله بن نافع. كما التحق مع أخيه الحسين عليه السلام بجيش المسلمين بقيادة سعيد بن العاص لفتح خراسان في سنة ٣٠ هـ.

ومع أنّ التأريخ لم يحتفظ لنا بتفاصيل عن حياة أهل بيت النبوّة خلال العقود الثلاثة المظلمة، إلا أنّه ذكر نزراً يسيراً من بعض مواقفهم وأخبارهم، منها كلمات الإمام الحسن عليه السلام عند توديعه لأبي ذر عندما أمر عثمان بنفيه الى الربذة، قال: «يا عمّاه، لولا أنّه ينبغي للمودّع أن يسكت وللمشيّع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك فضع عنك الدنيا بتذكّر فراغها وشدّة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيّك ويحكم الله بينك وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين».

وقد عهد أمير المؤمنين عليه السلام بالإمامة لابنه الحسن عليه السلام، في اليومين الأخيرين من حياته عليه السلام، حيث أدناه وأوصى إليه قائلاً: «يا بنيّ إنّه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك، وأدفع إليك كُتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كُتبه وسلاحه، وأمَرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين»[(١)].

وبايعه أربعون ألفاً من الناس لخلافة والده الإمام علي عليه السلام بالقول: «ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة»[(٢)]. وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بمبايعة العراق وخراسان والحجاز واليمن[(٣)].

---

(١) إعلام الورى للطبرسي: ٢٠٧، النجف، منشورات المكتبة الحيدرية، ط٣.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٧٠، بيروت، دار صادر، ط١.

(٣)، أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: ٤٩١، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١.

وتميّز الإمام الحسن عليه السلام بخصائص قيادية فريدة، جعلت معاوية يوصي أصحابه باجتناب محاورته[(١)]؛ لأنّه كان أحسن الناس منطقاً في زمانه، وكان معاوية يخشاه ويتخوّف من عودة الخلافة إليه؛ لتمتّعه بخصائص لا يتّصف بها غيره[(٢)]؛ لذا كبّر عند موته عليه السلام وقال: «والله ما كبّرت شماتة لموته، ولكن استراح قلبي، وصَفَت لي الخلافة».

ومن كفاءاته في الحكم والخلافة عليه السلام أنّه وجد أنّ مصلحة الإسلام تكمن في الصلح فصالح معاوية، وحقَن دماء أنصاره وأتباعه وسائر المسلمين، ولم يدخل في معركة خاسرة لا تُحسم لصالحه ولصالح الوجود الإسلامي.

أخلاقه:

اتّصف الإمام الحسن عليه السلام كما هو حال باقي الأئمة بكل فضيلة وانقطع عن كل رذيلة، فالإمام مجمع صفات الكمال وإليه تنتهي مكارم الأخلاق، لكن مع ذلك فقد أشتهر كل إمام بصفات معيّنة كان له فيها الصدارة على غيره من الناس.

ومن تلك الصفات الأخلاقية التي اشتهر فيها الإمام الحسن عليه السلام هي الهيبة والشرف وجلالة القدر، فقد روي: أنّه كان يُبسط له على باب داره، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، فلا يمرّ أحد من الناس إجلالاً له، فإذا علم دخل بيته فمرّ الناس. ولقد كان يمشي في طريق مكّة فما يراه أحد من خلق الله ماشياً إلا نزل ومشى حتى كان سعد بن أبي وقاص ينزل من راحلته ويمشي خلفه[(٣)].

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ٣٣٨، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣.

(٢)وفيات الأعيان لابن خلكان ٢: ٩٩ (بدون تاريخ).

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ٣٣٨.

وفي المناقب: قيل للحسن بن علي عليهما السلام: إنّ فيك عظمة، قال: «بل فيَّ عزّة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ﴾». وقال واصل بن عطاء: «كان الحسن بن علي عليهما السلام عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك»[1] .

واشتهر الإمام الحسن عليه السلام أيضاً بالكرم والسخاء، فقد روي: أنّ رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمس مائة دينار، وقال له: «ائت بحمّال يحمل لك»، فأتى بحمّال فأعطى طيلسانه وقال: «هذا كرى الحمّال»[2].

وروى ابن شهر آشوب في المناقب عن البخاري: أنّ الحسن عليه السلام وهب رجل ديته، وسأله رجل شيئاً فأمر له بأربع مائة درهم[3].

وقال أنس: حيّت جارية الحسن عليه السلام بطاقة ريحان، فقال لها: «أنت حرّة لوجه الله». فقلت له في ذلك:، فقال: «أدّبنا الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّة فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ وكان أحسن منها إعتاقها»[4].

واشتهر الإمام الحسن عليه السلام أيضاً بالتواضع وحبّ الفقراء والمساكين، فقد روي: أنّه مرّ على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا: هلمّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء. فنزل وتلا قوله تعالى: ﴿إنّه لا يُحبُّ الْمُسْتَكْبرينَ﴾[5]. وجعل ياكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته عليه السلام، ثم دعا لهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم[6].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ١٠٨، دمشق، دار الفكر، ط٢.

(٣) المصدر السابق: ٣١٧.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٨، بيروت، دار إحياء التراث.

(٥) سورة النحل: الآية (٢٣).

(٦)حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ١٠٨.

عبادته:

كان الإمام الحسن عليه السلام مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام أعبد الناس فى زمانهما؛ لأنّهما المصداق الأمثل للغاية التى من أجلها خلق الله تعالى الإنسان: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنسَ إلا ليَعْبُدُون**﴾. وقد روي فى عبادته الشىء الكثير، فقد كان عليه السلام مستغرقاً فى الله تعالى طول وقته. فقد روي: أنّ الحسن عليه السلام كان إذا توضأ ارتعدت مفاصله، واصفرّ لونه. فقيل له فى ذلك فقال: «حقّ على كل من وقف بين يدي ربّ العرش أن يصفر لونه وترتعد مفاصله»[١] .

وكان إذا فرغ من الفجر لم يتكلّم حتى تطلع الشمس وإن زَحزح . وقال الصادق عليه السلام:«إنّ الحسن بن على عليهما السلام حجَّ خمسة وعشرين حجّة ماشياً، وقاسم الله تعالى ماله مرتين»[٢] .

وأيضاً عن الصادق عليه السلام: «حدّثنى أبى، عن أبيه عليهما السلام: أنّ الحسن بن على عليهما السلام كان أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجَّ ماشياً، وربّما مشى حافياً، وكان إذا ذُكر الموت بكى وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممرّ على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى شهق شهقة يغشى عليه منها، وكان إذا قام فى صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عز وجلّ، وكان إذا ذكر الجنّة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنّة وتعوّذ من النار»[٣].

---

(١) الأنوار البهية للقمي: ١٧٥، بيروت، دار الأضواء، ط ١.

(٢) الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ١٤١،، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ١، ١٩٦٢م

(٣) المصدر نفسه.

وكان إذا بلغ باب المسجد رفع رأسه وقال:«ضيفك ببابك، يا محسن، قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم»[(١)].

وللإمام المجتبى عليه السلام أدعية شتّى رُويت عنه، وهي تتضمّن مجموعةً من المعارف والآداب، كما تحمل أدب التقديس لله تعالى والخضوع له والتذلّل بين يديه.

تواضعه وزهده:

كان الأئمة الأطهار يعلمون أنّ التواضع دليل على كمال النفس وسموّها وشرفها، والتواضع لا يزيد العبد إلا رفعةً وعظمةً، وقد حذا الإمام الحسن عليه السلام حذو جدّه وأبيه في أخلاقه الكريمة، وقد نقل لنا المؤرخون الكثير من حكايات هذا الخلق الرفيع الخاص بالإمام الحسن، منها:

مرّ الإمام على جماعة من الفقراء قد وضعوا على الأرض كسيرات وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: هلمّ يا بن بنت رسول الله الى الغذاء، فنزل عليه السلام وقال: «إنّ الله لا يحبّ المستكبرين»، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته، ثم دعاهم الى ضيافته وأطعمهم وكساهم[(٢)].

ومن جملة مظاهر زهده أيضاً: ما حدّث به مدرك بن زياد أنّه قال: «كنّا في حيطان ابن عباس، فجاء ابن عبّاس وحسن وحسين فطافوا في تلك البساتين ثم جلسوا على ضفاف بعض السواقي، فقال الحسن: يا مدرك! هل عندك غذاء؟ فقلت له: نعم، ثم انطلقت فجئته بخبز وشيء من الملح مع طاقتين من بقل، فأكل

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: ١٨٠.
(٢) المصدر السابق: ١٨٧.

منه، وقال: يا مدرك! ما أطيب هذا؟! وجيء بعد ذلك بالطعام وكان في منتهى الحُسن، فالتفتعليه السلام الى مدرك وأمره بأن يجمع الغلمان ويقدّم لهم الطعام، فدعاهم مدرك فأكلوا منه ولم يأكل الإمام منه شيئاً، فقال له مدرك: لماذا لا تأكل منه؟ فقالعليه السلام : إنّ ذاك الطعام أحبّ عندي»[1].

حياته الاجتماعية:

أنجب الإمام الحسنعليه السلام خمسة عشر ولداً، سبعة منهم من ثلاث نساء، هنّ: اُمّ بشير بنت أبى مسعود بن عقبة الخزرجية، وخولة بنت منظور الفزارية، وأمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمى. والباقى من أمهات أولاد ثلاث أو أربع.

وأما ما اشتهر على الألسن من أنّ الحسنعليه السلام قد تزوج نساء كثيرة قد وصل عددها إلى ثلاث مائة، وأنّه مزواج مطلاق، وأنّ أمير المؤمنينعليه السلام قد حذّر الناس من على منبر الكوفة من تزويجه فهى دعايات أموية غرضها الحطّ من شخصية الإمام الحسنعليه السلام وإظهاره بمظهر الرجل الشهوانى الذي لا يهمّه من أمر الدين والأُمّة إلا التلذّذ بالنساء. وقد اتسعت هذه الدعايات فى العصور اللاحقة كسياسة تبريرية لما كان يمارسه خلفاء السوء من تجميع النساء بأعداد غفيرة للشهوات البهيمية.

وهذه الدعايات لا تصمد أمام النقاش العلمى للأسباب التالية:

* إنّ أصل القصّة ـ أي الزواج بثلاث مائة، قد نقلها أبو طالب المكى فى كتابه "قوت القلوب" ثم أخذها الآخرون منه، وهو رجل صوفي من أهل السنّة.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر: ٤٠، بيروت، المحمودي للطباعة والنشر، ط١.

* انّ الحسن عليه السلام لم يرزق إلا خمسة عشراً ولداً طيلة حياته التى استمرت خمسين عاماً تقريباً، ولو كان قد تزوج بمثل هذا أو نصفه أو ربعه أو عشره لكان قد أنجب من الأولاد بالمئات.

* إن التاريخ لم يحتفظ لنا إلا باسماء هذه النساء الثلاثة فقط، ولو كان الحسن عليه السلام مطلاقاً، وأنّه طلّق أكثر من سبعين امرأة، لذكر ذلك؟ لأنّه محلّ افتخار وتباه عند المسلمين أن يتزوّج منهم الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وآله .

إنّ الأخبار قد تضاربت فى عدد النساء التى تزوجهنّ أو طلّقهنّ الحسن عليه السلام، ولو كانت حقّاً لما اختلفت هذا الاختلاف الشديد.

وأولاده الذكور هم: زيد، والحسن، وعمرو، والقاسم، وعبد الله، وعبد الرحمن، والحسين، وطلحة[1].

وذهب ابن شهر آشوب فى المناقب إلى أن أولاده أربعة عشر، منهم عشر ذكورا[2].

مواقفه في عهد الخلفاء الثلاثة:

عاصر الإمام الحسن عليه السلام الخليفة الأوّل أبا بكر مدة سنتين كانتا مليئتين بالمواقف. حيث جاء يوماً إليه وهو يخطب على المنبر، فقال له: «انزل عن منبر أبى»، فاجابه أبو بكر: صدقت والله، إنّه لا منبر أبى. ويعتبر ذلك موقفاً جريئاً فى مواجهة الرجال على مستوى الحاكم كأبى بكر.

وعاش الإمام الحسن مدة عشر سنوات في عهد الخليفة الثاني، وفي عهده

---

(١) الإرشاد للمفيد: ١٦٣، النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ١٦٨.

هذا بلغ الإمام الحسن عليه السلام مرحلة الفتوة وشارك فى الشورى السداسية التى عقدها الخليفة الثانى بعد تعرضه لمحاولة الاغتيال وطعنه بخنجر.

فقد رتب عمر قضية الشورى على النحو المعروف، حيث قال للمرشحين: «وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس، فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة فى حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر عبد الله مستشاراً وليس له من الأمر شيء»، فحضر هؤلاء، وقد قبل الإمام الحسن حضور جلسات الشورى، وكان حضوره يعنى انتزاع الاعتراف من عمر بأنه ممن يحق له المشاركة السياسية، حتى فى أعظم وأخطر قضية تواجهها الأمة. كما أشرف الإمام عليه السلام على الشباب فى خلافة عمر، انصرف مع أبيه الى تعليم الناس وحلّ مشاكلهم فى هذا العهد.

وعاش الإمام الحسن عليه السلام مدة اثنتى عشرة سنة فى عهد عثمان ووقف الى جانب أبيه عليه السلام، وعمل مخلصاً لأجل الإسلام، واشترك مع أبيه فى وضع حدّ للفساد الذي أخذ يستشري في جسم الأُمّة والدولة الإسلامية أيّام عثمان.

دوره في حياة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام:

شارك عليه السلام مع أبيه فى معارك الجمل وصفين والنهروان، فقاد ميمنة الجيش فى معركة صفّين وتمكُّن من كسر شوكة العدو حتى كان النصر قاب قوسين أو أدنى، لولا الفتنة التى افتعلها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري حتى كان ما كان من مهزلة التحكيم. وقد تميز الإمام بقيادته الميدانية، وكان دائماً الى جانب ابيه في كل ما يقول ويفعل، واشترك معه في جميع حروبه.

واستلم الإمام الحسن السلطة بعد أبيه، ونجح في كشف واقع معاوية المنحرف من خلال الصلح المشروط الذي وقّعه معه. وتمثلت تلك المرجعية في تربيته لكوكبة من طلاب المعرفة وتصديه للانحرافات الدينية التي كانت تؤدي إلى مسخ الشريعة، كما تصدى لمؤامرة مسخ السنة النبوية الشريفة التي كان يخطط لها معاوية بن أبي سفيان من خلال تنشيط وضع الأحاديث والمنع من تدوين الحديث النبوي.

حياته العلمية:

أنشأ الإمام مدرسته الكبرى في يثرب، بهدف نشر الثقافة الإسلامية في المجتمع الإسلامي، وقد جمعت هذه المدرسة كبار العلماء وعظماء المحدثين والرواة، فكانوا خير عون لأداء رسالة الإمام عليه السلام الإصلاحية.

وقد ذكر المؤرخون بعض أعلام تلامذته ورواة حديثه[(١)]. وكان يُعرف عليه السلام بعطفه على الفقراء الّذين كانوا يستجيرون به وكان يوصي بهم دائماً، مع عدم اغفاله لمراقبة الأحوال الاجتماعية العامة للأُمة، في نفس الوقت الذي كان يمارس نشاطه السياسي المنظم والذي كان يتمثل في استقباله لوفود المعارضة، وتوجيههم ودعوتهم إلى الصبر.

وقد تميز عليه السلام بتعريفه لمصطلحات الأخلاق، فكان يجيب على كافة الأسئلة التي كان قد نهلها من علم الإمام علي عليه السلام الذي بدوره كان قد نهلها من علم الرسول صلى الله عليه وآله، ومنها على سبيل المثال:

ـ **الجبن**: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو.

---

(١) إعلام الورى، للطبرسي: ١٧٥ ـ ١٧٦.

ـ **السفه:** اتّباع الدناة ومصاحبة الغواة.

ـ **الغفلة:** ترك المسجد وطاعة المفسد.

ـ **أهم الرذائل فى هلاك الناس:** الكبر والحرص والحسد،

ـ **الكبر:** هلاك الدين وبه لُعن إبليس.

ـ **الحرص:** عدو النفس وبه أُخرج آدم من الجنة.

ـ **الحسد:** رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل.

ـ **السياسة:** هى أن تراعى حقوق الله وحقوق الأحياء وحقوق الأموات[1].

ـ **حقوق الله:** أداء ما طلَب والاجتناب عمّا نهى.

ـ **حقوق الأحياء:** أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخّر عن خدمة أُمّتك، وأن تخلص لوليّ الأمر ما أخلص لأُمّته، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا حادَ عن الطريق السويّ.

- **حقوق الأموات:** هى أن تذكر خيراتهم، وتتغاضى عن مساوئهم، فإنّ لهم ربّاً يحاسبهم.

خلافته:

وبعد أن قتل الحسن عليه السلام قاتل أبيه بضربة واحدة كما أمره أبوه عليه السلام اجتمع عليه الناس فى المسجد، فقام خطيباً فيهم، قال فيها بعد الحمد والثناء لله جل جلاله مؤبّناً والده الكريم ومعرّفاً للناس نفسه:

«لقد قُبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه، وأينما وجّهه رسول الله كان

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام للعاملي: ٧.

جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفّى فى الليلة التى عرج فيها عيسى بن مريم إلى السماء وقُبض فيها يوشع بن نون وصىّ موسى، وما خلّف خضراء ولا بيضاء سوى سبع مائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يبتاع فيها خادماً لأهله، وقد أمرنى أن أردّها إلى بيت المال».

ثم بكى وبكى الناس من حوله حتى ارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب، وعاد إلى حديثه بعد أن أنصتَ الناس، قال:

«أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على، وأنا ابن النبىّ والوصىّ، وأنا ابن البشير النذير والداعى إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الّذين كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وافترض مودّتهم على كل مسلم فقال فى كتابه: ﴿**قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فيهَا حُسْنًا**﴾[1]، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت»[2].

وبعد انتهاء الخطبة قام عبد الله بن عباس وطلب من المسلمين البيعة للإمام الحسن عليه السلام قائلاً: «معاشر الناس، هذا ابن نبيّكم ووصىّ إمامكم فبايعوه»، فاجتمع عليه المسلمون وبايعوه، وكان أول مَن بايعه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري قائلاً: «ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه وقتال المحلّين». فقال له الإمام الحسن عليه السلام: «إنّ البيعة على كتاب الله وسنّة نبيّه تغنى عن هذا الشرط؛ لأنّ فيهما تبيان كل شيء، وهما يأمران بقتال المحلّين والباغين والمفسدين كما يأمران بالصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الفرائض»[3].

---

(١) سورة الشورى: الآية (٢٣).

(٢) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٧٢.

(٣) المصدر السابق: ٧٣.

وقد سار الإمام الحسن عليه السلام على نهج أبيه عليه السلام في إقامة العدل والقسط والمساواة في العطاء بين المسلمين، وأقرّ ولاة أبيه على ولاياتهم، وحثّ الناس في خطبه المتكرّرة على التمسّك بالتقوى ووحدة الصف والتأهب لقتال عدوّهم.

وقد بادر الإمام الحسن عليه السلام إلى تبادل الرسائل مع معاوية إعذاراً له وإتماماً للحجّة قبل إعلانه الحرب عليه. وأجابه معاوية على آخر رسالة يعرض عليه التنازل عن الخلافة مقابل أموال طائلة وأن يكون له الأمر من بعده، ثم جيّش الجيوش وسار نحو العراق.

صلحه مع معاوية:

عند الحديث عن سيرة الإمام الحسن عليه السلام، فإنّه يتبادر مباشرة للذهن صُلحه مع معاوية. ولكنه قبل الصلح كان قد أعَدّ الجيوش والمقاتلين لقتال معاوية عندما سمحت له الظروف بذلك، لكن عامل المفاجأة الذي برز في صفوف جيشه، كبروز حالات الخيانة والغدر، دفعه نحو الصُلح مع معاوية وله القول الشهير: «والله، لو وجدت أنصاراً لقاتلت معاوية ليلي ونهاري»[١].

وفي موقع آخر يردّ عليه السلام على عبد الله بن الزبير، الذي كان يُعلن مناوئته له، قائلا: «وتزعم أنّي سلّمت الأمر، وكيف يكون وويحك كذلك، وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتني فاطمة سيدة نساء العالمين، لم أفعل ذلك ـ ويحك جُبناً ـ ولا ضعفاً».

وفور إبرام الصلح صعد معاوية المنبر في جمع غفير من المسلمين، وقال: «إني ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد اعطيت

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٥١، بيروت، شركة الكتبي للطباعة والنشر، ط١.

الحسن شروطاً كلّها تحت قدميّ»[١].

وهنا تظهر الحكمة من قبول الإمام عليه السلام الصلح مع معاوية لتكون دليلاً على افتضاحه، فقام معاوية واستلحق زياداً بأبى سفيان وهو ولده من الزنى، ثم قام بقتل حجر بن عدي، وعشرة من أعلام خيار الصحابة والتابعين بمرج عذراء فى بلاد الشام، ثم بعد ذلك قتل الصحابى الجليل عمرو بن الحمق، وحمل رأسه الى الشام، وهو أول رأس حمل فى الإسلام[٢].

استمرّ الإمام الحسن عليه السلام فى مسيرته الجهادية ضد معاوية حتى بعد وقوع الصلح، وعمل على تمهيد الأرضية المناسبة للثورة الحسينية الكربلائية، وشهادته وقتله مسموماً خيرُ دليل على ذلك. فلو كان رجل مسالمة وصُلح مع العدوّ فلا تأثير له على نظام معاوية ما دام كذلك.

كان الإمام الحسن عليه السلام رجل ثورة ضد الظلم بكلّ ما للكلمة من معنى، سواء كان ذلك الجهاد بالكلمة أو بالسيف؛ ولهذا أصبح استمرار جهاد الإمام الحسن عليه السلام ضد معاوية ونظامه المتغطرس عامل خوف ورعب لهم، وكان يشكّل خطراً يهدّد كيان النظام الأموي، ما دفع معاوية لوضع حدّ له.

وبناءً على ذلك فإنّ الكثير من البحوث والدراسات، غالبيّتها تتناول الجانب الفكري والأخلاقى لأئمة أهل البيت عليهم السلام، فى حين أنّ الجانب الجهادي والقتالى يبقى غامضاً فى كثير من الأحيان، وخاصة سيرة الإمام الحسن عليه السلام، حيث أغلب الدراسات والبحوث التى تناولت حياته المباركة، تحمل عنوان صلحه مع معاوية وكأنه رجل صلح ومهادنة فقط. إلا أنّ حقيقة سيرته الجهادية

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ١٨.

(٢) المصدر السابق: ١٨ ـ ١٩.

هى أعظم وأشمل من ذلك، وكما هى سير بقية الأئمة عليهم السلام، كسيرة الإمامين السجّاد والصادق عليه السلام؛ حيث برزت التكتّلات والتشكيلات السرّية تحت إشرافهم وتوجيهاتهم، كعصر الإمام السجاد عليه السلام الذي تميّز بنشر الفكر الأخلاقى والعبادي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتميّز عصر الإمام الصادق عليه السلام بنشر فقه وعلوم أهل البيت عليه السلام، كما كان هدف الإمام الحسن عليه السلام تأسيس حكومة إسلامية للمستقبل القريب، فى قوله عليه السلام: «ما ندري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين» فى جوابه للمسيب بن نجيه ولآخرين عندما سألوه عن سبب سكوته[(١)].

وروي: أنّه صلى الله عليه وآله أخبر بما يجري على الإمام الحسن عليه السلام من بعده، فيقول: «إنّ ابنى هذا سيد، وسيُصلح الله على يديه بين فئتين عظيمتين»[(٢)]، وقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان، قاما أو قعدا»[(٣)].

وممّا يدخل فى الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام فى عهد جدّه النبى صلى الله عليه وآله هى قضية المباهلة مع علماء نصارى نجران الّذين ناظروا رسول الله فى عيسى، فأقام عليهم الحجّة، فلم يقبلوا بها، ثمّ اتّفقوا على المباهلة أمام الله؛ ليجعلوا لعنة الله على الكاذبين. وفى اليوم المحدّد خرج إليهم النبى صلى الله عليه وآله ومعه على وفاطمة والحسنان عليه السلام، وأمام ذلك طلب نصارى نجران من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعفيهم من المباهلة.

شارك عليه السلام في الكثير من حروب الدفاع عن بيضة الإسلام، وفي كثير من

---

(١) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام للإمام الخامنئي: ١٤٣ و١٤٦، مركز بقية الله الأعظم للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

(٢) أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢: ١٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١.

(٣) الإرشاد للمفيد: ٢٢.

الفتوحات الإسلامية مردّداً ما كان الإمام علي يقوله: «والله، لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن جَور إلا عليّ خاصّة». وقد نقلت كُتب التاريخ ومرويّاته هذه الحقيقة، وممّا جاء في «العبر» لابن خلدون: «وتطلّع المسلمون إلى البصرة والفتح متفائلين بوجود صغير الرسول وحبيبه يجاهد معهم، وكانت الغزوة ناجحة وموفّقة كما يصفها المؤرّخون، وعاد الحسن منها إلى مدينة جدّه وقلبه مفعَم بالسرور، وعلامة الارتياح بادية على وجهه الكريم لانتشار الإسلام في تلك البقعة من الأرض»(١).

قبل عملية الصلح كثُرت الرسائل المتبادلة بين الإمام عليه السلام ومعاوية، وكان أهمّها كتاب الإمام عليه السلام له بوجوب التخلّي عن انشقاقه والانضواء تحت لوائه الشرعي، إلا أنّ معاوية رفض ذلك، وكان جوابه الأخير لرسولَي الحسن عليه السلام إليه، أنّه قال لهما: «ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف».

وهكذا ابتدأ معاوية العدوان، ممّا دفع الإمام الحسن عليه السلام لإعلان التعبئة لحرب معاوية بن أبي سفيان، ولكنّه أُصيب بخيبة أمل كبيرة حينما انكشف له واقع الجماهير التي يقودها، والتي أثّرت فيها الدعايات الأُمَوية، ولكن هذا النداء وصل إلى أسماع بعض المخلصين، الّذين عبّروا عن إخلاصهم بتأنيب الناس، وتحريضهم على النهوض بمسؤولياتهم الرسالية، وعاهدوا الإمام الحسن عليه السلام على المضي قُدُماً في نصرة الحقّ ومواجهة الطغيان. ففهم معاوية أنّ استيلاءه على الحكم بقوة السلاح لن يعطيه الصبغة الشرعية، ما دفعه إلى التقدّم بعَرض فكرة الصلح على الإمام الحسن عليه السلام، وترَك للإمام أن يشترط ما يريد، وكان معاوية عارفاً بأنّ مثل هذه الفكرة ستثير الفِتَن بين صفوف أنصار الإمام، وبالفعل

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٠٩، بيروت، دار صادر، ط١.

أثمرت فكرة الصلح نتائجها، حيث يذكر الشيخ المفيد فی إرشاده والطبرسی فی إعلام الوری: أنّ أهل العراق کتبوا إلی معاویة السمع والطاعة واستحثّوه علی السَير نحوهم، وضمنوا له تسلیم الحسَن إليه إذا شاء، عند دُنوّه من معسكرهم، أو الفتْك به[1]. ونتيجة لهذه الخيانة كان الحسن عليه السلام لا یخرج بدون لامَة حرْبه، ولا ینزعها حتی فی الصلاة.

فالإمام الحسن عليه السلام لم يفكّر قطّ بالصلح مع معاوية أو مهادنته، غير أنّه بعد أن تكاثرت لديه الأخبار عن تفكّك جيشه، وانحياز أكثر القادة إلی جانب معاوية، قرّر أن يدفع بأعظم الضرَرَين:

١ـ الاستمرار بحرب خاسرة لا محالة، فيها فناؤه، وفناء أهل بيته وبقية الصفوة الصالحة.

٢ـ القبول بالصلح وحقن دماء أهل بيت النبوّة والعصمة وبقية الصفوة الصالحة من شيعتهم؛ ليتّصل حبلهم بحبل الأجيال اللاحقة، وليصل إليها معالم الدين.

وهكذا اضطرّ الإمام الحسن عليه السلام للصلح، فی محاولة ناجحة لكشف حقيقة معاوية الذي انفرد بالحكم واستأثر بإدارة شؤون الأُمّة التی ساندته، فرأت طبيعته وحكمه، ومدی الفرْق الشاسع بينه وبين أيام الأمير علی بن أبی طالب عليه السلام، وبذلك يتحمّل الّذين أطاعوا معاوية مسؤولية هذه المأساة التاريخية. فإذاً، لم يكن الناس قبل توقيع الصلح ينظرون إلی معاوية علی أنه حاكم جائر، بل كانوا ينظرون إليه علی أنّه رجل طالب للحياة والسلطة لا أكثر. وقد أثبتت الأيّام غدر وخيانة معاوية؛ وذلك عندما داس علی بنود الصلح بقدَمَيه ولم يَعُد يعني له ذلك

---

(١) الإرشاد للمفيد: ١٩٠.

شيئاً، ممّا أدّى ذلك لانتشار التململ بين أصحاب الإمام الحسن عليه السلام، بحيث إنّهم تجرّأوا على إمام زمانهم ووصفوه بمُذلّ المؤمنين، فصبر (سلام الله عليه) صبراً جميلاً، وطفق يُبيّن لهم الحقائق التي خفيَت عنهم في أجواء الانفعال والعاطفة والغضب، الذي اعتراهم من تحدّي معاوية لهم، ونقضه لوثيقة الصلح وتوهينه للإمام الحسن عليه السلام وأصحابه.

فعن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال:«حدّثني رجُل منّا، قال: أتيت الحسن بن علي عليه السلام فقلت: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، أذلَلْت رقابنا وجعلتنا معشر الشيعة عبيداً، ما بقي معك رجُل قال عليه السلام: وممّ ذلك؟ قال: قلت: تسليمك الأمر لهذا الطاغية ـ إشارة لمعاوية ـ قال عليه السلام:«والله، ما سلّمت الأمر إليه، إلا أنّي لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»[(١)].

انتقل الإمام الحسن عليه السلام بعد توقيع الصلح مع معاوية إلى مدينة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، وودّعته الكوفة وأهلها وهُم يرون الذلّة قد خيّمت عليهم، وتحكّمت الفتنة بهم، وبوصول الإمام عليه السلام إلى المدينة بدأت نشاطاته وأعماله الفكرية والاجتماعية تأخذ جانباً مهماً في حياة المسلمين، فأنشأ مدرسة وقيادة فكرية كبرى؛ لتكون محطّة إشعاع للهدى والفكر الإسلامي.

وفاته:

لم تترك أجهزة الحكم الأُمَوي الإمام عليه السلام وشأنه؛ لأنهم كانوا يخشونه حتى في مرحلة الصلح، ولأجل هذا عقد أقطاب سياستهم اجتماعاً مع معاوية لتداول

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٢٩١.

أمر وضع الحسن عليه السلام، وخلصوا إلى النتيجة التالية: «إنّ الحسن قد أحيا أباه وذكره، قال فصُدِّق وأمَر فأُطيع، وخفقَت له النعال، وإنّ ذلك لدافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسيء إلينا»(١). وهذا الحديث على وجازته يُعتبر أخطر تقرير قدّمه أقطاب البيت الأُمَوي وقادته إلى زعيمهم معاوية، حول نشاط الإمام الحسن عليه السلام، مما دفع معاوية إلى ارتكاب إحدى أكبر الجرائم البشعة بحقّ آل محمد صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال خطّته التى دبّرها بالاتّفاق مع زوجة الإمام الحسن عليه السلام جعدة بنت الأشعث ـ التى دسّت له السم، فقضى شهيداً، وكان ذلك سنة ٤٩ للهجرة.

وتشير الروايات بأنّ هذه ليست المرّة الأُولى التى تعرّض فيها الإمام الحسن عليه السلام لمحاولة اغتياله بالسمّ، حيث ورد عن اليعقوبى: انّه لمّا حضرته الوفاة قال لأخيه الحسين: «يا أخى، إنّ هذه آخر ثلاث مرّات سُقيت فيها السمّ، ولم أُسقَه مثل مرّتى هذه، وأنا ميّت من يومى». وكذلك ذكر ابن سعد فى طبَقاته: أنّ معاوية سمَّه مراراً.

وبعد استشهاده باشر الإمام الحسين عليه السلام أمر تجهيزه، وأخرجه ليُجدّد به عهداً بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يشكّ بنو أميّة أنّهم سيدفنونه هناك، فاجتمعوا لذلك، ولبسوا السلاح، وأقبلوا ومعهم عائشة على بَغْل وهى تقول: «ما لى ولكم، تريدون أن تُدخلوا بيتى»، أي عند قبر الرسول صلى الله عليه وآله، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية، إلا أنّ الحسين عليه السلام تدارك ذلك ومضى بأخيه الحسن إلى البقيع، ودفنوه هناك عند جدّته فاطمة بنت أسد(٢).

وعندما وقف أخوه محمّد بن الحنفية على قبره ليؤبّنه قال: «لئن عزّت

(١) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ١٥٣.
(٢) المصدر السابق: ١٥٥.

حياتك فقد هدّت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمّنه كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمّن بدنك، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء، غذّتك بالتقوى أكفّ الحق، وأرضعتك ثدي الايمان، وربّيت في حجر الإسلام، فطبت حيّاً وميّتاً، وإن كانت أنفسنا غير سخيّة بفراقك، رحمك الله أبا محمّد»[١].

وابنه أبو عبدالله الحسين بن علي عليه السلام قائلاً:«رحمك الله يا أبا محمد، إن كنت لتباصر الحقّ مظانّه، وتؤثر الله عند التداحض في مواطن التقية بحسن الرويّة، وتستشفّ جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف، نقيّة الأسرّة، وتردع بادرة غرب أعدائك بأيسر المؤونة عليك، ولا غَرْوَ فأنت ابن سلالة النبوّة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى رَوْح وريحان وجنّة نعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حُسن الأسى عنه»[٢].

الخاتمة:

مَن ينظر في شخصية الإمام الحسن عليه السلام وسيرته العملية، سواء في عصر أبيه أو في حكمه، يرى فيه قوّة الشخصية والعزيمة الراسخة وسرعة التحرّك لحسم المواقف على رغم الظروف الموضوعية التي ألمّت بالإمام عليه السلام وأحرجَت موقفه بشكل يندر نظيره في التاريخ. فهو لم يسالم معاوية رضاً به، ولا ترَك القتال جُبناً وخوفاً من الموت، ولا تجافى عن الشهادة طمعاً بالحياة؛ ولكنّه صالح حين لم يبقَ في ظرفه احتمال لغير الصُلح، وبهذا ينفرد الحسن عن الحسين، أي الحسن لم يبخل بنفسه، ولم يكن الحسين أسخى منه بها في سبيل الله، وإنّما صان نفسه

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٧، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ٤٤٠.

يجنّدها في جهاد صامت، فلمّا حان الوقت كانت الشهادة كربلاء، شهادة حسنية، قبل أن تكون حسينية، فالحسن عليه السلام أعطى من البطولة دَور الصابر على احتمال المكاره في صورة مستكين قاعد.

وكانت شهادة (الطفّ) حسنية أوّلاً، وحسينية ثانياً؛ لأنّ الحسن عليه السلام أنضَجَ نتائجها، ومهّد أسبابها، كان نصر الحسن الدامي موقفاً على جَلْو الحقيقة التي جَلاها لأخيه الحسين بصبره وحكمته، وبجَلْوها انتصر الحسين نصرة العزيز وفتَح الله له فتْحه المُبين. وكانا عليهما السلام كأنّهما متّفقان على تصميم الخطّة: أن يكون للحسَن منها دَور الصابر الكريم، وللحسين دَور الثائر الكريم؛ لتتألّف من الدَورين خطّة كاملة ذات غرَض واحد(١).

وبعد صلح الإمام الحسن عليه السلام الذي وقع في سنة الأربعين للهجرة، لم يلتزم أهل البيت البقاء داخل البيت، والاقتصار على بيان الأحكام الإلهية فقط، بل أنّ برنامج كلّ الأئمة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدّمات لإقامة الحكومة الإسلامية التي يرَونها هُم. وهذا ما يدلّ بوضوح على أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان فعلا ينظر للمستقبل، وهذا الآتي الذي ينظره ليس إلا الزوال الحتمي للحكومة الجائرة الباطلة، وحلول حكومة العدْل مكانها(٢).

فعندما أعلن معاوية أنّ كلّ شروط الصُلح مع الإمام الحسن عليه السلام صار تحت قدَمَيه، فجاء بعض وجوه الشيعة إلى الإمام الحسن عليه السلام وقالوا: يا بن رسول الله، لقد أصبح اتّفاق الصلح هذا كأنّه لم يكن بعد أن نقَضه معاوية، فما تقولون الآن

---

(١) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٣.

(٢) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام للسيّد الخامنئي: ١٩٣ ـ ١٩٤، مركز بقية الله الأعظم للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

في القيام؟ فقال عليه السلام: «كلا، القيام ليس الآن، ولكن بعد معاوية». وانتصر الحسن عليه السلام بثورته الصامتة؛ حيث كانت معاهدة الصلح عملية كشف للمطامع الأُمَوية ولأحقادها الضارية، وتعرية صريحة لواقعها البغيض[1].(الكلم الطيب، ٢٠٠٥، ص ٣١).

فهرس المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

١- ابن الأثير، ١٩٦٥، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ط ١.

٢- ابن خلكان، بدون سنة، وفيات الأعيان، دار صادر.

٣- ابن عساكر، ١٩٨٠، تاريخ دمشق، بيروت، المحمودي للطباعة والنشر، ط ١.

٤- الجزري، ١٩٩٦، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١.

٥- الحراني، الحسن بن علي، ١٩٦٩، تحف العقول، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٥.

٦- الخامنئي، ١٩٩٩، الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت، مركز بقية الله الاعظم للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

٧- الخرساني،ابراهيم، ١٩٧٨ فرائد السمطين، بيروت المحمودي للطباعة والنشر، ط ١.

٨- السيوطي، ١٩٦٩، تاريخ الخلفاء، بيروت، دار احياء التراث.

(١) مجلة الكلم الطيّب: ٣١ (العدد ٢١، السنة الخامسة ، ٢٠٠٥).

٩- الشيخ المفيد، ١٩٦٢، الارشاد، النجف الاشرف، المطبعة الحيدرية.

١٠- الطبرسي، ١٩٧٠، إعلام الورى، النجف، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ٣.

١١- الطبرسي، ١٩٩٢، الاحتجاج، بيروت، شركة الكتبي للطباعة والنشر، ط ١.

١٢- القرشي، باقر شريف، ٢٠٠٨، حياة الإمام الحسن، دمشق، دار الفكر، ط ٢.

١٣- القمي، عباس، ١٩٨٤، الأنوار البهية، بيروت، دار الأضواء، ط ١.

١٤- آل ياسين، راضي، ١٩٩٢، صلح الإمام الحسن، بيروت، الاعلمي للمطبوعات، ط ١.

١٥- المالكي، ابن الصباغ، ١٩٦٢، العراق، الفصول المهمة، منشورات المكتبة الحيدرية، ط٣.

١٦- مجلة الكلم الطيّب، العدد ٢١، السنة الخامسة، ٢٠٠٥م.

١٧- المجلسي، محمّد باقر، ١٩٨٣، بحار الانوار، بيروت، دار احياء التراث العربي ط٣.

١٨- مرتضى، جعفر، ١٩٩٤، الحياة السياسية للإمام الحسن، بيروت دار المسيرة، ط ١.

١٩- المسعودي، ٢٠٠٢، مروج الذهب، بيروت، دار احياء التراث العربي، ط ١.

٢٠- المازندراني، بن شهر آشوب، بدون سنة، مناقب آل أبي طالب، بيروت، دار الأضواء.

البعد الإستراتيجي لصلح الإمام الحسن عليه السلام

محمد بوگريطة (*)

المقدّمة:

جاءت الرسالة الإسلامية الخاتمة للرسالات السماوية من أجل إقرار المنهج الإلهي في الواقع الإنساني، وتحقيق مفاهيمه وقيمه في صور عملية واقعية تترجم فيها الأفكار والنصوص إلى مشاعر وأوضاع وممارسات وارتباطات في واقع الحياة الإنسانية، وقد جسّد رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك في أقواله وأفعاله وسيرته، فجعل المفاهيم والقيم حقيقةً واضحة ليقتدي بها المسلمون والناس جميعاً ويتوجّهوا في مسيرتهم نحو التكامل والسموّ والارتقاء، وترك فيهم أئمة وقادة من أهل بيته عليهم السلام؛ ليكونوا قدوة للأجيال في جميع مراحل الحركة الإنسانية، ولكي يواصلوا المسيرة لإيصال المجتمع الإنساني إلى قمّة التكامل والسموّ والارتقاء؛ بتقرير المنهج الإلهي في واقع الحياة وإلى إصلاح وتغيير العقول والقلوب والإرادات، ويدعوهم إلى الارتباط بالقدوة والأسوة الصالحة.

فأهل البيت المصطفى (عليه وعلى آله الصلاة و التسليم) اختارهم الله تعالى لهذه الرسالة لا لكونهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن تبيان فضائلهم عليهم السلام لم يكن نابعاً عن الرغبة العاطفية المحضة نتيجة القرابة القريبة، بل هو دعوة للاستمرار في

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ الجزائر.

حركة الرسالة وامتدادها فى شخصيتهم .

ونحن فى هذا المقام إذ نقوم بكتابة هذا البحث المتواضع عن سبط الرسول الحسن بن على عليهما السلام فليس هذا بدافع الفخر و التباهى فى واحد من أعظم الخلق فى زمانه وواحد من "أصحاب الكساء" و ليعلم الناس أن قضية أهل البيت عليهم السلام هى قضية دين وعقيدة وليست قضية عصبية أو قبلية أو مجرد انتماء عقيم .

لاشك أن كثيراً من المؤرخين و الكتاب عبر الأربعة عشر قرنا الماضية قد أدلوا بدولهم فى قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية كل حسب مفهومه وآرائه، إلا أنه بكل تأكيد أن هذا الصلح يبقى المعالجة الأخيرة و الحل الأوحد الذي و بكل يقين و تقوى نظر فيها الإمام عليه السلام إلى المصلحة الإسلامية.

وبالرجوع قليلاً إلى الوراء نجد أن هذه الحادثة لا تنفصل مطلقاً عن مجموعة أحداث شكلت فيما بعد صراعاً داخل الجسد الإسلامى الواحد، ولعل معاوية بن أبى سفيان وجد فرصة ثمينة فى توجيه الاختراق الذي حصل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، حيث استثمر الأحداث لصالحه بعد أن أعدّ لنفسه جيشاً وسلطاناً بعيداً عن مركز الدولة الإسلامية، وقد وجد فى دم عثمان ذريعة للتمرد على قرار الحل والعقد، واستعداده للتصادم مع الإمام على عليه السلام ثم مع الإمام الحسن عليه السلام عسكرياً.

إنّ كل هذه الأحداث لا شك أنها ساهمت فى قسط كبير فى إعداد حكمه وجيشه فترة طويلة، وتمرن على المناورة السياسية، واستمكانه لجيش جرار تحت قيادته بطرق مختلفة حقق من خلالها طاعة جيش الشام له، وحيث اعتمد على كل الأساليب غير الشرعية من أجل تمويه وعى الأفراد المنخرطين فى جيشه، فقد بدأ على أهبة الاستعداد لدخول أي معركة مفاجئة.

أما الإمام الحسن عليه السلام فقد تولى أمة عصفت بها الأحداث والفتن، وبدأت تختلف على الفتن وتلتقى أحياناً على المبررات المموهة بأحابيل وسلطة الشام، وهكذا تداعت الأحداث بشكل عجيب بحيث أوصلت معاوية على رأس سلطة تستحوذ على كل موازين القوة، بينما جاء الإمام الحسن عليه السلام ليجد نفسه أمام مرحلة طويلة من الإعداد، وترميم مواقع سياسية وعسكريّة وحتى اقتصاديّة واجتماعية مرتبكة. ولأن قرار الحرب بين السلطة الشرعية للإمام الحسن عليه السلام وبين التمرد الذي يمثله موقع معاوية فى الشام يخدم الثانى بسبب الفترة الطويلة نسبياً فى إعداد سلطانه وجيشه وحتى إدارته، فإن الصلح كان نتيجة طبيعية لاختلال موازين القوى بين الطرفين وإدراكاً من الإمام الحسن عليه السلام بضرورة حفظ كيان الإسلام وصيانة وجوده المتمثل بالدولة الإسلامية آنذاك. لكن قرار الصلح كغيره من قرارات القيادة الشرعية لم يكن موقف خال من المبررات الموضوعية التى تجعله قراراً صائباً وسليماً فى مرحلة تعتبر من ضمن أخطر المراحل التي مرت بها التجربة الإسلامية الفتية آنذاك.

اسمه ونسبه وكنيته ومولده عليه السلام:

هو أبو محمد الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمى القرشى،المدنى الشهيد، فهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته من الدنيا وهو سيد شباب أهل الجنة، فهو ابن سيدتنا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوه أمير المؤمنين على (سلام الله تعالى عليه وكرم الله وجهه)، وحفيد أم المؤمنين خديجة وخامس الخلفاء الراشدين.

ولد (رضي الله عنه وأرضاه) في ١٥ رمضان سنة ثلاث من الهجرة النبوية

على الصحيح، وقيل: ولد فى شعبان، وقيل: ولد بعد ذلك. قال الليث بن سعد: «ولدت فاطمة بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله الحسن بن على فى شهر رمضان من ثلاث،وولدت الحسين فى ليال خلون من شعبان سنة أربع».

وقال على بن أبى طالبعليه السلام: «لما ولد الحسن سميته حرباً فجاء النبىصلى الله عليه وآله فقال: أرونى ابنى ما سميتموه؟ قلنا:حرباً، قال: لا، بل هو حسن، فلما ولد الحسين سميته حرباً،فجاء النبىصلى الله عليه وآله فقال:أرونى ابنى ما سميتموه؟،قلنا: حرباً قال: بل هو حسين. فلمّا ولد الثالث سميته حرباً،فقال:بل هو محسن،ثم قال: إنى سميتهم بولد هارون: شبر وشبير ومشبّر».

وقد فرح رسول الله بهذا المولود الجديد وسارع الناس بتهنئة الأبوين بهذا السبط المبارك.

ونتعلم من هدي النبىصلى الله عليه وآله قيمة مهمة فى حياتنا، وهى الحرص على اختيار أجمل وأحسن الأسماء لأبنائنا، وهذا توجيه للآباء والأمهات على اختيار الاسم الحسن في اللفظ والمعنى في قالب النظر الشرعي واللسان العربي.

مكانة الحسنعليه السلام عند جدّه الحبيب المصطفىصلى الله عليه وآله:

كانت بشرى رسول اللهصلى الله عليه وآله بمولد الحسن عظيمة، وكانصلى الله عليه وآله يحمله ويداعبه،ويدعوه ليتسلق صدره ويلعب معه،وترعرع الحسنعليه السلام فى حجر النبوة،ولاحظته عين الرعاية النبوية،والعناية المصطفوية،من ولادته حتى يفاعته، لا سيما شبهه بالنبىصلى الله عليه وآله ظاهر فى محيَّاه وأساريره،وقد تمتع الحسن (سلام الله عليه) بمكانة كبيرة وتقدير عال من جده الرسول الكريمصلى الله عليه وآله، وهذا ليس لكونه سبطه فحسب، بل لما تحمله نفس الحسن من صفات طيبة وخلق عال وتواضع

كريم.

و قد عاش عليه السلام مع جدّه الأكرم محمد (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) في ظلّ رعايته وتربيته سبع سنوات وستّة أشهر، وكانت هذه الفترة كافية للسموّ والتكامل والارتقاء إلى أعلى قمم الإيمان والتقوى والصلاح. حيث تلقّى رعاية خاصّة من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ابتدأت من اللحظات الأولى لولادته. حيث أذّن رسول الله صلى الله عليه وآله في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ولهذه الممارسة نتائج إيجابية على شخصية الإنسان المستقبلية، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من ولد له مولود فيؤذّن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة، وليقم في اليسرى؛ فإنّها عصمة من الشيطان الرجيم»، ومن الطبيعي أن تصل هذه العصمة إلى قمّتها حينما يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو من يفعل ذلك، وبمن؟ بسبطه ابن علي وفاطمة (صلوات الله عليهما).

وهكذا أحيط الحسن عليه السلام منذ نعومة أظفاره بجميع مقوّمات التربية والتعليم والرعاية النفسية والروحية، فأصبح بهذه المقوّمات ومن قبلها الرعاية الإلهيّة مثالاً حيّاً للإنسان الكامل.

اختلال موازين القوّة و شرعية الصلح:

إذا كان الإجراء وأين كان و كانت أهميته تتعلق بالمصلحة الإسلامية العليا، فمن الطبيعي أنه ينطبع بالطابع الشرعي، أي لا إشكال في اتخاذه من الناحية الشرعية، أما إذا عرفنا أن صاحب هذا الإجراء هو الإمام الحسن عليه السلام، وهو إمام قام أو قعد كما أخبر بذلك جده محمّد (عليه وآله الصلاة والسلام)، فلك أن تتصور الحكمة التي يتضمنها قرار بهذا المستوى.

بدون شك أن قرار الحسن عليه السلام صواب من كل النواحى، إنه تضحية بالذات ونكران النفس وإن كان بعض حواريّه وأصحابه قد اعتبروه ذلاً وخذلاناً وزعم بعض أعدائه أنّه كان جبناً واستسلاماً، ولم يكن إلا أروع صور النصر على الذات، ومقاومة نزوة الهوى والمحافظة على دماء المسلمين، وتحقيقاً لكلمة الرسول الصادق المصدّق صلى الله عليه وآله حين قال: «إنّ ابنى هذا سيّد، ولعلّ الله عزَّ وجلَّ يصلح به بين فئتين من المسلمين»[١].

فالإمام عليه السلام كان يحتل موقعاً قيادياً ليس من ذلك النوع الذي يتم الاستحواذ عليه بالقوة والقهر، كما هو الحال فى تمرد معاوية على الشرعية الإسلامية، وحيث تجد الأصل والشرف و كذا الإمامة فى شخصية الإمام الحسن، فضلاً عن السيرة والتربية التى نهل بها من الوحى ونبوة جده صلى الله عليه وآله، ومن الإمامة وولاية أبيه عليه السلام، فإن قيادة الإمام الحسن عليه السلام كانت تدرك مصلحة الإسلام من أدق تفاصيلها، ولذلك كان الصلح أمراً ضرورياً يحتمه الشرع ويلزم به العقل .

إنّ الدولة الإسلامية آنذاك كانت بأمس الحاجة إلى هدوء أوضاعها الداخلية بعد أن أدت الاضطرابات التى سبقت صلح الإمام الحسن إلى نضوج الفتن الصفراء التى شغلت الدولة عن الجبهة الخارجية، واستمرار معاوية فى البحث عن الزعامة على حساب أشلاء المسلمين كان بدون شك سيؤدي حتماً إلى إحداث شروخ عميقة فى جسد الأمة، فضلاً عن الانقسامات التى تعنى فى نهايتها خطورة وضع الدولة أمام الأعداء الطامعين في تمزيقها وتناثرها، ولهذا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦٦٩٢، ٣٥٣٦، ٣٤٣، ٢٥٥٧)، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح في مسنده (٢٠٤٦٦، ٢٠٤٠٨، ٢٠٥١٧، ٢٠٥٣٥) ورواه الترمذي، والنسائي، والبيهقي، والبزار والطبراني وابن حبان والطيالسي في مصنّفه، وكذا المجلسي في بحار الأنوار ٤٣: ٢٩٨.

كان من الطبيعي أن يدرك الإمام الحسن عليه السلام خطورة هذا الوضع، حيث أصبح أمام خيارين هما: إما أن يتنازع مع معاوية فتأتي النتائج لغير صالح الإسلام بالمرة، وإما أن يميل إلى الصلح ويحفظ الوجود الإسلامي على الأقل ويمارس عميلة الإصلاح خارج أداة الدولة، وهكذا فعل.

هذا، وقد أدرك الإمام عليه السلام أن الأوضاع القائمة لا تساعده في حسم الموقف حتى إذا افترضنا أنه سيقدم تضحيات على هذا الجانب، ذلك أن الأمة الإسلامية تعرضت لهزات عنيفة في الداخل عندما نشط المغرمون في السلطة، وأصبحت ظاهرة نشوء القيادات والأحزاب واقعاً قائماً احتدم فيه الصراع بشكليه المسلح وغير المسلح.

وإنّ الإمام الحسن عليه السلام إمام بشهادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، وكذلك الحديث النبوي الشريف: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: حمل رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين على ظهره، الحسن على أضلاعه اليمنى والحسين على أضلاعه اليسرى، ثمّ مشى وقال: «نعم المطيّ مطيّكما، ونعم الراكبان أنتما، وأبوكم أخير منكما»[(٢)].

وعن سلمان(رض) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للحسن والحسين: «من أحبّهما

(١) صحيح الترمذي ٥: ٣٢٨ ح٣٨٧٤، ط دار الفكر ـ بيروت و١٣: ١٩٩، ط مكتبة الصاوي ـ مصر و٢: ٣٠٨.

(١) سنن الترمذي: حديث ٣٧٩٤، باب مناقب الإمام الحسن عليه السلام، رواه أحمد في مسنده ٣: ٣ والترمذي ٢: ٣٠٦، ٣٠٧، وابن ماجة في باب الفضائل، والنسائي في الخصائص: ٣٦، والحاكم في المستدرك: ٣: ١٦٧، وابن حجر في الإصابة، وابن الأثير في أُسد الغابة، والخطيب في تاريخه ٦: ٣٧٢، وأبو نعيم في الحلية ٤: ١٣٩، والمتّقي الهندي في كنز العمّال.

أحببته، ومن أحببته أحبّه الله، ومن أحبّه الله أدخله جنّات النعيم. ومن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضته، ومن أبغضته أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله عذاب جهنّم وله عذاب مقيم»[١].

وقد يبدو جلياً أن تصرف الإمام الحسن عليه السلام خلاصة لفهم واقعي عن وضع معقد جداً، وحكمة بالغة للحفاظ على الدولة الإسلامية، ذلك أن حكم معاوية ووجوده على رأس السلطة إذا كان يتضمن ضرراً واضحاً على التجربة الإسلامية الحديثة، فإن الصراع الذي يهدد الوجود الإسلامي برمته هو بالتأكيد الضرر الأكبر، وعندئذ يكون أهون الشرين هو الصلح.

ثم إنّ الفترة الزمنية التى أمضاها معاوية فى الحكم بدمشق مكنته من إعداد جيش قوي، وتوفير إمكانات كافية لإعلان الانفصال عن الدولة المركزية كاحتمال وارد إذا لم يستطع حسم الصراع لصالحه، أضف إلى ذلك أن واقع الأمة الإسلامية وتراكم الأحداث وتداعيها بتلك الصورة ربما كان لا يسمح للإمام الحسن الدخول فى مواجهة مسلحة مع معاوية، ولهذا وذاك بقاء الدولة الإسلامية التى تتبنى الإسلام كقاعدة فكرية لها أفضل من كل النتائج الأخرى.

إنّ الهزيمة ـ لو سمح الله ـ كانت ستؤدي إلى تهديم البنية الداخلية التى شادها الإمام على عليه السلام فى الكوفة، حيث إنّ ما قام به كان حصيلة جهد سنوات قليلة من الحكم، ولم تكن هذه السنوات سنيناً طبيعية إنّما كانت سنين حرب يحكمها اللا استقرار الاجتماعى، فجهود فى مثل هذه الظروف وفى مدة قصيرة مهما كانت كبيرة، لا يمكن أن تكون منتجة لبنية واسعة الإطار، فجهوده عليه السلام

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٥٠، ح ٢٦٥٥.

كانت قد أنتجت ما يمكن أن تنتجه فى مثل هذه الحالة، فخرج منها ثلة من الناس معدة بصورة جيدة.

فلو حصلت الهزيمة العسكرية لقضى على هذه الثلة، التى كانت تتجمع فى قوات الإمام الحسن عليه السلام.

مما سبق من استدلالات ربانية و نبوية شريفة على مكانة الحسن والحسين عليهما السلام يتبيّن جلياً أحقية وعدالة و صدق الإمام الحسن عليه السلام، فعندما لامه سليمان بن صرد الخزاعى، خاطبه قائلاً: «وأمّا قولك: يا مذلّ المؤمنين، فوالله لأن تذلوا وتعانوا أحبّ إليّ من أن تغروا وتقتلوا» ويوم خاطب حجراً ـ وقد كان مريداً للحرب مع معاوية ـ: «يا حجر، ليس كل الناس تحب ما تحب، ولا رأيهم كرأيك، وما فعلت إلا إبقاءً عليك».

والحسن و الحسين عليهما السلام وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على وفاة النبى صلى الله عليه وآله كانا يمثلان المركز المحوري الذي يربط الأمّة بالدين، وهذا لا يشكّ به أحد، فكلّ الشخصيات الأخرى من ناحية المؤهلات الذاتية لم تكن قادرة على أداء ما أدياه، والهزيمة ستؤدي إلى القضاء عليهما معاً؛ لأنّ معاوية لا يتركهما إذا انتصر، مما سيؤدي إلى ترك الأمّة بدون مركزية دينية قوية. ومن هنا أدرك الإمام الحسن الخطورة القصوى لهذا المسعى إن لم يتخذ القرار الفاصل و الصائب .

إنّ خلوّ الساحة لمعاوية،الأمر الذي سيصدر عن الحرب يعنى إبقاءه بدون رادع، ممّا يعنى تعريض الإسلام من الناحيتين النظرية والتطبيقية لتحريف كامل، فى حين أنّ الصلح قد أفسح المجال أمام شخصيات تردع معاوية، حيث تصدى طيلة فترة حكمه وما بعدها أشخاص لسياسته وتصرفاته؛ فقد تصدّى الإمام الحسن عليه السلام نفسه مراراً لظاهرة سبّ الإمام علي عليه السلام، وكذا حجر وعمرو بن

الحمق الخزاعى وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر والأحنف بن قيس، بل وموقف أهل الكوفة فى عهدي المغيرة وزياد، وكذلك البصرة فى عهد الأخير، أو موقف المدينة من تعيين يزيد خليفة، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وثورة المختار، وحركة سليمان بن صرد، وغيرها.

أضف إلى ذلك الخطر الذي كان يحدق على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية، من جهة الرومان الّذين كانوا ينوون شنّ هجومهم على البلاد الإسلامية، فبالحرب ستضعف الدولة الإسلامية وينهار نظام الحكم فيها سواء انتصر الإمام الحسن عليه السلام أم لم ينتصر؛ هذا الأمر سيعطى الرومان حافزاً لأن يعيدوا الكرة على البلاد الإسلامية، خصوصاً وأنّها تضم القدس الشريف وبقية البلدان التى عاش فيها السيد المسيح عليه السلام، بالرغم من أنّ الصلح قد أدّى إلى تولى معاوية أمور الحكم وإقصاء الإمام الحسن عليه السلام عنها، إلاّ أنّه قد وفّر على الإمام الحسن عليه السلام ما يمكن أن يخسره فى حربه، كما تقدم، فقد تكون آلة الرئاسة أكثر فاعلية فى الإعداد والتربية، إلا أنّ هذا لا يعنى عدم وجود طرق أخرى فيها الكثير من الفاعلية.

فالإمام على عليه السلام عندما توقف عن الدخول فى صراع مع الآخرين ليسترد الخلافة حفاظاً على الوجود الإسلامى، قد ترك الأمّة تختار بنفسها وتكشف الحقائق وحدها، حتى عادت إليه وهى مختارة ومقتنعة بكفاءته بعد أن ذاقت مرارة تولّى غيره أمور الخلافة.

وبنظرة متأملة فى صلح الحديبية يتضح لنا أنّ فى صلح الإمام الحسن أبعاداً تشابه أبعاد ذلك الصلح؛ حيث إنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد أجّل الحرب عشر سنوات وأخّر فتحه للبلدان بما في ذلك مكّة، ووافق على تأجيل الحرب إلى عام قادم

وبدون سلاح، مع أنّ المشركين اشترطوا عليه إعادة كل هارب منهم.

فإذا ما قرنا صلح الحديبية بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبين وكفار قريش والذي من أهم نقاطه:

١ ـ إراحة المسلمين من الحرب فترة طويلة إذا التزم المشركون بالصلح.

٢ ـ اختبار المسلمين، حيث أبدى جمع منهم رفضهم للصلح.

٣ ـ فضح المشركين، فإنّ بعض المسلمين قد اغترّ بما يدّعيه المشركون من إرادة السلم.

٤ ـ إعادة إعداد المسلمين، حيث إنّ الإعداد فى حال الحرب أقلّ مستوى منه فى حال السلم.

ويوجد فتح تاريخى، حيث إنه شكل منعطفاً كبيراً فى مسيرة الدولة الإسلامية، وفى أنّه أعلن عن بداية مرحلة جديدة فى حركة الأمّة، وفى أنّه أظهر الخط الثانى القائم على أساس تتبع مسيرة الأمّة من زاوية المعارضة،و كذلك تكمن الأهمية من الناحية العلمية، فى أنّه قدّم للمسلمين تجربة غنية قامت على أساس التصدي لانحراف اجتماعى خاص، دون أن ننسى أن الإمام الحسن قد بويع بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، وقد كان ذلك بترشيح من قبل قيس ابن سعد بن عبادة فى أشهر الروايات، وفى رواية أخرى عبد الله بن عباس.

هناك آراء لبعض المؤرخين المسلمين الّذين قالوا: إنّ الإمام علياً عليه السلام لم ينصّ على الحسن عليه السلام، رغم أنّ هناك قرائن تشير إلى أنّ المقرّبين من الإمام على عليه السلام كانوا قد تحركوا وفق علمهم بوجود النصّ، كما هو الحال بالنسبة إلى عبد الله بن عباس، وقيس، وحجر بن عدي، وسليمان بن صرد، وآخرين؛ وهذا

هو أحد جوانب الغموض الذي يكتنف مصادر التاريخ في هذا الشأن، فرغم الجهود المبذولة في هذا البحث لم نعثر على نص صريح و قاطع.

و للتذكير فعندما خطب الإمام الحسن بعد بيعته قائلاً: «تسالمون ما سالمت، وتحاربون ما حاربت» ـ وذلك كشرط لقبول تسلم الخلافة ـ نجد أنّ المجتمع قد تعامل مع هذا الشرط تعاملاً سلبياً؛ فيرى الطبري أنّ الأمّة ارتابت (لأنّه لا يريد الحرب)، في حين أنّ ابن الأثير قد نقل أنّ ارتياب الأمّة كان لأنّه أراد الحرب.

إنّ ابن عباس قد هرب والتحق بمعاوية، والطبري نقل أنّ الهارب هو عبد الله، أمّا ابن الأثير واليعقوبي فإنّهما نقلا أنّه عبيد الله، ويضيف اليعقوبي على هذا أنّ ثمانية آلاف من الجنود قد التحقوا معه بمعاوية[1].

لقد أشيع في قوات قيس الأمامية أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد صالح، وأشيع في قوات الإمام الحسن عليه السلام مصالحة قيس، رغم عدم حدوث هذا و في الوقت ذاته أرسل معاوية للاجتماع مع الإمام الحسن عليه السلام جماعة فيهم المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز، وبعد أن خرجوا من الاجتماع أشاعوا في الجيش مصالحة قائدهم، رغم أنّ هذا لم يحدث، وكذلك أشيع في الجيش مقتل قيس ابن سعد في محاولة خبيثة و يائسة لنشر الفتنة و البلبلة في صفوف جيش الإمام الحسن.

لا بدّ من الإشارة إلى أن المجتمع الكوفي كان يرى الإمام الحسن عليه السلام غير قادر على الحرب، لكنه راغب بالقضاء على معاوية وغير قادر على تحمل مسؤولية ذلك، وذلك للإرهاق والتعب الذي أصابه من جراء حروب ثلاث في

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٧٤٠.

سنوات أربع، ومن هنا نجد أنّ الإمام الحسن وعندما جاءه حجر رافضاً الصلح ـ كما يروى ـ خاطبه قائلاً:«يا حجر، ليس كل الناس يحب ما تحب، ولا رأيه كرأيك».

فالحرب بناءً على هذا الاحتمال كانت غير محببة لدى عموم المجتمع المسلم؛ لأنّ الأمر ليس أمر إسلام وحسب، وليس مجرد رغبة في القضاء على معاوية، بل هو يشكل لحظة حاسمة هي الحرب التي تحتاج إلى إرادة داخلية صلبة.

من هنا سيكون التمرد حاصلاً من جراء الخوف من الدخول في معركة جديدة لا يريدها الناس، فحصل التمرد كرد فعل للإعداد الذي قام به الإمام الحسن عليه السلام للحرب؛ إذ إنّ قيام الإمام الحسن عليه السلام بالإعداد للحرب، إضافة إلى الأحداث التي عاصرت عملية الإعداد هذه، من قبيل الإعلام المضاد، والارتباك الذي حصل في القوات الأمامية بسبب هروب عبيد الله بن عباس، وقيام بعض أعداء الإمام عليه السلام بإشاعة الفوضى داخل الجيش، وغير ذلك من الأمور، قد أدّت إلى وقوع التمرد و إشاعة الفتنة وإحباط العزائم و القدرات.

إنّ الأمّة لم تكن تريد استمرار الإمام الحسن عليه السلام؛ وهذا خوفاً من استمرار السياسة الداخلية للإمام علي عليه السلام القائمة على أساس العدل والحزم وتطبيق الحدود، وخوفاً من استمرار السياسة الخارجية له القائمة على أساس تطهير البلاد من ولاة السوء، السياسة التي تحتاج إلى الحروب خصوصاً مع معاوية.

وقد نستطيع أن نقول: إنّ هناك ثلاثة احتمالات حول قضية التمرد، والتي أدّت إلى انقسام المجتمع آنذاك إلى عدّة أقسام:

القسم الأوّل: الصنف الذي كان يريد الحرب ضد معاوية راغباً بها، وطالباً

لها، ورافضاً مصالحته.

القسم الثانى: الصنف الذي كان يريد الإمام الحسن عليه السلام ويرغب فيه وفي القضاء على معاوية، ولكنّ حالة الخوف والإرهاق من الحروب أدّت إلى عدم ثباتهم؛ بناءً على التفسير المتقدم في الاحتمال الثاني، هذا الصنف كان يمثل عامة أهل الكوفة.

والقرينة على حب الناس للإمام الحسن عليه السلام هي أنّه عندما خطب في المسجد خطبته الوداعية لأهل الكوفة، وحينما أراد العودة إلى المدينة، تعاملوا مع هذا الموقف بحزن شديد، فيقول ابن الأثير والطبري: إنّه قد بكى كل من في المسجد حتى لم يبق أحد إلاّ وسمع نحيبه،لكن هذا الحب أمر آخر لا يعني الثبات وعدم الخوف، فكم من أمّة خذلت قائدها رغم حبها له، وكم من أمّة قتلت رجالها وهي تعرف حقهم تمام المعرفة.

القسم الثالث: الصنف الذي كان معادياً للحسن أصلاً أو رافضاً لبقائه، وهو موقف القليل من أهل الكوفة، لكن تأثيرهم كان كبيراً، فكأنما التاريخ أعاد نفسه حيث بعد بضعة سنين عن رحيل أمير المؤمنين عليه السلام، فالمشهد يتكرر للمرة الثانية مع الإمام الحسن، فلقد خالف أهل الكوفة أوامر علي عليه السلام في أمر الحرب وخرجوا عليه بعد التحكيم؛ فهم لم يطيعوه لا في الحرب ولا في السلم، وهذا ما أشار إليه ابن أبي الحديد، حيث نقل خطاباً للإمام الحسن عليه السلام ذكّرهم فيه بهذا الموقف:

«خالفتم أبى حتى حكّم وهو كاره، ثمّ دعاكم إلى قتال أهل الشام فأبيتم، حتى صار إلى كرامة الله، ثمّ بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى، وتحاربوا من حاربني، وقد أتاني أنّ أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية وبايعوه، فحسبي

منكم أن لا تغرونى من دينى ونفسى»[(١)].

هذا النصّ يوضح أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن يريد الصلح بدءاً، بل إنّه كان يريد ثبات رجاله لقتال معاوية، وإنّ الخلل الذي وقع فى قواته بسبب هروب أعداد منهم إلى معاوية، كان أحد دواعى اضطراره للصلح و عدم إقباله مع ما تبقى من جند إلى عملية أشبه بالانتحار الأكيد. من هنا فنحن لا نجد طريقاً قد أدّى إلى علم ابن عباس إلا معاوية، وإخبار معاوية لا يعدو كونه إعلاماً مضاداً من أجل تشتيت رجال الإمام الحسن عليه السلام و إشاعة الفوضى و البلبلة فى صفوف جيش الإمام الحسن وقد تكون الرواية مجرد تحليل للربط بين الأحداث؛ فكأنّها تنصّ على هروب ابن عباس دون ذكر السبب، فى تحليل الراوي من أجل الربط بين الأحداث وإعطاء المبرر لابن عباس كسبب لهروبه.

وهناك ما ذكره بعض المؤرخين من أنّ: الإمام الحسن عليه السلام قد عزل قيساً؛ لأنّه علم بأنه أراد الصلح، وتناقش هذه الرواية بنفس ما تقدم، إضافة إلى أنّه قد يكون هذا بعد حدوث الأمور التى اضطرت الإمام للمصالحة، كما أنّ التاريخ يحدثنا أنّ قيساً قد بقى قائداً حتى بعد الصلح وأنّه تمرد على معاوية لاحقاً، رافضاً الدخول فى الصلح.

من ناحية أخرى نلاحظ أنّ هذه الروايات الثلاث تجمع على أمر واحد، هو الحكم على أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد أراد الصلح دون تقديم فعل واحد يدل على إرادته هذه، فيمكن أن يكون هذا الأمر مجرد استنباطات اجتهادية وليس رواية تاريخية.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٢.

شروط الصلح:

ما يذكره المؤرخون في هذا الشأن هو صحيفة كتب عليها الإمام الحسن عليه السلام شرطه مقابل الصلح، ولم يذكر أيّ من المؤرخين كل ما كتبه عليها، إنّما تعرضوا لبعض ما فيها، إلا أنّه يمكن أن نصل إلى عدد جيد من الشروط بتتبع المصادر والتوفيق فيما بينها، و بالتالي يمكن تقسيم هذه الشروط إلى ثلاثة أقسام، حسب ما يلي:

صورة المعاهدة التي وقّعها الفريقان:

المادّة الأُولى : تسليم الأمر إلى معاوية، على أن يعمل بكتاب اللّه وبسنة رسوله صلى الله عليه وآله وبسيرة الخلفاء الصالحين[(١) (٢)].

المادّة الثانية: أن يكون الأمر للحسن من بعده[(٣)]. فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين[(٤)]، و ليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد[(٥)].

المادّة الثالثة: أن يترك سبَّ أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة[(٦)]، وأن لا يذكر علياً إلا بخير[(٧)].

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، فيما رواه عنه ابن عقيل في النصائح الكافية: ١٥٦، الطبعة الأُولى، بحار الأنوار ١٠: ١١٥.

(٢) المدائني فيما رواه عنه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٤، البداية والنهاية لابن كثير ٨ : ٤١، الإصابة ٢: ١٢و١٣، الإمامة والسياسة: ١٥٠، دائرة المعارف الإسلامية لفريد وجدي ٣: ٢٠٠.

(٤) عمدة الطالب لابن المهنا: ٤٠.

(٥) المدائني فيما يرويه عنه في شرح نهج البلاغة ٤: ٨ بحار الأنوار ١٠: ١١٥، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي، وغيرهم.

(٦) أعيان الشيعة: ٤: ١٥٠.

(٧) مقاتل الطالبيين: ٢٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ١٥.

المادّة الرابعة: استثناء ما في بيت المال الكوفة ـ وهو خمسة آلاف ألف ـ فلا يشمله تسليم الأمر. وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف درهم، وأن يفضّل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وأن يفرّق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وأولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار أبجرد[١].

المادة الخامسة : الناس آمنون حيث كانوا من أرض اللّه، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمّنَ الأسود والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع احداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة[٢]. وعلى أمان أصحاب عليّ حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة علي بمكروه، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً، ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كلّ ذي حق حقّه، وعلى ما أصاب أصحاب عليّ حيث كانوا. وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي، ولا لأخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول اللّه، غائلةً، سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم، في أفق من الأفاق.

هذا ما تبين من معاهدة الصلح الموقّعة بين سيّد شباب أهل الجنة الحسن بن علي عليهما السلام ومعاوية، إلا أنّ الأمر لم يسر كما هو منصوص في هذه المعاهدة،فلقد كشف معاوية عن نواياه في عدم الوفاء بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه وقال : «ألا إنّ كلّ شيء أعطيته للحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به».

---

(١) الإمامة والسياسة:١٤، تاريخ الطبري ٦: ٩٢، ٢٠٠، علل الشرائع لابن بابويه: ٨١، البداية والنهاية لابن كثير:٨٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ١٥، بحار الأنوار ١٠: ١٠١ و١١٥.

وكان لهذا التصريح دور واضح فى تقييم الأشخاص والأحداث والمواقف من قبل عموم المسلمين، حيث استطاعوا تشخيص القيادة الحقيقيّة عن القيادة المزيّفة، وانكشفت لهم طبيعة الصراع القائم، فهو ليس صراعاً بين قبيلتين أو شخصين، وإنّما هو صراع بين منهجين : منهج الاستقامة الذي يمثّله أهل البيت عليهم السلام ومنهج الانحراف والجاهليّة الذي يمثّله الأمويّون، و يحضرنى هنا مقولة المفكّر الجزائري الكبير (مالك بن نبى) حين عبر عن معركة صفين و التى كانت بين خطين متأبيين، حيث قال: «لقد التقى روح الإسلام المتمثل بالإمام على عليه السلام ضد روح الجاهلية»، فى إشارة واضحة إلى زعيم الأمويين حينذاك (معاوية).

الظروف السياسية والاجتماعية السائدة إبّان إبرام الصلح:

من الواضح أنّ لعدم الاستقرار فى بلاد الخلافة الشرعية أسبابه الممتدة إلى عهد سابق، وهو عهد عثمان، فى حين أنّ الاستقرار فى الشام يعود إلى وحدة الحكومة عبر سنوات؛ إذ الحكم هناك كان من نوع واحد وعلى سياق واحد لعقود ثلاثة.

والملاحظ كذلك أنّ الأمّة بدأت تميل إلى الدعة والراحة وتخاف الحرب؛ لأنّها شهدت حروباً ثلاث فى غضون أربعة أعوام، وكانت إضافة إلى تلك الحروب تعيش فى ظل حكم يتميز بالعدالة الصارمة والمساواة التى لم يرض بها كثير من وجوه الأمّة المؤثرين، إضافة إلى الحرب الإعلامية التي كان يشنّها معاوية منذ اليوم الأول من خلافة الإمام على عليه السلام والمطالبة بقتلة عثمان كورقة إعلامية، ومروراً بحرب صفين، ورفع المصاحف، وانتهاءً بإشاعة الخوف في

صفوف قوات الإمام الحسن عليه السلام، والإشاعة الكاذبة بأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد صالح قبل الصلح بفترة.

هذا، إضافة إلى أنّ الثقل الأكبر ممن كان يعتمد عليهم الإمام على عليه السلام فى صراعه ضدّ معاوية لم يكن موجوداً فى عهد الإمام الحسن عليه السلام، ومن الواضح أنّ وجود هكذا رجال يلعب دوراً بارزاً فى مثل هذا الصراع. هذه الأمور تكشف عن أنّ الظروف لم تكن فى صالح الحرب؛ فاحتمال الانتصار العسكري كان أضعف الاحتمالين فى مثل هذه الحالة، ويمكن أن نستشف هذا المعنى من قول الإمام الحسن عليه السلام لسليمان بن صرد: «فوا لله، لو سرنا إليهم بالجبال والشجر ما شككت أنّه سيظهر».

هذا، ومن جهة أخرى فإنّ وقوع الهزيمة فى معركة كهذه هو أقوى الاحتمالات، ويمكن أن تكون لها تداعيات خطيرة وانعكاسات سلبية فى تهديم البنية الداخلية التى شادها الإمام على عليه السلام فى الكوفة، حيث إنّ ما قام به كان حصيلة جهد سنوات قليلة من حكمه الرشيد عليه السلام، ولم تكن هذه السنوات سنيناً طبيعية إنّما كانت سنين حرب يحكمها اللا استقرار الاجتماعى، فجهود ما فى مثل هذه الظروف وفى مدة قصيرة، مهما كانت كبيرة، لا يمكن أن تكون منتجة لبنية واسعة الإطار، فجهوده عليه السلام كانت قد أنتجت ما يمكن أن تنتجه فى مثل هذه الحالة، فخرج منها ثلة من الناس معدة بصورة جيدة.

ففى حالة وقوع الهزيمة العسكرية سوف يُقضى على هذه الثلة التى كانت تتجمع فى قوات الإمام الحسن عليه السلام، وهذا السيناريو أو التصور نجده فى أكثر من كلام للإمام الحسن عليه السلام، فعندما لامَهُ سليمان بن صرد الخزاعى: «وأما قولك: يا مذل المؤمنين،فوالله لأن تذلوا وتعانوا أحبّ إليّ من أن تغروا وتقتلوا»، ويوم

خاطب حجر بن عدي ـ وقد كان مريداً للحرب مع معاوية ـ «يا حجر، ليس كل الناس تحب ما تحب، ولا رأيهم كرأيك، وما فعلت إلا إبقاءً عليك».

و لقد جمعت الأمة في ذلك الزمان نموذجين مختلفين كل الاختلاف : البيت الشريف النبوي وأحد أصحاب الكساء عليه السلام مع أحد طلقاء مكّة! حتى أن الحسن البصري قال في وصف هذا الطليق: «أربع خصال كنّ في معاوية؛ لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضل، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً، وادعاؤه زياداً، وقتله حجراً – ويلاً له من حجر وأصحاب حجر..» مرتين.

هذا الفهم والاطّلاع على حقيقة معاوية لم يكن واضحاً وكاملاً لو لم يتسلم سدة الحكم. هذا فضلاً عن خطاب معاوية المشهور بعد الصلح في الكوفة حيث روي أنّه قال: «إنّي لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا، بل قاتلتكم لأتأمر عليكم»، وروي كذلك أنّه قال: «إنّ كل شيء أعطيته للحسن تحت قدمي هاتين».

بناءً على هذا فإنّ الصلح كان ضرورة مرحلية ومقدمة أساسية لإعداد آلية عمل جديدة، قد تنتهي إلى استرداد الحكم أو إلى المنع من تدمير الإسلام، بعد أن يكون معاوية قد افتضح تماماً، ولم يبق أي تشويش في رؤية الأمّة. هذا ما يظهر من كلام للإمام الحسن والحسين عليهما السلام مع سليمان بن صرد إذ قالا له: «فإن يهلك [معاوية] ونحن وأنتم أحياء ـ سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا».

بناءً على ما تقدم ذكره في هذا البحث المتواضع لنا أن نعلم بأنّ الإقدام على الصلح كان يمثل شجاعة نابعة من حكمة في التعامل مع القضية المصيرية التي

هى أهم من الحكم نفسه، وهى الحفاظ على مسيرة الإسلام، وسلامة الأمّة من الانحراف، من هنا فإنّ الوظيفة الشرعية قبل أي اعتبار هى التى حكمت على الإمام الحسن عليه السلام بأن يصالح؛ وذلك حفاظاً على تلك القضية المحورية التى لا بدّ أن تكون الحرب كما يكون السلم فى خدمتها.

وإنها من السذاجة بمكان أن يتهم سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسن عليه السلام بعدم الشجاعة والميل إلى الدعة، لأنّ القضية لا تدرس فقط من جهة القائد، بما أنّ القيادة علاقة تبادلية طرفاها القائد والأمّة، فليس لأحد أن يحكم على القائد إلا بعد أن يدرس الأمّة التى حكمها، ولا بدّ من معرفة ما إذا كانت الأمّة متّحدة أفقاً مع أفق قائدها؛ إذ يلزم أن تتحد إرادتها ومبادؤها ومنطلقاتها، وكلّ ما تتحرك من خلاله مع إرادة ومبادئ ومنطلقات وحركة قائدها؛ وإلا فإنّ تعرضها لأيّ محكّ صعب سيعرضها للفشل والاضمحلال.

بدون أدنى شك لقد أدرك الإمام الحسن عليه السلام أنّ أمّته لم تكن أمّة يعتمد عليها عبّر تجربة طويلة عاشها معها، امتدت منذ اليوم الأول لحكومة الإمام على عليه السلام إلى يوم إبرام الصلح، حتى بعض الآراء لم ترقى إلى المستوى اللائق فبعض الآراء تحدثت عن وضع نفسى خاص يتعامل مع القضايا بسطحية، كما عبّر عنها الإمام على عليه السلام بقوله:«فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت، يقولوا: جزع من الموت»، كما أنّ مثل هذه المسائل ليست مسائل ذوق، إنّما هى مسؤوليات شرعية ومصير أمّة ودين وعقيدة.

فالصلح جاء لكى يعيد الأمّة إلى نفسها واختيارها، ويدخلها من جديد فى إطار تجربتها الذاتية؛ فهو ضرورة لصناعة المناخ اللازم لتحقيق النهوض الجهادي وتجاوز الذات لدى أمّة فقدت هذه الاستعدادات النفسية و الجهادية.

فربما ضارة نافعة حيث انتزع القناع لذاك الوجه اللئيم و لا يمكن بعد ذلك التستّر عليه بتزوير الأحاديث وتحريف الوقائع، ولا تقوّل المبرّرات الموضوعة للتستّر عليه والتى كان منها عدالة جميع الصحابة، وغيرها من الفضائل التى أدلى بها الواضعون من رواة السلاطين،وانكشفت حقيقة معاوية أمام الأمويّين خصوصاً أمام عائلة عثمان، إذ رفع معاوية شعار الطلب بدم عثمان وتمرّد على الإمامة الشرعيّة المنصوبة من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وبالبيعة من قبل أهل الحلّ والعقد ـ كما هو الرأي السائد آنذاك ـ وهو ما حصل فى خلافة الإمام الحسن عليه السلام بعد أن بايعه عامّة المهاجرين والأنصار.

فتخلّى معاوية عن شعاراته حين تمّ الصلح، وترك متابعة قتلة عثمان، وحينما دخل دار عثمان قالت عائشة بنت عثمان : واأبتاه، وبكت، فأجابها معاوية: «يا ابنة أخى، إنّ الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كلّ إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ؟ ولأن تكونى بنت عمّ أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين»[(١)].

ما قالوه عن سبط الرسول الأكرم الحسن بن علي عليه السلام:

«يرحمك الله أبا محمد إن عزت حياتك فقد هدت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمّنه جسدك»[(٢)].

«هذا أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء»[(٣)].

---

(١) عيون الأخبار : ١٠ ـ٦٢.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٤: ٢٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء٣: ٢٥٣.

***عبدالله بن عمرو بن العاص:**

«إنّه لهو المهذّب، قد أصبح من صريح العرب في غر لبابها، وكريم محتدها، وطيب عنصرها»[(١)].

***أبو الأسود الدؤلي:**

ولما مات الحسن عليه السلام بكى عدوّه اللدود (مروان بن الحكم)، فقال له الحسين عليه السلام: «تبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرّعه» ؟ فقال: «إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا»، وأشار بيده إلى الجبل[(٢)].

*** أبو بكرة بن عبيد**

قال عندما سمع بموته:«قد أراحه الله من شرّ كثير، وفقد الناس بموته خيراً كثيراً، يرحم الله حسناً»[(٣)].«والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي»[(٤)].

*** ابن الزبير:**

«ما تكلّم عندي أحد كان أحبّ إليّ إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي»[(٥)].

*** محمّد بن إسحاق:**

«كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه، وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطّمونهما مما يزدحمون عليهما

---

(١) الأعلام ١: ٢٠٣.

(٢) الفصول المهمّة: ١٥٧.

(٣) تذكرة الخواص: ١٧٦.

(٤) البداية والنهاية ٨: ٣٧.

(٥) المصدر السابق ١: ٩.

للسلام عليهما»[١].

❊ محمد بن طلحة الشافعي:

قال: «كان الله عزّ وجلّ قد رزقه الفطرة الثاقبة في ايضاح مراشد ما يعانيه، ومنحه الفطرة الصائبة لاصلاح قواعد الدين ومبانيه، وخصه بالجبلة التي درت لها أخلاف مادتها بصور العلم ومعانيه»[٢].

وسلام على السبط الحسن الزكي المُمتحَن، يوم وُلد ويوم استُشهد ويوم يُبعث مع الشهداء حيّاً، وسيعلم الّذين ظلموا آل محمد صلى الله عليه وآله حقّهم أيَّ منقلب ينقلبون.

بلاغة و دراية الحسن عليه السلام:

«إنّها ألسنة بني هاشم التي تفلق الصخر، وتغرف من البحر»

لما تم الصلح بين الحسن عليه السلام و معاوية و للأسباب الأنفة الذكر وأقام يتجهز إلى المدينة المنوّرة، اجتمع إلى معاوية رهط من شيعته منهم عمرو بن العاص و الوليد بن عقبة(أخ عثمان لأمه)، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام قد جلد هذا الأخير في الخمر، فقد قال هذا الرهط لمعاوية: نريدك أن تحضر لنا الحسن عليه السلام على سبيل الزيارة لنخجله قبل مسيره إلى المدينة، قال معاوية: إني لا أرى ذلك و لا أفعله، قالوا: عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن! قال: ويحكم! لا تفعلوا فوالله، ما لرأيته قط جالساً إلا خفت مقامه و عيبه لي، قالوا: ابعث إليه على كل حال. قال: إن بعثت إليه لأنصفنه منكم، فقال عمرو بن العاص: أتخشى أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٣.

(٢) مطالب السؤول: ٢ ـ ٦.

يأتي باطله على حقنا أو يربى قوله على قولنا؟ قال معاوية: أما إني إن بعثت إليه لأمرن أن يتكلم بلسانه كله، قال: مره بذلك.قال: أما إذا عصيتموني وبعثتم إليه و أبيتم إلا ذلك فلا تمرضوا له في القول و اعلموا أنهم أهل البيت لا يعيبهم العائب ولا يلصق بهم العار، ولكن اقذفوه بحجر تقولون له: إن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء من قبله.

فبعث إليه معاوية، فجاءه رسوله، فقال:إن أمير المؤمنين يدعوك، قال: «من عنده»؟ فسمّاهم، فقال الحسن عليه السلام: «ما لهم خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون»، ثم قال: «يا جارية، ابغيني ثيابي، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأدرأ بك من فجورهم وأستعين بك عليهم فاكفينهم كيف شئت وأني شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين»، ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد القوم وخطروا خطران الفحول بغياً في أنفسهم وعلواً. ثم قال: يا أبا محمد، إن هؤلاء بعثوا إليك و عصوني، فقال الحسن عليه السلام:«سبحان الله! الدار دارك، الإذن فيها إليك، والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا و ما في أنفسهم إني لأستحي لك من الضعف، فأيهما تقر وأيهما تنكر؟أما إني لو علمت بمكانهم لجئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب و ما لي أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم،إن ولي الله و هو يتولى الصالحين».

فقال معاوية: يا هذا،إني كرهت أن أدعوك ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له، وإن لك منهم النصف و مني، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قتل مظلوماً وأن أباك قتله. فاستمع منهم ثم أجبهم و لا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسان.

فتكلّم عمرو بن العاص، فحمد الله و صلى على رسوله ثم ذكر عليّاً عليه السلام، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قال، و قال:إنه شتم أبا بكر و كره خلافته و امتنع من بيعته ثم بايعه مكرهاً، و شارك في دم عمر و قتل عثمان ظلماً وادعى من الخلافة ما ليس له، ثم ذكر الفتنة يعيره بها، وأضاف إليه مساوئ و قال: إنكم ـ يا بني عبد المطلب ـ لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء و استحلالكم ما حرم الله من الدماء و حرصكم على الملك وإتيانكم ما لا يحل. ثم إنك ـ يا حسن ـ تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك، وليس عندك عقل ذلك و لا لبه، كيف تر بالله سبحانه سلبك عقلك و تركك أحمق قريش، يسخر منك و يهزأ بك و ذلك لسوء عملك، وإنما دعوناك لنسبك وأباك،فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله و لاعيب من الناس، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا، وإلا فاعلم أنّك وأباك ظالمان!

ثم تكلّم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال: يا بني هاشم، إنكم كنتم أخوال عثمان، فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم، و كنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم، فكنتم أول من حسده، فقتله أبوك ظلماً لا عذر له و لا حجة، فكيف ترون الله طلب بدمه وأنزلكم منزلتكم، و الله إن بني أميّة خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، و إن معاوية خير لك من نفسك!

ثم تكلّم عتبة بن أبي سفيان فقال: يا حسن، كان أبوك شر قريش لسفكه لدمائها وقطعه لأرحمها، طويل السيف واللسان، يقتل الحي ويغيب الميت، وإنك ممن قتل عثمان ونحن قاتلوك به، و أما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحاً

ولا في ميراثها راجحاً، وإنكم ـ يا بني هاشم ـ قتلتم عثمان، و إن في الحق أن نقتلك وأخاك به،فأما أبوك فقد كفانا الله أمره و أقاد منه، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان.

ثم تكلّم المغيرة بن شعبة فشتم علياً وقال: والله، ما أعيبه في قضية يخون ولا في حكم يميل، ولكنه قتل عثمان! ثم سكتوا.

ثم تكلّم الحسن عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه و صلّى على جده رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال:

«أما بعد يا معاوية: فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشاً ألفته وسوء رأي عرفت به، وخلقاً سيّئاً ثبت عليه، وبغيا علينا وعداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية و اسمعوا، فلأقولن فيك و فيهم ما هو دون ما فيكم:

أنشدكم الله أيها الرهط، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة وتعبد اللات و العزى غواية؟ وأنشدكم الله، هل تعلمون أنه بايعه البيعتين كليهما: بيعة الفتح و بيعة الرضوان. وأنت يا معاوية بإحداهما كافر وبالأخرى ناكث وأنشدكم الله، هل تعلمون أنه أوّل الناس إيماناً وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم، تسرون الكفر وتظهرون الإسلام وتستمالون بالأموال؟ وأنشدكم الله، ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب و معه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ومعك ومع أبيك راية الشرك؟ وفي كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته و ينصر دعوته ويصدق حديثه. و رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض و عليك وعلى أبيك ساخط. و أنشدك الله يا معاوية، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل

أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: اللهم العن الراكب والقائد والسائق؟ أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا بعد الّذين ببدر أصبحوا مزقا
خالي و عمي و عم الأم ثالثهم و حنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن إلى أمر تكلفنا و الراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد حاد ابن حرب عن العزى وإذا فرقا

والله، لمّا أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت. وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن عليّاً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله تعالى فيه: ﴿**يَاأَيُّهَا الّذين آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّـهُ لَكُمْ**...﴾(١)؟ وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا، فبعث عليّاً بالراية فاستنزلهم على حكم الله و حكم رسوله و فعل في خيبر مثلها»؟.

ثم قال: «يا معاوية أظنّك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني خزيمة، فبعث إليك و نهمك إلى أن تموت، وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله، ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردّها: **أولها** : يوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الدين فوقع به وسبه و شتمه وكذبه وتوعّده وهم أن

---

(١) سور المائدة: الآية (٨٧).

يبطش به، فلعنه الله و رسوله و صرف عنه. **والثانية**: يوم العير إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها فلم يظفر بها المسلمون، و لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها. **والثالثة**: يوم أحد حيث وقف تحت الجبل و رسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه و هو ينادي «أعل هبل» مراراً، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات و لعنه المسلمون. **والرابعة**: يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. **والخامسة**: يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام و الهدي معكوفاً أن يبلغ محله،ذلك يوم الحديبية، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان و لعن القادة و الأتباع، وقال: «ملعونون كلهم و ليس فيهم من مؤمن»، فقيل: يا رسول الله، أفما يرحب الإسلام لأحد منهم، فكيف باللعنة؟ فقال: «لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد». **والسادسة**: يوم الجمل الأحمر. **والسابعة**: يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنفروا ناقته و كانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان. فهذا لك يا معاوية!

وأنت يا ابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً عن عهر وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها،ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً، ثم قام أبوك فقال:أنا شانئ محمد الأبتر،فأنزل الله فيه ما أنزل، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد و هجوته وآذيته بمكة و كدته كيدك كلّه. وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر وأصحابه إلى مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً وأكذبك واشياً، جعلت حدّك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكبت من حليلته، ففضحك الله وفضح أصحابك، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام. ثم إنك تعلم وكل هؤلاء

الرهط يعلمون أنك هجوت رسول اللهصلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة». فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن. وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعّرت عليه الدنيا ناراً ثم لحقت بفلسطين، فلمّا أتاك قتله، قلت: أنا أبو عبد الله، إذا نكأت قرحة أدميتها، ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض و لا نعاتبك على رد، و بالله ما نصرت عثمان حياً، ولا غضبت له مقتولاً، ويحك يا ابن العاص،ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل … وما السير مني بمستنكر
فقلت ذريني فأني امرؤ … أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كية … أقيم بها نخوة الأصعر
وشانئ أحمد من بينهم … وأقوالهم فيه بالمنكر
وأجر إلى عتبة جاهد … ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم … وما استطعت في المغيب و المحضر
فإن أقبل العتب مني له … وإلا لويت له مشفري

فهذا جوابك، هل سمعته؟

وأما أنت يا وليد: فوالله، ما ألومك على بغض علي و قد جلدك ثمانين في الخمر و قتل أباك بين يدي رسول اللهصلى الله عليه وآله، وأنت الذي سماه الله الفاسق وسمّى علياً المؤمن، حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي، فأنا أشجع منك جناناً وأطول لساناً، فقال لك علي: اسكت يا وليد، فأنا مؤمن وأنت فاسق، فأنزل الله

تعالى في موافقته قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾[١]، ثم أنزل فيك على موافقته قوله أيضاً: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٢]. ويحك يا وليد! مهما نسيت قريش فلا تنسى قول الشاعر فيك وفيه:

أنزل الله و الكتاب عزيز ... في علي و في الوليد قرآنا
فتبوأ الوليد إذ ذاك فسقاً ... و علي مبوأ إيمانا
ليس من كان مؤمناً عمّرك الله ... كمن كان فاسقاً خوّانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل ... وعلي إلى الحساب عيانا
فعلي يجزى بذلك جناناً ... ووليد يجزي بذاك هوانا
ربّ جدّ لعقبة بن أبان ... لابس في بلادنا تبّانا

وما أنت و قريش؟! إنما أنت علج من أهل صفورية! و أقسم بالله، لأنت أكبر في الميلاد ممن تدعى إليه.

وأما أنت يا عتبة: فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك و لا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندي خير يرجى و لا شر يتقى، و ما عقلك و عقل أمتك إلا سواء، و ما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد؟ وأما وعيدك إياي بالقتل، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

يا للرجال وحادث الأزمان ... ولسبة تخزي أبا سفيان

---

(١) سورة السجدة: الآية (١٨).

(٢) سورة الحجرات: الآية (٦).

نبئت عتبة خانه في عرسه جنس لئيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فكيف يخاف أحد سيفك و لم تقتل فاضحك، و كيف ألومك على بغض علي و قد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر و شارك حمزة في قتل جدك عتبة وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد.

وأمّا أنت يا مغيرة: فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة: استمسكي فإني طائرة عنك، فقالت النحلة: و هل علمت بك واقعة علي فأعلم بك طائرة عني، و الله ما نشعر بعداوتك إيانا و لا اغتممنا إذ علمنا بها، و لايشق علينا كلامك، وإن حد الله في الزنى لثابت عليك. و لقد درأ عمر عنك حقاً، الله سائله عنه، و لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فأجابك: «لا باس بذلك يا مغيرة، ما لم ينو الزنى»؛ لعلمه بأنك زان، وأما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾[١]».

ثم قام الحسن عليه السلام فنفض ثوبه فانصرف، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال: يا أمير المؤمنين! قد شهدت قوله في، و قذفه أمي بالزنى، وأنا مطالب له بحد القذف. فقال معاوية: خل عنه لا جزاك الله خيراً، فتركه. فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته و نهيتكم أن تسبوه فعصيتموني، والله ما قام حتى أظلم عليَّ البيت، قوموا عني فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم و عدولكم عن رأي الناصح المشفق، والله المستعان[٢].

(١) سورة الإسراء: الآية (١٦).

(٢) الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة لمحمّد رضا: ٤٤ ـ ٥٠.

الخاتمة:

في خلاصة هذا البحث الشيّق لا بدّ من توضيح بعض المفاهيم المتعلقة بصلح الإمام الحسن عليه السلام: نستطيع أن نقول: إنّ الأمر أو بالأحرى القرار الذي اتّخذه عليه السلام كان قرار صواب مائة في المائة وكان قراراً تاريخياً كما تم ذكر أسبابه ومسبباته آنفاً، إنّها استراتيجية لا يدركها إلا آل بيت النبوة عليهم السلام، حيث تم الأخذ بالحسبان و توظيف عناصر القوة لصالح الأمّة في أصعب المراحل التي كانت تمر بها؟ لأن نظرة أهل البيت عليهم السلام للحكم كانت نظرة ثاقبة قليل من الناس من يدركها؛ إذ كانت تحتوي على قيم الرسالة السماوية النبيلة.

فلا خير في حكم يأتي على أشلاء المسلمين، وليذهب الحكم إلى الجحيم، لتبقى شعلة الرسالة متّقدة، ولتصب كلُّ الجهود في سبيل إصلاح المجتمع أوّلاً، وبشتى الوسائل المُتاحة،وآل البيت هم أبعد الخلق عن المراوغة و النفاق للوصول إلى الحكم، و كما عبّر عن ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام:«والله ما معاوية بأدهى منِّي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. ولكن كلّ غُدرة فُجرة وكلّ فُجرة كُفرة، ولكلِّ غادرٍ لواءٌ يُعرف به يوم القيامة».

والله، ما استُغفِل بالمكيدة، ولا استُغمِز بالشديدة؛ لأن الإمام الحسن عليه السلام بنظرته الرسالية الثاقبة و لما أدرك أن السلطة لم تعد الوسيلة النظيفة لأداء الرسالة، وأن هناك وسيلة أفضل، وهي الانسحاب إلى صفوف المعارضة، وبَثّ الروح الرسالية في الأمّة من جديد، عبر تربية القيادات، ونشر الأفكار، وقيادة المؤمنين الصادقين المعارضين للسلطة، وتوسيع نطاق المعارضة، أقبل على ذلك

بكل اطمئنان، وهو يرجو قبل كل شيء رضا الله تعالى؛ لأن ذلك من أساسيات المنهج الإسلامي الصحيح طالما أن لكل حكم شرعي مصلحة يتضمّنها، فمن باب أولى أن يكون الصلح وفي تلك الظروف الحالكة، مصلحة إسلامية على البعدين القريب و البعيد .

ولا ريب أن في تلك الأجواء التي ساد فيها الكيد والدسّ والتربّص بقادة الأمة الحقيقيّين، وفي خضّم تزيين الضلال، وتزييف الحقائق، وإشاعة اللبس في الرؤية من قبل معاوية لإبقاء المسلمين بعيداً عن الوعي وإدراك الحقائق،كان للصلح دوره الكبير في كشف حقيقة معاوية ونواياه الخفيّة، فبعد أن استلم معاوية زمام الأمور استسلم لزهو الانتصار، ولم يتمالك نفسه حتّى كشف عن سريرته ومكنونات أهوائه، ولم يلتفت إلى الآثار المترتّبة على هذا الكشف، فأعلن لأهل العراق عن أهدافه الحقيقيّة، وهي تتلخّص في الوصول إلى قمّة السلطة، كما جاء ذلك في خطابه حين قال : «إنّي ـ والله ـ ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمر عليكم»[1] .

بهذه الوقاحة التي ليس لها مثيل تم كشف وجه معاوية الحقيقي كشفاً لا يمكن بعد ذلك التستّر عليه بتزوير الأحاديث، وتحريف الوقائع، ولا تقوّل المبرّرات الموضوعة للتستر على أفعاله الشنيعة و التي كان التاريخ عليها شهيداً.

من أقواله وحكمه:

١- «لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً».

---

(١) مقاتل الطالبيّين ١: ٧٧.

٢ـ «المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت».

٣ ـ «الفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود».

٤ ـ «تُجهل النعم ما أقامت، فإذا ولّت عرفت».

٥-«ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم».

٦- «اللؤم أن لا تشكرالنعمة».

٧ ـ «الخير الذي لا شرفيه: الشكر مع النعمة، والصبر على النازلة».

٨ ـ «هلاك المرء في ثلاث! الكبر والحرص والحسد.. فالكبر هلاك الدين، وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس، به أخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء، ومنه قتل قابيل هابيل».

٩ ـ «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروءة لمن لا همة له، ولاحياء لمن لا دين له. ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك الداران جميعاً، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً».

١٠ـ «مكارم الأخلاق عشر: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والترحّم على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهنّ الحياء».

١١ـ «فوت الحاجة خيرمن طلبها إلى غير أهلها».

١٢ ـ «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد».

١٣ ـ «علّم الناس علمك،وتعلّم علم غيرك، فتكون قد اتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم».

١٤ـ قال عليه السلام لرجل أبلّ من علة: «إن الله قد ذكرك فاذكره، وأقالك فاشكره».

١٥ـ «إذا أضرت النوافل بالفريضة فارفضوها».

١٦ـ «من تذكر بعد السفر اعتدّ».

١٧ـ «بينكم وبين الموعظة حجاب العزّة».

١٨ ـ «إنّ من طلب العبادة تزكّى لها».

١٩ ـ «قطع العلم عذر المتعلّمين».

٢٠ ـ «أحسن الحسن الخلق الحسن».

و...

وقد تم بعون الله تعالى إتمام هذا البحث الشيّق عن سيّدنا ومولانا وإمامنا وجدّنا الحسن بن علي عليهما السلام، فلقد أردت من خلال هذا البحث المتواضع أن أقدّم نبذة مختصرة عن ما جرى من محن و مآسي و مواقف جد صعبة لسبط النبي الأكرم (عليه وآله الصلاة و السلام)، ومن خلال هذا البحث أردت أن أقول: إنّ الحسن بن علي عليه السلام هو تراث مشترك للأمة بل للإنسانية جمعاء، وتجاوز المذهبية المقيتة في ورقتي هذه و منهجي واجب يمليه عليَّ ضميري وفكري وشخصيتي المستقلّة، لا التقليد الأعمى ولا التفكير بعقول الآخرين، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

ظلمه أعداؤه وظلمه التاريخ والمؤرّخون

حسين الديراني (*)

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلائق اجمعين، المحمود الأحمد المصطفى الأمجد، حبيب إله العالمين، أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين.

باستعراضنا لمظلومية هذا الإمام المعصوم العظيم لا بدّ لنا من أن نستعرض سيرة حياته الشريفة منذ ولادته المباركة إلى شهادته (سلام الله عليه).

ولادته:

ولد الإمام الحسن عليه السلام في ليلة النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة في المدينة المنورة.

حين ولد سلام الله عليه قالت أُمّه الزهراء عليها السلام لعلي عليه السلام: «سمه» فقال الإمام عليه السلام: «ما كنت لأسبق حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله». فلمّا جاء النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «هل سميته»؟ فقال: «ما كنت لاسبقك باسمه، فقال صلى الله عليه وآله: «ما كنت لاسبق باسمه ربي عز وجل»، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى جبرائيل انه قد ولد

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ أُستراليا.

لمحمد ابن فأهبط وأقرئه السلام وهنئه وقل له: «إنّ علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسمه باسم ابن هارون»، فهبط جبرائيل عليه السلام فهنأه من الله عز وجل، ثم قال: «إن الله عز وجل يأمرك ان تسميه باسم ابن هارون». قال: «وما كان اسمه»؟ قال: «شبر»، قال: «لساني عربي»، قال: «سمه حسناً»، فسمّاه الحسن[1].

ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية، واصبح اسم الحسن ينتشر في المدينة كالنسيم العليل وكعطر الياسمين.

إذاً تسميته كانت وحي من الله عزّ وجلّ.

نشأته:

ترعرع الإمام عليه السلام في بيت النبوّة ومهبط الوحي، فكان يتنقل من حضن أُمّه الزهراء عليها السلام، الى حضن أبيه علي عليه السلام، والى حضن جده المصطفى صلى الله عليه وآله.

عاصر الإمام الحسن عليه السلام جده رسول الله صلى الله عليه وآله وأُمّه الزهراء عليها السلام حدود سبع سنوات، كانت كافية لأخذ الكثير من الخصال الحميدة والتربية الربانية الصالحة منهما، ثم أكمل مسيرة حياته الشريفة الى جنب ابيه علي عليه السلام، فصقلت شخصيته وبرزت مواهبه حتى احتل قلوب المسلمين.

خصائص الإمام الحسن عليه السلام:

حبّ النبي صلى الله عليه وآله له عليه السلام:

لم تكن علاقة الإمام الحسن عليه السلام بجده المصطفى صلى الله عليه وآله علاقة عائلية عادية كعلاقة الأب بابنه أو كعلاقة الجد بحفيده وما يصحب هذه العلاقة من

(١) الأمالي للصدوق: ١٩٨.

انشدادات عاطفية وانجذاب مشترك بين الطرفين، بل كانت علاقة تتجاوز هذا الحد؛ لأنّها كانت متوّجة بحب الله عزّ وجلّ وأمره، ولأنّ حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لابنه الحسن عليه السلام هو أيضاً من حبّ الله له، ولذلك كان المصطفى الأكرم صلى الله عليه وآله يرعى تربية الحسن عليه السلام رعاية مميزة وخاصة، فكان يغذيه بأدابه ومعارفه، وكما كان يخشى عليه من كل مكروه لحبه له وخوفه عليه، لأنّه أمانة الله عنده والامتداد الطبيعي للرسالة الإسلامية، ونجد هذا الانشداد الوثيق يتجسد في مواقف عديدة تعبر عن عمق هذه العلاقة.

روايات كثيرة تواترت عن الحب الذي كان يكنّه النبي صلى الله عليه وآله لولده الحسن عليه السلام:

الحب أو الشعور به حاجة أساسية للإنسان وخصوصاً في مرحلة الطفولة، والحبّ الذي يشعر به الطفل له تأثير كبير على جميع جوانب شخصيّته الفكرية والعاطفية والسلوكية، وللمحبّة تأثير أكثر إيجابية حينما يكون المحبّ هو رسول الله صلى الله عليه وآله ومن فوقه الله تعالى، ويكون المحبوب هو الحسن عليه السلام المنحدر من سلالة طاهرة، والمهيّأ من قبل الله تعالى ورسوله ليكون إماماً مفترض الطاعة وحجّة على الإنسانية إلى يوم القيامة.

من تلك الروايات التي اكدت على هذا الحبّ بعد التصريح به من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله في مناسبات عديدة:

ما روي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال للحسن: « اللهمّ، إنّي أحبّه فأحبّه وأحبب من يحبّه »[1].

---

(١) صحيح مسلم ٢: ٤٥٦/ ٥٦، باب فضائل الحسن والحسين عليهما السلام.

وعن أسامة بن زيد قال: « طرقت النبي صلى الله عليه وآله ذات ليلة في بعض الحاجة، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلمّا فرغت من حاجتي، قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا إبنتي، اللهمّ إنّي أحبُّهما فأحبَّهُما وأحبب من يحبُّهما»[1].

وعن سلمان (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للحسن والحسين: «من أحبّهما أحببته، ومن أحببته أحبّه الله، ومن أحبّه الله أدخله جنّات النعيم، ومن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضته، ومن أبغضته أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله عذاب جهنّم وله عذاب مقيم »[2].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ الحسن والحسين، فقال: من أحبّ هذين وأباهما وأمّهما، كان معي في درجتي يوم القيامة »[3].

والدعوة لحبّ أهل البيت عليهم السلام دعوة رسالية لتوجيه المسلمين إلى الارتباط بهم فكرياً وعاطفياً، ومن ثمّ الاقتداء بهم والالتزام بأوامرهم وتوجيهاتهم؛ لتكون مفاهيمهم وقيمهم هي الحاكمة على حركة الإنسان والمجتمع المسلم.

فضائل الإمام الحسن عليه السلام:

أهل البيت عليهم السلام شعلة مضيئة في سماء البشرية، أشار الله سبحانه وتعالى من خلالها إلى عظمة شأنهم وعلو مكانتهم وفضائلهم التي خصها بهم في القرآن

(١) سنن الترمذي، حديث ٣٧٩٤، باب مناقب الإمام الحسن عليه السلام.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٥٠.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣: ٢٥٤.

الكريم كي يلتزم من آمن بالله ورسوله وكتابه بتعاليمهم والاقتداء بهم والسير على هديهم وإطاعة أوامرهم.

وفيما يلي نستعرّض جملة من آيات القرآن الكريم التي تطرّقت إلى ذلك لكونها شاملة للإمام الحسن عليه السلام كواحد من أهل البيت عليهم السلام.

أوّلاً: من القرآن الكريم:

١ـ آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(١)]:

تظافرت التفاسير والروايات إلى أنّ المقصود بأهل البيت عليهم السلام هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهم: رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. فقد روي عن أُمّ سلمة وبطرق عديدة أنّها قالت: لمّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فجلّل عليهم كساءً خيبرياً، فقال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتى، أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً». قالت أُمّ سلمة: ألست منهم؟ فقال: «أنت إلى خير»[(٢)].

وهذه الآية الكريمة تدلّ على عصمة أهل البيت عليهم السلام ومنهم الحسن عليه السلام، كما ورد فى تفسيرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «أنا وأهل بيتى مطهّرون من الذنوب»[(٣)].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) جامع البيان للطبري ٢٢: ٦، الدر المنثور للسيوطي ٦: ٦٠٣.

(٣) البداية والنهاية ٢: ٢٥٧، دلائل النبوة للبيهقي ١: ١٧٠.

وقال الإمام الحسن عليه السلام في بعض خطبه: «وأنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل إلينا، ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً »[١].

وآية التطهير تؤكّد العناية والرعاية الإلهيّة الخاصّة والاستثنائية وذلك بإبعادهم عن الزلل والخطأ والانحراف.

وهكذا أصبح أهل البيت عليهم السلام الميزان الثابت الذي توزن به الأفكار والعواطف والممارسات، والذي به يعرف الحقّ من الباطل، والخطأ من الصواب، فهم المرجع العلمي والسياسي والاجتماعي للمجتمع كلّه.

٢ـ آية المودّة:﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْرًا إلا المَوَدَّةَ في الْقُرْبَى﴾[٢]:

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس، قال: لمّا نزلت هذه الآية... قالوا: يا رسول الله من قرابتك الّذين وجبت مودّتهم؟ قال:«علي وفاطمة وولدها »[٣].

وفي رواية أخرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الّذين نودّهم؟ قال:«علي وفاطمة وأبناؤهما ».

وعلّق القرطبي على ذلك قائلاً: « وكفى قبحاً بقول من يقول: إنّ التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته منسوخ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «مَن مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ومَن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ومَن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٢.
(٢) سورة الشورى : الآية (٢٣).
(٣) روح المعاني للآلوسي ١٣: ٣٢، الدر المنثور ٥: ٧٨.

عينيه آيس اليوم من رحمة الله، ومَن مات على بغض آل محمّد لم يرَ رائحة الجنّة، ومَن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي»[١]. وهذا يوجِّه العقول والقلوب نحو أهل البيت عليهم السلام ويشدّها لهم، ويؤكّد على أنّ أجر الرسالة هو محبّتهم الحقيقية، وهي دعوة للارتباط بهم فكرياً وعاطفياً وسلوكياً.

٣ ـ آية الصلاة: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبيِّ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه وَسَلِّمُوا تَسْليمًا﴾[٢]:

أخرج النسائي وغيره عن أبي هريرة: أنّهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف نصلّي عليك؟ قال: « قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد وبارك على محمّد وآل محمّد، كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، إنّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»[٣].

والصلاة بتلك الكيفية جعلت أهل البيت عليهم السلام مناراً وقدوة للأمّة، فمنهم يتلقّى المسلمون مفاهيم العقيدة وقيم السلوك وموازين التقييم، وهذا التلقّي هو مصداقٌ واقعي للصلاة عليهم؛ لأنّ الصلاة واجبة كما ورد في آراء الكثير من العلماء، حتى قال الشافعي: « من لم يصلّ عليكم لا صلاة له»[٤]. وقال الديلمي: «الدعاء محجوب حتى يُصَلَّى على محمّد وأهل بيته»[٥]. وكما ورد في أحاديث أخرى أنّه صلى الله عليه وآله قد نهى عن أن يصلى عليه الصلاة البتراء، روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء». قالوا: وما الصلاةالبتراء يا رسول الله؟ قال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣: ١٦.
(٢) سورة الأحزاب : الآية (٥٦).
(٣) روح المعاني ١١: ٢٥٣.
(٤) الصواعق المحرقة: ٢٢٨.
(٥) المصدر السابق: ٢٧٧.

«تقولون: اللهم صل على محمّد، وتسكتون، بل قولوا: اللهم صل على محمّد وعلى آل محمد»[١].

٤ ـ آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءكَ منَ الْعلْم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنسَاءنَا وَنسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذبينَ﴾[٢]:

والثابت في نزول هذه الآية، هو أنّ نصارى نجران، لمّا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر، فلمّا تخالوا قالوا: للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: يا عبدالمسيح ما ترى؟ فقال:«والله، لقد عرفتم ـ يا معشر النصارى ـ أنّ محمداً نبيّ مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيّاً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكنّ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم». فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غداً محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفهما وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمّنوا». فقال أسقف نجران: «يا معشر النصارى، إنّي لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة». فقالوا: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا[٣].

---

(١) ينابيع المودّة للقندوزي ١: ٣٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٦١).

(٣) الكشاف ١: ٥٥٦، ٥٦٥، التفسير الكبير ٨: ٨٥ و٦٨.

وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وبرهان واضح على نبوّة النبي صلى الله عليه وآله. وهذه الآية دالّة على أنّ الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله.

٥ ـ آية أهل الذكر: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١]:

يقول الحارث: سألت عليّاً عن هذه الآية، فقال:«والله إنّا لنحن أهل الذكر، نحن أهل الذكر، نحن أهل العلم، ونحن معدن التأويل والتنزيل »[٢].

٦ ـ آية الراسخون في العلم: ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣]:

قال الإمام علي عليه السلام: « أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى»[٤].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الأخرى التي لا مجال في تفصيلها، غير أن ما تقدم منها يبيّن لنا دور الإمام الحسن عليه السلام ومقامه السامي في إمامة وقيادة الإنسانية، فهو الطاهر المطهّر المعصوم كما ورد في آية التطهير، وهو من الّذين أمر الله تعالى بحبّهم وطاعتهم وموالاتهم كما في آية المودّة، ومن المشمولين بالصلاة عليهم وتعظيمهم وتبجيلهم، وهو من أهل الذكر، والراسخين في العلم.

---

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

(٢) شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ١: ٤٣٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٧).

(٤) نهج البلاغة، ترتيب د. صبحي الصالح: ٢٠٠، الخطبة ١٤٤.

وإذا انضمّ هذا إلى ما تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وآله بحق الحسن عليه السلام علم أنه الإمام القدوة الذي ينبغي الاقتداء بأقواله وأفعاله؛ لأنّه العارف بأسس وقواعد المنهج الإسلامي بجميع أبعاده ومجالاته، والمعصوم الذي لا يميل مع الهوى ولا يتأثّر بالمؤثّرات الضيّقة كالمودّة والشنآن والعصبية؛ فهو على ضوء ذلك يمثل المرجعية الحقّة التي يُرجع إليها في حال اختلاف المعايير واضطراب الموازين في أجواء التشكيك والبلبلة والاضطراب الفكري الذي أثارته بوجه الإمام الحسن عليه السلام الشجرة الملعونة بقيادة زعيم البغاة ابن آكلة الأكباد معاوية بن أبي سفيان.

ثانياً: من السنة النبوية الشريفة:

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله من أجل إيصال المجتمع الإنسانى إلى قمّة التكامل والسموّ والارتقاء؛ بتقرير المنهج الإلهى فى واقع الحياة، وجعله الحاكم على تصوّرات الناس ومشاعرهم ومواقفهم، وقد عاش مع المجتمع يدعوه إلى عبادة الله تعالى وإلى إصلاح وتغيير العقول والقلوب والإرادات، ويدعوه إلى الارتباط بالقدوة والأسوة الصالحة، ولذا نجده يوازن بين الدعوة إلى الدين كمفاهيم وقيم وبين الدعوة لمن يمثّل هذا الدين فى حركة الواقع، ويأتى تبيانه لفضائل أهل البيت عليهم السلام ضمن هذا التوازن.

وفى هذا المقام فإنّ تبيان فضائل الإمام الحسن عليه السلام لم يكن نابعاً من الرغبة العاطفية المحضة نتيجة القرابة القريبة، بل هو دعوة للاستمرار فى حركة الرسالة وامتدادها فى الإمام الحسن عليه السلام الذي جسّدها ويجسّدها فى سكناته وحركاته وأقواله وأفعاله.

فالإمام الحسن عليه السلام هو سيّد شباب أهل الجنّة، كما ورد في حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»(١)، وقال أيضاً: «من سرّه أن ينظر إلى سيّد شباب أهل الجنّة، فلينظر إلى الحسن بن علي »(٢).

وهذا التفضيل العظيم للحسنين عليهما السلام لم يكن على أساس القربى النسبية، بل هو تفضيل رسالي، فهما أفضل من غيرهم بدرجة قربهم من المفاهيم والقيم الإلهيّة التي جسّدوها ويجسّدونها في أفكارهم وعواطفهم وممارساتهم.

وعن عبدالله بن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا »(٣). وفي الحديث: « خير رجالكم علي بن أبي طالب، وخير شبابكم الحسن والحسين، وخير نسائكم فاطمة بنت محمد»(٤). وفيه أيضاً: « نحن ولد عبدالمطّلب سادة أهل الجنّة: أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي »(٥). وفيه حديث آخر: « الحسن والحسين سيفا العرش وليسا بمعلّقين»(٦). وعن عمر بن الخطاب أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:«إنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين في حظيرة القدس في قبّة بيضاء سقفها عرش الرحمان »(٧). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:«يحشر الأنبياء يوم القيامة على الدّواب

(١) سنن الترمذي: حديث ٣٧٩٣، باب مناقب الإمام الحسن عليه السلام.
(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٣: ٢٠٩.
(٣) سنن الترمذي: الحديث ٣٧٩٥.
(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٤: ١٦٧.
(٥) كنز العمال ١٣: ٩٧/ ٣٤٦١٢.
(٦) المصدر السابق ١٣: ١١٤/ ٣٤١٦٢.
(٧) تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٢٩.

ليوافوا من يومهم المحشر، ويبعث صالح على ناقته، وأبعث أنا على البراق، ويبعث ابناي الحسن والحسين على ناقتين من نوق الجنّة »[(١)]. وعن زينب بنت أبي رافع، عن فاطمة بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله: أنّها أتت بالحسن والحسين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكواه الذي توفي فيه، فقالت:يا رسول الله، هذان ابناك فورثهما شيئاً، فقال: أمّا الحسن فله هيبتي وسؤددي، وأما حسين فله جرأتي وجودي»[(٢)]. وعن جابر قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله:«إنّ الله عزّ وجل جعل ذريّة كلّ نبي في صلبه، وإنّ الله تعالى جعل ذريّتي في صلب علي بن أبي طالب»[(٣)]. وعن عمر بن الخطّاب، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «كلّ بني أنثى فإنّ عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإنّي أنا عصبتهم وأنا أبوهم»[(٤)]. وقالصلى الله عليه وآله: « الحسن والحسين سبطان من الأسباط »[(٥)]. وقالصلى الله عليه وآله: « حسن سبط من الأسباط »[(٦)].

والأحاديث الشريفة المتقدّمة ـ والتي تبيّن فضائل الإمام الحسنعليه السلام ـ يراد منها: تنبيه المسلمين وتوجيههم للارتباط بأرقى نماذج الشخصية الإنسانية، لكي يقتدوا بها ويستسلموا استسلاماً واعياً متعقّلاً لمفاهيمها وقيمها، ولكي يميّزوا بين الحقّ والباطل في معترك الأهواء والصراع والمنافسة بين التيّارات المتصارعة الآنية والمستقبلية، فجعل رسول اللهصلى الله عليه وآله أهل البيتعليهم السلام المقياس والميزان الذي تقاس وتوزن به المواقف والشخصيّات والتيّارات، فمحاربتهم محاربة

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٣/ ٢٦٢٩.
(٢) المعجم الكبير ٢٢: ٤٢٣/ ١٠٤١.
(٣) المصدر السابق ٣: ٤٤/ ٢٦٣٠.
(٤) المصدر السابق ٣: ٤٤/ ٢٦٣١.
(٥) كنز العمّال ١٢: ١١٩/ ٣٤٢٨٣.
(٦) أُسد الغابة لابن الأثير ١: ٤٩٠.

لرسول الله صلى الله عليه وآله ومسالمتهم مسالمة لرسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد عن أبي هريرة، قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عليّ وابنيه وفاطمة، فقال: «أنا حرب لمن حاربكم، سلم لمن سالمكم»(١)، ونحوه عن زيد بن أرقم(٢).

وفي هذا الحديث الشريف ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله الحجّة على أعداء أهل البيت عليهم السلام، وبيّن سلامة مواقفهم في خضمّ الأحداث الواقعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كحرب الجمل وصفّين والنهروان، وتمرّد معاوية الباغي الخبيث على دولة الإمام الحسن عليه السلام، وقتل يزيد (لعنه الله) للإمام الحسين عليه السلام.

الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله تعيّن بالنصّ ولا تترك لاختيار الأُمّة؛ فهي عهد من الله عزّ وجلّ للمصطفين من عباده، وقد أكّد أهل البيت عليهم السلام تلك الحقيقة، فالأمر ليس متروكاً للأمة ولا حتى لأهل البيت عليهم السلام أنفسهم، فهم لا يستخلفون أو ينصّون على من بعدهم إلا بعهد معهود من رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمر الله تعالى.

عن أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، فذكروا الأوصياء وذكرت إسماعيل، فقال: «لا والله يا أبا محمّد، ما ذاك إلينا وما هو إلا إلى الله عزّ وجلّ ينزل واحداً بعد واحد»(٣). وقال عليه السلام: «أترون الموصى منّا يوصي إلى من يريد؟ لا والله ولكن عهد من الله ورسوله صلى الله عليه وآله لرجل فرجل حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه»(٤).

وعلّة النصّ هي أنّ الإمامة منصب عظيم وخطير؛ لأنّ الإمام هو حجّة الله على خلقه، وهو المقتدى به في أقواله وأفعاله؛ ولذا فإنّ الأُمّة لا تستطيع أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٨.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٠/ ٢٦٢٠.

(٣) الكافي ١: ٢٧٧/ ١، كتاب الحجّة، باب: إنّ الإمامة عهد من الله.

(٤) المصدر السابق ١: ٢٧٨/ ٢، كتاب الحجّة، باب: إنّ الإمامة عهد من الله.

تشخّص إمامها، وهذا ما تؤكّده المسيرة الإسلامية وسير الأحداث؛ فلا بدّ وأن يكون الاختيار؛ إلهياً للحفاظ على سلامة المفاهيم والقيم الإسلامية، وحماية الإسلام من تحريف الضالّين وتأويل الجاهلين، والنصّ سنة من سنن الله تعالى في تعيين الأئمّة والأوصياء من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامة الحسن عليه السلام في أقواله باعتباره أحد الأئمّة الاثنى عشر، فقد وردت روايات عديدة تنصّ على عدد الأئمّة، نختار بعضها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش »[(١)]. وقال: « بعدي اثنا عشر خليفة »، ثمّ أخفى صوته وقال: « كلّهم من بني هاشم»[(٢)]. وقال: «أهل بيتي عترتي من لحمي ودمي، هم الأئمّة بعدي عدد نقباء بني إسرائيل»[(٣)]. وقال: « يا عليّ، أنا وأنت وابناك الحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين أركان الدين ودعائم الإسلام، من تبعنا نجا، ومن تخلّف عنّا فإلى النار »[(٤)]. وقال للإمام الحسين عليه السلام: « أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمّة تسعة، تاسعهم قائمهم»[(٥)]. وقال في بيان أوصيائه من بعده: «أوّلهم أخي ووزيري ووارثي وخليفتي في أمّتي، ووليّ كلّ مؤمن بعدي... ثمّ ابني الحسن ثمّ ابني الحسين، ثمّ تسعة من ولد الحسين؛ واحد بعد واحد حتى

(١) صحيح مسلم ٢: ١٨٣/ ١٨٢١، كتاب الإمارة، باب: الخلافة في قريش.
(٢) ينابيع المودّة للقندوزي الحنفي ١: ٣٠٨.
(٣) كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر للخزاز: ٨٩.
(٤) الأمالي للمفيد : ٢١٧/ ٤، مجلس ٢٥.
(٥) جامع الأخبار للسبزواري : ٦٢/ ٨.

يردوا عليّ الحوض، هم شهداء الله في أرضه، وحجّته على خلقه، وخزّان علمه، ومعادن حكمته؛ من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله»[(١)]. وقال بشأن الحسن والحسينعليهما السلام: «هذان ابناي إمامان قاما أو قعدا»[(٢)]. وقال في أهل بيتهعليهم السلام: « إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[(٣)]. وقال أيضاً: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غُفر له»[(٤)]. وقال: « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[(٥)].

وما تقدّم يدلّ دلالة واضحة على إمامة الحسنعليه السلام، فهو إمام مفترض الطاعة منصّب من الله تعالى ومن رسولهصلى الله عليه وآله، وهو المقتدى به في أقواله وأفعاله. وعلى ضوء ذلك فهو المقياس الذي تقاس به أفكار ومواقف الآخرين، فمن وافقه نجا، ومن خالفه خسر وهوى؛ ولهذا فلا يعذر من خالفه ومن قاتله كمعاوية، فهو ليس مجتهداً فأخطأ، كما يزعم أنصار الشجرة الملعونة[(٦)]، بل هو

---

(١) فرائد السمطين للحمويني ١: ٣١٨/ ٢٠٥.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي: ٢١٤.

(٣) سنن الترمذي: الحديث ٣٨١٣، مناقب أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٦٨، ونحوه في الصواعق المحرقة لابن حجر: ٢٣٤، ويُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣: ١٥١.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٩.

(٦) الصواعق المحرقة لابن حجر : ٣٢٨.

من البغاة العتاة المردة مع سبق الإصرار؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد ألقى الحجّة على المسلمين بالنص على إمامة سبطه الحسن عليه السلام وعلى عصمته وصحّة أفكاره ومواقفه، فلا تجوز مخالفته فضلاً عن التمرّد على خلافته بالعصيان العسكري.

عبادة الإمام الحسن عليه السلام:

كان الإمام الحسن عليه السلام دائم الارتباط بالله تعالى، ودائم التوجه إليه، وكان مرتبطاً به في عقله ومشاعره وإرادته، وصار هذا الارتباط حقيقة ايجابية متحركة استقرت في أغوار النفس والضمير، وتحولت إلى واقع في صورة أعمال وممارسات وحركات دائمة صادرة عن وعي ومتجهة إلى غاية، فهي ليست مظاهر وطقوس مجردة، بل هي حركة وفاعلية تعبر عن اخلاص لله وتجرد له تدفع إلى العمل الصالح الذي هو انعكاس لهذا الارتباط الدائم.

عن المفضل بن عمر: قال: قال الصادق عليه السلام: «حدّثني أبي عن أبيه عليه السلام: أنّ الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ويسأل الله الجنة ويعوذ به من النار، وكان عليه السلام لا يقرأ من كتاب الله عزّ وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا**﴾ إلا قال: لبّيك اللهمّ لبّيك، ولم ير في شيء من أحواله إلا ذاكراً لله سبحانه»[١]. وروي أنّه: «حج

---

(١) أمالي الصدوق: ١٥٠/ ٨ مجلس ٣٣.

خمس عشرة حجّة ماشياً، وخرج لله من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرّات»(١). وعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: « أنّ الحسن عليه السلام قال: إني لأستحي من ربّي أن ألقاه ولم أمشي إلى بيته، فمشى عشرين مرّة من المدينة على رجليه»(٢). وكان إذا بلغ المسجد رفع رأسه وقال: « ضيفك ببابك، يا محسن، قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم »(٣). وكان إذا فرغ من الفجر لم يتكلم حتى تطلع الشمس وإن زحزح(٤).

وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف في لوح مكتوب يدور معه حيث دار من بيوت أزواجه قبل أن ينام وهو في الفراش(٥). وكان إذا فرغ من الوضوء تغيّر لونه، فقيل له في ذلك، فقال: «حقّ على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغيّر لونه»(٦).

كرم الإمام الحسن عليه السلام:

تعتبر صفة الكرم والسخاء من أبرز الصفات التي تميز بها الإمام الحسن عليه السلام، فكان المال عنده غاية يسعى من خلالها إلى كسوة عريان ، أو إغاثة ملهوف، أو وفاء دين غريم، أو إشباع جوع جائع.

هذا، وعرف الإمام الحسن عليه السلام بكريم أهل البيت، فهو الذي قاسم الله أمواله ثلاث مرات، نصف يدفعه في سبيل الله ونصف يبقيه له، بل وصل الى أبعد من

(١) المنتظم لابن الجوزي ٥: ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٣٣٩.
(٣) المصدر السابق ٤٣: ٣٣٩.
(٤) المصدر السابق ٤٣: ٣٣٩.
(٥) البداية والنهاية ٨: ٤٢.
(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٧: ٢٥.

ذلك، فقد أخرج ماله كله مرتين في سبيل الله ولم يبق لنفسه شيء، فهو كجده رسول الله صلى الله عليه وآله يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، وهو سليل الاسرة التى قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وآية أخرى تحكى لسان حالهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[(٢)].

فهذا هو الأصل الكريم لإمامنا الحسن عليه السلام الزكى من الشجرة الطيبة التى تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها، فمن كريم طبعه عليه السلام انه لا ينتظر السائل حتى يسأله ويرى ذل المسألة فى وجهه، بل يبادر إليه قبل المسالة فيعطيه.

وهناك شواهد كثيرة دونتها كتب العامة والخاصة.

بلاغة وفصاحة الإمام الحسن عليه السلام:

من الصفات المحبّبة لدى القائد أن يكون بليغاً وفصيحاً فى أقواله وكلماته التى يخاطب بها العقول والمشاعر؛ لتنفتح أمام الحقائق وأنوار الهداية. وهى ضرورية فى استجاشة عناصر الخير والصلاح، ومطاردة عناصر الشر والانحراف، واستثارة حالة الحذر من مزالق الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء.

وكان الإمام الحسن عليه السلام أفضل الناس بلاغة وفصاحة فى زمانه؛ يحث الناس من خلالها على تبنى المفاهيم السليمة وممارسة القيم الصالحة. وكان عليه السلام يمارس الخطاب البليغ والفصيح لتحريك العقل الجمعي وتوجيهه

---

(١) سورة الحشر : الآية (٩).

(٢) سورة الإنسان : الآيتان (٨ ـ ٩).

الوجهة الصالحة.

وفى هذا يقول ابن كثير: « وكان على عليه السلام يكرم الحسن إكراماً زائداً ويعظمه ويبجله، وقد قال له يوماً: يا بنى، ألا تخطب حتى أسمعك؟ فقال: إنى أستحى أن أخطب وأنا أراك، فذهب على فجلس حيث لا يراه الحسن، ثم قام الحسن فى الناس خطيباً وعلىّ يسمع، فأدّى خطبة بليغة فصيحة، فلما انصرف جعل علىّ يقول: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْض وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾»[1].

ورُوي أنه: «طعن أقوام من أهل الكوفة فى الحسن بن على عليهما السلام، فقالوا: إنّه عىّ لا يقوم بحجّة! فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فدعا الحسن فقال: يابن رسول الله، إنّ أهل الكوفة قد قالوا فيك مقالة أكرهها؟ قال: وما يقولون يا أمير المؤمنين؟ قال: يقولون: إنّ الحسن بن على عىّ اللسان لا يقوم بحجة، وإن هذه الأعواد... فأخبر الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، لا أستطيع الكلام وأنا أنظر إليك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّى متخلّف عنك، فنادى أنّ الصلاة جامعة، فاجتمع المسلمون فصعد عليه السلام المنبر، فخطب خطبة بليغة وجيزة، فضجّ المسلمون بالبكاء ثم قال: أيّها الناس، اعقلوا عن ربّكم، إنّ الله عزّ وجلّ اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم، فنحن الذريّة من آدم، والأُسرة من نوح، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، وآل من محمّد صلى الله عليه وآله، نحن فيكم كالسماء المرفوعة، والأرض المدحوة، والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونة، لا شرقية ولا غربية التى بورك زيتها، النبى أصلها، وعلى فرعها، ونحن ـ والله ـ ثمرة تلك الشجرة، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن تخلف عنها فإلى النار هوى»[2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٤)، البداية والنهاية ٨: ٣٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٣٥٨ / ٣٧.

شجاعة الإمام الحسن عليه السلام:

إنّ هداية الناس واصلاحهم بحاجة إلى الشجاعة والاقدام؛ لأنّها تصطدم بشهوات البعض وبالضعف النفسي لهم، وتصطدم بالجاهلين الّذين يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وبالمنحرفين الّذين يبغضون الهداية والسمو، وبالأعداء والمتآمرين؛ ومعالجة كل هذا بحاجة إلى التسلّح بالشجاعة، دون خوف أو وجل أو تردد أو تراجع.

والإمام الحسن عليه السلام كإمام وخليفة كان يتصف بأعلى درجات الشجاعة، وكان لا يتردد في قول الحقّ وفي فعل الحقّ ولا تأخذه في الحقّ لومة لائم.

روي: أنّ الطليق معاوية سأل الحسن عليه السلام بعد الصلح أن يخطب الناس فامتنع، فناشده أن يفعل، فوضع له كرسيّ، فجلس عليه، ثم قال: «... وأيم الله، لا ترى أمة محمّد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا؛ لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم، فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دعتكم، وحيف حكمكم... »[1].

وفي ردّ له على معاوية قال: « هيهات !! لشر ما علوت به يا ابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان، بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاص لله، والمكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول: أنا خير منك؛ لأنّك لا خير فيك، فإنّ الله قد برأني من الرذائل كما برأك من الفضائل »[2].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٨.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢: ٣٠٦.

وفى مجلس لمعاوية طعن عمرو بن العاص بالإمام الحسن عليه السلام، فخاطب الإمام عليه السلام معاوية قائلاً: «يا معاوية، لا يزال عندك عبد راتعاً فى لحوم الناس، أما والله، لو شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرّج منه الصدور ». ثم أنشأ يقول:

أتأمر يا معاوي عبد سهم ... بشتمي والملا منّا شهود
فهل لك من أب كأبي تسامى ... به من قد تسامى أو تكيد
ولا جد كجدي يا ابن حرب ... رسول الله إن ذكر الجدود
ولا أم كأمي من قريش ... إذا ما حصل الحسب التليد
فما مثلي تهكم يا ابن حرب ... ولا مثلي ينهنهه الوعيد
فمهلاً لا تهج منا أموراً ... يشيب لهولها الطفل الوليد[(١)]

أمّا الشجاعة فى ميدان القتال فقد شهدت له معارك الجمل وصفين، ففى معركة الجمل قال الإمام على عليه السلام لمحمد: « أي بنيّ خذ الراية»، فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها، فأخرهما عنها[(٢)]. وفى معركة صفين صرّح الإمام على عليه السلام بذلك فقال: «ولقد هممت بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هذين قد ابتدرانى ـ يعنى الحسن والحسين ـ ونظرت إلى هذين قد استقدمانى ـ يعنى عبد الله بن جعفر ومحمد بن على ـ فعلمت أنّ هذين إن هلكا انقطع نسل محمّد من هذه الأُمّة، فكرهت ذلك، وأشفقت على هذين أن يهلكا »[(٣)].

وكان على عليه السلام قد جعل الإمام الحسن على قلب جيشه، كما ورد فى كتب التاريخ[(٤)].

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢: ٣٠٧.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٧٥.

(٣) وقعة صفّين: ٥٣٠.

(٤) الإمامة والسياسة ١: ١٠٤.

دور الإمام الحسن عليه السلام في النظام السياسي للإمام علي عليه السلام:

لقد كان الإمام الحسن عليه السلام ملاصقاً لأبيه علي عليه السلام في الحرب والسلم، ويقدم نموذجاً رائعاً بالتسليم لولى الأمر المعصوم المفروض الطاعة، وكان الإمام علي عليه السلام يهيؤه لدور القيادة والإمامة من بعده من خلال حضوره في كل مجالسه ومعاركه ، وبرز ذلك في عدة مواقف، نذكر منها ما يلي:

عندما فشلت جميع المحاولات لتهدئة الأوضاع وإعادة المتمرّدين إلى الطاعة في واقعة الجمل، فقد كان عبدالله بن الزبير من أشدّ المحرّضين على إثارة الفتنة وإراقة الدماء، وقد أفسد جميع الوسائل التي صنعها الإمام عليه السلام لتحقيق السلم، وقد خطب في جموع البصريين ودعاهم إلى الحرب تحت ذريعة الطلب بدم عثمان. فبلغ خطابه أمير المؤمنين عليه السلام فقال للإمام الحسن عليه السلام: «قم يا بنيّ فاخطب»، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيّها الناس قد بلغتنا مقالة ابن الزبير، وقد كان ـ والله ـ يتجنّى على عثمان الذنوب، وقد ضيّق عليه البلاد حتى قتل، وإنّ طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حيّ، وأمّا قوله: إنّ عليّاً ابتزّ الناس أمرهم، فإنّ أعظم حجّة لأبيه زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة فليأت على ما ادّعاه ببرهان، وأنّى له ذلك؟! وأمّا تعجّبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة فما أعجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل، ولعمري ـ والله ـ ليعلمنّ أهل البصرة وميعاد بيننا وبينهم اليوم نحاكمهم إلى الله تعالى فيقضى الله الحقّ وهو خير الفاصلين»[(١)].

---

(١) الجمل للشيخ المفيد: ١٧٥.

وحينما اشتدّ القتال وكثر القتلى من الطرفين، دعا الإمام علي عليه السلام محمّد ابن الحنفية فأعطاه رمحه، وقال له: «اقصد بهذا الرمح قصد الجمل»، فذهب فمنعه بنو ضبّة، فلمّا رجع إلى والده، انتزع الحسن رمحه من يده، وقصد الجمل وطعنه برمحه، ورجع إلى والده وعلى رمحه أثر الدم(١). وبعد مقتل الجمل الذي عليه عائشة انهزم الناس(٢).

فقد كان دور الإمام الحسن عليه السلام هو دور المدافع باللسان والسنان معاً، فقد ردّ على خطاب ابن الزبير، وحسم المعركة بقتل الجمل.

تهيئة الإمام علي عليه السلام لإمامة ابنه الحسن عليه السلام:

حينما عادت الخلافة إلى أهلها ورجعت إلى مستقرِّها في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، وأصبح عليه السلام على رأس السلطة في الدولة الإسلامية؛ توسعت القاعدة الشعبية لأهل البيت عليهم السلام، وانتشرت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله في إمامتهم، وكان أمير المؤمنين يؤكّد هذه الحقيقة ويوجّه الأنظار إلى خط الإمامة الحقّة، ويوليها أهمية استثنائية، وذلك في التأكيد على إمامة العترة الطاهرة، وتوجيه أنظار المسلمين إليها، ليوالوها ويسترشدون بنهجها ويقتدوا بها في أقوالها وممارساتها ومواقفها العملية.

وممّا قاله في ذلك: « فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم ! وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم ! وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وَرِدوهم ورود الهيم العطاش »(٣).

(١) مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٥.
(٢) الإمامة والسياسة ١: ٧٧.
(٣) نهج البلاغة : ١١٩/ ٨٧.

وقال عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيّكم، فالزموا سمتهم واتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدىً، ولن يعيدوكم في ردىً، فإن لبدوا فألبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا، لقد رأيت أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يشبههم منكم... »(١).

وقال عليه السلام: «الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده، نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه، ونشهد أن لا إله غيره، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً وبذكره ناطقاً، فأدّى أميناً ومضى رشيداً، وخلّف فينا راية الحقّ من تقدّمها مرق، ومن تخلّق عنها زهق، ومن لزمها لحق... ألا إنّ مثل آل محمّد(صلّى الله عليه وآله)، كمثل نجوم السّماء؛ إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنايع، وأراكم ما كنتم تأملون »(٢).

وقال عليه السلام: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة»(٣).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولده الحسن عليه السلام ومقامه السامي وخصائصه وكفاءته العلمية والسياسية والادارية والاجتماعية، فقد كان يسأله عن المسائل المختلفة أمام مرأى ومسمع الملأ من أصحابه، فيجيب عليها بأجوبة شافية، وقد تركزت أسئلته على مسائل هامة في جميع مجالات الحياة

(١)نهج البلاغة: ١٤٣/ ٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٤٦/ ١٠٠.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٣٨ ـ ١٣٩.

تتعلق بعلاقة الإنسان مع نفسه ومع المجتمع، لتكون أجوبته نبراساً للمؤمنين باعتبارها صادرة من شخصية متكاملة معصومة مكلفة بامامة وقيادة الأمّة.

وقد كثرت الروايات حول هذا الموضوع، نكتفي بواحدة منها، فقد روي: «أنّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام فقال: يا بنيّ، ما العقل؟ قال: حفظ قلبك ما استودعته. قال: فما الحزم؟ قال: أن تنتظر فرصتك وتعاجل ما امكنك. قال: فما المجد؟ قال: حمل المغارم وايتاء المكارم. قال: فما السماحة؟ قال: إجابة السائل وبذل النائل. قال: فما الشح؟ قال: إن ترى القليل سرفاً وما أنفقت تلفاً. قال: فما الرقّة؟ قال: طلب اليسير ومنع الحقير. قال: فما الكلفة؟ قال: التمسك بمن لا يواتيك والنظر فيما لايفيك. قال: فما الجهل؟ قال: سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها، والامتناع عن الجواب، ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً»[1].

وكان أمير المؤمنين يحيل الأسئلة الموجهة إليه إلى الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام؛ لتوجيه الانظار إلى مؤهلاتهما وقدراتهما، فقد روي: أنّ معاوية بعث رجلاً متنكراً يسأل أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل سأله عنها ملك الروم، فلما دخل الكوفة وخاطب أمير المؤمنين عليه السلام أنكره فقرره فاعترف له بالحال، فقال عليه السلام: «يا أخا أهل الشام، هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا ابني، فاسأل أيّهم أحببت »، فقال الشامي: أسأل هذا يعني الحسن عليه السلام[2].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يكلّف الإمام الحسن عليه السلام بالمهام والمسؤوليات الصعبة، ويبعثه لحلّ الأزمات، ويشركه في المواقف الحرجة، ليبين للمسلمين

---

(١) الدر النظيم ليوسف بن حاتم الشامي: ٥٠٥.

(٢) تحف العقول لابن شعبة: ١٦٠.

موقعه الريادي في المجتمع الإنساني ومؤهلاته القيادية، فقد بعثه إلى أهل الكوفة لعزل أبي موسى الأشعري، وأمره بالردّ على خطاب عبدالله بن الزبير في معركة الجمل، وأمره بنقض حكم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص في قضية التحكيم لمخالفتهما القرآن الكريم.

دور الإمام الحسن عليه السلام في عهد حكم معاوية في حفظ ونشر علوم أهل البيت عليهم السلام:

بعد قرار الإمام الحسن عليه السلام السير في عملية الصلح مع معاوية للظروف القاهرة التي كانت تصب في مصلحة الشجرة الاموية الملعونة التي كان على رأسها معاوية بن أبي سفيان، هذا القرار الشرعي الذي اتخذه الإمام الحسن عليه السلام كان لحفظ ما تبقى من الإسلام الأصيل الذي يمثله أهل البيت المعصومين، وخوفاً على الرسالة الالهية من الضياع والاندثار، فعمل جاهداً لتبيان حقيقة معاوية، ومن خلال ذلك استطاع عليه السلام أن ينشر علوم أهل البيت بالطريقة المناسبة التي اتبعها رغم الظروف الصعبة والمعقدة، والتي كان فيها روح التحدي والصمود في وجه الظالم، ونذكر ما يلي:

أخرج الحافظ ابن عقدة: أنّ الحسن بن علي عليهما السلام لمّا أجمع على صلح معاوية قام خطيباً وحمد الله وأثنى عليه وذكر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله بالرسالة والنبوة ثم قال: « إنّا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا وأذهب عنّا الرجس وطهّرنا تطهيراً، لم تفترق الناس فرقتين إلا جعلنا الله في خيرهما من آدم إلى جدّي محمّد صلى الله عليه وآله، فلمّا بعث الله محمداً للنبوة واختاره للرسالة وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وقد قال في كتابه المنزل على نبيّة

المرسل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَة مِّن رَّبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهدٌ مِّنْهُ﴾[١]. فجدّي الذي على بيّنة من ربّه، وأبى الذي يتلوه وهو شاهد منه. وقد سمعت هذه الأُمّة جدي صلى الله عليه وآله يقول: ما ولّت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل يذهب أمرهم سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوه. وسمعوه يقول لأبى: أنت منّى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيّ بعدي. وقد رأوه وسمعوه حين أخذ بيد أبى بغدير خم وقال لهم: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاده، ثمّ أمرهم أن يبلّغ الشاهد الغائب»[٢].

وخطب عليه السلام قبل دخول معاوية الكوفة فقال: « أيّها الناس، إنّما نحن أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل بيت نبيّكم الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »، وكرّر ذلك حتى أبكى الجميع[٣].

وفى هذين الخطابين تركيز على جملة من المفاهيم والتصورات العقائدية ومن جملتها: فضائل ومقامات الإمام على عليه السلام، والنص على إمامته وخلافته، وإمامة أهل البيت عليهم السلام، وعصمتهم، ومصير الأُمّة عند تولّى غير الأعلم عليها.

وبعد أن تمّ الصلح عقد اجتماع موسع حضره الإمام عليه السلام ومعاوية وأتباعهما، وتبادل الإمام ومعاوية الخطب التى تعبر عن منهج كلّ منهما.

فقد بين الإمام عليه السلام دور أهل البيت عليهم السلام فى إمامة وخلافة الأُمّة، ووجوب طاعتهم، ومما جاء فى خطابه: « نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول

---

(١) سورة هود : الآية (١٧).

(٢) الغدير للأميني ١: ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) أُسد الغابة ١: ٤٩٢.

الله صلى الله عليه وآله.. فإنّ طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة»[١].

وبيّن عليه السلام فضائل أهل البيت عليهم السلام في هداية الناس واخراجهم من الضلالة إلى النور، ودورهم في حقن دمائهم، وأكّد على المواثيق المأخوذة على معاوية في إقامة العدل وتحسين الأوضاع المعيشية، وممّا قاله: «أيّها الناس، إنّ الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإنّي قد أخذت لكم على معاوية أن يعدل فيكم وأن يوفّر عليكم غنائمكم، وأن يقسم فيكم فيأكم»، ثم أقبل على معاوية، فقال: «أكذاك»؟ قال: نعم[٢].

وروى حبيب بن ثابت، قائلاً: « خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر، فذكر علياً عليه السلام فنال منه، ثم نال من الحسن... ثم قام الحسن عليه السلام فقال: أيّها الذاكر علياً، أنا الحسن وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمّي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عتبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً، وشرّنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً، فقال طوائف من أهل المسجد: آمين»[٣]. ونحن نقول: آمين ثم آمين ثم آمين.

وروى أبو الحسن المدائني قال: سأل معاوية الحسن بن علي بعد الصلح أن يخطب فامتنع، فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي فجلس عليه ثم قال: «الحمد لله الذي توحّد في ملكه، وتفرّد في ربوبيته، يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمّن

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٤٣١.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي : ٣٩، عهد معاوية.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٤٦ ـ ٤٧.

يشاء، والحمد لله الذي أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشرك أولكم وحقن دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم. أيها الناس، إنّ ربّ عليّ كان أعلم بعليّ حين قبضه إليه، ولقد اختصّه بفضل لم تعتادوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته... وأيم الله، لا ترى أُمّة محمّد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أميّة...»[1].

فلم يدخر عليه السلام فرصة إلا وبيّن بها عظمة جدّه النبي صلى الله عليه وآله وأبيه علي عليه السلام.

زوجات وأولاد الإمام الحسن عليه السلام:

من الافتراءات والأكاذيب التي نشرت لتشويه سمعة الإمام الحسن عليه السلام هي أنّه كان مزواجاً ومطلاقاً، ومصدر تلك الأحاديث الكاذبة كانت تصدر عن الأُمويّين والعباسيّين على حد السواء.

ولكن ما وجدته خلال البحث من مصدر معلومات عالمي (ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة).

أحصى الذهبي للإمام الحسن عليه السلام تسع زوجات، هنّ:

١ـ أم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم.

٢ـ خولة بنت منظور بن زبان بن سيار بن عمرو.

٣ـ أم بشير بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو بن ثعلبة.

٤ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس بن كرب الكندي.

٥ ـ أم ولد تدعى بقلية.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٨.

٦ ـ أم ولد تدعى ظمياء.

٧ ـ أم ولد تدعى صافية.

٨ ـ أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي.

٩ ـ زينب بنت سبيع بن عبد الله أخي جرير بن عبد الله البجلي.

أبناؤه:

١ ـ محمد بن الحسن بن علي.

٢- الحسن المثنّى بن الحسن السبط.

٣- جعفر بن الحسن بن علي.

٤- حمزة بن الحسن بن علي.

٥- فاطمة بنت الحسن بن علي.

٦- محمّد بن الحسن بن علي (محمّد الأصغر).

٧- زيد بن الحسن السبط.

٨- فاطمة بنت الحسن بن علي.

٩ ـ أم الخير بنت الحسن بن علي.

١٠ ـ إسماعيل بن الحسن بن علي.

١١ ـ القاسم بن الحسن بن علي.

١٢ ـ عبد الله بن الحسن بن علي.

١٣ ـ حسين بن الحسن بن علي (حسين الأثرم).

١٤ ـ عبد الرحمن بن الحسن بن علي.

١٥ ـ أم سلمة بنت الحسن بن علي.

١٦ ـ أم عبد الله بن الحسن بن علي.

١٧ ـ عبد الله بن الحسن بن علي (عبد الله الأصغر).

١٨ ـ عمر بن الحسن بن علي.

١٩ ـ أبو بكر بن الحسن بن علي.

أصحاب الإمام الحسن عليه السلام:

أصحاب الإمام المجتبى عليه السلام كُثر.. أشهرهم: إبراهيم بن مالك الأشتر، عبدالله بن عبّاس، أبو ثُمامة الصيداويّ، جابر بن عبدالله الأنصاريّ، حبيب بن مظاهر الأسديّ (الشهيد بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، حُذَيفة بن أُسيد الغفاريّ، سعيد بن قيس الهَمْدانيّ، قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاريّ، سعيد بن مسعود الثقفي، سُليم بن قيس الهلاليّ، صَعصَعة بن صُوحان العَبديّ (وكان أحد خُلّص أصحاب الإمام عليّ عليه السلام)، كذا كُمَيل بن زياد النَّخَعيّ، وميثم التمّار، مُسيَّب بن نَجبة الفزاريّ، أبو مخنَف لوط بن يحيى، جارية بن قُدامة، وغيرهم.

شهادته عليه السلام:

أيقن معاوية أنّ بقاء الإمام الحسن عليه السلام حيّاً يشكّل تهديداً واضحاً لنظامه القائم على أساس الخداع والتضليل وتزوير الحقائق وشراء الضمائر؛ لأن الإمام الحسن عليه السلام هو الخليفة الحقّ والأعلم والأتقى والقمة في جميع مقوّمات الشخصية الإنسانية، وزيادة على مؤهلاته الذاتية فإنّه يتمتع بفضائل ومقامات وردت في القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله. وفي مقابل ذلك يبقى معاوية باغياً طليقاً مبتزّاً متسلطاً غاصباً للسلطة والحكومة لا يملك أي مؤهلات سوى الخداع والتضليل وشراء الضمائر كمقوّمات لبقائه في السلطة، وهو لا يستطيع الاستمرار في التسلط وممارسة الانحرافات المخالفة للكتاب والسنة، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض وسلطان يتوارثه بنو أميّة مادام الإمام الحسن عليه السلام حياً؛ ولهذا فكّر في التخلّص من الإمام عليه السلام فقتله بالسمّ.

قال قتادة وأبوبكر بن حفص: «سُمَّ الحسن بن علي، سمّته امرأته بنت الأشعث بن قيس الكندي، وقالت طائفة: كان ذلك منها بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها في ذلك»[(١)].

ولمّا مات ورد البريد بموته على معاوية، فقال: « يا عجباً من الحسن شرب شربة من عسل بماء رومة فقضى نحبه!»[(٢)].

الخلاصة:

بعد الذي بيّناه بشكل مختصر عن سيرة حياة هذا الإمام العظيم المعصوم

(١) الاستيعاب ١: ٣٧٤.

(٢) المصدر السابق ١: ٣٧٥.

المفروض الطاعة من الله ورسوله، منذ ولادته المباركة ورعايته رعاية خاصة، ونشأته بين جده وأبيه وأمه، حيث شرب من نبع الرسالة مباشرة، هذا الإمام الذي ترعرع في كنف الرسالة إلى أن وصل إليه أمر الإمامة بعد استشهاد أبيه علي عليه السلام، تعرض الى حملة عسكرية وإعلامية من أعدائه، وهذا امر طبيعي بالنسبة إلى بني أميّة الّذين ناصبوا العداء لأهل البيت منذ ما قبل وفاة النبي الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، أما الأمر الذي يثير الدهشة والاستغراب هو الخيانة من أكثر أصحابه ولجوئهم الى عدوه معاوية لقاء حفنة من الدنانير من الذهب والفضة، حيث اشترى ضمائرهم، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فطعنوا الإمام وكادوا أن يقتلوه، في حين كان من المفترض منهم مؤازرته وموالاته وطاعته والذود عنه، والاستعداد للشهادة بين يديه ، وعندما تبين أنّ أصحابه قد وصل بهم الأمر لأن يسلّموه مقيّداً إلى معاوية وتآمروا على اغتياله، فلجأ الى الصلح مع معاوية لأسباب عديدة ذكرنا بعضها، وكان هذا القرار أصعب عليه من الشهادة، كما ذكر ذلك الإمام المفدّى السيّد علي الخامنئي (دام ظله الوارف)، حيث قال: «الإمام الحسن عليه السلام ظلمه التاريخ والمؤرّخون، ولم يعط حقه من قبل كثير من مناصريه، رغم أنّ الله تعالى طهّره تطهيراً، وتكفيه شهادة الله بتطهيره من الدنس: ﴿... **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾». ثم يقول: «وبالانتقال الى عهد الإمام الحسن عليه السلام نرى أنه قد أصبح وحيداً بعد ستة أشهر من توليه للخلافة، وعليه رأى الإمام الحسن عليه السلام أن ذهابه مع قلة قليلة لمحاربة معاوية وسقوطه شهيداً في هذا المجتمع المنحط أخلاقياً، ولا حتى فيما بين الخواص، إذ انهم لن يستفيدوا من تلك الدماء الطاهرة لمتابعة المسيرة. فمعاوية بإعلامه وأمواله ومكره كان قادراً على أن يفقد هذه الدماء مؤثريتها، والناس بعد سنة من خلافة الإمام الحسن عليه السلام كانوا يقولون له: لا ينبغي لك أن

تقف فی وجه معاوية وتقاومه، فی ظلّ هذا الوضع رأی الإمام أنّ دمه سيذهب هدراً من دون فائدة، فقاوم كل هذه المتاعب والمصائب ولم يدفع بنفسه الی ساحة الشهادة، مع أنه فی بعض الأحيان تكون الشهادة بالنسبة الی الإنسان أسهل بكثير من البقاء حيّاً، والأشخاص الّذين هم أولو الألباب والحكمة والدقة، يدركون ذلك تماماً، أحياناً البقاء علی قيد الحياة والعيش فی محيط متعب ومجهد يكون أصعب بمراتب من القتل والاستشهاد والوصول الی لقاء الله، وهذا الاصعب هو الذي اختاره الإمام الحسن عليه السلام».

فسلام الله على الإمام الحسن عليه السلام يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً.

المصادر:

١. الاستيعاب، ابن عبد البرّ، بيروت.

٢. أسد الغابة، ابن الأثير، بيروت.

٣. إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسی، قم.

٤. الأمالی، الصدوق، قم.

٥. الأمالی، المفيد، قم.

٦. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، بيروت.

٧. بحار الأنوار، المجلسي، بيروت.

٨. البداية والنهاية، ابن كثير، بيروت.

٩. تاريخ الإسلام، الذهبي، بيروت.

١٠. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، بيروت.

١١. تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني، قم.
١٢. جامع الأخبار، السبزواري، قم.
١٣. جامع البيان، الطبري، بيروت.
١٤. الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، بيروت.
١٥. الجمل، الشيخ المفيد، قم.
١٦. حياة الإمام الحسن، القرشي، بيروت.
١٧. الدر المنثور، السيوطي، بيروت.
١٨. الدر النظيم، يوسف بن حاتم الشامي، قم.
١٩. دلائل النبوّة، البيهقي، بيروت.
٢٠. روح المعاني، الآلوسي، بيروت.
٢١. سنن الترمذي، الترمذي ، بيروت.
٢٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، بيروت.
٢٣. شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، قم.
٢٤. صحيح مسلم، مسلم، بيروت.
٢٥. الصواعق المحرقة، ابن حجر، بيروت.
٢٦. الغدير، الأميني، بيروت.
٢٧. فرائد السمطين، الحمويني، بيروت.
٢٨. الكافي، الكليني، قم.
٢٩. الكشاف، الزمخشري، بيروت.
٣٠. كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، الخزاز القمّي، قم.
٣١. كنز العمّال، المتقي الهندي، بيروت.

٣٢. مجمع الزوائد، الهيثمي، بيروت.

٣٣. مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، بيروت.

٣٤. مروج الذهب، المسعودي، بيروت.

٣٥. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، بيروت.

٣٦. المعجم الكبير، الطبراني، الموصل.

٣٧. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، قم.

٣٨. المنتظم، ابن الجوزي، بيروت.

٣٩. نهج البلاغة، ترتيب د. صبحي الصالح، بيروت.

٤٠. وقعة صفين، المنقري، بيروت.

٤١. ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي، بيروت.

المناظرة الكبرى في العصر الأموي

محمود محمد الموسوي (*)

المقدّمة:

لقد برزت أسماء غير قليلة في العصر الأموي لمناظرين ومجادلين أكابر في مختلف الشؤون العقائدية أو السياسية والأدبية أمثال عبدالله بن عباس وصعصعة ابن صوحان وأبي الأسود الدؤلي وقيس بن سعد بن عبادة وعدي بن حاتم الطائي وحُضَين بن المنذر وغيرهم، إلا أن أحداً من هؤلاء ومن غيرهم لم يبلغ في المناظرات والجدليات شأواً بعيداً قد بلغه الإمام الحسن السبط عليه السلام. وكفى على ذلك دليلاً ساطعاً وبرهاناً مُشرقاً ما سوف نستمتع به ونستأنس برؤيته من المناظرة الآتية الواقعة في مجلس معاوية بن أبي سفيان، والتي هي أُعجوبة من الأعاجيب المدهشة في التاريخ السياسي والأدبي، والتي لم يحفل العصر الأموي (٤١ ـ ١٣٢ هـ) بمثلها مطلقاً.

لقد حدّد لنا التاريخ وقوع المناظرة في ملك معاوية (٤١ ـ ٦٠ هـ) وهو لم يعط تاريخاً أكثر تحديداً من خلال ما نعرفه من سنة وفاة أحد المشاركين فيها وهو عمرو بن العاص الذي توفّي في الأول من شوال عام (٤١ أو ٤٢ هـ)، وهذا يعني أن الإمام الحسن عليه السلام كان شاباً قد اقترب من سِن الأربعين من عمره

(*) كاتب وأُستاذ في الجامعة والحوزة العلمية ـ العراق.

المبارك. إلا أن هذا الشاب المتفرّد بالكرّة على المجتمعين ضدّه قد صرعهم جميعاً ورمى بهم الواحد تلو الآخر رمي مَكين مقتدر، مع العلم أن منهم معاوية والمغيرة بن شعبة وهما من الشيوخ آنذاك ومن أصحاب التجارب العريضة، وأن منهم عمرو بن العاص الذي قد تجاوز سِنّه التسعين عاماً.

إن الإمعان والتدقيق في المناظرة الكبرى هذه يعني الإمعان والتدقيق في محاضرة كبرى تضمّ بين دفّتيها أقباساً مضيئة من تفسير القرآن الكريم، وإضمامةٌ رائعةً من الأحاديث النبوية، وصُوراً جميلةً من التاريخ والأدب والأشعار، وأحسب أننا سوف نمتحن بصورة عملية مقدار صدق ما أرتأيه: أجمَلُ المنُاظَرات، أجمَلُ المُحاضَرات.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ:

أكثر ما أبلغنا التاريخ من جدليات الإمام الحسن بن عليعليه السلام ومناظراته قد وقعت مع رجال قريش الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بقوله الكريم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(١)].

حينما نطلع بصورة تفصيلية على مناظرات الإمام الحسن المجتبىعليه السلام ومجادلاته ينكشف لدينا التفوّق الكبير لصالحهعليه السلام على حساب أفكار الآخرين ونظراتهم السياسية والعقائدية وعلى مقدرتهم في المطارحات الكلامية، مع العلم أن أكثرهم ليس من قريش الموصوفين بالخَصِمين بالآية المباركة السالفة فحسب، بل من المُتسمّين بالفصاحة والبلاغة والمكر والدهاء أمثال الوليد بن عقبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وعبدالله بن الزبير ومروان بن

(١) سورة الزخرف: الآية (٥٨).

الحكم.

يقول الأستاذ محمد رضا المصري في كتابه «الحسن والحسين (رض) سيّدا شباب أهل الجنة»: «هذه محاور من أعجب ما قرأناه من المحاورات انتصر فيها الحسن انتصاراً مبيناً على زعماء بني أمية، فتركهم لا يدرون ما يقولون، تركهم باهتين حائرين مخذولين. وقد دلّ الحسن بردّه عليهم أنه خطيب مفوّه لا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يرهب التهديد والوعيد، ولا يبالي بسطوة الحاكم، بل إن ردّه عليهم بهذه القوّة أعظم برهان على حدّة ذهنه، وحضور بديهته، وقوّة عارضته، وشجاعته الفائقة»[(١)].

كانوا الفُحول فألبَستَهُم وقعةٌ ... مالا تُرَدُّ قلائداً وحجولا
والليثُ مَن هَزَم الفُحولَ فلم تَعدّ ... بعدَ التكافحِ والصراعِ فُحولا

والبيتان ضمن قصيدة لكاتب المقال حول الإشادة بالمناظرة الكبرى.

بِاحتدامِ الجِدال تَتَبيّن مصداقيةُ الرجال:

كان التوفيق رائد الحسن بن علي عليه السلام في مناظراته ومُساجلاته كلها، وكان الفوز والفتح إلى جانبه دائماً على الرغم من عدم استعداده المسبق وتحضيره لها.

قال أبو الأسود الدؤلي يخاطب معاوية: «الحسن ـ يا أمير المؤمنين ـ معتدلٌ شبابه، أحضرُ ما يكونُ جوابه، فأخاف أن يردّ عليك كلامك، بنوافذ تردعُ سهامك، فيقرع بذلك طنبوبَك ويبدي به عيوبَك»، قاله لمعاوية لما استشاره في أن يقع في شخصية الحسن بن علي[(٢)].

---

(١) الحسن والحسين عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنة: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي ٤٤: ١٢١، ط ١٤٠٣ هـ. (والطنبوب: حرف العظم اليابس من الساق).

روى عبدالله بن عروة بن الزبير بن العوام: أن مناظرة وقعت في غداةٍ من الشتاء باردةٍ بين الحسن بن علي وعبدالله بن الزبير (عمّ الراوي)، فما قام عبدالله حتى تفسخ جبينه عَرَقاً[١].

الجِدال بلا طائلٍ يَقتادُنا إلى الباطل:

لم يكن الحسن المجتبى في مناظراته كلّها بالذي يدفعه حبّ الكلام ولذة الغلبة والتفوّق إلى إيقاع المناظرات بالصور الحلوة المزخرفة، كما هي عند الكثيرين ممن لهم الامكانية على الإدلاء بالحجج وتشقيق الكلام والرغبة الملحة في إبراز الطاقة الجَدلية، أو كما أُعبّر عن أمثال ذلك بقولي:

ـ الجدالُ بلا طائلٍ يقتادُنا إلى الباطل.

ـ الجَدَلُ للجَدَلِ مأدبةُ الضائعين.

ـ ما بين فارغٍ وبين دجّال مَن يتلاعبون بالجِدال.

انتُهِكت حُرمتُك يَا مَن أفرطت في الجدال:

ومن أين يكون الإمام المجتبى كهؤلاء الذين أشرنا إليهم هو من هو في حسبه العظيم ونسبه المبارك ومراقبته العظيمة لله تعالى في جميع أعماله وأقواله وحركاته وسكانته، كما أنه عليه السلام هو القائل: «نَعم العَون الصمتُ في مواطن كثيرةٍ وإن كنت فصيحاً»[٢].

بل كان الحسن المجتبى عليه السلام لا يناظر أبداً إلا فيما تمليه عليه الروح الرسالية

---

(١) ممن ذكر ذلك ابن عساكر في ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق، نسخة مصوّرة على النسخة الخطية في المكتبة الظاهرية بدمشق، وانظر ما قاله المزي في تهذيب الكمال ٦: ٢٣٣.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٤٠١، بحار الأنوار للمجلسي ٧١: ٢٨٠.

الخالصة وتقتضيه المصلحة العامة؛ ولهذا فقد صرف عنان المناظرة أو الجدال عن جملة من الموارد، وقد تكون كثيرة وفيها للكلام متسع وللمحاورة أو الردّ مجال رحيب، بَيد أنّ مَن يؤثرُ الكلامَ أحياناً ويُؤثر السكوتَ أحايينَ فهو الحَكيم حقّ الحكيمِ. أو كما أقول أيضاً:

- اتهكَتَ حُرمَتُكَ يَا من أفرطتَ في الجدال.
- الإفراط في الجِدال من كثرةِ البطالة.
- كفى بالجِدالِ مَبْغَضة.

أهداف الدعاة إلى المناظرة والجدل:

رُوي عن الشعبي وأبي مخنف ويزيد بن أبي حبيب المصري أنهم قالوا: لم يكن في الإسلام يوم في مشاجرة قوم اجتمعوا في محفل أكثر ضجيجاً ولا أعلى كلاماً ولا أشد مبالغة في قول من يوم اجتمع فيه عند معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن عثمان بن عفان وعمرو بن العاص وعتبة بن أبي سفيان والوليد بن عقبة بن أبي معيط والمغيرة بن شعبة، وقد تواطأوا على أمر واحد، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ألا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره، فقد أحيا سنة أبيه وخفقت النعال خلفه أمَرَ فأُطيع وقال فصُدّق، وهذان يرفعان به إلى ما هو أعظم منهما؛ فلو بعثت إليه فقصرنا به وبأبيه وسببناه وسببنا أباه وصغرنا بقدره وقدر أبيه، وقعدنا لذلك حتى صدق لك فيه.

إذاً هنالك أكثر من هَدَف سياسي واجتماعي منظور يريد تحقيقه المدعوان بجِدٍ وتصميم إلى المماحكة والمناظرة يتمثّل مختصر ذلك بالأمور التالية:

١ـ إماتة سنّة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام التي هي سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ـ سَبّ أمير المؤمنين علي عليه السلام ومحاولة انتقاصه والنيل من شخصيته العظمى.

٣ـ قطع الآمال بعودة الخلافة إلى الإمام الحسن، وخصوصاً أنه قد رأوا أنه عليه السلام قد (خفقت النعال خلفه وأمَرَ فأُطيع وقال فصدّق، وهذا يرفعان به إلى ما هو أعظم منهما)، أي إلى رئاسة المسلمين، أو كما قال عتبة بن أبي سفيان: وأما رجاؤك الخلافة فلست فيها لا في قدحة زندك ولا في رجحة ميزانك.

٤ـ الحطّ من قدر سبط رسول الله وتصغير قدره مهما أمكن.

٥ـ تهميش المكانة السياسية والاجتماعية لبني عبدالمطلب عموماً كما يعرف ذلك من كلام عمرو بن عثمان الآتي: «فَيا ذلاه أن يكون حسن وسائر بني عبدالمطلب قتلة عثمان أحياء يمشون على مناكب الأرض».

وليس في كنانتي من تعليق على مثل هذه الأهداف الرخيصة إلا أن أقول ـ والألمُ يعتصرُ القلبَ مَا كان أُولُوا الأرحام من أعدا الأنام ـ:

ـ سُرّاق في الليل فُسّاق في النهار مَن كان دَيْدَنَهم الجِدال في الباطل.

ـ الجِدالُ بلا طائِل قَوادٌ إلى الباطل.

مُداولات لم تُسفر عن نتيجة حَكيمة:

فقال لهم معاوية: إنّي أخاف أن يقلدكم قلائد يبقى عليكم عارها حتى يدخلكم قبوركم؛ والله ما رأيته قط إلا كرهت جنابه وهبت عتابه، وإنّي إن بعثت إليه لأنصفنه منكم.

قال عمرو بن العاص : أتخاف أن يتسامى باطله على حقّنا ومرضه على صحتنا ؟ قال: لا.

قال: فابعث إذاً عليه.

فقال عتبة: هذا رأي لا أعرفه والله ما تستطيعون أن تلقوه بأكثر ولا أعظم مما في أنفسكم عليه، ولا يلقاكم بأعظم مما في نفسه عليكم وإنّه لأهل بيت خصم جدل. فبعثوا إلى الحسن.

على الرغم من أن كلام صاحب البلاط معاوية بن أبي سفيان: إنّي أخاف أن يقلدكم قلائد عليكم عارها حتى يدخلكم قبوركم. وهكذا كلام أخيه عتبة كلام منطقي ومعقول، إلا أن القرار الذي توصلا إليه قرار غير سديد ولا معقول؛ إذ بعثوا إلى الخَصم الجَدِل فارس حلبة المناظرات وقائد فرسانها، خصوصاً وأن تقديرهما للموقف يعبّر عن تجارب سابقة لقي فيها مجادلوه ما يطأطأ الرؤوس المتكبرة ويلوي الأعناق . فما أقبح المُقدّمة المنطقية ما تؤدّي إلى نتيجة غير منطقية! أليس من سوء العاقبة أن تكون الهزائم متعاقبة؟!

«خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ»

فلما أتاه الرسول قال له: يدعوك معاوية.

قال: ومَن عنده؟

قال الرسول: عنده فلان وفلان وسمّى كُلاً منهم باسمه.

فقال الحسن عليه السلام: ما لَهم ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيثُ لا يَشْعُرُونَ﴾(١).

ثم قال: يا جارية أبلغيني ثيابي.

ثم قال: اللهمّ إنّي أدرءُ بك في نُحورهم، وأعوذُ بك من شُرورهم، واستعين

(١) سورة النحل: الآية (٢٦).

بك عليهم، فاكفنيهم بما شئت وأنّى شئت من حولك وقوتك يا أرحم الراحيم.

وقال للرسول: هذا كلام الفرج.

نعلم سابقاً بمجرد قول الإمام عليه السلام: ﴿خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ...﴾ أنه متفائل بالنصر والظفر؛ لأن ما استشهد به مأخوذ من الآية المباركة: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[1]، أي أن ما يجري تحت قبة الحكم القائم إنّما هو مكر وخديعة لأي سبب من الأسباب كان استدعاؤه واستجلابه، والله تعالى يقول: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ...﴾.

ومما يذكر نصر الإمام وظفره ما قرأه من الدعاء العظيم (كلام الفرج):

سيبلغُ العبدُ التّقيُّ الصابرُ ... أجمَلَ ما صارض إليه الصائرُ
بشارةً من خالق مُؤمّلٍ[2] ... تُرجى به الخيرات والبشائرُ
المجدُ طَودٌ[3] باذخٌ لا يَرتَقي ... عَلياءُ إلا الصابرُ المُثابِرُ

نود أن نبحث عن تحليلٍ قول الإمام للرسول بعد ما انتهى من الدعاء: «هذا كلام الفرج». نعتقد أن ذلك يعود إلى هدفين مركزيين:

الهدف السياسي: إن الرسول كان من قِبَل السلطة الحاكمة، وسوف يبلغها ما يقوله الإمام من الكلمات قبل وصوله إليها أو في الأثناء، فإذا بلغها أنه قد نطق

(١) سورة النحل: الآية (٢٦).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٥٥).

(٣) الطود: الجبل العظيم الشاهق، والجمع أطواد وطوَدَة.

بكلام الفرج، فهذا ما له أثر بمستوىً من المستويات في أحباط معنوياتهم ومؤامراتهم، فإنّهم مهما تجاهلوا مكانة الإمام من السماء فإنّهم لا يجهلون ذلك.

الهدف العلمي: من الوظائف الكبرى للإمام تعليم الناس وتثقيفهم وتبليغ رسالات الله، ودعاء الفرج مفردة من مفردات هذا التعليم والتثقيف، حيث ينتفع به الإنسان في حياته، وستبقى آثار النفع إلى يوم القيامة، وما القرّاء الكرام إلا طائفة ممّن سيشمله النفع إن شاء الله، والدعاءُ سَناءُ العابدِين وسيماءُ العارفين.

ليس من أخلاق الفروسية التهرّب من المسؤولية:

فلما أتى معاوية رحّب به وحيّاه وصافحه فقال الحسن: إن الذي حييت به سلامة والمصافحة أمن.

فقال معاوية: أجل، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ليقروك أن عثمان قُتل مظلوماً، وأن أباك قتله، فاسمع منهم، ثم أجبهم بمثل ما يكلمونك، فلا يمنعك مكاني من جوابهم.

فقال الحسن: سبحان الله! البيت بيتك والإذن فيه إليك، والله لئن أجبتهم إلى ما أرادوا إنّي لأستحيي لك من الفُحش، وإن غلبوك على ما تريد إنّي لأستحيي لك من الضعف، فبأيّهما تقرّ ومن أيهما تعتذر!

وأما إنّي لو علمت بمكانهم واجتماعهم لجئت بعدتهم من بني هاشم، مع أنّي مع وحدتي هم أوحش منّي من جمعهم، فإنّ الله عزّ وجلّ لَوليي اليوم وفيما بعد اليوم؛ فمُرهُم فليقلوا فاسمع، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

هذه القذيفة الفتاكة الأولى التي أطلقها النهار الساطع المشرق على الليل المُدلهمّ الحالِك:«سبحان الله البيتُ بيتكَ والإذنُ فيه إليك...»، وهذه البارقة الأولى من موارق الفتح المبين: «إنّ هؤلاء بعثوا إليك وعصوني»، أي لست الذي بعث

إليك فاتعرض لهجوم كاسح أو ضربات ماحقة، دعني يا ابن علي وارحم ضعفي وصغري أمامك، لقد هربت من سيف أبيك إذ هربت منه راكضاً في وقعتَي بدر وصفين، أفأتعرض لما هو أحدُّ من السيف إذ تقدم عَلَيَّ بلسانك الصقيل؟ لأن نجّاني الهرب سابقاً، فلعله ينجيني لاحقاً بالتراجع عن المسؤولية أو أعترف لأقول بصراحة مخجلة: الهرب العلني من المسؤولية، فإنّ الاعتراف بالهوان مَنجاة للهِدان(١).

ولكن الإمام المُفدّى لم يفسح المجال ليفرّ الخليفة فراره للمرة الثالثة، بل شدّ عليه وهو يقول: «والله لَئِن أجبتَهُم إلى ما أرادوا إنّي لأستحيي لك من الفُحش، وإن كان غلبوكَ على ما تُريد إنّي لاستحيي لكَ من الضعف. فبأيّهما تقرُّ ومن أيّهما تعتذر»!

غير أن كرّة الإمام الحسن هذه قد أثخنت معاوية بالجراح، ولم تقتله حيث ترك الإجهاز عليه نهائياً إلى كرّة أشد منها بعد أن يريه في المكان ذاته مقاتل وزرائه الكبار.

وهكذا بفضل الله تصح كلماتنا المتواضعة وهي تشاهد الفرار من المسؤولية:

ـ ليس من أخلاق الفروسية التهرّب من المسؤولية.

ـ إذا أخفقت الحُلول تَهرّبَ المسؤول.

ـ إذا نابتكم نائبة فلا تركنوا إلى المنهزمين من المسؤولية، لئلا يكونوا أشد عليكم منها.

---

(١) الهَدان: الجبان.

مَن كان ضحية الإعلام فاقرأ عليه السلام:

فتكلّم عمرو بن عثمان بن عفان فقال: ما سمعت كاليوم إن بقي من بني عبدالمطلب على وجه الأرض من أحد بعد قتل الخليفة عثمان بن عفان، وكان ابن اختهم والفاضل في الإسلام منزلةً والخاص برسول الله إثرةً؛ فبئس كرامة الله حتى سفكوا دمعه اعتداءً وطلباً للفتنة، وحسداً ونفاسة، وطلب ما ليسوا بأهلين لذلك، مع سوابقه ومنزلته من الله ومن رسوله ومن الإسلام. فَيا ذلاه أن يكون حسن وسائر بني عبدالمطلب قتلة عثمان أحياء يمشون على مناكب الأرض وعثمان بدمه مُضرّج، مع أن لنا فيكم تسعة عشر دماً بقتلى بني أمية ببدر.

أقول: أحسب أن عمرو بن عثمان قد تدثّر بغطاء إعلامي سميك عن غفلة أو تغافل، فعاد يتكلم بما هو بعيد عن سلامة المضمون ودقة التفكير، فليته أثبت أن بني عبدالمطلب من قتلة أبيه حتى يتمنّى استباحة دمائهم، بل ليته أثبت أن واحداً منهم قد اشترك في قتله. وإذا كان عمرو جاداً في الطلب بدم الخليفة، فإن إلى جانبه أحد أكابر القتلة، قد ولّاه معاوية البلاد المصرية، فقد روى أبو جعفر الطبري قائلاً: «كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان، وكان يقول: والله، إن كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان فضلاً عن الرؤساء والوجوه»[١].

ولهذا جاء في القصيدة التي أشرنا إليها:

وابناً لعثمان تَناسى ذَحلَهُ فَيَودّ غيرَ القاتلين ذحولا[٢]

ومن المتوقع جداً أن بني أمية ـ وكانوا يُربّون ذَويهم على بغض بني هاشم

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٤٤، ط ١٤٠٤ هـ.

(٢) الذحل: الثأر والحقد، مفرد أذحال وذحول.

وعداوتهم ـ هم الذين أملوا عليه أن بني عبدالمطلب من قتلة أبيه، فأخذه عن ساطة ومن دون فحص وتدقيق.

ولعلّ الإمام الحسن عليه السلام قد أشار إلى مثل هذا التحليل، حيث يقول كما سيأتي: «وأما انتَ يا عمرو بن عثمان فلم تكن للجواب حقيقاً بحُمقك أن تتبع هذه الأمور».

ومَن كان ضحية الإعلام فاقرأ عليه السلام.

القائد الرخيص من كانت أخلاقه رخيصة:

ثم تكلّم عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أي ابن أبي تراب بعثنا إليك لنقررك أن أباك سمّ أبا بكر الصديق واشترك في قتل عمر الفاروق، وقتل عثمان ذا النورين مظلوماً، وادّعى ما ليس له حق، ووقع فيه وذكر الفتنة عيّره بشأنها، ثم قال: إنّكم ـ يا بني عبدالمطلب ـ لم يكن الله ليُعطيكم الملك فتركبون فيه ما لا يحل لكم، ثم أنت يا حسن تحدّث نفسك بأنّك كائن أمير المؤمنين وليس عندك عقل ذلك ولا أريه وكيف وقد سلبته وتركت أحمق في قريش، وذلك لسوء عمل أبيك؛ وإنّما دعوناك لنسبّك وأباك، ثم إنك لا تستطيع أن تعيب علينا، ولا أن تكذبنا به فإن كنت ترى أن كذبناك في شيء وتقوّلنا عليك بالباطل، وادّعينا عليك خلاف الحق فتكلّم، وإلا فاعلم أنّك وأباك من شرّ خلق الله، فأما أبوك فقد كفانا الله قتله وتفرّد به، وأما أنت فإنّك في أيدينا نتخير فيك، والله أن لو قتلناك ما كان في قتلك إثم عند الله ولا عيب عند الناس.

عمرو بن العاص هذا الرجل الذي قاد الحملة لفتح مصر ففتحها، وذلك في خلافة عمر بن الخطّاب، فكان مما يناسبه كقائد فاتحٍ أن لا يدنس فمه بالكلمات الرخيصة والأخلاق الهابطة، ولكن الواقع الفعلي لعمرو كان خلاف المتوقّع

المناسب. والقائد الرخيص من كانت أخلاقه رخيصة.

يقول الأستاذ الدكتور محمد أمحزون (جامعة مكناس في المغرب): «حين نجد من يذم غيره بذكر مساوئه فقط، ويغض النظر عن محاسنه، فإن ذلك يرجع في العادة إلى الحسد والبغضاء، أو إلى الظنون والخلفيات والآراء المسبقة أو إلى التنافس المذموم»[١].

هذا فيما إذا كانت في الطرق الآخر مساوئ، أما إذا كان صحيفة نقية بيضاء فالأدلة على الحسد والبغضاء والظنون والخلفيات والآراء المسبقة تكون ألصق بالذام والمتعرّض لمحاولة تسقيطها.

سُمِّيت عتاباً ولستَ بِمعتب:

ثم تكّلم عتبة بن أبي سفيان، فكان أوّل ما ابتدأ به أن قال: يا حسن، إنّ أباك كان شرّ قريش لقريش، أقطعه لأرحامها، ولسفكه لدمائها، وإنّك لمن قتلة عثمان، وإن في الحقّ أن نقتلك به، وإن عليك القَوَد في كتاب الله عزّ وجلّ، وإنّا قاتلوك به. وأما ابوك فقد تفرّد الله بقتله فكفانا أمره، وأما رجاؤك الخلافة فلست فيها في قدحة زندك، ولا رجحة ميزانك.

لا أستغرب منك ـ يابن أبي سفيان ـ أن تكون سبّاباً شتّاماً قوّالاً للبهتان والأباطيل، ولا أستغرب منك ـ يابن أبي سفيان ـ أن تكون ظلوماً مُتعطشاً لدماء الأزكياء والأبرياء، ولكني أستغرب منك واستكثر عليك أن تُقيم أمر الخلافة وتضع ميزاناً للحكم والرئاسة، وأنت المعروف بالحمق وخفّة العقل، ولقد

---

(١) منهج دراسة التاريخ الإسلامي: ٩١، هذا كلام جيّد ونافع، فليت الأستاذ الدكتور التزم بتطبيقه في كتابه المذكور حباً للانصاف والعدالة.

صدقت فيك مقالة شاعركم كعب بن جُعيل: «سُمّيت عتاباً ولست بمعتبِ».

تتكاثر الأنعام كلّما نافق الإعلام:

ثم تكلّم الوليد بن عقبة بن أبي معيط بنحو من كلام أصحابه فقال: يا معشر بني هاشم! كنتم أوّل من دبّ بعيب عثمان وجمع الناس عليه حتى قتلتموه حرصاً على الملك، وقطيعة للرحم، واستهلاك الأمة، وسفك دمائها حرصاً على الملك وطلباً للدنيا الخبيثة وحُبالها. وكان عثمان خالكم فنعم الخال كان لكم، وكان صهركم فكان نعم الصهر لكم، قد كنتم أوّل من حسده وطعن عليه، ثم وليتم قتله فكيف رأيتم صنع الله بكم؟!

رويداً يا وليد بن عقبة، رويداً يا ابن أبي معيط!

من العقل والسياسة أن تتفق مع أصحابك وتُنسق معهم على صياغة موحّدة للتهمة والاشاعة الباطلة قبل أن تنبس بكلمة واحدة.

فقد زعم عمرو بن عثمان أن الحسن سائر بني عبدالمطلب قتلة عثمان.

وأما معاوية فقال للحسن عليه السلام: إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ليقروك أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا أباك قتله.

واتّهم عمرو بن العاص علياً عليه السلام بقتل عثمان، ولم يتهم الحسن ولا أحد من بني عبدالمطلب.

ولم يتّهم المغيرة علياً أو الحسن أو أحداً من بن عبدالمطلب بقتل عثمان، ولكنه قال بأن عليّاً قد آوى القتلة وذبّ عنهم.

وأما أنت ـ يا وليد ـ فقد اتهمت الهاشميين بقتله.

إنّك تعلم ـ يا وليد ـ أن أحداً منكم لم يكن يُعرف بالصدق أو براءة الناس بتاتاً، ولكن توحيد التهمة الباطلة والاشاعة الفارغة أقرب إلى تصديقها بين الناس

من بثّها مضطربة متخبّطة، وتتكاثر الأنعام كلّما نافق الإعلام.

برأت الذمة ممّن يتعمّد اتهام الأبرياء:

ثم تكلّم المغيرة بن شعبة، فكان كلامه وقوله كلّه وقوعاً في عليعليه السلام ثم قال: يا حسن، إن عثمان قُتل مظلوماً، فلم يكن لأبيك في ذلك عذر بريء، ولا اعتذار مذنب، غير أنا ـ يا حسن ـ قد ظنّنا لأبيك في ضمّه قتلة عثمان وإيوائه لم وذبّه عن أنّه بقتله راض، وكان ـ والله ـ طويل السيف واللسان، يقتل الحي ويعيب الميت. وبنو أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، ومعاوية خير لك يا حسن منك لمعاوية، وقد كان أبوك ناصب رسول اللهصلى الله عليه وآله في حياته وأجلب عليه قبل موته وأراد قتله، فعلم ذلك من أمره رسول اللهصلى الله عليه وآله، ثم كره أن يبايع أبا بكر حتى أتي به قوداً، ثم دسّ عليه فسقاه سماً فقتله، ثم نازع عمر حتى هم أن يضرب رقبته فعمد في قتله، ثم طعن على عثمان حتى قتله، كل هؤلاء قد شرك في دمهم، فأي منزلة له من الله يا حسن، وقد جعل الله السلطان لولي المقتول في كتابه المنزّل، فمعاوية ولي المقتول بغير حقّ، فكان من لاحق لو قتلناك وأخاك، والله ما دمّ علي بأخطر من دم عثمان، وكان الله ليجمع فيكم يا بني عبدالمطلب الملك والنبوّة، ثم سكت.

قد يكون من الضروري أن نتصفّح بشكل وجيز شخصية هذا الرجل الذي يطلق اعتباطاً هذه الاتهامات الكبيرة، والصغير الصغيرمن يُجازف بإطلاق التهم الكبيرة الكبيرة:

ذكر المغيرة بن شعبة عند عليعليه السلام وَجِده مع معاوية فقال: وما المغيرة إنّما كان إسلامه لفَجرة وغدرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم، وركبها منهم فهرب منهم فأتى النبيصلى الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام، والله ما رأى أحد عليه منذ ادّعى الإسلام

خضوعاً ولا خشوعاً[١].

روى مالك بن أنس عن عمّه أبي سهيل بن مالك عن أبيه: لما اقترح المغيرة على عمار بن ياسر الاعتزال عن نصرة الإمام علي عليه السلام، فقال له عمّار: هيهات هيهات أجهل بعد علم، وعمى بعد استبصار، ولكن اسمع قولي فوالله لن تراني إلا في الرعيل الأوّل. قال فطلع عليها أمير المؤمنين فقال: «يا أبا اليقظان، ما يقول الأعور، فإنه والله دائب يلبس الحق بالباطل، ويموّه فيه، ولن يتعلّق من الدين إلا بما يوافق الدنيا، ويحك يا مغيرة إنّها دعوة تسوق من يدخل فيها إلى الجنة»[٢].

ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي:«قد برأ كثير من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم كالمغيرة بن شعبة»[٣].

إذاً وعلى هذا الأساس من حقّ الباحث إذا كان موضوعياً أو أن من واجبه أن يقول بملأ فيه:

- برأت الذمّة ممّن يتعمّد اتّهام الأبرياء.
- سلوة المنبوذين اتّهام الأبرياء.
- اتّهام الأبرياء عادة قديمة، قدم الرذيلة في التاريخ الإنساني العام.

العلمُ والأدب ينطقان على لسان الإمام:

فتكلّم أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام فقال: «الحمدُ لله الذي هدى أوّلكم بأوّلنا، وآخرك بآخرنا وصلّى الله على جدّي محمّد النبي وآله وسلّم. اسمعوا منّي مقالتي وأعيروني فهمكم.

---

(١) يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٨٠.

(٢) راجع الأمالي للشيخ المفيد: ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٠.

وبك أبدأ يا معاوية: إنّه لعمر الله يا أزرق[١] ما شتمني غيرك وما هؤلاء شتموني ولا سبّني غيرك وما هؤلاء سبّوني، ولكن شتمني وسببتني فحشاً منك وسوء رأي وبغياً وعدواناً وحسداً علينا، وعداوةً لمحمدﷺ قديماً وحديثاً، وإنّه الله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاورين في مسجد رسول اللهﷺ، وحولنا المهاجرون والأنصار تكتموا حقاً علمتموه ولا تصدّقوا بباطل إن نطقت به، وسأبدأ بك يا معاوية ولا أقول فيك إلا ما دون ما فيك:

أنشدكم الله! أيها الرهط هل تعلمون أن الرجل الذي شتمتموه صلّى القبلتين كلتيهما، وأنت ـ يا معاوية ـ بهما كافر تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى غواية!!

وأنشدكم الله! هل تعلمون أنه بايع البيعتين: بيعة الرضوان وبيعة الفتح، وأنت ـ يا معاوية ـ كافر وبالأُخرى ناكث»[٢]؟!

ثم قال: أنشدكم بالله! هل تعلمون أن ما أقول حقاً: إنه لقيكم مع رسول اللهﷺ يوم بدر ومعه راية النبيﷺ والمؤمنين، ومعك ـ يا معاوية ـ راية المشركين، وأنت تعبد اللات والعزى، وترى حرب رسول اللهﷺ فرضاً واجباً، ثم ليقيكم يوم أُحد ومعه راية النبي، ومعك ـ يا معاوية ـ راية المشركين، ولقيكم يوم الأحزاب ومعه راية رسول اللهﷺ، ومعك ـ يا معاوية ـ راية المشركين؟! كل ذلك يفلج الله حجته ويحق دعوته ويصدق أُحدوثته وينصر رايته، وكل ذلك ورسول اللهﷺ في تلك المواطن كلها عنه راضٍ وعليك وعلى أبيك ساخط، وأنت يومئذٍ بمكّة عدو لله ولرسوله، فهل يستوي بين رجل نصح لله ولرسوله ورجل عادى الله ورسوله! ثم أقسم بالله ما أسلم قلبك بعد، ولكن اللسان

---

(١) يا أزرق: يا أعمى.

(٢) ناكث: غادر، غير وفي بالعهد، ولذا سمّي أصحاب الجمل بالناكثين؛ لأنهم لم يفوا بالبيعة.

خالف فهو يتكلّم بما ليس في القلب.

أنشدكم بالله! أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله استخلفه على المدينة في غزاة تبوك، ولا سخط ذلك ولا كراهة، وتكلّم فيه المنافقون فقال: لا تخلّفني يا رسول الله، فإنّي لم أتخلّف عنك في غزوة قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنت وصيّي وخليفتي في أهلي بمنزلة هارون من موسى. ثم أخذ بيد علي عليه السلام فقال: أيّها الناس! من تولاني فقد تولّى الله، ومن تولّى علياً فقد تولاني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أحبّ علياً فقد أحبّني».

ثم قال: «أنشدكم بالله! أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حجّة الوداع: أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا بما أنزل الله من الكتاب، وأحبّوا أهل بيتي وعترتي ووالوا من والاهم، وانصروهم على مَن عاداهم، وإنّهما لن يزالا فيكم حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة.. ثم دعا ـ وهو على المنبر ـ علياً فاجتذبه بيده فقال: اللهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه، اللهمّ مَن عادى علياً فلا تجعل له في الأرض مقعداً، ولا في السماء مصعداً، واجعله في أسفل درك من النار؟!

وأنشدكم بالله! أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: أنت الذائد عن حوضي يوم القيامة، تذود عنه كما يذود أحدكم الغريبة من وسط إبله؟!

أنشدكم بالله! أتعلمون أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفّي فيه فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال علي: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: يبكيني أنّي أعلم أن لك في قلوب رجال من أمّتي ضغائن لا يبدونها لك حتى أتولّى عنك؟!

أنشدكم بالله! أتعلمون أن رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة واجتمع عليه أهل بيته قال: اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وعترتي، اللهمّ والِ من والاهم وعادِ من عاداهم. وقال: إنما مَثَل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من دخل فيها نجا ومن تخلّف عنها غرق؟!

ونشدكم بالله! أتعلمون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد سلّموا عليه بالولاية في عهد رسول الله ﷺ وحياته؟!

وأنشدكم بالله! أتعلمون أن علياً أوّل من حرم الشهوات كلّها على نفسه من أصحاب رسول الله فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[1]؟!

وكان عنده علم المنايا وعلم القضايا وفصل الكتاب ورسوخ العلم ومنزل القرآن.

وكان رهط لا نعلمهم يتمّمون عشرة نبّاهم الله أنّهم مؤمنون، وأنتم في رهط قريب من عدة أولئك لُعنوا على لسان رسول الله ﷺ، فأشهد لكم وأشهد عليكم أنّكم لعناء الله على لسان نبيه كلكم» .

أنشدكم بالله أتعلمون!

الفاروق الأكبر ما بين كلمات الطرفين هو أن الطرف الحكومي يدّعي أشياء خطيرة ليس لها محل في ميزان الحقيقة والوجدان، وكلها باطلة وملفّقة ومعروفة ببهتانها، أو على الأقل أن الطرف المقابل لا يؤمن بصحّتها، ولا يقرّ بها جملةً

(١) سورة المائدة: الآيتان (٨٧ ـ ٨٨).

وتفصيلاً، وأما كلماته بالذات وادّعاءاته فإن الخصوم عالمون بها وعارفون بسلامة مضامينها، ولم يردّوا عليها أبداً حتى بعد أن أكّد عليهم مراراً وتكراراً ما يقوله: أنشدكم بالله أتعلمون... أنشدكم بالله أتعلمون... سواء ذلك في معرض المدائح العلوية أو الفضائح السفيانية.

وهذا الأسلوب من المناشدات القيّمة الرائعة سبق للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن أطلقه في عدّة مواطن مصيرية مناشدته الطويلة لأبي بكر بعد السقيفة، وكمناشدته التفصيلية لأصحاب الشورى وغير ذلك. وهو أسلوب ناجح جداً يُعزّز القدرات الهجومية والدفاعية لمن تمسّك به عارفاً وصادقاً ومُحِقاً.

ثم أنشدكم بالله! هل تعلمون:

قال عليه السلام: «وأنشدكم بالله ! هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث إليك لتكتب له لبني خزيمة حين أصابهم خالد بن الوليد، فانصرف إليه الرسول فقال: هو يأكل! فأعاد الرسول إليك ثلاث مرّات كل ذلك ينصرف الرسول إليه ويقول هو يأكل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تشبع بطنه». فهي والله في نهمتك وأكلك إلى يوم القيامة»[(١)].

ثم قال: أنشدكم بالله ! هل تعلمون أن ما أقول حقاً: إنّك ـ يا معاوية ـ كنت تسوق بأبيك على جمل أحمر يقوده أخوك هذا القاعد ـ وهذا يوم الأحزاب ـ فلعن رسول الله القائد والراكب والسائق، فكان أبوك الراكب وأنت يا أريا أزرق

(١) ليس المقصود من عبارة:«فهي والله في نهمتك وأكلك إلى يوم القيامة» أن معاوية يبقى في حالة أكل ونهمة إلى يوم القيامة، وإنّما المقصود أن حديث لا تشبعه يبقى عاراً ونقصاً على من قيل فيه إلى يوم القيامة، وإن تأوّله المتأولون بهذا الوجه أو ذلك ممّا هو مخجل للعاقب والبصير بمعاني الأحاديث.

السائق وأخوك هذا القاعد القائد؟! وأنتم أيّها الرهط ! نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لعن أبا سفيان في ثمانية مواطن لا تستطيعون ردّها:

أوّلها: يوم لقي رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الدين فوقع به وسبّه وسفهه وشتمه، وكذبه وتوعّده أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله، ثم صرفه الله عزّ وجل عنه.

والثانية: يوم العير إذا عرض لها رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهي جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها.

والثالثة: يوم أُحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في أعلاه وهو ينادي: أعل هبل مراراً، فلعنه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عشر مرّات ولعنه المسلمون[(١)].

والرابعة: يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله وابتهل.

والخامسة: يوم جاء أبو سفيان يجمع قريش وهوازن وجاء عُيينة بغطفان واليهود فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً.

والسادسة: يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه، ذلك يوم الحديبية، فلعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبا سفيان ولعن القادة والأتباع.

والسابعة: يوم الجمل الأحمر.

والثامنة: يوم وقفوا لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في العقبة ليستنفروا ناقته، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان[(٢)].

---

(١) وفي رواية: الثالثة يوم أُحد قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الله مولانا ولا مولى لكم». وقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فلعنه الله وملائكته ورسله والمؤمنون أجمعون.

(٢) وفي رواية الاحتجاج: والسابعة يوم الثنية شد على رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اثنا عشر رجلاً سبعة منهم من ⇐

ثم أنشدكم بالله! هل تعلمون أن أبا سفيان دخل على عثمان حين بويع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يابن أخي، هل علينا من عين، فقال: لا، فقال أبو سفيان: تداولوا الخلافة يا فتيان بني أمية، فوالذي نفس أبي سفيان بيده ما من جنّة ولا نار؟!

وأنشدكم بالله! أتعلمون أن أبا سفيان أخذ بيد الحسين حين بويع عثمان وقال: يا ابن أخي اخرج معي إلى بقيع الغرقد، فخرج حتى إذا توسط القبور اجتره فصاح بأعلى صوته: يا أهل القبور، الذي كنتم تقاتلونا عليه صار بأيدينا، وأنتم رميم. فقال الحسين بن عليعليه السلام: قبّح الله شيبتك وقبّح وجهك، ثم نتر يده وتركه، فلولا النعمان بن بشير أخذ بيده وردّه إلى المدينة لهلك.

فهذا لك يا معاوية، فهل تستطيع أن ترد علينا شيئاً؟!

أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لمّا همّ أن يُسلم، تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا ... بعد الذين ببدر أصبحوا فرقا
خالي و عمي و عم الأم ثالثهم ... و حنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن إلى أمر تكلفنا ... و الراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد ... حاد ابن حرب عن العزى وإذا فرقا[1]

⇐

بني أمية وخمسة من سائر قريش، فلعن الله تبارك وتعالى ورسول الله مَن حلّ الثنية غير النبيصلى الله عليه وآله وسائقه وقائده.

(١) الفَرَق: الخوف.

ومنها أن عمر بن الخطّاب ولّاك الشام فخنت به، وولّاك عثمان فتربصت به ريب المنون، ثم أعظم من ذلك جرأتك على الله ورسوله أنّك قاتلت علياً عليه السلام، وقد عرفته وعرفت سوابقه وفضله وعلمه على أمر هو أولى به منك ومن غيرك عند الله وعند الناس ولآذتيته، بل أوطأت الناس عشوة وأرقت دماء خلق من خلق الله بخدعك وكيدك وتمويهك، فعل من لا يؤمن بالمعاد، ولا يخشى العقاب. فلمّا بلغ الكتاب أجله صرت إلى شرّ مثوى وعلي إلى خير منقلب، والله لك بالمرصاد.

فهذا لك يا معاوية خاصة، والله لما أخفيت من أمرك أكبر ممّا أبديت».

لا تُحَلِّق الفضائلُ في الأجواء إلا مدّ اللهُ جناحيها بالقَوادم:

هذه سلسلة متلاحمة الحلقات من حقائق الفضائل والمناقب من جهة، والرذائل والمثالب من جهة ثانية، تتعلّق بالشؤون الأخلاقية والدينية والسياسية، قد رفعها الإمام المجتبى كأضواء خضراء في الطريق الطويل لتكون مختلف المجتمعات ـ في زمانه وما بعد زمانه إلى يوم القيامة ـ على وضوح من فكرها، وبصيرة من أمرها، لم يخدعها الإعلام المزيّف والاشاعات النكراء. وممّا يؤكّد صحّة هذه المعلومات الكثيرة أن المجتمعين ـ وهم من أشدّ المتربصين بالإمام الدوائر والباحثين له عن نقاط فشل وضعف ـ قد كانوا يستمعون إليها جميعاً بطرفيها الإيجابي والسلبي، ولم ينكروا شيئاً من مفرداتها مطلقاً، مع قدرتهم على الردّ والاعتراض بشتى الصور؛ لأنّ السلطة بأيديهم والجيوش من وراءهم، ولا تُحلّق الفضائل في الأجواء إلا مدّ الله جناحيها بالقوادم[1].

(١) القوادم: الريش الكبير في جناحي الطائر، وهي عكس الخوافي.

لقد جرت الأمور على خلاف ما توقّعه خصوم إمام المظلومين علي عليه السلام فإذا بالعديد من مناقبه ومآثره الحميدة تبرز بشكل واضح منير في مجلس رئاسي كبير كان من أهم أهدافه تناول شخصيته بالدسّ والتدنيس والتزوير والتدليس. وتشويه الفضائل من نفايا عقول السفهاء والحاقدين.

ولم تقتصر مساحة المناقب على إمام المظلومين علي فحسب، بل اتّسعت أطرافها لتشمل أهل البيت النبوي الكريم في الحديث الشريف:«اللهمّ، هؤلاء أهل بيتي وعترتي، اللهمّ والِ مَن والاهم وعادِ مَن عاداهم». وقال:«إنّما مثل أهل بيتي فيككم كسفينة نوح مَن دخل فيها نجا ومن تخلّف عنها غرق».

كما أن المثالب لم تبرز حقيقة معاوية فقط، وإنّما تعدّته إلى أبيه مؤسّس الأحقاد الأموية ضد الرسول وأهل بيته صلى الله عليه وآله، وإلى أخويه معاً: «وأنتم أيّها الرهط نشدتكم الله! ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في ثمانية مواطن لا تستطيعون ردّها...» ثم جاء التفصيل العجيب لتحديد المَواطن بما لم يتصدّ المستمعون لإنكاره ولا التمويه عليه لوضوح شخصية الأب والأولاد عندهم، ولأن الأدلة قد توالت عليهم لِتَكبهم على الوجوه والصدور:

خَسأ ابنُ هند إذ يُنازلُ صاعقاً ... يُعيي الجبالَ الراسيات الطُولى
عجَباً لِمبطَانٍ عظيمٍ أكلُهُ ... تِلقامَةٍ[١] أن يُصبحَ المَأكولا

وأما أنت يا عمرو بن عثمان:

قال عليه السلام: «وأما أنت يا عمرو بن عثمان فلم تكن للجواب حقيقاً بحُمقك أن تتّبع هذه الأمور، فإنّما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة. استمسكي فإنّي أُريد

(١) التلقامة: الكثير اللقم والعظيم اللقم.

أن أنزل عنك، فقالت لها النخلة: ما شعرت بوقوعك فكيف يشقّ عليَّ نزولك، وإنّي والله ما شعرت أنّك تجسر أن تعادي لي فيشق عليّ ذلك، وإنّي لمجيبك في الذي قلت إنّ سبّك علياًعليه السلام أينقص في حسبه أو يباعده من رسول الله أو يسوء بلاءه في الإسلام أو بجور في حكم أو رغبة في الدنيا؟ فإن قلت واحدة منها فقد كذبت. وأما قولك: إن لكم فينا تسعة عشر دماً بقتلى مشركي بني أمية ببدر، فإن الله ورسوله قتلهم . وإن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «إذا بلغ ولد الوزغ ثلاثين رجلاً أخذوا مالَ الله بينهم دُوَلاً وعبادَه خَوَلاً وكتابه دَغَلاً، فإذا بلغوا ثلاثمائة وعشر حقّت اللعنة عليهم ولهم، فإذا بلغوا أربع مائة وخمسة وسبعين كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة».

فأقبل الحكم بن أبي العاص وهم في ذلك الذكر والكلام فقال رسول الله: «اخفضوا أصواتكم فإن الوزغ يسمع». وذلك حين رآهم رسول اللهصلى الله عليه وآله ومن يملك بعده منهم أمر هذه الأمّة ـ يعني في المنام ـ فساءه ذلك، وشقّ عليه فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[1]. يعني بني أمية، وأنزل أيضاً : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2]. فأشهد لكم وأشهد عليكما سلطانكم بعد قتل علي إلا ألف شهر التي أجلها الله عزّوجلّ في كتابه[3].

(١) سورة الإسراء: الآية (٦٠).
(٢) سورة القدر: الآية (٣).
(٣) من تفسير الثعلبي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بإسناده عن المأمون بإسناده عن سعيد بن المسيب في قول الله عزّوجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾. قال:«أُري بني أمية على المنابر فساءه ذلك فقيل له: إنّها الدنيا يعطونها، فسرى عنه. فتنة للناس» قال: بلاء للناس. انظر التفصيل في ابن البطريق الأسدي (عمدة عيون صحاح الأخبار: ٤٥٣).

لست أدري ماذا يريد هذا الشاب المسكين والمخدوع من التعرّض لآل بيت محمّد صلى الله عليه وآله؟ إن كان يريد حرث الدنيا، فقد استماله معاوية إليه فأعطاه ثلث أرض فدك، وهي ثمينة جداً (وأعطى الثلثين ليزيد ومروان)، وإن كان يريد الآخرة فإن سبّ أمير المؤمنين ليس طريقاً إلى غير جهنّم وبئس المصير. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن سبّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني قد سبّ الله»[1]، وإن كان يُريد التشبّه بالأكابر والدهاة ممّن حولة كمعاوية والمغيرة وعمرو بن العاص فينسج ما ينسجونه فليته لم يتقدمهم في الكلام وانتظر قليلاً ليرى مصيرهم وذلّتهم والإمامُ المجتبى يسوقهم بين يديه سوق الصغار والهوان.

ليتك بقيت يا أيّها الشاب المُغرّر به في قصرك الباذخ الجميل في الشام إلى جانب امرأتك رملة بنت معاوية قبل أن يقذفك منه الإمام الهُمام منكوساً على أمّ رأسك، وليس من زاهق كَمَن رُمي من شاهق.

وأما أنتَ يا عَمرو بن العاص:

قال عليه السلام: «وأما أنت يا عمرو بن العاص الشانئ اللعين الأبتر، فإنّما أوّل أمرك أن أمّك بغية، وأنّك ولدت على فراش مشترك، فتحاكمت فيك رجال قريش، منهم أبوسفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحرث والنضر بن الحرث بن كلدة والعاص بن وائل، كلّهم يزعم أنّك ابنه. فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً وأعظمهم بغية. ثم قمت خطيباً وقلت: أنا شانئ محمد. وقال العاص بن وائل: إنّ محمداً رجل أبتر لا ولد له، فلو قد مات انقطع ذكره. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[2] وكانت أمّك

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٧.

(٢) سورة الكوثر: الآية (٣).

تمشي إلى عبد قيس[١] تطلب البغية تأتيتهم في دورهم ورحالهم وبطون أوديتهم. ثم كنت في كلّ مشهد يشهده رسول الله من عدوّه أشدهم له عداوة وأشدّهم له تكذيباً، ثم كنت في أصحاب السفينة الذين أتوا النجاشي في الإشاطة بدم جعفر بن أبي طالب وسائر المهاجرين إلى النجاشي. فحاق المكر السيّئ بك، وجعل جدّك الأسفل وأبطل أمنيتك وخيّب سعيك وأكذب أُحدوثتك ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللّه هِيَ الْعُلْيَا﴾. ثم إنّك تعلم وكلّ هؤلاء يعلمون أنّك هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، إنّي لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهمّ ألعنه بكلّ حرف ألف لعنة». فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن. ثم أنت ـ يا عمرو ـ المؤْثر دنياك على دينك، أهديت إلى النجاشي الهدايا ورحلت إليه رحلتك الثانية، ولم تنهك الأولى عن الثانية كل ذلك ترجع مغلوباً حسيراً تريد بذلك هلاك جعفر وأصحابه، فلمّا أخطأك ما رجوت وأمّلت ورجّعك الله خائباً وأكذبك واشياً جعلت حدّك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب مع حليلتك، ففضحك الله وفضح صاحبك.

وأما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعّرت عليه الدنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلمّا أتاك قتله قلت: أنا أبو عبدالله إذا نكأت قرحة أدميتها.

ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعث دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود، وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت مقتولاً.

ويحك يا ابن العاص! ألست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكّة إلى النجاشي:

---

(١) أي: تمشي إلى قبيلة عبد قيس، وهي من كُبريات قبائل ربيعة بن عدنان.

تقول ابنتي:أين هذا الرحيل؟ وما السير مني بمستنكر
فقلت: ذريني فإني امرؤ أُريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كيّة أُقيم بها نخوة الأصعر
وشأني أحمد من بينهم وأقولهم فيه بالمنكر
وأجري إلى عتبة جاهداً ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم وما استطعت في الغيب والمحضر
فإن قبل العتب منّي له وإلاّ لويت له مشفري !
فهذا جوابك هل سمعته»؟

إذا أعوزَ الدليل فأكثر من السّب والشتم ما استطعت:

يا أبا عبدالله ! هل يحسك بك وأنت على مرقبة من فم المنية، وقد حبوت إلى أحضان المائة عام أن تكون تبعاً منقاداً لأهواء معاوية ورجال بني أمية، وأنت الأكبر سناً والأحنَكُ تجارباً والأدنى إلى شفير المَثوى الأخير!!

يا أبا عبدالله! لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله ورأيت مواقفه الكريمة من سبطيه العظيمين وريحانته من الدنيا، ورويت حديث:«مَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه» ثم بعد ذلك وغير ذلك لم تُكبر سِبطاً ولم تتّبع وليّاً؟!

يا أبا عبدالله ! مالك والسبّ والقذف والتّهم الباطلة، كصنيع غلام ضائع مغرور وأنت المتميّز بالدهاء والذكاء والخبرة الطويلة؟!

أجل يا أبا عبدالله، اصغِ لي قليلاً لتسمعني مُناجياً أو هاتفاً منادياً:

ـ من امتلك المنطق العَذب استغنى عن القَذف والسبّ.

ـ إذا أعوزك الدليل فأكثر من السبّ والشتم ما استطعت.

وأما أنت يا وليد بن عقبة:

قال عليه السلام: «وأما أنت يا وليد بن عقبة ! فوالله ما ألومك أن تبغض علياً، وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة، وقتل أباك بين يدي رسول الله صبراً، وأنت الذي سمّاه الله الفاسق، وسمّى علياً المؤمن، حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي، فأنا أشجع منك جَناناً وأطول منك لساناً. فقال لك علي: اسكت يا وليد، فأنا مؤمن وأنت فاسق. فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾[1]. ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا﴾[2].

ويحك! يا وليد مهما نسيت فلا تنسَ قول الشاعر[3] فيك وفيه[4]:

(١) سورة السجدة: الآية (١٨).

(٢) سورة الحجرات: الآية (٦).

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: «قال شيخنا أبوالقاسم البلخي: من المعلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به وإطباق الناس عليه أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان يبغض علياً ويشتمه، وأنه هو الذي لاحاه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، ونابذه وقال له: أنا أثبت منك جَناناً وأحدّ سناناً. فقال له علي عليه السلام: اسكت يا فاسق، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾. الآيات المتلوّة، وسمّي الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق، فكان لا يعرف إلا بالوليد الفاسق. وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة علي عليه السلام» . (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٨٠ ـ ٨١).

(٣) نسبت الأبيات إلى حسان بن ثابت الأنصاري في: كشف الغمّة ١ : ٢١، المناقب لابن شهرآشوب ٢: ١٠.

(٤) وفي رواية: وما أنتّ يا وليد بن عقبة، فوالله ما ألومك أن تبغض علياً، وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة، وقتل أباك صبراً ببدء يوم بدر، أم كيف تسبّه وقد سمّاه الله مؤمناً في عشرة آيات من القرآن، وسمّاك فاسقاً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾، وقوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَة فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمينَ﴾.

أنــزل الله والكتــاب عزيــز في علي و في الوليد قرآنا
فتبــوأ الوليــد إذ ذاك فــسقاً و علـــي مبـــوأ إيمانــــا
ليس من كان مؤمناً عمّرك الله كمــن كــان فاســقاً خوّانــا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلـي إلـى الحساب عيانـا
فعلـي يجـزى بـذلك جنانـاً ووليـد يجـزي بـذاك هوانـا
ربّ جـــدّ لعقبـــة بـــن أبان لابـس فـــي بلادنــا تبانا[1]

وما أنت وذكر قريش، وإنّما أنت ابن علج من أهل صفورية اسمه ذكوان، وأما زعمك أنا قتلنا عثمان فو الله ما استطاع طلحة والزبير وعائشة أن يقولوا ذلك لعلي بن أبي طالب، فكيف تقوله أنت؟! ولو سألت أمّك من أبوك إذ تركت ذكوان فألصقتك بعقبة بن أبي معيط اكتسب بذلك عند نفسها سناء ورفعة، ومع ما أعدّ الله لك ولأبيك ولأمّك من العار والخزي في الدنيا والآخرة «وما الله بظلام للعبيد» . فكيف تسبّ علياً؟! ولو اشتغلت بنفسك لتثبت نسبك إلى أبيك لا إلى من تُدعى له، ولقد قالت لك أمّك : يا بنيّ أبوك والله ألأم وأخبث من عقبة».

لقد كشف الإمام عليه السلام علّتين كبيرتين من علل بغض الوليد بن عقبة لعلي عليه السلام بقوله: «فَوَ الله ما ألومك أن تبغض علياً، وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدةً». هذه هي **العلّة الأولى**، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان أخي الوليد من الرضاعة، وكان الوليد الوالي على الكوفة، والمصلّي في محرابها، وهو ثمل

(١) التبّان: سروال قصير، كثيراً ما يلبسه الملاحون، مفرد تبابين، وأحسب أن المعجم الوسيط قد أخطأ حينما اعتبره جمعاً وتباين مفرداً. للتحقيق راجع المعجم الوسيط، لفظ التبان.

من الخمرة[١].

والعلة الثانية: تتّضح من قول الإمام: «وقتل أباك بين يدي رسول الله صبراً».

وفي مثل قول الإمام: «أنت ابن علج من أهل صفورية اسمه ذكوان»، قال الفضل بن العبّاس بن عتبة في خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

أتطلب ثأراً لست منه ولا لَهُ وما لابنِ ذكوان الصفوري والوترِ[٢]

وأما أنتَ يا عُتبة بن أبي سفيان:

قال عليه السلام: «وأما أنت يا عتبة بن أبي سفيان! فوالله ما أنت بحصيف فأجاوبك، ولا عاقل فأعاقبك، وما عندك خيرٌ يُرجى، ولا شرّ يُتّقى، وما عقلُ أمتك وعقلك إلا سواء، وما يضرّ علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد؛ لأنّك عندي لست بكفو لعبد علي بن أبي طالب فأردّ عليك وأُعاتبك، ولكن الله عزّ وجلّ لك ولأبيك وأمّك وأخيك لبالمرصاد؛ فأنت ذرية آبائك الذين ذكرهم الله في القرآن فقال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ* تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[٣].

ولا ألومك أن تسب علياً، وقد قتل أخاك مبارزة، واشترك في هو وحمزة ابن عبدالمطلب في قتل جدّك حتّى أصلاهما الله على أيديهما نار جهنّم وأذاقهما العذاب الأليم. وأما رجائي الخلافة فلعمْرُ الله إن رجوتها فإن لي فيها لملتمساً، وما أنت بنظير أخيك ولا بخليفة أبيك؛ لأن أخاك أكثر تمرّداً على الله، وأشدّ طلباً لإهراقه دماء المسلمين، وطلب ما ليس له بأهل يخادع الناس ويمكرهم ويمكر الله والله خير الماكرين. وأما قولك: إنّ علياً كان شرّ قريش

(١) راجع التفصيل في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٢٢٩ ـ ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢: ١١٦.

(٣) سورة الغاشية: الآيات (٣ ـ ٥).

لقريش، فوَالله ما حقّر مرحوماً، ولا قتل مظلوماً.

وأمّا وعيدك إيّاي بالقتل فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك؟! ولو شغلت نفسك بطلب ثأرك منه كنت جديراً، ولذلك حرياً إذ تسومني القتل وتوعدني به. أما تستحيي من قوله نصر بن حجّاج فيك:

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبّة تخزي أبا سفيان

نبئت عتبة خانه في عرسه نجسٌ لئيم الأصل من لحيانِ[1]

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فكيف يخاف أحد سيفك، ولم تقتل فاضحك».

هذه هي القوارص التي لا تُطاق والوخزات التي تخترق العِظام بعد العظام:

ـ ما أنت بحصيفٍ فأجابوك، ولا عقال فأعاقبك.

ـ ما عندك خيرٌ يُرجى، ولا شرّ يُتقى.

ـ ما عقلُك وعقل أَمتك إلا سواء.

فأي النواقص والفضائح هذه التي يزداد منها وجه عتبة حُلكة واسوداداً، ويزداد منها وجه من يظلمهم ويتهمهم شروقاً وابيضاضاً؟!

فيالسنّة تُخزي أبا سفيان وتُخزي آل أبي سفيان!

ثم ماذا كان في قول نصر بن حجّاج السلمي من الفضائح بعد القضية المخجلة التي أشار إليها حتى قال الإمام الحسن عليه السلام: «وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه»؟!

---

(١) لحيان: قوم من قبيلة كِنانة.

وأمّا أنت يا مغيرة بن شعبة:

قالعليه السلام: «وأما أنت يا مُغيرة بن شعبة! فإنّك لله عدوٌ ولكتابه نابذ[(١)] ولنبيّه مكذّب، وأنت الزاني، وقد وجب عليك الرجم، وشهد عليك العدول البررة الأتقياء، فأخّر رجمك، ودفع الحقّ بالأباطيل، والصدق بالأغاليط[(٢)]، وذلك لما أعد الله لك من العذاب الأليم والخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى. وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله حتى أدميتها وألقت ما في بطنها استذلالاً منك لرسول اللهصلى الله عليه وآله ومخالفةً منك لأمره، وانتهاكاً لحرمته، وقد قال لها رسول اللهصلى الله عليه وآله: «يا فاطمة، أنت سيّدة نساء أهل الجنة». والله مصيرك إلى النار وجاعل وبال ما نطقت به عليك. فبأي الثلاثة سببت علياً في نسبه أم بعداً من رسول الله، أم سوء بلاء في الإسلام، أم جوراً في حكم، أم رغبة في الدنيا ! إن قلت بها فقد كذبت وكذبّك الناس. أتزعم أن علياًعليه السلام قتل عثمان مظلوماً؟! فعلي والله أتقى وأنقى من لائمه في ذلك. ولَعمري لئن كان علي قتل عثمان مظلوماً فوَالله ما أنت من ذلك في شيء، فما نصرته حياً ولا تعصّبت له ميتاً، وما زالت الطائف دارك تتبع البغايا، وتُحيي أمر الجاهلية، وتميت الإسلام حتى كان ما كان في أمس[(٣)]. وأمّا اعتراضك في بني هاشم وبني أمية فهو ادعاؤك إلى معاوية. وأما قولك في شأن الإمارة وقول أصحابك في الملك الذي ملكتموه،

---

(١) ولكتابه نابذ: أي أن المغيرة ألقى كتاب الله ورمى به فلا يأخذ بما فيه، قال تعالى: ﴿كَلا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (سورة الهمزة: الآية ٤) ولأبي الأسود الدؤلي:

نظرت إلى عُنوان فنبذتُه ... كنبذكَ نَعلاً أخلقَتُ من نعالكا

(٢) وجاء في رواية ابن أبيِ الحديد المعتزلي: وإن حَدّ الله في الزنى لثابت عليكَ، ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه، ولقد سألت رسول اللهصلى الله عليه وآله هل ينظر الرجل إلى المرأة أن يتزوّجها؟ فقال: «لا بأس بذلك يا مُغيرة ما لم يَنوِ الزني». لعلمه بأنّك زان. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٢٩٣).

(٣) أي من قيام الشهود على زنى المغيرة في خلافةً عمر بن الخطّاب.

فقد ملك فرعون مصر وموسى وهارون نبيّان مرسلانعليهما السلام يلقيان ما يلقيان من الأذى، وهو ملك الله يعطيه البرّ والفاجر وقال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[١]، وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾»[٢].

التهمّ الفارغة شعارات الفارغين:

إنّي لأُدرك جيداً ـ يا أعورَ ثقيف ـ أنّك لست الأعور الدجّال؛ لأنّك قد هلكت، وهو يظهر في أواخر الزمان، ولكنّي أدرك أنّك لست بأقل منه خبثاً ومكراً، ولا نفاقاً وشرّاً.

ولئن أمسيت مُتّهماً لسيد الأوصياء ولبسط خاتم الأنبياء فأيّ الهضاب لا يغشاها الضباب، وأي الكرام لا يصيبه الاتّهام؟!

يا أعور ثقيف ! إنّي لأكاد أجزم بأنك بريء في سني شبابك وكهولتك من اتّهام للأبرياء، ومن إلصاق الدعايات الكاذبة بالمتقين والصالحين، وذلك لسبب واحد بسيط وهو أنّك مشغول جداً ـ بما لا أحبّ أن أُجاهرك به ـ عن اتّهام الآخرين، وأمّا الآن وقد كبرت جداً وانكسرت قوتك البدنية وعجزت عن إتيان ما كنت تأتيه، وشعرت بأوقات الفراغ، فلهذا أحببت أن تملأه بالأكاذيب ونشر الدعايات الفارغة، والتهم الفارغة شعارات الفارغين.

فوالله ما قامَ حتّى أظلم عليَّ البيت:

ثم قام الحسن فنفض ثيابه وهو يقول: «﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١١١).

(٢) سورة الإسراء: الآية (١٦).

للْخَبِيثَات﴾[1]. هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَات وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَات أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2]. هم علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه وشيعته». ثم خرج وهو يقول لمعاوية: «ذُق وبالَ ما كسبت يَداك وما جنَت، وما قد أعدّ الله لك ولهم من الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة».

فقال معاوية لأصحابه: وأنتم فذوقوا وبال ما جنيتم.

فقال الوليد بن عقبة: والله ما ذقنا إلا كما ذقت، ولا اجترأ إلا عليك.

فقال معاوية: ألم أقل لكم: إنّكم لن تنتقصوا من الرجل، فهلا أطعتموني أوّل مرة، فانتصرتم من الرجل إذ فضحكم، فوالله ما قام حتى أظلم عليّ البيت، وهممت أن أسطو به، فليس فيكم خير اليوم ولا بعد اليوم.

هكذا يقول الإمام الظافر لمعاوية، وهو يخرج من قاعة المؤامرات منتصراً منتصب القامة: ذُق وبال ما كسبت يداك وما جنت، وما قد أعدّ الله لك ولهم من الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

وهكذا يقول معاوية لأصحابه الذين لقوا ما بقي من الطعنات الماحقة والضربات اللاحقة: ألم أقل لكم: إنّكم لن تنتقصوا من الرجل، فهلا أطعتموني أوّل مرّة فانتصرتم من الرجل إذ فضحكم، فوالله ما قام حتى أظلم عليَّ البيت.

ولقد صدق كل من الرجلين (الإمام الحسن ومعاوية) كلّ الصدق في تقييم

---

(١) سورة النور: الآية (٢٦).

(٢) سورة النور: الآية (٢٦).

الموقف الرهيب وتقدير المشهد العجيب. ونظراً لأن هذا الانتصار الكبير لسبط الرسول صلى الله عليه وآله والانكسار لحاكة المؤامرات أعظم من أن يُبرقع أو يستر في حالة من الحالات، فإنّ معاوية والمغيرة وعمرو بن العاص لم يتمكّنوا على الرغم من دهائهم المعهود أن يَلفوه بغطاء من الأغطية أو يحجبوه أو يحتجبوا منه.

ولنتأمّل في قول معاوية بعد جدل الإمام الحسن عليه السلام: وهممت أن أسطو به. أليس هذا من البراهين الأخرى على العجز الذي استولى على الخليفة وأصحابه أمام الأجوبة المسكتة الخانقة؟! والأدلة الفاتكة؟! فلم تكن لهم من وسيلة أو كُوة إلى التنفس إلا محاولة قتل الإمام والاستراحة ممّن سَطا عليهم بالحجج التي لا مفرّ ينجي منها، ولا ملجأ يُعتصم به دونها.

جاء في قصيدة حول هذه المناظرة والمساجلة القيّمة:

إنّ الرؤوس الشامخات إذا طَغَت ... وأبَت نزوعاً[1] تَستحيلُ ذويلا
إنّ الهوى ما لَجَّ في غَيرِ النُّهى ... إلا وأنجَبَ سَفْسَفاً مرذولا
يَغشى الهَوانَ مُشَرَّقاً ومُغرِّباً ... قَصّبٌ تَحدَّى الصارمَ المَسلولا
حِلفُ الجَهالةِ مَن يُساجلُ عارفاً ... قَدْ أُلهِمَ المَعقولَ والمَنقولا

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ* يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[2].

---

(١) النزوع: الكفّ عن الشيء والانتهاء.
(٢) سورة غافر: الآيتان (٥١ ـ ٥٢).

افتضاح الملفّ الأخير:

وسمع مروان بن الحكم بما لقي معاوية وأصحابه المذكورون من الحسن بن علي عليه السلام ، فأتاهم فوجدهم عند معاوية في البيت، فسألهم ما الذي بلغني عن الحسن وزعله فقالوا: قد كان كذلك. فقال لهم مروان: أفلا أحضرتموني ذلك، فوالله لأسبنّه ولأسبنّ أباه وأهل البيت سبّاً تتغنى به الإماء والعبيد. فقال معاوية والقوم: لم يفتك شيء وهم يعلمون من مروان بذو لسان وفحش. فقال مروان: فأرسل إليه يا معاوية. فأرسل معاوية إلى الحسن بن علي، فلمّا جاء الرسول، قال له الحسن عليه السلام: «ما يريد هذا الطاغية منّي، والله إن أعاد الكلام لأوقرن مسامعه ما يبقى عليه عاره وشناره إلى يوم القيامة».

فأقبل الحسن، فلمّا جاءهم وجدهم بالمجلس على حالتهم التي تركهم فيما غير أن مروان قد حضر معهم في هذا الوقت، فمشى الحسن عليه السلام حتى جلس على السرير مع معاوية وعمرو بن العاص، ثم قال الحسن لمعاوية: «لِمَ أرسلت إليّ»؟ قال: لست أنا أرسلت إليك، ولكن مروان الذي أرسل إليك. فقال له مروان: أنت يا حسن الساب لرجال قريش؟

فقال له الحسن: «وما الذي أردت»؟

فقال مروان: والله لاسبنّك وأباك وأهل بيتك سباً تتغنّى به الإماء والعبيد.

فقال الحسن عليه السلام: «أما أنت! يا مروان! فلست سببتك ولا سببت أباك، ولكن الله عزّ وجلّ لعنك ولعن أباك وأهل بيتك وذريّتك وما خرج من صلب أبيك إلى يوم القيامة على لسان نبيّه محمد. والله يا مروان ما تنكر أنت ولا أحد ممّن حضر هذه اللعنة من رسول الله صلى الله عليه وآله لك ولأبيك من قبلك، وما زادك الله ـ يا مروان ـ بما خوفك إلا طغياناً كبيراً وصدق الله وصدق رسوله؛ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾[١]. وأنت يا مروان وذريّتك الشجرة الملعونة في القرآن، وذلك عن رسول اللهصلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله عزّ وجلّ».

فوثب معاوية فوضع يده على فم الحسن وقال: يا أبا محمد، ما كنت فحّاشاً ولا طيّاشاً. فنفض الحسنعليه السلام ثوبه وقام فخرج. فتفرّق القوم عن المجلس بغيظ وحزن وسواد الوجوه في الدنيا والآخرة.

تتغنّى به الإماء والعبيد:

والله لاسبنّك وأباك وأهل بيتك سبّاً تتغنّى به الإماء والعبيد.

هذا هو منطق رجل كبير السن، هو اليوم أمير على الناس من قبل الخليفة، وغداً خليفة بحكم باسم القرآن الكريم، والسنة الزكية، ويرتقي منبر الرسول الأمينصلى الله عليه وآله.

هذا هو الهدف الرخيص والهزيل الذي يتدفّق من نفسية رخيصة هزيلة، ليس من شأنها أن تعرف مكارم الأخلاق ولا جمالية الشمائل. وهب أن الإماء والعبيد تغنّوا بالسباب والشتائم فما يُرام من وراء ذلك، وما يبتغيه الحاقدون على الأكارم والأعاظم، ومن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً؟!

ولكن الأمور لم تتم لمروان كما يشاء، بل استطاع الإمام المجتبى أن يقلب على رأسه الطاولة، فإذا بفضائحه ورذائله وفضائح ورذائل اُسرته وذرّيته يتغنّى بها الأكابر والأصاغر حتى الإماء والعبيد.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٦٠).

ليس في كلمات الإمام فحش ولا طيش، كما ادّعى معاوية وهو القائل عليه السلام لعتبة بن أبي سفيان كما مرّ علينا: «وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه»، ولكن القضية التي أثارها من الشجرة الملعونة تصكّ المسامع وتقض المضاجع وتنسف صلاحية الأمويّين للحكم من الأساس.

تعليقة رائعة:

في كتاب «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»، تأليف الأستاذ محمد رضا المصري، تعليقة رائعة طيّبة على هذا اللون من المناظرات التاريخية الخالدة البعيدة الأثر في السياسة والعقائد لا نستغني عن ذكرها أبداً، وسوف يجد القارئ الكريم فيها كل سليم وموضوعية في الحكم والتقييم. قال الأستاذ محمد رضا:

«اجتمع هؤلاء النفر فأرادوا أن يتفكّهوا بالطعن على الحسن، فاستحضروه ليسبّوه ويهدّوه مع أنه سالمهم وسلم الأمر لمعاوية تجنّباً لإراقة الدماء، واعتكف بالمدينة تاركاً لهم الأمر يفعلون ما يشاؤون.

ومع هذا لم يخلص من ألسنتهم ومعاكستهم، وكان عمرو بن العاص يحرّض معاوية على التحكك به، ومعاوية ينهاه علماً منه بقوّة عارضة الحسن.

فلما حضر أخذ عمرو يعيب علياً عليه السلام وصرّحوا أنّهم دعوه ليسبّوه ويسبّوا أباه، ثم تكلّم الوليد وعتبة والمغيرة كل بدوره، والحسن يسمع شتمهم وتهديدهم إياه بالقتل، وهو رابط الجَأش مستجمع لحواسه. فلمّا أفرغوا ما في جعبتهم دافع عن أبيه، فأجمل مناقبه وذكر ما كان من إسلامه وحسن بلائه في سبيل نشر الدين، وما كان من عداء أبي سفيان ومعاوية للإسلام. وكان الحسن عالماً بالتاريخ والوقائع، عارفاً بسير الرجال، حافظاً للأشعار. ثم أجاب عمرو بن العاص وذكر نسبه ومسيره إلى الحبشة للإيقاع بجعفر والمسلمين والمهاجرين

ومحاربته لرسول الله. وقال للوليد: إنّه جُلِدَ في الخمر، وأن علياً هو الذي جلده، وكان ذلك في خلافة عثمان ... الخ.

قال ذلك بصراحة متناهية وجرأة عجيبة، وقد استحقوا ما سمعوا منه، فإنّ الشرّ لا يدفعه إلا الشرّ، فغضب معاوية عليهم وأمرهم بالخروج، وقد كان وكانوا في غنىً عن ذلك كلّه. وشهد معاوية للحسن بأنّه من لا تطاق عارضته. ولا غرو في ذلك فإنّ جدّه رسول الله وأمه فاطمة الزهراء وأباه علي الذي بهر الأعداء بشجاعته وفاق الفصحاء بفصاحته وبَذّ الحكماء بحكمته»[1].

ختامه من تسنيم:

للمناظرة الكبرى هذه عدد من الامتيازات الجليلة الشأن التي سنشير إليها بإيجاز:

١ ـ إن القرآن الكريم والسنّة النبوية والحضارة والتاريخ والقيم الإنسانية، قد حقّقت فيها فتحاً مبيناً على لسان الحسن بن علي عليه السلام.

٢ ـ نشر الإمام الحسن في القاعة الرئاسية للبلاط الحاكم المعادي لآل محمد صلى الله عليه وآله عدداً كبيراً ورئيساً من مآثرهم ومناقبهم وأفضليتهم عليهم السلام على الناس.

٣ ـ بيّن الإمام بصدق تام ومعرفة شاخصة واقعَ السلطة الحاكمة والمكانة الحقيقية لرموزها وقادتها.

٤ ـ كانت إدارة الاجتماع بيد السلطة الحاكمة ابتداءً، فحوّلها الإمام بجرأته الفائقة وبراعته وقوّة سياسته إلى قبضة يديه الكريمتين.

---

(١) الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة لمحمد رضا: ٣٦ ـ ٣٧، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

٥ ـ لم ينخدع الإمام بهروب معاوية من المسؤولية وتنصّله من مواجهته عليه السلام، بل ألقى التبعة عليه وهاجمه بصرامة وقوّة كبيرتين عالماً باتفاقه المسبق ـ ولو بشكل من الأشكال ـ مع أصحابه، ولأنّه بالذات هو الذي بعث رسولاً لاستدعاء الإمام.

٦ـ ابتدأ الإمام مناظرته بتوجيه الطعنات المتتالية على قائد الدولة، ورأس الداعين للمناظرة والجدال؛ لأنّه بعد سقوطه وانهيار مكانته السياسية والاجتماعية والأُسرية يكون قد مهّد الطريق لانهيار الآخرين من كتلته وحزبه.

٧ـ في خطّة فائقة الذكاء ترك الإمام الطرف المقابل يتكلّم الواحد بعد الآخر حتى انتهى كلامهم من دون أن يجيب بعض أفرادهم، ثم يستمع إلى من بعده فيجيبه؛ لأنه عليه السلام كان على ثقة من الانتصار الساحق على الجميع، فلو أجاب أوّل المجادلين منهم ذلك الجواب الحاسم وببراهين لا يستطيع الردّ عليها، فإنّ من بعده لا يتجرّأ على المجادلة، بل ينقطع خشية أن يصيبه ما أصاب من قبله. أمّا إذا تركهم من غير إجابة حتى يستمع لهم جميعاً، ثم يدلي بالجواب، فإنّه يكون قد وفّر مجالاً رحيباً للسانه الجوّال أن يتحرك ويهاجم في مساحة أكبر بحيث تعمّ جميع المتآمرين.

٨ ـ حُسِم الصراع والجدل لصالح الإمام الحسن بصورة رائقة رائعة، بالرغم من كونه الوحيد، وكونهم جماعة.

٩ ـ كما حُسم الصراع والجدل لصالح الإمام الحسن بصورة فريدة، بالرغم من استعدادهم المُسبق وحضروه المفاجئ لمثل هذا الأمر الخطير بل الخطير جداً.

١٠ـ كان معاوية صادقاً وصريح اللهجة، وهو يعقّب على نتيجة المناظرة الكبرى حينما يقول لأعلام حزبه: ألم أقل لكم: إنّكم لن تنقصوا من الرجل،

فهلا أطعتموني أوّل مرّة فانتصرتم من الرجل إذ فضحكم... وكان الوليد بن عقبة صادقاً وصريح اللهجة وهو يقول لمعاوية: والله ما ذقنا إلا كما ذقت ولا اجترأ عليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين، وسلّم تسليماً كثيراً.

مصادر ومراجع البحث

١ ـ مصادر المناظرة الكبرى:

انظر أصول المناظرة الكبرى في الكتب التالية:

الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٩، نشر المرتضى، مشهد، ١٤٠٣ هـ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، قم، الناشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي ٦: ٢٨٦ ـ ٢٩٤، تحت عنوان: «في مفاخرة بين الحسن بن علي ورجالات من قريش» نقلاً عن الزبير بن بكار في كتاب «المفاخرات». المجلسي، محمد باقر، ١٤٠٣ هـ، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء ٤٤: ٧٠ ـ ٨٨، باب ٢٠، سائر ما جرى بينه صلوات الله عليه وبين معاوية وأصحابه. صفوت، أحمد زكي، يروت، المكتبة العلمية، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ٢: ١٩ ـ ٣١ (بدون تاريخ).

٢ ـ المصادر والمراجع الأخرى:

ـ الصدوق، محمد بن علي، ١٣٧٨ هـ معاني الأخبار، بيروت.

ـ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، ١٤١٣ هـ الأمالي، قم، إصدار مؤتمر الشيخ المفيد.

ـ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، نسخة مصوّرة على النسخة الخطية في

المكتبة الظاهرية بدمشق.

- ابن شهرآشوب السروي، محمد بن علي، ١٣٧٩ هـ مناقب آل أبي طالب، قم، المطبعة العلمية.

- ابن البطريق الأسدي الحلي، يحيى بن الحسن، بدون تاريخ، عمدة عيون صحاح الأخبار، قم، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

- الإربلي، علي بن عيسى، ١٣٨١ هـ كشف الغمة، تبريز، مكتبة الهاشمي.

صلح الإمام الحسنعليه السلام (قراءة جديدة)

السيد سامي البدري(*)

(دراسة تكشف لأول مرة أسراراً عن صلح الإمام الحسنعليه السلام

وتثبت إنّه كان فتحاً مبيناً لمشروع عليعليه السلام الإحيائي للسنّة)

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

تعد قضية صلح الإمام الحسنعليه السلام مع معاوية كما تُصورها لنا المصادر التاريخية الأُولى من أشد القضايا غموضاً وتشوّهاً في تاريخ أهل البيتعليهم السلام من جهة، وفي تاريخ العراق الإسلامي المبكر من جهة أخرى.

فقد درس الباحثون شخصية الإمام الحسنعليه السلام من جانبين: الأوّل سيرته الشخصية، والثاني سيرته السياسية. وتعد ابرز قضية فيها دوافع صلحه مع معاوية ونتائجه.

وكان الباحثون على صنفين: مستشرقين وإسلاميين، اما المستشرقون فكان رأيهم سلبياً في الحسنعليه السلام في كلا الجانبين. وقد استندوا في ذلك على روايات

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ العراق.

مبثوثة في المصادر التاريخية الإسلامية المبكرة.

أما الإسلاميون فهم صنفان أيضاً:

باحثون شيعة يعتقدون مسبقا بالإمامة الإلهية للحسن عليه السلام وعصمته وانه بريء مما وصفه الرواة من انه كان متهالكاً على المال وانه كان منصرفاً الى حياة الترف وان اهم دافع للصلح مع معاوية هو تخاذل الكوفيين آنذاك إذ كان فيهم من يفكر بتسليم الحسن عليه السلام حياً الى معاوية، وفي مثل هذه الحال اقدم الحسن عليه السلام على الصلح لحفظ نفسه وقلة من شيعة أبيه من جهة، ولفضح معاوية إذ سيعلن عن عدم التزامه بالشروط، وان معاوية قد اعلن ذلك عندما دخل الكوفة وانه إنما قاتل على الامرة، وقد أعطاه الله ذلك.

وباحثون سنة يرون في الإمام الحسن عليه السلام شخصية إسلامية عظيمة عكست التقوى والزهد في الدنيا وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية وقد وافق اغلبهم الباحثين الشيعة فيما ذهبوا إليه من تحليل لدوافع الصلح عند الحسن في جزئها الأوّل وهو خذلان العراقيين له.

وقد استند الباحثون سنة وشيعة في نظرتهم تلك إلى روايات تاريخية نسب بعضها الى الإمام الحسن عليه السلام نفسه. كما استند الشيعة في تحليلهم ان معاوية قد افتضح باعلانه عن حقيقته بعدم الوفاء الى روايات ذكرتها المصادر الأُولى في التاريخ الاسلامي.

والجديد الذي يقدمه هذا البحث نلخّصه في النقاط التالية:

١ ـ إنّ الروايات الطاعنة في شخصية الحسن عليه السلام و في شخصية الكوفيين قد وضعت من قبل العباسيين الحاكمين لمواجهة خصومهم الحسنيين الثائرين وتجريدهم من القاعدة الشعبية التي تؤيدهم وتطويق الكوفة بوصفهم قلعة المؤيدين لهم، وان الروايات الصحيحة عن شخصية الحسن عليه السلام تبرزه اماما في

العبادة والعلم وعمل الخير، كما ان الروايات الصحيحة تبرز ان أهل العراق كانوا اوفياء ومخلصين لعلي عليه السلام والحسن عليه السلام وانهم قدموا في سبيل وفائهم ما لم يقدمه شعب آخر في وقته.

٢ ـ إنّ شروط الحسن عليه السلام ـ وأهمها أمان شيعة علي عليه السلام في الكوفة ـ كانت منفّذة لعشر سنوات، وهي حقيقة مغيبة في بطون المصادر التاريخية عتّمت عليها كثرة الأخبار الموضوعة، وان غدر معاوية بالحسن عليه السلام وشيعته باسوأ ما يتصوره المرء في حقّ غادر كان في سنة ٥٠ هـ وليس سنة ٤١ هـ وكان نقضه للشروط قد بدأ بدس السم للحسن عليه السلام نفسه ثم اعادة لعن علي عليه السلام والمنع من ذكره بخير، وقتل شيعته الممتنعين عن لعنه. وكان آخر ما نقضه من الشروط هو تعيين ولده يزيد حاكماً وهادياً من بعده.

وفي ضوء الحقيقة الكبيرة التي كشف عنها البحث حقيقة الأمان للشيعة وحرية التعبد والتعبير لعشر سنوات في حياة الحسن عليه السلام كان لا بد من البحث عن دوافع أخرى للصلح غير ما تبناه الباحثون، وقد انطلق البحث للكشف عن تلك الدوافع من كلام الإمام الحسن عليه السلام نفسه حين أجاب عن سؤال حول الصلح قال: (علّة مصالحتي لمعاوية علة مصالح النبي صلى الله عليه وآله لقريش).

٣ ـ إنّ الصلح كان قد طلبه معاوية أوّلاً، وكانت صيغته ان يبقى كل طرف على بلاده التي بايعته، ولكن الحسن عليه السلام بصفته الشاهد الإلهي على الأُمّة وامام الهدى المنصوص عليه رفض هذه الصيغة؛ لأنها تكرس الانشقاق في الأُمّة، وتكرس الرؤية السلبية التي اوجدها الاعلام الأموي الكاذب ضد مشروع علي عليه السلام الاحيائي للسنة النبوية كما اوجد الاعلام القرشي من قبل رؤية سلبية

ضد مشروع النبوة، كما ان الصلح كان أداة النبي صلى الله عليه وآله في مواجهة الكذب واحقاق الحق كذلك عند الحسن عليه السلام، وتقدم الحسن عليه السلام بصيغة الصلح التي تحقق له أمرين:

الأوّل: معالجة الانشقاق في الأُمّة واقامة تجربة حكم مدني في المجتمع الإسلامي كله بشقيه يكون الحاكم فيه معاوية بحكم بيعة أهل الشام له، ومن بعده يكون الحاكم هو الحسن عليه السلام بحكم بيعة أهل العراق له، ووضع الحسن عليه السلام للحكم المدني شروطه، ومنها أن لا تتدخل السلطة في الشؤون الدينية وان يترك تداول السلطة بعد معاوية والحسن عليه السلام للناس يبايعون من تشير إليه النصوص الدينية ويؤكده الواقع.

الثاني: تأسيس ظاهرة المرجعية الدينية المستقلة عن السلطة سواء كانت مرجعية علي عليه السلام، التي جاءته بنص من الله ورسوله ثم صارت للحسن عليه السلام من بعده بالنص من الله ورسوله أيضاً ومن بعده للحسين عليه السلام وللتسعة من ذرية الحسين عليه السلام كما اكدت النصوص ذلك، أو كانت مرجعية قريش المسلمة التي تمثلت بالخلفاء الثلاثة وما شرعته للناس من فتاوى في الدين، ويكون الناس بالخيار في العمل بفتاوى هذه المرجعية أو تلك.

وقد وافق معاوية على هذه الأُطروحة، بل طار لها فرحاً وسال لعابه لها، وبعث للحسن عليه السلام باوراق موقعة منه ليكتب ما شاء من الشروط، واصطلحا على ذلك ووفى بها عشر سنوات ثم غدر بعدها.

والجدير بالذكر ان هذا العرض الموجز خلاصة يجد القارئ الكريم

تفصيلها في كتابنا المفصل الذي يحمل عنوان «الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي»، والمطبوع في سنة ١٤٣٣ هـ.

وختاماً ارجو من الله تعالى ان يفتح الطريق امام هذه القراءة الجديدة لدوافع الصلح ونتائجه والحقائق الجديدة التي كشفت عنها لتكون بديلاً عن الرؤية المشوشة والتصورات السلبية التي سادت حول شخصية الإمام الحسن عليه السلام وشيعته في العراق.

صلح الإمام الحسن عليه السلام قراءة جديدة في ضوء كلام الإمام الحسن عليه السلام

روى الشيخ الصدوق في «علل الشرائع» عن أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: يا ابن رسول الله، لِمَ داهنت معاوية وصالحته ؟... قال: «يا أبا سعيد، علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل»(١).

أقول: معنى ذلك ان السبب الموجب للصلحين واحد، وهذا يستلزم وحدة الخلفيات التي سبقت الصلح ثم وحدة الظرف الموجب له ثم وحدة الموقف ازاءه ثم وحدة النتائج المترتبة على الموقف، وفي الآتي بيانها.

---

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق ١: ٢١١.

خلفية الصلحين:

كان النبي صلى الله عليه وآله صاحب مشروع رسالي يستهدف تحرير دين إبراهيم من بدع قريش مما يخالف تنزيه الله تعالى حين عبدت الاصنام، وتنزيه نبيه إبراهيم والحج الابراهيمي من البدع التي ادخلتها إليه قريش من تحريم الجمع بين العمرة والحج في اشهر الحج وتأخير مقام إبراهيم عن البيت وغيره لتكريس امامتها الدينية التي دانت بها العرب وعملت بأحكامها، وكذلك تحرير كتاب الله وسيرة أنبيائه من تحريفات اليهود والمسيحيين. وحين نهض النبي صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى وقفت قريش ضده وحاربته وشوهت باعلامها الكاذب سيرته وهدف حركته، فأمره الله تعالى بالصلح ليفضحها ويهيء أجواء الأمان لتنتشر سيرة النبي صلى الله عليه وآله الصحيحة بين القبائل العربية التي شكلت جيش قريش في معركة الخندق تأثراً باعلامها وتأثر بها من شاء ان يهتدي، وهكذا كان الامر.

وكان علي عليه السلام صاحب مشروع رسالي يستهدف تحرير دين محمد صلى الله عليه وآله من ثقافة أهل الكتاب التي نشرها كعب الأحبار وتميم الداري مما يخالف تنزيه الله وتنزيه الأنبياء بامر قريش المسلمة ومن تحريمهم متعة الحج وارجاع مقام إبراهيم الى ما كان عليه في الجاهلية وامضاء التطليقات الثلاث بتطليقة واحدة وابتداع صلاة التراويح وغيرها من البدع التي ابتدعتها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لتكريس امامتها الدينية التي دان بها مسلمة الفتوح وغيرهم. ولما نهض علي عليه السلام بوصية من النبي صلى الله عليه وآله في الوقت المناسب (سنة ٢٧ هـ سنة استحكام الانشقاق بين قريش الحاكمة وضعف السلطة الحاكمة) توحدت بقيادة معاوية لحربه وشوهت باعلامها الكاذب سيرته وهدف نهضته، فأوصى النبي صلى الله عليه وآله ولده الحسن عليه السلام ـ وهو ولي الأمر بعد أبيه علي ـ بالصلح في شروطه

الموضوعية وهي ان يطلب معاوية ذلك، والنبي صلى الله عليه وآله يعلم بمستقبل الحوادث وتفاصيلها بعلم الله تعالى؛ لأنّه نبي، ليفضح معاوية ويهيء اجواء الامان لتنتشر اخبار علي عليه السلام في الشام التي تربى أهلها على لعن علي عليه السلام وحربه جهلاً منهم بسيرته وبأحاديث النبي صلى الله عليه وآله فيه، وهكذا كان الأمر وانفتحت الشام على اخبار إمامة علي عليه السلام كما انتفتحت القبائل العربية على ادلة نبوة محمد صلى الله عليه وآله.

وقد يقول قائل: ولكن أهل الشام لم تؤثر فيهم تلك الأخبار فيقفوا امام انقلاب معاوية بعد موت الحسن عليه السلام؟ نقول له: وكذلك القبائل لم يؤثر فيها حديث الغدير بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ولم تقف امام انقلاب قريش على علي عليه السلام.

وفي الآتي تفصيل ذلك:

مفردات خلفية صلح النبي صلى الله عليه وآله مع قريش:

١ـ انقلاب قريش بعد عبد المطلب وتحريفهم دين إبراهيم:

كان عبد المطلب زعيم قريش بلا منازع منزّهاً لله تعالى متقيداً بدين إبراهيم جاءته الزعامة الدينية والسياسية من قصي عن طريق ابويه هاشم وعبد مناف، ولا يختلف اثنان ان قصياً مؤسس التجمع القرشي حول مكة كان على دين إبراهيم وكان ينتظر النبي الموعود، وان هاشماً قد سنَّ لهذا التجمع رحلة الشتاء والصيف، وصارت مكة وقريش ذات مكانة دولية مرموقة، ولايختلف اثنان على ان قصياً كان اعلم قريش بدين إبراهيم ثم توارث العلم اوصياؤه من ابنائه عبدمناف ثم هاشم ثم عبد المطلب ثم ولده أبي طالب، والى جانب ذلك تميز عبد المطلب بحفر زمزم التي كانت مطمومة منذ الحرب بين خزاعة وجرهم، أي لأكثر من ثلاث قرون خلت، وقد أُخبر بمكانها في المنام ودعا بني عبد مناف

وبقية بطون قريش ان تساعده في حفرها فلم تستجب له واحدة منهم[١] فانفرد بمكرمة حفرها واحيائها لسقي الحجيج، وكذلك انفرد دون بطون قريش بمهمة الدفاع عن البيت ومواجهة جيش ابرهة هو وولده وولد عمه المطلب، ثم نصره الله على جيش ابرهة وكان يقول:

نحن (آل الله) فيما قد مضى لم يزل ذاك على عهد أبْرَهمْ
نعبدُ الله وفينا سُنَّةٌ صِلَةُ القربى وإيفاء الذّمم
لم تزل لله فينا حجةٌ يَدفعُ اللهُ بها عنّا النقَم[٢]

وهكذأ ادركت بطون قريش كلها ان زعيمها عبد المطلب قد اصطفاه الله عليهم، فهو الأولى بالبيت وبزمزم وبابراهيم وبدينه، ومن ثم هوالأوّل بالله، أي هو الاقرب الى الله تعالى، وصارت تسميه إبراهيم الثاني، وصار يلقب هو ولده بـ (آل الله)[٣]، وتعلمت منهم شريعة إبراهيم.

حسد بنو عبد شمس وبنو نوفل أولاد عمهم بني هاشم أن ينفردوا بهذا المجد دونهم، ثم انتشر الحسد الى بطون قريش الأخرى. وقد برز هذا الحسد

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٢: ١٠٥ــ ١٠٦، تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١: ٥٤٢.

(٣) جاء في الاستيعاب لابن عبد البر ٤: ١٤٩٠ في ترجمة نافع بن عبد الحارث بن حبالة بن عمير الخزاعي: استعمله عمر بن الخطاب على مكة وفيهم سادة قريش، فخرج نافع إلى عمر واستخلف مولاه عبد الرحمان بن أبزى، فقال له عمر: استخلفت على (آل الله) مولاك فعزله، وولّى خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي. وكان نافع بن عبد الحارث من كبار الصحابة وفضلائهم. والشاهد في الرواية هو ان عمر يسمي قريش (آل الله)، والحال ان هذا اللقب لعبد المطلب وذريته التي على منهجه.

أوّل ما بزر بشكل منافرة بين أميّة وعبد المطلب ثم تطوّرت أشكاله فيما بعد.

وأوصى عبد المطلب الى أبي طالب اعلم اولاده بدين ابراهيم عليه السلام.

ثم انقلبت قريش بعد وفاة عبد المطلب على بني هاشم، فادعت أنّ لقب (آل الله) يعم بطون قريش وليس بني عبد المطلب حسب، فقد دافع الله تعالى عن قريش؛ لأنهم سكان بيته[1]، وابتدعت قريش بدعة الحمس في دين إبراهيم وادخلت طقوس عبادة الأصنام مع طقوس عبادة الله لتكريس امامتها الدينية وصارت الإمامة الإبراهيمية وتعليم أحكام الحج في كل بيوتات قريش. وهكذا حوصرت إمامة وزعامة أبي طالب في دين إبراهيم.

وقد أشار أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة الى افتراء قريش في الدين:

اعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بسوء أو ملّح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة
ومن مفتر في الدين ما لم نحاول

وقوله: (مفتر في الدين ما لم نحاول)، أي مبتدع في دين إبراهيم ما لم نوافقهم عليه، ويشير قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿**هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ* وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ**

(١) وقد وضع بنو أميّة فيما بعد رواية تفيد ان عبد المطلب هو الذي اشار على قريش ان يهربوا الى الجبال في قصة الفيل خوفاً عليهم من معرة الجيش (انظر تاريخ الطبري ١: ٥٥٤).

﴿الْحَكِيمُ﴾[١] وقوله **﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾** أي في أهل مكة، وقوله **﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** أي عبادة الاصنام وبدعة الحمس، وقوله **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾** اين من أهل مكة، وقوله **﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** أي ما شاركوا قومهم في ضلالهم.

٢ ـ هدف البعثة النبوية لتحرير دين إبراهيم عليه السلام من بدع قريش:

وبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وآله مؤيداً بالبينات الإلهية بدين إبراهيم وأسس المجتمع الإسلامي على ولاية الله وولاية رسوله والإمامة الدينية والسياسية لعلي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين والتسعة من ذريته: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[٢]، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ﴾**[٣]، وهدم الإمامة الدينية لقريش والإمامة الدينية لأهل الكتاب ونسخ التوراة وما الحق بها واستبدلها بالقرآن مصدقاً بالذي بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾**[٤].

٣ ـ حروب قريش مع النبي صلى الله عليه وآله وإعلامها الكاذب:

حينما نهض النبي صلى الله عليه وآله ليبلغ مشروعه الرسالي وقف أبو طالب وبنو هاشم الى جانبه واستضعفت قريش المشركة بني هاشم ومن آمن به وقاطعتهم حتى يسلموا محمداً صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة الجمعة: الآيتان (٢ ـ ٣).

(٢) سورة المائدة: الآية (٥٥).

(٣) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٤) سورة المائدة: الآية (٤٨).

وأعلن أبو طالب نصرته للنبي وايمانه بمستقبل الدعوة الإسلامية في قصيدته اللامية المشهورة قائلاً:

فأبلغ قصيّاً أنْ سينشر أمرُنا
وبشّر قصيّاً بعدنا بالتخاذل
كذِبتم وبيتِ الله نبزى محمدا
ولما نطاعن دونه ونناضلِ[١]
ونسلمه حتى نصرَّع دونه
ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ومنها يفهم ان أبا طالب يعتبر ان رسالة محمد صلى الله عليه وآله قد جاءت لتحرير دين إبراهيم من بدع قريش وأسلافهم هذا الدين الذي انتهت مواريثه ومهمة الحفاظ عليه الى أبي طالب ولارجاع الإمامة الإبراهيمية المغتصبة الى أهلها الشرعيين.

ثم قيض الله تعالى أهل المدينة على النصرة وهاجر الى المدينة، وفرضت قريش المشركة على النبي صلى الله عليه وآله حربين ظالمتين، الأُولى في بدر وكان النصر المؤزر له فيها، الثانية في احد وقد خسر فيها بسبب معصية نفر من اصحابه لأمره حين تركوا مواقعهم طمعاً في الغنيمة.

طورت قريش في هذين الحربين اعلامها الكاذب الذي بدات به[٢] في

(١) نبزى محمداً: أي نسلبه ونغلب عليه (لسان العرب).

(٢) روى الشيخ الطبرسي في إعلام الورى: ٥٥، قال: «روى علي بن إبراهيم، قال: خرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرةِ رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم، فقال عتبة: بعُدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم ؟ ! قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي انه رسول اللّه، سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد ⇐

مواجهة دعوة النبي صلى الله عليه وآله عند حلفائها من القبائل، فاتهمته بتهمة انتهاك حرمة البيت الحرام والاعتداء على القوافل التجارية الآمنة لقريش وسفك الدم الحرام في الشهر الحرام(١). واستطاعت بقيادة أبي سفيان أن تحشد عشرة آلاف مقاتل

⇐

شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم ؟ قال: ابن عبد اللّه بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً. وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم أبناء «النضير» و«قريظة» و«قينقاع» انّ هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة... لنقتلنَّكم به يا معشر العرب، فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجْر، وانّهم لا يخرجون من شعْبهم إلا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تُكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بدّ لي أن أطوف بالبيت ؟ فقال: ضع في أُذنيك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أُذنيه من القطن، فطاف بالبيت ورسول اللّه صلى الله عليه وآله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة، فجازه. فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي، أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه ؟ ! حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثمّ أخذ القطن من أُذنيه ورمى به، وقال لرسول اللّه: أنعم صباحاً، فرفع رسول اللّه رأسه إليه وقال: «قد أبدلنا اللّه به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم» فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب إلى ماَ تدعو يا محمد ؟ قال: «إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وإنّي رسول اللّه، وأدعوكم: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾». فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وانّك رسول اللّه. يا رسول اللّه بأبي أنت وأُمّي! أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها اللّه بك، فلا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمم اللّه لنا أمرنا فيك، واللّه ـ يا رسول اللّه ـ لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشّروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارُنا دارَ هجرتك، وعندنا مقامك، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد للّه الذي ساقني إليك، واللّه ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا، وقد أتانا اللّه بأفضل ممّا أتيت له».

(١) جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ : ١٤٨ ـ ١٤٩: أنّ قبيلة قريش ارسلت أربعة نفر، وهم:
⇐

الأحزاب قصدوا المدينة لارعاب أهلها ليتخلوا عن محمد صلى الله عليه وآله، وصمد أهل المدينة وهزمت الأحزاب شر هزيمة، وجعلها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله آية وازدادت ثقة المسلمين به.

٤ ـ قريش تعمل على تحصين القبائل من التأثّر بمحمّد صلى الله عليه وآله بالحرب والإعلام الكاذب:

ليس للنبي ازاء هذا الاعلام القرشي الكاذب الذي شوه مشروعه عند القبائل لصيانتها من التاثر به والانفتاح عليه إلا أن يقوم بعمل غير الحرب به يؤدي الى كسر الطوق عنها وعنه وفضح قريش لديها بأنها هي المعتدية وأن محمداً صلى الله عليه وآله يعظم البيت ويطلب السلم وأنّه نبي قد بعث لاحياء دين إبراهيم وتحرير الحج من بدع قريش.

ولا يوجد إلا عمل واحد يحقق له ذلك، وهو المبادرة بالعمرة في اشهر الحج هو واصحابه والهدي معهم حيث تتوافد القبائل نحو مكة للحج وللأشهر الحرم دلالة لدى كل العرب هي المسالمة وامان الطرف الاخر من اعتداء المحرم عليه.

وللاحرام دلالة أخرى في ذلك، وللهدي الذي يسوقه المحرم دلالة أخرى، وهي ان هذا المحرم لا يحل من احرامه إلا عند البيت، والبيت تحيطه قريش، وهذا يعني ان المبادرة تفصح عن نفسها ان محمداً جاء مسالماً يطلب الصلح مع قريش.

⇐

عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعرى، وأبو عزة الجمحي، فساروا في العرب ليستنفروهم، فجمعوا جمعاً من ثقيف وكنانة وغيرهم.

وهذه المبادرة تحمل في طياتها فضح قريش عند حلفائها واظهار حقانية محمد صلى الله عليه وآله إذا رفضت قريش الصلح مع محمد وصدته عن البيت، واذا قبلت الصلح معه وسمحت له ان يقضي مناسكه عند البيت فهي مفضوحة أيضاً؛ لظهور كذبها فيه انه لا يعظم البيت.

٥ ـ صلح الحديبية والفتح المؤقّت بظهور كذب قريش وحقّانية محمّد صلى الله عليه وآله لدى حلفاء قريش وغيرهم:

روى الطبري عن ابن إسحاق قال: إنّ قريشاً بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وآله الحُلَيس ابن علقمة[1] وكان يومئذ سيد الأحابيش وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل، صد الهدي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله... والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظماً له، والذي نفس

---

(١) الحليس بن علقمة: (بعد ٦ هـ = بعد ٦٢٨م) الحليس بن علقمة الحارثي، من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة: سيد (الأحابيش) ورئيسهم يوم أحد، وكان مع مشركي قريش. قال الزبيدي: الأحابيش، بنو المصطلق من خزاعة، وبنو الهون بن خزيمة، اجتمعوا عند (جبل حبشي) بأسفل مكة، وحالفوا قريشاً، فسموا أحابيش، قريش باسم الجبل. وفي حديث الحديبية: (إن قريشاً جمعوا لك الأحابيش). وسماه ابن هشام في السيرة (حليس بن زبان) ثم قال: (الحليس بن علقمة أو ابن زبان) وكان أعرابياً. وهو الذي مر بأبي سفيان بعد وقعة أحد، فرآه يضرب شدق (حمزة بن عبد المطلب) بزج الرمح، ويقول: ذق عقق ! أي: يا عاق ! فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون ! فقال أبو سفيان: ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة. (الأعلام للزركلي).

الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد! قال: فقالوا له: مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[١].

ثم وافقت قريش على الصلح واشترطت متعسّفة أن يرجع محمد صلى الله عليه وآله تلك السنة، ووافق صلى الله عليه وآله على شروطها التعسفية، وعرفت القبائل من حلفاء قريش ومن غيرهم لما اختلطوا مع المسلمين انها كانت تكذب على محمد صلى الله عليه وآله وانه نبي حق ودعوته حق تدعو كل عاقل الى تصديقه[٢]. وازداد عدد المسلمين الى

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٧٦.

(٢) جاء في أسد الغابة ابن الأثير ٢: ٣٤٤ في ترجمة (سليط) بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب العامري أخو سهيل والسكران ابني عمرو قاله ابن منده وأبو نعيم، ورويا عن ابن إسحاق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة من بني عامر بن لؤي بن سليط ابن عمرو بن عبد شمس ومعه امرأته ولدت له ثم سليط، بن سليط وذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدراً ولم يذكره غيره فيهم، وهو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وآله إلى هوذة بن علي الحنفي والى ثمامة بن أثال الحنفي وهما رئيسا اليمامة وذلك سنة ست أو سبع من الهجرة.

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ٥ :٥٥٠ ـ ٥٥١: ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة ابن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة الحنفي كان مر به رسول الله صلى الله عليه وآله فأراد ثمامة قتله فمنعه عمه من ذلك فأهدر رسول الله صلى الله عليه وآله دم ثمامة.

وفي أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر (البلاذري) ١ : ٣٧٦ قال في ذكر سرية محمد بن مسلمة بن خالد بن مجدعة الأوسي، من الأنصار، في المحرم سنة ستّ (أقول: أي بعد الحديبية بشهرين) إلى القرطاء، من بني كلاب، بناحية ضرّية وبينها وبين المدينة سبع ليال. أتاهم، فغنم نعماً وشاء، وأخذ ثمامة بن أثال الحنفي.

وفي تاريخ المدينة لابن شبة النميري ٢ : ٤٣٧ ـ ٤٣٨: أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أخذوا ثمامة وهو طليق، وأخذوه وهو يريد أن يغزو بني قشير، فجاءوا به أسيراً إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو موثق، فأمر به فسجن، فحبسه ثلاثة أيام في السجن ثم أخرجه فقال: «يا ثمامة، إني فاعل بك إحدى ثلاث: إني قاتلك، أو تفدي نفسك، أو نعتقك»، قال: إن تقتلني تقتل سيّد قومه، وإن تفادي فلك ما شئت، وإن تعتق تعتق شاكراً. قال: «فإني قد أعتقتك»، قال: فأنا على أي دين شئت؟ قال: «نعم»، قال: فأتيت المرأة التي كنت موثقاً عندها فقلت: كيف الاسلام ؟ فأمرت لي بصحفة ماء فاغتسلت، ثم علمتني ما أقول، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

⇐

إضعاف الفتح المبين.

قريش المشركة وحلفاؤها ينقضون عهدهم مع النبيصلى الله عليه وآله:

نقضت قريش عهودها مع النبيصلى الله عليه وآله بعد سنتين حين نصرت بني نفاثة ورئيسهم نوفل بن معاوية احد بطون بني بكر من كنانة على خزاعة حليفة النبيصلى الله عليه وآله في حرب وقعت بينهما بسبب هجاء كناني للنبي امام رحل خزاعي وثارت حمية الخزاعي فكسر يد النفاثي الكناني، ووقع القتل في نساء خزاعة واطفالهم وضعفاء رجالهم حيث بيتوهم وهم امنون في الوتير موضع اسفل مكة وجاء عمرو بن سالم رأس خزاعة الى النبيصلى الله عليه وآله يستنصره قائلاً:

يا رب إني ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

⇐

وفي أسد الغابة لابن الأثير ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٨: ثم جاء إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله وهو جالس في المسجد فقال: يا محمد، لقد كنت وما وجه أبغض إلى من وجهك ولا دين أبغض إلى من دينك ولا بلد أبغض إلى من بلدك، ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إليّ من وجهك ولا دين أحب إليّ من دينك ولا بلد أحب إليّ من بلدك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وفي تاريخ المدينة: قال ثمامة: ثم قدمت مكة فقلت: يا أهل مكة، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ولا تأتيكم من اليمامة تمرة ولا برة أبداً أو تؤمنوا بالله ورسوله، فكتب المشركون من مكة إلى النبيصلى الله عليه وآله يسألونه بالله وبالرحم أن لا يحبس الطعام عن مكة حرم الله وأمنه، فقدمت على النبيصلى الله عليه وآله فقال: «يا ثمامة، لا يثأر المسلم بالكافر، ولكن ارجع إلى قومك فادعهم إلى الاسلام فمن أقر منهم بالإسلام، واتبعك فانطلق إلى بني قشير ولا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، فإن بايعوك حرمت عليك دماؤهم، وإن لم يبايعوك فقاتلهم». فدعا قومه فأسلموا معه، ثم غزا بني قشير فثأر بابنه.

إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيّتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

وتأثر النبي صلى الله عليه وآله لذلك جداً ودمعت عيناه، وبعث ضمرة ليخير قريشاً بين ثلاث: ان يدوا قتلى خزاعة، أو يبرأوا من بطن نفاثة الذي قام بالمجزرة، أو ينبذ اليهم على سواء، واختارت قريش الثالثة(١).

فتح مكّة لمشروع النبي صلى الله عليه وآله الى الأبد:

نهض النبي صلى الله عليه وآله بجيش قوامه عشرة آلاف مسلم ودخل مكة فاتحاً وحرر بيت إبراهيم من الأصنام ومن بدعة الحمس ليعلن فيها التوحيد والشهادة لمحمد بالرسالة أبد الدهر.

هدم بدعة قريش في الحجّ وإعلان إمامة أهل بيته وأوّلهم علي عليه السلام في الغدير:

وفي السنة العاشرة أعلن النبي صلى الله عليه وآله عن حجّة الوداع هدم فيها بدعة قريش بتحريم الجمع بين العمرة والحج في اشهر الحج، حيث شرع حج التمتع الذي يتألف من عمرة وحج بينهما حِل، ثم أعلن في رجوعه عند مفترق الطرق عند غدير خم وأمام مائة ألف بل يزيدون، أوصى بالتمسّك بإمامة أهل بيته الدينية

---

(١) انظر تفصيل القصة في الصحيح من سيرة النبي الأعظم للسيد جعفر مرتضى العاملي ٢١: ٢١ فما بعد.

وقرنهم بالكتاب، هذه الإمامة التي تنعكس عنها ولايته الحكمية (التنفيذية) لكل المسلمين.

روى الحاكم النيسابوري بسنده عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال:

«خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى انتهينا إلى غدير خم عند شجيرات خمس ودوحات عظام فكنس الناس ما تحت الشجيرات ثم استراح رسول الله صلى الله عليه وآله عشية فصلى ثم قام خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس، إني تارك فيكم أمرين[١] لن تضلوا ان اتبعتموهما، وهما: كتاب الله، وأهل بيتي عترتي ثم قال أتعلمون أني أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟!» ثلاث مرات، قالوا: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:«من كنت مولاه فعلي مولاه...»[٢].

وفي رواية الطبراني بعد قوله: عترتي: «وان اللطيف الخبير نَبَّأني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، وسألت ذلك لهما، فلا تَقدَّموهُما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنّهم اعلم منكم»[٣].

---

(١) في رواية مسلم وأحمد (ثقلين).

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٠، ٣: ٥٣٣ تاريخ دمشق ترجمة علي عليه السلام ٢: ٣٦ الحديث رقم ٥٣٤ . وقد رواه البلاذري أيضاً في الحديث رقم ٤٨ من ترجمة علي عليه السلام:١١٠ تحقيق المحمودي، وفيه قول النبي عليه السلام: «كأني قد دعيت فأجبت، وان الله مولاي وانا مولى كل مؤمن، وأنا تارك فيكم...». ورواه ابن كثير في البداية والنهاية٢: ٢٠٦ عن سنن النسائي، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم وعن عطية عن أبي سعيد الخدري، ورواه أيضاً ابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة:٢٣. كما ورواه أيضاً الهندي في كنز العمال ١٣: ١٠٤، الحديث رقم (٣٦٣٤٠) تصحيح الشيخ صفوة السقا.

(٣) المعجم الكبير ٥: ١٦٧ الحديث رقم٤٩٧١، وقال: في مجمع الزوائد ٩: ١٦٤: فيه حكيم بن جبير وهو ضعيف، قال ابن حجر في التقريب: ضعيف رمي بالتشيع.

تركيبة المجتمع الإسلامي في السنة العاشرة من الهجرة:

كان المجتمع الإسلامي الاسلامي في السنة العاشرة من الهجرة يحتوي على ثلاث فئات من المسلمين:

الأُولى: فئة العلماء الربانيين، وهؤلاء شعارهم التسليم المطلق والتقيد الحرفي لامر الله ورسوله، وهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعظيمهم علي عليه السلام.

الثانية: فئة محبي علي من الراسخين في العلم، أمثال مقداد وعمار وسلمان وأبي ذر ونظرائهم، وهؤلاء وطنوا انفسهم على حب أهل البيت واخذ معارف الدين عنهم.

الثالثة: فئة قريش المسلمة ومن اخذ بمنهجهم، ويحملون شعار: حسبنا كتاب الله والاجتهاد في قبال السنة. وهم الذين قُدِّرَ لهم ان يحكموا بعد النبي صلى الله عليه وآله مدة أربع وعشرين سنة، ويفتحوا البلاد، ويكوّنوا مجتمع مسلمة الفتوح على اجتهاداتهم. واغلب هؤلاء كانوا في جيش اسامة (وخالفوا النبي صلى الله عليه وآله في قوله: «جهّزوا جيش اُسامة» ولعنهم حين قال: «لعن الله من تخلّف عن جيش اُسامة»).

خلفية صلح الحسن عليه السلام مع معاوية

١ـ انقلاب قريش المسلمة:

كان النبي صلى الله عليه وآله على قمّة هرم المجتمع الإسلامي دينياً وسياسياً، وقد أيّده الله تعالى ببيّناته في حركته التبليغية والتأسيسية، وهذه حقيقة لا يختلف فيها إثنان.

وقد أعلن النبي صلى الله عليه وآله منذ بداية المشروع(١٠ق. هـ) لبني هاشم وبني المطلب فيما عرف بحديث الدار: إنّ وزيره ووصيّه وخليفته فيه هو علي عليه السلام، ثم أعلن للمسلمين جميعاً (١٠ هـ) الإمامة الدينية والسياسية فيما عرف بحديث الغدير في

غدير خم مفرق طرق الحاج من مكة الى المدينة أمام مائة ألف أو يزيدون، وهم معظم المسلمين الذين استنفرهم للحجّ معه. وقد امتلأت الفترة الزمنية بين حديث الدار وحديث الغدير ـ وهي مدة عشرين سنة ـ بأحاديث في هذه المناسبة أو تلك تؤكد ذلك بشكل وآخر، وقد اقترن ذلك بتربّي علي في حجر النبيصلى الله عليه وآله منذ ولادته في بيت أبيه يوم كان النبيصلى الله عليه وآله يعيش هناك بكفالة عمّه، ثم اصطحبه معه في بيته بعمر ستّ سنوات لمّا تزوّج واستقلّ عن عمّه، ثمّ صحبه في هذا العمر الى غار حراء يرفع له في كل يوم من أخلاقه علماً، وعندما كلّف الله نبيّه بالرسالة كان علي الى جنبه وقد سمع رنة الشيطان وسأل النبيصلى الله عليه وآله عنها فأجابه بأنّه الشيطان قد يئس من عبادته، واخبره انه منه بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعده، وكان علي في مكّة يكتب عن النبيصلى الله عليه وآله القرآن وبهامشه تفسيره، وفي المدينة كان بيته مع اُمّه فاطمة بنت أسد بجوار بيت النبيصلى الله عليه وآله مع ابنته فاطمة، وله مع النبيصلى الله عليه وآله لقاءان يومياً أحدهما بعد صلاة الفجر والآخر بعد المغرب يواصل فيه إملاءه في تفسير القرآن ويضيف إليه إملاءه في الأحكام والسيرة والملاحم. وقد عرف المسلمون جميعاً خبر هذه اللقاءت يوم عقد النبيصلى الله عليه وآله بعضها مع علي في أيام حصار الطائف، وعرفت يومذاك بالمناجاة. قال جابر: انتجى رسول اللهصلى الله عليه وآله علياً يوم الطائف فطالت مناجاتُه إيّاه. فقيل له: لقد طالت مناجاتك اليوم عليّاً ؟ فقال:«ما أنا ناجيتُه ولكنّ الله انتجاه»[1] أي الله تعالى أمرني ان انتجيه وليس هو عمل من تلقاء نفسي، والمعنى أمرني الله تعالى

---

(١) ابن الأثير في جامع الأصول ٩ : ٤٧٤، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح: ٥٦٤، وابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية ٧: ٣٥٦. والنجوى في الحديث: الاسرار به لفرد أو لجماعة.

أن انفرد بعلي واسرَّ إليه بالحديث أمامكم.

وقد كتب علي في هذه اللقاءات الصحيفة الجامعة التي كان طولها سبعين ذراعاً فيها كلّ شيء مما يحتاج إليه من الأحكام وصحفاً أخرى كتب فيها الملاحم والتفسير ثم صارت ميراثاً له وللأئمة من ولده عليه السلام.

وهذا اللصوق لعلي بالنبي صلى الله عليه وآله جعل سيرة علي عليه السلام مدمجة مع سيرة النبي صلى الله عليه وآله فلا يذكر النبي صلى الله عليه وآله إلا والى جانبه علي، كما هو حال سيرة موسى لا يذكر فيها موسى إلا والى جانبه هارون، وقد تواتر الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي».

وانقلبت قريش المسلمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله على علي عليه السلام وكادوا يقتلونه، نظير انقلاب امة موسى على هارون بعد طول غيبة موسى وكادوا يقتلونه. وادعت قريش المسلمة الإمامة الدينية واقصت علياً عليه السلام عن موقعه الذي عيّنه النبي صلى الله عليه وآله فيه بأمر الله، وابتدعت في دين محمد صلى الله عليه وآله، فحرمت متعة الحجّ، وأُخّرت مقام إبراهيم عن البيت الى المكان الذي كان عليه في الجاهلية؛ لتكرس إمامتها الدينية، وفسحت المجال لكعب الأحبار عالم يهود اليمن وتميم الداري راهب النصارى في الحجاز أن ينشرا أساطيرهم حول الخلق والأنبياء وغاب تنزيه التوحيد وتنزيه الأنبياء الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وفُتحت البلدان على ذلك وانتهى الأمر الى قيام حكم بني أميّة زمن عثمان على تكريس تلك السيرة فصاروا أئمة الدين وولاته.

حالة المسلمين الفكرية والدينية والسياسية زمن خلافة عثمان سنة ٢٦ هجرية:

أما الحالة السياسية فتعرف من شخصية رئيس الدولة وولاته على الأمصار:

كان رئيس الدولة عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس.

وكان سكرتيره الخاص مروان بن الحكم بن العاص بن أميّة بن عبد شمس (ابن عمّ عثمان).

وكان والي الشام الكبرى معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس (ابن عم عثمان).

وكان والي الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن بن عمرو بن أميّة بن عبدشمس، ثم خالد بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس والد عمرو بن سعيد الأشدق. (أولاد عمّه).

وكان والي البصرة: عامر بن ربيعة من حبيب بن عبد شمس، وهو ابن خال عثمان وحبيب بن عبد شمس هو اخو أميّة بن عبد شمس (فهو ابن عمّه).

وكان والي مصر عبد الله بن أبي سرح أخ عثمان من الرضاعة، وهو من بني عامر احدى بطون قريش.

وفي ضوء ذلك فان دولة عثمان هي الدولة الأموية الأُولى. وقد تذمرت منها بطون قريش حيث حرمت من امتيازات السلطة التي كانت لهم أيّام أبي بكر وعمر، وأخذوا يحثّون الناس على العمل للاطاحة بالخليفة عثمان.

أما الحالة الفكرية والدينية: فهي ما تبنته الدولة من اعتبار سيرة الشيخين جزءاً أساسياً من قانون الدولة، وتتمثل هذه السيرة بامور هي:

ـ المنع من نشر أحاديث النبي صلى الله عليه وآله في حق أهل بيته وأوّلهم علي عليه السلام، كحديث الثقلين وحديث الغدير وحديث المنزلة وغيرها.

ـ تحريم متعة حج التمتع، وقد جعلها الإسلام رخصة للحاج، وعقوبة المخالف.

ـ تحريم متعة النساء، وقد جعلها الإسلام علاجاً للزنى.

ـ اسناد الوعظ وبيان قصص الأنبياء الى كعب الأحبار ومصدره فيها التوراة المحرفة التي طُرحت في المجتمع بصفتها كتاب الله الأوّل، الأمر الذي افقد عقيدة التوحيد وسيرة الأنبياء التنزيه الذي جاء به القرآن فيها.

ـ إيجاد الطبقية في المجتمع، على مستوى العطاء الذي توزعه الدولة في قبال التسوية التي سنها النبي صلى الله عليه وآله بتفضيل أزواج النبي صلى الله عليه وآله على المسلمين ثم أهل بدر على غيرهم ثم أهل الحديبية على غيرهم، وفي الفروج في قبال كفاءة المؤمن للمؤمنة بمنع غير العربي من التزوج بالعربية.

ـ ارجاع مقام إبراهيم الى مكانه في الجاهلية.

ـ ارجاع لقب (آل الله) التي انتحلته قريش في الجاهلية إليها، ومعاقبة صحابي فاضل، لأنه عين مولاه عليها في غيابه[1].

إنّ المسلمين في الحجاز واليمن والجزيرة العربية من عمر ١٥سنة الى عمر ٣٠ سنة ومن غيرهم ممن دخل الاسلام من أهل العراق والبلاد الشرقية وأهل الشام وأفريقيا والبلاد الغربية لا يعرفون خلفاء للنبي وإمامة دينية تقودهم الى الله تعالى إلا الخلفاء من قريش، وقد انتهت الى بني أميّة، ولا يعرفون من الاسلام إلا سيرة الشيخين التي رفعها الحاكمون شعاراً الى جانب كتاب الله وصار دين الله الذي بعث به محمداً هو كتاب الله وسيرة الشيخين، بل سيرة الخليفة من قريش.

(١) جاء في تهذيب الكمال للمزي ٢٩: ٢٧٩ – ٢٨٠، وفي أسد الغابة لابن الأثير ٥: ٧ ـ ٨، عن الاستيعاب ٤: ١٤٩٠ في ترجمة نافع بن عبد الحارث الخزاعي، قال أبو عمر بن عبد البرّ: استعمله عمر بن الخطاب على مكة وفيهم سادة قريش، فخرج نافع إلى عمر، واستخلف مولاه عبد الرحمن ابن أبزى، فقال له عمر: استخلفت على آل الله مولاك؟ فعزله، وولى خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي. وكان نافع بن عبد الحارث من كبار الصحابة وفضلائهم. والشاهد هو أن عمر بعد أن شاهد كيف هدم النبي صلى الله عليه وآله مكانة قريش الدينية وبدعها في الحج نجده يسمّي قريشاً آل الله ويرجع بعض بدعها تكريساً لإمامتها الدينية.

أما عليعليه السلام وموقعه من النبيصلى الله عليه وآله وولايته التي أمر بها الله تعالى وولاية أهل بيته الذي قال عنهم النبيصلى الله عليه وآله: «إني تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»، فإنّهم جاهلون بها إلا إذا سمعها احدهم من أبي ذر أو او سلمان أو حذيفة سراً.

وهكذا فان بني أميّة قد كرّسوا جهل مسلمة الفتوح بسنّة النبي وإمامة أهل بيته وفتحت اعينهم على إمامة العمل بالرأي الممزوج برواسب الجاهلية وثقافة أهل الكتاب المحرفة قدمت اليهم باسم الإسلام وخلافة الرسول.

٢ ـ هدف نهضة عليعليه السلام إعادة التنزيه إلى التوحيد وسيرة الأنبياء وتحرير دين محمدصلى الله عليه وآله من بدع قريش المسلمة :

حذَّر النبيصلى الله عليه وآله أُمَّته من الفتن المقبلة عليهم بعد موته: «أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أوّلها آخرها»، وأخبرهم انّه أدخرصلى الله عليه وآله أهل بيته وعليٌّ أوّلهم لانقاذهم منها وارجاعهم الى المحجّة التي تركهم عليها: «يا علي، أنت الهادي بك يهتدي المؤمنون بعدي»[(١)]، «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»[(٢)]، فما هو مشروع عليعليه السلام لإحياء سنّة النبيصلى الله عليه وآله وإنقاذ الأُمّة من ضلالة

(١) قال ابن القيم في زاد المسير ٤: ٢٢٨: وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، وضع رسول اللهصلى الله عليه وآله يده على صدره، فقال: «أنا المنذر»، وأومأ بيده إلى منكب علي، فقال: «أنت الهادي، يا علي بك يهتدي من بعدي». قال المصنف: وهذا من موضوعات الرافضة. أقول: قال ابن حجر في فتح الباري ٨: ٢٨٥: أخرج الطبري ١٣: ١٤٢ بإسناد حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية وضع رسول اللهصلى الله عليه وآله يده على صدره وقال: «أنا المنذر» وأومأ إلى علي وقال: «أنت الهادي بك يهتدي المهتدون بعدي».

(٢) إحقاق الحق ٥ : ٦٣٣، إثبات الهداة ٢: ١١٢ و٢٠٩، تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢١، أخرجه عن أُمّ سلمة، ⇐

بني أميّة ايام عثمان ؟

كان علي عليه السلام يترقب الفرصة السانحة لنهضته، ولم تكن هناك فرصة افضل من فرصة انشقاق بطون من قريش على الحكم الأُموي الأوّل، عثمان وولاته من بني أُميّة، اذ رأت هذه البطون أنّها حرمت من امتيازات السلطة وصارت حكراً على بني أميّة، فأخذت تبدي تذمرها من عثمان وتحرِّش عليه أهل الأمصار مستغلة أخطاء[1] ولاته من شباب بني أميّة وتاريخهم السيء مع النبي صلى الله عليه وآله، واستحكم انشقاق قريش على عثمان سنة ٢٧ هـ حين كان آخر من سجلتهم المصادر التاريخية من المتمذمرين والمنشقّين على عثمان هو عبد الرحمان بن عوف، وكان أوّل من شد الملك لعثمان في الشورى السداسية.

وقرر علي عليه السلام في موسم حج سنة ٢٧ هـ أن يعلن عن إحيائه لحجّ التمتّع بصفته أفضل مدخل لتعريف مسلمة الفتوح وصغار الصحابة الذين لم يسمعوا من النبي صلى الله عليه وآله بمخالفة الحكم الأموي لسنّة النبي صلى الله عليه وآله. ثم يتحرك أصحابه في موسم الحج لنشر حديث النبي صلى الله عليه وآله في أهل بيته عليهم السلام كحديث الثقلين وحديث

⇐

وأخرجه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد٧: ٢٣٦ وقال: رواه البزار وفيه سعد بن شعيب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح. قال العلامة الأميني رحمه الله في الغدير ٣: ١٧٧: الرجل الذي لم يعرفه الهيثمي هو سعيد بن شعيب الحضرمي قد خفي عليه لمكان التصحيف، ترجمه غير واحد بما قال شمس الدين إبراهيم الجوزجاني: إنّه كان شيخاً صالحاً صدوقاً. كما في خلاصة الكمال: ٣١٨، وتهذيب التهذيب ٤ : ٤٨. أقول: وأخرج الحاكم في مستدركه ٣: ١٢٤ عن أُمّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله بلفظ: «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض». قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. وأورده الذهبي في تلخيصه مصرّحاً بصحته.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٩ :٤٢٦ قال عمرو بن العاص لما قتل عثمان وكان في فلسطين: قد علمت العرب أنّي إذا حككت قرحة أدميتها. أيضاً تاريخ الطبري ٣: ٢٩٢، أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٢٨٣ و٥: ٥٦٥.

الغدير وغيرهما.

وهكذا كان الأمر وانطلق أبو ذر والمقداد وآخرون من أصحاب النبيصلى الله عليه وآله آزروا علياًعليه السلام في نهضته يحدّثون باحاديث النبيصلى الله عليه وآله فيه وفي أهل بيتهعليهم السلام، واضطهدتهم السلطة نفياً وسجناً.

وفوجئ المتذمّرون من قريش بنهضة عليعليه السلام، ولكنهم آثروا السكوت لأنّهم مشغولون بالتحريش ضد عثمان، ثم استطاع الثائرون من قريش أن يقتلوا ابن عفّان بعد حصاره، ولكن الجماهير المسلمة بدلاً من أن تبايع أحد أبرز قادة الثورة على عثمان ـ وهما طلحة أو الزبير ـ هرعت الى بيت عليعليه السلام تطلب منه أن تبايعه، ورفض عليعليه السلام في بادئ الأمر ثم استجاب لهم في المسجد وبويع في اروع مشهد يصفه: قالعليه السلام:«وبسطتم يدي فكففتُها، ومددتموها فقبضتُها، ثم تداككتم علي تداكَّ الإبل الهِيم على حياضها يوم وِردِها، حتى انقطعت النعلُ، وسقط الرداء، ووُطِئَ الضعيف...».

ثم قال في كلام آخر:«وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إيايَ أن ابتهجَ بها الصغيرُ، وهدَج إليها الكبير، وتحاملَ نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب»[١].

إنّه سرور كسرور دخول النبيصلى الله عليه وآله الى المدينة.

وانطلق عليعليه السلام يواصل مشروعه الإحيائي لسنّة النبيصلى الله عليه وآله، وقد آزره ثلة من الأنصار والمهاجرين من أصحاب النبيصلى الله عليه وآله والتابعين عبر الاجراءات التالية:

(١) التداك الازدحام الشديد. والإبل الهيم: العطاش. وهدج إليها الكبير: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً، والمضارع يهدج بالكسر، وتحامل نحوها العليل تكلّف المشى على مشقة. وحسرت إليها الكعاب: كشفت عن وجهها حرصاً على حضور البيعة، والكعاب: الجارية التى قد نهد ثديها. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٣).

١-الغى الطبقية في العطاء، والتفضيل في المناكحات، وارجعهما الى ماكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢-الغى سيرة الشيخين كقانون تحكم به الدولة وحوّلها الى مذهب، بعد بيان بطلانه، وترك الخيار للمجتمع ان يعمل بها مع وضوح بطلانها أو يتركها.

٣-منع من تداول القصص الإسرائيلي المشوّهة لسيرة الأنبياء وتسيء الى تنزيههم[1] وتنزيه التوحيد.

٤ -رفد المجتمع بخطب أُحيت تنزيه الله تعالى وأنبيائه كما أحيا مواعظ الله ورسوله في قبال كعب الأحبار وأحاديثه في التجسيم وتشويه سيرة الأنبياء وخرافية مواعظه.

٥ -شجع المسلمين على نشر حديث النبي صلى الله عليه وآله.

٦ -شجع الناس على السؤال عن تفسير القرآن.

٧ -شجع المسلمين على تدوين العلم.

وفي ضوء ذلك: صار المسلمون في النصف الشرقي من البلاد الإسلامية ومركزهم الكوفة سواء من مسلمة الفتوح أو من غيرهم على فئتين في الفكر والتعبد: فئة تتعبد بسيرة الشيخين في صلاتها وحجها وصلاة التراويح على الرغم

---

(١) جاء في مجمع البيان ٤: ٤٧٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩٦، تفسير نور الثقلين ٤: ٤٤٦، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا أُوتي برجل يزعم أن داود تزوّج امرأة أُوريا إلا جلدته حدّين: حدّاً للنبوة وحدّاً للإسلام». وفي تفسير التبيان ٨: ٥٥٥ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا أُوتي برجل يقول: إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدّين: أحدهما للقذف، والآخر لأجل النبوّة». وفي تفسير الرازي ٢٦: ١٩٢ عن سعيد بن المسيب: أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «من حدثكم بحديث داود على ما يريه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء».

من معرفتها ان صلاة التراويح وغيرها كانت رأياً واجتهاداً للخليفة القرشي وليست سنة من النبي صلى الله عليه وآله. وفئة تتعبد بسنة النبي صلى الله عليه وآله في صلاتها وحجها يقودهم قدوتهم وقيادتهم علي عليه السلام وأهل بيته، وهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

وقوف قريش بقيادة معاوية أمام نهضة علي عليه السلام:

رأى معاوية في مشروع علي عليه السلام لو استمر إنهاء لدولة بني أميّة بل الاستئصال لمشروعيتها وتأسيس دولة بني هاشم وآل محمد صلى الله عليه وآله وتعميق مشروعيتها.

ومن هنا خطط للوقوف امام مشروع علي عليه السلام ووأده واعادة دولة بني أميّة الأُولى التي مهّد لها وأسّس مضمونها الفكري الخليفتان أبو بكر وعمر. وليس له إلا ان يدوس على جراحه فيغض الطرف عن قَتَلَة عثمان من قريش ويجمع بطونها على موقف موحد لمواجهة علي عليه السلام على ثلاث مراحل:

الأُولى: اقناع طلحة والزبير على نكث البيعة والذهاب الى البصرة ثم الى الكوفة واقتطاعهما عن علي عليه السلام، وبذلك يضمن قطع الموارد العسكرية والمالية العراقية عن علي عليه السلام.

الثانية: قطع الطريق على علي عليه السلام أن يعين والياً جديداً على الشام من خلال إعلان شعار الطلب بدم عثمان قبل بيعة علي عليه السلام، وبذلك تقطع الموارد العسكرية والمالية الشامية عن علي عليه السلام.

الثالثة: الحركة من العراق والشام الى المدينة لقتال علي عليه السلام فيها، ولن يصمد جيش المدينة طويلاً أمام أهل العراق والشام، وليس لعلي عليه السلام آنذاك إلا القتل أو الاستسلام، ولا يترقب منه أن يستسلم فيقتل ولن يقتل حتى يقتل ولده وأهل بيته وكل بني هاشم، وهو المطلوب.

اقتنعت وجوه قريش المسلمة بالخطة، واقدم طلحة والزبير وعائشة على تنفيذ المرحلة الأُولى واستلما البصرة بعد ان غدرا بعثمان بن حنيف والي علي عليه السلام عليها.

موقف علي عليه السلام من خطّة قريش:

أدرك علي عليه السلام خطّة قريش واعلن عنها في كلامه لأخيه عقيل: «دع عنك قريشاً وتَرْكاضَهم في الضلال، وتَجوالهم في الشقاق، وجِماحَهم في التِّيْه ؛ فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبلي»[1].

وكان موقفه من خطة قريش هو الخروج من المدينة ودعوة أهل الكوفة الى نصرته واسترداد البصرة من قريش ثم اتّخاذ الكوفة مركزاً لمواجهة معاوية في الشام، وهكذا كان الأمر واستجابت الكوفة لعلي عليه السلام وارتبطت مصيرياً بنصرة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله كما ارتبط أهل الشام مصيرياً بنصرة بني أميّة .

خرج أكثر من عشرة الآف من أهل الكوفة مع علي واسترد البصرة من عائشة وطلحة والزبير بساعات في أوّل معركة بين المسلمين أنفسهم، طرف تقوده قريش المسلمة وطرف يقوده علي عليه السلام، وكان نصراً مؤزراً كما كانت بدر نصراً مؤزراً للنبي صلى الله عليه وآله .

ورجع علي عليه السلام الى الكوفة واتّخذها مقراً لمشروعه ودولته، وانطلق منها الى الشام ليستردها من معاوية، وكادت المعركة في صفّين ـ وهي أعظم معركة في تاريخ الإسلام ـ أن تحسم الامور لصالح علي عليه السلام لولا اعلان نصف جيش علي تجاوبهم مع الشعار الذي اعلنه معاوية بالاحتكام الى القرآن، وكان هذا النصف

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٣٦.

لم يستجب لمشروع علي ولم يقاتل معه على اساس العقيدة بامامته المنصوصة ولا البصيرة بمعاوية ومكره ودهائه.

بخلاف النصف الاخر الذي كان يقوده مالك الاشتر ونظراؤه ممن كانوا على بصيرة بخطة معاوية ومن المؤمنين بعلي وصياً للنبي، فقد كان مالك يخطب في اصحابه ويقول:«إن هؤلاء القوم والله لن يقارعوكم إلا عن دينكم؛ ليطفئوا السنة، ويحيوا البدعة، ويدخلوكم في أمر قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة»[١].

واسترد معاوية بشعار (الاحتكام الى القرآن)[٢] انفاسه وحافظ على وجوده ورجع الى الشام وقد قوي أمله بتأسيس الدولة الأموية الثانية امتداداً للدولة الأموية الأُولى وأُطروحتها الفكرية، واستطاع ان ينطلق من أمرين: **الأوّل**: جهل أهل الشام بموقع علي عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله وتاريخ معاوية وأبيه في بدر واحد والخندق ضد النبي صلى الله عليه وآله. **الثاني**: ثقتهم التفصيلية بمعاوية بصفته ولياً عليهم وممثلاً للخلافة القرشية مدة ثلاثين سنة، ومن ثم أسّس إعلاماً كاذباً في حق علي عليه السلام اعطى خطوطه للقصاصين الذين اصطحبهم معه يقصون بعد كل صلاة،

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري:٢٥١، وقوله رضي الله عنه: «ويدخلوكم في أمر قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة» هذا الأمر هو اعتقادهم امامة علي بالنص. فهو يحتاج الى حسن بصيرة من الانسان ليفارق العقيدة بامامة قريش ويعتقد بامامة علي عليه السلام. ومن ليس له حسن بصيرة يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ منْ آيَة في السَّماوات وَالأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ (سورة يوسف: الآية ١٠٥)، وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام بمناسبة الغدير وغيره آيات إلهية؛ لأنه لا ينطق عن الهوى.

(٢) لم يكن ليؤثر هذا الشعار في جيش علي واغلبهم من مسلمة الفتوح لولا التربية التي نشأوا عليها زمن الخلافة مدة ربع قرن تقريباً، وقد حمل الخوارج فيما بعد هذا الشعار: (لا حكم إلا لله).

تمثل هذا الاعلام الكاذب بالقاء التبعة في قتل عثمان على علي وأصحابه، وهو الذي اعلنه قادة قريش في الجمل، وان علياً يقاتل من أجل الملك الذي كان يطمع به بعد وفاة النبيصلى الله عليه وآله ولم يوله المسلمون اياه وانتهاء بوصفه ملحداً في الدين وكونه نهض لتغيير سنن الخليفة عمر في الصلاة والحج، وفي ضوء ذلك فانه يجب البراءة منه والعمل على قتله وارجاع الأمور الى ما كانت عليه زمن الخليفة عمر وبين ايديهم قيادة وثق بها عمر خليفته عثمان ثلاثين سنة.

٣ ـ حروب قريش مع عليعليه السلام وإعلامها الكاذب:

وكما أن قريشاً المشركة بقيادة أبي سفيان فرضت على النبيصلى الله عليه وآله حربين ظالمتين[١] هما بدر وأُحد، كذلك فرضت قريش المسلمة بتخطيط بني أميّة حربين ظالمتين على عليعليه السلام:

كانت الحرب الأُولى ضد عليعليه السلام في البصرة بقيادة طلحة والزبير وعائشة وكان النصر المؤزّر فيها لعليعليه السلام، وكان حجر بن عدي يقول في هذه الحرب:

يـــــا ربّنا سلّم لنا علياً
سلّم لنا المهذّب التقيا
المؤمن المسترشد الرضيا
واجعله هادي أمة مهدياً
احفظه ربّ حفظك النبيا

(١) اعتدى أهل الجمل على والى علي على البصرة عثمان بن حنيف وغدروا به واحتلوا البصرة، فلم يكن امام علي إلا ان يدعوهم الى التراجع والتحاكم الى القرآن، فلم يتراجعوا فقاتلهم واسترد البصرة منهم. وهكذا في صفين فان معاوية تمرّد على علي واقتطع الشام منه ولم يسلمها لمن ولاه علي عليها، فما كان امامه إلا مقاتلته.

لا خطل الرأي ولا غبياً

فإنه كـــان لنا وليـــــاً

ثـــمّ ارتضاه بعده وصياً"(١)

وكانت الحرب الثانية ضد عليعليه السلام في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان وقد خسر عليعليه السلام فيها النصر بسبب مخالفة قسم من جيشه لامره في استمرار القتال حين رفع معاوية المصاحف وطلب توقف القتال.

٤ ـ معاوية يحصّن أهل الشام من التأثّر بعليعليه السلام بالحرب والإعلام الكاذب :

أفرزت الحربان إعلاماً أموياً طوّق علياًعليه السلام بتهمة طلب الملك من وراء تلك الحربين وانه آوى قتلة عثمان واستعان بهم وانه افسد في الدين وانه لا يصلي وغير ذلك من الشبهات التي كان قصاصوه يقصونها على الناس بعد الصلاة. واستطاع بذلك ان يحصن أهل الشام من التأثّر بمشروع عليعليه السلام.

كما استطاع معاوية بن أبي سفيان ان يحول جيش الشام الى سرايا تغير على أطراف علي لتنهب وتقتل شيعة علي ليتخلوا عنه كما استطاع ان يقتطع مصر عن عليعليه السلام، وصمد أهل العراق مع عليعليه السلام. واقترن ذلك، ولايبعد انه كان ذلك بدفع منه من خلال بعض رؤوس النفاق كالأشعث بن قيس، بحركة الخوارج من داخل الكوفة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٢٢٨، ط دار مكتبة الحياة سنة ١٩٦٤م.

كيانان فكريان وسياسيان في الأُمّة الإسلامية سنة ٣٩ هجرية:

انقسمت الأُمّة الإسلامية سنة ٣٩ هجرية الى كيانين فكريين وسياسيين:

الأوّل: يمثل مشروع النبوة ما عدى أن شخص محمد صلى الله عليه وآله غير موجود وإنّما بديله شخص آخر هو كنفسه، وهو علي عليه السلام، وهو وصيه.

مركز هذا المشروع العراق ـ الكوفة، ويدين بهذا المشروع اغلب سكان النصف الشرقي من مسلمة الفتوح والأنصار مع خمسة أفراد من قريش فقط[(١)]. شعاره العمل بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وآله، ودعوة النصف الغربي للعودة إليها.

---

(١) روى الكشي عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله يقول:« كان مع أمير المؤمنين خمسة نفر من قريش، وكانت ثلاثة عشر قبيلة مع معاوية. فأما الخمسة فمحمد بن أبي بكر (رحمة الله عليه) أتته النجابة من قبل أمه أسماء بنت عميس، وكان معه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال. وكان معه جعدة بن هبيرة المخزومي، وكان أمير المؤمنين عليه السلام خاله، وهو الذي قال له عتبة بن أبي سفيان: انما لك هذه الشدة في الحرب من قبل خالك، فقال له جعدة: لو كان خالك مثل خالي لنسيت أباك، ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والخامس سلف أمير المؤمنين ابن أبي العاص بن ربيعة، وهو صهر النبي صلى الله عليه وآله أبو الربيع» (اختيار معرفة الرجال الكشي: ٦٠ ط النجف).

أقول: جاء في كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٤٦٩: عن أبي جحيفة قال عتبة لجعدة: يا جعدة، إنه والله ما أخرجك علينا إلا حب خالك وعمك ابن أبي سلمة عامل البحرين، وإنا والله ما نزعم أن معاوية أحق بالخلافة من على لولا أمره في عثمان، ولكن معاوية أحق بالشام لرضا أهلها به، فاعفوا لنا عنها، فوالله ما بالشام رجل به طرق إلا وهو أجدّ من معاوية في القتال، ولا بالعراق من له مثل جد علي [في الحرب]. وما أقبح بعلي أن يكون في قلوب المسلمين أولى الناس بالناس، حتى إذا أصاب سلطاناً أفنى العرب. فقال جعدة: أما حبي لخالي فوالله أن لو كان لك خال مثله لنسيت أباك، وأما فضل علي على معاوية فهذا ما لا يختلف فيه [اثنان]، وأما رضاكم اليوم بالشام فقد رضيتم بها أمس [فلم نقبل]، وأما قولك: إنه ليس بالشام من رجل إلا وهو أجدُّ من معاوية، وليس بالعراق لرجل مثل جدِّ عليّ، فهكذا ينبغي أن يكون، مضى بعلي يقينُه، وقصر بمعاوية شكُّه، وقصد أهل الحق خير من جَهد أهل الباطل. وأما قتل العرب فإن الله كتب [القتل و] القتال، فمن قتله الحق فإلى الله (وفي فتوح ابن أعثم ٣: ١٠٨ فمن قتله الحق فإلى الله والجنة، ومن قتله الباطل فإلى النار). فغضب عتبة وفحش على جعدة، فلم يجبه وأعرض عنه وانصرفا جميعاً مغضبين.

يقود هذا المشروع أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، أوّلهم وعظيمهم علي عليه السلام ومعه ولداه الحسن والحسين عليهما السلام.

الثاني: يمثل مشروع قريش المسلمة التي حكمت أربعاً وعشرين سنة وانتجت مضموناً فكرياً وتشريعياً خليطاً من الإسلام ورواسب الجاهلية والإسرائيليات في قصص الخلق والأنبياء، شكلاً مضموناً مدرسة قريش المسلمة الحاكمة.

رأس المشروع ووريثه هو معاوية، ومركزه الشام، ويتديّن بهذا المشروع أغلب سكان النصف الغربي من مسلمة الفتوح وقبائل قريش كلّها إلا خمسة نفر. شعاره العمل بسيرة الشيخين المؤسّسين وقتال علي وشيعته بتهمة دم عثمان، وهو بريء منه براءة الذئب من دم يوسف.

شهادة علي عليه السلام، وبيعة أهل العراق الحسن عليه السلام، وبيعة أهل الشام معاوية:

استشهد أمير المؤمنين عليه السلام وهي يعبّأ جيشه لمحاربة معاوية.

وبايع العراقيون الحسن عليه السلام حاكماً وهو قبل ذلك رأس في مشروع أبيه ووصيه عليه إماماً هادياً بنص من جده النبي صلى الله عليه وآله.

وبايع أهل الشام معاوية حاكماً وهو من الرؤوس في مشروع قريش المسلمة وقد عُني به الخليفة الثاني عناية خاصة وكان يحاسب عماله إلا معاوية، فإنه كان يقول فيه: (هذا كسرى العرب)، فكان زعيماً في الشام عشرين عاماً منذ وفاة اخيه يزيد بن أبي سفيان في الشام، فعينه عمر مكانه ثم ضم إليه الخليفة الثالث بقية بلاد الشام. ومن هنا فان جيلين من الشاميين فتحا أعينهم على امارة معاوية التي أسسها عمر وعثمان بصفته ممثلاً للإسلام الأمر الذي جعلهم يثقون بتقديره

للأُمور ويقبلون منه وقوفه ضد علي عليه السلام، ساعده على ذلك جهلهم بموقع علي في الإسلام.

معاوية يبادر بطلب الصلح مع الحسن عليه السلام وأهدافه منه:

كان معاوية يطمح الى أن يستقل بملك الشام، وقد نجح وانتهى نجاحه باقدام أهل الشام على بيعته حاكماً على نهج سلفه عثمان، وبيده ورقة ضغط على الحسن عليه السلام، وهي الغارات التي كان يشنها على أطراف الكوفة، وفي الوقت نفسه يتخوف من خطرين قائمين يحيطان به: **الأوّل:** حلقات الخوارج الإرهابية من الداخل، **الثاني:** جيش الروم من الخارج الذي يتحيّن فرصة الهجوم على الشام لاستردادها، ومن هنا بادر بطلب الصلح من الإمام الحسن؛ ليحقق أحد أمرين:

ربح المعركة الإعلامية عند عدم موافقة الحسن على الصلح، فإن الحسن سيكون ملوماً؛ لمخالفته الآية الكريمة: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**﴾ عند قسم من جيشه فضلاً عن المنافقين في الكوفة فضلاً عن تأكيد العقيدة عند أهل الشام أن معاوية يرغب في الصلح وأن الطرف الآخر هو طالب الحرب.

وتحقيق عدة مكاسب عند استجابة الحسن للطلب، منها:

- راحة جيشه المتعب.
- ملاحقة الحلقات الإرهابية الوافدة عليه من العراق.
- دفع خطر الروم بالمصالحة أيضاً.
- وأخيراً رد الكرة على العراق بعد ذلك لتصفية الحساب مع مشروع علي وحملته.

المفاجأة الكبرى في جواب الحسن عليه السلام على مبادرة معاوية:

من الضروري جدّاً أن نتعرف على طريقة تفكير الحسن عليه السلام بقضية الصلح التي عرضها معاوية، فما هي الاصول التي يستحضرها الحسن في فكره بل ويستحضرها أيضاً أي رجل مخلص من رجالات جيشه وهم كثر؟

الحسن بعبارة موجزة هو احد منظومة الإمامة الهادية بعد النبي صلى الله عليه وآله، مهمتها المحافظة على الشريعة وهداية الناس: ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ* أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ**﴾ (سورة الأنعام: الآيتان ٨٩-٩٠)، وقد نهض أبوه علي عليه السلام بمشروع الهداية بعد النبي صلى الله عليه وآله واسسه في قبال قريش المسلمة التي أضلّت الأُمّة وكفرت بالتأويل، كما كفرت قريش المشركة بالتنزيل. وهو الآن على رأس هذا المشروع، إنّ مهمة الإمام الحسن الأساسية هي كيف يوصل مشروع أبيه الى النصف الثاني من الأُمّة التي لم تقف عند حالة كونها جاهلة بعلي وهو الهادي بعد النبي صلى الله عليه وآله بل تعتقد به في ضوء أعلام معاوية أنّه مفسد في الدين تجب البراءة منه، ولم تقف عند العقيدة فقط بل تحوّلت الى جيش يهمه قتل من هو على دين علي بل مَن يتصل بعلي بنسب، ألم يقتل بِسرٌ طفلين لعبيد الله بن عباس؟!

يفكر الحسن عليه السلام كيف يفتح قلوب أهل الشام على الحقيقة ليعرفوا معاوية على حقيقته مفسداً في الدين ويعرفوا علياً عليه السلام هادياً الى دين الله بأمر الله ورسوله، وكانت أهم عقبتين بل عقدتين أمام انطلاقة المشروع هما:

العقبة الأُولى: انشقاق الشام: هذا الانشقاق الذي استحكم ببيعة الشاميين لمعاوية على الحكم على ما بويع عليه عثمان، على كتاب الله وسنّة

النبي صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين.

وهذه العقبة خلقت عدة مشكلات بعضها فعلي والآخر تحت الرماد:

الأولى: مشكلة فقدان الأمان في الطرق الخارجية بين ولايات الدولة الإسلامية، حيث انعدمت بفعل غارات جيش معاوية على الأطراف الآمنة التابعة لعلي عليه السلام. وهذه مشكلة فعلية قائمة.

الثانية: مشكلة ثقافة العداء لعلي عليه السلام عند أهل الشام، فهم يعتقدون أن علياً عليه السلام مشترك في قتل عثمان مفسد في الدين مخالف لسيرة الشيخين، يستحق أن يُلعن ويُتبرأ منه ومن شيعته بل يستحقون أن يُستأصَلوا جميعاً، وهذه المشكلة فعلية أيضاً.

الثالثة: مشكلة تهديد الروم البيزنطيين على الجبهة الشمالية الشرقية للشام، وهذه المشكلة فعلية أيضاً.

الرابعة: مشكلة تحت الرماد تتمثل باحتمال أن يتبنى المنشقُّون الامويون إحياء القبلة المنسوخة وهي بيت المقدس لتجريد الحسن عليه السلام من سلاح الكعبة، القبلة العامة لكل المسلمين، ولإحكام عُزلة أهل الشام عن العراقيين حتى لا ينفتحوا على الحقائق التي قد تغيِّر من ولائهم لمعاوية. وقد حصل مثل هذا في عهد بني إسرائيل في الشام وتعدّدت القبلة والكتاب الإلهي عندهم وبقيت امتدادات القبلتين والكتابين إلى زمن معاوية وإلى اليوم، وقد نفَّذ عبد الملك بن مروان جزءاً من هذا المخطط في زمانه لما كان خصمه عبد الله بن الزبير مسيطراً على مكة حين منع أهل الشام من الحجّ مدة حكم عبد الله بن الزبير لكي لا يتأثّروا بالأحاديث النبوية ضد بني أميّة وبني مروان التي تبنى دعاة عبد الله بن الزبير أشاعتها بين الشاميين في أوّل حجة لهم في عهده.

العقبة الثانية: الخوارج: حمل الخوارج شعار التكفير لعلي عليه السلام ومعاوية

وتحوّلوا بعد معركة النهروان الى خلايا اغتيال ومجموعات تغير على الأبرياء وتقتلهم؛ لأنهم يسالمون السلطة، وقد تسبّبت هذه النشاطات أن تفتقد الأُمّة وبخاصة البلاد الشرقية الأمان داخلياً. وهي وإن كانت مشكلة مشتركة بين الشام والعراق، ولكنها في الكوفة أكثر خطورة؛ لأنها مركز الخوارج.

وأمامَ وضع معقد كهذا لا يصبح خيار الحرب في صالح مشروع علي عليه السلام؛ إذ هو بحاجة الى انفتاح القلوب عليه باختيارها، والحرب ليست أداة صالحة لذلك وبحاجة الى أجواء آمنة أيضاً.

ثم إن الصلح المحدود وإيقاف القتال بالطريقة التي اقترحها معاوية بأن يبقى العراق وما والاه للحسن عليه السلام والشام وما والاه لمعاوية كما هي طبيعة الأشياء وطبيعة طريقة تفكير معاوية تكرس الانشقاق والثقافة العدائية لعلي عليه السلام ومن ثم بقاء الطريق مسدوداً أمام انفتاح أهل الشام على مشروع علي عليه السلام مضافاً إلى ما ينطوي عليه من خطر محتمل أشرنا إليه آنفاً.

خصائص أطروحة الصلح المطلوبة:

إنّ أطروحة الصلح التي يحتاجها مشروع علي عليه السلام لينطلق في الشام لا بد لها من أن تكون أطروحة تمتلك أن تحقق ما يلي:

١ ـ تعالج الانشقاق وما ينطوي عليه من مخاطر فكرية وسياسية.

٢ ـ تحفظ لأهل العراق وأهل الشام اختيارهم وبيعتهم.

٣ ـ تعرِّف الشاميين أنَّهم كانوا ضحية إعلام قرشي أموي كاذب.

٤ ـ تفرض على معاوية أن يتعامل ـ ولو ظاهرياً ـ ولمدة محدودة بإيجابية مع ذكر علي عليه السلام بخير.

٥ ـ تضمن اختلاط العراقيين مع الشاميين في أجواء الشفافية والمحبة والأمان

ليتمكَّن العراقيون من نقل أخبار الإمامة الإلهية في علي عليه السلام وأخبار سيرته المشرقة وليستقبلها الشاميون دون تحسّس منها مسبقاً.

٦ ـ تحقق أجواء الأمان في الأُمّة كلها وتطوق الفكر التكفيري وتلاحق حلقات الاغتيال التي نشأت عنه.

٧ ـ تدفع التهديد الخارجي الذي يلوح به الروم البيزنطيون.

وليس من شك أن الصيغة الوحيدة للصلح التي تحقق كل الأُمور الآنفة الذكر هي التنازل المشروط عن السلطة المدنية من قبل الحسن عليه السلام وتكوين الدولة الموحّدة وتنصيب معاوية لها حاكماً ثم الحسن عليه السلام بعده.

وهي أطروحة ليست صعبة على الحسن عليه السلام، فهو أساساً إمامٌ هادٍ تهمُّه قضية الهداية والرسالة ومصلحة الأُمّة العامة قبل كل شيء، والحكم القائم على بيعة الناس بالنسبة إليه على الرغم من كونه حقاً له ويجب على الأُمّة أن تبايعه لا يزيد من إمامته الإلهية شيئاً ولا ينقص منها شيئاً.

وكان النبي صلى الله عليه وآله قد أعد الحسن عليه السلام لهذه المهمة الإلهية بقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[(١)]، وقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط»[(٢)]، وقوله صلى الله عليه وآله: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[(٣)].

---

(١) الإرشاد: ١٩٩، إعلام الورى: ٢١٦.

(٢) المعجم الكبير ٣: ٣٢.

(٣) الحديث مروي بطرق مختلفة وأسانيد متعددة في كتب الحديث: قال ابن كثير في البداية والنهاية ٦ : ٢١٤ ـ ٢١٥ ما خلاصته:«وقد روى هذا الحديث البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي والترمذي والصنعاني في المصنف والبيهقي في دلائل النبوة وغيرهم كلّهم عن الحسن بن أبي بكرة الثقفي، وقال المزي في أطرافه: وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أم سلمة، وروي أيضاً من طريق ⇐

وكذلك هي ليس صعبة على العراقيين شيعة علي عليه السلام المؤمنين بمشروعه، فهم على نهجه يحملون همَّ هداية الأُمّة ومؤازرة القائد الإلهي المذخور لها، وليسوا طلاب سلطة ودنيا، وقد شهد لهم علي عليه السلام بذلك.

قال عليه السلام: «وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة»[1].

وقال عليه السلام مخاطباً لهم: «أنتم الأنصار على الحق، والأخوان في الدين والجنن يوم البأس والبطانة دون الناس»[2].

⇒

جابر بن عبد الله الأنصاري(رضي الله عنه)». أقول: رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣: ٤٣٣، و٨: ٢٦بسنده عن جابر. وفي الاستيعاب لابن عبد البر ١ :٢٣٠ قال: «وتواترت الآثار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لحسن بن علي: «إن ابني هذا سيّد وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظمتين من المسلمين» رواه جماعة من الصحابة. وقد كتب الأستاذ حسن فرحان المالكي في كتابه (نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي :٢٤٣) يقول: «ومثلما حارب الرافضة حديث (صلح الحسن) فقد حارب النواصب(حديث عمار)، إما بتضعيفه (رغم أنه متواتر...»: أقول: إن عمل الحسن كان صحيحاً؛ لأنه معصوم، وكان اصلاحاً فعلاً في الأُمّة سواء بالتحليل الذي تبنته هذه الدراسة أو بالتحليل السائد؛ إذ أن الأُمّة قد توحد شقاها وساد الأمان فيها عشر سنوات واختلط العراقيون بالشاميين وتعرفوا على سيرة علي وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أهل بيته، ولم يروَّع شيعي واحد خلال هذه الفترة، وإنّما نكث معاوية عهده مع الحسن وغدر به سنة خمسين حيث دسّ له السم ونقض كل شرط اشترطه. والحديث النبوي فيه نبوءة تحقّقت وهداية للنصف الغربي من البلاد الإسلامية جرت على يد الحسن عليه السلام. نعم، هناك بعض الكتّاب المحدثين من الشيعة حاول تضعيف الحديث، ولعلّ مردّ ذلك الى تركيز بعض الكتاب السنّة على صلح الحسن ومحاولتهم تخطئة قتال علي عليه السلام لأهل الشام من خلاله، مضافاً الى الغفلة عن كلمة الإمام الحسن وكلمة الإمام الباقر في الصلح. غير إن كلا الموقفين لا يمثلان الموقف العام لدى المدرستين.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥: ٨١. الأخبار الطوال للدينوري : ٢٧٨، وقعة صفين لنصر ابن مزاحم: ٤٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة ٧: ١٩٣. قال ابن أبي الحديد: «الجَنَن: جمع جُنة، وهي ما يستر به. وبطانة

⇐

وقال عليه السلام: «الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء، والذي نفسي بيده، لينتصرنَّ الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز»[1].

ولا زالت الكلمة الرائعة التي تمثل بها الحسن عليه السلام حين رحل عن الكوفة بعد الصلح في حُسن ثقته بالعراقيين يحفظها التاريخ، وهي قوله:

ولا عن قِلىً فارقتُ دارَ معاشري

همُ المانعونَ حوزتي وذماري[2]

وقد عَرَفَ ذلك للعراقيين أيضاً خصمهم عبد الله بن الزبير حين قال له معاوية متشكياً: إنَّ الحسن عليه السلام لم يزره في المدينة إلا مرة واحدة، وكان يتوقع أن يزوره أكثر من مرة، قال له:«والله، لو شاء الحسن أن يضربك بمئة ألف سيف لفعل، ولأهلُ العراق أبرُّ به من أمِّ الحُوار بحُوارها»[3].

⇐

الرجل: خواصه وخالصته الذين لا يطوى عنهم سرّه».

(١) معجم البلدان ٧: ١٦٠ وعن سعيد بن الوليد الهجري عن أبيه قال: قال علي، وهو بالكوفة: «ما أشد بلايا الكوفة! لا تسبوا أهل الكوفة فوالله إن فيهم لمصابيح الهدى وأوتاد ذكر ومتاع إلى حين والله ليدقن الله بهم جناح كفر لا ينجبر أبداً، إن مكة حرم إبراهيم والمدينة حرم رسول الله صلى الله عليه وآله والكوفة حرمي، ما من مؤمن إلا وهو من أهل الكوفة أو هواه لينزع إليها إلا إن الأوتاد من أبناء الكوفة وفي مصر من الأمصار وفي أهل الشام أبدال»، تاريخ مدينة دمشق ١ : ٢١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢١٥، انساب الأشراف ٣: ٣٦٤ . وذمار الرجل هو ما يلزمه حفظه وحياطته وحمايته وعدم تضييعه بأن يقاتل عنه ويقتل من أجله وإلا لزمه اللوم. وقد وضع الإعلام العباسي في قِبال حُسن ظن الحسن بأهل الكوفة الرواية التي تقول: إن الحسن قال لأهل الكوفة: والله لو لم تذهل نفسي عنكم إلا لثلاث لذهلت انتهابكم ثقلي وقتلكم أبي وطعنكم في فخذي! (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤ : ٩٦، تاريخ بغداد ١ : ١٤٩).

(٣) انظر الأغاني ٩ : ١١٩، والحُوار: ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل.

وعَرَفَ هذه الصفة لهم أيضاً معاوية نفسه خلال سنوات الصلح حين انطلق أخيارهم ورموزهم من الرجال والنساء بفقه في الدين وجرأة في الحوار مع الحاكم ووفاء لعلي عليه السلام منقطع النظير يروون لأهل الشام ولغيرهم سيرة علي عليه السلام المشرقة وسوابقه مع النبي صلى الله عليه وآله.

وقد شهد لهم معاوية بوفائهم لعلي ومنهجه حين قال: «هيهات يا أهل العراق، لقد فقهكم علي فلن تطاقوا !».

وحين قال:«لقد لمظكم علي الجرأة على السلطان».

وحين قال:«والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلي من حبِّكم له في حياته!»[(١)].

إنّ مشروع الهداية وحل المشكلات لا يحتاج فقط إلى قائد رسالي إلهي تسمح له نفسه بالتنازل عن حقه في الملك بمستوى ملك العراق والبلاد التابعة له لأجل الرسالة والهداية والمصلحة العامة للأمة، بل هو بحاجة أيضاً الى قناعة العراقيين بذلك واهليتهم لحمل ثقافة الولاء لعلي الى غيرهم، وقد أثبت العراقيون أنهم كذلك، حيث استجابوا للحسن عليه السلام[(٢)] وقاموا بمهمة الهداية معه كما سيأتي.

العمق الاستراتيجي للحسن عليه السلام والتفكير المحدود لمعاوية:

وفي ضوء ذلك يتضح الفرق الكبير بين طريقتين في التفكير:

الأولى: تربط نفسها مصيرياً بالسلطة ولا يهمها مصلحة الرسالة والأمّة

(١) انظر هذه الكلمات في رسالة الوافدات على معاوية تحقيق سكينة الشهابي.

(٢) هناك روايات تذكر ان حجر بن عدي خاطب الحسن بكلمات غير لائقة بعد الصلح، ولكننا نرى أنّها جزء من ذلك الكم الموضوع من روايات الاعلام العباسي الذي اشرنا إليه. راجع انساب الأشراف للبلاذري ٣: ٣٦٥.

في شيء.

الثانية: تربط نفسها مصيرياً بمصلحة الرسالة والأُمة في كل شيء.

وفي قضية معالجة الانشقاق فان مثل الحسن عليه السلام ومعاوية ازاء ملك الأُمّة مثل تينك المرأتين اللّتين تنازعتا في وليد واصرّتا فدعا علي عليه السلام بمنشار وقال لهما: «اقسمه نصفين بينكما»، فسكتت إحداهما وقالت الأخرى: الله الله يا أبا الحسن، إن كان لا بد من ذلك فقد سمحت به لها. فقال: «الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقت عليه وأشفقت». فاعترفت المرأة الأخرى بأن الحق مع صاحبتها والولد لها دونها[1].

لقد أراد معاوية بطلبه للصلح ان يكرس انشقاق الأُمّة لرغبته في الملك وهو غير مشروع له.

وأراد الحسن بالصيغة التي اختارها ان يعالج الانشقاق بالتنازل عن الملك وهو مشروع له، ومنه يتضح للناس ان الحريص على مصلحة الأُمّة هو الحسن وليس معاوية.

ومنه يتضح أيضاً: أنَّ مبرر الصلح بشكل تنازل مشروط عن السلطة الذي

---

(١) قال الشيخ المفيد: «إنّ امرأتين تنازعتا على عهد عمر في طفل ادعته كل واحدة منهما ولداً لها بغير بينة، فالتبس الحكم في ذلك على عمر وفزع فيه إلى علي عليه السلام، فاستدعى المرأتين ووعظهما وخوفهما فأقامتا على النزاع والاختلاف. فقال عليه السلام عند ذلك: «ائتوني بمنشار». فقالت له الامرأتان: ما تصنع به؟ فقال: «أقدّه نصفين لكل واحدة منكما نصفه». فسكتت إحداهما وقالت الأخرى: الله الله يا أبا الحسن، إن كان لا بد من ذلك فقد سمحت به لها. فقال: «الله أكبر، هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقت عليه وأشفقت»، فاعترفت المرأة الأخرى بأن الحق مع صاحبتها والولد لها دونها. (إرشاد الشيخ المفيد: ١١٠). أقول: وهذه القضية ترويها أيضاً التوراة مما قضى به النبي سليمان وانتشرت حكمته في الدنيا.

أقدم عليه الإمام الحسن عليه السلام ليس مرده إلى ضعف وانهيار في شخصية الحسن عليه السلام كما تبنى المستشرقون ذلك اعتماداً على روايات موضوعة، ولا إلى الخيانات والضعف والشك الذي عاشه جيش الحسن عليه السلام أو شَعبه كما تصوره لنا روايات أخرى كلها من وضع الإعلام العباسي، بل مرده إلى تفكير موضوعي في الظرف الذي تمر به الرسالة والامة ليحفظ مصالحهما، أما مصلحة الرسالة فقد نهض بها علي عليه السلام ليكون الكتاب والسنّة دون اضافة رأي أحد هي الدستور الحاكم في البلاد، وليكون رأي الحاكم في المسائل الدينية العملية الشخصية مذهباً من المذاهب يترك فيه الخيار للأمّة إن شاءت أخذت به وإن شاءت تركته وأخذت برأي آخر.

أما مصلحة الأُمّة في زمن الحسن عليه السلام فهي معالجة الانشقاق الذي استحكم فيها، وملاحقة الارهابيين الذين نغّصوا العيش الآمن للناس، ومواجهة تهديد الروم على الجبهة الشمالية الشرقية لحفظ الكيان الإسلامي.

مضافاً الى ذلك فإن التنازل من الحسن عليه السلام كان بحدود (السلطة المدنية) التي كانت له في العراق وقد جاءته ببيعة مشروعة، أما (الإمامة الدينية الهادية المعصومة) التي جعلها الله تعالى له فهي غير قابلة للتنازل؛ لأنها لم تأته على أساس بيعة الناس بل جاءته بالوصية من النبي صلى الله عليه وآله قبل أن يبايعه الناس على الحكم؛ لأنها تترتّب عليها مسؤولية حفظ الرسالة وقيادة الناس الى الله تعالى بشكل مضمون النتيجة والقبول كما في قوله تعالى: ﴿**أُولئكَ الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإنْ يَكْفُرْ بها هؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنا بهَا قَوْماً لَيْسُوا بها بكَافرينَ* أُولئكَ الَّذينَ هَدَى اللَّهُ فَبهُداهُمُ اقْتَدهْ**﴾[1]. ويترتّب على الناس أن

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٨٩ ـ ٩٠).

ينصروه ليقوم بمهمة حفظ الرسالة واحيائها المهمة التي نهض بها أمير المؤمنين، نظير بيعة أهل المدينة للنبي نصروه ليبلّغ رسالة الله التي منعته من تبليغها قريش. والصلح الذي قام به الحسن إنّما هو معالجة الانشقاق وفضح قريش ومعاوية الذي صدّ علياً عليه السلام عن مشروع إحياء السنّة في الشام، نظير الصلح الذي قام به النبي صلى الله عليه وآله لفضح قريش المشركة التي شوّهت الحركة الرسالية للنبي عند القبائل باعلام كاذب لكي لا تتأثّر به[١].

مضافاً الى ذلك فإن هذه الصيغة من الصلح هي الصيغة الوحيدة التي توفر للحسن أن يشترط ما يريد من الشروط، وليس للطرف الآخر إلا أن يقبل الصفقة كلها أو يرفضها كلها.

إنّ أُطروحة الحسن للصلح تدفع معاوية دفعاً لأن يستقبلها ولا يرفضها ولو رفضها لكان الملوم عند شعبه. وفي الوقت نفسه فإن معاوية يعلم أن قبوله للشروط معناه ظهور أمر الإمامة الإلهية لعلي عليه السلام في الشام وأنه امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله في سيرته، وأنّهَ كان على حق في مخالفته لسيرة الشيخين في حج التمتع وغيرها[٢]، وان كل من خالف عليا في صغيرة أو كبيرة كان على الباطل، ولكنه

(١) من المفيد التنبيه على مقامين للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام: **الأوّل**: مقام الإمامة الإلهية، وهو مقام تشريعي ويستلزم العصمة والنص من الله تعالى مباشرة للنبي وبواسطته لأوصيائه، وهذا المقام لا ينفك عن صاحبه بالاضطهاد أو الموت أو القتل، ولذلك يجب على الفرد آن يبايع النبي أو الإمام حياً أو ميتاً ليتحقق إيمانه، وهي بيعة الإيمان، فهي أساساً موجّهة للفرد والجماعة. **الثاني**: مقام الحكم، وهو مقام تنفيذي ولا يستلزم في نفسه أن يكون صاحبه معصوماً، وهذا المقام لايكون فعلياً للنبي والإمام إلا ببيعة من ينهض بهم الحكم، وهم أهل الحل والعقد، فهي موجّهة أساساً الى الجماعة وليس الى الفرد، وهذا المقام هو الذي يقبل التنازل والتجميد، وهو الذي تنازل عنه الحسن واشترط فيه شروطاً.

(٢) انظر قصة حج التمتع مفصلة في كتابنا شبهات وردود:٢١١.

افتضاح كان معاوية ـ وهو داهية قريش بالغدر ـ [1] قد استبطن الخطة لعلاجه كما أشرنا آنفاً.

إنَّ الحسن عليه السلام بتنازله المشروط عن السلطة سوف يحقق فتحاً عظيماً لقلوب أهل الشام إزاء أبيه علي عليه السلام، ويهيؤها لاستقبال نصوص ولايته الإلهية التأسيسية من الكتاب والسنّة، كما حقق صلح الحديبية من قبل فتحاً مبيناً لقلوب سكان أهل الحجاز ونَجْد إزاء النبي صلى الله عليه وآله وهيأها لاستقبال الإسلام والاعتراف بنبوته صلى الله عليه وآله.

ويتبيَّن بذلك سرُّ قول الإمام الحسن عليه السلام لأحد أصحابه: «إن علة مصالحته لمعاوية هي علة مصالحة النبي لقريش» [2]، وسرُّ قول الإمام الباقر عليه السلام: «والله، لَلذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأُمّة مما طلعت عليه الشمس» [3].

وبذلك يتضح أيضاً عمق الضربة الاستراتيجية التي وجّهها الحسن عليه السلام الى معاوية ولم يدعه يقوم بعدها أبداً حتى حين يغدر بعهده، اذ استجاب لمعاوية لصيغة الصلح التي تحقق للحسن معالجة الانشقاق وتقوي الأُمّة ازاء الخطرين اللذين يهددانها الخوارج من الداخل والروم من الخارج، كما تحقق له فضح معاوية عند أهل الشام وافتضاح تجربة قريش المسلمة التي ورثها معاوية

(١) قال علي عليه السلام: «والله، ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر كنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة». (نهج البلاغة) بحار الأنوار ٣٣: ١٩٧. والحسن ابن أبيه وعلى خطّه ونهج، وقد تبيّن عمقه الاستراتيجي من خلال صلحه مع معاوية.

(٢) بحار الأنوار ٤٤ : ٢٧٣ نقلاً عن علل الشرائع للشيخ الصدوق.

(٣) الكافي ٨: ٢٥٨.

وتحقق له ظهور حق أبيه علي في الشام وكونه وارث النبي صلى الله عليه وآله ووصيه، كل ذلك في آن واحد.

وأخيراً فإنه ممّا لا شك فيه أن الحسن كان قد وضع في حسابه أن معاوية سوف يستجيب مؤقتاً، والغدر بعدها في الوقت المناسب ليس تخميناً، بل علماً قاطعاً من خلال معرفته بأصول معاوية التي تربّى عليها.

ولكنه في الوقت نفسه يعتقد الحسن عليه السلام أن معاوية سوف لن يكون غبياً في تعامله مع هذه الصفقة المفاجئة التي أسالت لعابه، بل سيظهر كل دهائه ليضرب ضربته بعد أن يستقر له الملك، ولن يستقر في أقل من خمس سنوات الى عشر سنوات. إنّ معاوية مهما اختلف في دينه[(١)] فان دهاءه وشيطنته في التخطيط وتقدير أولويات الصراع لأجل الدنيا أمر لا خلاف فيه[(٢)]، واولويات الصراع هنا

---

(١) فقد قامت عقيدة الغالبية من أهل السنة على أن معاوية من أئمة الهدى استناداً الى ما رواه الترمذي في الجامع الصحيح ٥: ٣٥١، وأحمد بن حنبل في مسنده ٦: ٢٦٦، وابن عساكر في تاريخه ٥٩: ٨٣ من: أن النبي صلى الله عليه وآله قد دعا لمعاوية قال:«اللهم، اجعله هادياً مهدياً واهد به»، وفي قبال ذلك: ما رواه مجمع الزوائد ٨: ١٢١ عن الطبراني في الكبير ١١: ٣٢ من طريق ابن عباس: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر فسمع رجلين يتغنيان وأحدهما يجيب الآخر، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «انظروا من هما». قال: فقالوا: معاوية وعمرو بن العاص، فرفع رسول الله يديه فقال:«اللهم، اركسهما ركساً، ودعهما إلى النار دعّاً». ولكن أحمد حين أخرجه في المسند ٤: ٤٢١، رفع اسميهما وقال: (فلان وفلان). وقد قامت عقيدة الشيعة أن معاوية في النار بما سفك من دماء الأبرار كعمار وهاشم بن عتبة المرقال ونظرائهما في صفّين، وبما غدر من عهد الحسن عليه السلام ودسّ السم له، وقتل الأبرار كحجر وعمر والحمق ونظرائهما، وبما سلّط ابنه يزيد على رقاب المسلمين، وما قام به من قتل الحسين وصحبه وسبي بنات الرسالة وإباحة المدينة لجيشه في واقعة الحرّة، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وغير ذلك مما يحفل به تاريخ معاوية من جرائم مات عليها.

(٢) كان معاوية يعلم حق العلم ان الذي قتل عثمان هو طلحة، ولكنه داس على جراحاته واتفق معه لمواجهة علي عليه السلام في البصرة، وانتقم مروان من طلحة حين حانت له فرصة وقتل طلحة في خضم المعركة بسهم سدده الى نحر طلحة سرّاً. وكذلك امره مع الحسن فانه استجاب له ووفى بشروطه ⇐

تقتضي بعد تسليم الحسن عليه السلام الملك له مداراة أهل العراق وكسب جانبهم، والانصراف الى ملاحقة الخوارج في الكوفة أولاً ومداراة أهل الروم في آن واحد. وبالتالي فسوف يكون غدر معاوية بعد أن حقّق الحسن أهدافه كاملة من الصلح، أما أن يتسلّم الملك بعد معاوية فلم يكن الحسن يتوقّعه ولم يكن ليرغب فيه بما هو ملك وامرة[١].

أما معالجة تبعة الغدر وفتح الطريق من جديد للإمامة الإلهية ومشروع علي عليه السلام فقد تركها الحسن عليه السلام الى اخيه الحسين عليه السلام الذي اعده الله ورسوله لها.

ليس من شكّ أنّ معاوية قد اعمى بصيرته الملك وسال لعابه له وقرر أن يستجيب للحسن ثم يغدر به بعد حين، وما درى أن في هذا الغدر حتفه الى الأبد.

إنّ الحسن بطريقة التفكير هذه كان واثقاً كل الثقة أنَّ أهل الشام فضلاً عن شيعة أبيه سوف يستقبلون أُطروحته وشرائطها لما يرون فيها من حفظ مصالح واختيارات الجميع ونكران للذات من الحسن عليه السلام يشهده الجميع.

وهكذا كانت المفاجأة الكبرى من الحسن للجميع هي تنازله المشروط عن

⇐

عشر سنوات حاول خلالها ان يكسب ثقة العراقيين، ولما اكتشف انه غير قادر على كسبهم سدد سهمه سراً الى الحسن ثم انتقم منهم علناً.

(١) إذ كان أبوه علي يقول فيها: «أما والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْ لا حُضورُ الحاضر وقيامُ الحُجَّة بوُجُود النَّاصر، ومَا أَخَذَ الله على العُلَماء، إلا يُقارُّوا على كَظَّة ظالمٍ ولا سَغَب مَظلوم، لأَلْقَيتُ حَبلَها على غَارِبها ولَسَقَيتُ آخِرَهَا بكَأسِ أوَّلِها ولألفيتُم دُنياكُم هَذِه أَزهَدَ عِندِي مِن عَفطَةِ عَنز» نهج البلاغة: ٥٠ تحقيق صبحي الصالح (الخطبة الشقشقية).

الملك، فإن كل الذي كان يتوقّعه معاوية ورجاله هو أن يرفض الحسن أو يستجيب لطلبه بإيقاف الحرب وأن يكون كلٌّ على بلده الذي بايعه، أما أن يكون الجواب هو التنازل عن العراق وما والاه بشروط، فهو مما لم يكن يتوقّعه معاوية ولا أحد من رجاله على الاطلاق، إلا أن يكون الحسن ليس على سرّ أبيه ومنهجه(١)، وهذا ما لا يتوقع من الحسن الزكي المطهّر.

وحاول معاوية أن يعدّل بعض الشروط، ولكن الحسن كان حاسماً في موقفه.

روى ابن عبد البر في «الاستيعاب»، قال: «فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصيّر الأمر إليه على أن يشترط عليه إلا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية، وكاد يطير فرحاً، إلا أنه قال: أمّا عشرة أنفس فلا أؤمّنهم(٢). فرفض الحسن ذلك، فبعث إليه معاوية حينئذ برقّ أبيض وقال: اكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه، فاصطلحا على ذلك».

وكانت شروط الحسن عليه السلام على معاوية:

١ ـ ان يعمل بالكتاب والسنة فقط. أي ليس له ان يفرض على احد من

---

(١) وهذا هو الذي دعا العباسيّين فيما بعد الى وضع روايات تجعل من الحسن على خلاف مع أبيه في قضية التصدّي للأمر توقياً من سفك الدماء.

(٢) جاء بعدها قوله: فراجعه الحسن فيهم فكتب إليه يقول: إني قد آليت أنى متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده، فراجعه الحسن: «إني لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بتبعة قلّت أو كثُرت». أقول: هذا القول الأخير من وضع الرواة؛ إذ ليس موضوع الصلح أن يبايع الحسن لمعاوية ولم يطلبه معاوية، وما كان يجرؤ أن يطلبه لوضوح سخفه، بل طلب أن يبقى كل طرف على بلده الذي بايعه، فأجابه الحسن بصيغته التي فيها تسليم الأمر لمعاوية بتقديم اختيار أهل الشام على اختيار أهل العراق بشروط منها أمان شيعة علي كلّهم، فلا معنى أن يقول: لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره.

المسلمين سيرة الشيخين؛ لأنّها ليست من الكتاب والسنّة في شيء، بل هي رأي ارتآه الخليفتان، وللمسلمين الخيار في العمل بها أو عدمه.

٢ ـ ان يترك لعن علي عليه السلام وسبه، وهو مما نهت عنه السنة، وان يذكره بخير، وهو مما امرت به السنة النبوية أيضاً.

٣ ـ امان شيعة علي حيثما كانوا، وحريتهم بالاقتداء بعلي عليه السلام والتعبير عن رأيهم فيه والحديث عن سيرته كما هو لغيرهم من أهل الشام وحريتهم بالاقتداء بالخلفاء والتعبير عن رأيهم فيهم والحديث عن سيرتهم، وان لا يكيد للحسن وأهل بيته.

٤ ـ ان يوزع في شهداء الجمل وصفين عطاء خاصاً بهم، كما يوزع لشهداء صفين في الشام.

٥ ـ وان يفضل بني هاشم في العطاء على بني عبد شمس، وهو سنة نبوية تمثلت بالخمس، وهذا التفضيل كان جزاء لهم على دعمهم واسنادهم كمجموع لدعوة النبي صلى الله عليه وآله في قبال مقاطعة بقية بطون قريش ومواجهتهم السلبية لها.

٦ ـ وان يستثني ما في بيت مال الكوفة للحسن[1]، وان يوصل له ألفي دينار سنوياً من خراج داراب جرد.

ونحن نشك في اشتراط استثناء ما في بيت مال الكوفة؛ لأن المعروف من

---

(١) روى البخاري ٨: ٩٩، وابن عساكر ترجمة الحسن تحقيق المحمودي: ٢٠٧ عن سفيان بن عيينة عن أبي إسرائيل بن موسى عن الحسن البصري: أن معاوية كلّف رجلين من قريش أن يأتيا الحسن ويعرضا له المال ليتنازل عن السلطة، واستطاعا اقناعه بما يوجد من بيت مال الكوفة، وهذا هو ما اختلقه الخليفة أبو جعفر الدوانيقي في رسالته الجوابية الى محمد بن عبد الله بن الحسن، وروّجه الاعلام العبّاسي، انظر التفصيل في الباب الثالث وثائق الاعلام العبّاسي من كتابنا «صلح الحسن عليه السلام»، وكتابنا «الإمام الحسن في مواجهة الانشقاق الأُموي».

سيرة علي أنه كان لا يأخذ من بيت المال إلا بمقدار ما هو حقه مما يساوي عطاء الآخرين، وقد اغنى الله تعالى الحسن عن اخذ ما في بيت مال الكوفة بصدقات أبيه علي عليه السلام[(١)]، مضافاً الى ما اشترطه من ألفي دينار سنوياً، وهي ليست لاحتياجاته شخصياً، بل يقضي به حاجات المؤمنين، وسيأتي تصرّفه عليه السلام في المال.

٧ - وأن لا يسمّيه بأمير المؤمنين؛ لأنها خاصة بمن جعل الله تعالى أميراً لهم يوم الغدير، وهو علي عليه السلام.

٨ ـ وأن لا يقيم عنده شهادة؛ لأنه ليس مواطناً عنده، وهناك فهم أعمق وهو

---

(١) ابن شبة، التاريخ ١: ٢٢٨ قال ابن شبة: «قال أبو غسان: وهذه نسخة كتاب صدقة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حرفاً بحرف نسختها على نقصان هجائها وصورة كتابها، أخذتها من أبي، أخذها من حسن بن زيد. بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أمر به وقضى به في ماله عبد الله علي أمير المؤمنين، ابتغاء وجه الله ليولجني الله به الجنة، ويصرفني عن النار ويصرف النار عني يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. أن ما كان لي بـ (ينبع) من ماء يعرف لي فيها وما حوله صدقة ورقيقها غير أن رباحاً وأبا نيزر وجبير أعتقناهم، ليس لأحد عليم سبيل، وهم موالي يعملون في الماء خمس حجج، وفيه نفقتهم ورزقهم ورزق أهليهم. ومع ذلك ما كان بوادي القرى... وما كان لي (بواد) ترعة... وما كان لي بإذنية وأهلها صدقة... وأنه يقوم على ذلك حسن بن علي، يأكل منه بالمعروف وينفق حيث يريه الله في حل محلل لا حرج عليه فيه، وإن أراد أن يندمل (أي يصلح من الصدقة) من الصدقة مكان ما فاته يفعل إن شاء الله لا حرج عليه فيه، وإن أراد أن يبيع من الماء فيقضي به الدين فليفعل إن شاء لا حرج عليه فيه... وإن حدث بحسن حدث وحسين حي، فإنه إلى حسين بن علي، وأن حسين ابن علي يفعل فيه مثل الذي أمرت به حسناً، له منها مثل الذي كتبت لحسن منها، وعليه فيها مثل الذي على حسن... وإن لبني فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني علي، وإني إنما جعلت الذي جعلت إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله وتكريم حرمة محمد وتعظيماً وتشريفاً ورجاء بهما، فإن حدث لحسن أو حسين حدث، فإن الآخر منهما ينظر في بني علي، فإن وجد فيهم من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته فإنه يجعله إن شاء... فهذا ما قضى عبد الله علي أمير المؤمنين في أمواله هذه... شهد أبو شمر بن أبرهة، وصعصعة بن صوحان، ويزيد بن قيس، وهياج بن أبي هياج. وكتب عبد الله علي أمير المؤمنين بيده لعشرة خلون من جمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين».

أنّ فكرة الصلح عند الحسن عليه السلام تقوم على اساس فصل السلطات الثلاث بعضها عن بعض: سلطة التشريع وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ، والذي منحه لمعاوية بصفته حاكماً هو السلطة التنفيذية المقيدة بالكتاب والسنة لا غير.

وهنا لا بد من الاشارة الى ان فصل السلطات الثلاث كان أمراً يقتضيه الواقع الذي عاشه الإمام الحسن عليه السلام وأي واقع آخر تكون فيه السلطة لشخص غير مستوف للشروط الشرعية كما هو الحال في اغلب الدول الإسلامية اليوم، والا فإنّ الحاكم حين يكون زمن النبي صلى الله عليه وآله أو الوصي عليه السلام أو الفقيه الجامع للشرائط فإنّهم أهل للقضاء بل القضاء من شؤونهم ولهم أن يوكلوه الى نظرائهم أو من يطمنون به انه يحكم بأحكامهم، وللنبي فوق ذلك صلاحية التشريع بما لا يتعارض مع تشريع القرآن، وللوصي بما لا يتعارض مع تشريع النبي صلى الله عليه وآله.

ولا بد من الإشارة أيضاً الى أن الحسن عليه السلام حين سلّم لمعاوية السلطة التنفيذية وقيّدها بشروط احتفظ لنفسه بالإمامة الدينية الهادية التي جعلها الله تعالى له، هذه الإمامة التي تكون طاعتها طاعة الله ومعصيتها معصية الله، ولا تقبل الأعمال إلا بها، وهي شاهدة ورقيبة على الأُمّة والحاكم معاً يبحث عنها المسلم من خلال كتاب الله وسنة نبيه.

أما الإمامة السياسية بصفتها مؤسسة مدنية تدير البلاد وتحافظ على امن المسلمين وحقوقهم، فهي مؤسسة تتقيّد بالقانون. والقانون هنا هو كتاب الله وسنة نبيّه التي آمنت بهما الأُمّة منهاجاً وقانوناً في الحكم. ومن هنا كانت الأُمّة رقيبة على الحاكم دون الإمامة الإلهية الهادية[(١)].

---

(١) ومع ذلك فانّ أمير المؤمنين حين تصدى للحكم دعا الأُمّة الى مراقبته ليؤسس صفة مراقبة الأُمّة للحاكم قال: «انظروا فان أنكرتم فأنكروا وان عرفتم فآزروا» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١ : ⇐

إنّ هذا الفصل بين السلطات كان ضرورياً حين تفرض الظروف السيئة حاكماً مثل معاوية، وما أكثرهم في تاريخ الأُمّة في قبال الحكم الجائر الذي يعرض الحاكم فيه نفسه قائداً الى الله تعالى وخليفة عنه طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، وان التدين هو طاعة الخليفة، وهو الذي قامت دولة عثمان عليه ودولة سلفيه، وحاول معاوية ان يستعيدها في الشام وطلب المصالحة لتكريسه الصلح عليه يكون فيه الحاكم بما هو حاكم مشرعاً في الدين وطاعته طاعه الله ومعصيته معصية الله.

٥ـ الفتح المبين بظهور باطل معاوية وكذبه، وظهور حق علي عليه السلام وصدقه لدى أهل الشام:

اعلن معاوية عن قبوله لشروط الحسن عليه السلام ومن ثم كان (الفتح المبين) في الشام بظهور بطلان معاوية وكذب اعلامه وظهور ظلامة علي عليه السلام وحقانيته واختلاط العراقيين بالشاميين في الشام وموسم الحج ليشهدوا حقائق غيبها الاعلام القرشي عنهم.

فها هو معاوية بنفسه يترحم على علي عليه السلام حين يسمع وصفه من شيعة علي ويقرهم عليها.

وها هم يسمعون من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله احاديثه في أهل بيته عليهم السلام التي

⇐

٩٢ في شرح الخطبة ١٦): «وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها، قد رواها الناس كلهم وفيها زيادات حذفها الرضي؛ أما اختصاراً أو خوفاً من إيحاش السامعين، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين على وجهها، ورواها عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين علي عليه السلام بالمدينة في خلافته».

تؤسّس إمامتهم الدينية.

وها هو تاريخ معاوية وأبيه في حرب الإسلام عشرين سنة يصدون عنه.

وها هي سيرة الشيخين في متعة الحج ومتعة النساء وفي غيرها تخالف ما أمر به الله ورسوله.

وها هو علي عليه السلام يحيي سنّة النبي صلى الله عليه وآله، ولا يسمع لقول الخليفة عثمان ينهى عنها وفق سيرة الشيخين وما بدا له فيها من رأي جديد.

وها هي حربا الجمل وصفين قد اضرمتها قريش المسلمة ضد مشروعه الاحيائي للسنة طلباً للملك وتكريساً لإمامة قريش.

وها هو علي عليه السلام يرفض الملك حين يشترط عليه العمل بخلاف سنّة النبي صلى الله عليه وآله.

وها هو الحسن عليه السلام يسلّم الملك بشرط عدم العمل بسيرة الشيخين وفرض ذكر أبيه بخير.

وها هو الحسن عليه السلام يحيي سيرة أبيه علماً وعبادةً وزهداً وسلوكاً، تبين للناس خلال السنوات العشر التي عاشروه فيها كما وصفه حفيده الإمام الصادق عليه السلام.

ووصلهم وصف ضرار لعلي بل سمعوه منه في بلاط معاوية حين طلب منه أن يصف علياً عليه السلام وأصرّ عليه فنهض قائلاً:

«كان علي والله بعيدَ المدى، شديدَ القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّرُ العلمُ من جوانبِه، وتنطقُ الحكمَةُ من نواحيه، يستوحشُ من الدنيا وزَهرتها، ويأنسُ بالليلِ ووحشته، غزيرَ العَبرة، طويلَ الفكرة، يُعجبُه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن. كان فينا كأحدنا، يجيبُنا إذا سألناه، وينبئُنا إذا استفتيناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقُربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبةً له. يعظّم أهل الدين ويُقرِّب المساكين. لا يطمع القَويُّ في باطله، ولا ييئَسُ الضعيفُ من عدله.

وأشهدُ لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سدولَه، وغارت نجومَه، قابضاً على لحيته، يتململُ تململَ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري، أبي تَعرضَّتِ أمْ إليَّ تَشوَّفتِ. هيهات هيهات قد باينتُك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعُمرك قصير وخطرك حقير. آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق!».

وشهدوا من معاوية بعد هذا الوصف نزف دموعه على لحيته وقوله:« رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك».

وسمعوا جواب ضرار حين سأله معاوية: عن مدى حزنه على علي، قال: «حزن من ذبح ولدها في حجرها»[1].

شهادة الناس الحسن عليه السلام في سيرته الشخصية إماماً أيضاً على سمت أبيه:

وشهد الناس خلال هذه السنوات العشر من ولده الحسن عليه السلام أيضاً إماماً هادياً على سمت أبيه، وعرفوا عنه أنه حج خمسة عشر أو عشرين حجة ماشياً والنجائب تقاد بين يديه[2].

وهذا حفيده من ابنته الإمام الصادق عليه السلام يصف عبادة جده الحسن عليه السلام

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢٢:٨١ ـ بعد أن أورد وصف ضرار ـ: «إن الرياشي روى خبره»، ونقلته أنا من كتاب عبد الله بن إسماعيل بن أحمد الحلبي في التذييل على نهج البلاغة: ٢٢٥.

(٢) قال عبد الله بن العباس: «ما ندمت على شيء فاتني في شبابي إلا أني لم أحجّ ماشياً، ولقد حجّ الحسن بن علي خمسة وعشرين حجّة ماشياً وإن النجائب لتقاد معه». (المجموع للنووي ٧: ٩١)، وفي رواية علي بن زيد بن جدعان قال: «حج الحسن خمس عشرة حجة ماشياً». (تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٤٣).

قال: حدثني أبي عن أبيه: أن الحسن بن علي بن أبي طالب:

كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم وأفضلهم.

وكان إذا حج حج ماشياً، وربما مشى حافياً.

وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها.

وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل.

وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله تعالى الجنة، وتعوذ به من النار.

وكان لا يقرأ من كتاب الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إلا قال: لبيك اللهم لبيك، ولم ير في شيء من أحواله إلا ذاكراً لله سبحانه.

وكان أصدق الناس لهجة، وأفصحهم منطقاً»[١].

انتشار سنّة النبي صلى الله عليه وآله لدى أهل البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً بفضل مشروع علي وصلح الحسن عليهما السلام:

وهكذا انتشرت ثقافة الولاء لأهل البيت التي أسسها الكتاب والسنة في مسلمة الفتوح في أهل الشام، ومن ثم تجانست ثقافتهم مع مسلمة الفتوح في الشرق، وعادوا أمة واحدة في الواقع السياسي تحكمهم دولة واحدة هي دولة الكتاب والسنة فقط من دون اجتهادات الخليفتين وعلى مستوى واحد من

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ٢٤٤.

المعرفة بحديث الغدير وحديث الثقلين وحديث المنزلة وغيرها من النصوص التي تؤسس الإمامة الإلهية لأهل البيت عليهم السلام، وأولهم علي عليه السلام أخذ بها من شاء وتركها من شاء، شأنهم شأن المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله، عملاً بقاعدة: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1] التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله في المعتقد.

وكانت الفترة التي استغرقتها نهضة علي عليه السلام من أيام الحج سنة ٢٧ هجرية إلى وفاة ولده الحسن عليه السلام مسموماً نهاية سنة ٥٠ هـ لإحياء سنة النبي صلى الله عليه وآله ونشرها كثقافة في الأُمّة الإسلامية ثلاث وعشرين سنة، وهي نظير الفترة التي استغرقتها مهمة نشر أحكام الإسلام وعقيدته منذ بعثة النبي صلى الله عليه وآله إلى يوم الثامن عشر من ذي الحجة يوم بلغ النبي صلى الله عليه وآله أمته في غدير خم بولاية علي عليه السلام الإلهية.

وكانت السنوات من سنة ٤١ هجرية الى سنة ٥٠ هجرية من أروع سنوات الأُمّة الإسلامية على الإطلاق بعد سنوات النبي صلى الله عليه وآله في المدينة وسنوات علي عليه السلام حين بويع حيث الامان والحرية في التعبد والتعبير عن المعتقد.

أما أهل العراق فقد تأكّد لديهم من تجربة الصلح لعشر سنوات عمق حكمة الحسن عليه السلام حين رأوا آثارها وحين رأوا منه ما لم يشهدوا نظيره من أتباع ولد لأبويه بإحسان، فقد وظّف الحسن عليه السلام الملكَ الذي بيده لخدمة مشروع أبيه وجده، وهما بعضهما من بعض، فصار بذلك هو منهما وعلى نهجهما.

إنّ صلح الحسن عليه السلام بتسليمه الملك المستقر لمعاوية وقد أقرّه عليه هو أكبر شهادة على رسالية الحسن وانه من أبويه وهو منهما رسالياً (ذرية بعضها من بعض).

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

أضواء على سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

في عهد الدولة العلوية

السيّد منذر الحكيم (*)

للإمام الحسن المجتبى عليه السلام مواقف بطولية مشرفة في عهد الدولة العلوية المباركة، فإنّه قد ولد في السنة ٣ هجرية ونشأ في كنف جده المصطفى الى رحيله في ٢٨ صفر سنة ١١ هجرية. وعاش في ظل والده المرتضى عليه السلام منذ استلامه زمام امور الامامة الراشدة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الى ان قتل عثمان الأموي سنة ٣٦ هجرية، فكان عمره الشريف حوالي ٣٣ سنة حين تقلد والده الإمام علي عليه السلام امور الحكم وتأسيس الدولة العلوية بعد مقتل عثمان و بعد توجه عامة المسلمين اليه وطلبهم تقبل ادارة الدولة الاسلامية منه، فكان الإمام الحسن عليه السلام في عنفوان شبابه وكان قد بلغ أشده فأولاه الإمام علي عليه السلام المكانة السامية وكلفه بالمهام الصعبة في ادارة هذه الدولة حتى برز على صعيد السياسة بالحكمة والحنكة ومستوى رفيع من البلاغة مما جعله مرموقاً مقبولاً يشار إليه بالبنان من قبل عامة المسلمين، فكان هو المرشح لإدارة الدولة الإسلامية بعد استشهاد أبيه المرتضى، وقد نص على امامته جده المصطفى الرسول

(*) كاتب وباحث إسلامي - إيران.

الأعظم صلى الله عليه وآله في أكثر من موقف، ومن تلك النصوص المشهورة والثابتة لدى الفريقين قوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين امامان قاما أو قعدا» .

كما نص على امامته ايضا ابوه الإمام المرتضى علي بن ابي طالب عليه السلام. وقلما يتعرض الكتاب والمؤرخون لهذه المرحلة المهمة من حياة الإمام المجتبى عليه السلام، ومن هنا لزم علينا إلقاء الضوء على هذه المرحلة من حياته المباركة الحافلة بالمعطيات.

ونبدأ باستعراض جملة من مواقفه (سلام الله عليه) في المقاطع المهمة من حوادث وقضايا الدولة العلوية حسب تسلسلها التاريخي علماً بأنّ اربع او خمس سنوات من العمل الدؤوب والمشاركة الفاعلة في بناء صرح الدولة العلوية لا يمكن اختصارها في صفحات .

١ ـ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام والبيعة التاريخية المميّزة لأمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة:

لقد كان عامة المسلمين يتطلّعون بلهفة الى من سيخلف عثمان بن عفّان عندما تتمخّض الأحداث عن قتله أو اعتزاله، ولقد كان الطامعون فيها أكثر من واحد، ومن بين اُولئك من عمّق مجرى الأحداث ووسّع دائرتها وأمدّ النار المتأجّجة بالوقود كطلحة والزبير وعائشة، وكان من أكثر الناس لهفة عليها طلحة، وبلغ به الحال أن سبق نتائج تلك الأحداث، وأخذ لنفسه المكان الذي قدّر أنّ الأيّام ستضعه فيه، فاستولى على بيت المال، وأقام الصلاة بالناس وعثمان محصور في داره لا يزال على قيد الحياة .

وبلا شك فإنّ الأربعة الباقين من الستّة أصحاب الشورى كانوا أوفر من سائر

الناس حظّاً، وكان نصيب علي عليه السلام أوفر من نصيب الجميع، وإليه تتّجه الجماهير في المدينة وخارجها، وحتى الثوار لم يعدلوا به أحداً؛ لأنّهم يعلمون بأنّه سيحقّق لهم الأهداف التي ثاروا من أجلها، ويعلمون في الوقت ذاته أنّ طلحة والزبير لم يغضبا للحقّ ولله، وأنّهما لا يختلفان عن عثمان وبطانته، وتأكّد ذلك لهم من موقفهما من عثمان خلال الأيام التي سبقت قتله.

وذكر البلاذري في أنساب الأشراف: أنّ عليّاً عليه السلام لزم منزله بعد يأسه من إصلاح الأمر بين الفريقين، فلما قتل عثمان وفرغ الناس من أمره وأدركوا أنّه لا بدّ لهم من إمام يجتمعون عليه؛ جاء الناس يهرعون إلى عليّ، وهم يقولون: إنّ أميرنا عليّ بن أبي طالب، حتى دخلوا عليه الدار، وقالوا: امدُد يدك حتى نبايعك، فقال: «ليس ذلك إليكم، إنّما ذلك لأهل بدر، فمن رضي به البدريون فهو الخليفة»، فلم يبق أحد من أهل بدر إلاّ أتى عليّاً فقالوا: ما نرى أحداً أحقّ بها منك يا أبا الحسن[(١)].

وقال الطبري في الجزء الثالث من تأريخه:«إنّ أصحاب رسول الله جاءوه بعد مقتل عثمان، فقالوا له: لا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحقّ بهذا الأمر منك، فقال: لا تفعلوا فإنّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، وما زالوا به حتى قبل بيعتهم، ولكنه أبى إلا أن تكون في المسجد ويرضى جميع الناس»[(٢)].

وفي رواية ثالثة: أنّه أصرّ على رفض البيعة بالرغم من الإلحاح الشديد عليه،

---

(١) أنساب الأشراف ٢: ٢٠٥ ـ ٢١٩، بيعة الإمام عليّ بن أبي طالب.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٥٠ (حوادث سنة ٣٥ هجرية).

فتوسّلوا بالأشتر لإقناعه، وكان على رأس وفد الكوفة، فقال له: أبسط يدك نبايعك، فرفضها، فألحّ عليه، وخوّفه الفتنة إن هو بقي على موقفه، وما زال به حتى أقنعه، فبايعه الوجوه، ثم انثال عليه الناس من كلّ جانب، وقام الزبير فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها الناس! إنّ الله قد رضي لكم حكم الشورى، فأذهب به الهوى، وقد تشاورنا فرضينا عليّاً فبايعوه»(١).

وجاء في «الإمامة والسياسة» عن أبي ثور أنّه قال: «لمّا كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في أثر علي عليه السلام والناس حوله يبايعونه، فدخل حائطاً من حيطان بني مازن، فألجأوه إلى نخلة وحالوا بيني وبينه، فنظرت إليهم وقد أخذتْ أيدي الناس ذراعه تختلف أيديهم على يده، ثم أقبلوا به الى المسجد الشريف، فكان أوّل من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده، وكانت أصابعه شلاّء، فتطيّر منها بعض من حضر وقال: لا يتمّ والله هذا الأمر! ثم بايعه الزبير وأصحاب النبيّ وجميع من في المدينة من المسلمين»(٢).

وقد وصف هو (سلام الله عليه) موقف المسلمين منه وإصرارهم على بيعته في خطبته المعروفة بالشقشقية، حيث قال: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ينثالون عليّ من كلّ جانب مجتمعين حولي كربيضة الغنم، حتى لقد وطئ الحسنان وشُقَّ عطفاي، فلمّا قمت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنّهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**(٣)».

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٤٦ (ذكر بيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام).

(٢) المصدر السابق ١: ٤٧ (ذكر بيعة عليّ بن علي أبي طالب عليه السلام).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٣).

ومضى في خطبته هذه يصف موقفه من الخلافة فقال: «أما والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[(١)].

لقد تمّت البيعة لعلي عليه السلام بعد ما رأى أن لا مفر له منها في ذلك الجوّ المشحون بالفتن والاختلافات؛ وذلك بعد وفاة عثمان بثلاثة أيّام أو خمسة، وبايعه جميع المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن وفدوا على المدينة من الأمصار الثلاثة، ولم يتخلّف عن بيعته من القرشيّين سوى أفراد قلائل، كان من بينهم مروان بن الحكم وسعد بن أبي وقّاص وعبدالله بن عمر[(٢)].

وليس بغريب على مروان بن الحكم والأُمويين إذا هم تخلّفوا عن بيعة عليّ أو كرهوها، كما يبدو للمتتبّع في تاريخ البيت الأُموي مع الهاشميّين وغيرهم من أصحاب الرسالات.

وأمّا سعد بن أبي وقّاص فلقد كان يتمنّاها لنفسه، ولو وسعه العمل من أجلها لم يقصر، ولعله قد بدأ يفكّر فيها، فقد جعله ابن الخطاب أحد من تدور الخلافة في فلكهم وأعطاه أكثر مما يستحق، ولا أظنّه قبل ذلك كان يفكّر فيها، أو يتصوّر أنّ المسلمين سيجعلونه الى جانب عليٍّ في يوم من الأيام، ولكنّه بعد أن

---

(١) علل الشرائع ١: ١٥١، ب ١٢٢، ح ١٢، الإرشاد للمفيد ١: ٢٨٩ (الخطبة الشقشقية)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٠٠ (أخبار عثمان).

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٨ (ذكر خلافة عليّ عليه السلام)، تاريخ الطبري ٣: ٤٥٠ – ٤٥١ (حوادث سنة ٣٥ هجرية).

رأى انصراف الناس حتى عن طلحة والزبير وهما أبرز منه، ولهما مكانتهما بين صحابة الرسول في المصرَين الكوفة والبصرة لم يتعرّض لها، واكتفى أن يعتزل ولا يبايع عليّاً عليه السلام تضامناً مع الأُمويين الذين تربطه بهم القرابة من قبل أُمّه حمئة، وكان هواه معهم، ولم يقف منهم موقفاً معادياً حتى بعد أن عزله عثمان عن الكوفة وأعطاها لأخيه الوليد(١)، وأمير المؤمنين يعلم منه ذلك كما يعلم بموقف الأُمويين وبما سيؤول إليه أمر طلحة والزبير وأكثر القرشيّين.

وقد وصف موقفهم منه بعد البيعة بقوله: «اللهم، إنّي أستعديك على قريش، فإنّهم قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي، فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذابّ ولا ساعد إلا أهل بيتي»(٢).

وقال مرة أخرى: «ما لي ولقريش؟ والله قاتلتهم كافرين ولأُقاتلنّهم مفتونين، وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»(٣).

ومهما كان الحال فلمّا دُعي سعد بن أبي وقّاص الى البيعة تمنّع منها تضامناً مع الأُمويين، فتركه أمير المؤمنين ولم يسمح للثائرين أن يستعملوا معه العنف، ولمّا دعي إليها عبدالله بن عمر بن الخطاب وامتنع منها طلب منه كفيلاً بأن لا يشترك مع أحد في عمل ضدّه، ولمّا امتنع عن تقديم الكفيل تركه وقال للناس: «خلّوه فأنا كفيله»، ثم التفت إليه وقال: «اذهب، فإنّي ما علمتك إلا سيّئ الخلق صغيراً وكبيراً»(٤).

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٢: ٤٤٢-٤٤٣، حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٣٨٤.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٠٢، خ ٢١٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٩٦ (ذكر خطبة علي عليه السلام بعد مقتل عثمان).

(٣) نهج البلاغة ١: ٨١ - ٨٢ / خ ٣٣.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٠٧، عن الشعبي، مؤسسة الأعلمي بيروت ط الأُولى (١٣٩٤ هـ)، عنه بحار الأنوار ٣٢: ٨ ضمن ح ٢.

ولمّا تمّت البيعة انصرف أمير المؤمنين عليه السلام منذ اليوم الأوّل يجنّد كلّ إمكانياته لإصلاح ما أفسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة، تلك البطانة التي تركت جميع الأجهزة تنخر بالفساد والانحلال، وكان يرى أنّ الواجب يدعوه لمعالجة الأهمّ فالأهمّ من المشاكل المستعجلة التي يتضجّر منها الناس، وتأتي في طليعتها مشكلة الولاة التي أثارت تلك الضجّة على الخليفة الراحل وأودت بحياته، حتى إذا فرغ منها اتّجه الى غيرها من المشاكل التي يراها أكثر إلحاحاً وأعمّ نفعاً، ولم يكن ذلك ليمنعه من أن يبسط للناس السياسة التي سينتهجها في عهده الجديد .

وبعد أيام قلائل من خلافته وقف على المنبر ليعلن على الملأ المحتشد من حوله إلغاء بعض الأنظمة التي اتّبعها أسلافه خلال عشرين عاماً أو تزيد، وكان على ثقة بأنّ عمر بن الخطاب حينما قسّم الفيء حسب أقدار الناس وقدمهم في الإسلام قد استجاب لمصالحه الذاتية أكثر مما استجاب لمبادئ الإسلام، وأنّ عثمان بن عفان حينما ترك أهله يعبثون به ويفسدون في الأرض قد استجاب للعنصرية الجاهلية وللروح الأُموية الحاقدة على الإسلام الذي لا يعطي أحداً على حساب أحد من الناس[1].

٢ ـ استنجاد الإمام علي عليه السلام بالكوفة لدرء فتنة الناكثين:

بينا كان الإمام علي عليه السلام يتهيّأ لمواجهة معاوية لمّا أعلن التمرّد على حكومته ورفض بيعته، وبينا هو جادّ في تدبير الأمر، إذ فاجأه الخبر عن هياج بعض أهل مكة للطلب بدم عثمان بتحريض من طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم من

---

(١) راجع سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني ١ : ٣٩٠ ـ ٣٩٣ .

الأُمويين، فأشفق من انشقاق الكلمة واختلاف شمل المسلمين، ورأى أنّ خطرهم أقوى من خطر معاوية، وشرّهم أقوى من شرّه، وإذا لم يبادر لإخماد هذه الفتنة فإنّها يوشك أن تتّسع ويكثر التمرّد والاختلاف، فتجهّز للتحرك نحوهم، وشمّرت لنصرته البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار، وخرجوا مسرعين ليلحقوا بهم قبل أن يدخلوا مصراً من الأمصار فيفسدوه، فلمّا بلغوا الربذة علموا بسبقهم الى البصرة وبالحوادث التي جرت فيها، فأقام الإمام عليه السلام بالربذة أيّاماً يحكّم أمره، وأرسل الى جماهير أهل الكوفة يستنجد بهم ويدعوهم الى نصرته والقيام معه لإخماد نار الفتنة، وأوفد للقياهم محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن جعفر، وزوّدهما برسالة جاء فيها: «أنّي اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، كونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيّدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد لتعود الأُمّة إخواناً، ومن أحبّ ذلك وآثره فقد أحبّ الحقّ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحقّ وأغمضه»[1].

وعرض الرسولان رسالة الإمام علي عليه السلام على أبي موسى الأشعريّ والي الكوفة، إلا أنّهما لم يجدا منه أيّة استجابة، وإنّما وجداه يثبّط العزائم ويمنع الناس من الاستجابة لنداء الخليفة، وبرّر عناده قائلاً: «والله، إنّ بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بدّ من القتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان ...»[2].

فأوفد الإمام علي عليه السلام لِلقيا الأشعري رسولاً ثالثاً، هو هاشم المرقال، وزوّده

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٩٤ (حوادث سنة ٣٦ هجرية)، الكامل في التاريخ ٣: ٢٢٣ (حوادث سنة ٣٦ هجرية).

(٢) الغارات للثقفي ٢: ٩٣٢ (ذكر وقعة الجمل)، البداية والنهاية ٧: ٢٦٣ (ذكر مسير عليّ عليه السلام الى البصرة).

برسالة جاء فيها: «إنّي وجّهت هاشماً لينهض بمن قِبَلك من المسلمين إليّ، فأشخص الناس، فإنّي لم أُولّك إلا لتكون من أعواني على الحقّ».

إلا أنّ الأشعري أصرّ على تمرّده، فأرسل هاشم الى الإمام رسالة يخبره فيها بفشله في مهمّته وإخفاقه في سفارته.

٣ ـ إيفاد الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة لدرء الفتنة:

بعد أن عرف الإمام عليّ عليه السلام إصرار أبي موسى وعدم إفلاح الرسل معه بعث إليه ولده الحسن ومعه عمار بن ياسر، وأرسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى عن منصبه وتعيين قرضة بن كعب مكانه، وهذا نصّ رسالته: «أمّا بعد، فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك نصيباً منه، يمنعك عن ردّ أمري، وقد بعثت الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر يستفزّان الناس، وبعثت قرضة بن كعب والياً على المصر، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن ينابذك»(١).

ووصل الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة، فالتأم الناس حوله زمراً، وهم يعربون له عن انقيادهم وطاعتهم، ويظهرون له الولاء والإخلاص، وأعلن الإمام عليه السلام عزل الوالي المتمرّد عن منصبه، وتعيين قرضة محلّه، ولكنّ أبا موسى بقي مصرّاً على موقفه، فأقبل على عمار بن ياسر يحدّثه في أمر عثمان علّه أن يجد في حديثه فرجة، فيتّهمه بدم عثمان ليتّخذ من ذلك وسيلة الى خذلان الناس عن الإمام فقال له:

«يا أبا اليقظان! أعدوت فيمن عدا على أميرالمؤمنين، فأحللت نفسك مع

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١ : ٤٣٤.

الفجار»؟ فأجابه عمّار: «لم أفعل، ولم تسؤني».

وعرف الإمام الحسن عليه السلام غايته، فقطع حبل الجدال، وقال له: «يا أبا موسى! لِمَ تثبّط عنّا الناس؟».

وأقبل الإمام يحدّثه برفق ولين لينزع روح الشرّ والعناد عن نفسه قائلاً: «يا أبا موسى! والله ما أردنا إلا الإصلاح، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء».

فقال أبو موسى: «صدقت بأبي أنت وأُمي، ولكنّ المستشار مؤتمن».

فأجابه الإمام عليه السلام: «نعم».

فقال أبو موسى:«سمعت رسول الله يقول: إنّها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب، وقد جعلنا الله عزّو جلّ إخواناً، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بالْبَاطِلِ إلا أَن تَكُونَ تجَارَةً عَن تَرَاضٍ منْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً**﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**﴾»[2].

فردّ عليه عمّار قائلاً: «أنت سمعت هذا من رسول الله؟».

قال: أبو موسى: «نعم، وهذه يدي بما قلت».

فالتفت عمّار الى الناس قائلاً: «إنّما عنى رسول الله بذلك أبا موسى، فهو قاعد خير من قائم»[3].

---

(١) سورة النساء: الآية(٢٩).

(٢) سورة النساء: الآية (٩٣).

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥، وانظر: الفتنة ووقعة الجمل للضبّي: ١٣٨-١٣٩ (ذكر موقف أبي موسى الأشعري).

وخطب الإمام الحسن عليه السلام في الناس قائلاً: «أيّها الناس! قد كان في مسير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ورؤوس العرب، وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم، وتعلمون أنّ وهن النساء وضعف رأيهنّ الى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوّامين على النساء، وأيم الله، لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم»(١).

وبقي أبو موسى مصرّاً على موقفه يثبّط العزائم، ويدعو الناس الى القعود وعدم نصرة الإمام، فعنّفه الإمام الحسن عليه السلام قائلاً: «اعتزل عملنا أيّها الرجل، وتنحّ عن منبرنا لا اُمّ لك!».

وقام الإمام عليه السلام خطيباً بالناس فقال لهم:

«أيّها الناس! أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا الى إخوانكم، فإنه سيوجد الى هذا الأمر من ينفر إليه، والله لئن يليه اُولو النهى أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم، وأنّ أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وأنّي أذكر الله رجلاً رعى حقّ الله إلا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ. والله، إنّ طلحة والزبير لأوّل من بايعني، وأوّل من غدرا، فهل استأثرت بمال أو بدّلت حكماً؟ فانفروا وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر»(٢).

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، وانظر: أمالي الطوسي: ٧١٩ - ٧٢٠، ح ١٥١٨، الفتنة ووقعة الجمل للضبّي: ١٤٢ (ذكر موقف أبي موسى الأشعري)، تاريخ الطبري ٣: ٤٩٩ ـ ٥٠٠ (حوادث سنة ٣٦ هجرية).

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، وانظر: أمالي الطوسي: ٧١٩ - ٧٢٠، ح ١٥١٨، الفتنة ⇐

فأجابه الناس بالسمع والطاعة، ولكن مالك الأشتر رأى أنّ الأمر لا يتمّ إلا بإخراج أبي موسى مهان الجانب محطّم الكيان، فأقبل مع جماعة من قومه فأحاطوا بالقصر ثم أخرجوا الأشعري منه، وبعد أن استتبّ الأمر للإمام الحسن عليه السلام أقبل يتحدّث الى الناس بالخروج للجهاد قائلاً: «أيّها الناس، إنّي غاد، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر (أي على الدوابّ) ومن شاء فليخرج في الماء»[1].

واستجابت الجماهير لدعوة الإمام، فلمّا رأى ذلك قيس بن سعد غمرته الأفراح، وأنشأ يقول:

جزى الله أهل الكوفة اليوم نصرةً أجابوا ولم يأبوا بخذلان من خذل
وقالوا عليّ خير حاف وناعل رضينا به من ناقضي العهد من بدل
همـا أبرزا زوج النبيّ تعمّدا يسوق بها الحادي المخبّ على جمل[2]

وعجّت الكوفة بالنفير ونزحت منها آلاف كثيرة، وقد بدا عليهم الرضا والقبول، وساروا وهم تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام، فانتهوا الى ذي قار[3]، وقد التقوا بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان مقيماً هناك، فسرّ بنجاح ولده، وشكر له جهوده ومساعيه.

⇐

ووقعة الجمل للضبّي: ١٤٢ (ذكر موقف أبي موسى الأشعري)، تاريخ الطبري ٣: ٤٩٩ ـ ٥٠٠ (حوادث سنة ٣٦ هجرية).

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، وانظر: أمالي الطوسي: ٧١٩ - ٧٢٠ / ح ١٥١٨، الفتنة ووقعة الجمل للضبّي: ١٤٢ (ذكر موقف أبي موسى الأشعري)، تاريخ الطبري ٣: ٤٩٩ ـ ٥٠٠ (حوادث سنة ٣٦ هجرية).

(٢) أمالي الطوسي: ٧٢٠، ح ١٥١٨، بحار الأنوار ٣٢: ٧٤، ح ٤٨.

(٣) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يقع بينها وبين واسط. معجم البلدان ٤: ٢٩٣، باب القاف وما يليها.

٤ ـ التقاء الفريقين في البصرة وخطاب الإمام الحسن عليه السلام:

وتحرّكت كتائب الإمام من ذي قار حتى انتهت الى الزاوية[١]، وبعث عليه السلام الى عائشة يدعوها الى حقن الدماء وجمع كلمة المسلمين، كما بعث عليه السلام برسالة الى طلحة والزبير يدعوهما الى الوئام ونبذ الشقاق[٢]، إلا أنّهم جميعاً لم يستجيبوا لنداء الحقّ، وأصرّوا على مقاومة الإمام ومناجزته .

وكان عبدالله بن الزبير من أشدّ المحرّضين على الفتنة وإراقة الدماء ، وقد أفسد جميع الوسائل التي صنعها أمير المؤمنين عليه السلام لتحقيق السلم ، وقد خطب في جموع البصريين ودعاهم الى الحرب، وهذا نصّ خطابه: «أيّها الناس! إنّ علي ابن أبي طالب قتل الخليفة بالحقّ عثمان، ثمّ جهّز الجيوش إليكم ليستولي عليكم، ويأخذ مدينتكم، فكونوا رجالاً تطلبون بثأر خليفتكم، واحفظوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم وأحسابكم وأنسابكم، أترضون لأهل الكوفة أن يردوا بلادكم؟ اغضبوا فقد غوضبتم، وقاتلوا فقد قوتلتم، ألا وإنّ عليّاً لا يرى معه في هذا الأمر أحداً سواه. والله، لئن ظفر بكم ليهلكنّ دينكم ودنياكم!».

وبلغ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خطاب ابن الزبير، فأوعز الى ولده الإمام الحسن عليه السلام بالردّ عليه، فقام خطيباً، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال : «قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي وقوله فيه : إنّه قتل عثمان، وأنتم ـ يا معشر المهاجرين والأنصار وغيرهم من المسلمين ـ علمتم بقول الزبير في عثمان، وما كان اسمه عنده ، وما كان يتجنّى عليه، وأنّ طلحة يومذاك ركز رايته على بيت

---

(١) الزاوية: موضع قريب من البصرة . (معجم البلدان ٣: ١٢٨)، باب الزاي والألف .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١ : ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

ماله وهو حيّ، فأنّى لهم أن يرموا أبي بقتله وينطقوا بذمّه؟! ولو شئنا القول فيهم لقلنا. وأمّا قوله : إنّ علياً ابتزّ الناس أمرهم، فإنّ أعظم حجّة لأبيه زعم أنّه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة، فليأت على ما ادّعاه ببرهان وأنّى له ذلك؟وأمّا تعجّبه من تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حقّ تورّدوا على أهل باطل! أمّا أنصار عثمان فليس لنا معهم حرب ولا قتال، ولكنّنا نحارب راكبة الجمل وأتباعها»(١).

٥ ـ الإمام علي مع ابنه الحسن عليهما السلام في الكوفة بعد حرب الجمل:

بعد أن وضعت حرب الجمل أوزارها توقّف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شهراً في البصرة، ثم غادرها متوجّهاً الى الكوفة، مخلّفاً عبدالله بن عباس عليها، وقد مكث أمير المؤمنين عليه السلام عدّة أشهر في الكوفة قبل أن يتحرك نحو صفّين لقتال القاسطين (أي معاوية وأنصاره)، وقد قام خلال هذه الفترة بتعيين وظائف ولاته وتنظيم الأُمور، كما وتبادل الرسائل مع معاوية وغيره من المتمرّدين على خلافته عليه السلام .

٦ ـ خطاب الإمام الحسن عليه السلام وبلاغته وقوّة حجّته:

نقل العلامة المجلسي(رضوان الله تعالى عليه)، عن كتاب «العُدد» روايةً أشارت الى أنّ بعض أهل الكوفة اتّهموا الإمام الحسن عليه السلام بضعف الحجّة والعجز عن الخطابة، وهذه الرواية قد تكون متعلّقة بهذه الفترة الزمنية من

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١ : ٤٤٤.
وقد ذكر الخطبتين بتفاوت واختصار، الشيخ المفيد في كتاب الجمل: ١٧٥ (خطبة ابن الزبير وخطبة الحسن عليه السلام) وابن أعثم في كتاب الفتوح ٢: ٤٦٦ ـ ٢٦٧ (ذكر خطبة ابن الزبير وخطبة الحسن عليه السلام).

التاريخ.

وعندما سمع أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الأراجيف والاتهامات دعا ولده الإمام الحسن عليه السلام ليلقي في أهل الكوفة خطاباً، يفنّد فيه تلك المزاعم، فاستجاب المجتبى عليه السلام لدعوة أبيه عليه السلام، وألقى في حشود من الكوفيين خطاباً بليغاً، جاء فيه: «أيّها الناس! اعقلوا عن ربّكم، إنّ الله عزّوجلّ اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرّيّةً بعضها من بعض والله سميع عليم، فنحن الذرّيّة من آدم والأُسرة من نوح، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، وآل من محمّد صلى الله عليه وآله، نحن فيكم كالسماء المرفوعة، والأرض المدحوّة، والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونة، لا شرقية ولا غربية، التي بورك زيتها، النبيّ أصلها، وعليّ فرعها، ونحن ـ والله ـ ثمرة تلك الشجرة، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجا، ومن تخلّف عنها فإلى النار هوى ...».

وبعد أن انتهى الحسن عليه السلام من خطابه صعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وقال: «يا بن رسول الله! أثبَتَّ على القوم حجّتَك، وأوجبْتَ عليهم طاعتك، فويلٌ لمن خالفك»[1].

٧ ـ تهيّؤ الإمام علي عليه السلام لمواجهة معاوية ومناجزته:

لمّا أخفقت جميع الوسائل التي سلكها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من أجل السلم بعد إصرار معاوية على محاربة السلطة الشرعية والإطاحة بالخلافة الإسلامية وإعادة المثل الجاهلية وزحفه بجيشه الى صفين واحتلال الفرات،

---

(١) بحار الأنوار ٤٣: ٣٥٨، ح ٣٧، عن العُدد القويّة: ٣١-٣٢، ح ٢١.

تهيّأ عليه السلام للحرب، وقد استدعى المهاجرين والأنصار الذين خفّوا لنجدته، فقال لهم : «إنّكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحقّ، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير الى عدوّنا فأشيروا علينا برأيكم» .

فانطلق عدد من كبار الشخصيات الإسلامية من أمثال: عمّار بن ياسر وسهل ابن حنيف ومالك الأشتر وقيس بن سعد وعدي بن حاتم وهاشم بن عتبة، ليعربوا عن دعمهم لقرار الإمام عليه السلام في السير الى العدوّ ومواجهته[(١)].

وكان قد خطب الإمام الحسن عليه السلام خطاباً هامّاً وقتذاك قال فيه : «الحمد لله لا إله غيره، وحده لا شريك له، وأُثني عليه بما هو أهله، إنّ ممّا عظّم الله عليكم من حقّه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدّى شكره، ولا يبلغه صفة ولا قول، ونحن إنّما غضبنا لله ولكم، فإنّه منّ علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه قولاً يصعد الى الله فيه الرضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق، يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربّنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنّه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم، فاحتشدوا في قتال عدوّكم معاوية وجنوده، فإنّه قد حضر، ولا تخاذلوا، فإنّ الخذلان يقطع نياط القلب، وإنّ الإقدام على الأسنّة نجدة وعصمة؛ لأنّه لم يمتنع[(٢)] قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العلّة، وكفاهم جوائح[(٣)] الذلّة، وهداهم معالم الملّة.

ثم أنشد:

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٩٢ – ٩٤ (ذكر استشارته عليه السلام للمهاجرين والأنصار في المسير إلى الشام)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١٧١ – ١٧٤ (ذكر كلامه عليه السلام لأصحابه).

(٢) الامتناع : العزّة والقوة .

(٣) الجوائح : جمع، مفردها جائحة، وهي الدواهي والشدائد .

والصلح تأخذ منه ما رضيت به   والحرب يكفيك من أنفاسها جرع [(١)]

لقد حفل خطابه البليغ بالدعوة إلى الوحدة والتعاون لمحاربة الطغاة البغاة، واستجاب الناس لدعوته، فأسرعوا لنصرة الحقّ والدفاع عن الدين الحنيف.

٨ ـ حضور الإمام الحسن عليه السلام المتميّز في معركة صفّين :

احتشد الجيشان في صفّين، وبَذَلَ الإمام عليّ عليه السلام العديد من المساعي لتفادي وقوع الحرب مع معاوية، إلا أنّها لم تفلح، ممّا اضطرّ الإمام عليّ عليه السلام لخوض غمار حرب استمرت عدة أشهر، وراح خلالها ضحيةً لسلطوية معاوية الآلاف من المسلمين والمؤمنين .

وكان للإمام الحسن عليه السلام دور بارز في حرب صفّين، فقد نقل المؤرّخون: أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عندما نظّم صفوف جيشه جعل الميمنة بقيادة الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الإمام الحسين عليه السلام وعبدالله بن جعفر ومسلم بن عقيل [(٢)] .

وفي هذه الأثناء أراد معاوية أن يجسّ نبض الإمام الحسن عليه السلام، فبعث إليه عبيدالله بن عمر يمنّيه بالخلافة ويخدعه حتى يترك أباه عليه السلام، فانطلق عبيدالله فقال له : «لي إليك حاجة».

فقال له عليه السلام : «نعم، ما تريد»؟

فقال له عبيدالله : «إنّ أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنأوه فهل لك أن تخلفه ونولّيك هذا الأمر؟» .

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام بكلّ حزم : «كلا والله، لا يكون ذلك»، ثم أردف

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١٨٥ - ١٨٦ (ذكر كلام عليّ عليه السلام لأصحابه).
(٢) المناقب لابن شهرآشوب ٢: ٣٥٢ (فصل في ما ظهر من عليّ عليه السلام في حرب صفين) .

قائلاً: «لكأنّي أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك، أما إنّ الشيطان قد زيّن لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوق[١] وترى نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً».

ورجع عبيدالله الى معاوية وهو خائب حسير قد أخفق في مهمته، وأخبره بحديث الإمام عليه السلام فقال معاوية: «إنّه ابن أبيه».

وخرج عبيدالله في ذلك اليوم الى ساحة الحرب يقاتل مع معاوية، فلقي حتفه سريعاً على يد رجل من قبيلة همدان، واجتاز الإمام الحسن عليه السلام في ساحة المعركة، فرأى رجلاً قد توسّد رجلاً قتيلاً وقد ركز رمحه في عينه وربط فرسه في رجله، فقال الإمام عليه السلام لمن حوله: «اُنظروا من هذا»؟ فأخبروه أن الرجل من همدان وأنّ القتيل عبيدالله بن عمر[٢].

ومن الواضح أنّ هذا الحادث من كرامات الإمام الحسن عليه السلام، حيث أخبر عن مصير عبيدالله قبل وقوعه، وأنبأه بنهايته الذليلة، وقد تحقّق ذلك بهذه السرعة.

٩ ـ حرص الإمام علي عليه السلام على حياة الإمام الحسن عليه السلام: «املكوا عنّي هذا الغلام»:

لم تكن المواجهة في صفّين على وتيرة واحدة، فكانت تارةً على شكل مناوشات بين الفريقين، وتارة أخرى كانت بصورة التحام كامل بين الجيشين،

---

(١) الخلوق: الطيب.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٢٩٧-٢٩٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ٢٣٣ (ذكر أخبار صفّين)، وانظر حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١: ٤٩٢- ٤٩٣.

وأوّل مواجهة حيث اتّخذت شكل الالتحام العام رأى الإمام علي عليه السلام ابنه الإمام الحسن عليه السلام يستعدّ ليحمل على صفوف أهل الشام، فقال لمن حوله: «املكوا عنّي هذا الغلام، لا يهدّني[1] فإنّني أنفس[2] بهذين الغلامين ـ يعني الحسن والحسين ـ لئلاّ ينقطع بهما نسل رسول الله»[3] .

١٠ ـ الإمام الحسن عليه السلام و قصّة التحكيم :

بعد أن مضت عدّة أشهر على المواجهة بين جيش الإمام علي عليه السلام وجيش معاوية، وبعد الخسائر الكبيرة التي لحقت بالجانبين، أوشك جيش الحقّ بقيادة أمير المؤمنين عليه السلام على تحقيق النصر ووضع حدٍّ لهذا النزف الذي أوجده معاوية في جسم الأُمّة الإسلامية، إلا أنّ عمرو بن العاص أنقذ جيش معاوية من الهزيمة المؤكدة، عندما دعا هذا الجيش الى رفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم القرآن بين الجانبين .

واضطرّ الإمام علي عليه السلام لقبول التحكيم بعد أن مارس جمع من المقاتلة ضغوطاً كبيرة عليه، فقد انطلت عليهم خدعة ابن العاص بسبب جهلهم، كما وظّف المنافقون والانتهازيون القضية لتدعيم ضغوط الجهلة على الإمام المظلوم عليه السلام.

وبعد أن انخدع أبو موسى الأشعري ـ ممثّل العراقيّين ـ بحيلة عمرو بن العاص ـ ممثّل الشاميين ـ في قضيّة التحكيم؛ التفتَ الذين فرضوا التحكيم على

(١) يهدّني : يهلكني .

(٢) أنفس : أبخل .

(٣) نهج البلاغة ٢: ١٨٦ / خ ٢٠٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٢٥ (من كلام له عليه السلام في صفّين رقم المتن ٢٠٠)، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦٢ / ح ٤٦٧.

الإمام عليه السلام الى الخطأ الجسيم الذي وقعوا فيه، فتوجّهوا الى الإمام علي عليه السلام يطلبون منه أن ينقض تعهداته التي أمضاها استجابة لضغوطهم، وأن يستأنف الحرب مع معاوية، وفوق ذلك كلّه اعتبروا أنّ الإمام عليه السلام أخطأ بقبوله التحكيم، فرفعوا شعار «لا حكم إلا لله»، الأمر الذي بات ينذر باضطراب آخر وفاجعة جديدة في أوساط جيش الإمام علي عليه السلام .

ومن هنا رأى الإمام عليه السلام ضرورة الحيلولة دون وقوع الفاجعة، وذلك بأن يدعو شخصاً يتمتّع بثقة الجميع واحترامهم ليلقي فيهم خطاباً يتضمّن إبطالاً لحكم أبي موسى الأشعري بالدليل والبرهان، ويبيّن لهم مشروعية القبول بأصل التحكيم، فاختار الإمام عليه السلام ابنه الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «قم يا بنيّ، فَقُل في هذين الرجلين: عبدالله بن قيس (يعني: أبو موسى الأشعري)، وعمرو بن العاص»، فقام الإمام الحسن عليه السلام فاعتلى أعواد المنبر، وهو يقول : «أيّها الناس! قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنّما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمَّ حكماً ولكنّه محكوم عليه، وقد أخطأ عبدالله ابن قيس إذ جعلها لعبدالله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنّه خالف أباه إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى أنّه لم يستأمره في نفسه، وثالثها أنّه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس . وأمّا الحكومة فقد حكّم النبي صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريضة، فحكم بما يرضى الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وآله»[(١)] .

---

(١) شرح الأخبار٢: ٦-٧ / ح ٣٨٨، الإمامة والسياسة ١: ١٥٨ (ذكر رفع المصاحف)، وفيهما تفاوت في الألفاظ، وانظر حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١: ٥٣٠ ـ ٥٣٢.

لقد عرض الإمام الحسن عليه السلام في خطابه الرائع أهم النقاط الحسّاسة التي هي محور النزاع ومصدر الفتنة، فأبان عليه السلام أنّ المختار للتحكيم إنّما يتبع قوله، ويكون رأيه فيصلاً للخصومة فيما إذا حكم بالحقّ، ولم يخضع للنزعات والأهواء الفاسدة، وأبو موسى لم يكن في تحكيمه خاضعاً للحقّ، وإنّما اتّبع هواه، فرشّح عبدالله بن عمر للخلافة، مع أنّ أباه كان لا يراه أهلاً لها، مضافاً الى أنّ الشرط الأساس في الانتخاب اجتماع المهاجرين والأنصار على اختياره ولم يحصل ذلك له، كما أعرب عليه السلام في خطابه عن مشروعية التحكيم بالأمر الذي أنكرته الخوارج، مستدلاً عليه بتحكيم النبي صلى الله عليه وآله لسعد بن معاذ في بني قريضة.

١١ ـ وصية الإمام أمير المؤمنين التاريخية إلى ابنه الحسن عليهما السلام:

وجّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لدى عودته من صفّين بمنطقة يقال لها: «حاضرين» وصيةً مهمّة إلى ابنه الحسن عليه السلام، وقد تضمّنت دروساً بليغة وإليك نصّها:

«من الوالد الفانِ، المقرّ للزمان(١)، المدبِّر العمر، المستسلم للدنيا، الساكن مساكن الموتى، والظّاعن(٢) عنها غداً، الى المولود المؤمّل ما لا يُدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام(٣)، ورهينة(٤) الأيام، ورميّة(٥) المصائب...

(١) المقر للزمان: المعترف له بالشدة.

(٢) الظاعن: الراحل.

(٣) غرض الأسقام: هدف الأمراض ترمي إليه سهامها.

(٤) الرهينة: المرهونة.

(٥) ما أصاب السهم.

أمّا بعد: فإن فيما تبيّنت من إدبار الدنيا عنّي، وجموح الدهر[١] عليّ، وإقبال الآخرة إليّ، ما يَزَعُني[٢] عن ذكر مَن سواي، والاهتمام بما ورائي[٣]، غير أنّي حيث تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسي، فصدفني[٤] رأيي، وصرفني عن هواي، وصرّح لي محض أمري[٥]، فأفضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لَعِب، وصدق لا يشوبه كَذِب. ووجدتُك بعضي، بل وجدتك كلّي، حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به[٦] إن أنا بقيتُ لك أو فنيتُ.

فإنّي أوصيك بتقوى الله ـ أي بُني ـ ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله. وأيُّ سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به؟

أحيي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة، وذلّله بذكر الموت، وقرّره بالفناء[٧]، وبصّره فجائع الدنيا، وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصاب مَن كان قبلك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا، وأين حَلّوا ونزلوا، فإنّك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبّة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم. فأصلِحْ مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تُكلّف.

---

(١) جموح الدهر: استقصاؤه وتغلّبه.

(٢) يزعني: يكفّني ويصدّني.

(٣) ما ورائي: كناية عن أمر الآخرة.

(٤) صدفه: صرفه.

(٥)محض الأمر: خالصه.

(٦) مستظهراً به: مستعيناً به.

(٧) قرره بالفناء: اطلب منه بالإقرار بالفناء.

وخُضِ الغمرات[١] للحقّ حيث كان، وتفقّه في الدّين، وعوّد نفسك التصبّر على المكروه، ونِعْمَ الخُلُق التصبر في الحقّ، وألجئ نفسك في أمورك كلّها الى إلهك، فإنّك تلجئها الى كهف[٢] حريز[٣] ومانع عزيز .

فتفّهم ـ يا بُنيّ ـ وصيّتي، واعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياة، وأنّ الخالق هو المميت، وأنّ المفني هو المعيد، وأنّ المبتلي هو المُعافي، وأنّ الدنيا لم تكن لتستقرّ إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد، أو ما شاء ممّا لا تعلم ... فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسوّاك، وليكن له تعبّدك، وإليه رغبتك، ومنه شفقتك[٤] .

واعلم ـ يا بُني ـ أنّ أحداً لم ينبئ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسول صلى الله عليه وآله فارضَ به رائداً، والى النجاة قائداً، فإنّي لم آلُك[٥] نصيحة، فإنّك لن تبلغ في النظر لنفسك ـ وإن اجتهدت ـ مبلغ نظري لك .

واعلم ـ يا بني ـ أنّه لو كان لربّك شريك لأتَتْكَ رُسلُه، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً ولم يزل . أوّلٌ قبل الأشياء بلا أوّليّة، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية، عَظُمَ عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بصر، فإذا عرفت ذلك، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صِغَر خَطَره[٦] وقلّة مقدرته وكثرة

---

(١) الغمرات : الشدائد .

(٢) الكهف : الملجأ .

(٣) حريز : الحافظ .

(٤) شفقتك : خوفك .

(٥) لم آلك النصيحة : لم أقصّر في نصيحتك .

(٦) خطره : أي قدره .

عجزه، وعظيم حاجته الى ربّه، في طلب طاعته، والخشية من عقوبته، والشفقة من سخطه، فإنّه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح .

... يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلم كما لا تُحبّ أن تُظلم، وأحسن كما تحبّ أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك .

واعلم أنّ الإعجاب(١) ضد الصواب، وآفة الألباب(٢)، فاسعَ في كدحك(٣)، ولا تكن خازناً لغيرك(٤)، وإذا أنت هديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربّك .

... واعلم أنّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه .

... ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب(٥) رحمته، فلا يُقنّطك(٦) إبطاء إجابته، فإنّ العطيّة على قدر النيّة، وربّما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك

---

(١) الإعجاب: استحسان ما يصدر عن النفس مطلقاً .

(٢) آفة : علّة .

(٣) الكدح : أشد السعي .

(٤) خازناً لغيرك : تجمع المال ليأخذه الوارثون بعدك .

(٥) شآبيب : جمع الشؤبوب ـ بالضم ـ وهو الدفعة من المطر، وما أشبه رحمة الله بالمطر ينزل على الأرض الموات فيحييها .

(٦) القنوط : اليأس .

أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربّما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأُوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرف عنك لما هو خيرٌ لك، فلرُبّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، ويُنفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

... يا بُني! أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجُم عليه، وتُفضي بعد الموت إليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك[١] وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فيبهرك[٢]. وإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد[٣] أهل الدنيا إليها، وتكالبهم[٤] عليها، فقد نبأك الله عنها، ونَعَتْ[٥] هي لك عن نفسها، وتكشّفتْ لك عن مساويها، فإنّما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية[٦]، يهرّ[٧] بعضها على بعض، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها .

... واعلم يقيناً أنّك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك، وأنّك في سبيل من كان قبلك، فخفّض[٨] في الطلب، وأجمل[٩] في المكتسب، فإنّه رُبَّ طلب قد جرّ الى حَرَب[١٠]، فليس كل طالب بمرزوق، ولا كل مجمل بمحروم، واكرِم نفسك عن

---

(١) الحذر ـ بالكسر ـ الاحتراز والاحتراس .
(٢) بهرَ ـ كمنع ـ: غلب، أي يغلبك على أمرك .
(٣) إخلاد أهل الدنيا : سكونهم إليها .
(٤) التكالب : التواثب .
(٥) نعاه : أخبر بموته، والدنيا بحالها عن فنائها .
(٦) ضارية : مولعة بالافتراس .
(٧) يهرّ ـ بكسر الهاء ـ يعوي وينبح، وأصلها هرير الكلب، وهو صوته دون حاجة من قلة صبره على البرد، فقد شبه الإمام أهل الدنيا بالكلاب العاوية .
(٨) خفّض : أمر من خفّض ـ بالتشديد ـ أي ارفق .
(٩) أجمل في كسبه : أي سعى سعياً جميلاً لا يحرص فيمنع الحق، ولا يطمع فيتناول ما ليس بحق .
(١٠) حَرَب ـ بالتحريك ـ سلب المال .

كل دنيّة(١) وإن ساقتك الى الرغائب(٢)، فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً(٣).

ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، وما خيرُ خير لا يُنال إلا بشرّ، ويسر(٤) لا يُنال إلا بعسر(٥)؟.

وإيّاك أن تُوجف(٦) بك مطايا(٧) الطمع، فتوردك مناهل(٨) الهلكة(٩)، وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، فإنّك مدركٌ قَسْمَكَ، وآخذ سهمك، وإنّ اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خَلْقِه وإن كان كلّ منه .

... ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، ولا ترغبنّ فيمن زهد عنك، ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا يَكبُرنَّ عليك ظلم من ظلمك، فإنّه يسعى في مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه.

واعلم يا بُنيّ! أنّ الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك، فإنّ أنت لم تأته

(١) الدنيّة : الشيء الحقير المبتذل .
(٢) الرغائب : جمع رغيبة، وهي ما يرغب في اقتنائه من مال وغيره .
(٣) عوضاً : بدلاً .
(٤) اليُسر : السهولة، والمراد سعة العيش .
(٥) العُسر : الصعوبة، والمراد ضيق العيش .
(٦) توجف: تسرع .
(٧) المطايا : جمع مطية، وهي ما يركب ويمتطى من الدواب ونحوها .
(٨) المناهل : ما ترده الإبل ونحوها للشرب .
(٩) الهلكة : الهلاك والموت .

أتاك، ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى! إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك(١) وإن كنت جازعاً على ما تفلّت(٢) من يديك، فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك، استدل على ما لم يكن بما قد كان، فإنّ الأُمور أشباه، ولا تكوننّ ممن لاتنفعه العظَة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإنّ العاقل يتّعظ بالآداب، والبهائم لا تتّعظ الا بالضرب.

... استَودِعِ الله دينك ودُنياك، واسألهُ خير القضاء لكَ في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة، والسلام»(٣).

١٢ ـ النهروان ومؤامرة قتل أمير المؤمنين عليه السلام :

أدّى نفاق وتمرّد بعض الجهلاء والمتظاهرين بالتديّن الى أن تتمرّد مجموعة كبيرة من جيش أمير المؤمنين عليه السلام، فترفض الانصياع لأوامره، بل ذهب هؤلاء المارقون إلى أبعد من ذلك عندما أصدروا حكماً بتكفير الإمام عليه السلام .

وبعد الجرائم التي ارتكبها المارقون في العراق اتّخذوا «النهروان» قاعدة لتمرّدهم، فاضطرّ الإمام عليه السلام الى التوجه نحوهم، وبعد أن تفاوض معهم وأتمّ الحجة عليهم؛ أعلن الحرب على من أصرّ منهم على انحرافه وعناده وكفره، فقضى عليهم كافة باستثناء أشخاص معدودين، وكان بين الأشخاص المعدودين الذين فرّوا في واقعة النهروان عبدالرحمن بن ملجم المرادي الذي كان يختزن

(١) مثواك : مُقامك، من ثوى يثوي : أقام يقيم، والمراد هنا منزلتك من الكرامة .

(٢) تفلّت ـ بتشديد اللام ـ: أي تملّص من اليد، فلم تحفظه .

(٣) نهج البلاغة ٣: ٣٧-٥٧ / وصية رقم ٣١، تحف العقول: ٦٨ -٨٨ (كتابه عليه السلام للحسن عليه السلام)، نظم درر السمطين: ١٦١- ١٦٩، كنز العمّال ١٦: ١٦٧ - ١٨٣ /ح ٤٤٢١٥. وفيها تفاوت يسير باللفظ.

في قلبه حقداً أعمى على الإمام المظلوم، فخطّط سرّاً للتآمر على حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وفي نهاية المطاف وبعد أن نسّق عمله مع عدد من الخوارج والمنافقين من أهل الكوفة؛ استطاع في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك في عام (٤٠) للهجرة أن يغتال الإمام علياً عليه السلام وهو في محراب العبادة وفي بيت الله ـ مسجد الكوفة ـ لينطلق في الآفاق نداؤه الخالد: «فزت وربِّ الكعبة»[١].

١٣ ـ الإمام الحسن عليه السلام في ليلة استشهاد أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

لما عزم الإمام علي عليه السلام على الخروج من بيته ـ قبل أن تشرق أنوار الفجر ـ إلى مناجاة الله وعبادته في مسجد الكوفة صاحت في وجهه إوز كانت قد أُهدِيَتْ الى الحسن، فتنبّأ عليه السلام من صياحهنّ وقوع الحادث العظيم والرزء القاصم، قائلاً: «لا حول ولا قوّة الا بالله، صوائح تتبعها نوائح».

وأقبل الإمام على فتح الباب فعسر عليه فتحها وكانت من جذوع النخل فاقتلعها، فانحلّ إزاره فشدّه وهو يقول:

أُشدد حيازيمك للموت فإنّ المـوت لاقيكا
ولا تجـزع من الموت إذا حـلّ بـواديكا[٢]

واضطرب الإمام الحسن عليه السلام من خروج أبيه في هذا الوقت الباكر فقال له: «ما أخرجك في هذا الوقت؟».

فأجابه عليه السلام: «رؤيا رأيتها في هذه الليلة أهالتني».

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٤٣٧ ـ ٤٤٤، ح ٧٩٣ ـ ٧٩٥ (ذكر المؤامرة والتاريخ لشهادة أمير المؤمنين عليه السلام)، الاستيعاب ٣: ١٢٣ ـ ١٢٥، ترجمة رقم ١٨٥٥.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٤: ٢٧٧.

فقال له الإمام الحسن عليه السلام : «خيراً رأيت، وخيراً يكون، قصّها عليّ». فأجابه الإمام علي عليه السلام : «رأيت جبرئيل قد نزل من السماء على جبل أبي قبيس، فتناول منه حجرين، ومضى بهما الى الكعبة، فضرب أحدهما بالآخر فصارا كالرميم، فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت الاّ ودخله من ذلك الرماد شيء».

فسأله عليه السلام : «ما تأويل هذه الرؤيا؟».

فقال عليه السلام : «إن صدقت رؤياي، فإن أباك مقتول، ولا يبقى بمكة ولا بالمدينة إلا دخله الهمّ والحزن من أجلي».

فالتاع الحسن وذهل وانبرى قائلاً بصوت خافت حزين النبرات : «متى يكون ذلك؟» .

قال الإمام عليه السلام : «إن الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ (١)، ولكن عهدهُ إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أنه يكون في العشر الأواخر من شهر رمضان، يقتلني عبدالرحمان بن ملجم» .

فقال الإمام الحسن عليه السلام : «إذا علمت ذلك فاقتله» .

فقال الإمام عليّ عليه السلام : «لا يجوز القصاص قبل الجناية، والجناية لم تحصل منه».

وأقسم الإمام على ولده الحسن أن يرجع الى فراشه، فلم يجد الحسن بدّاً من الامتثال (٢).

---

(١) سورة لقمان : الآية (٣٤).

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٨ – ٢٧٩، حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

١٤ ـ الإمام الحسن عليه السلام بجوار والده عليه السلام الجريح:

وصل أمير المؤمنين عليه السلام مسجد الكوفة ووقعت تلك الفاجعة العظمى على يد أشقى الأشقياء، وسمع أهل الكوفة بالفاجعة، فهرعوا الى المسجد وخفّ أبناء الإمام عليه السلام مسرعين، وكان الإمام الحسن عليه السلام في مقدّمة الذين وصلوا المسجد، فوجد أباه عليه السلام صريعاً في محرابه وقد تخضّب وجهه ولحيته بدمه، وجماعة حافّين به يعالجونه للصلاة، ولمّا وقع نظره على ولده الحسن عليه السلام أمره أن يصلّي بالناس، وصلّى الإمام وهو جالس والدم ينزف منه.

ولمّا فرغ الحسن عليه السلام من صلاته؛ أخذ رأس أبيه فوضعه في حجره، وسأله: «من فعل بك هذا»؟ فأجابه قائلاً: «عبدالرحمان بن ملجم»، فقال الإمام الحسن عليه السلام: «من أيّ طريق مضى»؟ فقال الإمام عليّ عليه السلام: «لا يمض أحد في طلبه، إنّه سيطلع عليكم من هذا الباب»، وأشار الى باب كندة، وما هي إلا فترة قصيرة وإذا بالناس يدخلون ابن ملجم من الباب نفسها، وقد جيء به مكتوفاً مكشوف الرأس، فأوقف بين يدي الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «يا ملعون! قتلت أمير المؤمنين وإمام المسلمين؟ هذا جزاؤه حين آواك وقرّبك حتى تجازيه بهذا الجزاء»؟

وفتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه وقال له بصوت خافت: «لقد جئت شيئاً إدّاً وأمراً عظيماً، ألم أشفق عليك وأُقدمك على غيرك في العطاء؟ فلماذا تجازيني بهذا الجزاء؟».

وقال لولده الحسن عليه السلام يوصيه ببرّه والإحسان إليه: «يا بني! ارفق بأسيرك وارحمه وأشفق عليه».

فقال الإمام الحسن عليه السلام: «يا أبتاه، قتلك هذا اللعين وفجعنا بك، وأنت تأمرنا

بالرفق به» .

فأجابه أمير المؤمنين : «يا بني، نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة، أطعمه مما تأكل، واسقه مما تشرب، فإن أنا متّ فاقتص منه بأن تقتله، ولا تمثّل بالرجل؛ فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور»، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به، وأنا أولى بالعفو، فنحن أهل البيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً»[(١)].

ونظر الحسن إلى أبيه وقد حرق الهمّ والجزع قلبه فقال له: «يا ابه، من لنا بعدك ؟ إنّ مصابنا بك مثل مصابنا برسول الله».

فضمّه الإمام وقال مهدّئاً روعه : «يا بني! أسكن الله قلبك بالصبر، وعظّم أجرك، وأجر إخوتك بقدر مصابكم بي» .

وجمع الحسن لجنة من الأطباء لمعالجته، وكان أبصرهم بالطبّ أثير بن عمرو السكوني[(٢)]، فاستدعى برئة شاة حارة فتتبع عِرقاً منها فاستخرجه فأدخله في جرح الإمام ثم نفخ العِرق فاستخرجه، فإذا هو مكلّل ببياض الدماغ؛ لأنّ الضربة قد وصلت إلى دماغه الشريف، فارتبك أثير والتفت إلى الإمام ـ واليأس في صوته ـ قائلاً : « يا أمير المؤمنين! اعهد عهدك، فإنّك ميت»[(٣)].

فالتفت الحسن إلى أبيه ودموعه تتبلور على وجهه، وشظايا قلبه يلفظها

(١) جميع النصوص التي وردت تحت عنوان (بجوار والده عليه السلام الجريح) نقلت في بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣ ـ ٢٨٨.

(٢) أثير بن عمرو السكوني: كان أحد الأطباء الماهرين يعالج الجراحات الصعبة، وكان صاحب كرسي، وله تنسب صحراء أثير .

(٣) مقاتل الطالبيين: ٢٣ (ذكر مقتل عليّ عليه السلام)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١١٩ـ١٢٠ (خبر مقتل أميرالمؤمنين عليه السلام).

بنبرات صوته قائلاً : « أبه! كسرت ظهري، كيف أستطيع أن أراك بهذه الحالة؟».

وبصر الإمام، فرأى الأسى قد استوعب نفسه، فقال له برفق : «يا بني! لا غمّ على أبيك بعد هذا اليوم ولا جزع، اليوم ألقى جدّك محمّد المصطفى، وجدّتك خديجة الكبرى، وأُمك الزهراء، وإنّ الحور العين ينتظرن أباك، ويترقّبن قدومه ساعةً بعد ساعة، فلا بأس عليك، يا بني، لا تبك» .

وتسمّم دم الإمام، ومال وجهه الشريف إلى الصفرة، وكان في تلك الحالة هادئ النفس قرير العين لا يفتر عن ذكر الله وتسبيحه، وهو ينظر إلى آفاق السماء، ويبتهل إلى الله بالدعاء قائلاً : «إلهي، أسألك مرافقة الأنبياء والأوصياء وأعلى درجات الجنة » .

وغشي عليه، فذاب قلب الحسن وجعل يبكي مهما ساعدته الجفون، فسقطت قطرات من دموعه على وجه الإمام عليه السلام فأفاق، فلما رآه قال له مهدّئاً روعه: «يا بني! ما هذا البكاء ؟ لا خوف ولا جزع على أبيك بعد اليوم، يا بني! لا تبك، فأنت تقتل بالسم، ويقتل أخوك الحسين بالسيف »[(١)] .

١٥ ـ آخر وصايا أمير المؤمنين عليه السلام:

وأخذ الإمام يوصي أولاده بمكارم الأخلاق، ويضع بين أيديهم المثل الرفيعة، ويلقي عليهم الدروس القيّمة، وقد وجه عليه السلام نصائحه الرفيعة أوّلاً لولديه الحسن والحسين، وثانياً لبقية أولاده وعموم المسلمين قائلاً :

«أُوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما[(٢)]، ولا تأسفا على شيء

(١) راجع بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣، وفيه اختلاف يسير باللفظ.

(٢) المعنى : لا تطلبا الدنيا، وإن طلبتكما .

منها زوي عنكما، وقولا للحقّ واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإنّي سمعت جدكم صلى الله عليه وآله يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام». الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم[1] ولا يضيعوا بحضرتكم، والله الله في جيرانكم، فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننّا أنّه سيورثهم، والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة، فإنّها عمود دينكم، والله الله في بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنّه إن ترك لم تناظروا[2]، والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل[3]، وإيّاكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيتولَّ عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ثم قال عليه السلام مخاطباً آله وذويه: «يا بني عبد المطلب! لا ألفينكم[4] تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون: قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثّل بالرجل، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور...»[5].

---

(١) لا تغبوا أفواههم: أي لا تقطعوا صلتكم عنهم وصلوا أفواههم بالطعام دوماً.

(٢) لم تناظروا، مبني للمجهول: أي يتعجّل الانتقام منكم. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ١١.

(٣) التباذل: العطاء.

(٤) لا ألفينكم: أي لأجدنكم تخوضون دماء المسلمين بالسفك انتقاماً منهم بقتلي.

(٥) نهج البلاغة ٣: ٧٦-٧٨، وصية ٤٧، روضة الواعظين: ١٣٦-١٣٧، المناقب للخوارزمي: ٣٨٥ - ⇐

وأخذ عليه السلام يوصي ولده الحسن خاصة بمعالم الدين وإقامة شعائره قائلاً:

«أُوصيك ـ أي بني ـ بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلّها، وحسن الوضوء، فإنّه لا صلاة إلا بطهور، وأُوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقّه في الدين، والتثبّت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش»[١].

وفي اليوم العشرين من شهر رمضان ازدحمت الجماهير من الناس على بيت الإمام طالبين الإذن لعيادته، فأذن لهم إذناً عاماً، فلمّا استقر بهم المجلس التفت لهم قائلاً: « سلوني قبل أن تفقدوني، وخففوا سؤالكم لمصيبة إمامكم » .

فاشفق الناس أن يسألوه؛ نظراً لما ألمّ به من شدّة الألم والجرح[٢].

١٦ ـ الإمام علي عليه السلام ينصّ على خلافة ابنه الحسن عليه السلام:

ولمّا علم أمير المؤمنين أنّه مفارق لهذه الدنيا وأنّ لقاءه بربّه لقريب؛ عهد بالخلافة والإمامة لولده الحسن، فأقامه من بعده لترجع إليه الأُمّة في شؤونها كافة، ولم تختلف كلمة الشيعة في ذلك، فقد ذكر ثقة الإسلام الكليني: أنّ أمير المؤمنين أوصى إلى الحسن، وأشهد على وصيته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتب والسلاح، وقال له: «يا بني! أمرني

⇐

٣٨٦، ح ٤٠١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٥ ـ ٦، وصية ٤٧.

(١) كشف الغمّة ٢: ٥٨ (ذكر شهادة أمير المؤمنين عليه السلام)، تاريخ الطبري ٤: ١١٣ (حوادث سنة ٤٠ هجرية)، المناقب للخوارزمي: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ح ٤٠١، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٢ (حوادث سنة ٤٠ هجرية).

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٣٩٠، حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١ : ٥٦٣ ـ ٥٦٦ .

رسول الله صلى الله عليه وآله أن أُوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إلي رسول الله ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين».

وروي أيضاً أنّه قال له: «يا بني! أنت وليّ الأمر وولي الدم، فإن عفوت فلك، وإن قتلت فضربة مكان ضربة»[1].

١٧ ـ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى:

ولمّا فرغ الإمام أمير المؤمنين من وصاياه أخذ يعاني آلام الموت وشدّته، وهو يتلو آي الذكر الحكيم ويكثر من الدعاء والاستغفار، ولمّا دنا منه الأجل المحتوم كان آخر ما نطق به قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[2]، ثم فاضت روحه الزكية[3] إلى جنّة المأوى وسمت إلى الرفيق الأعلى، وارتفع ذلك اللطف الإلهي إلى مصدره، فهو النور الذي خلقه الله ليبدّد به غياهب الظلمات.

لقد مادت أركان العدل، وانطمست معالم الدين، ومات عون الضعفاء وكهف الغرباء وأبو الأيتام.

١٨ ـ الإمام المجتبى عليه السلام يتولّى تجهيز الإمام عليّ عليه السلام ودفنه:

وأخذ الحسن عليه السلام في تجهيز أبيه، فغسّل الجسد الطاهر وطيّبه بالحنوط، وأدرجه في أكفانه، ولمّا حل الهزيع الأخير من الليل خرج ومعه حفنة من آله وأصحابه يحملون الجثمان المقدّس إلى مقرّه الأخير، فدفنه في النجف الأشرف

---

(١) الكافي ١: ٢٩٧ ـ ٢٩٨، ح ١ (باب الإشارة والنصّ على الحسن عليه السلام).

(٢) سورة الصافات: الآية (٦١).

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٣٩٣.

حيث مقره الآن كعبة للوافدين ومقراً للمؤمنين والمتقين ومدرسة للمتعلّمين، ورجع الإمام الحسن بعد أن وارى أباه إلى بيته، وقد استولى عليه الأسى والذهول وأحاط به الحزن[1].

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

مسيرة الإمام الحسن عليه السلام الجهادية

في ديناميـاتها وتحوّلاتها

(ما بين النهج الايديولوجي الإسلامي للإمام الحسن عليه السلام والأستار الصفيقة لمعاوية)

زينب محمّد عيسى(*)

مسيرة الإمام الحسن عليه السلام الجهادية هي الوجه الآخر والمنطلق الفكري والعملي لمفهوم الإمامة التي شكلت المنطلق الأساس لدعوة الأئمة عليهم السلام منذ السنوات الأولى التي أعقبت رحيل النبي محمد صلى الله عليه وآله، من حيث كونها امتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة. فنحن مع مسيرة الإمام الحسن عليه السلام نستقرأ الواقع الديني والاجتماعي والسياسي الذي رافق تجربته الوجودية المعاشة على امتداد ثلاثة عهود: عهد النبوة، عهد الخلافة الراشدية، عهد بني أميّة الذي تمثل آنذاك بمعاوية بن أبي سفيان.

لقد شهد الإمام الحسن عليه السلام الأحداث البارزة التي أعقبت وفاة جده النبي محمد صلى الله عليه وآله بدءاً من سقيفة بني ساعدة وما خلفته من انعكاسات بارزة على صعيد التاريخ الاسلامي، خاصة مسألة الإمامة وما يتفرع عنها، فلقد أسست السقيفة لنظرية سياسية جديدة حول الخلافة والسلطة. إن اجتماع السقيفة وما تبعه من تعيين أبي بكر خليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله في ظرف لا يستدعي العجلة

(*) كاتبة وباحثة إسلامية ـ لبنان.

والحسم في الاختيار، حيث إنّه لا يمكن الحديث عن فراغ سياسي لساعات معدودة ـ وهي الفترة التي انشغل فيها الإمام عليّ بن أبي طالب في تجهيز وتكفين النبي صلى الله عليه وآله - شكّل البداية الفعلية لفرز الاتجاهات السياسية والاجتماعية وتحديدها، وبروز قوى سياسية كانت تراقب الوقائع والأحداث، تنتظر الفرصة المؤاتية لتحركها.

وكان بنو أميّة من بين تلك القوى التي أمدتها الظروف الاجتماعية والسياسية بفرص نادرة بدءاً من السقيفة إلى شورى عمر بن الخطاب إلى خلافة عثمان بن عفان الذي ما أن تولى الخلافة حتى وطد نفوذهم، وحقق أمانيهم التي عبَّر عنها أبو سفيان عندما وقف على قبر حمزة عم النبي صلى الله عليه وآله، فركل القبر برجله وقال: «يا حمزة، إن الأمر الذي تقاتلنا عليه بالأمس، قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به من تّيم وعُدي»(١).

لقد ظهرت الخطوط والمبادئ العامة التي كان يرسمها الحزب الأموي على شكل أفكار ومبادئ أعلنها أبو سفيان في عهد عثمان بقوله: «والله، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرَّن إلى صبيانكم وراثة»(٢). فبنو أميّة كانوا ينظرون إلى الخلافة على أنها ملك كما في تعبير معاوية: «أنا أول الملوك»(٣)، وفي قوله «ورضينا به ملكاً»(٤).

هذه الشعارات حددت المبادئ الرئيسية لمعاوية الذي بدأت قضية الحكم

(١) النزاع والتخاصم لأحمد بن علي المقريزي: ٥٧، مكتبة الإهرام، لا.ط، مصر.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٨٦، تحقيق شارل بلا، انتشارات الشريف الرضي، ط ١.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤٤، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٩٩٣.
(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦: ٢٢٠، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥٠.

معه كرغبة ومطمع ومطمح، ثم تجلت كانتصار وانتصاف: انتصار بني أميّة الّذين طالما مدوا أعناقهم إلى التسلط والسلطة، وانتصاف لأخذ الثأر مما كان وما جرى يوم وقعة بدر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد شهدت مسيرة الإمام الحسن عليه السلام محطات جهادية تراوحت بين الجهاد الصامت والجهاد الناطق، أبرزت مقدار التحديات التي واجهته عليه السلام. وربما كانت محطة «الصلح» أو ما عرف «بعام الجماعة» هي الأشد. وعلى مقوله الجاحظ: «استوى معاوية على الملك واستبد على جماعة المسلمين في العام الذي سموه "عام الجماعة" وما كان عام الجماعة، بل كان عام فرقة وقهر، وجبرية وغلبة. العام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً قسروياً والخلافة غصباً قيصرياً...»[(١)].

لقد عكست محطة "الصلح" صوراً عديدة عن دينامية البنية النفسية لدى الإمام الحسن عليه السلام ومدى قدرته على مواجهة التحديات والضغوطات التي ترتبت عن «الصلح». لقد وجد معاوية في «الصلح» مدخلاً إلى تطلعاته السياسية السلطوية، فكما كان المنتظر الموعود عنده مخبؤاً في قميص عثمان، لقد قتل عثمان ليعيش طويلاً في بال معاوية. إنّ قضية مقتل عثمان كانت من أهم الشعارات التي استخدمها معاوية في مناهضته للإمام عليّ عليه السلام. واليوم لا يوجد عثمان ولا قميص عثمان!! فبماذا سيحارب الحسن عليه السلام الذي يعرف الجميع مكانته من النبي صلى الله عليه وآله؟ فالإمامة التي حاربها في شخص الإمام عليّ عليه السلام لا يمكن محاربتها في شخص الإمام الحسن عليه السلام الذي شكلت هويته الانتمائية إلى النبي صلى الله عليه وآله أول مظهر رمزي من مظاهر هويته باعتباره الحفيد المباشر للنبي صلى الله عليه وآله والدته السيدة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله ووالده عليّ بن أبي طالب ابن عم

(١) رسائل الجاحظ ٢: ١٠ ـ ١١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط ١، بيروت، ١٩٩١.

النبي صلى الله عليه وآله، هذه الصلة شكلت المكونات الثابتة لشخصية الإمام الحسن عليه السلام في إطار من التميز والفرادة، كما منحته سمة التوحد بالنبي صلى الله عليه وآله، حيث إن الهوية كما يشير علاء عبد الهادي: «هي التوحد بآخرين وبشمولية ما. وهذا يدل على وجود ثبات معياري لخصوصية ما، تؤسس اختلافها عن الآخر»[(١)].

وقد استفاضت الروايات بعُلو منزلة الإمام الحسن عليه السلام عند جده النبي صلى الله عليه وآله إلى حد التواتر. هذه المنزلة جعل فيها النبي صلى الله عليه وآله من نفسه عصبة الحسن عليه السلام، وقد توجه صلى الله عليه وآله إلى تكرارها واعلانها من على المنبر، وفي كل مناسبة في محاولة هادفة إلى اعداد الأمة اعداداً نفسياً ووجدانياً لقبول الدور القيادي الهام الذي ينتظر الإمام الحسن عليه السلام.

وحُب النبي صلى الله عليه وآله للحسن عليه السلام ما كان حباً ناطقاً عن الهوى بمقدار ما كان وحياً يُوحى. لقد أراد النبي صلى الله عليه وآله أن ينبه الأمة بأن الحسن عليه السلام هو المستقبل القريب، هو الامتداد الرسالي والنموذج الصادق عنه صلى الله عليه وآله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كل ولد أب فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة، فأنا أبوهم وعصبتهم»[(٢)]. وروى أنس بن مالك قال: أُدخل الحسن على النبي صلى الله عليه وآله، فأردت أن أحيطه عنه، فقال: «ويحك يا أنس! دع ابني وثمرة فؤادي، فإن من آذى هذا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[(٣)]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا»[(٤)]. وروى أحمد بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله:

(١) شعرية الهوية ونقض فكرة الأصل لعلاء عبدالهادي: ٢٨٠، مجلة عالم الفكر، عدد ١، مجلد ٢٦ حزيران، ٢٠٠٧.

(٢) ذخائر العقبى للطبري: ١٢١، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨١.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ١: ٩٦، مطبعة الآداب، ط ٣، النجف.

(٤) ذخائر العقبى للطبري: ١٢٤، (م.س)، نور الأبصار: ١٢٠، مطبعة عاطف، ط ٨ مصر، ١٩٦٣ ذكر

⇐

«من أحبني وأحب هذين ـ يعني حسناً وحسيناً ـ وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[(١)]. وعن أبي بكرة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يُقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[(٢)]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما الحسن فله هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فإن له جودي وشجاعتي»[(٣)]. وروي عن أنس بن مالك قال: «لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن علي»[(٤)].

مع بداية المسيرة:

تسلّم الإمام الحسن عليه السلام الخلافة بعد استشهاد أبيه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، في العام أربعين للهجرة في صبيحة الليلة التي قبض فيها الإمام عليّ عليه السلام، وذلك يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان[(٥)].

⇒

من الجنة بدل الدنيا، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٦، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٦٩.

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٣٨، مكتبة القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥ ترجمة الإمام الحسن من تاريخ ابن عساكر، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) ترجمة الإمام الحسن من تاريخ ابن عساكر: ٨٣ (م.س)، الذرية الطاهرة للدولابي: ١٠٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، بيروت، ١٩٨٨ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ١٩٤، مؤسسة أهل البيت، بيروت، ١٩٨١، (حديث متفق عليه).

(٣) إعلام الورى للفضل بن الحسن الطبرسي: ٢١١، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ٣، النجف، ١٩٧٠.

(٤) الذرية الطاهرة للدولابي: ١٠١، (م.س).

(٥) الارشاد للمفيد: ١٨٨، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٩، الفصول المهمة لابن الصبّاغ: ١٤٦، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ٣، ١٩٦٢.

وقد عمَّت البيعة في المجتمع الاسلامي. فبايعه من أهل الكوفة أربعون ألفاً على السمع والطاعة، كذلك بايعه أهل البصرة والمدائن وجميع أهل العراق، وبايعه فارس على يد عاملها "زياد بن عبيد"، وبايعه أهل الحجاز واليمن على يد "خارجة بن قدامة"، وما تخلف عن البيعة سوى معاوية ومن إليه، وتخلف أفراد آخرون عرفوا بعد ذلك بالقُعَّاد[١]. وذكر بعضهم: أنه لم تبايع عائشة أم المؤمنين ولا بنو أزد ولا بنو ضبة ولا بنو أميّة ولا أحد من أهل الشام[٢].

وقد ذكر المؤرّخون: أن الكلام عن إمامة الحسن بن عليّ عليه السلام لا يخالف فيه أحد من المسلمين، كما حصل مع غيره من الأئمة عليهم السلام، فالقائلون بإمامة الجماعة بعد النبي صلى الله عليه وآله قائلون بإمامة الحسن عليه السلام بما رووه: «إنّ الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تعود ملكاً»، وبأن عليّاً عليه السلام أوصى بها إليه، وأفاض رداءها عليه، ثم تعود مسألة إجماع وقد سلم مدعي إمامته عن النزاع»[٣].

وذكر ابن حجر: الحسن هو آخر الخلفاء الراشدين بنص جده صلى الله عليه وآله، تولى الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام فيها ستة أشهر وأياماً خليفة حق وإمام عدل وصدق، تحقيقاً لما أخبر به جده الصادق الصدوق صلى الله عليه وآله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة». فإن تلك الستة أشهر هي المكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها وقام عليها إجماع من ذكر، فلا مرِّية في حقيقتها»[٤].

والإمامية ترى وجوب إمامة الحسن عليه السلام في كل وقت، وقد ثبت ذلك عن

---

(١) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٥٨، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٩٢.

(٢) الإمام الحسن الكوثر المهدور لسليمان كتّاني: ١٢٣ ـ ١٢٧، دار المرتضى، ط ١، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣) كشف الغمة في معرفة الأئمة لعلي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي ٢: ١٥٣، مطبعة النجف الاشرف، ١٣٨٥هـ.

(٤) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٣٥، (م.س).

طريق النقل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[(١)].

لقد تسلّم الإمام الحسن عليه السلام الخلافة والمجتمع الكوفي ومن حوله من الجماعات المؤيدة له في حالة من التخاذل والخور والتردد، في حالة من التقلب الاهتزازي، مجتمع هو أقرب إلى الدعة والسلم، إلى الخضوع والخنوع، مجتمع تزدحم فيه المشاهد والألوان، والنزاعات والأطماع والرغبات والآمال.

لقد استطاع معاوية ببريق الزيف خلال ربع قرن من الزمن صياغة دولته في الشام، حتى امتدت تخومها إلى ما بعد الشام. وتمكن بسياسته "المدثرة بالحلم" إلى بلبلة المجتمع الموالي للإمام الحسن عليه السلام، إلى زعزعة كيانه لا بل تفسخه وتمزقه. والأحداث التي شهدتها الحرب التي أعدها الإمام الحسن عليه السلام لقتال معاوية تكشف مدى مقدرة معاوية في المكر والدهاء، وقد استخدم في شدِّ ازره رجالاً هم أشدُّ دُهاة العرب؛ وهم إضافة إلى معاوية: عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة، استدناهم بالأطماع، ولولاهم لما استتب له الأمر[(٢)].

يذكر المؤرّخون: أن معاوية حين بلغه بيعة الناس الإمام الحسن عليه السلام لم يتمهل حتى دسَّ العيون على الكوفة والبصرة، فدَّس رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجل من بني القين إلى البصرة، يكتبان إليه بالأخبار. فدُّل على الحميري والقين فأخذا وقُتلا[(٣)]. ثم كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية: «أما بعد: فإنك دسست

(١) إعلام الورى للطبرسي : ٢٠٩، (م.س)، روضة الواعظين للنيسابوري: ١٧٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٨٦، إثبات الهداة لمحمّد بن الحسن الحر العاملي ٥: ١٢٩، دار الكتب الاسلامية، طهران ١٣٩٩هـ.ق.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ٤: ٦٤، تعليق حسين مؤنس.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣١، (م.س)، الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ١٤٦ (م.س).

اليَّ الرجال، كأنك تحب اللقاء لا شك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله..»[(١)].

ودارت مراسلات بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية طلب فيها الإمام عليه السلام نزول معاوية على حكمه. قال المدائني: إن الحسن عليه السلام كتب إلى معاوية : «...إن عليا لما توفّاه الله، ولاّني المسلمون الأمر بعده، فاتّق الله يا معاوية، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله ما تحقن به دماءها، وتصلح به أمرها، والسلام». فكتب معاوية: «...فكيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق ابيك، وقد خرج منه! فانظر إلى نفسك ولدينك والسلام»، ثم قال لرسول الحسن عليه السلام الحارث بن سويد التميمي، وجندب الأزدي: «ارجعا، فليس بيني وبينكم إلا السيف»[(٢)]. وانتهت المراسلة بتوعد الإمام الحسن عليه السلام معاوية بالحرب والقتال.

ذكر أبو الفرج الإصفهاني: أنّ الإمام الحسن عليه السلام كتب إلى معاوية رسالة طويلة، وممّا جاء فيها: «...فدع التمادي في غييك وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنّك تعلم أني احق بهذا الأمر منك... اتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين... وادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق منك... إن أنت أبيت إلا التمادي في غييك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»[(٣)].

وتتالت الكتب تترى بين الطرفين، إلى أن كتب معاوية إلى عماله بالنواحي بنسخة واحدة: «... الحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتل خليفتكم، إن الله

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣١، مقاتل الطالبيين للأصبهاني: ٦٣، منشورات الشريف الرضي، ط ١، ايران، ١٤١٤ هـ.ق.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦: ٢٤.

(٣) المصدر نفسه ١٦: ٢٤.

بلطفه وحسن صنعه أتاح لعليّ بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب اشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا حين يأتيكم كتابي بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم...»[(١)].

واستجابت النواحي لكتاب معاوية، واجتمعت العساكر، وخرج معاوية مقبلاً على العراق في ستين ألفاً، واستخلف على الشام الضحاك بن قيس الفهري، وانتهى إلى جسر منبج فأقام فيه.

وبلغ الإمام الحسن عليه السلام خروج معاوية للقتال فبدأ بالتحرك ونادى منادي الكوفة الصلاة جامعة، فخرج الحسن عليه السلام وخطب الناس: «أما بعد: فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد: اصبروا، إن الله مع الصابرين، فلستم ـ أيها الناس ـ نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون. إنّه بلغني أن معاوية بلغه أنَّا كنَّا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك. لذلك اخرجوا (رحمكم الله) إلى معسكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون، ونرى وترون». فسكتوا! وما تكلم منهم أحد ولا أجابوه بحرف[(٢)].

عجباً! لقد بات من حول الإمام كرقّاص ساعة فيه خفق الحركة وليس فيه حسٌّ الحياة. وامضى من العجب لقوم يتراءى أمامهم الخسف على كل ألوانه بل على أشكاله ثم لا يصيب عندهم أية ردة فعل. لقد جاءت ردات فعلهم كمسخ لجمال الانفعال. فجاءة اللحظة الوجدانية فاقدة لسلامتها، متحجرة محنَّطة كالمومياء. على هذا النحو هلَّت بوادر الانطلاق بالتواكل والاستكانة والخضوع،

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٧.

(٢) المصدر نفسه ١٦: ٢٨.

وحري بجيش تلك صفاته أن يسير بخطوات رتيبة نحو التفكك والانهيار، وهذا ما شهدته الحرب.

في أوار الفتنة:

لقد نجح معاوية مع أول إطلالة الحرب في استمالة قائد جيش الإمام الحسن عليه السلام وهو عبيد الله بن العباس ابن عم الحسن عليه السلام، والموتور بغلامين قتلهما معاوية على يد بسر بن أرطأة، فقد ارسل معاوية إليه ليلاً بأن الحسن قد راسله في الصلح، ومنَّاهُ بألف ألف درهم إن هو دخل في طاعة معاوية. فانسلَّ عبيد الله ليلاً ليلحق به ثمانية آلاف مقاتل، مخلفاً وراءه نأمة طويلة أخذت تنذر بخطر رهيب. لقد اعطى عبيد الله بن العباس لمعاوية كل المقدرات التي خولته توجيه سياسته بالشكل الذي رآه. لقد وقف معاوية متأملاً يرى عهده الزاهر الذي أسس له على مدى ثلاثة عهود من الزمن سوف يأخذ بالتلاشي والانحدار شيئاً فشيئاً، أحسَّ بأن حكومته تشهد أكثر مراحلها تعقيداً وأخطرها أثراً؛ كونه يعلم تماماً أن المعركة بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام ليست من نوع المعارك التي نشهدها كل يوم، إنما هي صراع بين مبدأين متضادين: الحق والباطل. والنجاح سوف يكون للأصلح، وهو مبدأ الحق المتمثل بخط الإمام الحسن عليه السلام.

فكان لا بد أمامه من اتخاذ قرار سريع الوثبات يُسدُّ به الطريق على الإمام الحسن عليه السلام عن القيام بأي هجوم عسكري لا تُحمد نتائجه في حالتي الربح والخسارة. فإن ربح الإمام الحسن عليه السلام ستضيع الخلافة من بين يديه التي مهد لها عقوداً. وفي حالة كتب له النصر وقتل الحسن عليه السلام فالأمر أكثر صعوبة وشدة. فالأمة الاسلامية على مدارها ـ ما عدا بلاد الشام ـ تعلم موقع الحسن عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وحقه في الخلافة والولاية. وهذا كفيل أن يؤدي

بثورة وانقلاب على حكومته، فيكون ـ والحال هذه ـ كالنار التي يأكل بعضها بعضاً. فبادر إلى التنويه بالصلح، معرضاً به تارة في كتبه المرسلة إلى الإمام الحسن عليه السلام، وتارة بإيفاد صحيفة بيضاء موقعة بختمه ليشترط فيها الحسن ما يشاء. كما أنه توجه سريعاً إلى اختلاق شائعات بين صفوف جيش الإمام الحسن عليه السلام.

خرج بسر بن أرطأة فصاح إلى أهل العراق: ويحكم! هذا أميركم عندنا قد بايع، وإمامكم الحسن قد صالح. فعلام تقتلون أنفسكم؟[١]، وأرسل معاوية مع المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن الحكم إلى الإمام الحسن عليه السلام كُتب بعض أهالي الكوفة إلى معاوية وهي تحمل تواقيعهم، هادفاً بذلك إخبار الحسن عليه السلام بنوايا أصحابه ومكرهم. وحين أُذن للمغيرة ورفاقه دخول معسكر المدائن لعرض كتب العملاء على الإمام عليه السلام، لم يغادروا المعسكر حتى زرعوا في ميدانه أكبر فتنة؛ فتحادثوا بصوت عال حتى يسمعهم الجيش: «إن الله حقن بابن رسول الله الدماء وسكن الفتنة وأجاب إلى الصلح»[٢]. وصار معاوية يوجه إلى عسكر قيس في مسكن من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه[٣]. فكانت نتيجة هذه الشائعات فك عرى الجيش وتمزيقه بل تفتيته حتى وصل الأمر إلى إقدام جماعة الحسن عليه السلام غير متأثمة ولا متحرجة بسلب ردائه ونهب فسطاطه وطعنه في فخذه، ثم محاولة اغتياله على يد جراح بن سنان كما في رواية اليعقوبي[٤]. وفي رواية ابن سعد أن الذي طعنه رجل من بني

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٤٢ (م.س).

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥، دار صادر، صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ١٦٢، (م.س).

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٤ (م. س)، صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ١٦٣ (م. س).

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٥.

أسد يقال له: ابن اقيصر، بخنجر مسموم في إليته[١].

الصلح أفسح الطريقين:

إنّ الواقع الأليم الذي واجهه الإمام الحسن عليه السلام دفع به إلى القول: «أرى معاوية خيراً لي، يزعمون أنهم شيعة لي، ابتغوا قتلي، وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي. والله، لئن آخذ من معاوية عهداً احقن به دمي وآمن به أهلي وشيعتي خير لي من أن يقتلوني فيضيع بيتي. لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً. والله، لئن أسالمه وأنا عزيز أحب اليَّ من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمُنَّ عليَّ فتكون سبَّة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمُنُّ بها وعقبه على الحيَّ منَّا والميت»[٢]. وعليه تشكلت بداية النهاية لفصول المأساة التي انتهت بتوقيع الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان.

إنّ البواعث التي دفعت بالإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح جاءت نتاج الغدر والمكر والخور والخضوع الذي عصف بجيشه عليه السلام في الميدانين: مسكن والمدائن. لقد وقف الإمام الحسن عليه السلام متأملاً لمشاهد مبعثرة لمسرحية خيالية، أخرجها معاوية من زيف الأماني، مسرحية كان أبطالها قادة جيش الإمام الحسن عليه السلام، ممثلها رؤساء وزعماء القبائل التي شهدت بيعته عليه السلام. ففي رواية الشيخ المفيد: «واستنفروا الناس للجهاد فتثاقلوا عنه، ثم خفوا، ومعه أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٣٠، ترجمة الحسن، تحقيق محمد بن حامل السلمي، مكتبة الصديق، ط ١، الطائف، ١٩٩٣.

(٢) معادن الحكمة للكاشاني ٢: ٢٥، مكتبة الصدوق، طهران، ١٣٨٨، أعلام الهداية، الإمام الحسن عليه السلام المجتبى: ١٤٩، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط ١، قم، ١٤٢٢هـ.

وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين»[١].

فالإمام الحسن عليه السلام لم يقدم على الصلح إلا بعدما شهد اضمحلال مستوى الكفاءة لدى الجماعات بعدما تواكلت ومالت عزائمها إلى الاسترخاء، وقد اصبحت تائهة في بوادي الحياة. لقد تواكلت الأمة، والتواكل هو جرثومة كبيرة، في حين أن الإمام الحسن عليه السلام توكل وفي التوكل اطمئنان وتأمل وثبات كما في قوله عليه السلام: «من اتّكل على حسن اختيار الله لم يتمنَّ أنه في غير الحالة التي اختارها الله له»[٢].

يذكر المؤرخون: أن الإمام الحسن عليه السلام خاطب جيشه في المدائن: «وكنتم في سيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وأنتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر»[٣]. وإن معاوية قد دعا إلى أمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الحياة قبلنا منه وأغضينا على القذى، وإن أردتم الموت بذلناه في ذات الله وحاكمناه إلى الله بظبا السيوف». فنادى القوم بأجمعهم: بل التقية والحياة.

أو قيل: فناده الناس من كل جانب: البقية البقية! وأمضى الصلح[٤].

---

(١) الإرشاد للمفيد: ١٨٩ (م.س)، الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ١٤٦، (م.س).

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٤٠ (م.س).

(٣) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ١٣٣، (م.س).

(٤) الإمام الحسن القائد والتاريخ لفؤاد الأحمد: ٧٧، دار البيان العربي، ط ١، بيروت، ١٩٩١، بحار الأنوار للمجلسي ٤٤: ٢١، دار احياء التراث العربي، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣.

وثيقة الصلح:

جاءت وثيقة الصُلح في الروايات التاريخية على شكل فقرات منثورة هنا وهناك. وكان الشيخ راضي آل ياسين من الّذين وقفوا على تنسيق تلك الروايات والجمع بينهما، ليجيء بصورة وثيقة مؤلفة من عدة بنود، نذكرها بدورنا كما جاءت معه[(١)]:

ـ تسليم الأمر إلى معاوية، على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصالحين[(٢)].

ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده[(٣)]، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد[(٤)].

ـ أن يترك سب أمير المؤمنين، والقنوت عليه بالصلاة[(٥)]، وأن لا يذكر علياً إلا بخير[(٦)].

ـ استثناء ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف، فلا يشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كل عام الفي ألف درهم، وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلاة على بني عبد شمس، وأن يفرق في أولاد من قتل

(١) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين : ٢٥٩ ـ ٢٦٢ (م.س).

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٣٦ (م.س)، الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ١٤٨، (م.س).

(٣) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٣٦ (م.س). وروى ابن حجر أيضاً: أنه ليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين. وكذلك رواه ابن الصبّاغ في الفصول المهمة: ١٤٨.

(٤) معادن الحكمة للكاشاني ٢: ١١ (م.س).

(٥) إعلام الورى للطبرسي : ٢٠٦ (م.س).

(٦) مقاتل الطالبيين للأصفهاني: ٧٥ (م.س).

مع أمير المؤمنين يوم الجمل وأولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار ابجرد[١].

ـ على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الأسود والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة[٢].

وعلى أمان أصحاب عليّ حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة عليّ بمكروه. وإن أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقه، وعلى ما أصاب أصحاب عليّ حيث كانوا[٣].

وعلى أن لا يبغي للحسن بن عليّ، ولا لأخيه الحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق[٤].

ثم كتب عبد الله بن عامر ـ يعني رسول معاوية إلى الحسن عليه السلام ـ إلى معاوية شروط الحسن كما أملاها عليه، فكتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكّدة والأيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، ووجه به إلى عبد الله بن عامر، فأوصله إلى الحسن عليه السلام[٥].

وذكر أيضاً نص الصيغة التي كتبها معاوية في ختام المعاهدة فيما واثق الله

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ٤٠٥.

(٢) معادن الحكمة للكاشاني ٢: ١١ (م.س).

(٣) الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ١٤٨ (م.س).

(٤) الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٣٦ (م.س)، معادن الحكمة للكاشاني ٢: ١١ (م.س).

(٥) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٣٦١ (م.س).

عليه من الوفاء بها: «وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك، عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه». وكان ذلك في النصف من جمادى الأولى سنة ٤١ هجرية على أصح الروايات(١). وأيضاً في الهدنة: أن الحسن اشترط على معاوية أن لا يسمّيه أمير المؤمنين، وأن لا يقيم عنده شهادة(٢).

الأستار الصفيقة لمعاوية بن أبي سفيان:

إنَّ الظروف الموضوعية السائدة قد هيّأت عوامل مساعدة في تحقيق طموحات معاوية ونزعاته القيصرية الكسروية. هذه الظروف تجلت بـ:

١ ـ وثيقة الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام التي شكلت زخماً معنوياً ومادياً لمعاوية، حيث وجد فيها إقراراً بمبدأ الأمر الواقع الذي كان قد فرضه، والمستند إلى القوة في اختيار الخليفة، كما تجلى في تعبيره في الاجتماع المباشر للصلح الذي عقد بين الفريقين ـ الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية ـ في النخيلة في الكوفة أمام أكبر حشد شهدته الفترة. ونودي في الناس إلى المسجد الجامع. واستبق معاوية إلى المنبر فجلس عليه(٣)، وخطب في الناس، ومما قاله: «ما اختلف أمر أمة بعد نبيِّها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها»!! وانتبه معاوية لما وقع فيه فقال: «إلا ما كان من هذه الأمة، فإن حقها غلب باطلها»، وفي رواية: «إلا هذه الأمة فإنها

(١) المصدر نفسه: ٢٦٢.

(٢) عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني للعاملي : ٥٩، المركز الإسلامي للدراسات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣، معادن الحكمة للكاشاني ٢: ١٣ (م.س).

(٣) قال جابر بن سمرة:«ما رأيت رسول الله يخطب إلا وهو قائم، ومعاوية أول من خطب وهو جالس» (صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٢٨٥)، وقد أجمعت التواريخ أن معاوية كان يخطب وهو جالس.

وإنها. والله، إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنكم تفعلون ذلك. وأنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون».

وقال أبو اسحاق السبيعي: «إن معاوية قال في خطبته بالنخيلة: ألا إنَّ كُل شيء أعطيته الحسن بن عليَّ تحت قدميَّ هاتين لا أفي به». وقال أبو اسحاق: «وكان ـ والله ـ غدراً». وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدَّث به يقول: «هذا ـ والله ـ هو التهتك»[(١)].

وروي: أن معاوية قام في الكوفة خطيباً فقال: «كتبت شروطاً في الفرقة أردت بها نظام الألفة، وقد جمع الله كلمتنا وأزال فرقتنا، وكل شرط شرطته فهو مردود، وكل وعد وعدته فهو تحت قدميّ هاتين»[(٢)]. هذه القوة تجلت أيضاً في تعبيره حين قدم المدينة عام الجماعة، فتلقاه رجال من قريش مهنئين فأجابهم: «أما بعد: فإني ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»[(٣)].

إنّ حق القوة الذي اعتمده معاوية حدد طابع العلاقات التبادلية بينه وبين من حوله. لقد قامت خلافته على الاغتصاب بقوة الغلبة والقهر، وهذا ما يميز حكومة الاستبداد في أشدّ مراتبها. فالمستبد، كما يشير الكواكبي: «يتحكم في شؤون الناس بإرادته، يحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٦ (م.س).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦: ٤٦، البدء في التاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي ٥: ٢٣٧، ترجمة كلمان هوار، مؤسسة الخانجي، مصر، قول معاوية: «وكل شرط شرطته فهو مردود، وكل وعد وعدته فهو تحت قدميّ هاتين».

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربّه ٤: ٧٥، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٩.

المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته»[1].

ففي رواية اليعقوبي: «وأحضر (معاوية) الناس لبيعته، وكان الرجل يحضر فيقول: إنّي لأبايعك وأنا كاره لك، وكان لا يبايع أحد إلا أخذ عليه الإيمان»[2]. وفي خطبة له بالمدينة يقول: «إقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم»[3].

قال ابن أبي الحديد: «خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسينعليهما السلام جالسان تحت المنبر، فذكر علياًعليه السلام فنال منه، ثم نال من الحسن. فقام الحسين ليرُدَّ عليه، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ثم قال: أيها الذاكر علياً، أنا الحسن وأبي عليٌّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله وجدك صخر، وجدتي خديجة وجدتك فتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، والأمنا حسباً، وشرفاً قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً!!

فقال طوائف من أهل المسجد: آمين.

قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين.

قال الفضل: وأنا أقول: آمين.

وقال أبو عبيد: وأنا أقول آمين.

ويقول علي بن الحسين الإصفهاني (أبو الفرج): آمين.

---

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبدالرحمان الكواكبي: ٤١، تقديم أسعد السحمراني، دار النفائس، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٣، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٩٣.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربّه: ٧٦ (م.س).

ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد: آمين»[١].

ونحن نقول: آمين.

أ- الوجه الخفي لأستار معاوية الصفيقة:

السادية والجبروت:

إنّ عملية التواصل الخطابي ما بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية أدخلت الحوار في إطار المجابهة الكلامية الحافلة بأشكال المواجهة، كما أنها اعطت الطابع الدينامي الذي يسمح في الدخول إلى بطاقة المتجابهين، وتحديد هويتهم ومرجعيتهم الآيديولوجية الاجتماعية والثقافية والدينية.

إن جرأة معاوية في ذكر الإمام عليّ بن أبي طالب بالسوء فيه كبير الدلالة على البناء النفسي السادي عند معاوية، حيث إن جوهر السادية Sadisme يكمن في «البحث اليائس عن الأنا، في الحاجة إلى توكيد الذات، في دفع الآخر للاستجابة إلى حقيقتك الذاتية»[٢]. ما يود السادي الوصول إليه هو الجبروت من خلال مسح الآخر، بذلك يطمئن إلى قوته، يخفف من حدة قلقه، كآلية دفاعية في اعلاء الشأن والخوف المقنع من الآخر.

وهذا ما نجده في خطاب معاوية ـ وفي كل خطاب يقدمه ـ: «والله، لأستميلَّن بالأموال ثُقات عليّ، ولأُقسِّمَنَّ فيهم المال، حتى تغلب دنياي

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٤٦ (م.س)، مقاتل الطالبيين للأصفهاني: ٧٨ (م.س)، الاتحاف بحب الاشراف للشبراوي الشافعي: ٣٤، دار الذخائر للمطبوعات، قم. وأضاف: أن معاوية قطع خطبته وفرَّ إلى منزله.

(٢) سيكولوجية الإنسان المقهور لمصطفى حجازي: ١٩٨، معهد الانماء العربي، ط ٣، بيروت، ١٩٨٤م.

آخرته»[١].

إنَّ الخوف من الإمام عليٍّ جعل من معاوية شخصية خارجة عن إطار الأصول والمعايير الخلقية والدينية والاجتماعية. فاللعن لا يجوز إلا على الكافر، وعلى الخارج على الشريعة الاسلامية، في حين أن علياً عليه السلام شهدت له حواميم الكتاب وجعله النبي محمد صلى الله عليه وآله نفسه.

لقد أخذ بمعاوية لقب "الملك" مأخذه، كما أخذ به لقب "كسرى العرب"[٢] الذي منحه إياه عمر بن الخطاب، وكان يقول له: «لا آمرك ولا أنهاك»[٣]. دعمَّه الحاضر الغائب في سياسة عثمان بن عفان الذي وسع على معاوية في الولاية فضمَّ إليه فلسطين وحمص، فجمع له الأجناد الأربعة[٤]. إنّ اعتلاء عثمان سُدَّة الخلافة شكل انتصاراً لبني أميّة الذي وجدوا في انتمائه الأموي مدخلاً إلى الوصول إلى الحكم والسلطة، خاصة وأنه أغدق عليهم من الامتيازات وكان يقول: «لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أميّة حتى يدخلوا من عند آخرهم»[٥]. هذه السياسة أمدَّت بني أميّة بالاستعلاء والتفوق، خاصة معاوية الذي أحسن استغلال الفرص، وقد نَفَخَ في إهابه إلى درجة تخطي الأصول العقائدية والطعن في النبوة. فقد ذكر ابن أبي الحديد: «قد طعن كثير من

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم : ٤٣٦، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٨٢ (م.س)، أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥: ٢١٠، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٦، تاريخ الإسلام للذهبي : ٣١٣ (أحداث سنة ٤١ ـ ٦٠هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط ١، ١٩٩٩.

(٣) أعلام الهداية، الإمام الحسن عليه السلام المجتبى ٤: ١٥٥، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، (م.س).

(٤) تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) ٣: ٤٤٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

(٥) الفتح الرباني لأحمد بن عبدالرحمان البنّا الساعاتي ٢٢: ٣٣٢، ط ١، مصر، ١٣٧٧.

أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه: إنه كان ملحداً لا يعتقد بالنبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك. وقد قال المغيرة لابنه المطرّف: إن معاوية أكفر الناس وأخبثهم. لقد قال: وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرات "أشهد أن محمداً رسول الله" فأي عمل يبقى وأي ذكر يدوم بعد هذا، لا أبا لك. لا والله إلا دفناً دفناً!»[١].

هذه السادية والجبروت ردّهما الإمام الحسن عليه السلام بأسلوب خطابي أثبت من خلاله الفاعلية الذهنية في قوة المواجهة، ومدى الثبات والتحدي لدى الإمام الحسن عليه السلام. وهذا ما أعطى الحوار صفة القوة والفصاحة، حيث يقول ابن الأثير في المفاضلة: «إن الكلام لا يختص بميزة من الحسن، حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة»[٢]. وكما يقول الباقلاني: «فالكلام ينبئ عن محل صاحبه ويدل على مكانة متكلمه، وينبه على عظيم شأنه»[٣].

إن قوة التحدي لدى الإمام الحسن عليه السلام برزت من خلال إحالة الحوار إلى مرجع ثقافي بلور فيه حقائق ثابتة لا تقبل الجدل، لها دلالات نفسية، اجتماعية وتاريخية، حددت الانتماء المرجعي لكلا الطرفين، وذلك في محاولة لاستدعاء الذاكرة الجماعية إلى مراجع آيديولوجية تخضع في بنيتها لمفاهيم متعارف عليها. فالهوية كما يبين رشاد الشامي عن ميللر هي: «السمات التي يمكن ملاحظتها أو استنتاجها والتي يميز شخصاً في نظر نفسه وفي نظر الآخرين»[٤].

لقد استند الإمام الحسن عليه السلام في الرد على معاوية على المعيار الديني الذي

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ١٢٩ ـ ١٣٠ (م.س).

(٢) في قراءة النص لقاسم الموفي: ٥٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت ١٩٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠.

(٤) إشكالية الهوية في إسرائيل لرشاد عبدالله الشامي: ٨، مجلة المعرفة، الكويت، العدد ٢٢٤، آب ١٩٩٨.

شكَّل هوية الحسن عليه السلام، وهوية أسرته في الانتماء المباشر إلى النبوة، مقابل تحديد هوية معاوية وانتمائه الأسري، المتأصل الجذور في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وفي الحرص على إطفاء نور الله، والسعي لإخماد الدعوة المحمدية والقضاء عليها عبر تجهيز الجيوش، وإشعال الحروب التي كانت الغلبة فيها للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث دخل مكة فاتحاً، ومَنَّ على بني أميّة بالعفو قائلاً: «اذهبوا فأنتم الطُلقاء». وهذا كفيل من جهة بإثارة أزمة المرجعية الاجتماعية الأسرية لدى معاوية (ابن الطلقاء)، ومن جهة ثانية إحباط ساديته وجبروت القدرة لديه الذي يعيشهما كمجد نرجسي.

الاستلاب المنظم:

إنّ معاوية الذي عمل طيلة فترة إمارته ـ ٢٠ سنة ـ على تثبيت حكومته في الشام، يعمل في ظل الدين على التمهيد لنفسه على الاستئثار بالسلطة والحكم تكشفت ستوره. فما أن استتب له الأمر حتى راح يعلن وبشدة إلى جميع عماله في الأمصار: «أنه برئت الذمة ممن يروي حديثاً في مناقب عليّ وأهل بيته»، فقام الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعدون فيه وفي أهل بيته[1]. كما نقض شرط خراج دار أبجرد، حيث حال أهل البصرة بينه (الحسن) وبين خراج دار ابجرد وقالوا: فيء[2]. وقال ابن الأثير: «وكان منعهم ـ يعني أهل البصرة ـ بأمر من معاوية»[3].

(١) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية لحسن الأمين ١: ٤٣٦، دار التعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠١.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٢٦ (م.س).

(٣) أُسد الغابة ٣: ٤٠٥.

أما سياسته مع اتباع عليّ فقد وصل الأمر في عهده أنه «لأهون على المرء أن يقال عنه: أنّه زنديق أو كافر، ولا يقال عنه: إنّه من شيعة عليّ»[١]. فكان زياد عامله يتبع الشيعة؛ لعلمه بهم أيام عليّ، فتبعهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم[٢]، ثم لم يزل الأمر يشتد ويزداد إلى زمان ابنه عبيد الله بن زياد بعد قتل الحسين[٣].

وقد توجّه معاوية بغية تحقيق أهدافه ومشروعه السياسي إلى اعطاء خلافته صفة الحق الإلهي، فمعاوية، كما قال ابن طباطبا: «كان مصروف الهمة إلى تدبير أمر الدنيا، يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك»[٤]. وقد استخدم الشعر، ووضع الأحاديث والافتراءات، ونشر مذاهب كلامية تتناسب مع أهوائه وميوله. وقد وجد في عقيدتي القضاء والقدر والمرجئة دفاعاً قوياً عن أفكاره، ووسيلة لتبرير سياسته القائمة على الظلم والجور، بحجة أن قيادته مفروضة عليهم بقضاء الله وقدره، وأن أي تمرد هو تمرد على قضاء الله.

هذه النظرية جسدها ولاة معاوية على الأمصار. فقد خطب زياد بن أبيه ـ بعدما ولاه معاوية البصرة (عام ٤٥ للهجرة) ـ خطبته المشهورة البتراء: «أيها الناس، أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة في ما أحببنا»[٥].

---

(١) ثورة الحسين لمحمد مهدي شمس الدين: ٦٢، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، ط ٧، بيروت، ١٩٩٦.

(٢) كتاب سليم بن قيس الهلالي : ٣١٦، تحقيق محمد باقر الانصاري، دار الحوراء، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٩.

(٤)الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي: ١٠٧، دار بيروت، لا.ط، ١٩٨٠.

(٥) تاريخ الطبري ٤: ١٦٦ (م.س).

لقد نجح معاوية في استقطاب رجال يتمتعون بقدر عال من الكفاءة السياسية، والخبرة في الحرب، والاستفادة منهم في مواجهة المعارضين لسياسته؛ لعلمه بأن خلافته إنما كانت بالقهر والغلبة، وبالتالي فهي معرضة للتهديد والاندثار.

وهذا يفسّر أسلوب اختياره لولاته على الأمصار الّذين شكلوا كما في تعبير الكواكبي فئة "المتمجدون" وهم أنصار للجور لا رحمة لهم. فالمتمجد كما في تعبيره هو: «أن ينال المرء جذوة من نار جهنم كبرياء للمستبد، ليحرق بها شرف المساواة. وبوصف أجلى أن يتقلد سيفاً من قبل الجبار، يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد»[(١)].

وهذا ما قصده معاوية من ايجادهم والإكثار منهم؛ ليتمكن بواسطتهم كما في تحليل الكواكبي للمستبد من أن «يغرر الأمة على إضرار نفسها، تحت اسم منفعتها»[(٢)]. ومن هؤلاء الولاة: زياد بن أبيه، سمرة بن جندب، وبسر بن ارطأة.

لقد استطاع معاوية أن يبني من حوله طبقة "المتمجدين"، وكان إذا وجد منهم تذمراً استغنى عنهم بإبعادهم أو التنكيل بهم. فكان يتطابق مع نظرية الكواكبي «لا يستقر عند المستبد إلا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله»[(٣)]. وقد اختزل معاوية الحكم بنظام ملكي بأخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، هذه البيعة كانت أفظع جريمة ارتكبها معاوية بحق الأمة الإسلامية، وقد تجلّت آثارها بعد وفاة معاوية بثورة الإمام

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبدالرحمان الكواكبي: ٧٦ (م.س).
(٢) المصدر نفسه: ٧٧ (م.س).
(٣) المصدر نفسه: ٧٨.

الحسين بن علي عليه السلام، واستشهاده في واقعة كربلاء.

لقد سكب معاوية في نفوس الناس روحية الخفافيش التي تألف الدجنة وترهب الضياء، حتى بات المجتمع في عهده في روحية مريضة للغاية، حتى لم تعد تجد في الدين ما يروي الظمأ؛ بل على العكس بات الدين مادة الظمأ. فحكومة معاوية بزيفها وبريقها أشبه بأصنام الجاهلية، ومعاوية هو الصنم الأكبر، هو اللات والعزى. وبات اشياعه واتباعه من حوله ينوء تحت "وثنية اللحم". هذا التعبير هو عنوان مقال للشيخ عبد الله العلايلي استهله بعبارة لبرناردشو: «الهمجي أسعد حظاً منَّا؛ لأنه يعبد أصناماً من الحجر، أما نحن فنعبد أصناماً من اللحم». ويقول العلايلي: «إن كل نهضة تبنى على عبادة اللحم لا بد أن تبقى مباءة للهوام من كل قبيل». ويبين المجلسي بأن: «آيات الشرك ظاهرها في الأصنام الظاهرة وباطنها في خلفاء الجور الّذين اشركوا مع أئمة الحق ونصبوا مكانهم»[(١)]. ذكر الإسكافي: أن معاوية وضع قوماً من الصحابة ومن التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه. وجعل لهم جعلاً على ذلك يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، عمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير[(٢)].

فعمرو بن العاص الذي كان عمر بن الخطاب إذا رأى أحد يتكلم فلا يقيم كلامه ويقول: سبحان من خلقك وخلق عمرو بن العاص[(٣)]. وكان يقول فيه عمر ابن الخطاب أيضاً إذا نظر إليه وهو يمشي: «ما ينبغي لأبي عبد الله ـ عمرو بن

(١) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت للسيّد علي الخامنئي: ١٣٤، مركز بقية الله الأعظم للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٩٩.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٦٣ (م.س).
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢٢١ (م.س).

العاص ـ أن يمشي على الأرض إلا أميراً»، وولاه فلسطين. وعزله عثمان عن مصر، فقدم إلى المدينة فجعل يطعن على عثمان، فبلغ عثمان ذلك فزجره، فخرج إلى أرض له بفلسطين، وبعد قتل عثمان بلغه بيعه عليّ ثم بلغته وقعة الجمل وخروج معاوية، فلحق بمعاوية؛ لعلمه أن علياً لا يشركه في أمر، وساند معاوية مقابل شيء واحد: أن يعطيه مصر طعمة ما بقي(١). وقال الشيخ أبو القاسم البلخي: «وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردد قط عن الالحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار، وإن معاوية عضَّ أُذن عمرو. أين هذا من أخلاق عليٍّ وشدَّته في ذات الله، وهما مع ذلك يعيبانه بالدعابة»!(٢).

والمغيرة بن شعبة كان صاحب دنيا يبيع دينه بالقليل النذر منها، كان يرضي معاوية بذكر عليّ عليه السلام، يلعنه لعناً صريحاً على منبر الكوفة. وبعد قتل عثمان حضر مع الحكمين ثم بايع معاوية فولاه الكوفة(٣). وقيل في المغيرة: بأنه إذا كان في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها(٤).

وفي المدينة كان مروان بن الحكم والياً عليها، وهو الملقّب بخيط باطل، وطريد رسول الله ولعينه، كان لا يدع سبّ عليّ عليه السلام على المنبر كل جمعة. وقيل لمروان: ما لكم تسبونه علىّ المنابر؟ فقال: لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك(٥).

(١) الانحرافات الكبرى لسعيد أيّوب: ٤٤٣، دار الهادي، ط ١، بيروت، ١٩٩٢.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٦٥ ـ ٦٦ (م.س).
(٣) الانحرافات الكبرى لسعيد أيّوب: ٤٤٢ (م.س).
(٤) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ١: ٨٩ (م.س).
(٥) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ٣١٣ (م.س).

وفيما طلب البعض من معاوية أن يكف عن لعن عليّ عليه السلام قال: «والله، حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر ذاكراً له فضلاً»[(١)].

وكذلك خضع الزعماء الدينيون والسياسيون لسياسة معاوية على علمهم بانحطاطه، وخضعوا لولاته يتزلفون اليهم، مع إقدام أولئك على سحق المجتمع وحرمانه، وانتزاع حرياته تنفيذاً لسياسته القائمة على الارهاب والتجويع، وإحياء النزعات القبلية، والتخدير باسم الدين. وقد قال الحسن البصري: «ثلاث كُنَّ في معاوية لو لم تكن منهنَّ إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها، واستلحاقه زياداً مراغمة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجراً، ويل له من حجر وأصحاب حجر»[(٢)].

نهج الآيديولوجية الإسلامية للإمام الحسن عليه السلام:

إنّ الظروف التي دفعت بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في قبول التحكيم هي الظروف عينها التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام إلى قبول الصلح. لقد أعرض الإمامين عليّ والحسن عليهما السلام عن الصراع العسكري ليكافحا على جبهة تتناسب مع الأهداف التي وجدا من أجلها، وهي تحقيق حكومة اسلامية عادلة على غرار حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي من شأنها تطهير الأمة من الفساد والجور. إضافة إلى حفظ الإمامة وأهلها من الاندثار في غياهب الزيف والضلال، حيث إن الإمامة شكلت المطلق الأساس لدعوة الأئمة عليهم السلام، كونها الامتداد الرسالي لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة. هي كما يشير السيد علي الخامنئي:

---

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن لجعفر مرتضى للعاملي: ٨٩، دار السيرة، ط ١، بيروت، ١٩٩٤.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٩٣ (م.س).

«قيادة الأمة في شؤون دينها ودنياها، وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية، وأيضاً في شؤون التعليم والارشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحل المشاكل الفكرية وتبيين الآيديولوجية الإسلامية»[١]. ومن صفات الإمام كما يبين السيد محسن الأمين: «أن يكون معصوماً، وأن يكون أفضل أهل زمانه، وأن يكون منصوباً من قبل الله تعالى بواسطة النبي»[٢].

وهي كما يشير السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم: «امتداد لإمامة النبي صلى الله عليه وآله في جانبيها الديني والسياسي. فالإمامية في الدين يأخذون (عن الإمام) معالم دينهم وشرائعه وأحكامه، وهو الحافظ له من الضياع والتحريف والبدع والضلالات. والإمامة السياسية عبارة عن كونه السلطان الحاكم عليهم، الذي يتولى شؤونهم، ويدير أمورهم، وينظر في صلاحهم، وينطق عنهم، ويجبي خراجهم، ويقسم فيئهم، ويطبق الاسلام فيهم عملياً بإقامة فرائضه وإجراء حدوده وفصل الخصومات على ضوء أحكامه والدعوة له والجهاد في سبيله والدفاع عنه...»[٣].

إنّ موقع الإمامة وأهميتها في الأمة الاسلامية حدَّد موقف الإمام الحسن عليه السلام من منطلق دوره ـ إمام ابن إمام ـ في الموازنة بين القتال والصلح، فإن اختار عليه السلام القتال، بلا شك ففيه إما فناؤه عليه السلام وفناء الخيرة من أصحابه، بحيث يدفع بهم نحو حركة عاطفية هائجة، يدخلهم في مغامرة لا تلبث شعلتها أن تخبو بسبب اختلال

(١) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت للسيّد علي الخامنئي: ٥٨ (م.س).

(٢) الدر الثمين لمحسن الأمين: ١٧، مطبعة منيمنة الحديثة.

(٣) أصول العقيدة لمحمّد سعيد الحكيم: ٢٢٩، مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية، ط ١، النجف، ٢٠٠٧.

موازين القوى العسكرية لصالح معاوية، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لمعاوية يتحكّم في مقدرات الأمة فكريا وسياسياً. والأخطر من ذلك اعطاؤه الفرصة لإطفاء فكرة الإمامة، وما لها من حرارة وحركة خلف أستار الخداع والزيف والتضليل. فالجماعات المؤيدة له عليه السلام وإن كانت مرتبطة عاطفياً به، إلا أنها كانت تركن عملياً إلى الدنيا وبريقها، وذلك تحت تأثير اغراءات معاوية القائمة على المال والرشوة والمخادعة؛ وبالتالي فإن متابعة القتال مع جماعات تلك مقوماتها ليس وراءها إلا التضحية بالنخبة القيادية.

لا شك أن طريق القتال هو طريق التضحية والفداء، لكن الإمام الحسن عليه السلام الذي يخطط لحركة التاريخ ولمدى أبعد كثير من حياته، لا يكفي أن يكون مضحياً فقط، بل لا بد أن يكون عميقاً في فكره، واسعاً في تصوره، مدبراً في حكمته، فكان خيار "الصلح" هو أفسح الطريقين مع كل ما يتطلبه هذا الخيار من صبر ومعاناة، وبهذا يحفظ حياته، ويصون حياة المجموعة الخيِّرة من أصحابه لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، وليتسنى له متابعة نشاطه الرسالي في بناء أفراد قادرين حقيقة على تبني أفكار الإمامة والدفاع عنها.

لقد شكل "الصلح" جهاداً صامتاً سلب عن معاوية كل شرعية وكل ما يدعيه لنفسه، وأبرز تجليات هذا الجهاد تمثل بـ:

ـ أولى الشروط التي أخذها معاوية على نفسه، وبذل عليها العهود المؤكدة والأيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام «أن يكون الأمر للحسن من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد».

لقد سجل معاوية على نفسه اعترافاً بحقيقة راهنة تتمثل بالاعتراف بقضية

هامة من قضايا المجتمع الاسلامي، وهي الإمامة، وأن الإمامين الحسن والحسين هما أصحاب حق، وفيه إقرار يقتضي بإرجاع الحق إلى أهله. وقد اجمع المؤرخون: أن معاوية نقض هذا الشرط علناً ـ كما نقض الشروط جميعها ـ حيث عهد من بعده إلى ابنه يزيد. هذا العهد كان أفظع جريمة ارتكبها معاوية في حق الأمّة الإسلامية، وهو شاهد على مدى استهتاره بالرسالة الاسلامية ومحاولته الداعية إلى هدم الاسلام وإلغاء النبوة.

ـ مدى اعتناء الإمام الحسن عليه السلام بنقاط الصلح بحيث لا يخرج معنى كل منها عن الابعاد الحقيقية التي يرمي إليها الإمام عليه السلام. لقد اختار عليه السلام كلمة "**تسليم الأمر**"، ولم يقل الخلافة أو الملك أو الإمامة، لكي لا يُظَن أنه اعتَرفَ أو رَضِيَ بأن يكون له إمامة أو ملكاً أو حاكمية أو سلطان أو غيره. إنّ تسليم الأمر لا يعني مبايعة، «وإنما هو تنازل وتسليم الأمر الدنيوي الذي أشير إليه بقوله تعالى:﴿**وشاورهم في الأمر**﴾، وهو حكم الدنيا وسلطانها، والملك المحض، ولم يعترف له بالإمامة الدينية والبيعة والخلافة الشرعية»[(١)].

ـ اشترط الإمام الحسن عليه السلام على معاوية أن لا يسمّيه أمير المؤمنين، وأن لا يقيم عنده شهادة. وقد وافق معاوية على هذين الشرطين طائعاً مختاراً دون إكراه أو اضطرار، بل في موضع القوة والاقتدار.

ففي الشرط الأول: إسقاط لاستثمار معاوية على نفس الحسن عليه السلام، لم يلزمه في شيء من أمره، وإعلان صريح بأنه عليه السلام لا يرى شرعية ما يدعيه معاوية لنفسه.

---

(١) الحياة السياسية للإمام الحسن للعاملي: ١١٠ (م.س).

إنّ الشرط الثاني، أن لا يقيم عنده شهادة، هو الدليل القاطع على أن معاوية يفقد شرائط التصدي لمثل هذا المقام الخطير. ويرى السيد جعفر مرتضى العاملي أن «هذا الشرط يعني أمرين أو كليهما معاً؛ أولهما: أن معاوية لا يملك صفة العدالة المشترطة في القاضي إلى حد أن يصبح غير مأمون حتى على القضاء، وحتى في مثل هذه الأمور الجزئية والبسيطة التي تعني أفراداً من الناس. ومن لا يُؤَمَّن على مثل هذه الأمور البسيطة كيف يُؤَمَّن على دماء الأمة وأموالها، وأعراضها، وعلى دينها، وأخلاقها، ومستقبلها؟ كيف يكون له مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته؟ ... وكيف تكون قراراته نافذة في اختيار الإمام، الذي يجلس في مقام الرسول ويحكم الأمة باسمه صلى الله عليه وآله، لا سيما إذا كان يسوق الأمور باتجاه ولده المعروف بفسقه وفجوره، بعد أن أثبت هو نفسه قبل ولده الذي قتل أئمة الحق، وسفك دماء عشرات الألوف من المسلمين من أجل الحصول على هذا الأمر والوصول إليه... أما الأمر الثاني: أن يكون قد شرط عليه ذلك بسبب جهله بأحكام القضاء. ومن كان جاهلاً حتى بمثل هذه الأمور البسيطة التي هي من شؤون الحكم، فهل يكون عالماً بسائر القضايا الحساسة والمصيرية؟ ومن كان بهذا المستوى من الجهل أو عدم الأمانة، وقلة الدين كيف يمكن أن يفي بتعهداته بأن يعمل بالكتاب والسُّنة؟»[١].

ـ خطاب الإمام الحسن عليه السلام الذي جاء رداً على خطاب معاوية: «... وإن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً، ولم أر نفسي لها أهلاً، فكذب معاوية. نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجل، وعلى لسان نبيه. ولم نزل ـ أهل البيت ـ مظلومين منذ قبض الله نبيه. فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا،

(١) عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني لجعفر مرتضى العاملي: ٦٧، (م.س).

وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء، ومنع أمنا ما جعل لها رسول اللهصلى الله عليه وآله. وأقسم بالله، لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله، لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية... فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها، فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك... فوالذي بعث محمداً بالحق، لا ينقص من حقنا أهل البيت أحد، إلا نقَّص الله من عمله، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة، ولتعملن نبأه بعد حين»[١].

الإمام الحسنعليه السلام في المدينة:

ترك الإمام الحسن عليه السلام الكوفة ولم يكن ليثنيه عن الخروج رغبة صاحبيه: المسيب بن نجية الفزاري وظبيان بن عمارة التيمي فقال لهما: «الحمد لله الغالب على أمره، لو جمع الخلق جميعاً على أن لا يكون ما هو كائن ما استطاعوا»[٢]. وفي دير بدر (الحيرة) نظرعليه السلام إلى الكوفة وقال: «ولا عن قلى فارقت دار معاشريهم المانعون حوزتي وذماري»[٣]

توجه الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة؛ لمتابعة دوره الرسالي، وليعيد إلى المجتمع معنوياته المفقودة وشخصيته المسحوقة، وليُعِد الأمة اعداداً فكرياً منظماً مرتكزاً على المبادئ والمفاهيم الرسالية المحمدية. ويمكن ترجمة الاستراتيجية العامة للإمام الحسن عليه السلام بالنقاط التالية:

أ- تبيان الخواء العقائدي لمعاوية وأتباعه.

لقد استعبد معاوية الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، أراد حكومته

---

(١) صلح الحسنعليه السلام لآل ياسين: ٢٨٦ (م.س) معادن الحكمة للكاشاني ٢: ٢٤ (م.س).

(٢) صلح الحسنعليه السلام لآل ياسين: ٢٨٩ (م.س).

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٩.

فرعونية ربوبية، تصدى لكل دعوة تنادي بالعقيدة الاسلامية الحقة، اشترى الذمم من رجال الدين والقرّاء والمحدثين، يُبدلون الأحاديث وأحكام الدين بما يتناسب وأهوائه، تحت غطاء الاستنباط والاجتهاد. عمد في ظل الدين والعقائد الكلامية إلى تدعيم سلطته وسطوته، بحيث أصبح "المثل الأعلى" الذي يستقطب البناء الداخلي للإنسانية، وتتمحور فيه كل الغايات وتعود إليه كل الأهداف. ويُطلق القرآن الكريم والتعبير الديني على المثل الأعلى كما يبين السيد محمد باقر الصدر: «في جملة من الحالات اسم الإله باعتبار أن المثل الأعلى هو القائد الآمر المطاع الموجه، وهذه صفات يراها القرآن للإله، ولهذا يُعبَّر عن كل من يكون مثلاً أعلى كُل من يحتل هذا المركز (المثل الأعلى) يُعبر عنه بالإله؛ لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ، حتى ورد في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، عبَّر حتى عن الهوى بأنه إله حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً، فيصبح هو المثل الأعلى وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو ذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة؛ لأنها هي المعبودة حقّاً، وهي الآمرة والناهية حقاً، وهي المحركة حقاً، فهي آلهة في المفهوم الديني والاجتماعي»[2].

لقد نجح معاوية في طمس وتذويب الهوية المجتمعية آنذاك، إلى درجة اجتياف أحكامه الجائرة بحيث أصبح هو الموجه، الآمر والناهي، لقد بات المجتمع رهن وضعية سيطرته وأداة بيده؛ من خلال التشبه به، وتمثل سلوكه،

(١) سورة الفرقان: الآية (٤٣).

(٢) المدرسة القرآنية: ١٢٠، (موسوعة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، مجلد ١٩). المعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠١٢.

ونمط حياته، وقيمه، إلى حد التنكر الكلي للذات ولانتماءاتها الدينية، والميل إلى الشطط والتطرف والارتماء في أحضانه والانصياع لأوامره حتى وصل الأمر إلى قتل الحسين عليه السلام.

إنّ مصلحة المتسلط كما يشير السيد محمد باقر الصدر: «أن يحول الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى إله مطلق، إلى إله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه. يحاول أن يضع كل الأمة في إطار نظرته هو، في إطار وجوده هو، لكي لا يمكن لهذه الأمة أن تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل. من واقعه إلى طموح آخر أكبر من هذا الواقع. هنا السبب اجتماعي لا نفسي، السبب خارجي لا داخلي»[(١)].

وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِله غَيْرِي**﴾[(٢)]، وقوله عزَّ وجَّل: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[(٣)]. ويسمّي القرآن الكريم هذا النوع من القوى التي تحول هذا الواقع المحدود إلى مطلق، وتحصر الجماعة البشرية في إطار هذا المحدود، يسمّي هذا بالطاغوت لقوله عزَّ وجَّل ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٤ بتصرف.

(٢) سورة القصص: الآية (٣٨).

(٣) سورة غافر: الآية (٢٩).

(٤) سورة الزمر: الآيتان: (١٧ و١٨).

ب ـ اعداد الأمة رسالياً، وتهذيبيها، وتثقيفها في معنى الحكومة الاسلامية العادلة:

إنّ تجربة الإمام الحسن عليه السلام أعطته نوعاً من التحدي، بطرح النهج الآيديولوجي الاسلامي المرتبط بالنموذج الأول، وهو نموذج عهد النبوة، وذلك كخطوة أساسية في عملية التغيير على كافة المستويات النفسية والاجتماعية والسياسية من خلال تبني منظومة قائمة على القيم والمثل العليا تُشكّل أساس البناء النفسي، الذي يشكّل بدوره كل مرتكز، كل نشاط وظيفي وتفاعلي.

لقد كشف الإمام الحسن عليه السلام القناع عن خواء معاوية ومستوى انحداره في منعطفات الفكر الجاهلي بكل ابعاده ومفاهيمه. بيَّن عليه السلام للأمة مسار حركتها الإنسانية؛ بالتوجه إلى المثل الأعلى الحقيقي وهو (الله تعالى)؛ لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[1]. هذا التوجه يحرر الإنسان من عبودية غير الله "لا إله إلا الله"، ويرفض كل أشكال الألوهية المزيفة، وهذا تحرير الإنسان من داخل، والذي يعرف (بالجهاد الأكبر)، ثم يقرر كنتيجة لذلك التحرر من أي مالك سوى الله تعالى، وهذا هو تحرير الإنسان من خارج والذي يعرف (بالجهاد الأصغر).

وقد حرص عليه السلام في مسيرته إلى ايجاد مجتمع يستطيع فيه الإنسان أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع أبعادها، مجتمع تتفجر فيه الطاقات الخيِّرة والقوى الإنسانية الكامنة، مجتمع تتكامل فيه الخصائص الرسالية المحمدية. ومن ثَمّ صيانة هذا المجتمع من خلال آيديولوجية منبثقة من النظام الاسلامي نفسه، مصاغة بصياغته.

---

(١) سورة الإنشقاق: الآية (٦).

لقد استطاع الإمام الحسن عليه السلام بلورة الأحاسيس حتى غدت منطقاً وفكراً، وقد أصبح الناس من حوله على درجة بالغة من الوعي، ومن الارتباط الروحي والفكري والعملي بنهجه عليه السلام، هذا الوعي المتمثل بالفهم الفعَّال الايجابي للإسلام والقادر على استئصال جذور المفاهيم الجاهلية، وبالتالي التحول من أخلاقية الهزيمة إلى أخلاقية الإرادة. «فالأمة حينما تنهزم وتنزع منها شخصيتها وتموت ارادتها تنسج بالتدريج أخلاقية معينة تنسجم مع الهزيمة النفسية التي تعيشها بوصفها أمة بدون إرادة، أمة لا تشعر بكرامتها»[(١)].

لقد توجه الإمام عليه السلام في المدينة إلى صنع الحياة صنعاً كريماً ركَّز فيها راية الإيمان، أوقفها على حدود الحلال والحرام، ايقظ فيها ذكرى ناعمة كرجع الحنين. ذكرى النبوة في اطمئنانها وإشراقها، وبات عليه السلام قبلة الناس في كل ناد وحديث الجموع في الرواحات والغدوات. وهي تخبر عن هذا المسموع المرئي الذي جاء بأوضح برهان وأسطع بيان.

إنّ الإمام الحسن عليه السلام الذي لم يشهر السيف، فقد شهر سيفاً أقوى وأنفذ، لقد استطاع عليه السلام بنميره الأقدس أن يجري في عروق الأمة، يروي فيها الظمأ: «فالنصر والهزيمة لا ينبعان من فراغ – كما يشير الإمام الخميني – بل هما تابعان لهدف الإنسان والقدرة على تحقيق هذا الهدف، فبحسب الهدف الذي يرسمه الإنسان وقدرته على تحقيق هذا الهدف يكون النصر أو الهزيمة»[(٢)]. وقد اثبتت مسيرة الإمام الحسن مدى الانتصار الذي حقّقه عليه السلام، هذا الانتصار تجلى في ذاك

---

(١) أئمّة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الاسلامية للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر: ١٥٧ - ١٥٨، المعارف للمطبوعات، ط ١، لبنان، ٢٠١٢، مجلد ٢٠، بتصرف (موسوعة الشهيد الصدر.

(٢) الشهادة في فكر الإمام الخميني: ١٩، مركز الإمام الخميني الثقافي، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٦.

الصمود في وجه أقطاب الظلم والجور، وفي حفظ مسيرة الإنسان التكاملية في جميع أبعادها من خلال اعداد الأمة رسالياً، وتثقيفها، وتهذيبها تبعاً للأطروحة والآيديولوجية الاسلامية.

ج- إرساء قواعد الإمامة والتمهيد لاعادة القيادة الاسلامية إلى أصحابها الحقيقيين، إمَّا أن يتسلمها الحسن، أو التمهيد لأن يتسلمها الحسين عليه السلام من بعده:

إنّ السنوات العشر التي أمضاها الإمام الحسن عليه السلام في المدينة كانت حافلة بالتعليم الآيديولوجي البنّاء، تبنَّى فيها مسألة الإمامة والحفاظ على معالمها وقدسيتها من التشويه والزيف. خاصة وأن جهود معاوية وولاته تحولت إلى احتواء مفهوم الإمامة، والأكثر من ذلك احتواء النبوة، وقد تستَّر كُلِّ منهم بنظرية الحق الإلهي في الحكم. لقد جهد عليه السلام إلى ازاحة تلك الاستار الصفيفة، وتصحيح مسار الإمامة، وتبيان مفاهيمها ومناهجها المرتبطة بالدعوة المحمدية، من حيث إنها امتداد لتلك الدعوة المباركة.

وقد كانت للإمام عليه السلام مواقف من الصلابة والمواجهة الصريحة مع الخليفة نفسه، خاصة في المسائل التي ترتبط بالعقيدة والإمامة. فقد روى الخوارزمي: أن معاوية سافر إلى يثرب فرأى تكريم الناس وحفاوتهم بالإمام وإكبارهم له مما ساءه ذلك، فاستدعى أبا الأسود الدؤلي والضحَّاك بين قيس الفهري، فاستشارهم في أمر الحسن وأنه بماذا يوصمه؛ ليتخذ من ذلك وسيلة للحط من شأنه والتقليل من أهمية أمام الجماهير، فأشار عليه أبو الأسود بالترك، في حين أشار إليه الضحاك بالقول: «امضِ ـ يا أمير المؤمنين ـ فيه برأيك ولا تنصرف عنه بدائك، فإنك لو رميته بقوارص كلامك ومحكم جوابك لذَّل لك كما يذلُّ البعير الشارف

من الإبل!».

واستجاب معاوية لرأي الضحاك، فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه، وصلى على نبيَّه، ثم ذكر أمير المؤمنين وسيِّد المسلمين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فانتقصه، ثم قال: «أيها الناس! إن صبية من قريش ذوي سفه وطيش وتكدّر من عيش، اتعبتهم المقادير، فاتخذ الشيطان رؤوسهم مقاعد، وألسنتهم مبارد، فأباض وفرَّخ في صدورهم، ودرج في نحورهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، وأعمى عليهم السُبل وأرشدهم إلى البغي والعدوان والزور والبهتان، فهم له شركاء وهو لهم قرين: ﴿**وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً**﴾ وكفى لهم مؤدباً، والمستعان الله».

فوثب إليه الإمام الحسن عليه السلام مندفعاً كالسيل راداً عليه افتراءه وأباطيله، فقال: «أيها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن عليّ بن أبي طالب، أنا ابن نبيّ الله، أنا ابن من جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، أنا ابن السراج المنير، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتّقين، ورسول رب العالمين، أنا ابن من بُعث إلى الجن والأنس، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين»... (ثم استرسل في تعريف نفسه).

وغضب معاوية واندفع يصيح: «أما أنك تحدث نفسك بالخلافة»، فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: «أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنة نبيّه، وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وعطل السُنَّة، إنمَّا مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتَّع به، وكأنَّه انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه» (وتابع في تعريف نفسه إلى قوله عليه السلام): «أنا ابن من رضاه رضا الله وسخطه سخطه، فهل لك أن تساميه معاوية»؟.

فقال معاوية: أقول لا تصديقاً لقولك».

فقال الحسن:«الحق أبلج، والباطل لجلج، ولم يندم من ركب الحق، وقد خاب من ركب الباطل».

فقال معاوية: «لا مرحباً بمن ساءك»[١].

لقد كشف الإمام الحسن عليه السلام القناع عن معاوية وحكومته. فالسمات التي أبان زيفها معاوية «هيّأت المناخ النفسي لدى الشعب المسلم للانتقام من النظام، فتألب عليه أولاً، وتجمهر ضدَّه ثانياً، وحمل بوجهه السلاح أخيراً، حتى الانهيار»[٢]. ويقول الشيخ آل كاشف الغطاء: «إنّ كل الصلاح وصلاح الكل فيما فعله الإمام الحسن عليه السلام.. نعم هو الحزم بعينه، وهو الظفر بخصمه، وهو عين الفتك بعدوه من حيث الفنون الحربية والسياسية الزمنية، وغلب عليه بالصلح، فأخمد ناره، وهتك استاره، وأبدى للناس عاره وعياره... وهذا أتَّم للحجة وأقطع للمعاذير وأبلغ في دفع الريب والشبهة»[٣].

د- نشر فكر أهل البيت عليهم السلام وتنظيم أمور الموالين لهذا الفكر وإعداد مجموعة من الأفراد تكون مؤهلة لهضم قضية الإمام وحمايتها:

هذا التوجه قُدِّر له بالامتداد والتوسع بسبب الاضطهاد الذي مارسه معاوية وولاته، فالاضطهاد كما يشير السيّد الخامنئي: «يؤدّي إلى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذرها بدل تبعثرها وتشتتها»[٤]. لقد اتجهت استراتيجية الإمام عليه السلام إلى تجميع القوى الموالية وحفظها من بطش الجهاز الأموي.

(١) أعلام الهداية، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ٤: ١٧١، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، (م.س).

(٢) الإمام الحسن عليه السلام لمحمّد حسين علي الصغير: ١٦٣، مؤسسة المعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٥.

(٤) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام للسيّد علي الخامنئي: ٧٥ (م.س)

ويشهد التاريخ وقائع تثبت هذه الحركة وأهميتها من تجميع الأفراد ولم شتات الموالين حول نهضة الإمام الحسن عليه السلام. تشير الروايات بأن وفداً جاء الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى المدينة برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجية، وذلك بعد الصلح، يقترحون على الإمام عليه السلام الحرب واعلان الثورة، فأجابهم الحسن عليه السلام : «أما بعد فإنكم شيعتنا، وأهل مودتنا، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم.. فاتقوا الله وسلّموا الأمر لله والزموا بيوتكم، وكفّوا أيديكم حتى يستريح بر، أو يُستراح من فاجر... فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً، فإن يهلك ونحن أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا...»(١).

هذه الواقعة تشير إلى وجود نشاط سياسي للإمام الحسن عليه السلام في إطار تنظيمي محدَّد الأهداف والخطوات، وقد رأى بعض المؤرخين في الواقعة التي مرَّ ذكرها على أنها الحجر الأساس في اقامة التنظيم الشيعي.

لقد اراد الإمام الحسن عليه السلام تنظيم أمور الموالين لنهجه ليصل كل منهم إلى مستوى الانتماء العقائدي والسياسي لحركته عليه السلام «فالانتماء ليس مجرد ولاء، بل هو يتجاوزه إلى مستوى الوحدة الحيوية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي والاجتماعي، والانغراس الثقافي في مرجعية ثقافية، تشكل أساس هويته ونظرته إلى الوجود»(٢).

وقد قُدِّر للحسن عليه السلام النجاح في مسيرته، حيث عدَّ الطوسي من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام أربعين صحابياً وامرأة هي فاطمة بنت حبابة الوالبية وأيضاً

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٥٤، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٦م.
(٢) الصحة النفسية لمصطفى حجازي: ٥٤، المركز الثقافي العربي، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٤.

حبابة الوالبية[١].

وقد شكّل هؤلاء التنظيم الرسالي لدعوة الإمام الحسنعليه السلام التي خرجت ما بعد حدود المدينة لتنتشر خفاقة في الأمصار والمدائن.

لقد استطاع الإمام الحسنعليه السلام بالرغم من الظروف الضاغطة أن يحقق نجاحاً بارزاً في المحافظة على دوره كإمام معصوم. لقد اجتازت الإمامة معهعليه السلام مرحلة خطيرة ومعقَّدة. لقد اثبت لمن حوله لمعاوية نفسه أنَّ الإمامة ثابتة الأصول ترتبط في عمقها وجذورها بالدعوة المحمدية. هذا الثبات جعل منهعليه السلام نقطة استقطاب لمن حوله وأن يكون الفكر الاصلاحي النابض في كل مجالات الحياة. واغتيال معاوية للإمام الحسن عليه السلام بالسم على يد زوجة الحسنعليه السلام جعدة بنت الاشعث خير دليل على مدى نجاح الإمام الحسن عليه السلام في مسيرته الجهادية من خلال النهج الآيديولوجي الاسلامي الذي انتهجهعليه السلام. فقد روى أبو الفرج: «انصرف الحسن (رض) إلى المدينة فأقام بها، وأراد معاوية البيعة لأبيه يزيد، فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سماً فماتا عنه»[٢]. فالحسن عليه السلام لم يمضِ إلى الثرى، إنما ليلقي في سمع الحياة كلمة حق، كلمة مشت بها الحياة في التاريخ ورجَّعها نقطة ندر تلألأ على جبين أخيه الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) رجال الطوسي: ٦٦ ـ ٧١ منشورات الرضي، ١٩٦١.

(٢) مقاتل الطالبيين، أبوالفرج الإصفهاني: ٨٠ (م.س).

المراجع:

القرآن الكريم.

١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٩.

٢- ابن أبي بكر الشيباني، عز الدين أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.

٣- ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ٣، ١٩٦٢.

٤- ابن حجر، الصواعق المحرقة، مكتبة القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥.

٥- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة الحسن، تحقيق محمد بن حامل السلمي، مكتبة الصديق، ط ١، الطائف، ١٩٩٣.

٦- ابن طباطبا، محمد بن علي، (ابن الطقطقي)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت، لا.ط، ١٩٨٠.

٧- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٩.

٨- ابن عساكر، (من تاريخ دمشق)، ترجمة الإمام الحسن، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨٠.

٩- ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٦.

١٠- ابن قيس الهلالي، سليم، كتاب سليم بن قيس الهلالي، تحقيق محمد باقر الأنصاري، دار الحوراء، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥.

١١- ابن كثير، ابن الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٩٩٣.

١٢- أبو بكر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٦٩.

١٣- الأحمد، فؤاد، الإمام الحسن القائد والتاريخ، دار البيان العربي، ط ١، بيروت، ١٩٩١.

١٤- الإربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الائمة، مطبعة النجف الاشرف، ١٣٨٥هـ.

١٥- الإصفهاني، أبو الفرج، مقاتل الطالبيين، منشورات الشريف الرضي، ط ١، ايران، ١٤١٤ هـ.ق.

١٦- آل ياسين، راضي، صلح الحسن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٩٢.

١٧- الإمام الحسن المجتبى، المجمع العالمي لأهل البيت، ط ١، قم، ١٤٢٢هـ.

١٨- الأمين، حسن، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، دار التعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠١.

١٩- الأمين، محسن، الدر الثمين، مطبعة منيمنة الحديثة.

٢٠- أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، دار الهادي، ط ١، بيروت، ١٩٩٢.

٢١- الحر العاملي، محمد بن الحسن، اثبات الهداة، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٩٩هـ.ق.

٢٢- الكاشاني، محمد بن الحسن، معادن الحكمة، مكتبة الصدوق، طهران، ١٣٨٨.

٢٣- الشبلنجي مؤمن بن حسن، نور الأبصار، مطبعة عاطف، ط ٨، مصر، ١٩٦٣.

٢٤- المقدسي بن طاهر، مطهر، البدء في التاريخ، مؤسسة الخانجي، مصر، ١٩١٦، ج ٥.

٢٥- البنَّا، أحمد بن عبد الرحمن، (الساعاتي)، الفتح الرباني، ط ١، مصر، ١٣٧٧.

٢٦- الجوزي، ابن سبط، تذكرة الخواص، مؤسسة أهل البيت، بيروت، ١٩٨١.

٢٧- حجازي، مصطفى، الصحة النفسية، المركز الثقافي العربي، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٤.

٢٨- حجازي، مصطفى، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الانماء العربي، ط ٣، بيروت، ١٩٨٤.

٢٩- الحكيم، محمد سعيد الطباطبائي، أصول العقيدة، مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية، ط ١، النجف، ٢٠٠٧.

٣٠- الخامنئي، علي، الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت، مركز بقية الله الأعظم للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٩٩.

٣١- الدولابي، الذرية الطاهرة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، بيروت، ١٩٨٨.

٣٢- رجال الطوسي، منشورات الرضي، ١٩٦١.

٣٣- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١.

٣٤- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الاسلامي، تعليق حسين مؤنس.

٣٥- الشامي، رشاد عبد الله، اشكالية الهوية في اسرائيل، مجلة المعرفة، الكويت، عدد ٢٢٤، آب ١٩٩٨.

٣٦- الشبراوي، الشافعي، الاتحاف بحب الاشراف، دار الذخائر للمطبوعات، قم.

٣٧- شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، ط ٧، بيروت، ١٩٩٦.

٣٨- الشهادة في فكر الإمام الخميني، مركز الإمام الخميني الثقافي، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٦.

٣٩- الصدر، محمد باقر ، أئمة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الاسلامية، المعارف للمطبوعات، ط ١، لبنان، ٢٠١٢، مجلد ٢٠، (موسوعة الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر).

٤٠- الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، (موسوعة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر)، مجلد ١٩، المعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠١٢.

٤١- الصغير، محمد حسين علي، الإمام الحسن، مؤسسة المعارف للمطبوعات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢.

٤٢- الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الورى، منشورات المكتبة الحيدرية، ط ٣، النجف، ١٩٧٠.

٤٣- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٤٤- الطبري، محيي الدين، ذخائر العقبى، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨١.

٤٥- العاملي، جعفر، الحياة السياسية للإمام الحسن، دار السيرة، ط ١، بيروت، ١٩٩٤.

٤٦- عبد الهادي، علاء، شعرية الهوية ونقض فكرة الأصل، مجلة عالم الفكر، عدد ١، مجلد ٢٦ حزيران، ٢٠٠٧.

٤٧- التلعكبري، ابن النعمان محمد بن محمد، (الشيخ المفيد)، الارشاد، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٢.

٤٨- عيسى، زينب محمد، الإمام الحسن بن علي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله جمعية السيدة زينب الخيرية، ط ١، ٢٠٠٧.

٤٩- القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسن بن علي، مطبعة الآداب، ط ٣، النجف.

٥٠- كتاني، سليمان، الإمام الحسن الكوثر المهدور، دار المرتضى، ط ١، بيروت، ١٩٨٩.

٥١- الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم أسعد السحمراني، دار النفائس، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٦م.

٥٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار احياء التراث العربي، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣م.

٥٣- مرتضى العاملي، جعفر، الحياة السياسية للإمام الحسن، دار السيرة، ط ١، بيروت، ١٩٩٤م.

٥٤- مرتضى العاملي، جعفر، عاشوراء بين الصُلح الحسني والكيد السفياني، المركز الاسلامي للدراسات، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣م.

٥٥- المسعودي، مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، انتشارات الشريف الرضي، ط١.

٥٦- المقريزي، أحمد بن علي، النزاع والتخاصم، مكتبة الإهرام، لا.ط، مصر.

٥٧- المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٥٨- الموفي، قاسم، في قراءة النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٩٩م.

٥٩- النيسابوري، روضة الواعظين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٠- اليعقوبي، ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٩٣م، وطبعة أخرى بنشر دار صادر البيروتية.

الإمام الحسنعليه السلام وأجوبة السائلين

السيد عبدالله فضل الله(*)

هذا البحث يدور حول كيفية أداء أجوبة السائلين، حيث إنه لكلّ مقام مقال، ومن أجدر من الأئمةعليهم السلام لتسديد المؤمنين في هذه الحكمة؟! وبما أن للمسألة هذه أهمية وخصوصاً في ساحة التبليغ، أرى أن ابتدئ بالرواية الواردة عن أمير المؤمنينعليه السلام:«من الحكمة أن يخاطب الناس على قدر ما يحسنون ويكلّفوا بقدر ما يطيقون، فإنّ للعاقل كلاماً لا يفقهه الجاهل، وللجاهل كلامٌ لا يفقهه العقّال، فإذا خوطب الأول بخطاب الثاني كان بخساً بحقّه وازدراء بشأنه، وإذا خوطب الثاني بخطاب الأوّل كان مضيعة للوقت وتكليفاً بغير المستطاع».

وقد جاء في السيرة كم مرّ على الأئمةعليهم السلام أنواع من السائلين تختلف أزمنتهم وأحوالهم، فإمّا يكون الجواب وفق التقية، وإما وفق حال السائل، وإمّا ضمن دقّة الجواب وعمق المضمون العلمي له، كما سنرى في سيرة الإمام الحسنعليه السلام، حيث سنحصر عنوان كلامنا فيه.

والمهمّ أنّهم كانوا لا يردّون سائلاً مهما كان حاله وحال المسألة، وكانواعليهم السلام معدن العلم والحكمة يجيبون كلّ مسائل عن مسألته، وهذه المسألة

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ لبنان.

مهمة، إذ قد يسأل أهل العلم مسألة فيها من الدقة والعمق ما يصير بيانه عادة، فيعتذر المسؤول للسائل عن الجواب إذا علم، أما إذا لم يعلم فالأمر سهل.

سؤال الإمام الحسن عليه السلام عن المسافة بين المشرق والمغرب:

الرواية الأُولى:

في «الخصال» للشيخ الصدوق، و«الاحتجاج» للشيخ الطبرسي و«تحف العقول عن آل الرسول»: أرسل معاوية رجلاً من الشام إلى أمير المؤمنين عليه السلام ليسأله عن مسألة بعث بها ابن الأصفر، فأحضر أمير المؤمنين عليه السلام أولاده الحسن والحسين عليهما السلام ومحمّد بن الحنيفة، وخَيّر الشامي في أن يسأل مَن يشاء منهم، فوقع اختياره على الإمام الحسن عليه السلام، فسأله السؤال الأوّل:

كَمْ بين المشرق والمغرب؟

فقال الإمام الحسن عليه السلام: «بين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تنظر إليها حيث تطلب من مشرقها وحين تغيب من مغربها»، وهذا نص كتاب «الخصال» للصدوق.

أما رواية «تحف العقول»، قال:«بين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تنظر إليها حيث تطلع من مشرقها وحين تغيب من مغربها».

ونصّ «الاحتجاج» كذلك دون الزيادة الأولى والأخيرة، أي يوم مطرد وقوله عليه السلام: «ومَن قال غير هذا فكذبه...»، ففي الحديث دلالة على تعدّد المشارق والمغارب.

سأل الرجل الشامي الإمام الحسن عليه السلام: كَم بين الحق والباطل؟

قال السبط عليه السلام: «أربع أصابع، فما رأيت بعينك فهو الحقّ، وقد تسمع بأُذنك

باطلاً كثيراً».

قال الشامي : كم بين الإيمان واليقين؟

قال السبط عليه السلام: «أربعة أصابع، الإيمان ما سمعناه واليقين ما رأيناه».

قال: كَم بين السماء والأرض.

قال عليه السلام: «دعوة المظلوم».

قال الشامي: كَم بين المشرق والمغرب.

قال عليه السلام: «مسيرة يوم للشمس».

فتعريف الإمام الحسن عليه السلام للمسافة حسب الروايات الآنفة يذكر مقياس النظر إلى الشمس حين تطلع وحين تغرب، وهذا واضح للحقيقة العلمية التي كانت خافية على كثير من أهل ذلك الزمان، حيث إنّه لا شرق للشمس محدّد، كذلك للمغرب يمكن قياس المسافة بينهما، أو الزمان المحدّد، وكذلك فالأرض ثبتت كرويتها حديثاً، وبالتالي فكلّها مشارق ومغارب كما نطقت الحقيقة القرآنية بهذا.

وقول الإمام الحسن عليه السلام: «فكذّبه» دليل على عدم صحّة أيّ جواب غير الأُسلوب الذي أجاب به الإمام الحسن للسائل، وعلوّ المنزلة العلمية لدى الأئمّة لا يدانيها أحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، مع أن بعض المنازل العلمية العلية دون مرتبة الأئمّة عليهم السلام، قد وصل إليها بعض أولاد الأئمة من غير المعصومين عليهم السلام، كما تشير الرواية بأنّ عليّاً عليه السلام أحضر أولاده الحسن والحسين ومحمّد بن الحنيفة، وهكذا بعض أولاد الأئمة كزيد بن علي وإسماعيل بن جعفر الصادق عليهم السلام، والسيّد محمد بن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام

وهكذا.

الرواية الثانية:

جاء في كتاب «الخصال» و«الاحتجاج» أنّه سئل الإمام الحسنعليه السلام: كَم بين السماء والأرض؟ فقال: «دعوة مظلوم على الظالم ومدّ البصر، ومَن قال غير ذلك فكذّبه».

فالسماء لا تعريف مادياً لها، بل عبّر بها عن الحيّز الذي تكمن فيه الأكوان لقوله تعالى: ﴿**السَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾. وأثبت العلم الحديث تلك الحقيقة حول توسّع الكون دائماً... فإذا كانت سرعة الضوء ثلاث مائة ألف الكيلومتر في الثانية، وكانت السنة الضوئية حوالي تسعة تريليونات ونصف من الكلم، فكيف يمكن تعقل مساحة الكون والسماء المعبّر بها عنه؟!

وما يمتد إليه البصر لا حدود له باعتبار أن البصر لا يدرك في نهايته حدّاً عندما لا يكون هناك حدّ، والنهاية يعلمها الله وحده.

صفات العلماء الجديرين بحمل الأمانة العلمية:

العالم من يستطيع أن يعبّر عن علمه بما يفهمه ويستسيغه المتعلّم من حيث مستوى المتعلّم العلمي أو الإدراكي، وفي هذا المقام، واقتداء بالإمام الحسنعليه السلام، أسوق القصتين اللتين حصلتا مع نصير الدين الطوسي وهولاكو.

حيث إنّ هولاكو بعد أن قتل من العلماء وأبقى على الخواجه الطوسي والقلّة من العلماء، وكم كان لهذا الشيخ من أياد بيضاء على المسلمين والمكتبة الإسلامية، حيث خلص الكثير من الكتاب من براثن الحرق والإغراق، وكان الطوسي مسجوناً في نيشابور، وقد علم هولاكو أنّه كثير العلم، فاستدعاه وسأله:

ماذا تستفيد من علمك؟ فأجابه: بأن تعلم الشيء قبل حصوله، وبما أن الشيخ كان ضالعاً بعلم الفلك سأله هولاكو: ماذا تتوقّع في القريب أن يحصل في الفلك؟ فقال له: حسب علمي وحساباتي أنّه سيحدث خسوف للقمر في الليلة الفلانية، فقال له هولاكو: إن لم تصدق ستُقتل.

وفي تلك الليلة حصل خسوف للقمر وسأل الطوسي السجّان عن أن هولاكو هل هو موجود ليشاهده بنفسه فقال : إنّه نائم، فقال: إن لم يعلم به سأصبح مقتولاً وطلب من السجّان الإيعاز لصبيان الحي بأن يدقّوا على الصفائح ليثيروا الضجّة ويستيقظ هولاكو، فأفاق من سماع الأصوات، وبعدما سأل قيل له: بأنها سبب خسوف القمر.

ثم سأله ثانية ـ أي سأل الطوسي ـ وماذا ستفيد من العلم بالشيء قبل حصوله؟ قال: نتوقّعه ولا نخشى منه، فلم يفهم عليه، فطلب منه الطوسي الصعود إلى أعلى القصر، وطلب من الحارس أن يرمي بصفيح نحاسي كبير من على القصر إلى الشارع فأحدث دويّاً هائلاً طار أهل البلدة منه رعباً، ثم توجّه الشيخ إلى هولاكو سائلاً: لماذا لم تخف مثلهم، قال له: لأنّي كنت أعلم بذلك قبل وقوعه، فقال له: كذلك أن تعلم كل شيء قبل وقوعه إذا أمكن.

عرضت هذه القصة لأقول: هذه أحوال العلماء الذين يفقهون كيف يسوقون النظرية العلمية إلى كلّ سائل بحسب معرفته وإدراكه، وهذه مسألة مهمّة نحتاجها في حقل التبليغ الديني وحقل طلب العلم، فكم تستعصي على الطلاب مسألة كان الأُستاذ عاجزاً عن بيانها، والرسول صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ من الشِّعر لحكمة، وإنّ من البيان لسحراً».

نستفيد من رواية الحسن في أجوبته واحتجاجاته سحر البيان وفصل الخطاب

وهذا حريٌّ بالعلماء أن يتزوّدوا به.

إنّ بين أيدينا، ونظر في ما عرف بقضية الإمام الحسن[1] كما عرّفها الفقهاء وهي التي سأذكرها فيما بعد، فإن ما نستفيده من هذه القضية، عدّة، منها: كون الإقرار والبيّنة مقتضيان لإقامة الحدّ إذا لم يقم منه مانع، والبيّنة في المقام ـ أي مقام إقامة الحدود والقصاص ـ أو هما جزءان من موضوع الحكم في وجوب إقامة الحدّ إذا توفّرت مقوّماته كوجود الحاكم وثبوت ولايته للمقام، وعدم عروض مقام مزاحم بحسب القول بمسألة الترتيب أو عفو ولي القصاص أو الصلح.

فالبيّنة والإقرار لا يعارضهما حكم الملك القطعي بالموضوع كثبوت القتل أو غيره، وهو أمر مشهور العمل به بين الفقهاء، فهي باب الموضوع على نحو الطريقة، وقد دلّت الروايات على ذلك.

منها: ما ورد بإسناده عن الحسين بن سعيد بن فضالة، عن داود بن فرقد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سألني داود بن علي عن رجل كان يأتي بيت رجل فنهاه أن يأتي بيته، فأبى أن يفعل فذهب إلى السلطان، فقال السلطان: إن فعل فاقتله، قال: فقتله فما ترى فيه، فقلت: أرى أن لا يقتله، إنّه إن استقام هذا ثم شاء أن يقول كل إنسان لعدو دخل بيته فقتله»[2]، وقد ورد أيضاً في رواية سعد بن عبادة: عندما أدّعى إمكان قتل مَن يدخل البيتب دون إذن صاحبه، طالبه رسول الله صلى الله عليه وآله بالبيّنة قائلاً له: «أين الشهود الأربعة الّذين قال الله عزّ وجلّ، فقال سعد: يارسول الله، بعد رأي العين وعلم الله، أنّه قد فعل: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إي والله

---

(١) جواهر الكلام، كتاب القصاص، حكم ما لو أمر واحد بقتله عمداً وأخّر بقتله خطأً.

(٢) وسائل الشيعة، الباب ٢ من أبواب مقدّمات الحدود.

يا سعد بعد رأي قتيل وعلم الله: إنّ الله قد جعل لكل شيء حدّاً، وجعل على مَن تعدّى على حدود الله حدّاً، وجعل ما دون الشهود الأربعة مستوراً على المسلمين».

أمّا في عرض قضية الإمام الحسن عليه السلام، فإنّها تفيد الالتفات بالعمل على العناوين العرفية واللغوية التي تتوافق معها، والعمل بظاهر القرآن كما سيأتي.

أهمية إقامة الحدود:

إنّ إقامة الحدود وما يتّبعها من الديّات أمر مهم لصلاح أمر الناس في شؤون دينهم ودنياهم، بل هو المعتمد في ذلك، كما نطق الكتاب، كقوله تعالى: ﴿**مِن أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَسَاد فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً**﴾[(١)].

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خبر متواتر في عدّة أسانيد: «إقامة الحدّ خير من أربعين صباحاً»[(٢)]. بل في بعض الروايات ما يستوقف النظر حول ما يظهر من مخالفتها القطعية من جهة، وموافقتها القطعية من جهة أخرى، ممّا يظهر مخالفة الاحتياط، وهي ما سأعرضها، وما ذلك إلا التشدّد في إقامة الحدود مع توفّر البيّنة أو الإقرار أو الاثنين معاً، فإذا تحقّق الموضوع تنجّز الحكم.

منها: رواية محمّد بن يعقوب عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد وعن علية بن إبراهيم جميعاً عن ابن محبوب، عن هشام بن سالم، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن رجل قتل فحمل إلى الوالي وجاء قوم فشهد عليه

---

(١) سورة المائدة: الآية(٣٢).

(٢) الكافي ٧: ١٧٤، التهذيب ١٠: ١٤١.

الشهود أنّه قتل عمداً، فدفع الوالي القاتل إلى أولياء المقتول ليُقاد به، فلم يريموا حتّى أتاهم رجل فأقرّ عند الوالي أنّه قتل صاحبه عمداً، وأن هذا الرجل الذي شهد عليه الشهود بريء من قتل صاحبه... إلى أن يقول: قلت: أرأيت إن أرادوا أن يقتلوهما جميعاً، قال: «ذاك لهم، وعليهم أن يدفعوا إلى أولياء الذي شهد عليه نصف الدية خاصة ثم يقتلونهما»، قلت: إن أرادوا أن يأخذوا الدية؟ قال، فقال: «الديّة بينهما نصفان؛ لأن أحدهما أقرّ والآخر شهد»[١].

والرواية كما ترى صحيحة، وما ذلك الأمر إلا لإجراء الأحكام وتنجيزها عند تحقّق العناوين كالبيّنة بشروطها الموضوعية الشرعية والإقرار.

عرض الرواية:

وهي قضية الإمام الحسن عليه السلام كما سمّيت مروية عن علي بن إبراهيم عن أبيه، وهي مرفوعة إلى أبي عبدالله عليه السلام، قال : «جيء برجل هو في خربة وبيده سكين متلطّخ بالدم، فإذا رجل مذبوح متشحط بدمه، فقال له أمير المؤمنين: ما تقول، قال: أنا قتلته يا أمير المؤمنين، قال عليه السلام: اذهبوا به فأقيدوه، فلمّا ذهبوا به، أقبل رجل مسرعاً، فقال: لا تعجّلوا وردّوه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فردّوه، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما هذا صاحبه، أنا قتلته، فقال أمير المؤمنين للأوّل: ما حملك على إقرارك على نفسك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، وما كنت استطيع أن أقول وقد شهدوا عليّ أمثال هؤلاء الرجال وأخذوني وبيدي سكّين ملطّخ بالدم، والرجل متشحّط بدمّه، وأنا قائم عليه فخفت الضرب فأقررت... إلى أن يقول، فقال عليه السلام: خذوا هذين فاذهبوا بهما إلى الحسن عليه السلام وقولوا: ما الحكم فيهما،

(١) وسائل الشيعة، باب (حكم لو شهد شهود على إنسان بقتل شخص فجاءه آخر وقتله).

قال: فذهبوا إلى الحسن عليه السلام وقصّوا قصّتهما، فقال الحسن عليه السلام: قولوا لأمير المؤمنين عليه السلام : إن كان هو ذبح هذا فقد أحيا هذا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا الناس جَمِيعاً﴾[1]، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ذرّية بعضها من بعض، فخلّى عنهما وأخرج دية المذبوح من بيت المال»[2] انتهى.

وبالرغم من كونها مرفوعة إلا أنّها قد اشتهر العمل بها، وبناءً على مبنى أنّ الشهرة تجبر ضعف الرواية، فإن عمل الأصحاب عليها. وعن السرّاء نسبتها إلى رواية أصحابنا، ولم نجد مخالفاً لذلك إلا ثاني الشهيدين، وأبو العبّاس فيما حُكي عنه لإرسال الخبر المنجبر بما عرفت على وجه يصلح قاطعاً للأصل، والدليل الآخر لمنع العمل بالرواية أن العمل بالرواية يقضي إسقاط حقّ المسلم لجواز تواطئ المقرّبين على قتله، وإسقاط القصاص والدية، وهو كما ترى مجرّد اعتبار لا يعارض ما سمعت من النص والفتوى المشتمل على الكرامة للحسن عليه السلام، باعتبار أنّه لو كان غيره لأخذ بقاعدة الإقرار، إلا أنّه لمّا كان مؤيّداً بروح القدس ومسدّداً بتسديداته، والغرض أن الحكم عند الله خلاف قاعدة الإقرار، للحكمة التي ذكرها أبو محمّد عليه السلام، قضي فيها بما سمعت، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام إظهار أمر الحسن عليه السلام وأنّه من معادن أسرار الله[3]... انتهى.

فالمعنى أوسع من بعث الحياة، بل يشمله إلى الإبقاء على الحياة، وهذا بيت القصيد، والموضوعات إذا تحقّقت تنجّزت أحكامها، وفي الشبهات المفهومية يؤخذ بمفهوم الشارع أوّلاً، وإلا فالعرف هو مرجع في المفاهيم لا في تطبيق

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣٢).

(٢) وسائل الشيعة بعدّة مصادر، باب (حكم ما لو أقرّ إنسان بقتل آخر ثم أقرّ آخر بذلك وبرأ الأوّل).

(٣) جواهر الكلام، كتاب القصاص، (حكم ما لو أقرّ واحد بقتله عمداً وآخر بقتله خطأً).

المصاديق.

أما **النقطة الثانية**: فإن الاستدلال بالرواية يظهر شكلاً من الاستثناء بحكم الإقرار تخصيصاً أو حكومة ووروداً.

والظاهر هو أن الاستثناء لحكم الإقرار جاز بمقتضى التخصيص؛ لأن عموم مفهوم الإقرار ثابت؛ لأن المقر على رغم مانعية جريان إقراره بالإحياء بقي مقرّاً ولم يتغيّر مفهومه بصدق الإحياء، وهذا حال بقاء مفهوم العام على عمومه، ثم عروض التخصّص عليه.

وهذا ما ينفي أن يكون الاستثناء لحكم الإقرار من باب الحكومة التي تقتضي التصرّف بالمفهوم توسعة أو تضييقاً، بينما المقام هنا بقي المقرّ على صدق مفهومه عند العرف واللغة، إلا أنّه مقتض لا تمامية لعلّة تنجيز الحكم، فالمفهوم إذاً لم يضيّق، بل بقي على حاله؛ لأن المقام هو تخصيص العام وليس من باب الحكومة، فالمقر يتغيّر مفهومه سعة أو تضييقاً، بل يبقى على مفهومه وإنّ الحكومة هي التوسعة أو التضييق لدائرة المفهوم.. عليه إذا بقي المفهوم على حاله وتمّ استثناء بعض أفراده فهو من باب تخصيص العام، فيكون مفاده دليل الإحياء هو أن كلّ مقرّ يعمل بإقراره إلا في مورد الإحياء،وهكذا الحال في بعض الموارد الأخرى في رفع إقامة الحدّ من باب الولاية على المؤمنين.

أما الورود، وحيث إن ملاكه التخصّص التعبّدي، فخروجه بعض موضوعات الإقرار لم يتم بتلك الواسطة التي هي أساس الورود أي التخصّص التعبّدي؛ لأن مورد المسألة في الرواية هو صدق المفهوم من أوّل الأمر، وفي الورود لابد من تأخّر المورد عليه مرتبة عن الوارد، وفي الرواية ما يشعر بذلك لقول الحسن عليه السلام: «إن كان هذا ذبح هذا فقد أحيى هذا»، وهو واضح في تخصيص أحكام الإقرار

بسبب الشرط، والشرط يقتضي بقاء المشروط على اقتضائه، بينما في الورود الاقتضاء منتفٍ بالكلّية ولا بقاء للمورد وعليه...

ما يستفاد من الرواية أيضاً:

وممّا يستفاد من الرواية هو حجّية العمل بظواهر الكتاب، فإنّ هذه الكبرى التي عليها خلاف بين الإخباريين والأصوليين واضحة وضوح الشمس في حجيّة ظواهر الكتاب، حيث إنّ الإمام الحسن عليه السلام استدلّ بالقرآن ظهوراً لغة وعرفاً ولم يُنشِئ تفسيراً آخر له لينسب العمل بمعنى الإحياء إلى قول المعصومين عليهم السلام، لا الحجّية في قولهم كما يقول الإخباريون ولا حجّية ظاهر القرآن.

وأيضاً حتمية مقام الوحي على الرسالة، فالرواية تفيد أنه لولا حكم المعصوم عليه السلام إلفات النظر إلى سعة معنى الإحياء لما جرى رفع الحدّ لو كانت القضية قد رُفعت إلى غير أهل العصمة، وهذا من أدلّة وشواهد القول بمقام الأئمّة وحتمية الرجوع إليهم في بعض الموضوعات، كما في هذه الرواية وغيرها؛ فهم الثقل الذي يعادل ثقل الكتاب، وعليهم المعوّل في النجاة.

مصادر البحث:

*القرآن الكريم

١ ـ التهذيب، الشيخ الطوسي، قم.

٢ ـ جواهر الكلام، المحقق النجفي، بيروت.

٣ ـ الكافي، الشيخ الكليني، قم.

٤ ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، قم.

درء الشبهة فيما نسب إلى الإمام الحسن عليه السلام من تهمة

جويدة غانم (*)

(التاريخ أخطر محصول أنتجته كيمياء العقل)

p.Valery

مقدّمة:

لم يعد الحديث عن الكتابة التاريخية في هذه اللحظات الحاسمة التي تعيشها الأمة الإسلامية في ظل التحديات التي تطرحها المنظومات التأويلية لنظم الخطاب التاريخي العربي الإسلامي أمراً محتوماً في أن يؤخذ بمأخذ جدي لإعادة الدرس، وإمعان النظر في بناء تلك السرديات التي لا نعرف بالتدقيق الكيفية التي تم إدراجها في وصف العديد من المواقع و الشخصيات الكبرى التي رفعها هذا التاريخ أو هذا السرد، مرة في موقع الإيجاب، ومرة في موقع السلب والإبهام والإيهام، ومقاربة المفارقات بين بعضها البعض،حتى يتم استدراك كنه اللحظات التاريخية الحاسمة خاصة إذا ما تعلق الأمر بذلك التاريخ المقدس الذي عد عنواناً بارزاً في تاريخ حضارات العالم،كونه يتعالى في لحظاته التحيزية، في كنهه، ومقداره و شكله، وأهدافه، وغاياته،عن باقي

(*) كاتبة وباحثة إسلامية ـ الجزائر.

التواريخ،و إن كان يشترك معها في المسار العام لدورة التاريخ العالمي.

وبالنظر إلى هذه الوصفة التمهيدية، يلوح في أفق المسار العام لهذا التاريخ العام التاريخ الإسلامي الذي دوّنت محطاته وأحداثه من خلال أبرز المؤرخين الّذين جمعوا مادة علمية لا بأس بها من حيث الحجم و الكثافة، و تراوحت الكتابات في بعض الأحيان إلى ولوجها في الموضوعية، و من ناحية أخرى إلى التحيز الآيدلوجي الذي خرج حتماً عن سياق المعقولية الاسمية الجامعة بين جماعات المسلمين، خاصة فيما يتعلق الحديث عن تلك الشبهات التي لحقت بآل بيت النبوة كالإمام الحسن الذي لم ترحمه الكتابات العربية و الأجنبية، والتي لم تخرجه عن ذلك الإطار الشهواني الذي هو الخارج عن نطاق الإنسانية والمعقولة، و عن نطاق الحقيقة التاريخية نفسها، و مفهوم الكتابة و حالات التدوين الذي كان من المفروض أن يدقق و يقارب، ويفارق بين مختلف الأخبار و الروايات، وهذا ما لم يكن في الكثير من الكتابات و لم ينهجه المؤرخون، مما سهّل دخول الشُبهة في توصيف المشهد الحسني كنقطة من بحر واسع من الشُبهة التي طالت الكثير من الشخصيات الإسلامية البارزة، ومست التاريخ الإسلامي نفسه.

من هذا التعليل تنعقد صلة الوصل مع الإشكالية التالية:

كيف تضاربت الشبه التاريخية على الإمام الحسن؟ وما المقاربات الدلالية للرد عنها في ظل ما يواجهه هذا التراث الإسلامي من تحديات المعاصرة اتجاه الإسلام و جميع أهله؟

المبحث الأوّل: أزمة التاريخ و إعادة صناعة المعنى

قد سجّل التاريخ الكثير من المتناقضات أثناء تدوينه لأهم أحداث التي

جرت في عهد النبوة وما بعدها، و تداخلات المقدمات بالنتائج، و تفارقت السوابق باللواحق، و تضادت الحقائق بالمعلولات المشتبهة والمفبركة،حيث أعلن التاريخ لا موضوعيته في الكثير من المحطات الحاسمة التي لا يرحم فيها العقل مجرى لكتابة و التوصيف،حين يحال الأمر على النقد و التفكيك، والمقاربة و المقارنة و التأويل،ليقع وصف العظماء في محنة تاريخ لا تاريخي،مدسوس ومغشوش،لا ينفصل عن لغة الاتهام و الإبكام، ولا عن إجماع نزيه متفرد في الوحدة الموضوعية و الذاتية، خاصة لشخصيات آل البيت وعظماء و أقطاب السيرة النبوية.

ليس الحديث عن هذا التوصيف يقع بمعزل عن صورة التاريخ الذي وقع حتماً في تشكيل قاعدة للتحريف و التزوير،حيث يشهد على كل هذا الأمر تلك المتناقضات الوصفية أو التوصفية التي طالت أحد أبناء بيت النبوة وهو الإمام الحسن، وإن كان التاريخ لا يسامح شرعنة هذه التوصيفات، فإن هناك تاريخاً أخر يسمح بها،ويؤسس لها، ويثبت القاعدة الموضوعية واللاموضوعية في الآن نفسه،حتى تقع الصورة المتناقضة في النص المكتوب الذي أُدلج في سمته اللغوية على مطلقية الحقيقة التاريخية الأصيلة.

فمن ثمْ فإن الحديث عن الحقيقة التاريخية يستلزم عنها الحديث عن البنية التاريخية التي صنعت و شكلت مرآة الحوادث والمسارات، في تلك الكتابات التي اتخذت من الشُبهة فلسفة خاصة،في تكوين المواقف، و صناعة الملاحم الفتنية،و الأبواق النقدية الفاشلة و الوهمية،فما يهم إذن قبل الذهاب إلى دراسة الحالة هو النظر في محتوى المنهج التاريخي، الذي يعني:

ـ أن يكون منهج عادل يتعامل مع معطيات الكتابات و التوصيفات بروح علمية مخلصة،صريحة وواضحة وشفافة،حيث يتم تقبل ما يمكن تقبله ورفض

ما يمكن رفضه، و لا يحتمل قبوله، وبالتالي الذهاب إلى موقف وسط،يرفض الاستسلام بكل سهولة إلى الرواية القديمة،وعدم إلغائها،كونها تحمل حقيقة لا يمكن تجاهلها، إذا ما تم إعادة النظر في بنيات الرواية و نيات تكوينها وظروف تشكيلها.

ـ النظر النقدي، في لب الروايات الأساسية لدى المؤرخ القديم، و السعي إلى تصنيف الروايات حسب ضعفها و قوتها، وتشابهها وتقدير اختلافها .

ـ تبيان التناقض المتواجد في الروايات، وتبيين علة هذا التوصيف، الذي قررته نصوصها، من حيث مواقف المؤرخين القدامى والمحدثين وفلاسفة التاريخ الّذين تعاملوا مع تاريخنا الخاص، و درسوا جوانبه بكل أبعاده،فيما يخص تفهم المعطيات التي نسجت الوصفة التوصيفية للحالة المعروضة للدرس، أو بعدها عن الحقيقة التاريخية، أو تبيان تناقضها في الكثير من الموضوعات المنسوجة.

ـ النظر في الروايات بحس نقدي فائق،يجاوز الوقوع في حلبة الفتن والتمزق والصراع المذهبي الذي أوقع الأمة في معركة خاصة،تغلبت عنها ظروف الفتن والأهواء،و التطاحن، و العداء المشحون بين أفراد المجتمع الواحد، و الذي سببه يعود إلى موقع هذه الروايات التي شوهت الحقيقة، وغيرت المسارات، وأعادت توجيه الإسلام إلى مساحات مجهولة من المعقولية المتطرفة، خرج عن مفهوم الواقعة التاريخية الأصلية والأصيلة ذاتها[١].

وبالنظر إلى مرجعية التاريخ الذي تم كتابته، ووفقاً لنزوات غير مفهومة ولا

(١) مدخل إلى التاريخ الإسلامي: ٢٩، عماد الدين خليل، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي،بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط١ ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م.

معقولة، فإن مثل هذه المشكلة التاريخية، هي مشكلة الإنسان في التيه المعتم والأعمى والضال عن كل أبعاد الوعي المشروط بعنوان وجوده واسمه و دينه ومعارفه الذاتية، حيث يتضح من كل هذا أن ما دوِّن في نمط هذه الكتابات شَكَّل كذبة شرب بها،ومنها، الناس، و لا يزال يشربون، وعنه شربوا كل دماء إخوتهم باسم ذلك العقل، و ذلك الإجماع الذي أجاد في أغلب اللحظات التاريخية و المصيرية فلسفة توحيل التراب[(١)].

إلى جانب هذا الأمر الواقع في البحث عن الحقيقة ومقتضى الكشف عنها،فإن تشكيل الإنتاج المعرفي وبناء الحوادث قد بُني على العناصر الآتية:

ـ تضخيم التصور أو التمثل الحاصل في وصف الشخص وتقدير الحالة.

ـ تطويع السرد وجلب اللا معقولية في وصف أركانه و محطاته.

ـ تبيان التناقض بين الإيجاب و السلب في الوصف الواحد و النص الواحد.

ـ وضع نصي وصفي، في وسط نص محفوف بالشُبه اللّذية، و الإثارة الجنسية تارة والتملقية تارة أخرى.

ـ إذا كان الحديث عن لا موضوعية المستشرقين في توصيفهم للتراث الإسلامي الذي لم يخرج عن دائرة التوصيف التنميطي، لأشخاصه، و مفاهيمه، وأحداثه، فإن المؤرخين العرب قد سبقوا المستشرقين في ذلك، وفتحوا لهم المجال في استعراض شبهاتهم، وتهمهم على قادة الإسلام و تاريخه و عظمائه.

ـ إعادة النظر في مفهوم الرواية التاريخية ذاتها وتنقيحها في لقاء جامع بين

---

(١)جمهورية النبي (عودة وجودية): ٢٨، عبد الرزاق الجبران.

جميع مذاهب المسلمين حتى لا يقال عنا: «إننا نملك أسوأ أنواع التاريخ»(١).

ومن هذا المنطلق، يمكن التطرق إلى الحديث عن تلك الشُبهة، التي طالت الإمام الحسن في نصوص الكتابات التاريخية، والتي لم تتخذ بُداً للنقد الوقائع، التي ترافقت مع سلسلة من التهم،التي جسّرتها عمداً خلفيات تاريخية، لا استجواب لها.

المبحث الثاني: في حقيقة الشبهة ومدار التهمة

إن الوعي الإنساني دائماً بحاجة إلى تلك الخصائص و الميزات التي تنفرد بها شخصية عظمى في التاريخ الإسلامي، و لطالما كان الحديث عن آل البيت عليهم السلام في مصاف الحديث الأخلاقي و الرمزي للاقتداء بمعالمهم، وأعمالهم، وأحلامهم، و آمالهم، ذلك أن حال الاقتداء بهم، تعلله تلك المشروطية الضخمة والواسعة، التي تميز بها الدين الإسلامي، من خلال الوجهة الموضوعية لمساحات العبادة والخلافة و التكريم والعمارة و الأخلاق والمواقف. وقد عبرت اللحظة الحسنية عن ذلك المفهوم الأسمى الذي تجلى في الصلح والعفو عند المقدرة، والغنى و السكينة عند الفاقة و الحاجة،والعطاء والسخاء في لحظة إبداء الاحترام للرعية وتلبية حاجاتهم، وهو في هذا الأمر على حد قول الإمام علي عليه السلام: لا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم،فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»(٢).

أمام هذه الحالات الإيجابية للشخص المشهود له بهذه الصفات، يكون درء

---

(١) جمهورية النبي (عودة وجودية): ٣٦، عبد الرزاق الجبران.

(٢) الحكومة الإسلامية،محاضرات فقهية: ١٠، روح الله الخميني، ١ ذو الحجة،١٣٨٩هـ.

الشبهات عنه ليس بالأمر الصعب، وإنما الدفع عنه و إبعاد التهم، تسهل إبعادها،من حيث نسبه الشريف وجده النبي العظيم،وأبيه الحكيم الفهيم،و أمه ريحانة العالمين، و أخوه شهيد مآسي صفين،تتحطم الشبهة و تدرأ التهمة، لكن الشيء القلق و الدائم في التساؤل،لماذا وضعت هذه التهم و الشبه؟ ومن واضعها؟ وكيف اختلفت و تموضعت وتأصلت في صناعة موقف تاريخي، لا يخرج إطاره عن صناعة مشهد دائم في الشقاق و النفاق؟ لماذا لم يتساءل المؤرّخون القدامى عن أحقيتها و نسبتها؟ ولماذا سكت النقد التاريخي عن ذلك؟

شبهة مزواجه ومطلاقه:

فقد أجمعت أغلب الكتب التاريخية على أنه تزوج مائة و خمسين امرأة، وقد قيل: ثلاث مائة! حيث إن أباهعليه السلام كان ينصح الناس عنه و يقول لهم في خطبته: «إن الحسن مطلاق فلا تنكحوه» على حسب ما استند عليه المجلسي من رواية أبي طالب المكّي في كتابه«قوت القلوب»(١).

كما روي عن محمد بن سيرين: أن الإمام الحسن خطب ابنة منظور بن ريان، فأجاب هذا الأخير بالقبول،و لكنه قال للحسن: والله، إنّي أعلم إنّك غلق، طلق، ملق، غير أنّك أكرم القرب بيتاً وأكرمهم نفساً(٢).

ويواصل المجلسي حديثه عن وصفات تزويج الحسن، و يضيف نصاً بصيغة

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٥٦٤، محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي،مؤسسة تحقيق التراث العربي، بيروت لبنان، ط١ ١٤١٢ هـ /١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق ٤٤: ٥٤١.

همذانية، يؤكد فيه الإمام علي عليه السلام للناس ومن فوق المنبر ومن خطبة لجميع الناس، إعلاناً وتشهيراً بابنه على ألا يزوجوه و لا يناسبوه،ولا يقربوه! وبالتالي فإن الإمام علي قد تخلى عن ابنه وتبرأ منه و أصبحت مصلحة الناس أولى من مصلحة ابنه!

وهل يعقل أن يصعد علي عليه السلام فوق المنبر ويشهّر بابنه الذي هو تشهير بسمعته و سمعة آل البيت جميعاً؟ فأي منطق وأي عقل يتقبل هذا التشويش اللاعقلاني؟ وهل الإمام علي ـ وحاشاه عن ذلك ـ سخيف العقل لهذه الدرجة؟

ويقدم النص التاريخي صورة الرجل الهمذاني الذي أصبح أهم من الإمام علي في محافظته على سمعة الإمام الحسن،لترفع كلمته أمام الناس وكأنه تكذيب لعلي وتحدي له، حينما يقول: «بلى والله، لأزوجنّه وهو ابن رسول الله وابن أمير المؤمنين وإن شاء أمسك،و إن شاء طلق»(١).

عجيب حقاً هذا التصوير، علي يطعن في ابنه؟ورجل آخر يوفي بحق الحسن أمام الناس،دون أبيه علي عليه السلام؟!

فأي مفارقة، و أي معانقة لكلا النصين؟!

كما وصف على أنه مطلاق للنساء، وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه، كما أنه كان يتزوج لمدة أربعة أيام، لسبعة أيام، ثم يطلق(٢).

ورغم هذه الصور المشوهة و المشبوهة،فإن نساء بني هاشم قد حزن عليه سنة كاملة لفقدانه، فلو كان بمثل ما هو كائن في النصوص التاريخية لسبته

---

(١) بحار الأنوار ٤: ٥٤١.

(٢) ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ١٥٥،تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة و النشر، ط ١،بيروت،لبنان، ط ١ ١٤٠٠ هـ. ق/ ١٩٨٠م.

النسوة،و أعلنت بهجتها و فرحتها في ذهابه اللانهائي للرفيق الأعلى[١].

لذا فإن النص التاريخي ينقض ذاته بذاته، ويبرأ الشخص ذاته من التهمة التي نسبت إليه.

كما جاء هذا الوصف أيضاً في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، حيث يقول:

أخرج ابن سعد عن جعفر بن محمد عن أبيه: «كان الحسن يتزوج و يطلق، حتى خشيت أن يورثنا عدواة في القبائل»[٢].

ولو كان بمثل ما اتهم به، فلماذا لم يجلب عداوة القبائل كلها؟

كما ذُكر القول نفسه، في ترجمة للإمام، في«البداية والنهاية» لابن كثير، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير،ما يطرح علامات استفهامية ابستيمولوجية؛ لعدم نقد هذه النصوص من طرف هؤلاء المؤرخين.

أما محمد رضا فقد أقر بأنّ زواج الحسن المتعدد و المتكرر،أرجعه إلى سير عادة العرب أنفسهم، بحكم أنه لا رهبانية في الدين، و يعلل الأمر بضرب تلك الشهوة المندفعة عند الرجال، وهذا أمر من الطبيعة السارية في بني آدم[٣].

ومن ثم تكتسي الكتابة التاريخية، في وصف الإمام الحسن، مخرجاً لا نهائياً يطرحه النص التاريخي، نفسه في سؤال متجدد، ماذا بعد تهمة المزواج والمطلاق؟!

---

(١) المصدر السابق: ٢٨٨.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٨،دار مروان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ. ق/ ١٩٦٩م.

(٣) الحسن و الحسين لمحمّدرضا: ٢٢، تحقيق خليل مأمون شيحا،دار الكتاب العربي،بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٤ هـ. ق/٢٠٠٣م.

شبهة شحه و بخله:

إن الافتراء على الإمام الحسن بالبخل لهو أمر يتنافى مع أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله، حينما كان يتقاسم طعامه مع الفقراء، و يؤثر على نفسه و لو كان بحاجة ماسة إلى تلك الحاجة.

وبالنظر إلى تاريخ العرب فإنهم عرفوا بالكرم وكثرة الإقبال عنه و درء الشح و البخل و الصد عنه، وإذا كان الحسن ميراث أبيه و جده، فهل هما على نحو هذا البخل و الشح؟ أو أن الملازمة المنطقية للسؤال لا تفيد من أمر المقاربة شيئاً؟ وبالتالي يتنافى في فعله و قوله و مسلكه ما جاء في القرآن ،من حيث دلالات المعنوية التي أوردتها الآيات التالية:

ـ ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الّذين يَبْخَلُونَ بمَا آتَاهُمُ اللّهُ﴾[(١)].

ـ ﴿الَّذينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَولَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ﴾[(٢)].

ـ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذلكَ قَوَاماً﴾[(٣)]..

وقد روى ابن عساكر: أن الحسن كان لا يدعو لطعامه، ويقول: هو أهون من أن يدعى إليه[(٤)].

وذلك احتراماً وتوقيراً للناس، واحتراماً فائقاً في الدلالة، لمفهوم الدعوة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

(٢) سورة الحديد: الآية (٢٤).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٦٧).

(٤)ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ١٥٦.

والضيافة.

وقد جاء في تاريخ ابن الأثير: أنه سئل ذات مرة فما الشح؟ قال: «أن ترى ما في يدك صرفاً وما أنفقته تلفاً»(١).

كما أشار السيوطي إلى: أن الإمام الحسن كان سيداً حليماً، ذا وقار وحشمة، جواداً ممدوحاً(٢).

وقد أبرز هذه الصورة الإيجابية التي تميز بها الحسن ما جاء في كتاب «صلح الحسن» مايلي:

«...خرج الحسن و الحسن و عبد الله بن جعفر حجاجاً، ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا و عطشوا فرأوا عجوزاً فاستسقوها،فقالت: هذه الشويهة احلبوها وامتذقوا لبنها،ففعلوا،واستطعموها،فقالت: ليس إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم، فذبحها أحدهم،وكشطها،ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا،فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه،فإذا عدنا،فألمي بنا،فإنا صانعون بك خيراً، ثم رحلوا، فلما جاء زوجها، أخبرته فقال: ويحك! تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم،ثم تقولين:نفر من قريش؟! ثم مضت بها الحال،فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن فعرفها،فقال لها: أتعرفينني؟ قالت:لا،قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا،فأمر لها بألف شاة وألف دينار، وبعث بها إلى الحسين فأعطاها مثل ذلك،ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك»(٣).

و إذا اعتبرنا أن هذه التوصيفات ذاتها عقلاً، فإن العقل يفسد الحقيقة أكثر

---

(١) البداية النهاية لابن كثير: ٤٤، مؤسسة التاريخ العربي، مؤسسة التراث العربي، بيروت، لبنان،١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٧٧.

(٣) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين: ١٥ ـ ١٦، مطبعة الزهراء، بغداد، ط ١٣٧٢هـ. ق /١٩٥٣م.

مما يفسدها كاهن المعبد؛ لأنه نتاج بشري،وما هو بشري متهم في أوساخه، ولما يسمى أيضا بالعقل البشري، هو في الحقيقة ركام من تاريخ بشري مرتبط بعقد البشرية و نفاقها ومصالحها و ظروفها وجبنها وجهلها، وهكذا فإن العقل لا يمكن أن يكون نقياً، خاصة إذا ما اختلط وامتزج بمكونات الوهم و آليات نسج الفساد(١).

وإذا كانت هذه الصور لم ينسجها التاريخ في إطار واحد،بانتقائية أصيلة لتلك الدواخل الخارجة عن نطاق الإمام الحسن، فإن مهمة العقلانية الصرفة تقف بنقدها الصارم أمام التموضعات النموذجية للفهم البشري الحاصل في توصيف الأشخاص و الأحداث و الوقائع.

شبهة طرد الحسن عليه السلام لأبي بكر من المنبر:

ذكر الشيخ راضي آل ياسين: أن من ملامح سلطانه وهو صبي، حينما جاء إلى أبي بكر وهو على منبر جده رسول الله،فقال له: «انزل عن مجلس أبي»(٢).

وفي موقع آخر ذكر هذا الوصف: بينما كان المسجد مكتضاً بالأصحاب والناس محيرة الألباب، في أوائل خلافة أبي بكر، وإذا بالإمام الحسن ينبري ليبين الحق و يعيده إلى نصابه أو يمهد له، فعندما نظر إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله قام بين الجموع صارخاً:«إنزل عن منبر أبي»، وفي رواية أخرى: «انزل عن مجلس أبي».

ولكنْ أبو بكر تدارك وقال:«صدقت، إنّه مجلس أبيك»، ثم أجلسه في

(١) جمهورية النبي(عودة وجودية) لعبد الرزاق الجبران: ٣٥.
(٢) صلح الحسن عليه السلام لآل ياسين:١٦٢ .

حجره و بكى.

فقال علي:«والله، ما كان هذا عن أمري»، قال أبو بكر: «صدقتك، والله ما اتهمتك»[(١)].

وهذا النص يُحمّل الحسن شبهة كبيرة،ليست من سنه،و لا من جنسه،فيما يخص هذا الموقف الذي أوضح في بنيته الدلالية و التحتية تبرئة الحسن منه،وتبيان نية أبي بكر لمّا قال لعلي: «صدقتك والله ما اتهمتك»، التي طرحت المنطق الديني و التاريخي الأصلي لهذه الصورة.

استغلت تلك الصورة الطفلية التي تم شرحها في بعض الكتابات، على أن الحسن وهو صغير جداً قد أدرك النية السيئة لأبي بكر في أخذه الخلافة من جده رسوله،و أنه لا مقام له على المنبر،و حاولت أن تضع هذا النص في صورة تأويلية فضفاضة قسمت الإسلام إلى قسمين، ووضعته في موقف مشحون بالعداء تارة، و بالفطنة تارة أخرى، رغم أن النص لم يتجاوز قدره في ذلك، و الحادثة نفسها لم يكن لها هذا التحجيم؛ لأن من شروط المعقولية في الإسلام هو البلوغ، والإمام الحسن لم يصل إلى هذه المرحلة، فكيف له أن يدرك بدقة التي تأول بها بعض المؤرخين الأدلوجيين النص ذاته؟ وكيف قبلوا بصورة تحميل شك الحسن اتجاه أبي بكر،كون الشك و الظن صفة سلبية، نهى الإسلام عنها، وبالتالي فإن هذا الشك ذاته ينقض مفهوم عصمة الحسن ذاتها؛ لأن المعصوم من المفروض أن يكون منزهاً عن هذه الشبه؟

(١) الإمام الحسن في محنة التاريخ، عايدة عبد المنعم طالب : ١٣٩،دار الرسول الأكرم،دارالمحجة البيضاء، بيروت، لبنان، ط١ ١٤٣٣ هـ.ق/٢٠٠٢.

كما تشير أمثال هذه الكتابات أن الموقف نفسه حدث مع عمر بـن الخطـاب و الحسين،ومن ثم فإن أبا بكر لم يسارع لاتهام علي في قضية كهذه كونـه لـيس من صالحه ذلك، أما بالنسبة إلى عمر فقد رأوا فيه أنه أراد الحفاظ علـى حكمـه، فسارع إلى معرفة الإرهاصات ومصدرها،كي يتحصن و يبقى في حكمه[١] .

ولو كان هذا الموقف قـد تـم اسـتيعابه سـلباً بالنـسبة إلـى الحـسن والحـسين، فلماذا يسميان فيما بعد أولادهما بـأبي بكـر و عمـر و عثمـان؟ ولمـاذا لـم ينقلـب الناس ساعتها على حكمهما؟

شبهة تشاجر الحسن و الحسينعليهما السلام وتدخل أبي هريرة:

وبالنظر إلى حديث أبي هريرة الذي حول روايته لـشجار الحـسن و الحـسين فإن الصورة الأساسية للموضوع تمّ تـضخيمها تـضخيماً لا معنـى لـه،وفي الوقـت نفسه ينقض ذاته،وقد جاء في حديث أبي هريرة ما يقول فيه:

«فبلغني انه بين الحسن و الحـسين هجـران و تـشاجر، فقلـت للحـسن: النـاس يقتدون بكما فلا تتهاجران،واقصد أخاك الحسن، وادخل عليه بكلمة فإنـه أصـغر منك سناً»[٢] .

ليؤول هذا المعنى إلى مساحة مفترقة في منهجية عقيمة،وتجعل مـن الحـسن و الحسين لا ينكبان إلى طاعة الكبير ولو كان الأمـر يتعلـق بمقـدار إدراك حجـم مصلحتهما أمام الناس، كما لم يكن أبو هريـرة علـى حـسب تفكيـك الـنص، أي خلفية سلبية أخرى اتجاه أحفاد الرسول لله سوى توقيرهمـا،و كـان مـدركاً جيّـداً

---

(١) الإمام الحسن في محنة التاريخ، عايدة عبد المنعم طالب: ١١٤.

(٢) المصدر السابق: ١١٨.

لمكانتهما وسط القبائل و العشائر و الأقوام.

ولو أن أبا هريرة يكن لهما العداوة والبغضاء،لماذا بكى على الحسن على باب مسجد رسول الله وهو ينادي بأعلى صوته:

«يا أيها الناس، مات اليوم حب رسول الله، فأبكوا»[١].

وقد ذكر ابن كثير في«البداية والنهاية» نفس النص،ليتبين بكل موضوعية مدى العلاقة التي كانت تربط الحسن والحسين بمن هم أكبرهم سناً.

ومن ثم فإن هذا التأويل السلبي قد يزيد الشبه تثبيتاً، والتهم تموضعاً وترسيخاً، حيث لا يحتاج الإسلام لمثل هذه المواقف التي تفكك رابطة وحدة الإسلام، إذا كانت بالفعل قراءة الأحداث تكون بعين جامعة لكل الجوانب والظروف، التي تدرأ بكل قوة و حزم ما يسيء للإسلام و عظمائه، كما تعتبر المواقف السلبية ورقة مربحة لدى المستشرقين الّذين تمادوا في تنميط الحقائق التاريخية، كوننا لم نقدم نقداً موضوعياً وابستيمولوجياً لمثل هذه النصوص المشبوهة و المشكوك في أمرها، بالإضافة إلى درأ تلك القراءات الفاسدة التي تؤول المعنى على حسب ما تألمه ذاتها الاستئصالية.

وقد صدق عبد الرزاق الجبران لما قال: «إن المعرفة والتاريخ الإسلاميين يصلان حد القرف أحياناً، لذا لا يحق معهما توصيفاً، أنهما مجموعة من ركام المقولات يمكن حل زورها، بطرحها جانباً، لا يصح و لا يمكن ولا يجدي ذلك في تجديد الدين و إصلاحه؛ لأنها منصهرة وجودياً فينا(...) إذن لا يحق مفهوماً لتوصيف نبذ تلك المقولات في قرفها إلى مفهوم التقيؤ والاستفراغ»[٢].

---

(١) ترجمة الإمام الحسن من تاريخ دمشق لابن عساكر: ٢٢٨.

(٢) جمهورية النبي (عودة وجودية) لعبد الرزاق الجبران: ٩٨.

وإذا كانت الشبه،التي وردت في هذا التحليل، لا تخرج بمنطق المفارقة، الذي يجعل من الشخصيات الكبرى في الإسلام، موقوفة أمام باب الشك والتزوير و التحريف و الافتراء، فإنه بالضرورة يؤدي إلى فشل و ضياع جهود علماء الأمة في دفاعها عن الإسلام وشخصياته،خاصة في ظل التحديات التي تطرحها القضايا المعاصرة وقراءتها التفكيكية الهدمية للتراث الإسلامي و الوحي القرآني و الإرث النبوي.

هذا ما يستدعي إعادة قراءة التاريخ بجميع علومه المعاصرة،ومن حيث حالاته وظروفه القديمة،التي نشئت فيها الأحداث و الوقائع،يجعل من الحس التاريخي يتموقع في إدراك جديد و لغة جديدة،تتعالى عن منطق التجزئ الدوغمائي والتفتيت الاستيلابي للتاريخ الإسلامي، الذي هو وعي الجماعة البشرية الإسلامية نفسها، التي هي في أصلها متعالية عن قيم الشك و الشبهات والتهم التي طالت و لا تزال تطال هذا التراث من جميع وجوهه و علاماته.يكفي أن ندرأ عنه هذه الشبهات بمنطق متعالى عن المذهبية التي ستمزق الإسلام فيما بعد إلى ما لا نهاية.

خاتمة:

ـ إعادة النظر بكل موضوعية ومنتهى الصرامة العلمية في النصوص التاريخية التي شوهت الكثير من المواقف التاريخية،وزورت حقيقة الشخصيات العظيمة في الإسلام.

ـ وضع قاعدة تأويلية تأولية بمفهوم اللحظة التاريخية، ومناقشة مفهوم الحوار التزامني لمسألة الجدل المنبث من النصوص نفسها.

ـ إعادة الاعتبار للتاريخ وللمعرفة التاريخية، التي لا تنفصل بدورها عن المنهجية الكتابية التي فرضتها حالات التدوين المنبثقة من نظام سياسي معين، وتحليل علاقة القربى بين هذه الشخصيات و السلطة السياسية آنذاك، ثم أخذ في الاعتبار حالات الدس التي كان الهدف منها تقسيم صفوف المسلمين.

ـ البحث عن استراتيجية واضحة المعالم،متناسقة المناهج، لتأسيس فلسفة في درء الشبهات عن التراث الإسلامي الحقيقي.

ـ البحث في آليات الدس و منشأها،حتى يتم التمكن من تحديد العلة من وراء الوضع، وبالتالي ضرورة الاستعانة بالجرح و التعديل و إعادة الاعتبار لهذا المنهج، لأنه أصل قيام المنهج التاريخي النقدي.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

١- ابن عساكر: ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق، تحقيق، محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة و النشر، بيروت،لبنان، ط ١ ١٤٠٠ هـ. ق /١٩٨٠م.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، مؤسسة التاريخ العربي، مؤسسة التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ. ق /١٩٩٣م.

٣- عماد الدين خليل: مدخل إلى تاريخ الإسلامي، الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط١ ١٤٢٦ هـ. ق/٢٠٠٥م.

٤- عايدة عبد المنعم طالب: الإمام الحسن في محنة التاريخ،دار الرسول الأكرم دار المحجة البيضاء،بيروت، لبنان، ط ١ ١٤٣٣ هـ. ق. /٢٠٠٢م.

٥- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي،مؤسسة تحقيق التراث العربي، ط١ ١٤١٤ هـ. ق. /١٩٩٢م.

٦- محمد رضا: الحسن و الحسين، دار الكتاب العربي،تحقيق،خليل مأمون شيحا، بيروت، لبنان، ط ١٤٢٤ هـ. ق/٢٠٠٣م.

٧- السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار مروان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ. ق /١٩٦٩م.

٨- راضي آل ياسين: صلح الحسن، مطبعة الزهراء، بغداد١٣٧٣هـ. ق/١٩٥٣م.

٩- عبد الرزاق الجبران: جمهورية النبي(عودة وجودية)

١٠- الإمام الخميني: الحكومة الإسلامية، سلسلة محاضرات فقهية .

مبادئ المعرفة الوجودية

لسيرة وفكر الإمام الحسن عليه السلام

طاهر كولي بالي(*)

مقدّمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان وزوده بعنصري العقل والإرادة، فبالأول يبصر ويكشف الحقّ ويميزه عن الباطل، وبالثاني يختار ما يراه صالحاً ومناسباً له وكذلك محققاً لأغراضه وأهدافه.

والصلاة والسلام على منقذ الإنسانية من الأزمة والجهل والظلام والفتنة الدائمة التي يعيشها بنو آدم في آخر الزمان، سيّد الرسل والأصفياء وخاتم الأنبياء، أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطاهرين.

وبعد فهذا بحث، حول المحور الأول: الأمور العامة ـ مبادئ المعرفة الوجودية لسيرة وفكر الإمام الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وآله.

لما كانت النزعة الإنسانية تواكبها بالضرورة نظرة العرفانية تنبع من أعماق الوجود الأصيل للروح الحضارية، وهي في دور تكوينها ونشوئها، كان للمعرفة والعرفان أثر عظيم في تشكيل تلك الروح. وهذا جعلنا نعود إلى تجربة العرفانية التاريخية لنستعين بها في تجربتنا الحاضرة، فنشيع فيها الحياة بفضل آخر صورة

---

* كاتب وباحث إسلامي ـ بوركينافاسو.

قدر لها الظهور في حضارة محتضرة، التي تقوم على مبدأ أساس سهل بسيط هو أن وجود الإنسان فيما يفعله، أي أن أفعال الإنسان هي التي تحدد وجوده وتكونه، ليقاس بأفعاله؛ فإن وجود هذا الإمام الجليل ـ «الحسن المجتبى» (عليه وعلى جده وأبيه وإخوانه أفضل الصلاة والسلام) ـ هو الذي يقودنا إلى بحث عن سيرته وفكره كما يقال: إن وجود إنسان بحسب ما يفعله.

هذا، ووزعنا البحث على مقدّمة، ثلاثة مباحث، وخاتمة.

ـ المبحث الأول: الإمامة.

ـ المبحث الثاني: نشأة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

ـ المبحث الثالث: مواقف الإمام وإنجازاته.

ـ والخاتمة.

وفي جميع الفصول، راعينا الاختلاف والتباين في الفهم والإدراك والتلقي للقراء، متجنبين المصطلحات الغامضة، لتعم الفائدة الأخوية منه، لتكوين قويم وصالح لكي يؤدي إنسان مسلم مسؤوليته تجاه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في حياته الإنسانية. وعليه أن يبتعد عن التعصب والعصبية بكل أنواعه: التعصب الديني، والفكري، والطبقي، والقومي، ليواجه الحق؛ وأخطر وأبشع التعصب هو التعصب المذهبي داخل الديانة الواحدة.

وعلينا جميعاً أن نعلم ونقدر ونحتفظ بفضائل الأئمة عليهم السلام؛ لأنهم لا ينفكون عن النبي صلى الله عليه وآله، وهو جدهم..

فالسنّة والشيعة يجمعهم الإسلام، كما يقوله الإمام الصادق عليه السلام: «الإسلام هو: الظاهر الذي عليه الناس، شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصيام شهر رمضان».

وعن الباقر عليه السلام: «والإسلام: ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة

من الناس من الفرق كلها، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك عن الكفر وأضيفوا إلى الإيمان».

إذاً فالتعصب نتيجة التخلف والجهل، وهو المسيطر على عقول المسلمين مادام الحاكم فيهم هو التعصب؛ والشاهد هو:

- حرق المكتبات الإسلامية ببغداد.
- حرق روايات السيرة النبوية.
- كتمان الأحاديث الصحيحة ونشر غيرها أوحذف لبعض الخبر.
- التقليد الأعمى للسلف.

وقد يقول البعض: إن الغرب منقسم إلى الكافر والصليبي واليهود الحاقد وحتى من ينكر بوجود الله، ومع ذلك يسيطر على بلاد المسلمين؛ فهذا الانقسام إن دل على شيء فإنما يدل على التعصب. نعم، إنه لم يقم بمحاولات التعب الجاهلة، بل نقل الكتب التي ألفها علماء الإسلام إلى بلاده وأخذ يفتش في أسرارها وكنوزها، فوصل الى ما وصل إليه من التقدم العلمي، وخير شاهد ما نقول ما يعترف به الغرب من كتابات جابر بن حيان في العلوم الطبيعية التي دوّنها من أستاذه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، والطب من ابن سينا، وعلم الأعداد والحروف من ابن عربي.

وأخيراً، سئل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن العصبية، فقال: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم».

المبحث الأول: الإمامة والولاية في القرآن الكريم

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائَكَة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كلّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائكَة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاء هؤُلاَء إِنْ كُنْتُمْ صَادقينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لا علْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الّذين يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(٣)]. صدق الله العلي العظيم

إن مفهوم الإمامة في اللغة، هو: الرئاسة وكل من يتصدى لرئاسة جماعة يسمى (الإمام)، سواء كان في طريق الحقّ أو الباطل. وقد أطلق مصطلح (أئمة الكفر) في القرآن الكريم على رؤساء الكفار وأطلق على من يقتدي به المصلون (إمام الجماعة).

والإمامة في مصطلح علم الكلام عبارة عن: الرئاسة والقيادة العامة الشاملة على الأُمّة الإسلامية في كل الأبعاد والجوانب الدنيوية[(٤)].

---

(١) سورة البقرة: الآيات (٣٠ ـ ٣٣).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

(٣) سورة المائدة: الآية (٥٥).

(٤) دروس في العقيدة الإسلامية لمحمّد تقي مصباح اليزدي، نشر دار المشرق للثقافة والنشر.

وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن هذه الرئاسة المذكورة والقيادة إنما هي شرعية، ولا ينالها إلا من كان معصوماً عن الخطأ في بيان الأحكام والمعارف الإسلامية، وكذلك منزهاً من الذنوب والمعاصي، ويمتلك كل مناصب النبي صلى الله عليه وآله سوى النبوّة والرسالة، ولذا تجب طاعة أوامره. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١).

فمن هنا يتبين اختلاف بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأهل السنة في موضوع الإمامة حول ثلاث مسائل:

الأولى: أهل البيت عليهم السلام يرون أن نصب الإمام وتعيينه من قبل الله تعالى.

الثانية: أن علم الإمام موهوب من الله سبحانه وتعالى.

الثالث: وهو معصوم من المعصية.

ضرورة وجود الإمام ومعرفته:

إنّ الإنسان في حياته ليس كسائر الحيوانات بحيث يتمكن وبمفرده أن يستمر في حياته لوحده فيكتفي في مطعمه وملبسه بما توفره له الطبيعة، بل هو لاستمرار حياته بحاجة إلى التعاون مع عدد من أبناء نوعه ومساعدتهم، بحيث يقوم كل فرد من أفراد ذلك المجتمع بتوفير شطر من لوازم الحياة وضروراتها(٢). فمثلاً: يعمل قسم من الناس نجاراً والآخر حداداً، وبعضهم بالخياطة وطائفة منهم بالزراعة...هكذا تدور الحياة، ويستمر العيش، ولن يتحقق ذلك إلا بقانون، ولا يحترم القانون إلا بوجود القيادة التي تقوم بحفظ تلك القوانين. ولذا أنزل الله القرآن الكريم وأبلغ القانون بواسطة رسوله النبي، وقال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

---

(١) سورة السجدة: الآية (٢٤).

(٢) حاجة الأنام إلى النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام: ١١، علي أصغر الموسوي اللاري، تعريب: محمّد هادي اليوسفي الغروي.

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(١)]. فالمسؤول عن ذلك من قبله هو الإمام لكي لا تناله يد التبديل والتحريف،وهو المبين لمجمله لكي لايبقى الناس في شبهة من إجماله. وهو أيضاً مسؤول عن تربية وتعليم مجتمع الأُمّة للرقي والكمال، فلا يضيع أجر من أحسن عملاً من طالبي الكمال والمستعدين له.

وتقتضي أن تكون للإمام رتبة فائقة في العلم والعمل:

ففي العلم، لا بدّ أن يكون بمستوى تفصيل مجمل القانون وحل مشكلاته وتوضيحها بالضرورة، وبحيث لا يحتمل فيه الجهل والخطأ والسهو.

وفي العمل: فإن المسؤول عن التربية والتعليم والقيادة فيهما لا بد أن يكون على درجة الكمال بحيث لا يحتمل فيمن يتعلم منه المساوي له فضلاً عن الأفضل الأكمل. وطبيعي أن إحراز هذه الرتبة الفائقة ليس في متناول آحاد الأمة، وعليه فإحراز هاتين الرتبتين الفائقتين للإمام وتعيينه لهذين المقامين إنما هو في شأن الله ورسوله. والتعريف به يكون على عهدة رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ﴾**[(٢)].

حق الإمام:

من حقوق الإمام:

ـ حق الصلاة عليه:

وهو« اللهم صل عل محمّد وآل محمد...»[(٣)]، أو«صلى الله عليه وآله»، أو

(١) سورة الحجر: الآية (٩).

(٢) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٣) منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية لمحمّد هاشم المدني: ١١١.

استقلالاً، كأن تقول: اللهم صل على علي، أو علي صلوات الله عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١].

وعندما سمع الصحابة (رضي الله عنهم) بهذا التكليف هرعوا يسألون النبي صلى الله عليه وآله عن كيفية أداء الصلاة عليه بعد أن سكت القرآن الكريم عن بيان كيفيتها، فعلّمهم كيف يؤدون ذلك التكليف، وقال لهم في كل مرة سألوه عن ذلك: «إذا أنتم صليتم علي، فقولوا: اللهم صل على محمّد وآل محمد»، فعرفهم وبأسلوب تعليمي واضح ومحكم أن الصلاة عليه تكون بالصلاة عليه وعلى آله، وأن هذا الحقّ مشترك بينه وبينهم[٢].

ـ حق المودّة له:

قوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣]. سئل رسول الله: ومن قرابتك هؤلاء الّذين وجبت علينا مودتهم يا رسول الله؟ قال: «علي وفاطمة وأبناهما»[٤].

ـ حق المال له:

الخمس والأنفال والفيء. قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم من شَيْء فَأَنَّ للّه خُمُسَهُ وَللرَّسُول وَلذي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكين وَابْنِ السَّبيل إن كُنتُمْ آمَنتُم باللّه وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدنَا يَوْمَ الْفُرْقَان يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية لمحمّد هاشم المدني: ١٠٢.

(٣) سورة الشورى: الآية (٢٣).

(٤) أهل البيت في تفاسير أهل السنة: ١٥٢.

قَدِيرٌ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

ـ حق الفيء له:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٣].

والفيء: مورد مالي شرّعه الله تعالى في كتابه الكريم، وأنه عائد لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن السلطة كان لها رأي آخر في الموضوع كان سبباً في اختلاف رأي المذاهب الإسلامية حول عائدية الفيء بعد النبي صلى الله عليه وآله[٤]. ولذا منع أهل البيت عليهم السلام من الحصول على حقوقهم المالية التي ترجع إليهم.

والفيء كما ذكره أبو منصور الأزهري: «ما ردّه الله على أهل دينه من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال، إما بأن يجلوا عن أوطانهم و يخلوها للمسلمين، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من

(١) سورة الأنفال: الآية (٤١).

(٢) سورة الأنفال: الآية (١).

(٣) سورة الحشر: الآية (٦).

(٤) منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية لمحمّد هاشم المدني: ١٩٧.

سفك دمائهم»[١].

وقال ابن الأثير: «قد تكرر الفيء في الحديث على اختلاف تصرفه، وهو ما حصل للمسلمين في أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد، وأصل الفيء: الرجوع...»[٢].

ـ حق الولاية له:

قوله تعالى:﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَاسِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الّذِين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٥].

ـ حق الطاعة والأتباع:

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ﴾[٦].

وجاء في حديث الثقلين: قوله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) نفس المصدر: ١٩٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٦).

(٤) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(٥) سورة المائدة: الآية (٥٥).

(٦) سورة النساء: الآية (٥٩).

تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

والشيعة وحدهم الّذين يعتقدون بوجود الشروط الثلاثة المذكورة سابقاً في الأئمة الاثني عشر، ويثبت مما ذكرناه صحّة اعتقادهم في مسألة الإمامة، ولا يحتاج ذلك للأدلة الموسّعة والمفصّلة.

وأخيراً، فإن العقل هو الذي يحكم بأن من تبع أهل البيت عليهم السلام فهو على حق ويقين من صحة عمله؛ لأن الدليل قائم على لزوم أتباعهم والتمسك بنهجهم.

المبحث الثاني: نشأة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

تاريخ وكيفية ولادته:

هو سبط النبي صلى الله عليه وآله، وأول ولد لأمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام.

إنه ولد في النصف من شهر رمضان، في السنة الثالثة من الهجرة[١].

وجاء في الحديث: أنه لما حملت فاطمة عليها السلام بالحسن فولدت، كان النبي صلى الله عليه وآله قد أمرهم أن يلفوه في خرقة بيضاء، فلفوه في صفراء، وقالت فاطمة عليها السلام: «يا علي سمه، فقال: ما كنت لأسبق باسمه رسول الله صلى الله عليه وآله»، فجاء النبي صلى الله عليه وآله فأخذه وقبله، وأدخل لسانه في فمه، فجعل الحسن عليه السلام يمصّه، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألم أتقدم إليكم أن لا تلفوه في خرقة صفراء؟!» فدعا صلى الله عليه وآله بخرقة بيضاء فلفه فيها ورمى الصفراء، وأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ثم قال

(١) الإرشاد للمفيد: ١٩٦.

لعلي عليه السلام: «ما سميته»؟ قال: «ما كنت لأسبقك باسمه»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما كنت لأسبق ربّي باسمه»، قال: فأوحى الله عز ذكره إلى جبريل عليه السلام أنّه قد ولد لمحمد ابن، فاهبط إليه فاقرأه السلام وهنّئه منّي ومنك، وقل له: إن عليّاً منك بمنزلة هارون من موسى فسمه باسم ابن هارون، فهبط جبريل على النبي وهنأه من الله عز وجل ومنه، ثم قال له: إن الله عز وجل يأمرك أن تسميه باسم ابن هارون، قال: «وماكان اسمه»؟ قال: شبر، قال: «لساني عربي»، قال: سمه الحسن، فسماه الحسن»[١].

وأنه سمي الحسن حسناً؛ لأن بإحسان الله قامت السماوات والأرضون[٢].

ـ سنن الولادة ورضاعه:

وقد عقّ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده عن الحسن بكبش في اليوم السابع من ولادته، وقال: «بسم الله، عقيقة عن الحسن، اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه ودمها بدمه وشعرها بشعره، اللهم اجعلها وفاء لمحمد وآله»، وأعطى القابلة شيئاً، وقيل: رجل شاة، وأهدوا منها إلى الجيران، وحلق رأسه ووزن شعره فتصدق بوزنه فضة ورقاً[٣].

وأما بالنسبة إلى رضاعه:

وجاء في الخبر: أن أُمّ الفضل زوجة العباس ـ عمّ النبي صلى الله عليه وآله ـ قالت: قلت: يارسول الله! رأيت في المنام كأنّ عضواً من أعضائك في حجري، فقال صلى الله عليه وآله:

---

(١) بحار الأنوار ٤٣: ٢٤٠.

(٢) المناقب ٣: ١٦٦.

(٣) الكافي ٦: ٣٣.

«خيراً رأيت، تلد فاطمة غلاما فتكفلينــه»، فوضـعت فاطمـة الحسن عليه السلام فدفعه إليها النبي صلى الله عليه وآله، فرضعته بلبن قثم بن العباس[(١)].

ـ كنيته وألقابه ونقش خاتمه:

وكما جاء في كتاب أعلام الهداية: أن كنيته هي « أبو محمد» لا غير!. وألقابه كثيرة جداً، منها:التقي، الطيب، الزكي، السيد، السبط، والـولي. وكـل ذلـك كـان يقال له ويطلق عليه، وأكثر هذه الألقاب شهرة «التقي» لكن أعلاها رتبة وأولاها به ما لقبه به رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث وصفه به وخصه بأن جعله نعتاً لـه، فإنـه صـح النقل عن النبي صلى الله عليه وآله فيما أورده الأئمة الإثبات والرواة الثقات أنه قال: « ابني هـذا سيّد» فيكون أولى ألقابه«السيد»[(٢)].

وجاء في صحيح الترمذي أنه: لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن ابن علي عليه السلام[(٣)].

وإنّه كان أبيض مشرباً بحمرة، أدعج العينين، سـهل الخـدين، دقيـق المـسربة، كـث اللحيـة، ذا وفـرة كـأنّ عنقـه إبريـق فـضة، عظـيم الكـراديس، بعيـد مـا بـين المنكبين، ربعة ليس بالطويل ولا القصير، مليحاً، من أحسن النـاس وجهـاً، وكـان يخضب بالسواد، وكان جعد الشعر، حسن البدن[(٤)].

فالحسن المجتبى عليه السلام ابن رسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وتلميذه الفذ، ومـن الّـذين إن تمسّكنا بهم لن نضل أبداً بعد صاحب الرسالة ومنقذ البشرية.

---

(١) كشف الغمة ١: ٥٢٣.

(٢) أعلام الهداية، الإمام الحسن عليه السلام المجتبى ٤: ٤٥.

(٣) المصدر السابق ٤: ٥٠.

(٤) كشف الغمة ١ : ٥٢٥.

وقوله صلى الله عليه وآله: «هذا مني ـ أي الإمام المجتبى عليه السلام ـ وحسين من علي رضي الله تعالى عنهما» أخرجه أحمد، وأبو داود، والطبري[١]. وقوله صلى الله عليه وآله: «اللهم، إنّي أحبه فأحبه وأحبب من يحبه»[٢].

وعن زهير بن الأقمر، قال: بينما الحسن بن علي يخطب بعدما قتل علي (رضي الله عنه)، إذ قام رجل من الأزد آدم طوال، فقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله واضعه في حبوته، يقول: « من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب، ولولا عزمة رسول الله صلى الله عليه وآله ما حدثتكم»[٣].

وأخيراً ورد: أن الحسن عليه السلام كان يركب على رقبة النبي صلى الله عليه وآله وهو ساجد فما ينزله، حتى يكون هو الذي ينزل، وكان يجيء والنبي راكع، فيفرج له بين رجليه، حتى يخرج من الجانب الآخر[٤]، وكان يقبّل بطنه ويحمله أحياناً على رقبته ويخرج به إلى الناس، ويقول عنه:«نعم الراكب هو»[٥].

المبحث الثالث: مواقف الإمام× وإنجازاته

أوّلاً: مراحل حياته عليه السلام:

ـ إنه عاش مع جده خلال سبعة سنوات وستة أشهر من عمره الشريف، مع قلة هذه السنوات المذكورة، استطاع تجسيد صورة شخصية مصغّرة لرسول

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٢٠، دار الفكر ـ بيروت.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ١٣ : ١٧٦، دار الفكر ـ بيروت.

(٥) سنن الترمذي ٥ : ٦٦١، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الله صلى الله عليه وآله على نفسه حتى قال له الرسول صلى الله عليه وآله: «أشبهت خلقي وخلقي»[(١)].

وخصّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأوصاف تنبئ عن عظيم منزلته لديه:

أ ـ «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض من الاختلاف»[(٢)].

ب ـ وعن سلمان أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين ابناي، من أحبهما أحبني، ومن أحبني أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله الجنة، ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله النار»[(٣)].

ج ـ وكان يقول لفاطمة عليها السلام: «ادعي لي ابني» فيشمهما ويضمهما إليه![(٤)].

د ـ وهما من العترة (أهل البيت) التي لا تفترق عن القرآن إلى يوم القيامة، ولن تضل أمة تمسّكت بهما[(٥)].

وأما مكانته في تفاسير أهل السنة:

لقد اتّفقت جميع الفرق والمذاهب الإسلامية على فضل وعلو المقام العلمي والروحي لأهل البيت عليهم السلام في صريح الذكر الحكيم، ونذكر منه ما جاء في تفسير أهل السنة، حسب الترتيب الأبجدي[(٦)]:

١ ـ تفسير الألوسي المتوفى (١٢٧٠ هـ).

٢ـ تفسير ابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ).

---

(١) أعلام الهداية ٤: ٥٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٩.

(٣) المصدر السابق: ٣: ١٦٦، دار المعرفة ـ بيروت.

(٤) أعلام الهداية ٤: ٢٧، عن سنن الترمذي: ٥٤٠.

(٥) المستدرك على الصحيحين٣: ١٠٩.

(٦) الوجودية المؤمنة: ٢٣٧.

٣ ـ تفسير البغوي المتوفى (٥١٦ هـ).

٤ ـ تفسير البيضاوي المتوفى (٦٩١ هـ).

٥ ـ تفسير البروسوي المتوفى (١١٣٧ هـ).

٦ ـ تفسير الثعلبي المتوفى (٤٢٧ هـ).

٧ ـ تفسير السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).

٨ ـ تفسير الطبري المتوفى (٣١٠هـ).

٩ ـ تفسير الفخر الرازي المتوفى (٦٠٦هـ).

١٠ ـ تفسير القاسمي المتوفى (١٣٢٢هـ).

١١ ـ تفسير القرطبي المتوفى (٧٦١هـ).

١٢ ـ تفسير الزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ).

وفي تفاسيرهم، الكل يفسرون الآيات:

(آية الإمامة، آية أولي الأمر، آية الولاية، آية الإكمال، آية علم الكتاب،آية البينة، آية المباهلة، آية التطهير، آية المودة، آية الشهادة، آية الاجتباء، آية رؤية الأعمال و...) متجنّبين الهوى والتعصّب المذموم، أي أنّهم يقدرون الأئمة من خلال تفسير هذه الآيات المذكورة؛ مع الأسف الشديد نرى العكس في الخارج، أي بعد إثبات أن أهل البيت عليهم السلام معصومون من الخطأ والزلل، وهم أمناء الشريعة، بهذا، كان يجب على كل المسلمين اتباع أهل البيت عليهم السلام واعتبار قولهم حجة يستندون إليه، والتمسّك بهم والعمل على رأيهم ظاهراً وباطناً، لا من خلال كتاباتهم فحسب.

مكانته لدى معاصريه والعلماء والمؤرخين:

أوّلاً: مع أبي بكر وعمر وعثمان، فإن بوفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ينتهي عهد الرسالة ويبدأ عهد الإمامة بمشاكل الأُمّة على أهل البيت عليهم السلام:

أ ـ تعرّضت دار الزهراء عليها السلام للإحراق لكي يبايع الإمام علي عليه السلام أبا بكر.

ب ـ وبعد الهجوم على دار الزهراء عليها السلام جاء دور غصب فدك التي ورثتها من أبيها صلى الله عليه وآله.

مع كثرة الهجوم على أهل البيت عليهم السلام جعلت الإمام الحسن عليه السلام أخذ موقفاً مع أبي بكر، حيث جاء إليه يوماً وهو يخطب على المنبر، فقال له: «انزل عن منبر أبي»، فأجابه أبو بكر: صدقت والله، إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي[(١)].

ونقل بعض المؤرخين: أنّه حينما حاصر الثائرون عثمان بعث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، بل قالوا:إن الإمام الحسن عليه السلام قد جرح وخضّب بالدماء على باب عثمان من جرّاء رمي الناس عثمان بالسهام، ثم تسوّر الثائرون الدار على عثمان وقتلوه، وجاء الإمام علي عليه السلام كالواله الحزين، فلطم الحسن وضرب صدر الحسين عليهما السلام وشتم آخرين، منكراً عليهم أن يقتل عثمان وهم على الباب[(٢)].

بالنسبة إلى الدفاع عن عثمان، فإن عليّاً عليه السلام وإن كان لا يرى خلافة عثمان شرعية من الأساس، إلا أ ن قتل عثمان بهذا الأسلوب لا يخدم الإسلام، بل قد يسبب له ضرراً فادحاً وجسيماً، وأنه سوف يعطي الفرصة لأولئك المتربّصين من

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٨٠ الصواعق المحرقة: ١٧٥.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٤٢ و ٤٤.

أصحاب المطامع لاستغلال جهل الناس ورفع شعار الأخذ بثارات عثمان.

الحسن عليه السلام لدى العلماء والمؤرخين ومعاصريه:

عن ابن الأثير: «وهو سيّد شباب أهل الجنة، وريحانة النبي صلى الله عليه وآله وشبيهه، سماه النبي الحسن...وهو خامس أهل الكساء»[(١)].

وعن الحافظ ابن عساكر الشافعي: «هو سبط رسول الله وريحانته وأحد سيدي شباب أهل الجنة...»[(٢)].

وأخيرا يقول ابن الزبير: «والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي عليه السلام في هيبته وسمو منزلته»[(٣)].

عبادته عليه السلام:

كان له توجّه خاص لله سبحانه وتعالى، وكان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا ذكر الموت بكى، وكان إذا كان قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل، وكان لا يقرأ من كتاب الله عز وجل: ﴿**ياأيها الّذين آمنوا**﴾ إلا قال: لبيك اللهم لبيك، ولم يرَ في شيء من أحواله إلا ذاكراً لله سبحانه، وكان أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً...[(٤)]. وحين كان عليه السلام يسأل عن سبب ارتعاد فرائصه، كان يجيب عليه السلام بإنّه واقف أمام الله جلّ جلاله، فحقّ للإنسان أن يرتجف، وترتعد فرائصه.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كان

---

(١) أسد الغابة ٢ : ٩.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٧: ٥ .

(٣) البداية والنهاية: ٨: ٣٧.

(٤) بحار الأنوار ٤٣: ٣٣١.

أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم، وكان اذا حجّ حج ماشياً وربما مشى حافيا، وكان إذا ذكر الموت بكى، واذا ذكر القبر بكى، واذا ذكر البعث والنشور بكى، واذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق يغشى عليه منها...»[(١)].

وقد حجّ خمسة وعشرين حجة ماشياً، وربّما بدون نعل[(٢)].

وروي: أنّ ماشياً رأى الإمام الحسن عليه السلام راكباً فجعل يلعنه والحسن لا يرد، فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسلم عليه وضحك فقال: «أيها الشيخ، أظنّك غريباً ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجا أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا كنت ضيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك؛ لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، ألله أعلم حيث يجعل رسالته[(٣)].

الصلح وأسبابه ونتائجه:

كما يعلم كل المؤرخين أنّ المرحلة التي صالح فيها الإمام الحسن عليه السلام معاوية بن أبي سفيان من أصعب المراحل، وأكثرها تعقيداً وحساسية وأشدها إيلاماً. وقد أصبح صلح الإمام عليه السلام من أهم الأحداث في التاريخ الإسلامي بما تستبطنه من موقف بطولي للإمام المعصوم عليه السلام، وبما أدى إليه من تطورات

---

(١) أعلام الهداية ٤: ٣٣.

(٢) تاريخ الخلفاء: ١٩٠.

(٣) بحار الأنوار: ٤٣: ٣٤٤.

واعتراضات وكذلك تفسيرات مختلفة طوال القرون السابقة إلى عصرنا هذا، حتى جعل بعض المستشرقين في دراساتهم وبحوثهم من مقدمات ضعيفة إلى نتائج يعتقدون أنها متينة، قوية في رأيهم ويعتمدون على تذوقهم في تفسيرها. لكن الإمام لم يتنازل بدليل: أن معاوية في بعض كلامه يقول: «إن الحسن بن علي رآني للخلافة أهلاً، ولم يرَ نفسه لها أهلاً»، فلمّا فرغ من كلامه قام الحسن عليه السلام وقال ـ بعد أن ذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام وحديث المباهلة ـ: «وإن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً، فكذب معاوية، نحن أولى بالناس في كتاب الله ولسان نبيه صلى الله عليه وآله ولم نزل أهل البيت مظلومين منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله»[1]. وبتمرد الخوارج، أمر معاوية أن يزحف الإمام لقتالهم، ولكن لم يهتم الإمام بهذا الأمر أبداً وقال عليه السلام: «لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك»[2].

فمن هنا نرى أن اعتقاد الباطل لبعض الكتاب الّذين يفقدون الوجدان العلمي ومعرفة التاريخ، لم يكن إلا افتراءً ووهماً كبيراً، ولم يكن صلح الإمام عليه السلام إلا وفق المصالح الإسلامية الكبرى، لا أنه عليه السلام كان يرى معاوية أصلح منه.

فيما تركه للناس ـ أي تراثه ـ باختصار:

* من أقواله عليه السلام في رحاب العلم والعقل:

ـ «تعلموا العلم، فإنكم صغار في القوم، وكبارهم غدا، ومن لم يحفظ منكم فليكتب».

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٦٢.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ١٠٠.

ـ «حسن السؤال نصف العلم».

ـ «أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكر، فإن التفكر أب كل خير وأمه».

ـ «لا يغش العقل من استنصحه».

ـ «علم الناس، وتعلم علم غيرك، فتكون قد أتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم».

ـ «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همّة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً».

*** في رحاب القرآن الكريم:**

في بيان حقيقة القرآن كتاب الله فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي هذا الصدد، روي: أنه جاء رجل إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ليسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿**وشاهد ومشهود**﴾ فرأى ثلاثة أشخاص قد احتف بكل واحد منهم جميع من الناس يحدثهم عما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فسأل أحدهم عن الشاهد والمشهود فقال: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، ثم سأل الآخر فقال له: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر، ثم سأل الثالث فأجابه: الشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله والمشهود يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾، وقوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿**ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾، فسأل عن الأول فقيل له: عبد الله بن عباس، وسأل عن الثالث فقيل له: الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

(١) أعلام الهداية، الإمام الحسن عليه السلام المجتبى ٤ : ٢٠٣، تراث الإمام الحسن عليه السلام.

*** في رحاب الأخلاق والتربية:**

عن جابر، قال: سمعت الحسن عليه السلام يقول: «مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذمم على الجار، ومعرفة الحقّ للصاحب، وقري الضيف، ورأسهنّ الحياء»(١).

ويقول: «الصمت ستر العيب وزين العرض، وفاعله في راحة، وجليسه آمن».

وتحدث الإمام عليه السلام عن أصول الجرائم الأخلاقية وأمهات الرذائل قائلاً:

«هلاك الناس في ثلاث: الكبر،الحرص، والحسد.

الكبر: به هلاك الدين وبه لعن إبليس.

الحرص: عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة.

الحسد: رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل».

وفي رحاب أدعية الإمام المجتبى عليه السلام:

وللإمام الحسن بن علي عليه السلام عدّة من الأدعية والابتهالات تدل على مدى اتصاله بالله ومدى تعلقه بالله سبحانه وتعالى وانقطاعه إليه.

ومن دعاءه في القنوت:

«يا من بسلطانه ينتصر المظلوم، وبعونه يعتصم مكلوم، سبقت مشيئته، وتمت كلمتك، وأنت على كل شيء قدير، وبما تمضيه خبير، يا حاضر كل غيب وعالم كل سر وملجأ كل مضطر، ضلت فيك الفهوم، وتقطعت دونك العلوم، أنت الله

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٦.

الحي القيوم، الدائم الديوم، قد ترى ما أنت به عليم، وفيه حكيم، وعنه حليم، وأنت القادر على كشفه، والعون على كفه غير ضائق، وإليك مرجع كل أمر، كما عن مشيئتك مصدره، وقد أبنت عن عقود كل قوم، وأخفيت سرائر آخرين، وأمضيت ما قضيت، وأخّرت ما لا فوت عليك فيه، وحملت العقول ما تحملت في غيبك، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة، وإنك أنت السميع العليم، الأحد البصير، وأنت الله المستعان، وعليك التوكل، وأنت ولي من توليت، لك الأمر كله، تشهد الانفعال، وتعلم الاختلال، وترى تخاذل أهل الخبال، وجنوحهم إلى ما جنحوا إليه من عاجل فان، وحطام عقباه حميم آن، وقعوا من قعد، وارتداد من ارتد.. وخلوي من النصّار وانفرادي عن الظهار، وبك اعتصم، وبحبلك استمسك، وعليك أتوكل.

اللهم، فقد تعلم أني ما ذخرت جهدي، ولا منعت وجدي، حتى انفل حدي، وبقيت وحدي، فاتبعت طريق من تقدمي في كف العادية وتسكين الطاغية عن دماء أهل المشايعة، وحرست ما حرسه أوليائي من أمر آخرتي ودنياي، فكنت ككظمهم أكظم، وبنظامهم أنتظم، ولطريقتهم أتسنم، وبميسهم أتسم حتى يأتي نصرك، وأنت ناصر الحقّ وعونه، وإن بعد المدى عن المرتاد، ونأى الوقت عن إفناء الأضداد.

اللهم، صلّ على محمّد وآل محمد، وامزجهم مع النصاب في سرمد العذاب، وأعم عن الرشد أبصارهم، وسكعهم في غمرات لذاتهم حتى تأخذهم البغتة وهم غافلون، وسحرة وهم نائمون، بالحق الذي تظهره، واليد (التي) تبطش بها، والعلم الذي تبديه، إنك كريم عليم...».

وكان يدعو على الظالمين بهذا الدعاء:

«اللهمّ، يا من جعل بين البحرين حاجزاً وبرزخاً، وحجراً محجوراً، يا ذا القوة والسلطان، يا علي المكان، كيف أخاف وأنت أملي؟! وكيف أضام وعليك متكلي؟! فغطني من أعدائك بسترك، وأظهرني على أعدائي بأمرك، وأيدني بنصرك، إليك ألجأ ونحوك الملتجأ، فاجعل من أمري فرجاً ومخرجاً، يا كافي أهل الحرم من أصحاب الفيل، والمرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، إرم من عاداني بالتنكيل.

اللهم إني أسألك الشفاء من كل داء، والنصر على الأعداء، والتوفيق لما تحب وترضى، يا إله السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، استشفي، وبك استعفي، وعليك أتوكل، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم».

الخاتمة:

النتائج التي يمكن لنا أن نستخلصها من خلال هذا البحث المتواضع، من حياة هذا الإمام العظيم،هي واحدة من ألف.

بعد أن ظهرت الأدلة من الكتاب والسنة، ففهمنا أن الإمامة حبل الله من السماء إلى الأرض، وهي سنة مستمرة، حتى لا تخلو الأرض حجة، ولحفظ ما أنجزه الأنبياء وإتمام دورهم في هداية الناس إلى كمالهم الروحي والأخلاقي، وكل ما يرتبط في حياتهم وآخرتهم؛ ولا يكون ذلك إلا على يد إنسان يتمتع بنفس مواصفات النبي من كفاءة ومؤهلات ويمتلك كل مناصب النبي إلا النبوّة والرسالة.

إن مسألة الإمامة ليست مسألة سهلة، بل لها من الأهمية والخطورة بحيث لا يمكن أن يقوم بها وبمهامها إلا من أختصه الله بصفات خاصة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لا**

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(١)]

وهذه الآية تدل على أن الذي يتصدى لهذا المنصب يجب أن يكون مقبولاً ومرضياً عند الله سبحانه وتعالى؛ لأن مسألة الإمامة هي عهد من الله، وصاحب هذا العهد عليه أن يتمتع بصفات ومؤهلات كثيرة كالعصمة تماماً كما كانت شرطاً في النبوة؛ وليس كمعاوية الذي لم يكن مستعداً للتنازل عن الخلافة للإمام الحسن عليه السلام، متذرعاً بصغر سن الإمام عليه السلام، ومع ذلك فإنّه سعى جاهداً في تثبيت دعائم ولاية العهد لولده المجرم الفاجر يزيد، شارب الخمر، ولاعب القمار، والمنحرف الذي لم يلتزم بالإسلام حتى بالظاهر؛ لكي لا تواجه خلافته المشاكل والتحديات بعد موته.

ومن هنا استخدم شتى الأساليب الجهنمية للقضاء على الإمام عليه السلام الذي كان خير الناس أباً وأُمّاً وجدّة وعمّاً وعمّة وخالاً وخالةً، والذي توفرت له جميع عناصر التربية المثلى منذ ولادته.

فالإمام عليه السلام ابن الرسول الله صلى الله عليه وآله جسماً ومعنىً، وتلميذه الفذّ، وربيب مدرسة الوحي التي شعّت على الناس هدى ورحمة، والذي استشهد في ٢٨ صفر سنة ٥٠ هجرية، بسبب السم الذي دسه إليه معاوية، ودفن فالبقيع، سلام الله عليه. إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة البقرة: الآية(١٢٤).

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي، دار الندوة الجديدة بيروت ـ لبنان.

٢- الإرشاد للمفيد، قم.

٣- أسد الغابة لابن الأثير، بيروت.

٤- أسرار الآيات: صدر الدين محمّد إبراهيم الشيرازي، دار الصفوة ـ بيروت، لبنان .

٥- أعلام الهداية، ج٤ الإمام الحسن عليه السلام المجتبى، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم.

٦- الإمامة والسياسة لابن قتيبة، بيروت.

٧- بحار الأنوار: محمّد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

٨- البداية والنهاية لابن كثير.

٩- تاريخ الخلفاء للسيوطي، بيروت.

١٠- تاريخ دمشق، ابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ)، بيروت.

١١- التصوف العقلي عند ابن سينا، طاهر كوليبالي، دار الهادي بيروت ـ لبنان.

١٢- تفسير ابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ)، بيروت .

١٣- تفسير الآلوسي المتوفى (١٢٧٠ هـ)، بيروت .

١٤- تفسير البروسوي المتوفى (١١٣٧ هـ)، بيروت.

١٥- تفسير البغوي المتوفى (٥١٦ هـ) ، بيروت.

١٦- تفسير البيضاوي المتوفى (٦٩١ هـ)، بيروت.

١٧- تفسير الثعلبي المتوفى (٤٢٧)، بيروت.

١٨- تفسير الزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ)، بيروت.

١٩- تفسير السيوطي المتوفى (٩١١هـ)، بيروت.

٢٠- تفسير الطبري المتوفى (٣١٠هـ)، بيروت.

٢١- تفسير الفخر الرازي المتوفى (٦٠٦هـ)، بيروت.

٢٢- تفسير القاسمي المتوفى (١٣٢٢هـ)، بيروت.

٢٣- تفسير القرطبي المتوفى (٧٦١هـ)، بيروت.

٢٤- حاجة الأنام إلى النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، علي أصغر الموسوي اللاري، تعريب محمّد الهادي اليوسفي الغروي، مركز نشر الثقافة الإسلامية في العالم. قم - إيران

٢٥- دروس في العقيدة الإسلامية: محمّد تقي مصباح اليزدي، دار المشرق للثقافة والنشر.

٢٦- سنن الترمذي، محمد بن سورة الترمذي، ط مصر.

٢٧- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي - بيروت.

٢٨- الصواعق المحرقة، لإبن حجر الهيتمي - المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٢هـ.

٢٩- الفصول المهمة: عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم.

٣٠- الكافي: محمّد يعقوب الكليني، دار صادر بيروت - لبنان.

٣١- الكامل لابن الأثير، بيروت.

٣٢- كشف الغمة: علي بن عيسى الإربلي المتوفى (٦٨٧هـ)، قم.

٣٣- المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١١ هـ).

٣٤- معرفة الإمام: كمال الحيدري، دار جواد الأئمة، بيروت ـ لبنان .

٣٥- المناقب، لابن المغازلي الشافعي (ت ٤٨٣ هـ)، طبعة طهران، المطبعة الإسلامية.

٣٦- منظومة حقوق العترة النبوية بين التطبيق والنظرية: محمّد هاشم المدني، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم.

٣٧- نهج البلاغة: الإمام علي عليه السلام، بيروت.

٣٨- الوجودية المؤمنة: طاهر كولي بالي، تحت الطبع.

مع الإمام الحسن عليه السلام في يوم شهادته

سيد سعيد كاظم العذاري(*)

اختار الله سبحانه وتعالى عليّاً وأبناءه أوصياء وأئمة للمسلمين لتستمر المسيرة الإسلامية بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ويتوالى الإصلاح والتغيير والبناء حتى يكون المنهج الإلهي هو المنهج الوحيد في العالم الإنساني، وحتى تكون المفاهيم والقيم الإلهية حاكمة على الأفكار والعواطف والممارسات في مختلف مجالات الحياة.

وهذا الاختيار لم يأت من فراغ ولا عن عبث، فقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام أهلاً لهذا الاختيار، فهم الوحيدون القادرون على تحمل المسؤولية والتضحية بكل شيء من أجل الحفاظ على المفاهيم والقيم الإسلامية ومن أجل المحافظة على الوجود الإسلامي الذي أرسى أركانه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولولاهم لما بقي من الإسلام حتى اسمه ولا من القرآن حتى رسمه، فقد كانت المصلحة الإسلامية العليا هي الحاكمة على ممارساتهم الميدانية ومواقفهم تجاه الحكومات والوجودات السياسية والاجتماعية القائمة، ولهذا فقد ضحّوا بالكثير من الامتيازات من أجل الوحدة الإسلامية، والتي هي أهم مصداق من مصاديق المصلحة الإسلامية التي كانت وراء مواقف الأئمة عليهم السلام في مراحل الحياة

(*) كاتب وباحث إسلامي ـ العراق.

الإسلامية المتعاقبة، ومنها مواقف التضحية بالمنصب وبالنفس، ولهذا أصبحت مواقفهم ميزاناً ثابتاً لتقييم مسيرة القادة والمصلحين؛ لأنه ميزان لا يميل مع الهوى والأنا، ولا يتأرجح مع المودّة والشنآن مهما كانت الملابسات والأحوال، بل هو مائل مع المصلحة الإسلامية والوحدة الإسلامية والتي ساهمت في بقاء الوجود الإسلامي وديمومة حركته التكاملية.

معنى المصلحة الإسلامية:

المصلحة الإسلامية هي: الوضع الافضل للإسلام باعتباره دعوة وشريعة وقاعدة للدولة تستمد منه متبنياتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والمصلحة تشمل كل ما كان يساهم في أيجاد الوضع الأفضل للإسلام والمسلمين.

والمصلحة الإسلامية تارة تكون منصوصة في القرآن الكريم والسنة النبوية كمصلحة عدم اتخاذ الكافرين أولياء، وأخرى لا تكون منصوصة فيرجع الأمر فيها إلى أئمة أهل البيتعليهم السلام أو إلى الفقيه الجامع للشرائط في عصر الغيبة.

والمصلحة قد تختلف من زمن إلى آخر ومن ظرف إلى آخر ومن مكان إلى آخر.

شبهة وجواب:

قد يرى بعض من الباحثين والمحلّلين أنّ الإمام علياًعليه السلام قدّم الدين على المصلحة، وقدّم الحكم الشرعي بوجوب عزل معاوية على المصلحة، وكان من مصلحة الدولة إبقاء معاوية والياً على الشام ثم عزله بعد أن يبايع وبعد أن تستتب الأمور، ولكنّ الإمام رفض هذه المساومة على الدين، ورفض مخالفة الشريعة

بابقاء معاوية والياً على الشام. ويرون أنّ الإمام الحسن عليه السلام على عكس أبيه، فقد قدّم المصلحة على الدين.

والجواب: أنّه لا تضاد بين المصلحة والدين ولا فصل بينهما، فالدين يراعي المصلحة، والمصلحة هي مراعاة من قبل الدين ومن قبل قادته، فكل قرار أو موقف يراعي المصلحة التي تتغير من ظرف لأخر، فظرف الإمام علي عليه السلام يتطلب عزل معاوية، بينما ظرف الإمام الحسن عليه السلام يتطلب الصلح طبق شروط، وكلا الموقفين فيه مصلحة إسلامية.

إنّ عزل معاوية عن ولاية الشام إنّما هو إجراء اقتضته المصلحة الإسلامية العليا الآنية والبعيدة، وهو إجراء اقتضته مصلحة الدولة الإسلامية التي يقودها الإمام علي عليه السلام، ولا علاقة له بالحرمة أو الوجوب أو ما شابه ذلك؛ لأنّ إبقاء معاوية والياً لا حرمة فيه، فلا يوجد دليل شرعي على حرمة تولي الفاسقين، فقد كان بعض الولاة والعاملين على الصدقات في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من الفاسقين، وكان بعض قادة المعارك من الفاسقين، ولو كان إبقاء معاوية والياً حراماً شرعاً لما صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية وسلّم الخلافة إليه.

وإذا قيل: إنّ الحكم الشرعي يتبدّل ويتغير بحسب الظروف والمصالح، فهذا القول يؤيد ما اثبتنّاه، وهو قيام الإمام علي عليه السلام بعزل معاوية من أجل تحقيق مصلحة الدولة الإسلامية، فهو إجراء اقتضته المصلحة الإسلامية، وخصوصاً مصلحة الدولة الآنية.

وهذه المصلحة تتحدّد على ضوء جملة من الأسباب والعوامل:

١- وصل الإمام علي عليه السلام إلى الحكم عقب حركة مسلحة ابتدأت بالمطالبة باصلاح الأوضاع ومحاسبة أو عزل الولاة المنحرفين وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان وانتهت بقتل عثمان، وعزل معاوية من الأمور المتفق عليها بين

المعارضين، وإن اختلفوا في مقتل عثمان، لكنهم لم يختلفوا في فسق معاوية. فلو قام الإمام علي عليه السلام بإبقاء معاوية والياً على الشام لخالف رأي أغلب أفراد جيشه، ولحدثت معارضة مسلّحة له، قد تؤدي إلى قتله أو ازاحته عن السلطة، وبالتالي إلى حدوث فتنة داخلية لا تحمد عقباها.

٢- إنّ مساومة معاوية للإمام بابقائه والياً يفتح ثغرة لجميع الطامعين في الحكم وفي الولاية، ليبدأوا بمساومة الإمام كمساومة معاوية، وبالتالي ستكون حكومة الإمام عليه السلام حكومة ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

٣- إنّ إبقاء معاوية على منصبه يساهم في تركيز سلطته على الشام، ويستثمر هذه السلطة للتآمر على حكومة الإمام لتقويضها في الظرف المناسب.

٤- إنّ الاعتراف بولاية معاوية على الشام يمنحه الشرعية الدينية والعرفية بنظر أهل الشام وبقية الأمصار، وبعد ذلك يصعب عزله حيث لا يوجد مبرر للعزل في رأي الكثير من أهل الشام.

٥- إنّ معاوية سيستثمر بقاءه والياً في الانفصال التام عن حكومة الإمام عليه السلام، وبالتالي لا يستطيع الإمام التصدّي له في تلك الظروف التي يعزله فيها متأخراً.

٦- إنّ معاوية لن يخضع للإمام عليه السلام وإن أبقاه والياً؛ للأسباب التالية:

أ- رغبته في الخلافة.

ب - امتلاكه لجيش قوي وأموال طائلة.

ج - بغضه للإمام علي عليه السلام.

المصلحة الإسلامية من جرّاء صلح الإمام الحسن عليه السلام:

من نقاط الاشتراك بين المسلمين أنّ خلافة الإمام الحسن عليه السلام خلافة شرعية، لأنه اختير من قبل أهل الحل والعقد، وهم خيرة الصحابة والتابعين، وبهذا الاختيار وجبت طاعته على جميع المسلمين وفي جميع الأمصار، وكل من رفض

طاعته يعتبر عاصياً شاقاً لوحدة المسلمين، ويجب على المسلمين إعادته للطاعة.

وعلى ضوء ذلك كتب الإمام الحسن عليه السلام كتاباً إلى معاوية يدعوه للطاعة والرجوع إلى الصف الإسلامي، ومما جاء في الكتاب: «إنّما حملني على الكتاب إليك الاعتذار فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظّ الجسيم والصلاح للمسلمين، فدع التمادي في الباطل، وادخل في ما دخل فيه الناس من بيعتي... واتق الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله، ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم باكثر ممّا أنت لاقيه به، وادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك؛ ليطفئ الله النائرة بذلك ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين»(١).

إلا أنّ معاوية لم يستجب للإمام، وتمرّد على أوامره، ورفض الرجوع إلى الصف الإسلامي وإنهاء الفتنة الداخلية، وجعل يتهيأ لقتال الإمام الحسن، فتحرك الإمام نحوه؛ لاعادته للطاعة وللحفاظ على وحدة الكيان والدولة لكي لا تتمزق إلى دولتين: الأُولى في العراق والثانية في الشام، ولكنّ الظروف لم تساعد على إخماد التمرد، وقد تبدلت لتكون في صالح معاوية أو على الأقل استمرار القتال دون حسم لصالح القضية الإسلامية الكبرى، وقد وجد الإمام الحسن في ايقاف القتال والقبول بالصلح مصلحة عليا للإسلام والمسلمين ووحدة الدولة والأمة الإسلامية، فآثر الصلح لأنّه المنسجم مع المصلحة العليا والوحدة الإسلامية.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٤.

وأهم مصاديق المصلحة العليا:

أوّلاً: وحدة الدولة والأمة:

قال الإمام الحسن عليه السلام: «الا وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم ممّا تحبون في الفرقة، ألا وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردّوا عليّ رأيي»[1].

وفي رواية أنّه قال: «إنّي ـ والله ـ ما أصبحت محتملاً على أحد من هذه الأُمّة ضغينة في شرق ولا غرب، ولما تكرهون في الجماعة والأُلفة والأمن وصلاح ذات البين خير ما تحبون في الفرقة والخوف والتباغض والعداوة»[2].

فالقتال وحسب الظروف لم يكن في صالح الدولة التي يقودها الإمام؛ لأنّ استمراره سيؤدي إلى اراقة الدماء دون حسم أو تراق، ولكنّ المستفيد هو القوة المتمردة التي ستستولي على الدولة دون قيود وشروط، أو يؤدّي القتال إلى ضعف القوتين وبالتالي تحرك الدول الكافرة لحسم الموقف لصالحها، أو قيام دولتين ضعيفتين، وفي جميع الأحوال فإنّ الأمر يؤدي إلى ضعف الدولة والوجود الإسلامي، وكلاهما خسارة فادحة.

ولذا اختار الإمام الصلح المشروط بشروط والمقيّد بقيود لكي تتوحد الأُمّة والدولة الإسلامية؛ حيث انّ هذه الشروط والقيود تحقق المصلحة الإسلامية العليا إن وجدت لها مجالاً للتطبيق.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٤٠.

(٢) المصدر السابق ١٦: ٢٦.

ثانياً: حقن الدماء:

قال الإمام:«وقد رأيت أنّ حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا اصلاحكم وبقاءكم»[(١)].

وقال أيضاً: «إنّ معاوية نازعني حقاً هو لي فتركته لصلاح الأُمّة وحقن دماءها... ورأيت انّ حقن الدماء خير من سفكها، وأردت صلاحكم وأن يكون ما صنعت حجّة على من كان يتمنّى هذا الأمر»[(٢)].

وقد كانت شروط الصلح مصداقاً من مصاديق المصلحة الإسلامية العليا، حيث جاء فيها: «إنّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم، وعلى أنّ أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم»[(٣)].

والصلح مقدّمة للحفاظ على الصفوة الخيرة من المصلحين والمغيّرين وعلى الحفاظ على حياة الداعين إلى الدين والرسالة، وهذا هو الظاهر من كلام الإمام حيث يقول: «إنّي خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناعي»[(٤)].

وقال لحجر بن عدي:«ليس كل الناس يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كرأيك، وما فعلت إلا ابقاءً عليك»[(٥)].

ومن يتابع الأحداث يجد أنّ اوضاع المسلمين الداخلية قد هدأت وأنّ

---

(١) كشف الغمة: ١٧٠.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ٤٣.

(٣) الفتوح ٤: ٢٩٣.

(٤) بحار الأنوار ١٠: ١٠١.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٥.

المسلمين قد كانوا أحراراً مدة عشرة سنين، وقد كان معاوية يستجيب لمطالب الإمام الحسن في العفو عن هذا الشخص أو ذاك، وهو الظاهر من الوقائع التاريخية، ومن هذه الوقائع أنّ سعيد بن سرح استجار بالإمام الحسن من زياد فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم وأخذ ماله ونقض داره، فكتب الإمام إلى زياد كتاباً جاء فيه: «فإن أتاك كتابي هذا فابني له داره واردد عليه عياله وماله وشفّعني فيه فقد أجرته».

إلا أنّ زياداً لم يستجب للإمام وكتب إليه كتاباً أساء فيه إلى الإمام، فلمّا وصل الكتاب إليه بعثه إلى معاوية، فكتب معاوية إلى زياد كتاباً جاء فيه: «إذا ورد عليك كتابي فخلّ ما في يديك لسعيد بن أبي سرح، وابني له داره، واردد عليه ماله، ولا تعرض له، فقد كتبت إلى الحسن أن يخيّره إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان»[1].

وقد استثمر الإمام الصلح ليعارض معاوية سلمياً بكشف حقيقته أمام المسلمين، ومن ذلك خطابه لمعاوية أمام جمهور من المسلمين: «ويلك يا معاوية، إنّما الخليفة من سار بسيرة رسول اللهصلى الله عليه وآله، وعمل بطاعة الله، ولعمري إنّا لأعلام الهدى ومنار التقى، ولكنّك ـ يا معاوية ـ ممّن أبار السنن وأحيا البدع، واتّخذ عباد الله خولاً ودين الله لعباً، فكان قد أخمل ما أنت فيه، فعشت يسيراً وبقيت عليك تبعاته»[2].

ولم يتجرأ معاوية على قتل أحد من شيعة الإمام إلا بعد رحيل الإمام إلى

---

(١) المصدر السابق ١٦: ١٩٥.

(٢) الاحتجاج ٢: ٨ أحمد بن علي الطبرسي، انتشارات اُسوة، قم، ١٤١٣هـ.

الملأ الأعلى، أما في حياته فلم يتجرأ على سجن أو قتل أحد من المعارضين وخصوصاً شيعة الإمام، ولهذا قال عبدالله بن عباس: «أول ذلّ دخل على العرب موت الحسن»[١].

وفي رواية أخرى: «والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب ذلك يسعني، فكيف أن اقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم؟!»[٢].

وفي جميع الأحوال والظروف فإنّ الصلح قد تم على شروط وضعت على أساس خدمة الإسلام وأهدافه العليا الآنية والبعيدة، وخصوصاً إذا تحولت إلى واقع ملموس وطبقت من قبل الحاكم وأجهزته، وتم الوفاء بها.

ومن شروط الإمام الحسن عليه السلام:

١- أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢- ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهداً.

٣- الناس آمنون حيث كانوا في العراق والشام والحجاز وتهامة.

٤- أمان شيعة وأصحاب علي على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.

٥- أن لا يبغي للحسن ولا لأحد من أهل بيته غائلة سرّاً وعلانية، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

٦- أن تكون الخلافة للإمام الحسن من بعده.

٧- أن لا يسمّيه أمير المؤمنين.

٨- أن لا يقيم عنده شهادة.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧: ٤٦.

(٢) العقد الفريد ١: ١٨١، أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٩- أن يضمن نفقة أولاد الشهداء من أصحاب الإمام علي.

١٠- ترك سبّ الإمام علي والعدول عن القنوت عليه في الصلاة.

١١- أن لا يتعرض لشيعته بسوء، ويوصل إلى كل ذي حقّ حقّه[١].

وقد وعد معاوية الإمام بوعود، نذكر منها:

١- لك الأمر من بعدي.

٢- لك ألا نستولي عليك بالاساءة.

٣- لا نقضي دونك الأمور.

٤- لا نعصيك في أمر اردت به طاعة الله[٢].

مكتسبات الصلح والمصلحة المتحقّقة:

إنّ قرار الصلح أو ما يسميه البعض الهدنة كان قراراً صائباً وفيه جمع من المكاسب، فلو لم تكن مكاسب لكان معاوية هو الغالب.

والراي الصائب أن معاوية وفى بأغلب الشروط في حياة الإمام عليه السلام وإن صرّح بعدم الوفاء بها، إلا أنّ خوفه من قوة الإمام منعه من عدم الوفاء.

ومن مكاسب الصلح الأساسية:

١- انكشاف حقيقة معاوية:

عن سعيد بن سويد، قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة ـ يعني خارج الكوفة ـ الجمعة في الضحى ثم خطبنا فقال: « ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، قد عرفت إنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر

(١) الفتوح ٤: ٢٩٣، أنساب الأشراف ٣: ٤٢، أُسد الغابة ١ :٤٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٣٦.

عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون، إلا واني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها»(١).

فقد خرج معاوية على امام زمانه أو الخليفة المنتخب من قبل أهل الحل والعقد، وهو الإمام عليعليه السلام، تحت ذريعة الطلب بدم الخليفة عثمان، ثم خرج على إمام زمانه الإمام الحسنعليه السلام، وقد انكشفت حقيقته أمام المسلمين وأمام الأمويين ومنهم بنت عثمان.

فحين تولى معاوية خلافة المسلمين عام ٤١ هـ وقدم المدينة المنورة وتوجه إلى دار عثمان بن عفان ومعه رجال من قريش، فلمّا دنا من الدار ندبت عائشة أباها وبكت وقالت: واأبتاه واعثماناه.. ودخل معاوية مسكن عائشة بنت عثمان ثم أمرها أن تكف عن البكاء وعن مناداة أبيها وقال لها: «يابنت أخي، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان وموضع أصحابه وأنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني أبنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين، ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك»(٢).

(١) البداية والنهاية ٨: ١٤٠.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٦٧.

٢- تبيان دور أهل البيت عليهم السلام وموقعهم القيادي في الأُمّة بكامل الحرية أمام مرأى ومسمع معاوية:

خطب الإمام عليه السلام في اجتماع حضره معاوية والامويين بين فيه دور أهل البيت عليهم السلام القيادي في الأُمّة ووجوب طاعتهم فقال: « نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله... فإنّ طاعتنا مفروضة، اذ كانت بطاعة الله والرسول واولي الأمر مقرونة...»[(١)].

وبيّن أحقّيته بالخلافة ودوره بحقن الدماء: «أيها الناس، إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإن هذا الأمر الذي إختلفت فيه أنا ومعاوية ما هو حق لامرئ كان أحقّ به منّي، بل حق لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم، بل وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»[(٢)].

٣- اضطرار معاوية لمنح الحرية للإمام الحسن عليه السلام وأتباعه:

لم يستطع معاوية منع الإمام الحسن واصحابه من انتقادهم له وللأمويين، فكان لهم مطلق الحرية في المعارضة وكشف الحقائق، وكان معاوية مضطراً لقبول الأمر الواقع خوفاً من الإمام عليه السلام.

فبعد الصلح دخل معاوية المدينة فذكر علياً عليه السلام فنال منه ونال من الحسن! فقام الإمام الحسن عليه السلام فقال: «أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي، وأنت

---

(١) مروج الذهب ٢: ٤٣١.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ١٦٣.

معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدّي رسول الله وجدك حرب، وجدّتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً والأمنا حسباً وشرّنا قديماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً»(١).

وفي مجلس معاوية انتقص جمع من أتباعه الإمام علي عليه السلام، فرد عليهم الإمام الحسن عليه السلام واحداً واحداً، ومما قاله في ذلك: «أمّا بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني، ولكنّك شتمتني، فحشاً ألفته، وسوء رأي عرفت به، وخُلقاً سيئاً ثبتّ عليه، وبغياً علينا عداوة لمحمد وآله، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا، فلأقولنّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم.

أُنشدكم الله، هل تعلمون أنّه أول الناس إيماناً، وأنّك يا معاوية وأباك من المؤلّفة قلوبهم، تسرّون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتستمالون بالأموال؟

وإنّه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، وإنّ راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أُحد ويوم الأحزاب، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفي كلّ ذلك يفتح الله له، ويفلج حجّته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلّها عنه راض، وعليك وعلى أبيك ساخط».

ثم قال: «وجاء أبوك على جمل أحمر يوم الأحزاب يحرّض الناس وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلعن الراكب والقائد والسائق»، فقال معاوية: «قد أنبأتكم أنّه ممّن لا تطاق عارضته، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتموني، والله ما قام حتى أظلم عليَّ البيت قوموا عنّي، فلقد فضحكم الله، وأخزاكم بترككم الحزم، وعدولكم عن رأي الناصح المشفق»(٢).

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٧٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦:٢٨٨ ـ ٢٩٤.

ومن صور المعارضة العلنية لمعاوية وهو لايستطيع ايقافها أو منعها ما ورد من أنّ جارية بن قدامة والحباب بن يزيد المجاشعي قدما على معاوية، فقال معاوية لجارية: «يا جارية، أنت الساعي مع علِي بن أبي طالب، والموقد النار فِي شعلك، تجوس قرى عربية، تسفك دماءهم».

قال جارية: «يا معاوية، دع عنك عليّاً، فما أبغضنا عليّاً مذ أحببناه، ولا غششناه مذ نصحناه»، قال: «ويحك يا جارية، ما كان أهونك عَلَى أهلك إذ سموك جارية»، قال: «أنت ـ يا معاوية ـ كنت أهون عَلَى أهلك إذ سموك معاوية... إنّ قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين فِي أيدينا». قال: «إنك لتهددني». قال: «إنّك لم تملكنا قسرة، ولم تفتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق، فإن وفيت لنا، وفينا لك، وان نزعت إِلى غير ذلك، فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً، وأذرعاً شداداً، وأسنة حداداً، فإن بسطت إلينا فتراً من غدر دلفنا إليك بباع من ختر»(١).

٤- عدم الاعتراف بشرعية معاوية وشرعية أوامره:

من الثوابت التاريخية أن الإمام الحسن عليه السلام لم يخاطب معاوية بامرة المؤمنين؛ لعدم الاعتراف بشرعيته كخليفة، وعدم شرعية اوامره تبعاً لذلك.

فقد رفض الإمام الاستجابة لطلب معاوية في قتال الخوارج موضحاً سياسته في التعامل مع الوجودات الإسلامية المخالفة له، ومبيّناً المصلحة وراء صلحه، ومما قاله: «لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإنّي تركتك لصلاح الأُمّة وحقن دمائها»(٢).

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٤٥.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٩.

٥- استجابة معاوية لمطالب الإمامعليه السلام:

طلب زياد والي معاوية على العراق رجلاً من أصحاب الإمام الحسنعليه السلام، ممن كان في كتاب الامان، فكتب إليه الإمام الحسن: «من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد: فقد علمت ما كنا أخذنا من الامان لاصحابنا، وقد ذكر لي فلان أنك تعرضت له، فأحب ألا تتعرض له، إلا بخير».

فلما أتاه الكتاب، وذلك بعد ادعاء معاوية إياه، غضب حيث لم ينسبه إلى أبي سفيان، فكتب إليه: «من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد: فإنّه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وأيم الله لأطلبنه بين جلدك ولحمك، وإن أحب الناس إلى لحماً أن آكله للحم أنت منه، والسلام».

فلما قرأ الحسنعليه السلام الكتاب، بعث به إلى معاوية، فلما قرأه غضب وكتب: «من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد: أما بعد: فإن لك رأيين رأياً من أبي سفيان ورأياً من سمية، فأما رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما رأيك من سمية فما يكون من مثلها؟! إن الحسن بن على كتب إلي بأنك عرضت لصاحبه، فلا تعرض له، فإني لم أجعل عليه سبيلاً، وإن الحسن ليس ممن يرمى به الرجوان»[1].

٦- استثمار الظروف لتوعية وتثقيف وتربية الأُمّة والقاعدة الموالية:

استثمر الإمام الحسنعليه السلام الظروف لتثقيف وتربية وتوعية الأُمّة وتوجيه عقولها وقلوبها نحو الإسلام الحقيقي كما جاء به رسول اللهصلى الله عليه وآله وربطها بمن يمثله وهو منهج أهل البيتعليهم السلام، وقد بذل جهداً واضحاً لحماية العقيدة من

---

(١) العقد الفريد ٥: ٢٧٣.

محاولات التزييف والتحريف،وقام باعداد عناصر واعية تقوم بعملية الدعوة والإرشاد في المجتمع الإسلامي الكبير، وكانت أحاديثه وخطبه ودروسه تستهدف الى اصلاح الأُمّة فكرياً وسلوكياً.

شهادة الإمام الحسن عليه السلام:

بقي معاوية يتوجس خيفة من حركات الإمام الحسن عليه السلام وتوسع قاعدته الشعبية واطلاع الأُمّة على فضائل أهل البيت عليهم السلام ومقامهم القيادي المنصوص عليه وعلى تاريخ معاوية والامويين،فكان وجود الإمام يقلقه ويساهم في عرقلة مشاريعه ومنها بيعة يزيد بولاية عهد الحكومة، ولذا قرر التخلص منه، فنسّق مع زوجة الإمام الحسن عليه السلام جعدة بنت الأشعث لدس السم اليه، فقامت بسم الإمام، كما ورد في الكثير من المصادر[(١)].

وحينما وصل الخبر الى معاوية كبّر و كبر معه من في القصر، يقال فخرجت فاختة بنت قرظة زوجة معاوية الى باحة القصر تسأله عن سبب التكبير وسبب سروره، فقال: «بلغني موت الحسن بن علي»! فقالت: «إنا لله وانا إليه راجعون! أعلى موت ابن فاطمة تكبر»! فقال:«ماكبّرت شماتة بموته، ولكن استراح قلبي»[(٢)]. وفي رواية أخرى أضاف الراوي: «وصفت لي الخلافة»[(٣)]. وأوصى الإمام عليه السلام أن لا تراق محجمة دم من أجله.

واستشهد في أواخر صفر سنة ٤٩ أو ٥٠ هجرية، وفي رواية أخرى: استشهد في ٧ صفر، ودفن في البقيع.

---

(١) الاستيعاب ١: ٣٧٥، مقاتل الطالبيين: ٨٠ تذكرة الخواص: ١٩٣.

(٢) وفيات الأعيان ٢: ٦٦.

(٣) ربيع الأبرار ٤ :٢٠٩.

مصادر البحث:

١- الاحتجاج، الطبرسي، قم.
٢- أنساب الأشراف، البلاذري، بيروت.
٣- بحار الأنوار، المجلسي، بيروت.
٤- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، بيروت.
٥- تاريخ الطبري، محمّد بن جرير، بيروت.
٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، بيروت.
٧- العقد الفريد، ابن عبدربّه، بيروت.
٨- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق، قم.
٩- الفتوح، ابن أعثم الكوفي، بيروت.
١٠- الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، بيروت.
١١- كشف الغمة، الإربلي، قم.
١٢- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، بيروت.
١٣- مروج الذهب، المسعودي، بيروت.
١٤- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الإصفهاني، قم.

الحسن السبط عليه السلام

نبيل الحلباوي (*)

أيّ طين أنت يا ثوب الضياء
يا عناقاً بين أرض وسماء
طاف بالصحراء فالدهر بها
أفق ريّان من ظلّ وماء
ويضوع العطر أنساماً بها
تُلهم الطير بلحن وغناء
وعلى كلّ مطاف ملك
بين تسبيح وذكر ودعاء
هو عرس الكون أنساً بهمُ
فهو لولاهم خواء وهباء
خمسة الأنوار من صارت على
أرضنا خمسة أصحاب الكساء
أنتُم الأسماءُ بالعلم بها

(*) باحث إسلامي ـ سورية.

آدم صـــــارَ أبـــــاً للأنبيـــــاءْ
كلمـــــاتٌ قـــــد تلقّاهـــــا بهـــــا
أنعـــــم الله عليـــــه وأفـــــاءْ
وبهـــــا نـــــوحٌ دعـــــا الله فلـــــم
يلـــقَ فـــي الطوفـــان بأســـاً وعنـــاءً
ولإبـــــراهيم فـــــي النـــــار بهـــــا
كـــــانَ بـــــرد وســـــلام ووقـــــاءْ
هـــذه الأعـــداءُ قـــد كـــادتْ لكـــمْ
أقـــبحَ الكيـــدِ فـــأينَ الأوليـــاءْ
أجحـــــودٌ وكنـــــودٌ فـــــوق أنْ
تـــأنسَ الـــوحشُ وأنـــتمْ غربـــاءْ
وتـــذادون عـــن المـــاء جـــرى
ســلـــسبيلاً وتموتـــون ظمـــاءْ
أخّـــروكم عـــن محـــلّ لكـــم
ولـــهُ قـــدِّمَ حـــزْبُ الطلقـــاء
شـــجرةٌ ملعونـــةٌ مـــا فتئَـــتْ
تُنبـــتُ الحقْـــدَ علـــيكمْ والَعـــداء
وبنـــو أعمَـــامكمْ فـــي دَمكُـــمْ
أشـــفقوا ألا يكونـــوا الـــشركاءْ

غيـــر أنّ الحـــسنَ الـــسبط ابتلـــى
مـــن جحـــود النـــاس شـــرَّ الأنـــصباءْ
مـــا الـــذي قـــد نقمـــوا منـــكَ فمـــا
كـــانَ مـــنهم غيـــرُ غـــدرٍ وجَفـــاء
أإمامـــاً لكـــم مـــنْ دونـــهُ
تـــسمُح الأرضُ ببَـــذلٌ وعطَـــاءْ
وشـــبيهاً برســـول الله فـــي
خلـــق سَـــمْح وســـمْت ورُواءْ
وابـــن أمّ لأبيهـــا بَـــضعة
منـــهُ زوْج المرتـــضى خيْـــر النـــساءْ
وابـــن مَـــن آخـــاهُ مـــن دون الـــورى
ســـيّدُ الرســـل، فيـــا نعـــمَ الإخـــاءْ
أإمـــامَ الخَلْـــق مَـــنْ صـــوّرَهُ
قـــد غـــدا يَـــشْغله أمـــرُ النـــساء
زعمـــوهُ الـــسيّد المطـــلاقَ مـــنْ
طلَّـــق الـــدنيا وأعطـــى بـــسخاءْ
قاسَـــمَ الله مـــراراً مالـــهُ
ولـــه بـــالله عـــن مـــال غنـــاءْ
حامـــلَ الـــسيف الإلهـــيِّ علـــى

كلّ باغ في ميادين اللقاءْ
ما الذي أغمدَهُ حتّى غدا
قلقاً يهفوا لسَلِّ ومضاءْ
إنّهُ الخذلانُ ممّن حوله
لم يجِدْ فيهمْ وفاءً وولاءْ
سئموا دربَ جهادٍ ودمٍ
وأرادوها نعيماً ورَخاء
لقمةٌ آجِنةٌ غصّوا بها
ويَذلّون بها يومَ الجزاءْ
تركوهُ وحدهُ في ساحة
عَصَفتْ فيها سيوفٌ ودماءً
وأردوا قتلهُ، سَلْ طعنة
رمزَ غدر وجُحود واجتراءْ
بل رمَوا أَن يُسْلموهُ ومضَوا
يُبْرمونَ الأمر جهراً وخفاءْ
وإذا أعداؤه في مكرهمْ
مُكروا بل حَصّدوا شوكَ الغباءْ
حسبوا الصلح لهم خير وقاء
فرماهمْ منه بالداء العَياء

أحكـــم الطـــوق علـــيهمْ فغـــدوا
منـــهُ فـــي ضـــيق وعُـــسْرٌ وبـــلاءْ
مزّقـــوا عهـــداً وصُـــلحاً وغـــدا
كـــذبهمُ عُريـــانَ مـــنْ غيـــر رداءْ
يـــا إمامـــاً مُهّـــدَ الـــدرب بـــه
لإمـــامٍ ثـــائر فـــي كـــربلاءِ
وســـيغدو يومُهـــا طـــولَ المـــدى
يَمْحَـــقُ الظلـــم ويُحيـــي الـــضعفاءْ
هـــذه الثـــورة مـــنْ أنفاســـكُمْ
فـــي زمـــان الجَـــدْبِ خـــصْبٌ ونمـــاءْ
هـــي فـــي إيـــرانَ عِطـــرٌ وســـنىً
ولأهـــل الحـــقّ حلَـــم ورجـــاء
قادهـــا مـــن نـــسلكمْ خيـــر امـــرئ
عـــارف الفقـــه فقيـــه العرفـــاء
زلزلـــتْ عرشـــاً وصـــاغتْ أمّـــة
رفعـــتْ للـــدين نهجـــاً ولـــواء
إنّـــه الإســـلام قـــد عـــاد كمـــا
شـــاءه الله بـــرغم الأدعيـــاء
يفـــضح الكفـــر ومَـــن أمّـــرهم

واحتـــواهم مـــن صـــنوف العمـــلاء
هـــي فـــي لبنـــان مـــدّ ظـــافر
يقهـــر البـــاغين فـــالبغي هـــواء
وفلـــسطين غـــدتْ فـــي وهجهـــا
تـــصنع النـــصر بأجيـــال الفـــداء
لـــم يمـــت فينـــا الخمينـــيّ فـــذا
نـــورهُ للـــنهج والخـــط أضـــاء
وعلـــى الركـــب ولـــيّ ســـيّد
هـــو رمـــز الـــصدق عنـــوان الوفـــاء
فاشـــمخي يـــا ثـــورة الحـــقّ اشـــمخي
لـــم يعـــدْ يُخـــذل فينـــا الأوليـــاء
ســـيّدي المهـــديّ عجّـــل إنّنـــا
لـــك أعـــوان وجنـــد أوفيـــاء

الفهرس

مقدمة المجمع ٩
الإمام الحسنعليه السلام(من كتاب آية الله العظمى السيّد علي الخامنئي(دام ظلّه): إنسان بعمر ٢٥٠ سنة).. ١١
ضرورة الهدنة والصلح ١٤
الغاية من الصلح ١٦
الثمار العظيمة للصلح ١٩
الاعتراض على الصلح ٢١
الصلح وتبديل مجرى الخلافة ٢٤
صراع الحق والباطل ٢٥
خصائص تيار الحق والباطل ٢٦
أساليب تيار الحق والباطل في العمل ٢٨
أسباب هزيمة تيار الحق ٣٩
خلافة الإمام الحسن عليه السلام وظروفها ٤١
توطئة ٤١
لماذا كان معاوية أقدر على الاستمرار بخطّه؟ ٤٢
طبيعة الموقفين وصراع الأطروحتين ٤٣
النقطة الأولى: اختلاف الموقفين على مستوى الغزو والدفاع ٤٣
النقطة الثانية: عليٌّ عليه السلام يواجه إفرازات السقيفة ومعاوية يكرّس جاهليّة الشام ٤٦
النقطة الثالثة: ارتباط عليٍّ عليه السلام بمُعطى السقيفة، وإسلام الشام بمعاوية ٤٩
النقطة الرابعة: الاختلاف بين الدعويين على مستوى الوعي والحسّ ٥٠
سريان الشكّ وتعمّقه في مجتمع الإمام عليّ عليه السلام ٥٤
إطلالة على مرحلة الإمام الحسن عليه السلام ٥٧
الإمام الحسن عليه السلام أمام موقفين ٥٩
ضرورة الانحسار المؤقّت لخطّ الإمام علي عليه السلام ٦٠
بذرة الشكّ ٦٤

اقتناع الأُمّة شرط النجاح ٦٤
تحوّل الشكّ بعد عهد الإمام عليّ عليه السلام ٦٥
عوامل تنامي الشكّ ٦٨
ظروف بيعة الإمام الحسن عليه السلام ٧٣
لماذا قَبِل الإمام الحسن عليه السلام أن يبايع؟ ٧٤
خروج معاوية لقتال الإمام عليه السلام ٧٦
الإمام عليه السلام يستنفر المسلمين للجهاد ٧٦
الخيانات والتراجعات في جيش الإمام عليه السلام ٧٧
رُسُل معاوية إلى الإمام عليه السلام ٧٩
ضرورة انحسار الإمام عن المعركة ٨٠
طريقان بين يدي الإمام الحسن عليه السلام ٨٢
الاعتبارات المتمثّلة في الإمام الحسن عليه السلام ٨٢
هل قدّر على كلّ نظريّة صالحة أن تفقد قواعدها الشعبيّة بعد التطبيق؟ ٨٥
لماذا لم يختر الإمام الحسن عليه السلام طريق الجهاد؟ ٨٨
الفرق الأساسي بين موقفي الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ٨٩
كان هناك طريقان: ٩٦
وَمضات من عهد إمامة الحسن المجتبى عليه السلام ١٠٣
نصٌّ أمير المؤمنين على الحسن عليه السلام ١٠٣
بيعة الحسن عليه السلام ١٠٥
السابق واللاحق في مواجهة معاوية ١٠٧
شروط المصالحة ١٠٨
الإمام المجتبى عليه السلام في مجلس معاوية ١١٠
من مواقف الشيعة في الكوفة والمدينة ١١١
معاوية وعائشة والحسن عليه السلام وابن وقّاص ١١٤
من مضايقة معاوية على أهل الكوفة ١١٥
مصاهرة يزيد لعبدالله بن جعفر ١١٦

حياة الإمام الحسن عليه السلام ١٢١
الحسن وتسميته ١٢٢
لقب الحسن وصفاته ١٢٣
ولادة الحسن عليه السلام ١٢٣
الحسن مع النبي صلى الله عليه وآله ١٢٣
الحسن مع أبيه عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ١٢٥
خلوصيته في العبادة ١٢٦
جوده وسخاؤه ١٢٧
أولاد أبي محمّد الحسن عليه السلام ١٢٧
من علم أبي محمّد الحسن عليه السلام وكلامه ١٢٨
تولّي مسؤولية الخلافة ١٣٠
مؤامرة معاوية ١٣١
القتال بين الحسن ومعاوية ١٣٢
خيانة بعض أشياع الحسن عليه السلام ١٣٣
تقتراح الصلح من معاوية إلى الحسن ١٣٤
شروط الصلح ١٣٤
حقيقة الصلح ١٣٥
نتيجة الصلح ١٣٦
نقض معاوية الصلح ١٣٦
استشهاد الحسن عليه السلام ١٣٧
وصيته عند الوفاة ١٣٨
فتنة عند الدفن ١٣٨
الخاتمة ١٣٩
خصائص شخصية الإمام الحسن بن علي عليه السلام ١٤١
مقدّمة ١٤١
الأوّل : خصوصية الاسم.... والصفة.... والنشأة ١٤٣

المعلومات الأساسية عن الإمام الحسن عليه السلام ١٤٣
النساء اللائي حضرن الولادة ١٤٣
ختانه ١٤٤
رضاعه ١٤٤
صفة الإمام الحسن عليه السلام ١٤٤
خاصية الاسم ١٤٥
الحسنة.. الحسن... الحسين ١٤٥
كنيته ١٤٧
ألقابه ١٤٧
وفاته ١٤٨
الثاني: القرآن وأهل البيت عليهم السلام ١٤٨
الإمام الحسن عليه السلام وخاصية فهم القرآن عنده ١٤٨
حوار الإمام الحسن عليه السلام مع يزيد بن معاوية ١٥٠
آيات تخصّ الإمام الحسن عليه السلام ١٥٠
الثالث: شخصيته العلمية ١٥٢
من أقواله عليه السلام ١٥٥
الرابع: أخلاقه و جوده ١٥٦
الخامس: إمامته وخلافته ١٥٩
الحاجة إلى الإمامة ١٥٩
لماذا الصلح مع معاوية؟ ١٦٠
خاتمة: في اللطائف والرقائق ١٦١
المراجع والمصادر ١٦٣
خصائص الإمام الحسن عليه السلام ١٦٥
توطئة البحث ١٦٥
الخصيصة الأولى: نبوغه العلمي المبكّر ١٦٧
١ ـ الحسن عليه السلام وأخبار الوحي ١٦٧

٢ ـ الحسن عليه السلام يجيب عمّا أشكل على أبي بكر........................ ١٦٨
٣ ـ أنس بن مالك يشيد بعبقرية الحسن عليه السلام........................ ١٦٩
الخصيصة الثانية: النبي صلى الله عليه وآله يصدح بسيادة الحسن عليه السلام........................ ١٧١
معنى السيادة في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله........................ ١٧٣
الخصيصة الثالثة: احتجاجاته البلاغية المؤثّرة........................ ١٧٧
أولاً: إيفاد الإمام الحسن عليه السلام........................ ١٧٨
ثانياً: خطاب الإمام الحسن عليه السلام في فتنة التحكيم........................ ١٧٩
ثالثاً: خطبة الحسن عليه السلام عند تولّيه الخلافة........................ ١٨٢
تنبيهان........................ ١٨٤
التنبيه الأوّل: الخطبة الحسنية الدليل الأتمّ........................ ١٨٤
التنبيه الثاني: الخطبة الحسنية في خناق الرقابة........................ ١٨٥
سَنة من الزمان يبحث عن الخطبة الحسنية........................ ١٨٥
الخصيصة الرابعة: المنظومة الأخلاقية........................ ١٨٩
١ ـ كرم العطاء........................ ١٩٢
٢ ـ كرم الحلم........................ ١٩٤
٣ ـ خُلق الزهد........................ ١٩٦
مصادر البحث........................ ١٩٧
الأوضاع الدينية والثقافية و... في عصر الإمام الحسن عليه السلام........................ ٢٠٣
انتقال التشيّع من السلطة إلى المعارضة........................ ٢١٠
إتجاه الإسلام القبلي يتوسّع وينتشر ويتحوّل إلى الإسلام الرسمي للدولة ويكتسب
عناصر القوّة بعد عصر الرسالة وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله........................ ٢١١
العنصر الأوّل من عناصر القوّة: السلطة........................ ٢١١
حروب الردّة!........................ ٢١٥
الفتوحات........................ ٢٢١
تحريم رواية السُنّة........................ ٢٣١
نشوء العثمانيّة وتبنّيها لمذهب السلطة وسياساتها........................ ٢٣٢

الدور الأموي في توليد مذهب أهل السُنّة من العثمانيّة ٢٣٣
الأحداث والأطوار التي تركت أثرها في عصر الإمام الحسن عليه السلام ٢٥٥
الاستفادة من النظام الاجتماعي القائم بمعاوية؛ لأنّه يمتلك المال والسلطة............ ٢٦٤
موازين القوى بين الشام والعراق............................ ٢٦٦
القبائل العربيّة في الشام.. قوّة الجيش الأموي............................ ٢٦٦
دور قبائل العرب في بلاد الشام في انتصار العرب الفاتحين............................ ٢٧٠
قبائل بلاد الشام في عند معاوية بن أبي سفيان ٢٧٢
ثانياً: طبيعة المعسكرين في صفّين............................ ٢٨١
أسباب التقاعس في جيش الكوفة ٢٨٧
حياة الإمام الحسن عليه السلام............................ ٢٨٩
وما جرى فيها من وقائع وأحداث............................ ٢٨٩
المقدّمة ٢٩٠
مراحل حياة الإمام الحسن عليه السلام............................ ٢٩١
أخلاقه ٢٩٤
عبادته ٢٩٦
تواضعه وزهده ٢٩٧
حياته الاجتماعية ٢٩٨
مواقفه في عهد الخلفاء الثلاثة ٢٩٩
دوره في حياة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام............................ ٣٠٠
حياته العلمية ٣٠١
خلافته ٣٠٢
صلحه مع معاوية............................ ٣٠٤
وفاته ٣٠٩
الخاتمة ٣١١
فهرس المصادر والمراجع ٣١٣
البعد الإستراتيجي لصلح الإمام الحسن عليه السلام............................ ٣١٥

المقدّمة.. ٣١٥
اسمه ونسبه وكنيته ومولده عليه السلام.. ٣١٧
مكانة الحسن عليه السلام عند جدّه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله.................................. ٣١٨
اختلال موازين القوّة و شرعية الصلح ٣١٩
شروط الصلح ٣٣٠
الظروف السياسية والاجتماعية السائدة إبّان إبرام الصلح ٣٣٢
ما قالوه عن سبط الرسول الأكرم الحسن بن علي عليه السلام ٣٣٦
بلاغة و دراية الحسن عليه السلام ٣٣٨
الخاتمة ٣٤٧
من أقواله وحكمه.. ٣٤٨
الإمام الحسن عليه السلام ظلمه أعداؤه، وظلمه التاريخ والمؤرّخون ٣٥١
ولادته.. ٣٥١
نشأته... ٣٥٢
خصائص الإمام الحسن عليه السلام ٣٥٢
حبّ النبي صلى الله عليه وآله له عليه السلام ٣٥٢
رويات كثيرة تواترت عن الحب الذي كان يكنّه النبي صلى الله عليه وآله لولده الحسن عليه السلام ٣٥٣
فضائل الإمام الحسن عليه السلام.. ٣٥٤
أوّلاً: من القرآن الكريم.. ٣٥٥
ثانياً: من السنة النبوية الشريفة ٣٦٠
عبادة الإمام الحسن عليه السلام... ٣٦٦
كرم الإمام الحسن عليه السلام ٣٦٧
بلاغة وفصاحة الإمام الحسن عليه السلام.. ٣٦٨
شجاعة الإمام الحسن عليه السلام ٣٧٠
دور الإمام الحسن عليه السلام في النظام السياسي للإمام علي عليه السلام ٣٧٢
تهيئة الإمام علي عليه السلام لإمامة ابنه الحسن عليه السلام.. ٣٧٣
دور الحسن عليه السلام في عهد حكم معاوية في حفظ ونشر علوم اهل البيت عليهم السلام ٣٧٦

زوجات وأولاد الإمام الحسن عليه السلام........................ ٣٧٩
أصحاب الإمام الحسن عليه السلام:........................ ٣٨١
شهادته عليه السلام........................ ٣٨٢
الخلاصة........................ ٣٨٢
المصادر:........................ ٣٨٤
المناظرة الكبرى في العصر الأموي........................ ٣٨٧
المقدّمة........................ ٣٨٧
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ........................ ٣٨٨
باحتدامِ الجدالَ تَتَبيّن مصداقيةُ الرجال........................ ٣٨٩
اَلجدالَ بلا طائل يَقتادُنا إلى الباطل........................ ٣٩٠
انتُهَكت حُرمتُك يَا مَن أفرطت في الجدال........................ ٣٩٠
أهدَاف الدعاة إلى المناظرة والجدل........................ ٣٩١
مُداولات لم تُسفر عن نتيجة حَكيمة........................ ٣٩٢
«خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ من فَوْقهمْ»........................ ٣٩٣
ليس من أخلاق الفروسية التَهرّب من المسؤولية........................ ٣٩٥
مَن كان ضحية الإعلام فاقرأ عليه السلام........................ ٣٩٧
القائد الرخيص من كانت أخلاقه رخيصة........................ ٣٩٨
سُمِّيت عتاباً ولستَ بمعتب........................ ٣٩٩
تتكاثر الأنعام كلّما نَافق الإعلام........................ ٤٠٠
برأت الذمة ممّن يتعمّد اتهام الأبرياء........................ ٤٠١
العلمُ والأدب ينطقان على لسان الإمام........................ ٤٠٢
أنشدكم بالله أتعلمون!........................ ٤٠٥
ثم أنشدكم بالله! هل تعلمون........................ ٤٠٦
لا تُحلّق الفضائلُ في الأجواء إلا مدّ اللهُ جناحيها بالقَوادم........................ ٤٠٩
وأما أنَت يا عمرو بن عثمان........................ ٤١٠
وأما أنتَ يا عَمرو بن العاص........................ ٤١٢

إذا أعوزَ الدليل فأكثر من السّب والشتم ما استطعت ٤١٤
وأما أنت يا وليد بن عقبة ٤١٥
وأما أنتَ يا عُتبة بن أبي سفيان ٤١٧
وأمّا أنت يا مغيرة بن شعبة........................ ٤١٩
التهمِّ الفارغة شعارات الفارغين ٤٢٠
فوالله ما قامَ حتّى أظلم عليٍّ البيت........................ ٤٢٠
افتضاح الملفّ الأخير ٤٢٣
تتغنّى به الإماء والعبيد ٤٢٤
تعليقة رائعة ٤٢٥
ختامه من تسنيم........................ ٤٢٦
مصادر ومراجع البحث........................ ٤٢٨
صلح الإمام الحسن عليه السلام (قراءة جديدة)........................ ٤٣١
المقدّمة........................ ٤٣١
صلح الإمام الحسن عليه السلام قراءة جديدة في ضوء كلام الإمام الحسن عليه السلام ٤٣٥
خلفية الصلحين ٤٣٦
مفردات خلفية صلح النبي صلى الله عليه وآله مع قريش ٤٣٧
١ـ انقلاب قريش بعد عبد المطلب وتحريفهم دين إبراهيم ٤٣٧
٢ ـ هدف البعثة النبوية لتحرير دين إبراهيم عليه السلام من بدع قريش ٤٤٠
٣ ـ حروب قريش مع النبي صلى الله عليه وآله وإعلامها الكاذب........................ ٤٤٠
٤ ـ قريش تعمل على تحصين القبائل من التأثّر بمحمّد صلى الله عليه وآله ٤٤٣
٥ ـ صلح الحديبية والفتح المؤقّت بظهور كذب قريش ٤٤٤
قريش المشركة وحلفاؤها ينقضون عهدهم مع النبي صلى الله عليه وآله ٤٤٦
فتح مكّة لمشروع النبي صلى الله عليه وآله الى الأبد........................ ٤٤٧
هدم بدعة قريش في الحجّ وإعلان إمامة أهل بيته وأوّلهم علي عليه السلام في الغدير...... ٤٤٧
تركيبة المجتمع الإسلامي في السنة العاشرة من الهجرة ٤٤٩
خلفية صلح الحسن عليه السلام مع معاوية........................ ٤٤٩

١ـ انقلاب قريش المسلمة ٤٤٩
حالة المسلمين الفكرية والدينية والسياسية زمن خلافة عثمان سنة ٢٦ هجرية ٤٥١
٢ ـ هدف نهضة علي عليه السلام إعادة التنزيه إلى التوحيد وسيرة الأنبياء ٤٥٤
وقوف قريش بقيادة معاوية أمام نهضة علي عليه السلام ٤٥٨
موقف علي عليه السلام من خطّة قريش ٤٥٩
٣ ـ حروب قريش مع علي عليه السلام وإعلامها الكاذب ٤٦١
٤ ـ معاوية يحصّن أهل الشام من التأثّر بعلي عليه السلام بالحرب والإعلام الكاذب ٤٦٢
كيانان فكريان وسياسيان في الأُمّة الإسلامية سنة ٣٩ هجرية ٤٦٣
شهادة علي عليه السلام، وبيعة أهل العراق الحسن عليه السلام، وبيعة أهل الشام معاوية ٤٦٤
معاوية يبادر بطلب الصلح مع الحسن عليه السلام وأهدافه منه ٤٦٥
المفاجأة الكبرى في جواب الحسن عليه السلام على مبادرة معاوية ٤٦٦
خصائص أطروحة الصلح المطلوبة ٤٦٨
العمق الاستراتيجي للحسن عليه السلام والتفكير المحدود لمعاوية ٤٧٢
٥ـ الفتح المبين بظهور باطل معاوية وكذبه، وظهور حق علي عليه السلام ٤٨٣
شهادة الناس الحسن عليه السلام في سيرته الشخصية إماماً أيضاً على سمت أبيه ٤٨٥
انتشار سنّة النبي صلى الله عليه وآله لدى أهل البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً ٤٨٦
أضواء على سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ٤٨٩
في عهد الدولة العلوية ٤٨٩
١ ـ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام والبيعة التاريخية المميّزة لأمير المؤمنين عليه السلام ٤٩٠
٢ ـ استنجاد الإمام علي عليه السلام بالكوفة لدرء فتنة الناكثين ٤٩٥
٣ ـ إيفاد الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة لدرء الفتنة ٤٩٧
٤ ـ التقاء الفريقين في البصرة وخطاب الإمام الحسن عليه السلام ٥٠١
٥ ـ الإمام علي مع ابنه الحسن عليهما السلام في الكوفة بعد حرب الجمل ٥٠٢
٦ ـ خطاب الإمام الحسن عليه السلام وبلاغته وقوّة حجّته ٥٠٢
٧ ـ تهيّؤ الإمام علي عليه السلام لمواجهة معاوية ومناجزته ٥٠٣
٨ ـ حضور الإمام الحسن عليه السلام المتميّز في معركة صفّين ٥٠٥

٩ ـ حرص الإمام علي عليه السلام على حياة الإمام الحسن عليه السلام: «املكوا عنّي هذا الغلام»:..٥٠٦
١٠ ـ الإمام الحسن عليه السلام وقصّة التحكيم ٥٠٧
١١ ـ وصية الإمام أمير المؤمنين التاريخية إلى ابنه الحسن عليهما السلام........................ ٥٠٩
١٢ ـ النهروان ومؤامرة قتل أمير المؤمنين عليه السلام ٥١٥
١٣ ـ الإمام الحسن عليه السلام في ليلة استشهاد أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام........................ ٥١٦
١٤ ـ الإمام الحسن عليه السلام بجوار والده عليه السلام الجريح ٥١٨
١٥ ـ آخر وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ٥٢٠
١٦ ـ الإمام علي عليه السلام ينصّ على خلافة ابنه الحسن عليه السلام ٥٢٢
١٧ ـ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ٥٢٣
١٨ ـ الإمام المجتبى عليه السلام يتولّى تجهيز الإمام عليّ عليه السلام ودفنه ٥٢٣
مسيرة الإمام الحسن عليه السلام الجهادية في دينامياتها وتحوّلاتها ٥٢٥
مع بداية المسيرة........................ ٥٢٩
في أوار الفتنة ٥٣٤
الصلح أفسح الطريقين ٥٣٦
وثيقة الصلح........................ ٥٣٨
الأستار الصفيقة لمعاوية بن أبي سفيان........................ ٥٤٠
أ- الوجه الخفي لأستار معاوية الصفيقة........................ ٥٤٣
الاستلاب المنظم........................ ٥٤٦
نهج الآيديولوجية الإسلامية للإمام الحسن عليه السلام........................ ٥٥١
الإمام الحسن عليه السلام في المدينة ٥٥٦
المراجع........................ ٥٦٦
الإمام الحسن عليه السلام وأجوبة السائلين ٥٧٣
سؤال الإمام الحسن عليه السلام عن المسافة بين المشرق والمغرب........................ ٥٧٤
صفات العلماء الجديرين بحمل الأمانة العلمية ٥٧٦
أهمية إقامة الحدود ٥٧٩
عرض الرواية ٥٨٠

ما يستفاد من الرواية أيضاً ٥٨٣
مصادر البحث ٥٨٣
درء الشُبهة فيما نُسب إلى الإمام الحسن عليه السلام من تُهمة ٥٨٥
مقدّمة ٥٨٥
المبحث الأوّل: أزمة التاريخ و إعادة صناعة المعنى ٥٨٦
المبحث الثاني: في حقيقة الشبهة ومدار التهمة ٥٩٠
شبهة مزواجه ومطلاقه ٥٩١
شبهة شحه وبخله ٥٩٤
شبهة طرد الحسن عليه السلام لأبي بكر من المنبر ٥٩٦
شبهة تشاجر الحسن و الحسين عليهما السلام وتدخل أبي هريرة ٥٩٨
خاتمة ٦٠٠
قائمة المراجع ٦٠١
مبادئ المعرفة الوجودية لسيرة وفكر الإمام الحسن عليه السلام ٦٠٣
مقدّمة ٦٠٣
المبحث الأوّل: الإمامة والولاية في القرآن الكريم ٦٠٦
ضرورة وجود الإمام ومعرفته ٦٠٧
حق الإمام ٦٠٨
من حقوق الإمام ٦٠٨
حق الصلاة عليه ٦٠٨
حق المودّة له ٦٠٩
حق المال له ٦٠٩
حق الفيء له ٦١٠
حق الولاية له ٦١١
حق الطاعة والأتباع ٦١١
المبحث الثاني: نشأة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ٦١٢
تاريخ وكيفية ولادته ٦١٢

سنن الولادة ورضاعه ٦١٣
وأما بالنسبة إلى رضاعه ٦١٣
كنيته وألقابه ونقش خاتمه ٦١٤
المبحث الثالث : مواقف الإمام عليه السلام وإنجازاته ٦١٥
أوّلاً: مراحل حياته عليه السلام ٦١٥
مكانته لدى معاصريه والعلماء والمؤرخين ٦١٨
الحسن عليه السلام لدى العلماء والمؤرخين ومعاصريه ٦١٩
عبادته عليه السلام ٦١٩
الصلح وأسبابه ونتائجه ٦٢٠
فيما تركه للناس ـ أي تراثه ـ باختصار ٦٢١
من أقواله عليه السلام في رحاب العلم والعقل ٦٢١
في رحاب القرآن الكريم ٦٢٢
في رحاب الأخلاق والتربية ٦٢٣
وفي رحاب أدعية الإمام المجتبى عليه السلام ٦٢٣
الخاتمة ٦٢٥
المصادر والمراجع ٦٢٧
مع الإمام الحسن عليه السلام في يوم شهادته ٦٣١
معنى المصلحة الإسلامية ٦٣٢
شبهة وجواب ٦٣٢
وهذه المصلحة تتحدّد على ضوء جملة من الأسباب والعوامل ٦٣٣
المصلحة الإسلامية من جرّاء صلح الإمام الحسن عليه السلام ٦٣٤
أوّلاً: وحدة الدولة والأمة ٦٣٦
ثانياً: حقن الدماء ٦٣٧
مكتسبات الصلح والمصلحة المتحقّقة ٦٤٠
١- انكشاف حقيقة معاوية ٦٤٠
٢- تبيان دور أهل البيت عليهم السلام وموقعهم القيادي في الأُمّة ٦٤٢

٣- اضطرار معاوية لمنح الحرية للإمام الحسن عليه السلام وأتباعه ٦٤٢
٤- عدم الاعتراف بشرعية معاوية وشرعية أوامره ٦٤٤
٥- استجابة معاوية لمطالب الإمام عليه السلام ٦٤٥
٦- استثمار الظروف لتوعية وتثقيف وتربية الأُمّة والقاعدة الموالية ٦٤٥
شهادة الإمام الحسن عليه السلام ٦٤٦
مصادر البحث ٦٤٧
الحسن السبط عليه السلام (شعر) **٦٤٩**
الفهرس ٦٥٥